المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية الدعوة والإعلام

قسم الدعوة والاحتساب

الرياض

منهج الدعوة الإسلامية في الرد على الشبهات

دراسة منهجية تأصيلية

(رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه)

إعداد وتقديم :

شميم أحمد بن عبد الحكيم

إشراف :

الأستاذ الدكتور بدر بن ناصر البدر

الأستاذ بكلية أصول الدين

قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾

(سورة النحل : الآيـــة ١٢٥).

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾

(سورة النحل : الآيـــة٣٩).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾

(سورة الأنعام : الآيـــة ٩٠).

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله – ﷺ – .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] ،

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2]،

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3].

أما بعد :[4]

فإن الناس يتهافتون على المادة واللذائذ الدنيوية وهي زائلة فانية، لا السعادة الحقيقية فيها ولا الفلاح، ويتوغلون في حطام الدنيا ويسرفون في شهواتها، ولا للقلب فيها نور ولا للنفس طمأنينة، بل شأنهم معها كالذي يشرب من ماء البحر، كلما ازداد منه شرباً كلما ازداد عطشاً .

إنّ ما يجلب السعادة والطمأنينة ويضمن النجاة والفلاح هو الرشاد السماوي والهدى الرباني ، قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [5]، فما أحوج الناس إلى هذا الهدى الرباني والرشد الإلهي ، فلأجل الدعوة إلى ذلك بُعث الرسل وأنزلت

---

(١) – سورة آل عمران : الآيــة ١٠٢ .

(٢) – سورة النساء : الآيــة ١ .

(٣) – سورة الأحزاب: الآيــة ٧٠-٧١ .

(٤) – جامع الترمذي : محمد بن عيسى سَورة الترمذي، كتاب النكاح، باب: ما جاء في خطبة النكاح، ص١٩٦ ، رقــم الحديث : ١١٠٥، ط١٤١٩هـــ-١٩٩٨م، بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض، ومجمع الزوائد : نور الدين علي بـــن أبي بكر الهيثمي ، باب خطبة الحاجة ، ٥٢٨/٤، رقم الحديث : ٧٥٣١، ط : ١٤١٢هـــ ، دار الفكر، بيروت. صححه الشيخ الألباني في كتابه : خطبة الحاجة التي كان رسول الله- ﷺ- يعلمها أصحابه، ط٤، ١٤٠٠هـــ، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٥) – سورة طــه : الآيــة ١٢٣ .

الكتب ، ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1] ، ووجب على الأمة الإسلامية حمل هذه الأمانة وتبليغ تلك الرسالة بعد نبينا محمد – ﷺ – ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[2] ، فقد ختمت النبوة بنبوته وانقطعت الرسالة برسالته ، قال تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾[3] ، وقال ﷻ : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[4] ، وقال النبي – ﷺ – " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدي ... "[5].

ولتقديم الدعوة وبلاغها للناس طريقتان رئيستان ؛ طريقة " عرض حقائق الإسلام على المدعوين بدون الردّ على شبهاتهم "، والأخرى " الردّ على الشبهات المثارة حول الدعوة والدعاة لإزالتها عن نفوس المدعوين بغية استجابتهم لدعوة الحق" ، وقد وُجد اختلاف حول الطريقة الثانية ، فاعتبرها فريق من العلماء – سيأتي ذكر بعضهم أثناء الحديث عن مشروعية الردّ عل الشبهات وحكمه إن شاء الله – منهجاً صحيحاً مشروعاً في الدعوة ، وأكد على أهميتها ، واتخذها بعضهم سبيلا في الدعوة ، وبذلوا في ذلك كثيرا من جهودهم من خلال أسلوب الجدل والحوار والتأليف ، وذهب فريق آخر من العلماء – سيأتي ذكر بعضهم أيضاً أثناء الحديث عن مشروعية الردّ على الشبهات وحكمه إن شاء الله – إلى عدم اعتبارها منهجاً صحيحاً للدعوة ابتداءً ، وأكد على الاكتفاء ببيان الحق المجرد من الرد على الشبهات .

فما الصواب في الأمر ؟

ولكل من هاتين الطريقتين مناهج متعددة ، ولكل منهج أساليب متنوعة ، فالمنهج يتعدد والأساليب تتنوع لتنوع المدعوين واختلافهم في أحوالهم وثقافاتهم وبيئاتهم ومعتقداتهم وشبهاتهم وأفهامهم وقدراتهم لاستجابة للحق ، ولذا لم ينهج القرآن منهجاً واحداً مع جميع أصناف

---

(١) – سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٢) – سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٣) – سورة المائدة : من الآية ٣ .

(٤) – سورة آل عمران : الآية ٨٥ .

(٥) – متفق عليه ، صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل ، ص٦٦٥ ، رقم الحديث: ٣٤٥٥ ، (أخرجه مسلم : ١٨٤٢) .

المدعوين، وإنما سلك مع كل صنف منهم ما يتناسب معه من المناهج بأساليبه المختلفة وأدلته المتنوعة .

فما المناهج وما أساليبها وما أدلتها التي وردت في القرآن للردّ على شبهات المدعوين إن كان الأخذ بطريقة الردّ صواباً ومشروعاً ؟ وما مناهج السلف الصالح والأئمة والعلماء في ذلك ؟

ولما تتعدد وسائل التخاطب وتتنوع وسائل الإعلام والاتصال ، وهي قد تطورت تطوراً هائلاً في هذا الزمان وما زالت في تطور وتغيير متواصل مع تقدم العلم والتكنولوجيا .

ولما كان الداعية الناجح هو الذي يواكب تطورات عصره وما يتجدد من مناهج ووسائل وأساليب مستخدماً في دعوته إلى الله ما يتوافق منها مع الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح.

ولما كان الأمر كذلك ، رأى الباحث دراسة هذا الموضوع من خلال المصادر الشرعية من الكتاب والسنة وسير الصحابة وسير السلف الصالحين بحثاً عن الحق والصواب من القولين ومناهجه وأساليبه وأدلته ليكون رسالته الدكتوراه في قسم الدعوة والاحتساب بعنوان :

منهج الدعوة الإسلامية في الرد على الشبهات

دراسة منهجية تأصيلية

وسيتحدث الباحث فيما يلي عن النقاط التالية :

(١)- أهمية الموضوع وأسباب اختياره .

(٢)- أهداف الدراسة .

(٣)- تساؤلات الدراسة .

(٤)- الدراسات السابقة .

(٥)- منهج البحث .

(٦)- تقسيم الدراسة .

(١)- أهمية الموضوع وأسباب اختياره

(أ)- أهمية الموضوع :

إن الموضوع في غاية الأهمية للداعي ، فهو عندما يبدأ بمهمته الدعوية لإبلاغ رسالة الإسلام تواجهه شبهات مختلفة الأنواع ومتعددة الألوان ، موجهة إليه وإلى ما يدعو إليه ، تثير الشك والارتياب حول صدقه وصدق ما يدعو إليه لمنع المدعوين من الاستجابة له فيما يدعو

إليه، فإن إثارة الشبهات حول الدعوة والداعي والمدعو سلاح ذو تأثير قوي يستخدمه خصوم الدعوة الإسلامية وأعداؤها من قديم الزمان ، وتأريخ دعوات الأنبياء وسير الدعاة خير شاهد على ذلك ، فهل يستعد الداعي لمواجهتها بالدليل والبرهان ويقوم بالرد عليها بغية إزالتها عن نفوس المدعوين وإفحام المخالفين المعاندين ؟ أم يكتفي ببيان الحق ولا ينشغل عنه بالردود على المخالف إذ هو إضاعة الوقت واستجلاب العداوة ؟

لقد اختلف العلماء في كيفية تعامل الداعي مع الشبهات التي تثار حول الدعوة و الداعي ، فذهب فريق إلى أن إزالة الشبهات عن نفوس المدعوين أمر لا يمكن للداعية الاستغناء عنه ، ومن ثم يلزمه التعرف على الشبهات المثارة أولاً وعلى المناهج والأساليب المناسبة للرد عليها ثانيا ليتمكن من إزالتها عن قلوب وأذهان المدعوين وإيصال الدعوة إليهم حتى ينكشف الباطل فيبتعدوا عنه ويستنير لهم طريق الحق فيرجعوا إليه فيهتدوا بهدى الله ﷻ أو تتم عليهم إقامة الحجة وتبرأ ذمة الداعي ، وقد استند – هذا الفريق – في قولهم هذا إلى أدلة نقلية وعقلية سيأتي ذكرها في الدراسة – إن شاء الله – .

وذهب فريق آخر إلى العكس من هذا القول فقال بأن الردّ على الشبهات بغية إزالتها عن قلوب وأذهان المدعوين وإيصال الحق إليهم منهج ليس بسديد ، إذ لا يأتي هذا المنهج في أغلب الأحيان بالنتائج المرجوة وإنما كثيرا ما يثير الجدلُ والنقاشُ النفورَ والعنادَ واللجاجةَ بين المتجادلين المتناظرين فيقعان في النزاع ويضيع الحق ، ولذا فالمنهج الصحيح السديد هو عرض حقائق الإسلام بدون الرد على الشبهات ، وإخراج نماذج من المسلمين تربت على حقيقة الإسلام ، فأصبحت نموذجاً تطبيقياً واقعياً لهذه الحقيقة ، يراه الناس فيحبونه ، ويسعون إلى الإكثار منه ، وهذا هو الردّ الحقيقي الذي يزيل الشبهات عن نفوس المدعوين وأذهانهم ويقربهم إلى الحق ، وقد استند هذا الفريق أيضاً في قولهم هذا إلى الكتاب والسنة والأدلة العقلية ؛ سيأتي ذكرها في الدراسة – إن شاء الله – .

ولما كانت مواجهة الشبهات في طريق الدعوة أمراً حتمياً، كان لزاماً على الداعية أن يتعرف على المناهج الصحيحة وأساليبها المتعددة وأدلتها المتنوعة للتعامل مع المدعوين، ومن ثم كان هذا الموضوع جديراً بالبحث والدراسة.

(ب)- **أسباب اختيار الموضوع** :

وقع اختياري - بفضل الله عز وجل - على هذا الموضوع بعد التردد الكثير بين موضوعات مختلفة متعلقة بالدعوة الإسلامية؛ إذ غاية ما كنت أتوخى أن أنتقي موضوعاً علمياً وجديراً بالبحث والدراسة، فكان موضوع ''منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات.. دراسة منهجية تأصيلية'' هو الذي انصب عليه الفكر بعون الله ﷻ .

وبالإضافة إلى حيوية الموضوع وجدارته، كانت هناك دوافع أخرى حفزت الباحث إلى اختياره وأهم تلك الدوافع ما يلي:

١- أن الردّ على الشبهات منهج صحيح للدعوة إلى الله حيث اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية اهتماماً بالغاً بهذا المنهج.

٢- حاجة الدعاة إلى التعرف على المناهج الصحيحة في أساليبها وأدلتها للدعوة إلى الله؛ فإن كثيراً من الأخطاء الحاصلة لدى بعض الدعاة، إنما سببها غياب المنهجية المستنيرة بنور القرآن الكريم والسنة المطهرة وسير الصحابة والسلف الصالحين.

٣ - رغبة الباحث في أن يتصل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ - وسير الصحابة والسلف الصالحين أثناء ما يقضيه من وقته الطويل وهو يكتب في موضوع لنيل درجة الدكتوراه.

٤ - عدم وجود - في علم الباحث - دراسة علمية أكاديمية تناولت هذا الموضوع.

(٢)- **أهداف الدراسة:**

يصبو الباحث في بحثه إلى تقديم دراسة منهجية تأصيلية في هذا الموضوع من خلال النقاط التالية:

١- بيان منهج القرآن الكريم والسنة النبوية في كيفية التعامل مع الشبهات أثناء عملية الدعوة إلى الإسلام.

٢- مطالعة سير الصحابة والسلف الصالحين للنظر في موقفهم مع المدعوين بشأن الردّ على شبهاتهم أثناء دعوتهم إلى الإسلام .

٣- الوصول إلى المناهج الصحيحة المشروعة في موضوع الدراسة.

٤- إبراز أسباب الشبهات ودوافع إثارتها والحديث عن أنواع الردّ عليها ومناهجه ليتمكن الدعاة من التعامل الصحيح مع الشبهات التي تعرض لهم في الدعوة إلى الله.

٥ - استخلاص المبادئ والضوابط العلمية والعملية والدروس الدعوية من خلال الدراسة.

(٣) – تساؤلات الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة على عدد من الأسئلة ذات العلاقة بموضوع البحث ، وأهمها كالآتي :

- ما مفهوم الردود ؟
- ما مشروعية الردود ؟
- ما أنواع الردود ؟
- ما أهمية الردّ على الشبهات في الدعوة الإسلامية ؟
- ما حكم الردّ على الشبهات ومشروعيته ؟
- ما أسباب الشبهات المثارة على الدعوة الإسلامية ودوافعها ؟
- ما مظاهر الشبهات المثارة على الدعوة الإسلامية ؟
- ما آثار الشبهات على موضوع الدعوة ؟
- ما آثار الشبهات على الداعية والمدعو ؟
- ما منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء القرآن والسنة ؟
- ما منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء سير السلف الصالح ؟
- ما أوجه الاستفادة من المناهج المشروعة في الردّ على الشبهات في العصر الحاضر ؟
- ما خصائص منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات ؟
- ما ضوابط منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات ؟

(٤)– الدراسات السابقة :

قد اطلع الباحث – بتوفيق الله جلّ شأنه – على فهرس الرسائل العلمية الجامعية بمكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ومكتبة الملك فهد الوطنية ، ومكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ومكتبة جامعة الملك سعود ، وعمادة البحث العلمي بجامعة الإمام ، وعلى دليل الرسائل العلمية بالجامعة الإسلامية (المناقشة والمسجلة ١٣٩٦–١٤٢٠ هـ) الذي أعدته قاعدة المعلومات بالجامعة ، ودليل الرسائل العلمية الجامعية الذي أصدره مركز البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الشؤون الإسلامية ؛ فتوصل إلى عدم وجود دراسة علمية متخصصة في هذا الموضوع، مما يعني الحاجة الملحة للقيام بدراسة هذا الموضوع دراسة علمية تأصيلية .

وهذا لا ينفي وجود بعض الكتابات المفيدة حول هذا الموضوع ولكنها إما كتابات جانبية، أو جزئية، أو ضمنية، وقد اطلع الباحث – بتوفيق الله جلّ شأنه – على الدراسات الآتي ذكرها، التي تطرقت إلى هذا الموضوع ، وأشار بعضها إلى أهمية القيام بدراسته دراسة علمية متخصصة :

أولاً: الرسائل العلمية:

– **الدراسة الأولى** : أساليب المشركين في الصدّ عن الدعوة في العهد المكي ومظاهرها في الحاضر[1]:

قسم الباحث رسالته بعد المقدمة المنهجية إلى فصل تمهيدي وثلاثة فصول وخاتمة ، وكل فصل من الفصول الأربعة يشتمل على مبحثين ، وكل مبحث على مطالب ومقاصد عدة .

تحدثت هذه الدراسة في فصلها التمهيدي عن الوحي وفترته ومرحلة الدعوة السرية والجهرية وموقف قريش من الدعوة ، وفي فصلها الأول عن أساليب المشركين القولية والعملية في العهد المكي ؛ من ترغيب وترهيب، وتشويه وتعجيز، وتخذيل ومقاطعة، ومنع من الهجرة واعتداءات جسدية، ومحاولة قتل نبي ...الخ، ثم تناولت – في فصلها الثاني – حديثاً عن طرق مواجهة أساليب المشركين بالتفصيل حيث يشتمل هذا الفصل على مبحثين ، تحدث الباحث في أحدهما عن المنهج القولي وفي الثاني عن المنهج العملي للمواجه ، أما الفصل الثالث ؛ وهو الفصل الأخير، فخصه للحديث عن مظاهر أساليب مشركي مكة في العصر الحاضر وطرق مواجهتها.

وجه العلاقة بين الدراستين:

أما علاقة هذه الدراسة بدراستي فتقتصر بالجزئية المتعلقة بأهمية الرد على الشبهات التي تحدث عنها في المبحث الثاني ضمن الفصل الثالث بعنوان ''ردّ الشبهات وتفنيدها'' من ص٥٥٦ إلى ص٥٦٢ .

– **الدراسة الثانية** : أساليب خصوم الدعوة في العهد المدني ومظاهرها في العصر الحاضر[2]:

قسم الباحث رسالته إلى فصل تمهيدي وثلاثة أبواب وخاتمة ، والفصل التمهيدي يشتمل على أربعة مباحث ، وبها مطالب عدة ، وكل من الباب الأول والثاني يشتمل على أربعة فصول،

---

(١) – رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير ، للدكتور حمزة بن سليمان الطيار ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية الدعوة والإعلام ، قسم الدعوة والاحتساب ، عام ١٤١٦هـ .

(٢) – رسالة علمية أعدها د. عبد اللطيف بن عبد العزيز آل الشيخ لنيل درجة الدكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية الدعوة والإعلام ، قسم الدعوة والاحتساب ، عام ١٤١٧هـ .

وبها مباحث ومطالب عدة ، أما الباب الثالث ؛ وهو الباب الأخير ، فقسمه الباحث إلى فصلين ، والفصل الأول يشتمل على مبحثين ، والفصل الثاني يشتمل على ثلاثة مطالب.

وتناولت هذه الدراسة في فصلها التمهيدي نبذة تعريفية عن الشرك، ونبذة تعريفية وتأريخية عن خصوم الدعوة من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين ، وتحدثت في بابها الأول- بفصوله ومباحثه – عن أساليب خصوم الدعوة القولية والعملية في العهد المدني ؛ من الترغيب ، وبث الإشاعات ، والشماتة ، ورباط الجأش ، وإيذاء النبي – ﷺ –، والاغتيال ، والقوة ، والغزوات، والتحالف والتحزب ، والتآمر وبث الفتنة بين المؤمنين ، والمجاهرة بالعداوة للدين وأهله ، والطعن والتشكيك في النبوة وصاحبها، والدخول في الإسلام ثم الارتداد عنه، ومحاولة قتل النبي– ﷺ –، والغدر ونكث العهود ، واستغلال مصائب المسلمين ، والمجادلة والتعالي على الناس وادعاء الخصوصية ، والخداع والكذب ، والتشكيك وإيجاد البلبلة في صفوف المؤمنين ، والتثبيط والتخذيل ، ثم تحدثت في الباب الثاني عن مواجهة هذه الأساليب بالتفصيل حيث اشتمل هذا الباب على أربعة فصول ، أما الباب الثالث ؛ وهو الباب الأخير ، فخصه الباحث للحديث عن مظاهر تلك الأساليب في العصر الحاضر وكيفية مواجهتها .

وجه العلاقة بين الدراستين:

أما علاقة هذه الدراسة بدراستي فتقتصر بالجزئية المتعلقة بأهمية الرد على الشبهات التي تحدث عنها الباحث في الصفحات التالية :

من ص٣٠٨ إلى ص٣٠٩ ، ومن ص٣٥٠ إلى ص٣٥١ ، ومن ص٣٩١ إلى ص٣٩٤ .

– **الدراسة الثالثة**: الحوار في دعوة النبي – ﷺ – دراسة دعوية[1]:

قسم الباحث رسالته بعد المقدمة المنهجية إلى ستة فصول بالإضافة إلى الفصل التمهيدي وخاتمة على النحو التالي:

الفصل التمهيدي : ويشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث ، تحدث فيها الباحث عن مفهوم الحوار ومكانته في الدعوة ، ثم انتقل إلى الفصل الأول الذي عنونه : " أهداف الحوار النبوي وموضوعاته "، وقسم هذا الفصل إلى مبحثين ، تحدث في المبحث الأول عن أهداف

---

(١) – رسالة علمية مقدمة من د. عبد الرحمن بن يوسف الملاحي لنيل درجة الدكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الدعوة والإعلام ، قسم الدعوة والاحتساب ، عام ١٤٢١هـ .

الحوار ، وفي المبحث الثاني عن موضوعاته ، ثم انتقل إلى الفصل الثـاني ، وقسـمه إلى أربعـة مباحث، تحدث فيها عن صفات المحاور ، ذكر فيها : العلم والفهم الدقيق ، والبلاغة والبيـان ، والتجرد والإنصاف ، والحلم والأناة ، ثم انتقل إلى الفصل الثالث ، وقسمه إلى أربعة مباحث ، تحدث فيها عن أساليب الحوار في دعوة النبي – ﷺ – ، ثم انتقل إلى الفصل الرابع ، وقسمه إلى خمسة مباحث ، تحدث فيها عن معوقات نجاح الحوار النبوي ، ثم انتقل إلى الفصل الخـامس ، وقسمه إلى ثلاثة مباحث ، تحدث فيها عن آثار الحوار النبوي ، ثم انتقل إلى الفصل السـادس ؛ وهو الفصل الأخير ، وقسمه أيضاً إلى ثلاثة مباحث ، وتحدث فيها عن سمات الحـوار النبـوي وأوجه الاستفادة منها .

وجه العلاقـة بين الدراستين:

أما علاقة هذه الدراسة بدراستي فتقتصر بالجزئية المتعلقة بأهمية الرد على الشبهات التي تقع في المطلب الثالث ما بين ص١٦٨ إلى ص١٩٩، حيث تحدث الباحث فيه عـن معـنى الشـبهة ومقاصد إثارتها وخطورتها ، كما ذكر بعض الاتهامات الكاذبة التي وجهها أعـداء الـدعوة إلى شخصية النبي – ﷺ – لتشويه سمعته – ﷺ – ، وبعض الشبه التي أثارها الأعداء حول القـرآن الكريم ، وأكدّ على أهمية دفع الشبهة والردّ عليها ، ولكن حديثه في الموضوع وجيز جداً حيـث لم يذكر الردّ وطرقه وأساليبه لجميع الأمثلة التي ذكرها من الشبهات ، وغالباً ما استشهد به من القرآن الكريم أو مواقف النبي – ﷺ – مما له علاقة بالحوار من جهة أو أخرى ، وذلك لكـون الحوار هو موضوع الرسالة .

ثانياً: المؤلفات الأخرى :

عثر الباحث في التراكمات المعرفية على العديد من الكتابات ، من أهمها :

١- الردّ على المخالف من أصول الإسلام ومراتب الجهاد[1] : الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، يقع الكتاب في "٩٥" صفحة ، ويشتمل على ستة مباحث وخاتمة ، تحدث المؤلـف فيها عن تأريخ الرد على المخالف وأدلته ، وأنواع المخالفة والرد عليها ، وشروط وآداب الرد ، وظاهرة التخذيل ، ومضار السكوت عن المخالف ، وثمرات القيام بهذه الوظيفة الشرعية ، ثم ختم الكتاب بخلاصة الدراسة.

---

(١) – ط١ ، ١٤١٤هـ ، دار العاصمة ، الرياض .

وتوجد علاقة جزئية بين هذه الدراسة والدراسة المقترحة حيث تحدث المؤلف في المبحث الأول عن مشروعية الردّ على المخالف وأدلته .

٢- قواعد ومنطلقات في أصول الحوار وردّ الشبهات[١] : الدكتور عبد الله بن ضيف الله الرحيلي ، يقع الكتاب في "٧٢"صفحة ، ويشتمل على قواعد ومنطلقات في أصول الحوار والجدل وردّ الشبهات ، ذكر المؤلف أربعاً وثلاثين قاعدة ومنطلقاً ، وتحدث عنها باختصار ، وسيستفيد الباحث - إن شاء الله - من بعض القواعد المتعلقة بأصول وآداب ردّ الشبهات .

٣- أصول الدعوة[٢] : الدكتور عبد الكريم زيدان ، يشتمل هذا الكتاب على أربعة أبواب ، وكل باب مقسم إلى عدة فصول ، وكل فصل إلى عدة مباحث ، ويقع الكتاب في"٥١٦"صفحة.

وتحدث فيه المؤلف عن موضوع الدعوة ، والداعي ، والمدعو ، ووسائل الدعوة وأساليبها ، وخصص المبحث الثاني في الفصل الثاني من الباب الرابع للحديث عن أسلوب "إزالة الشبهات"، وتحدث أولاً عن المقصود بالشبهة ، ثم عن مصدر الشبهات وأنواعها ، ثم عن موقف الداعي منها ؛ بيّن في ذلك بأن الداعي مضطر إلى تفنيد الشبهات وإظهار زيغها وبطلانها لأنها موانع تمنع المدعوين من رؤية الحق ، ثم ذكر بعض الأمثلة للشبهات المتعلقة بشخص الداعي والردّ عليها ، والحديث في هذا الموضوع يقع ما بين ص٤٢٦ إلى ص٤٣٦ .

٤- مناهج الجدل في القرآن الكريم[٣]: الدكتور زاهر عواض الألمعي ، يقع هذا الكتاب في "٤٧٩"صفحة ، وأصله رسالة علمية ، حصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه ، ويشتمل على أربعة أبواب .

تحدث المؤلف في الباب الأول عن مدخل إلى علم الجدل ، وفي الباب الثاني عن الاستدلال القرآني وعلاقته بالجدل ، وفي الباب الثالث عن الفرق بين الاستدلال القرآني والاستدلال اليوناني، والباب الرابع عن مواضع الجدل في القرآن الكريم ، وتحدث في هذا الباب والباب الثالث عن مناهج القرآن الكريم وأساليب استدلاله في جدال المخالفين والردّ عليهم ، وله علاقة جزئية بدراستي المقترحة .

---

(١) - ط١ ، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ، دار المسلم ، الرياض .

(٢) - ط٤ ، ١٤١١هـ -١٩٩٠م ، مؤسسة الرسالة بيروت .

(٣) - ط٣ ، ١٤٠٤هـ ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض .

٥- الإسلام في قفص الاتهام[1] : شوقي أبو خليل ، يقع الكتاب في "٢٨٧" صفحة.

جمع المؤلف في هذا الكتاب الشبهات التي بثها المستشرقون المتعصبون ، والصليبيون الحاقدون ، ثم قام بالرد عليها بالعقل والواقع مستشهدا بالنقل أيضا من الكتاب والسنة ، معتقداً بأن الردّ على الشبهات لابد منه لكشف الباطل وبيان الحق .

النتائج والجديد الذي سيأتي به الباحث :

١- سيتعرض الباحث - إن شاء الله - لمناقشة الآراء المتعلقة بحكم منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات بغية الوصول إلى رأى سديد في ضوء الكتاب والسنة والمصادر الشرعية الأخرى ، وهي من لبّ البحث في الدراسة المقترحة ، وهذا مما لم تتعرض له الدراسات والكتابات السابقة .

٢- ستتعرض هذه الدراسة لأسباب الشبهات ودوافع إثارتها والآثار الناتجة عنها وأنواع الردّ عليها ومناهجه ، وهذا أيضاً مما لم تتعرض له الدراسات والكتابات السابقة .

٣- سيقوم الباحث - إن شاء الله - باستنباط واستخلاص مبادئ وضوابط علمية وعملية من المصادر الشرعية للردّ على الشبهات ، وهذا أيضاً مما لم تتناوله الدراسات والكتابات السابقة .

ومن هنا، بالنظر إلى ما أسلفنا من الكلام، تتبين أهمية الموضوع وجدارته للبحث والدراسة.

(٥)- منهج البحث :

نظراً لتنوع مكونات الدراسة يحتاج الباحث إلى استخدام منهجين علميين ، وهما:

١- المنهج الاستقرائي[2]

٢- المنهج الاستنباطي[3].

---

(١) - ط٤ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، دار الفكر ، دمشق .

(٢) - هو "تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها " أو هو "انتقال الفكر من الحكم على الجزئي إلى الحكم على الكلي الذي يدخل تحته" ، (انظر : ضوابط المعرفة : د. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ص١٩٠ ، ط٢، ١٤٠١هـ، دار القلم ، دمشق) .

(٣) - هو "الطريقة التي يقوم فيها الباحث ببذل أقصى جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص بهدف استخراج مبادئ (معينة) مدعمة بالأدلة الواضحة" ، (أنظر : المرشد في كتابة الأبحاث : د. حلمي فودة ، ود. عبد الرحمن صالح ، ص٤٢، ط٤ ، ١٤١١هـ،دار الشروق ، دمشق) .

ويتم توظيف هذين المنهجين على الدراسة من خلال ما يلي :

١- استقراء لأدلة الفريقين من كل من نوعي النصوص ؛ التي تتناول الردّ على الشبهات في الدعوة والتي تعرض حقائق الإسلام مجردة من الردّ على الشبهات ، رغبة في الوصول إلى منهج صحيح سديد في الدعوة والتبليغ .

٢- الكشف عن دواعي إثارة الشبهات وأسبابها وحقائقها والآثار الناتجة عنها .

٣- الكشف عن معاني النصوص المختارة ودلالاتها من خلال استقصاء المصادر الأصلية من كتب ترجمة معاني القرآن الكريم وتفاسيرها .

٤- استنباط واستخلاص المبادئ والضوابط والدروس والتوجيهات الدعوية من خلال الدراسة لإفادة الدعاة والمدعوين .

٥- ذكر الأدلة والشواهد النقلية والعقلية أثناء معالجة الموضوع في الدراسة .

إضافة إلى هذه الخطوات العملية ، سيقوم الباحث بتوثيق كل ما يرد في الدراسة من عزو الآيات إلى مواضعها في السور ، وتخريج الأحاديث ، ونسبة الأقوال والأفكار لمصادرها، وترجمة أبرز الأعلام الذين لهم صلة مباشرة بموضوع الدراسة .

(٦)- تقسيم الدراسة :

- **المقدمة** ، وتشمل :

١- التعريف بمفردات عنوان البحث .

٢- أهمية الموضوع وأسباب اختياره .

٣- أهداف الدراسة .

٤- تساؤلات الدراسة .

٥- الدراسات السابقة .

٦- منهج البحث .

٧- تقسيم الدراسة .

- **تمهيد** :
- المبحث الأول : مفهوم الردود ومشروعيته .
- المبحث الثاني : أنواع الردود .

- **الفصل الأول**: مفهوم منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات وأهميته وحكمه .
- المبحث الأول : مفهوم منهج الرد على الشبهات وأهميته في الدعوة إلى الله .
- المبحث الثاني : حكم الرد على الشبهات ومشروعيته في الدعوة الإسلامية .

– **الفصل الثاني** : أسباب إثارة الشبهات على الدعوة الإسلامية ودوافعها ومظاهرها.
- المبحث الأول : أسباب إثارة الشبهات على الدعوة الإسلامية ودوافعها.
- المبحث الثاني : مظاهر الشبهات المثارة على الدعوة الإسلامية .

– **الفصل الثالث** : خصائص منهج الدعوة الإسلامية في الرد على الشبهات وضوابطه .
- المبحث الأول : خصائص منهج الدعوة الإسلامية في الرد على الشبهات .
- المبحث الثاني : ضوابط منهج الدعوة الإسلامية في الرد على الشبهات .

– **الفصل الرابع** : آثار الشبهات على الدعوة الإسلامية .
-المبحث الأول : آثار الشبهات على موضوع الدعوة .
-المبحث الثاني : آثار الشبهات على الداعية والمدعو .

– **الفصل الخامس** : منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات وأوجه الاستفادة منها في العصر الحاضر .
– المبحث الأول : منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء القرآن والسنة .
– المبحث الثاني : منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء سير السلف الصالح.
– المبحث الثالث : أوجه الاستفادة من المناهج المشروعة في الردّ على الشبهات في العصر الحاضر .

– **الخاتمة** : وتشتمل على أهم نتائج البحث وتوصياته .

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله الذي وفقني لاختيار هذا الموضوع والكتابة فيه ، فهو صاحب الفضل وأهل كل ثناء ، أسأله تبارك وتعالى أن يتقبله مني وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

ثم امتثالاً لقول النبي – ﷺ –: " لا يشكر الله من لا يشكر الناس"[1]، أبدأ بالشكر والتقدير لوالدي العزيزين الكريمين إذ بذلا لي الكثير حتى وصلت إلى هذه المرحلة من العمر والتعليم ، وصبرا على هذا الفراق الطويل رغم حاجتهما الشديدة إليّ فيعانيان من الشيخوخة والمرض ، جمع الله لهما بين الأجر والشفاء ، وأحسن مثوبتهما في الدنيا والآخرة .

واعترافاً بالفضل والإحسان ، أقدم جزيل شكري وبالغ تقديري لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور بدر بن ناصر البدر الذي تجشم عناء الإشراف على الرسالة فحظيت بنصائحه القيمة وتوجيهاته العلمية وإرشاده إلى كل ما يخدم البحث ، فأسأل الله تعالى أن يجزيه عني كل الخير ويحفظه ويرعاه ، ويسدد مسعاه ، ويبارك له في وقته وجهده وعمره .

كما أتقدم بالشكر والتقدير لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على ما قدمت لي ولبقية طلاب الوفود الإسلامية من منح دراسية للتفقه في الدين ، والحصول على درجات علمية متخصصة في مجالات مختلفة ، فجزى الله معالي مدير الجامعة والقائمين عليها عني وعن طلاب الوفود خير الجزاء ، كما أشكر كلية الدعوة والإعلام ، والمسؤولين فيها وعلى رأسهم فضيلة عميد الكلية ووكيليه شكراً جزيلاً على ما يبذلونه لطلاب العلم من علم وجهد وإعانة وتوجيه .

وأقدم الشكر والعرفان إلى كل من وقف معي وساعدني في هذا البحث من الأساتذة الفضلاء وزملائي الأحباء ، وإن كنت لم أذكر أسماءهم فذلك خشية أن يفوتني منهم أحد له علي فضل .

هذا ، والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء السبيل ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

---

(١)– سنن أبي داود : أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، كتاب الأدب، باب : في شكر المعروف، ص٥٢٤، رقم الحديث ٤٨١١، ط١٤١٩هـ – ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض.

التـــمـــهـــيـــد

المبـــحث الأول : مفهوم الردود ومشروعيتها:

المطلب الأول : مفهوم الردود.

المطلب الثاني : مشروعية الردود.

المبـــحث الثاني : أنواع الردود :

المطلب الأول : أنواع الردود من حيث المشروعية والحكم .

المطلب الثاني : أنواع الردود من حيث المردود عليه .

المبـــحث الأول: مفهوم الردود ومشروعيتها

المطلب الأول : مفهوم الردود :

تعريف الـــرّد :

في اللغة : ''الرّد'' جمعه ''الردود'' ، وذكر علماء اللغة معاني عديدة لهذه الكلمـــة ، منـــها – مثلا – الدخل ، والمردود ، والجواب ، والإرجاع ، والرديء ، والزائف .

– و''ردَّ '': (ردّاً، ومَرَدّاً، ومردوداً، ورِدِّيدَى) مَنَعَ، وأَرجَعَ، وأطبَقَ، وأرسلَ جواباً، وأجاب. ويقال :

- ردّ عليه الشيء إذا لم يقبله ، وكذا إذا خَطَّأَه.
- وردَّه : رَدّاً ، وترداداً ، ورِدَّةً : منعه وصرفه .
- وردَّه : أرجعه ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴾[1].
- وردَّه إليه : أعاده .
- وردَّه على عَقِبِهِ : دفعه .
- وردَّ كيده في نحره : قابله بمثل كيده .
- وردَّ عليه : أجابه .[2]

واشتقاقات مادة (ردد) عديدة[3] منها – مثلا – :

- الارتداد : الرجوع ، وارتدّ : رجع . يقال : ارتدّ على أثره ، وارتدّ على طريقه، وارتدّ عن دينه : إذا كفر بعد إسلامه .
- والردّة : هيئة الارتداد ، والرجوع إلى الكفر بعد الإسلام ، وامتلاء الضرع من اللبن قبـــل النِّتاج .

---

(1) – البقرة: من الآيـــة ١٠٩ .

(2) – مختار الصحاح : الإمام محمد بن أبي بكر الرازي ، ص٢٣٩ ، ط : دار القلم ، بيروت ، لبنان .

– و المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، ص٣٣٧ ، ط : دار الدعوة ، استانبول ، تركية .

(3) – أنظر : المرجعين السابقين في صفحتيهما المذكورتين ، ومعجم مقاييس اللغة : ابن فارس ، ٣٨٦/٢ .

– والاسترداد : الاسترجاع ، يقال : استردّه : أي طلبه ، وسأله ردَّه .

– والمردود : كما في الحديث : '' من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ ''[1] ، قال أهل اللغة : الردّ هنا بمعنى المردود[2] ، ويأتي بمعنى المرأة المطلقة ، وجاء في الحديث أن النبي – ﷺ – قال لسراقة بن مالك : '' ألا أدلكم على أفضل الصدقة ، ابنتك مردودة إليك ، ليس لها كاسب غيرك ''[3] .

– والأردُّ : الأنفع ، يقال : هذا أردُّ من هذا .

في الاصطلاح عند الفرضيين : صرف ما فَضُلَ عن فروض ذوي الفروض ، ولا مستحق له من العصبات إليهم بقدر حقوقهم[4] .

والمفهوم المراد من ''الردّ'' في هذه الدراسة هو المستفاد من بعض معانيه في اللغة ، وهو : عدم القبول ، والدفع ، والجواب ، والتخطئة ، أي : عدم قبول الشبهات والجواب عليها ، لدفعها وإزالتها ببيان بطلانها وكشف زيغها ، وإثبات الحق فيها .

وقد قام كثير من علماء الأمة بالردّ على الشبهات لبيان بطلانها وكشف زيغها وإثبات الحق فيها ، يقول ابن القيم – رحمه الله – في موقف أهل السنة من تخطئة البدع والردّ عليها : ''واشتدَّ نكير السلف والأئمة لها ، وصاحوا بأهلها ؛ من أقطار الأرض وحذَّروا فتنتهم أشد

---

(1) – صحيح البخاري : الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، كتاب الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، رقم الحديث : ٢٦٩٧ ، ص٥١٤ ، ط : ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية، الرياض ،

– وصحيح مسلم : الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، كتاب الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة، وردِّ محدثات الأمور ، ص٧١٤ ، رقم الحديث : ١٧١٨ ، ط : ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية، الرياض .

(2) – شرح الأربعين النووية في الأحاديث النبوية : الإمام أبو زكريا يحي بن شرف النووي ، ٢٤/١ ، رقم الحديث : ٥، ط٢ ، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م ، دار الصحابة ، طنطا ، مصر .

(3) – سنن ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني، كتاب الأدب ، باب : بر الوالد والإحسان إلى البنات، ص ٣٩٤ ، رقم الحديث : ٣٦٦٧ ، ط : ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية ، الرياض.

(4) – التعريفات : علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، ص١٤٧ ، ط١، ١٤٠٥هـ ، دار الكتاب العربي، بيروت .

التحذير ، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش ، والظلم ، والعدوان ، إذ مضرة البدع ، وهدمها للدين ، ومنافاتها له : أشد "[1].

فالمراد هو الردّ على أهل الشهوات والشبهات لنقض شبههم وكشف فتونهم وتعريتهم ، وهذا كما يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ، " هو من حق الله على عباده ، وحق المسلمين على علمائهم ، في ردِّ كل مخالفٍ ومخالفته ، ومضلٍ وضلالته ، ومخطئ وخطئه ، وزلة عالم وشذوذه ، حتى لا تتداعى الأهواء على المسلمين تَعشُوا فساداً في فطرهم ، وتَقصِمُ وحدتهم ، وتؤول بدينهم إلى دينٍ مبدَّل ، وشرع محرَّف ، وركامٍ من النحل والأهواء .

وهذا سَير على أصل الاعتقاد ، ووصل لحياة السلف الجهادية الدفاعية ، واتصال بها ، باللسانين : القلم واللسان ، في تاريخهم الحافل الطويل "[2].

---

(1) – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن القيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقى ، ١ / ٣٧٢، ط٢، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، وزاد المعاد في هدي خير العباد : الإمام شمس الدين ، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر ابن القيم ، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط وشعيب الأرنؤوط ، ٢٠٠/٢ ، ط١، ١٣٩٩هـ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية .

(2) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد ، ص١٣ ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، دار العاصمة ، الرياض .

المطلب الثاني : **مشروعية الردود:**

سأتحدث فيما يلي عن مشروعية الردود في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الصحابة – ﷺ – إجمالا حيث سيأتي الحديث مفصلاً عن مشروعية الردّ على الشبهات وأدلتها في الفصل الأول – إن شاء الله تعالى – :

أولاً: القرآن الكريم:

إن الوظيفة الرئيسة التي لأجلها بعث الرسل ونزلت الكتب هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور ؛ وذلك ببيان الحق وكشف الباطل ، يقول الله ﷻ عن كتابه الأخير : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1] ، وذلك ببيان طريق الحق والهدى وكشف الباطل والضلال حيث يقول ﷻ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2]، أي "نوضحها ونبينها ، ونميز بين طريق الهدى من الضلال ، والغي والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون ، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، الموصلة إلى سخط الله وعذابه ، فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت ، أمكن اجتنابها، والبعد منها ، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة ، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل" [3].

ويقول تعالى عن وظيفة الرسل :﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[4] ، وذلك ؛ أي دعوة الرسل إلى عبادة الله وحده واجتناب الطاغوت، ببيان الخلاف وإظهار الحق من الباطل ، قال تعالى ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾[5] ، فقول الله ﷻ ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ متعلق بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ﴾ ، على أحد التفسيرين ، فيكون المعنى : بعثناه" ليـــبين لهم الذي اختلفوا فيه ..."[6].

---

(1) – سورة الإسراء : من الآيـــة ٩.

(2)– سورة الأنعام : الآيـــة ٥٥.

(3)– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، ص٢٢٠ ، ط٦ ، ١٤١٧هـــ ، ١٩٩٧م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(4)– سورة النحل : من الآيـــة ٣٦.

(5)– سورة النحل :الآيـــة ٣٩.

(6)– مجموع الفتاوى : ٤٩١/١٦، و١٧٤/١٩.

ويؤيد هذا الوجه من التفسير قول الله سبحانه تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[1] .

فبيان الخلاف بإظهار الحق من الباطل وظيفة رئيسة من وظائف بعثة الرسل، ومقصد عظيم من مقاصد نزول الكتب ؛ لتزول عن الأمة غشاوة الخلاف الطائش ، والاختلاف الجائر[2] .

ولهذا نجد القرآن الكريم كثيراً ما يستخدم أسلوب الجدل والمحاجة ، وإقامة الحجة والبرهان للردّ على الباطل وإزالة الشبه والخلاف ، وإحقاق الحق وإثبات الصواب .

قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4].

يقول الجويني[5] بعد ما ذكر بعض النصوص من ضمنها هاتان الآيتان :

" وهذه الألفاظ عموم في التوحيد والشريعة ، وهي أيضاً سيرة الرسل - عليهم السلام - مع أممهم ، وسيرة رسولنا - صلى الله عليه وسلم - ، وسيرة علماء الصحابة - رضي الله عنهم - بعده ، ومن بعدهم من التَّابعين وأتباعهم ، إلى يومنا هذا .

وعليه عادة العقلاء في أديانهم ، ومعاملاتهم ، ومعاشراتهم ".

---

(1) - سورة الزخرف : الآيــة ٦٣.

(2) - الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٢٢ ، ط١، ١٤١٤هـــ ، دار العاصمة ، الرياض .

(3) -سورة النحل : الآيــة ١٢٥.

(4) - سورة البقرة : الآيــة ١١١.

(5) - شيخ الشافعية ، إمام الحرمين ، أبو المعالي ، عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني ، ثم النيسابوري ، ضياء الدين ، الشافعي ، صاحب التصانيف ، ولد في أول سنة تسع عشرة وأربع مئة ، درس بنظامية نيسابور ، واستقام أمره هناك ، وبقي على ذلك ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع ، مسلما له المحراب والمنبر والخطبة والتدريس ، ومجلس الوعظ يوم الجمعة ، وظهرت تصانيفه ، وحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة ، كان يقعد بين يديه نحو من ثلاث مئة ، توفي في الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، سنة ثمان وسبعين وأربع مئة، (سير أعلام النبلاء : الذهبي ٤٧٦/١٨ ، ٤٧٠ ، ٤٦٨).

وقال أيضاً : '' فإذا رأى العالم مثله ، يزل ويخطئ في شيء من الأصول والفروع ، وجب عليه من حيث وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : دعاؤه عن الباطل وطريقه إلى الحق وطريق الرَّشَدِ والصَّواب فيه ، فإذا لَحَّ في خطابه ، وقوَّى على المحقِّ شبهته ؛ بما أمكنه من طريق البرهان وحسن الجدال ، فحصل – إذ ذاك – بينهما المجادلة من حيث لم يجد بدّاً منها في تحقيق ما هو الحق ، وتمحيق ما هو الشبهة والباطل .

وصار بذاك بهذا المعنى الجدال من آكد الواجبات ، والنظر من أولى المهمات ، وذلك يعم أحكام التوحيد والشريعة ''[1].

'' وباستقراء الوجوه والنظائر في آيات القرآن الكريم في هذا المجال ، نجد ورودها على وجوه ثلاثة :

الوجه الأول :

آيات في الرَّدِّ على صنوف المخالفين من الدَّهريين ، والصَّابئة ، والكفَّار ، والمشركين ، والمنافقين ، واليهود ، والنَّصارى ، والمبتدعين ، وغيرهم .

وإقامة الحجج والبراهين ، على وجود الله تعالى ، وعلى وحدانيته في ربوبيَّته ، وألوهيَّته ، وأسمائه وصفاته ، وعلى البعث ، وعلى النُّبوَّة والرِّسالة ...

ومنها مجادلات الأنبياء والرُّسل لأممهم ، والرد على المنكرين والمتكبرين عن قبول الحق منهم، وفي مجالات متعددة .

الوجه الثاني :

ما يأتي على ألسنة الكافرين من الشبه الباطلة ، والدعاوى الكاذبة ، فيردها سبحانه بالحجة والبرهان ، والآية والسُّلطان .

وأول من جادل بالباطل ، فقاس قياساً فاسداً : إبليس فيما قال الله عنه : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[2].

---

(1) – الكافية في علم الجدل : عبد الملك الجويني إمام الحرمين ، تحقيق وتعليق : الدكتورة فوقية حسين محمـــود ، ص٢٤ ، ط: ١٣٩٩هـــ – ١٩٧٩م ، مطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركاه ، القاهرة .

(2) – سورة الأعراف : من الآيـــة ١٢ .

الوجه الثالث :

ما يأتي على طريق الحوار والاسترشاد ، وأول من سنَّ ذلك : ملائكة الرحمن – عليهم السلام – قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] ''[2].

ونجد في القرآن الكريم آيات كثيرة جاءت تثبت القائمين بوظيفة الردود والمحاجَّة لحراسة الدين وإقامته ، وتأمرهم بالصبر والاستقامة على ما ينالهم من أذى المخالفين .

قال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[3] .

ثانيا: **السنة** :

مشروعية الردود على الضلالة والمخالفة الناشئة بالشبهة أو الشهوة ؛ لبيان الحق وإبطال الباطل ، ثابتة بالسنة القولية والفعلية والتقريرية ، أذكر فيما يلي أمثلة على ذلك :

(**١**)– ردّ النبي – صلى الله عليه وسلم – على التميمي الذي قال له يوم حنين وهو يعطي الناس : يا محمد '' اعدل '' ، فأنكر النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله وردّ عليه قائلا : ''ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ، لقد خبت وخسرت إذا لم أكن أعدل ، فقال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق ، فقال معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي...''[4] .

(**٢**)– مجادلة النبي – صلى الله عليه وسلم – وفد نصارى نجران ودعوته لهم إلى المباهلة لكشف العقيدة الباطلة وتصحيح الفهم الخاطئ وبيان الحق والصواب : لما بدأ الحديث بين النبي – صلى الله عليه وسلم – والوفد، وسألهم وسألوه، ولم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له ما تقول في عيسى – عليه السلام –، فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، فيسرنا إن كنت نبياً أن نعلم ما تقول فيه، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى – عليه السلام –،

---

(١)– سورة البقرة : من الآيـــة ٣٠.

(٢)– الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٢٤ ،٢٥.

(٣)– سورة آل عمران : الآيـــة ١٨٦.

(٤)– صحيح مسلم : كتاب الزكاة ، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم ، رقم الحديث: ١٠٦٣.

فأصبح الغد وقد أنزل الله ﷻ : " ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1] ، فأبوا أن يقروا بذلك ، فلما أصبح رسول الله الغد بعدما أخبرهم الخبر، دعاهم إلى المباهلة فكرهوا ملاعنــته، وحكّمه شرحبيل فحكم عليهم – ﷺ – حكماً وكتب لهم كتاباً، ثم رجع الوفد بالكتاب[2] .

(٣) – ردّ النبي – ﷺ – على عثمان بن مظعون – رضي الله عنه – التبتل لتصحيح الفهم الخاطئ؛ فعن سعد بن أبي وقاص قال : " ردَّ رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا "[3] .

وقد ردّ النبي – ﷺ – مجموعة كبيرة من الأقوال ، والأفعال الشركية ، والبدعية ، والمنكرة ، سواء كانت بحضرته – ﷺ – أم بلغته ، وقد تنوعت المواقف النّبوية المشرّفة في محاصرة أهل الأهواء والبدع ، وإيقاع أنواع من العقوبات بهم ، في قالب هجر المبتدع ، والإعراض عنه بالكلية ، والبراءة من بدعته وفجوره ، ومن مفردات هذه العقوبات :

-عدم مجالسته .

- الابتعاد عن مجاورته .

- ترك توقــيره .

- ترك مكالمته .

- ترك السلام عليه .

- ترك التسمية له .

- عدم بسط الوجه له .

- عدم سماع كلامه وقراءته .

- عدم مشاورته.

---

(١) – سورة آل عمران : الآيــة ٥٩ – ٦١ .

(٢) – البدايــة والنهايــة : إسماعيل بن عمر بن كثير، ٥/٥٤-٥٥، ط: مكتبة المعارف، بيروت، بدون رقم الطبع وتاريخه.

(٣) – صحيح البخاري، كتاب النكاح ، باب : ما يكره من التبتل والخصاء ، ص١١٠٢ ، رقم الحديث : ٥٠٧٣.

كما أن السنة شاهدة من وجه آخر على مدح القائمين بهذا الواجب ، وأنهم هم : العدول، المصلحون ، الغرباء ، وأن عملهم من الجهاد ، وواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومن هذه النصوص : حديث أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم "[1] .

بل بلغ الحال أن النبي – صلى الله عليه وسلم – ردَّ الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلف ؛ وذلك أنه لما قال المشركون ، عن راحلة النبي – صلى الله عليه وسلم – لما بلغت الثنية – في قصة الحديبية – خلأت القصواء. قال – صلى الله عليه وسلم – رادّاً هذا الكلام الباطل : " ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق "، ثم أخبر – صلى الله عليه وسلم – عن سبب بروكها وهو أن الله تعالى هو الذي حبسها حيث قال : " ولكن حبسها حابس الفيل "[2].

ثالثا: سيرة الصحابة :

قام الصحابة – رضي الله عنهم – بهذه الوظيفة الشرعية والمهمة الجهادية الدفاعية خير قيام من ردّ البدع والأهواء المضلة ودفعها في نحورها وأعجازها ؛ لإبطالها ووأدها من أول بدعة حدثت في الإسلام ؛ "بدعة الخوارج " ، فهم أول من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع المارقين ، وهم أول من كفَّر المسلمين بالذنوب ؛ وهذه حال أهل البدع يبتدعون بدعة ، ويكفرون من خالفهم فيها ، فأثاروا " مسألة الوعد والوعيد " وتلقب بمسألة "الفاسق الملي" هل هو كافر أم مؤمن، فهي أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار .

فردَّ الصحابة – رضي الله عنهم – على الخوارج بدعة الافتراق ، وبدعة التكفير ، فكشفوا منهم الأسرار ، وهتكوا الأستار ، وفضحوهم على المنابر ، ثم بدا الرفض ، والنصب ، ثم القدرية ، والمرجئة ، ثم الاعتزال ، فقام عليهم الصحابة – رضي الله عنهم – باللسان ، والسِّنان ، فقتل من قتل ، وخصم من خُصم ، فتزلزلت هذه البدع ورقَّت ، واندحرت وذلّت[3] .

([1]) – سنن أبي داود : كتاب الجهاد ، باب : كراهية ترك الغزو ، ص٢٨٤ ، رقم الحديث : ٢٥٠٤ ، وسنن النسائي: الإمام أحمد بن شعيب النسائي ، أبو عبد الرحمن ، كتاب الجهاد ، باب : وجوب الجهاد ، ص٣٢٨ ، رقم الحديث : ٣٠٩٦ ، قال الألباني : صحيح ، ط: ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض .

([2]) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٢٧ – ٢٩. والحديث أخرجه البخاري ، كتاب الشروط ، باب : الشروط في الجهاد ، ص٥٢٢ ، رقم الحديث : ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢ .

([3]) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٣٠.

وأذكر فيما يلي مناقشة ابن عباس – رضي الله عنه – الحرورية من الخوارج للردّ على اعتراضاتهم الباطلة وأفكارهم الخاطئة بغية إيضاح الحق وبيانه واستئصال الخلاف وإزالته :

"دخل عليهم ابن عباس – رضي الله عنهما – فبادروه بقولهم: ما جاء بك يا ابن عباس ؟ وما هذه الحلة التي عليك ؟

فرد عليهم : وما تعيبون من ذلك ؟ ولقد رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1].

فقالوا : ما جاء بك ؟

قال: جئتكم من عند أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعليه نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله ، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم .

فقال بعضهم : لا تخاصموا قرشياً ، فإن الله يقول : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[2].

وقال بعضهم : بل نكلمه ، قال : فكلمني منهم رجلان أو ثلاثة . قال : قلت : ما نقمتهم عليه ؟ قالوا : ثلاثاً . فقلت : ما هي ؟

قالوا : حكَّم الرجال في أمر الله والله يقول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[3] .

قال : قلت : هذه واحدة ، وماذا أيضاً ؟

قالوا : فإنه قاتلهم ولم يسب ولم يغنم ، فلئن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم ، ولئن كانوا كافرين حل قتالهم وسبيهم .

قال : قلت : ماذا أيضاً ؟

قالوا : ومحا نفسه عن إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

قال : قلت : فإن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما ينقض قولكم أترجعون ؟

قالوا : وما لنا لا نرجع ؟

---

(1)- سورة الأعراف : من الآيـة ٣٢ .

(2)- سورة الزخرف : من الآيـة ٥٨ .

(3)- سورة يوسف : من الآيـة ٤٠ .

قلت : أما قولكم حكم الرجال في أمر الله ، فإن الله قال في كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾[1]. وقال في المرأة وزوجها : ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾[2].

فصير الله ذلك إلى حكم الرجال ، فناشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين، وفي إصلاح ذات البين ، أفضل ، أم في ثمن أرنب ثمنه ربع درهم وفي بضع امرأة ؟

قالوا : بلى هذه أفضل . قال : أخرجتم من هذه ؟ قالوا : نعم . قال : وأما قولكم: قاتل ولم يسبِ ولم يغنم ، أتسبون أمكم عائشة ؟ فإن قلتم نسبها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم ، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم ، فأنتم ترددون بين ضلالتين ، أخرجتم من هذه ؟ قالوا : نعم . قال : وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين فإني آتيتكم بمن ترضون ، إن نبي الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان ، وسهيل بن عمرو ، فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو : ما نعلم أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك.

قال : رسول الله - ﷺ - " اللهم إنك تعلم أني رسولك ، يا علي اكتب ، هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو ..."[3] فرجع منهم ألفان ، وبقي بقيتهم فخرجوا فقتلوا جميعاً "[4].

فاتضح مما سلف من الحديث أن من حق الله على عباده المؤمنين القيام بالردّ على الطاعنين على كتاب الله ورسوله ، ودينه ، ومجاهدتهم بالحجة والبيان ، والسيف والسِّنان ، والقلب والجنان ، وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان[5].

---

(1)- سورة المائدة : من الآيــة ٩٥ .

(2)- سورة النساء : من الآيــة ٣٥ .

(3) – المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، ٢ / ١٦٤ ، ط١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، رقم الحديث : ٢٦٥٦ ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت .

(4) – الاعتصام : الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى ابن محمد الغرناطي الشاطبي ، تحقيق : سيد إبــراهيم ، ٣/٣٥-٣٧، ط١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر . والحوار بين أهل الحق وأهل الباطل : إعداد : إدارة الأبحــاث والنشر بدار الرشاد للنشر والتوزيع ، ص٩٧ - ٩٩ ، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، الرياض .

(5)- هدايــة الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى : الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيــة ، تحقيــق وتعليق : الدكتور أحمد حجازي ، ص١٠ ، دار المطبعة السلفية ، القاهرة .

المبـــحث الثاني :

أنـــواع الـــردود :

المطلب الأول : أنـــواع الردود من حيث المشروعية و الحكم .

المطلب الثاني : أنـــواع الردود من حيث المردود عليه .

المبحث الثاني : أنواع الردود

المطلب الأول : أنواع الردود من حيث المشروعية والحكم :

"الردّ" نوع من أنواع الكلام المختلفة ، وله أساليب متنوعة ؛ من المحاورة والمباحثة والمناظرة والمجادلة ... ، ويكون بالكتابة أو المحادثة ، وينقسم من حيث الحكم الشرعي إلى ثلاثة أنواع رئيسة :

الأول : الردّ المحمود :

هو الردّ الذي يهدف إلى بيان الحق وإحقاقه ، وكشف الباطل وإبطاله ، ويمكن القول بأنه كل ردّ يؤيد الحق أو يفضي إليه ويكون بنية خالصة وطريق صحيح ، وهو " واجب أو مستحب "[1].

فالردّ على الكفار، والبعثيين، والشيوعيين، والاشتراكيين من أوجب الواجبات وأعظم المهمات.

والرَّدُّ على من في قلوبهم زيغ متخبطين بأحكام الديانة بما يقولون أو يكتبون مِن أهم المهمات وأعظم الواجبات .

وإبطال شبه الخرافيين أرباب البدع التعبدية من أهم الواجبات .

وتفنيد دعاوى الخصوم الملدين بغير علم الذين يضغطون الإسلام للواقع ، ويسخرون النصوص لآرائهم الشاذة ، وأقوالهم الفجة من أجلّ الواجبات .

وبيان زلة العالم محمدة في الإسلام ، ومجادلة من جنح به الرأي إلى قول شاذ ، أو إحداث قول جديد في مسألة ...باب عظيم من أبواب النصح والإرشاد .

فالردُّ والمجادلة عن الحق بالحق : رتب ومنازل ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً[2] ، وذلك لأن في الردّ :

- إنارة طريق الحق وبيان حجة تهدي مستهدياً وترشد مسترشداً.
- إيقاف من كان معانداً عن عدوانه على الحق إذا تبين له ذلك وكان ممن يطلب الحق .

---

(١) – مجموع فتاوى : الإمام ابن تيمية ، ١٥٧/٧ ، و الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٤٩ .

(٢) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٤٩ ، ٥٠ .

- دعوة للمخالف إلى النظر في أدلة الحق .
- كشف ضلال المجادل بالباطل ببيان الحق وإفحامه ، وكفّ شره عن الناس وعدوانه.
- تشكيكاً في الاعتقاد الباطل ودليله .
- تشجيعاً ورفعاً للهمة على النظر في الحق وطلبه لمن التبس عليه الحق وكانت له رغبة في البحث عنه[1] .

الثاني : **الردّ الجائــز** :

ويقال : الردّ السائغ ، وهو مثل ما يحصل من الردود في محيط الخلاف السائغ في الفروعيات ، التي تجاذبتها الأدلة ، وتكافأت في نظر المجتهد[2] .

الثالث : **الردّ المذموم** :

الردّ المذموم نوع من الكلام المذموم ، وأصل ما ذمه السلف والأئمة من الكلام هو الكلام المخالف للكتاب والسنة ، وهذا لا يكون في نفس الأمر إلا باطلاً ، فمن جادل به جادل بالباطل، وإن كان ذلك الباطل لا يظهر لكثير من الناس أنه باطل لما فيه من الشبهة ، فإن الباطل المحض الذي يظهر بطلانه لكل أحد لا يكون قولاً ومذهباً لطائفة تذب عنه ، وإنما يكون باطلاً مشوباً بحق ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3] .

أو تكون فيه شبهة لأهل الباطل ، وإن كانت باطلة وبطلانها يتبين عند النظر الصحيح ، كالذين قالوا : إن محمداً – ﷺ – شاعرٌ وكاهن ومجنون ؛ قالوا : إنه شاعر لأن الشعر كلام موزون مقفّى ، فشبهوا القرآن به من هذا الوجه ، والكاهن يخبر أحيانا بواحدة تصدق فشبّهوا الرسول به من هذا الوجه ، والمجنون يقول ويفعل خلاف ما في عقول ذوي العقول ، فلمّا زعموا أن ما يأتي به الرسول – ﷺ – يخالف ما يأتي به العقلاء نسبوه إلى ذلك[4] .

فالكلام المذموم عند السلف نوعان : أحدهما أن يكون في نفسه باطلاً وكذباً ، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل وكذب ، والثاني أن يكون فيه مفسدة .

---

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تـيمية ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، ص١٦٧ ، طبع : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م .

(٢) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٥٣ .

(٣) – سورة آل عمران : من الآيــة ٧١ .

(٤) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ص١٧١،١٧٠ .

فالردّ المذموم هو"ما يكون لدفع الحق أو تحقيق العناد"[1] ، وقد يكون محرماً أو مكروهاً[2]. وعلى هذا النوع تكون ردود المخالفين للحق ؛ كالكفار والمشركين وأهل الشهوات والأهواء ، وبين الله سبحانه وتعالى أنواع مجادلتهم التي استخدموها للردّ على الحق ، وذمها ، وهي ثلاثة أنواع[3].

١- المجادلة بالباطل لدحض الحق : ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾[4].

٢- المجادلة في الحق بعد ما تبين : ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾[5].

٣- المجادلة فيما لا يعلم المحاج : ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾[6].

فالردّ المذموم هو ما يكون لدفع الحق ، أو نصر الباطل ، أو تحقيق العناد، أو إلباس الحق بالباطل، أو للطلب به التعرف لا التقرب، أو للمماراة، أو لطلب الجاه والتقدير، إلى غير ذلك من الوجوه المنهي عنها في الشرع[7] قال الله تعالى : ﴿ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴾[8].

وقال النبي – ﷺ – في حديث أبي أمامة مرفوعاً : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا رسول الله – ﷺ – هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾[9]، [10].

وعلى هذا النوع المذموم : يتنزل أيضاً كلام السلف في ذم الجدل والمجادلة[1].

---

(١) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٥١ .

(٢) – المرجع السابق : ص٥١.

(٣) – درء تعارض العقل والنقل : ص١٧٠/٧ .

(٤) – سورة غافر : من الآية ٥ .

(٥) – سورة الأنفال : من الآية ٦ .

(٦) – سورة آل عمران : من الآية ٦٦ .

(٧) – الكافية في علم الجدل : عبد الملك الجويني ، إمام الحرمين ، ص٢٢ .

(٨) – سورة الشورى : الآية ٣٥ .

(٩) – سورة الزخرف : من الآية ٥٨ .

(١٠) – جامع الترمذي : كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الزخرف ، ص٥١٦ ، رقم الحديث : ٣٢٥٣ ، سنن ابن ماجة : كتاب المقدمة ، باب : اجتناب البدع والجدل ، ص٢٣ ، رقم الحديث : ٤٨ ، وقال : حديث حسن صحيح .

المطلب الثاني : **أنواع الردود من حيث المردود عليه** :

المردود عليه هو : كل مخالفة مذمومة اعتقادية أو سلوكية أو تقريرية ؛ فيخرج من ذلك كل مخالفة ممدوحة وجائزة سائغة ، والردّ باعتبار ما يرد عليه أنواع ، أهمها :

(١) الردّ على المخالفة البدعية .

(٢) الردّ على الإساءة .

(٣) الردّ على الأخطاء .

(٤) الردّ على التحريف والتبديل للنصوص .

(٥) الردّ على زلة عالم .

(٦) الردّ على المعتقدات الباطلة .

(٧) الردّ على إثارة ما ذكر من مخالفة مذمومة أو إساءة أو أخطاء أو تحريف نصوص أو زلة عالم أو معتقدات باطلة ، وحين التأمل وإمعان النظر في مصادر أو مآخذ هذه المخالفات المذمومة والمعتقدات الباطلة تجد مأخذين رئيسين يرجع إليها جميع المخالفات المذمومة والمعتقدات الباطلة والأفكار المنحرفة ، وهما[٢].

(١) فتنة الشهوات : وهي المعبر عنها باسم : الانحراف ، والغزو السلوكي .

(٢) وفتنة الشبهات : وهي المعبر عنها باسم : الانحراف ، والغزو الفكري ، وهذا هو موضوع هذه الدراسة التي سأتناولها بالبحث والدراسة في الفصول التالية – بإذن الله تعالى – .

---

(١) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد : ص٥٢، ٥٣ .

(٢) – المرجع السابق : ص٦٠ .

الفصل الأول

مفهوم منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات وأهميته وحكمه

المبحث الأول : مفهوم منهج الردّ على الشبهات وأهميته في الدعوة إلى الله :

المطلب الأول : مفهوم منهج الردّ على الشبهات في الدعوة إلى الله .

المطلب الثاني : أهمية الردّ على الشبهات في الدعوة إلى الله .

المبحث الثاني : حكم الردّ على الشبهات ومشروعيته في الدعوة الإسلامية :

المطلب الأول : مشروعية الردّ على الشبهات .

المطلب الثاني : حكم الردّ على الشبهات .

المبحث الأول : مفهوم منهج الردّ على الشبهات وأهميته في الدعوة إلى الله

المطلب الأول : مفهوم منهج الردّ على الشبهات في الدعوة إلى الله :

سأوضح – إن شاء الله تعالى – فيما يلي مصطلح "المنهج" ثم "الرّد" ثم "الشبهات" ثم "الدعوة" لنصل في الأخير إلى تحديد المفهوم الشامل المراد من " منهج الرّد على الشبهات في الدعوة إلى الله " .

أولاً : مفهوم المنهج :

في اللغـــة :

المنهج : جمعه المناهج ، و"النهج" : البـــين الواضح ، وطريقٌ نَهجٌ : بينٌ واضحٌ ، والجمع نَهْجاتٌ ونُهُجٌ ونُهُوجٌ ، وأنهج الطريق : وضح واستبان ، وصار نَهجاً واضحاً بيناً ، و"المنهج" و"المنهاج" مثله ، ففي التنـــزيل العزيز : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1] ، ويقال : طريق ناهجٌ : أي واضح بين[2] ، وفي حديث العباس – رضي الله عنه – : "لم يمت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى ترككم على طريق ناهجة "[3] أي واضحة بينة .

وسائر تصاريف هذا اللفظ تدل على أنه الطريق الواضح البـــين الموصل إلى الغاية المقصودة.

---

(١) – سورة المائدة : من الآيـــة ٤٨ .

(٢) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ٣٨٣/٢ ،

– والمصباح المنـــير : العلامة أحمد بن محمد بن علي الفـــيومي المقرئ ، كتـــاب النون ، ص٣٢٢ ،

– والقاموس المحيط : الفيروز آبادي ، باب الجيم ، فصل النون ، ص٢٦٦ ،

– والمعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، ص٩٥٧ .

(٣) – مصنف عبد الرزاق : أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، ٤٢٨/٥ ، بـــاب: بدء مرض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، رقم الحديث : ٩٧٥٤ ، ط٢ ، ١٤٠٣هـــ ، المكتب الإسلامي ، بيروت،

– والنهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الأثيـــر ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطنـــاحي ، ٥ / ١٣.

وفي الاصطلاح :

وردت تعريفات كثيرة لكلمة "المنهج" في الاصطلاح ، منها :

١ – هو "الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"(١) .

٢ – وقيل بأن المنهج : هو "الخطة أو التخطيط اللازم لشيء ما"(٢) .

٣ – وقيل بأن المنهج : هو "نظم الدعوة وخططها المرسومة لها"(٣) .

٤ – وقيل بأن المنهج : هو "الطريق الواضح السهل الذي سلكه النبي – ﷺ – في دعوته"(٤).

وهناك تعريفات أخرى لـ"المنهج" ؛ وذلك بحسب المجال الذي عني به ، فهناك – مثلاً – المنهج العلمي ؛ وهو "أسلوب للتفكير والعمل ، يعتمده الباحث لتنظيم أفكاره وتحليلها وعرضها وبالتالي الوصول إلى نتائج وحقائق معقولة حول الظاهرة ؛ موضوع الدراسة"(٥) ، وهناك المنهج الدراسي ، والمنهج التاريخي ، أو بحسب الطريقة التي درس بها كالمنهج التركيبي ، والمنهج التحليلي ، والمنهج المقارن(٦) ، ولكن المنهج على العموم :"هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء ، أو في عمل شيء ، أو في تعليم شيء طبقاً لمبادئ معينة ، وبنظام معين بغية الوصول إلى غاية معينة"(٧) .

والمفهوم المراد بمصطلح المنهج في هذه الدراسة هو الطرق والأساليب التي يتخذها الداعي للردّ على الشبهات التي تثير الشك والارتياب في أحقية الدعوة ، وصدق الداعي ، ومكانة المدعو باستخفاف قدره ووضعه الاجتماعي والاقتصادي من جهة ، وإغرائه بأساليب شتى لمقاومة الدعوة من جهة أخرى .

---

(١) – مناهج البحث العلمي : د. عبد الرحمن بدوي ، ص٥ .

(٢) – مناهج الدعوة وأساليبها : علي جريشة ، ص١٦ .

(٣) – المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ،ص٤٤-٤٦ .

(٤) – المنهاج النبوي في دعوة الشباب : سليمان العيد ، ص١١-١٢ .

(٥) – مناهج وأساليب البحث العلمي : د. ربحي مصطفى عليان ، و د . عثمان محمد غنيم ، ص٣٣ .

(٦) – معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم : د. محمد فتحي عبد الله ، ص٣٠٤-٣٠٧.

(٧) – المرجع السابق : ص٣٠٤ .

ثانياً: مفهوم الردّ :

في اللغة :

لكلمة ''الردّ'' معاني عديدة ، منها – مثلاً – الدخل والإرجاع ، والرديء ، والزائف ، والمردود ، وعدم القبول ، والتخطئة ، والدفع ، والجواب[1] .

وفي الاصطلاح :

مفهوم ''الردّ'' على الشبهات في الدعوة إلى الله هو عدم قبول ما يثـــير الشك والارتياب في أحقية الدعوة وصدق الداعي ، والجواب عليه لدفعه وإزالته بكشف زيغه وبطلانه ، وإثبات الحق فيه كوسيلة رئيسة مهمة في عملية نشر الدين وبلاغه للناس .

ثالثاً : مفهوم الشبهات :

في اللغة :

الشبهات جمع الشبهة ، ولها في اللغة معان عديدة منها :

- الشبهة: الالتباس، وجمعه شُبَهٌ وشُـــبُهاتٌ، مثل غُرَف وغُرُفات ، وهو اسم من الاشتباه.
- ويقال : في حديثه لُبْسَةٌ ، أي : شبهةٌ ليس بواضح .
- و(تشابهت) الآيات تساوت أيضاً ، فـــ (المشابهةُ) المشاركة في معنى من المعاني .
- والمتشابهات : المتماثلات.
- والتشبيه : التمثيل، و(أشبه) فلاناً ، و(شابَهَهُ) ، و(اشتَبَه) عليه الشيء ، و(شبَّهتُهُ) عليه (تشبيهاً) مثل لبَّستُهُ عليه تلبـــيساً وزناً ومعنى .
- والاشتباه : الالتباس[2].

وفي الاصطلاح :

---

(١) – انظر : ''مفهوم الردّ والردود '' بالتفصيل في المبحث الأول في ''التمهيد'' .

(٢) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ٥٠٣/١٣ .

– تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي ، ٤١١٩/١ .

– والمصباح المنـــير : العلامة أحمد بن محمد بن علي الفـــيومي المقرئ ، كتـــاب الشين ، ص١٥٨ ، و

– ومختار الصحاح : الإمام محمد بن أبي بكر الرازي ،ص٣٢٨ ، و

– والمعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، ص٤٧١ .

من تعريفات ''الشبهة'' في الاصطلاح ما ذكره الجرجاني :

''هو ما لم يتيقن كونه حراماً أو حلالاً ''[1] .

وجاء في المعجم الوسيط بأن :

- ''الشبهة'' في الشرع : ما التبس أمره فلا يدري أحلال هو أم حرام ، وحق هو أم باطل[2] ، وقال ابن حجر مثل ذلك[3] .
- وقيل بأن المقصود بالشبهة في الدعوة : ''ما يثير الشك والارتياب في صدق الداعي وأحقية ما يدعو إليه ، فيمنع ذلك من رؤية الحق والاستجابة له أو تأخير هذه الاستجابة ''[4] .

والمفهوم المراد من الشبهة في هذه الدراسة : التباس الحق بالباطل وعدم ظهوره ، أو ما يثير الشك والارتياب من الأكاذيب والافتراءات حول المصدر الأول للدعوة ؛ وهو القرآن الكريم ، وموضوع الدعوة ، والداعي ، والمدعو مما يحجب نور الحق الذي يتبناه الداعية ، فيمنع ذلك التفاف الناس حوله أو الاستجابة له ، أو يسبب تأخير هذه الاستجابة والتأثير في النفوس الضعيفة من المدعوين ، أو يؤدي ذلك إلى زعزعة أتباعه والمنتمين إليه .

رابعاً : مفهوم الدعوة :

في اللغة :

ذكر علماء اللغة معاني كثيرة لكلمة ''الدعوة'' ، منها – مثلاً – : النداء ، والسؤال ، والطلب ، والحث ، والاستمالة ، والتجمع ، والدعاء .

واشتقاقات مادة (دعا) كثيرة ، منها – مثلا – :

- التداعي : التجمع ، يقال : تداعَى القوم إلى كذا أي تجمعوا .
- والدعوى : هو اسم لما يدعيه ، والادعاء : زعم أن كذا له إما حقا أو باطلا.
- والدعاء :العبادة[1] .

---

(١) – التعريفات : علي بن محمد الجرجاني ، ص١٣٧ .

(٢) – المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، ص٤٧١ .

(٣) – فتح البـــاري : الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ١٢٧/١ .

(٤) – أصول الدعوة : د. عبد الكريم زيدان ، ص٤٢٦ .

ويطلق لفظ ''الدعوة '' على الأذان ، ففي الحديث : ''من قال حين يسمع النداء : اللّهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلت له شفاعتي يوم القيامة''(٢) .

والدَّعوة ، والدِّعوة ، والمَدعاة ، والمِدعاة أيضاً : الطلب إلى الطعام (٣) ، وفي الحديث : ''إذا دُعي أحدكم إلى طعام فليجب ، فإن شاء طعم ، وإن شاء ترك'' (٤) .

والأصل في مفهوم ''الدعوة'' أنه يعتمد على البيان والكلام ، كما ذكر صاحب المقاييس حيث قال : ''الدعوة أن تميل الشيء بصوت وكلام يكون منك''(٥) .

ويشهد له قوله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴾(٦) ، فذكر الدعوة مقابل الصمت ، وتستعمل لفظ ''الدعوة'' في الخير والشر ، كما في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾(٧) .

وفي الاصطلاح :

لكلمة الدعوة استعمالان ، أحدهما بمعنى الإسلام ، والثاني بمعنى نشر دين الإسلام وتبليغه للناس ، وسياق إيرادها هو الذي يحدد المعنى المراد ، والتعريف الاصطلاحي للدعوة بمعناها الأول يغاير تعريف الدعوة بالمعنى الثاني ، ولهذا يحسن ذكر التعريف الاصطلاحي لكلا المعنيين من خلال ما ذكره العلماء قديماً وحديثاً ، ولذا أذكر ذلك فيما يلي بإيجاز :

أولاً : الدعوة بمعنى نشر الإسلام وتبليغه :

---

(١) – لسان العرب : ابن منظور ، ١٤ / ٢٥٧-٢٦٢ ،
– والمعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، ص٢٨٦-٢٨٧ .

(٢) – صحيح البخاري : كتاب الأذان ، باب : الدعاء عند الأذان ، ٩٤ ، رقم الحديث : ٩١٤ .

(٣) – لسان العرب : ابن منظور ، ص٢٦٠ .

(٤) – صحيح مسلم : كتاب النكاح ، باب : الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة ، ١٠٥٤ ، رقم الحديث : ١٤٣٠ ، وأبو داود برقم ٣٧٤٠ ، وابن ماجة برقم ١٧٥١ .

(٥) – معجم مقاييس اللغة : ابن فارس ، ٢٧٩/٢ .

(٦) – سورة الأعراف : من الآية ١٩٣ .

(٧) – سورة البقرة : من الآية ٢٢١ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله ، بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحجّ البيت ، والدعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشرّه، والدعوة إلى أن يعبد ربه كأنه يراه "[١] .

وقيل : إن الدعوة إلى الله : تبليغ الإسلام للناس ، وتعليمه إياهم ، وتطبيقه في واقع الحياة[٢].

وقيل : إن الدعوة إلى الله : قيام من عنده أهلية النصح والتوجيه السديد من المسلمين في كل زمان ومكان بترغيب الناس في الإسلام اعتقاداً ومنهجاً وتحذيرهم من غيره بطرق مخصوصة[٣] .

ثانياً : الدعوة بمعنى الدين الإسلامي :

قيل : إن الدعوة إلى الله : هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين ، وأنزل تعاليمه وحياً على رسوله – ﷺ – ، وحفظها القرآن الكريم والسنة النبوية[٤] .

وقيل : إن الدعوة إلى الله : هي الضوابط الكاملة للسلوك الإنساني ، وتقرير الحقوق والواجبات[٥] .

وقيل : إن الدعوة هي النظام العام ، والقانون الشامل لأمور الحياة ، ومناهج السلوك للإنسان ، التي جاء بها محمد – ﷺ – من ربه ، وأمره بتبليغها إلى الناس ، وما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة[٦] .

هذه التعاريف ليست بمتعارضة فيما بينها بل إنها تتعاون وتتكامل في إعطاء صورة الإسلام الذي هو الدعوة[١] .

---

(١)- مجموع فتاوى : شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، ١٥/١٥٧-١٥٨ .

(٢)- المدخل إلى علم الدعوة : د. محمد أبو الفتح البيانوني ، ص١٧ .

(٣)- الدعوة إلى الله – خصائصها – مقوماتها – مناهجها : أبو المجد نوفل ، ص١٨.

(٤) – المرجع السابق : ١٥ / ١٥٨ .

(٥)- الدعوة الإسلامية : دعوة عالمية : محمد الراوي ، ص٣٩ .

(٦)- الدعوة الإسلامية : أصولها ووسائلها : د. أحمد أحمد غلوش ، ص١٢ .

وهذه التعاريف للدعوة في الاصطلاح بمعنييها ليست من باب الحدود ، وإنما هي رسوم لها ، وهي تختلف شمولاً وقصراً حسب نظر المعرِّف لها[٢] .

ولفظ الدعوة إذا أطلق ينصرف عرفاً إلى المعنى الأول ؛ وهو الدعوة إلى الإسلام بمعنى النشر والبلاغ[٣] ، وهو المعنى الذي تواردت عليه معظم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية[٤]، وهو المعنى المراد من الدعوة في هذه الدراسة ، والمقصود دراسة المنهج الصحيح فيما يتعلق بإزالة الشبهات عن الدعوة .

إذن يمكن القول في ضوء ما سبق من بيان معاني ومدلولات مصطلحات عنوان الدراسة بأن مفهوم '' منهج الردّ على الشبهات في الدعوة إلى الله '' هو الطرق والأساليب التي يتخذها الداعي ، مستنبطاً من الكتاب والسنة على قواعد الفهم المعتبر لدى القرون الثلاثة الأولى ومستفاداً من الوسائل الحديثة ، للردّ على شبهات مثارة من قبل الأعداء ، أو ناشئة من معتقدات موروثة ، أو بسبب انتشار الثقافات الغربية ، أو شهوات معنوية أو مادية ، أو بغيرها من الأسباب .

وانطلاقاً من واجب الداعي لفهم لغة عصره ووسائل التخاطب والاتصال المستحدثة في زمانه ، ينبغي له عدم الاقتصار على الطرق والأساليب التي واجه بها سلفنا الصالح انحرافات وشبهات عصرهم بل لابدّ من الاستفادة من الوسائل الحديثة المعاصرة .

ووسائل الإعلام والاتصال تتطور في كل يوم ، وأهل الباطل يسارعون بكل ما يملكون لاستثمارها واستخدامها في أباطيلهم المضللة ويسخرونها لافتراءاتهم على الإسلام وأهله، فليستثمر المسلمون ما يتناسب منها مع عقيدتهم الإسلامية ، فهم أصحاب رسالة وهداية وغيرهم أصحاب ضلال وخرافة ، وهم يدعون إلى الحق وغيرهم يدعون إلى الباطل.

المطلب الثاني : أهمية الردّ على الشبهات في الدعوة إلى الله:

تتأكد أهمية الردّ على الشبهات من خلال ما يلي :

---

(١)- نصوص الدعوة في القرآن الكريم .. دراسة تأصيلية : د.حمد بن ناصر العمار ، ص١٩ .

(٢) – المرجع السابق : ص١٩ ، ٢٠ .

(٣) – المرجع السابق : ص٢٠ .

(٤) – المدخل إلى علم الدعوة : د. محمد أبو الفتح البيانوني ، ص١٨ .

أ – مقتضيات القيام بالردّ على الشبهات .

ب – مضار السكوت عن الردّ على الشبهات .

ج – ثمار القيام بالردّ على الشبهات .

(أ) – **مقتضيات القيام بالردّ على الشبهات** :

إن إقناع المدعو عنصر مهم في الدعوة إلى الله تعالى بل إنه أهم ما يقوم به الداعية في الدعوة إلى الله إذ الإيمان منبعه ومنشأه العلم والإقناع ، يقول الدكتور عبد الفتاح عاشور : " الإيمان أساسه الإقناع العقلي ، وما تستطيع قوة في الأرض أن تجبر إنساناً من داخله على اعتناق مذهب أو دين ، إلا إذا كانت تمتلك من نفاسة مبدئها ، ووضوح غايتها ، ما يشد القلوب إلى هذا المبدأ وتلك الغاية ، وهذا ما صنع القرآن "[(١)] .

ولإيجاد القناعة في نفس المدعو يجب القيام بأمرين ، وهما :

الأول : إثبات صحة الدعوة بإقامة البراهين والحجج .

الثاني : إزالة ما علق في الذهن من الشبهات التي تحول دون قبول الحق ، وذلك بكشف زيغ الشبهات ووهنها .

إن الأسلوب الصحيح في الدعوة إلى الله هو التعرف على ما يكمن في المدعو من داء ، ثم تعين العلاج والدواء له ، فكما أن طبيب الأجسام يشخص الداء أولاً ثم يعين الدواء ثانياً ، فإن طبيب القلوب والأرواح ؛ الداعية إلى الله ، عليه أن يستخدم الأسلوب نفسه في معالجة القلوب والأرواح حتى تكون دعوته على بصيرة ، فتثمر ويتحقق الهدف .

وأصل داء الناس هو الشرك بالله أو الكفر به أو رفض الدخول في العبودية الكاملة له ، وعدم السير على النهج الذي جاء به خاتم النبيين محمد بن عبد الله – صلوات الله وسلامه عليه – ، والاغترار بالدنيا ، والانغماس في ملذاتها ، والغفلة عن الآخرة .

أما أصل الدواء لهذا الداء فهو الإيمان بالله رباً وإلهاً واحداً لا إله غيره ، ولا شريك له، والكفر بالطاغوت بكل أنواعه ومظاهره ، والإقبال على الله ، وعدم الركون إلى الدنيا[(٢)] ، وهذا

---

(١)– منهج القرآن في تربية المجتمع : د. عبد الفتاح عاشور ، ص٤٤٨ ، ط : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

(٢)– أصول الدعوة : د. عبد الكريم زيدان ، ص ٤٢١ .

ما قاله إمام الدعاة وخاتم المرسلين – ﷺ – لرؤساء قريش حين جاءوا إلى أبي طالب يسألونه ماذا يريد منهم ابن أخيه محمد ، فقال لهم الرسول الكريم – صلوات الله وسلامه عليه –: ''تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه''[1] .

وهذا ما قالته رسل الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – كما يتضح من قول الله جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[2] .

ولهذا ينبغي التأكيد على معاني العقيدة الإسلامية وغرسها في نفوس المدعوين لأنها الدواء لأصل الداء ، فينبغي على الذين يحملون أمانة الدعوة إلى دين الله الحق أن يؤكدوا على ضرورة الإيمان بالله رباً وإلهاً واحداً لا شريك له والإيمان بمحمد – ﷺ – نبياً ورسولاً ، والإيمان بالملائكة والكتب السماوية والرسل السابقين — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين– ، والإيمان بالبعث بعد الموت بالروح والجسد ، والإيمان بالقدر خيره وشرّه ، وضرورة العمل الصالح ، ومراقبة الله في كل عمل ابتغاءً لمرضاته ، وأملاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه .

وغرس العقيدة الإسلامية في نفوس المدعوين أولاً ، وإقناعهم بمعاني الإسلام بالتدرج ثانياً، يقتضيان إزالة الشبهات من طريقهم أولاً إذ لابدّ من ''التخلية قبل التحلية'' ، وحتى لا يلتبس الحق بالباطل ، وحتى يظهر الحق ظهوراً جلياً ، فيستجيب المدعوون لدعوة الحق ، فيهتدون بهدى الله ، ويظهر أثر الهدى في معتقداتهم وسلوكهم ، فيفلحون في الدنيا والآخرة .

إذن '' الردّ على الشبهات '' أسلوب في غاية الأهمية لما له من دور واضح جلي في إقناع المدعو ، وإقناع المدعو – كما سلف ذكره – عنصر مهم في الدعوة إلى الله التي يكمن في الاستجابة لها فلاح البشر في الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3] ، ولذا كانت الدعوة وظيفة الأنبياء والمرسلين وسبيل نبينا محمد خاتم المرسلين – ﷺ – ، وسبيل من اتبعه واقتفى أثره وسار على نهجه ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[4] .

---

(١)– سيـــرة ابن هشام : عبد الملك بن هشام ، ط : ١٣٩٥هـــ – ١٩٧٨م ، ٢ / ٢٧ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة .

(٢)– سورة النحل : من الآيــة ٣٦ .

(٣)– سورة آل عمران : الآيــة ١٠٤ .

(٤) — سورة يوسف : الآيــة ١٠٨ .

والقرآن الكريم يتجه في خطابه للمدعوين إلى الإقناع ، لا إلى التسليم المحض ، وسلك في ذلك مناهج وأساليب عدة منها الردّ على الشبهات ، فنراه كثيراً ما يتناول شبهات المدعوين ثم يردّ عليها بأساليب متعددة بغية إزالتها عن نفوس المدعوين وإيضاح الحق وإنارة الطريق المستقيم لهم ، ولم يكن ذلك من القرآن الكريم إلاّ للأهمية البالغة لهذا الأسلوب .

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد – رحمه الله – عن أهمية الردّ على الشبهات وسبب مشروعيته بأنه لحراسة الدين وحمايته من العاديات عليه وعلى أَهله ، وأنه وظيفة جهادية التي دَأْبُها : الحنين إلى الدّين والرحمة بالإنسانية ؛ لتعيش تحت مظلته : تكُفُّ العدوان، وتصدُّ المعتدين، وتُقيم سُوقَ الأمر بالمعروف ورأسه التوحيد ، والنهي عن المنكر وأَصلُه الشرك ، وتُحافظ على وحدة الصَّفِ ، وجمع الكلمة ، ومدِّ بشَاشَةِ الإيمان ، وسُقيا ترقرق ماء الحياء .
وتُقيمُ : طول الإسلام ، وقُوَّته ، وظُهُوره ، على الدِّين كله ولو كره المشركون ، وتُحطِّم الأَهواء ولو كره المبتدعون ، والفُجورَ ولو كره الفاسقون ، والجور ولو كره الظالمون[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[2] – رحمه الله تعالى – في بيان منـــزلة هذه الوظيفة : "فالمرصَدُون للعلم ، عليهم للأمة حفظ الدّين ، وتبليغه ، فإذا لم يبلغوهم علم الدّين ، أو ضيعوا حفظه، كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[3] ، فإن ضرر كتمانهم تعدى إلى البهائم وغيرها ، فلعنهم اللاعنون حتى البهائم "[4] .

وقال أيضاً – رحمه الله تعالى – :

---

(1) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد ، ص8 .

(2) – هو : شيخ الإسلام وحافظ الدنيا المجتهد في الأحكام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي ، ولد بحران يوم الاثنين 10 / 3 / 661هـ ، وتوفي – رحمه الله – ليلة الاثنين 20من ذي القعدة 728هـ ، (انظر : الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ، ص14 ، والبداية والنهاية : 14 / 135) .

(3) – سورة البقرة : الآية 159 .

(4) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، 28 / 187 .

'' فالرّادُّ على أهل البدع مجاهد ، حتى كان يحيى بن يحيى يقول : الذّبُّ عن السنة أفضل من الجهاد ....''[1] .

وقال أيضاً – رحمه الله تعالى – :

'' وإذا كان النصح واجباً في المصالح الدينية الخاصة والعامة مثل : نَقَلَة الحديث الذين يغلطون أو يكذبون ، كما قال يحيى بن سعيد : سالت مالكاً ، والثوري ، والليث بن سعد – أظنه – والأوزاعي عن الرجل يتهم في الحديث أو لا يحفظ ؟

فقالوا : بَيِّن أمره ، وقال بعضهم لأحمد بن حنبل : إنه يثقل عليَّ أن أقول فلان كذا، فقال: إذا سكتَّ أنت ، وسكتُّ أنا فمتى يعرف الجاهلُ الصحيح من السقيم''[2] ؟

'' فكل من لم يناظر أهل الإلحاد ، والبدع مناظرة تقطع دابرهم ، لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور ، وطمأنينة النفوس ، ولا أفاد كلامه العلم واليقين ''[3] .

ويقول ابن القيم – رحمه الله تعالى – :

''ومن بعض حقوق الله على عبده : ردّ الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه بالحجة والبـــيان ، والسيف والسِّنان ، والقلب والجنان ، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان ''[4].

فالردّ على أهل الباطل ، ومجادلتهم ، ومناظرتهم حتى تنقطع شبهتهم ، ويزول عن المسلمين ضررهم مرتبة عظيمة من منازل الجهاد باللسان ، فقد روي عن النبي– ﷺ – أنه قال : '' جاهدوا المشركين بأموالكم ، وأنفسكم ، وألسنـــتكم ''[5].

(ب) – مضارّ السكوت عن الردّ على الشبهات :

---

(١) – المرجع السابق : ٤/ ١٣.

(٢) – المرجع نفسه : ٢٨/٢٣١-٢٣٦ .

(٣) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١/٣٥٧ .

(٤) – هدايـــة الحيارى : ابن قيم الجوزيـــة ، ص٩ .

(٥) – سبق تخريجه .

١- تعطيل واجب الردّ على الشبهات ، وهذا موطن من مواطن الإِثم .

٢- التباس الحق بالباطل وعدم ظهوره ومن ثم عدم استـــنارة طريق الهدى للمدعوين .

٣- تشكيك إيمان ضعفاء المؤمنين ، وتوهين تعاليم الدين في نفوسهم بسبب فشو الشبهة والأفكار المشبوهة .

٤- تحسين الباطل وتقويته وانتشاره وإظهاره على الحق .

٥- مظاهرة أهل الباطل ورؤساء الضلال وقادة الجاهلين على أهل الحق ، ومن ثم الإفساد في الأرض وطلب الرئاسة على الناس .

٦- تَحَجُّجُ العامَّةِ بالسكوت على نسبة الأهواء والشهوات إلى الدين(١) .

٧- استهزاء الأعداء بالدين وتعليماته وبالمؤمنين .

٨- كسر الحاجز النفسي بين السنة والبدعة ، والمعروف والمنكر ، فيستمرئ الناس الباطل، وتموت الغيرة على حرمات الدِّين ، ويستعصي إصلاح الدهماء على العلماء ، ويَجفُلُون من نصحهم ، ويَجفُوهُم(٢) .

٩- إن المبطلين شخصيات قلقة ، يورثون القلاقل بتصعيد الخلاف ، وإيقاد الفتن ، وإثارة المعارك ، ولا يتركون أهل السنة إلاّ بجروح دامية ، وعيون دامعة(٣) .

١٠- غرق أهل الشبهات والشهوات في الملذات ؛ فيتبعون كل غريب شاذ ، ويلهثون وراء كل متعة مستقذرة ، فيصابون بالأمراض الفتاكة من العرى والخنفسة وتخـــنث الرجال ، وترجل النساء ، وكل شاذ غريب مما يشوه إنسانية الإنسان ، ويقضي على رجولته ، ويباعد بينه وبين كرامته التي خصه الله سبحانه وتعالى بها من بين سائر مخلوقاته ، فهو بهذا يكره الرجولة ويمقت الفضيلة ويعادي الهداية(٤) .

(ج)- **ثمار القيام بالردّ على الشبهات** :

---

(١) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد ، ص٨٣ .

(٢) – المرجـــع السابق : ص٨٣ .

(٣) – المرجع نفسه ، ص٨٢ .

(٤) – الدعوة إلى الله : الرسالة – الوسيلة – الهدف : د. توفيق الوعي ، ص١٥٣،١٥٢ .

١- اتقاء المضار التي تم ذكرها آنفاً .

٢- أداء الواجب ، والحصول على مقاصده أو بعض مقاصده ، وأهمها براءة الذمة بحيث يندفع بالقيام بهذا الواجب الذم والعقاب المستحق بالترك ، ويحصل — بإذن الله تعالى - رضا الله ﷻ وثوابه بإزالة الشبهة عن نفوس المدعوين واهتدائهم .

٣- اهتداء أهل الشبه أو توهين الشبه في نفوسهم ، وكسر حدة معارضتهم للحق بمخاطبة عقولهم بالحجج والبراهين ، وإيقاظ فطرهم وضمائرهم للاستجابة للحق والتخلي عن الشبه والشهوة .

٤- نيل شرف الرتبة بالقيام بهذه الحسبة ، للذّب عن الشريعة وحملتها ، وصيانتها من التحريف ، وإنعاش الغيرة ، وبعث مطلب الجهاد فيها[١] .

٥- تعظيم الحق والرحمة بالخلق[٢] .

٦- الحفاظ على إيمان المسلمين من الريبة والشك ، وتقويته ضدّ الشبهات .

---

(١) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد ، ص٨٦ ، (بتصرف يسير) .

(٢) – طريق الوصول إلى العلم المأمول : جمع : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص٩٢، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، رمادي للنشر ، الدمام .

المبحث الثاني

مشروعية الردّ على الشبهات وحكمه في الدعـــوة الإسلامية :

المطلب الأول : مشروعية الردّ على الشبهات .

المطلب الثاني : حكم الردّ على الشبهات .

المبحث الثاني: مشروعية الردّ على الشبهات وحكمه في الدعوة الإسلامية

المطلب الأول: مشروعية الردّ على الشبهات:

إن دعوة الناس إلى الله وإخراجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الرشد والهداية أشرف عمل وأفضل قول ، قال الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] ، فهي مهمة الأنبياء والرسل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[2] ، وسبيل آخر المبعوثين محمد بن عبد الله – عليهم الصلاة والسلام –، وسبيل من اتبعه واقتفى أثره وسار على نهجه ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3] ، ولأجلها كانت هذه الأمة الإسلامية خير الأمم ، وهي من الواجبات على كل مسلم مكلف حسب قدرته وطاقته ، قال الله تعـالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[4] ، وهذا فضلاً عن تخصيص طائفة مؤهلة ؛ مزودة بالعلم والفقه والمعرفة ، لأداء هذا الواجب العظيم ووظيفة الأنبياء والمرسلين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[5] .

وما أن ينطلق الداعية المسلم لأداء فريضة إبلاغ رسالة الإسلام إلاّ وتواجهه شبهات مختلفة الأنواع ومتعددة الألوان ؛ فهي سلاح ذو تأثير قوي يثيره ويستخدمه خصوم الدعوة الإسلامية وأعداؤها من قديم الزمان ، فلم يتوقف الماكرون من كيد المكائد ، والمبطلون من إثارة الشبه ، واستمروا فيها بكل وسائلهم المتعددة والمتنوعة ، ومنها عرض أباطيلهم بصورة سهلة وميسرة لصد الناس عن دين الله بإيقاعهم في حبائل الشكوك بذلك التمويه والتزوير ، وإضافة إلى هذا ، كان للجهل ، والعادات والتقاليد ، والأفكار والتعليمات المتوارثة ، والتعصب للدين

---

(١) – سورة فصلت : من الآيـة ٣٣ .

(٢) – سورة النحل : من الآيـة ٣٦ .

(٣) – سورة يوسف : الآيـة ١٠٨ .

(٤) – سورة آل عمران : الآيـة ١١٠ .

(٥) – سورة التوبـة : الآيـة ١٢٢ .

المتوارث ، والتعليم والثقافة التي يأخذها الإنسان ويتربى عليها ...الخ ، إسهامات في نبع الشبهات والافتراءات حول الدعوة والداعية والمدعو .

فلما كان من شأن الدعوة أن تـــثار حولها شبهات سواء أكانت متعلقة بالداعية أو المدعو أو الموضوع أو الوسائل والأساليب ، كانت إزالتها أمراً واجباً القيام به لكونه سبباً مهماً في إيضاح الحق و الرجوع إليه ، وتأريخ دعوات الأنبياء وسير الدعاة خير شاهد على ذلك .

وقد كان ''الردّ على الشبهات'' أحد الطريقتين الرئيستين اللتين نهجهما القرآن في دعوة الناس إلى الله واهتم بهما اهتماماً بالغاً ؛ فأورد كثيراً من الشبهات التي أثارها المدعوون، وناقشها مناقشة علمية دقيقة مستخدماً فيها مناهج متعددة وأساليب متنوعة تقوم على خصائص وركائز ذكرها المفسرون، لقد مكث النبي – ﷺ – في مكة ثلاثة عشرة عاماً من دعوته والقرآن ينـــزل عليه لتصحيح العقيدة وتصفية الملة الحنفية مما ران عليهما من أدران الكفر والشرك وشبه الضلال والإلحاد، و لم ينـــزل عليه – ﷺ – في هذه الفترة الطويلة تشريع إلا فرض الصلاة والحث على مكارم الأخلاق، وصفيت العقيدة ونقيت القلوب من خلال ما قام القرآن به من إزاحة حجاب الشرك وظلمات الكفر وإزالة الشبهات عنها، وثبت الأساس المتين لهذا الدين؛ وهو توحيد الله ﷻ في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، ثم قام عليه البناء الشامخ للدين الذي لم تهزه أعاصير الشبهات والشكوك المتواصلة من قبل أعداء الإسلام منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا إلا وقوع بعض المسلمين في حبائل أعدائهم فريسة لتلك الشبه والشكوك المثارة بسبب جهلهم بعقيدتهم ودينهم من جهة، وعدم إدراكهم وفهمهم لدهاء ومكر أعدائهم من جهة أخرى.

فكان القرآن الكريم بمناهجه المختلفة وأدلته القوية وبراهينه الواضحة يبطل أوهام المشركين ويدحض شبه الملحدين ؛ المنكرين لوجود الله وألوهيته، والطاعنين في دينه وشريعته ، والمفترين على نبيه – ﷺ – ، فتلك البراهين الواضحة والحجج البالغة والأدلة القوية للردّ على الشبهات وإبطالها تدل دلالة واضحة على مشروعية الردّ على الشبهات وأهميته في الدعوة إلى الله ﷻ .

كما إن الناظر في سيرة النبي محمد – ﷺ – وفي أحاديثه الشريفة التي توجد فيها ينابيع ثرَّة؛ إيمانية وعلمية ، يتغذى منها الداعي ويستقي الإيمان والفكر ، والعلم والحكمة ، والقوة والمناعة ، والسلوك والمنهج ، يرى مواقف كثيرة يردّ فيها النبي – ﷺ – على شبه المدعوين ويبين لهم الحق والصواب .

وقد كان كثير من الدعاة من السلف الصالح وعلماء الأمة يردّ على الشبه متى ما احتاج إليه في الدعوة إلى الله مستفيداً في ذلك من الكتاب والسنة ؛ وكل ذلك يؤكد مشروعية الرّد على الشبهات ، ويبين مكانته وأهميته لحفظ الدين والدعوة إليه ، فمشروعيته ثابتة بالكتاب والسنة وسير السلف الصالح ، وأذكر فيما يلي بعضاً من الأمثلة على ذلك :

أولاً : القرآن الكريم :

هو كتاب هداية وكتاب دعوة ، أنزله الله ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ؛ من ظلمات الكفر والشرك ، وضلالة الشبهات والشهوات إلى نور الإيمان والهداية ؛ وذلك ببيان الحق وإحقاقه وكشف الباطل وإبطاله ، فهناك منهجان بارزان يسلكهما القرآن الكريم حسب ما يتلاءم مع المدعو مراعياً في ذلك مستواه العقلي وحالته النفسية وظروفه الاجتماعية وملابساته البيئية ، والمنهجان هما :

١- عرض حقائق الإسلام المجرد من الرد على الشبهات .

٢- الردّ على الشبهات بالدليل والبرهان لإبطالها وإزالتها عن نفوس المدعوين، وعرض الحق إليهم وبيانه ، وهذا المنهج هو - كما سلف ذكره - موضوع هذه الدراسة ، وقد دل القرآن الكريم على مشروعيته ، والأدلة كثيرة ، منها - مثلاً - :

الدليل الأول : قوله تعالى :

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ ﴾[1] .

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ ﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإن كان باطل قيل وجودل به ، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ، ما يدمغه فيضمحل ، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ ﴾ ، أي : مضمحل ، فانٍ، وهذا عام في جميع المسائل الدينية ، لا يورد مبطلٌ شبهةً ؛ عقلية ولا نقلية ، في إحقاق باطل أو ردّ حق إلا في أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يُذهبُ ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد[2] .

---

(١) - سورة الأنبياء : الآية ١٨ .

(٢) - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص٤٦٩ .

ويقول الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية :

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ ﴾" أي : إن ما قالوا كذب وباطل ، بل شأننا أن نرمي بالحق على الباطل ﴿ فَيَدۡمَغُهُۥ ﴾ ، أي : يقهره ، وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ وهي ضربة قاتلة . قيل أراد بالحق الحجة ، وبالباطل شبههم ، ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي : زائل ذاهب، وقيل : هالك تالف"[(١)] .

الدليل الثاني : قولـــه تعـــالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾[(٢)]

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ أي : نوضحها ونبينها ، ونميز بين طريق الهدى والضلال ، والغي والرشاد ، ليهتدي بذلك المهتدون ، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه . ﴿ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه ، فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت ، أمكن اجتنابها ، والبُعد منها ، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة ، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل[(٣)] ، ففي الآية دلالة واضحة على بيان الحق وكشف الباطل.

الدليل الثالث : قولـــه تعـــالى :

﴿ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي ﴾ [(٤)]

أي: قل يا محمد – ﷺ– لأهل الكفر والباطل : إني على برهان من ربي ويقين ، لا على هوى وشك ، كما هم عليه من أتباع الشبه الداحضة ، والشكوك الفاسدة ، التي لا مستند لها إلا مجرد الأهواء الباطلة[(٥)] ، ففي الآية دلالة صريحة على أن يخبر الداعي أهل الكفر والباطل

---

(١) – فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير : الإمام محمد بن علي الشوكاني ، ٥٧٤/٣ ، ط : دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

(٢) — سورة الأنعام : الآيـــة ٥٥ .

(٣) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٢٠ .

(٤) — سورة الأنعام : من الآيـــة ٥٧ .

(٥) – فتح القدير : الإمام الشوكاني : ١٧٧/٢ .

ويعلن فيهم الحق الذي هو عليه ويدعوهم إليه بالحجة والبرهان ويرد على ما هم عليه من الأهواء والشبهات الباطلة .

الدليل الرابع : قولـــه تعـــالى :

﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (1)

﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي: ينصر أهله ويستأصل أهل الباطل ، ويري عباده من نصره للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم ، ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: لإحقاق الحق بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه ، ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ ﴾ أي: لإبطال الباطل بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه ، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ فلا يبالي الله بهم من كرههم من إحقاق الحق وإبطال الباطل (2).

الدليل الخامس : قولـــه تعـــالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (3)

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي: بالمقالة المحكمة الصحيحة ، قيل : وهي الحجج المفيدة لليقين ، ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ وهي المقالة التي يستحسنها السامع وتبلغ من نفسه مبلغاً حتى يقتنع بها ويعمل بما فيها ، وتكون نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها ، قيل : وهي الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة ، ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة(4) ، ففي الآية دعوة صريحة إلى الجدال ، ومن المعلوم أن في المجادلة تخطئة المخالف في معتقداته وأفكاره والردّ على شبهاته بالحجج والبراهين لإبطال ما هو عليه من الباطل وإحقاق الحق وإثبات الصواب .

---

(1) – سورة الأنفال : الآيـــة ٧ – ٨ .

(2) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٧٨ .

(3) – سورة النحل : من الآيـــة ١٢٥ .

(4) – فتح القدير : الإمام الشوكاني : ٢٩١/٣ .

الدليل السادس : تناولُ القرآنِ الكريم شبهات المشركين والكفار ومناقشتُه إياها وكشف زيغها وإبطالها وبيان الصواب وإثبات الحق فيها بالحجة والبرهان دليل على مشروعية الردّ على الشبهات ، والأدلة من هذا النوع كثيرة منها – مثلاً – :

١– قول الله ﷻ: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[1] ، نزلت هذه الآية حكاية عن شبهة أثارها المشركون في مصدر القرآن الكريم ، وقد جاءوا بأقوال متناقضة عن مصدر القرآن الكريم ، فقالوا تارة بأنه من اختلاق محمد نفسه – ﷺ – ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾[2] ، وتارة بأنه – ﷺ– افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾[3] ، وتارة بأن القرآن سحر ، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[4] .

وقد فند القرآن الكريم هذه الشبهة وردّ عليها بأساليب عدة وصور مختلفة فقال الله تعالى – مثلاً –: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[5] ، وقال سبحانه : ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[6] ، وقال أيضاً ﷻ : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[7] ، وقال أيضاً جلّ شأنه : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴾[8] .

٢– أثار المشركون شبهة بوجود التناقض في القرآن الكريم – فمثلاً – لما قرأ رسول الله – ﷺ – قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[9]،

---

(١) – سورة المدثر : الآيـــة ٢٥

(٢) – سورة يونس : من الآيـــة ٣٨ .

(٣) – سورة الفرقـــان : من الآيـــة ٤ .

(٤) – سورة سبأ : من الآيـــة ٤٣ .

(٥) – سورة الإسراء : الآيـــة ٨٨ .

(٦) – سورة هـــود : من الآيـــة ١٣ .

(٧) – سورة يونس : من الآيـــة ٣٨ .

(٨) – سورة الطور : الآيـــة ٣٤ .

(٩) – سورة الأنبياء : الآيـــة ٩٨ .

قال ابن الزبعري[1] : يا محمد : ألست تزعم أن عزيراً رجل صالح ، وأن مريم صالحة ؟ قال : بلى، فقال: فإن الملائكة ، وعيسى ، وعزيراً ، ومريماً يُعبدون من دون الله ، فهؤلاء في النار، فأنزل الله ﷻ ردّاً عليه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾[2].

٣- انحرف المشركون في العبادة بالشرك حيث جعلوا مع الله آلهة أخرى معتقدين فيها النفع والضر ، كما قال الله تعالى حكاية عنهم على إنكارهم على النبي - ﷺ - دعوته إلى توحيد الله ﷻ ، وإفراده بالعبادة ، وترك عبادة الآلهة المزعومة :﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾[3] ، فردّ الله سبحانه وتعالى على هذه الشبهة في كتابه العزيز بأساليب عدة وفي مواضع كثيرة فقال ﷻ - مثلاً - :

﴿ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾[4] .

وقال جلّ شأنه: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[5].

وقال جلّ وعلا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾[6].

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[7] .

وقال ﷻ : {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}[8] .

---

(١) – هو عبد الله بن الزبعري بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم القرشي السهمي ، أمه عاتكة بنت عبد الله بن عمرو بن وهب بن حذافة بن جمح ، وكان شديدا على المسلمين ثم أسلم في الفتح ، يكنى أبا سعد ، كان شاعر قريش وكان من أشعرهم ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه فأمر له بحلة ، (الإصابة في تمييز الصحابة ، ٨٧/٤) .

(٢)- سورة الأنبياء : الآية ١٠١ ، و (انظر : فتح القدير : للإمام الشوكاني : ص٤٣١).

(٣)- سورة ص : الآية ٥ .

(٤) – سورة الزمر : من الآية ٣٨ .

(٥) – سورة الأنبياء : الآية ٢٢ .

(٦)- سورة الحج : من الآية ٧٣ .

(٧) – سورة البقرة : الآية ٢١ .

(٨) – سورة الزخرف : الآية ٨٧ .

ثانياً : السنة النبوية :

هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي وأدلته ، وهي من الأدلة المتفق عليها بين أئمة المسلمين.

وقد دلت السنة على مشروعية الردّ على الشبهات ، فمن أقوال النبي – ﷺ – الدالة على ذلك – مثلاً – :

الدليل الأول : حديث أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم "[1] ، الشاهد : وألسنتكم ، والحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس والمال وباللسان ، وباللسان أي بدعوة المشركين إلى الله ، وإقامة الحجة عليهم ، والرد على شبهاتهم وافتراءاتهم ، وزجرهم ونحوه[2] .

الدليل الثاني : حديث علي بن أبي طالب ، ومعاذ ، وابن عمر ، وأسامة بن زيد ، وغيرهم – رضي الله عنهم – أن رسول الله – ﷺ – قال : " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين "[3] .

"والمقصود أن هذه الأمة – ولله الحمد – لم يزل فيها من يتفطن لما في كلام أهل الباطل من الباطل ويردّه ، وهم لما هداهم الله به ، يتوافقون في قبول الحق ، وردّ الباطل رأياً ورواية من غير تشاعر ، ولا تواطؤ "[4] .

---

(١) – سنن أبي داود : أبو داود سليمان الأشعث السجستاني ، كتاب الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو، ص٢٨٤، رقم الحديث :٢٥٠٤، (صححه الألباني) .

(٢) – عون المعبود شرح سنن أبي داود : محمد أشرف الصديقي العظيم آبادي ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان، كتاب الجهاد، باب : كراهية ترك الغزو، ٧٨/٧،٧٧، ط٢، ١٤٢١هـ–٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد : الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر الأندلسي، ٢٨/١، تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م ، الناشر : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية .

– ومشكاة المصابيح : محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، كتاب العلم ، ٥٣/١ ، رقم الحديث : ٢٤٨ ، (صحيح) ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ –١٩٨٥م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

– والإفادة من مفتاح دار السعادة : ابن القيم : ٢٦٩/١ ، ٢٧٠، ط١ ،١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م ، مكتبة الصحابة ، السعودية ، جدة .

(٤) – مجموع فتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٢٣٣/٩ .

وقد وقف النبي – ﷺ – مواقف كثيرة ردّ فيها على شبهة يقع فيها أحد من صحابته – رضي الله عنهم – ، أو من المدعوين غير المسلمين ، ولا يتركه ينقاد لشبهته فيضل عن سواء السبيل ، وتؤكد هذه المواقف النبوية مشروعية الردّ على الشبهات وأهميته لصيانة الدين والدعوة إليه ، وفيما يلي ذكر أمثلة من تلك المواقف كأدلة على مشروعية الردّ :

الدليل الأول : عن عبد الله بن عمرو ، قال : حُدِّثتُ أن رسول الله – ﷺ – قال: ''صلاة الرَّجل قاعداً نصف الصلاة '' . قال : فأتيــته فوجدته يصلي جالساً ، فوضعت يدي على رأسه ، فقال : ما لك يا عبد الله بن عمرو ؟ قلت : حُدِّثتُ ، يا رسول الله ! أنك قلت : ''صلاة الرَّجل قاعداً على نصف الصلاة'' . وأنت تصلي قاعداً ! قال : '' أجل، ولكنِّي لست كأحد منكم ''[1] .

نجد في هذا الحديث الشريف دلالة واضحة على الردّ على الشبهة ، فلما رأى عبد الله بن عمرو النبي – ﷺ – يصلي قاعداً ، وكان قد سمع بأنه – ﷺ – قال : '' صلاة الرَّجل قاعداً على نصف الصلاة '' التبس عليه الأمر ووقع في شبهة أنه إذا ما كان الحديث الذي كان قد سمعه صحيحاً ؟ ! فإذا كان صحيحاً فصلاته قاعداً لا تــتطابق مع ما سمعه من الحديث ، فسأله قائلاً : '' وأنت تصلي قاعداً ''؛ فردّ النبي– ﷺ – لإزالة شبهته قائلاً ؛ '' أجل ، ولكنِّي لست كأحد منكم ''.

الدليل الثاني : عن عبد الله قال : لما كان يوم حنين آثر رسول الله – ﷺ – ناساً في القسمة ، فأعطى الأقرع ابن حابس مائةً من الإبل ، وأعطى عيــينة مثل ذلك ، وأعطى أناساً من أشراف العرب ، وآثرهم يومئذ في القسمة ، فقال رجل : والله ! إن هذه لقسمة ما عُدل فيها ، وما أريد فيها وجه الله ، قال فقلت : والله ! لأخبرن رسول الله – ﷺ – ، قال : فأتيته فأخبرته بما قال ، قال : فتغــير وجهه حتى كان كالصّرف[2] ، ثم قال : '' فمن يعدل إن لم

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب صلاة ، باب : صلاة الليل وعدد ركعات ، ص٢٩٠، رقم الحديث : ٧٣٥ .

(٢) – الصِّرف : بكسر الصاد ، وهو صبغ أحمر ، يصبغ به الجلود ، وقد يسمى الدم أيضاً صرفاً ، (أنظر : المنهاج شــرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، كتاب الزكاة ، باب فضل التعفف والصبر والقناعة والحث على كل ذلك ، ١٥٨/٧ ، ط٢ ، ١٣٩٢هـــ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت) .

يعدل الله ورسوله !'' . قال : ثم قال : '' يرحم الله موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر '' قال قلت : لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً[1] .

قوله : '' إن هذه لقسمة ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجه الله '' طعن في رسول الله وشبهة في أمانته وقول على الله تبارك وتعالى .

إن هذه الشبهة كفر ونفاق وكيد على المسلمين ، وفي الحديث دلالة صريحة على الردّ على الشبهة حيث لما بلغ النبي – ﷺ – هذه المقولة تغير وجهه بالغضب وقال : ''فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله ؟!''.

كما يوجد في الحديث جواز إخبار الإمام وأهل الفضل بما يقال فيهم مما لا يليق بهم وذلك لتحذير القائل[2] ، ولم يكن ذلك إلاّ للقضاء على الشبهة ومنعها من الانتشار وإزالتها عن نفوس الناس .

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : '' لما أفاء الله على رسوله – ﷺ – يوم حنين ، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال : '' يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وكنتم عالة فأغناكم الله بي '' . كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنُّ، قال : ''ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله – ﷺ – '' . قال : كلما قال شيئاً ، قالوا : الله ورسوله أمنُّ، قال : ''لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبي – ﷺ – إلى رحالكم ، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً ، لسلكت وادي الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار والناس دثار ، إنكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض'' [3] .

فإن خطاب النبي – ﷺ – هذا لإزالة ما وجده الأنصار في أنفسهم من شبهة أو شك لما لم يعطهم شيئاً من القسمة ، يدل دلالة واضحة على مشروعية الردّ على الشبهات .

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الزكاة ، باب : ذكر الخوارج وصفاهم ، ص٤٠٨، رقم الحديث : ١٠٦٢ .

(٢) – فتح الباري : الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،١٠ / ٥١٢ ، ط: ١٣٧٩هـ ، دار المعرفة ، بيروت .

(٣) – صحيح البخاري : كتاب المغازي ، باب : غزوة الطائف ، ص٨١٧ ، رقم الحديث : ٤٣٣٠ .

الدليل الثالث: عن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: "لم أزل حريصاً أن أسأل عمر– رضي الله عنه –، عن المرأتين من أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم – اللتـــين قال الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴾ (١)، حتى حجَّ عمر وحججت معه، فلما كنا ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه، فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين! من المرأتان من أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم – اللتان قال الله عز وجل لهما: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴾. قال عمر– رضي الله عنه –: وا عجباً لك يا ابن عباس! (قال الزهري: كره، والله! ما سأله عنه و لم يكتمه)، قال: هي حفصة وعائشة، ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنَّا، معشر قريش، قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منـــزلي في بني أمية بن زيد، بالعوالي، فتغضبت يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله! إن أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم – ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فانطلقت فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟ فقالت: نعم، فقلت أتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله – صلى الله عليه وسلم –، فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا تسأليه شيئاً، وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منك (يريد عائشة). قال: وكان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النـــزول إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فينـــزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، وكنَّا نتحدث؛ أن غسَّان تُنعل الخيل لتغزونا، فنـــزل صاحبي، ثم أتاني عشاءً فضرب بابي، ثم ناداني، فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، قلت: ماذا؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق النبي – صلى الله عليه وسلم – نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟ فقالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليَّ، فقال: قد ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى انتهيت إلى المنبر فجلست، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم فجلست قليلا، ثم غلبني ما أجد، ثم أتيت الغلام فقلت: استأذن

---

(١) – سورة التحريم : الآيـــة ٤ .

لعمر، فدخل ثم خرج إليَّ، فقال: قد ذكرتك له فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل، فقد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله – ﷺ – فإذا هو متكئ على رمل حصير، قد أثر في جنبه ، فقلت: أطلقت، يا رسول الله ! نساءك؟ فرفع رأسه إليَّ وقال: (لا)، فقلت: الله أكبر! لو رأيتنا، يا رسول الله! وكنَّا معشر قريش، قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغضبت على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله! إنّ أزواج النبي – ﷺ – ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر ، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله – ﷺ –، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله – ﷺ –، فقلت: يا رسول الله! قد دخلت على حفصة، فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم منك وأحب إلى رسول الله – ﷺ – منك، فتبسم أخرى فقلت: أستانس، يا رسول الله! قال: (نعم). فجلست، فرفعت رأسي في البيت، فوالله! ما رأيت فيه شيئاً يردُّ البصر ، إلا أهباً ثلاثةً ، فقلت : ادع الله يا رسول الله ! أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالساً ثم قال : "أفي شكٍ أنت ؟ يا ابن الخطاب ! أولئك قوم عجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ". فقلت : استغفر لي، يا رسول الله ! وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن ، حتى عاتبه الله ﷻ "[1] .

من الشواهد في الحديث : " ادع الله يا رسول الله ! أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالساً ثم قال : " أفي شكٍ أنت ؟ يا ابن الخطاب! أولئك قوم عجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ".

لما وجد عمر – رضي الله عنه – النبي – ﷺ – مضطجعاً على رمل حصير ليس بينه وبين النبي – ﷺ – فراش ، قد أثر الرمل بجنبه ، متكئاً على وسادة من أدم ، ولم ير في بيته من شيء يردّ البصر غير أهبة ثلاثة وهو رسول الله وخليله ، وكان يعلم ما كان يعاني منه المؤمنون من ضيق وفقر ، فلما رأى – رضي الله عنه – فارس والروم ، ينعمون بنعم الله وهم كفار ظن بأن المؤمنين أولى وأحق منهم بنعم الله ﷻ ، فلماذا هم في ضيق وفقر ! فطلب من النبي – ﷺ – أن يدعو الله ﷻ ليوسع على أمته ، ولكن أدرك النبي – ﷺ – أن السبب الذي ذكره عمر – رضي الله عنه – فيه

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الطلاق ، باب : في الإيلاء واعتزال النساء ، ص٥٩٥، رقم الحديث : ١٤٧٩ ، وصحيح البخاري : ص٤٦٥، رقم الحديث : ٢٤٦٨ .

شبهة وشك وهو أن المؤمنين يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً فهم إذن أحق وأولى من الكفار بنعمه ﷻ ، فلماذا الواقع على عكس ذلك ؟ ! فردّ النبي – ﷺ – على عمر – رضي الله عنه – بما فيه إزالة شكه وردّ شبهته وبيان الحقيقة ، وهو أن حظ الكفار هو ما نالوه من نعيم الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق ، والدنيا فانية ونعيمها زائل ، أما الآخرة فهي أبدية ونعيمها باقي ثابت ، ومن الأحاديث التي تؤكد هذا الأمر وتبين حقيقة الدنيا ونعيمها للمؤمن ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر "[1] .

الدليل الرابع : عن عائشة رضي الله عنها قالت : صنع رسول الله – ﷺ – أمراً فترخَّص فيه ، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه ، فكأنهم كرهوه وتنـــزَّهوا عنه ، فبلغه ذلك ، فقام خطيباً فقال : "ما بالُ رجال بلغهم عنِّي أمر ترخصت فيه ، فكرهوه وتنـــزهوا عنه ، فوالله ! لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشيةً "[2] .

إن كراهة هؤلاء لما ترخص فيه النبي – ﷺ – ورغبتهم عنه لم تكن إلاّ لشبهة وقعوا فيها وهي أن الرخصة منافية لخشية الله أو هي أقل أجراً وثواباً ، فلذا لما بلغ ذلك النبي – ﷺ – قام بالردّ على الشبهة لإزالتها عن نفوس أصحابها حيث خطب فيهم بيّن من خلاله بأن الرخصة لا تنافي الخشية لله ، فلا تعارض بينهما ، واستدلّ على ذلك بقوله بأنه – ﷺ – " أعلمهم بالله وأشدهم له خشية ".

الدليل الخامس: عن الأحنف بن قيس قال : خرجت وأنا أريد هذا الرَّجل ، فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد يا أحنفُ؟ قلتُ: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ ، يعني علياً، قال: فقال لي: يا أحنف! ارجع، فإني سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار ". قال: فقلتُ، أو قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: " إنه قد أراد قتل صاحبِهِ "[3] .

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الزهد والرقائق ، باب : ما بين النفختين ، ص ١١٨٧، رقم الحديث : ٢٩٥٦ .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، باب : علمه ﷺ بالله تعالى ، ص٩٥٨ ، رقم الحديث ٢٣٥٦ .

(٣) – صحيح البخاري : – باختلاف يسير في اللفظ – ، كتاب الإيمان ، باب : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا، ص٢٩ –٣٠ ، رقم الحديث : ٣١ .

– وصحيح مسلم : كتاب الفتن ، باب : إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، ص١١٥٧ ، رقم الحديث : ٢٨٨٨ .

الشاهد : سؤال أبي بكرة : ‘‘فقلت ، أو قيل ، يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول؟’’، وإجابة النبي – ﷺ – ‘‘ إنه قد أراد قتل صاحبِهِ ’’، حيث يُفهم من سؤال أبي بكرة بأن الأمر قد التبس عليه ، فرأى بأن دخول القاتل النار أمر مفهوم ومعقول إذ يتطلبه العدل ، أما المقتول فهو مظلوم فكيف يدخل النار ؟ ! ، فردّ النبي – ﷺ – عليه بأنه كان حريصاً على قتل صاحبه ، وبهذا زال الالتباس وتبين الأمر ، ففي الحديث فائدة جواز سؤال العلم عند الوقوع في شك أو شبهة ، كما أن فيه دليلاً على إزالة الشبهة ورفع الالتباس ببيان الحق وتوضيحه .

الدليل السادس : حديث الإفك[1] ، والشاهد فيه قول عائشة – رضي الله عنها – : ‘‘... فقام رسول الله – ﷺ – من يومه ، فاستعذر من عبد الله ابن أبي ابن سلول ، فقال رسول الله – ﷺ –: ‘‘مَن يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ...’’.

ففي الحديث دلالة واضحة على مشروعية الردّ على الشبهات حيث ردّ النبي – ﷺ – على شبهة كاذبة ومن يقف وراءها ويشيعها للنيل منه – عليه أفضل الصلاة والسلام – .

كما يجد المتأمل في هذا الحديث دروساً كثيرة وفوائد جمّة ، والتي كثيراً ما يحتاج إليها المرء في حياته الأسرية والاجتماعية للتعامل السليم الصحيح مع نفسه وأسرته ومجتمعه في حالات مماثلة أو متشابهة لما ذكر في الحديث .

ومما يتعلق من الفوائد بموضوع الدراسة :

١- قيام أمير المؤمنين أو من يعنيه الأمر بالتحقيق في شبهة أشيعت أو أمرٍ حصل فيه شك والتباس .

٢- التعرف على مدى تصديق الناس للشبهة المشاعة .

٣ – استشارة ذوى علم وبصيرة للبحث عن حل مناسب عند الأزمات .

الدليل السابع : عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي – ﷺ – ، يسألون عن عبادة النبي – ﷺ – ، فلما أخبروا كأنهم تقالّوها ، فقالوا : وأين نحن

(١) – أنظر : صحيح البخاري : كتاب الشهادات ، باب : تعديل النساء بعضهن بعضاً ، ص٥٠٤، رقم الحديث : ٢٦٦١، وأخرجه مسلم : رقم الحديث : ٢٧٧٠ .

من النبي – ﷺ – ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتــزوج أبــداً، فجاء رسول الله – ﷺ – فقال : " أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أمــا والله إني لأخشــاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فلــيس منِّي "[1] .

"تقالّوها" أي : استقلّوها ، وأصل تقالّوها تقاللوها ، أي : رأى كل منهم أنها قليلة ، وقولهم : " وأين نحن من النبي – ﷺ – ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" ، أي: أن من لم يعلم بحصول ذلك له ، يحتاج إلى المبالغة في العبادة عسى أن يحصل ، بخلاف من حصل له ، لكن قد بين النبي – ﷺ – أن ذلك ليس بلازم فأشار إلى هذا بأنه أشدهم خشية وذلك بالنسبة لمقام العبودية في جانب الربوبية ، وأشار في الحديث الآخر عن عائشة والمغيرة ، إلى معنى آخر بقوله : " أفلا أكون عبداً شكوراً " ، ففيه إشارة إلى ردّ شبهتهم التي بنوا عليها أمرهم من أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيد في العبادة بخلاف غيره ، فأعلمهم أنه مع كونه يبالغ في التشديد في العبادة، أخشى لله وأتقى من الذين يشددون ، وإنما كان ذلك لأن المشدد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد فإنه أمكن لاستمراره وخير العمل ما داوم عليه صاحبه[2] .

"وقول النبي – ﷺ – " لكني " استدراك من شيء محذوف دل عليه السياق ، أي: أنا وأنتم بالنسبة إلى العبودية سواء لكن أنا أعمل كذا ، وقوله :"فمن رغب عن سنتي فليس مني" المراد بالسنة الطريقة ، والمراد من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فهو ليس مني ، أي: ليس على ملتي ، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى وقد عابهم بأنهم ما وفوا بما التزموه ، وطريقة النبي – ﷺ – الحنيفية السمحة فيفطر ليتقوى على الصوم ، وينام ليتقوى على القيام ، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل "[3] .

فمن دلالات الحديث مشروعية إزالة الشبهة عن المجتهدين ،كما فيه الردّ على شبهة الذين منعوا استعمال الحلال من الأطعمة والملابس وآثروا غليظ الثياب وخشن المأكل[4] .

---

(١) – صحيح البخاري : كتاب النكاح ، باب : الترغيب في النكاح ، ص١٠٠٥ ، رقم الحديث : ٥٠٦٣ .

(٢) – فتح الباري : الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ٧/٩ .

(٣) – المرجع نفسه : ٧/٩، ٨ .

(٤) – المرجع نفسه : ٩/ ٨ .

ثالثاً– مذهب الصحابي :

كان الصحابة مرجع الإفتاء ونبع الاجتهاد حينما طرأت حوادث جديدة ، ووقعت وقائع لا عهد للمسلمين بها في حياة الرسول – ﷺ – ، وكانوا في الإفتاء متفاوتين بتفاوت نضوجهم الفقهي ، فأثر عن جملة منهم كثير من الفتاوى بحيث يكوّن المجموع مجلداً ضخماً إلا إنه منثور في بطون كتب العقيدة والسنة والفقه .

ولا يوجد خلاف في حجية قول الصحابي فيما أجمع عليه الصحابة صراحة ، أو كان مما لا يعرف له مخالف كما في توريث الجدات السدس .

ولا خلاف أيضاً في أن قول الصحابي المقول اجتهاداً ليس حجة على صحابي آخر ؛ لأن الصحابة اختلفوا في كثير من المسائل ، ولو كان قول أحدهم حجة على غيره لما جاء منهم هذا الخلاف .

وإنما الخلاف في فتوى الصحابي بالاجتهاد المحض بالنسبة للتابعي ومن بعده ، هل يعتبر حجة شرعية أو لا ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أنه حجة شرعية مقدمة على القياس حيث قال به الإمام أبو حنيفة وأئمة الحنفية ، والشافعي في قول قديم له ، وأحمد في رواية له وهي الراجحة في مذهبه[١] .

وقد لزم أهل السنة منهج الصحابة في كل شيء ، وكان شيخ الإسلام من أشدّهم تمسكاً به حيث يرى " أن معرفة مراد الرسول – ﷺ – و مراد الصحابة هو أصل العلم وينبوع الهدى "[٢] ، و" لا يرى طريقاً أفضل من طريقهم، ومن قال بغير ذلك فهو مخطئ ضال مبتدع"[٣] ، و" يرى أن علماء الإسلام يتبعون أصولاً ثلاثة في إثبات الأحكام الشرعية لا يجوز إثبات حكمٍ شرعي بدونها ، واحد منها سبيل السابقين الأولين ، والأخرى كتاب الله ﷻ وسنة رسوله – ﷺ – "[٤] ، وقال : " وما أحسن قول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – حيث قال : أيها الناس من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك

---

(١) – أصول الفقه الإسلامي : د. وهبة الزحيلي ، ٢/ ٨٨٠ ، ٨٧٩ ، ط٢ : ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م ، دار الفكر، دمشق .

(٢)– منهج ابن تيمية في الدعوة : د. عبد الله بن رشيد الحوشاني ، ١٤٣/١ ، (أصله رسالة الدكتوراه مقدمة في كلية الدعوة والإعلام ، العام الجامعي : ١٤١٣هـ).

(٣)– المرجع السابق ، ١٤٣/١ .

(٤)– المرجع نفسه ، ١٤٣/١ .

أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة : أبرّها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبـــيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم '' ، وقال : ''ولهذا أحسن الشافعي – رحمه الله – في قوله : هم فوقنا في كل علم وفقه ودين وهدى، وفي كل سبب يُنال به علم وهدى ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا '' وقال : '' قال أحمد بن حنبل : أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله – ﷺ –''(١) .

وللصحابة– ﷺ – مواقف عديدة وأقوال كثيرة تدل على مشروعية الردّ على الشبهات، فمنها — مثلا – :

<u>الدليل الأول</u> : قال ابن جرير الطبري في تفسيره : '' حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال : ثنا ابن علية ، عن ابن عون ، عن الحسن ، أن ناسًا لقوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياءَ من كتاب الله أمر أن يُعمل بها ، لا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك . فقدم وقدموا معه ، فلقيه عمر – رضي الله عنه – فقال : متى قدمت ؟ قال : منذ كذا وكذا . قال : أبإذنٍ قدمت ؟ قال : فلا أدرى كيف ردَّ عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ناسًا لقوني بمصر ، فقالوا: إنا نرى أشياءَ من كتاب الله تبارك وتعالى أمر أن يُعمل بها ، لا يعمل بها ، فأحبُّوا أن يلقوك في ذلك . فقال اجمعهم لي . قال : فجمعتهم له – قال ابن عون : أظنه قال : في بهوٍ – فأخذ أدناهم رجلاً ، فقال : أنشدك بالله وبحقِّ الإسلام عليك ، أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم . قال: فهل أحصيته في نفسك ؟ قال : اللهمَّ لا . قال : ولو قال :نعم . لخصمه . قال : فهل أحصيته في بصرك ؟ هل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك ؟ قال : ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم ، فقال : ثكلت عمر أمه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ، قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ، قال : وتلا : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ

(١)– منهاج السنة النبويـــة : الإمام ابن تيمية ، ٨١/٦ ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، طبع : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١١هـــ – ١٩٩١م .

وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلاً كَرِيمًا ﴾[1] . هل علم أهل المدينة – أو قال : هل علم أحد – فيما قدمتم ؟ قالوا : لا . قال : لو علموا لوعظت بكم "[2] .

في القصة دلالة صريحة على مشروعية الردّ على الشبهات وإزالتها عن نفوس أناس وقعوا فيها حيث لما رأوا بأن هناك أوامر في كتاب الله لا يعمل بها جاءوا إلى عبد الله بن عمرو وذكروا ذلك عنده وجاءوا ليلقوا أمير المؤمنين في ذلك فكأنهم اعتقدوا بأنه لابد من امتثال جميع ما أمر الله به في كتابه للحصول على غفرانه ورضاه والنجاة في الآخرة ، فأزال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – شبهتهم حيث أمر بجمعهم له ، ثم فأخذ أدناهم رجلاً فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك : أقرأت القرآن كله ؟

قال : نعم .

قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ أي هل استقصيت العمل به في تصحيح نيتك ، وتطهير قلبك ، ومحاسبة نفسك ؟

قال : اللهمَّ لا . قال : ولو قال : نعم لخصمه .

قال : فهل أحصيته في بصرك ؟ هل أحصيته في لفظك (أي كلامك) ؟ هل أحصيته في أثرك (أي خطواتك ومشيك) ؟

ثم تتبَّعَهم حتى أتى على آخرهم ، فقال : ثكلت عمر أمُّه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله أي بالصورة التي تفهمونها أنتم ، ولم تقيموها في أنفسكم باعترافكم وقد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات .. وتلا : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلاً كَرِيمًا ﴾.

فزالت شبهتهم وبان الأمر لهم ، كما يدل آخر كلام أمير المؤمنين – رضي الله عنه – على حزمه وشدته لمنع الشبهة من الانتشار حيث قال :

"... لو علموا لوعظت بكم . أي لجعلتكم عظة ونكالاً لغيركم ".

---

(١) – سورة النساء : الآيـــة ٣١ .

(٢)– جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر ، ٦/ ٦٥٨ ، ط١ ، ١٤٢٢هـــ – ٢٠٠١م ، دار هجر للطباعـــة والنشر ، القاهرة .

وهكذا ، وبهذا الواعي لمصالح الدين والأمة والفقه لكتاب الله ، حسم أمير المؤمنين القضية من بدايتها ، وسدّ باب الشبهة والتشدد والتنطع ، ولو كان تساهل فيه لربما هبت منه رياح شبهة وفتـــنة لا يعلم إلاّ الله تعالى عواقبها[1] .

الدليل الثاني : حوار ابن عباس – رضي الله عنه – مع الحرورية من الخوارج ومناقشته إياهم في ادعاءاتهم للردّ على شبهاتهم بغية إزالتها عنهم وبيان ما هو الحق والصواب في الأمر[2] .

شبهات الحرورية :

– عدم جواز لبس الثياب الحسنة .

– حكّم علي – رضي الله عنه – الرجال في أمر الله ، والله يقول : ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[3] .

– قاتل علي معاويةَ – رضي الله عنهما – ولم يسبِ ولم يغنم ، فلئن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم ، ولئن كانوا كافرين حل قتالهم وسبيهم .

– ومحا نفسه عن إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

هذه كانت شبهات الحرورية ، تناول ابن عباس – رضي الله عنه – جميعها ؛ واحدة واحدة ، من خلال الحوار الذي تقدم ذكره ، وردّ عليها بأدلة قوية من النقل والعقل ، أقنع بها الكثير منهم وأفحم الجميع ، فرجع منهم الكثير[1] .

---

(١)– الحوار بين أهل الحق وأهل الباطل : إعداد : إدارة الأبحاث والنشر ص٩٥ ، ٩٦ .

(٢)– انظر الحوار في المطلب الثاني بالمبحث الأول في التمهيد، ص٢٩ .

(٣)– سورة يوسف : من الآيـــة ٤٠ .

(١)– انظر للتفصيل : ص٣٠ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ من هذه الرسالة .

رابعاً- شرع من قبلنا :

إن منهج الردّ على الشبهات في الدعوة إلى الله لكشف زيغها وبطلانها بغية إزالتها عن أذهان المدعويـــين وإيضاح الحق والصواب لهم كان مشروعاً ومعمولاً به في جميع الشرائع السماوية قبل شريعة الإسلام .

ويجب الرجوع إلى القرآن الكريم أو السنة النبوية بحثاً عن الأدلة على ذلك ؛ وذلك لاندثار الكتب السماوية الأخرى وتحريفها وتبديلها ، ولأن شرعاً من قبلنا ليس شرعاً لنا إلاّ ما وافقت له الشريعة الإسلامية منه حيث يكون قد ورد حكمه في القرآن الكريم أو ثبت في السنة الصحيحة[1] .

وأدلة شرع من قبلنا على مشروعية الردّ على الشبهات كثيرة منها – مثلا – :

الدليل الأول: قول الله ﷻ :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1] .

هذا خبر من شرائع قبلنا ؛ يخبر الله سبحانه وتعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له،

---

(١)- أصول الفقه الإسلامي : د. وهبة الزحيلي ، ٨٧٦/٢ ، وانظر التفصيل في الموضوع في المرجع المذكور ، ص٨٦٧ – ٨٧٨ .

(١)- سورة إبراهيم : الآية ٩-١٢ .

حيث قالوا : ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ ، قالت الرسل ردّاً عليهم لإزالة شكهم وشبهتهم : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وهذا يحتمل شيئين:

أحدهما : أفي وجوده شك ؟ ! فإن الفِطَرَ (شاهدة) بوجوده ومجبولة على الإقرار به ، فالاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليهما ، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء وإلهه ومليكه .

والمعنى الثاني في قولهم : ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ أي : أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك؟!، وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم إلى الله زلفى ، وقالت لهم رسلهم : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي : في الدار الآخرة ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : في الدنيا ،كما قال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾[1] ، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول ، وحاصل ما قالوه ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ، وهذه شبهة أخرى ، أي : كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة ، ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : خارق نقترحه عليكم ، ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي : صحيح أنّا بشر مثلكم في البشرية ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي : بالرسالة والنبوة ، ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : في جميع أمورهم ، ثم قالت الرسل : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : وما يمنعنا من التوكل عليه ، وقد هدانا

---

(١) – سورة هود : من الآيـــة ٣ .

لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ، ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ أي : من الكلام السيئ والأفعال السخيفة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1] .

الدليل الثاني : قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2] .

يبين القرآن الكريم من خلال هذه الآيات الكريمات أن نوحاً – عليه السلام – لما قام بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له مبيناً بأن ليس لهم إله غيره ، اتهمه قومه بأنه في ضلال بين، فردّ عليهم نوح – عليه السلام – لإزالة شبهتهم بأنه ليس به ضلالة وإنما هو رسول من رب العالمين ؛ بعث إليهم ليبلغهم رسالات ربه وينصح لهم .

الدليل الثالث : قوله تعالى :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن

---

(١)- تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير : الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، ١٥١٤/٢ ، ط٥ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض .

(٢)- سورة الأعراف : الآيــة ٥٩-٦٣ .

طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

أثار قوم نوحٍ شبهاتٍ مختلفة ليطعنوا في نبوته ، فنرى – مثلاً – في أحد الحوارات التي جرت بينه وبينهم والذي بينته الآيات السابقة أنهم أثاروا ثلاث شبهات وشكوك متتالية وهي:

(١)- كون نوح – عليه السلام – بشراً وليس بملك، فكيف أوحي إليه من دونهم إذ هم السادة والكبراء .

(٢)- وكون الذين اتبعوه من الأراذل وبادئ الرأي ، وليسوا من الأشراف ، ولا من أهل النظر والفكر ، فإتباعهم له لا معنى له .

(٣)- وكون نوح والذين اتبعوه ليسوا أهل الفضل عليهم ؛ لا في خلْق ولا خُلُق ولا رزق ولا حال ، فكيف أوحي إلى نوح ! وكيف يكون من اتّبَعه على الحق ! فإذن هم كاذبون . فردّ عليهم نوح – عليه السلام – بصراحة ، وناقشهم بحجة ، ودعاهم إلى التأمل والتفكر ، فهذا مما يؤكد مشروعية الردّ على الشبهات .

الدليل الرابع : قوله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1] .

---

(١)- سورة هـود : الآيـة ٢٧-٣١ .

(١)- سورة الأعراف : الآيـة ٦٥-٦٩ .

بين القرآن الكريم أن هوداً – عليه السلام – لما قام بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده وبين بأنه لا إله لهم إلاّ الله ، اتهمه قومه بسفاهة وكذب ، فردّ عليهم هود – عليه السلام – بأنه ليس به سفاهة وإنما هو رسول رب العالمين ، بُعث إليهم ليبلغهم رسالات ربه وهو لهم ناصح أمين.

الدليل الخامس : قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1]

تحكي هذه الآيات الكريمات حوار رسول الله وخليله إبراهيم – عليه السلام– مع أبيه وقومه، وتبين كيف أنكر على أبيه وقومه عبادتهم للأصنام مع الله عز وجل ، مبيناً لهم عدم استحقاقها للعبادة إذ هي لا تستجيب دعاءهم إذا دعوها ، ولا تفرج كربهم إذا أصابهم ، ولا ترفع عنهم مكروهاً إذا مسهم ، فيعترف أبوه وقومه ويقرّون بأنها لا تسمع دعاءً ولا تنفع ولا تضر، ثم يلجئون إلى تقليد آبائهم الضالين قائلين : ﴿ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾، فتبعناهم على ذلك ، وسلكنا سبيلهم ، وحافظنا على عاداتهم ، فردّ عليهم إبراهيم –عليه السلام– قائلاً : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فلتخلص إلي بالمساءة ، فإني عدو لها ، لا أبالي بها ، ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح – عليه السلام –: ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾[1]، وعن هود – عليه السلام – :﴿ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] ، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾[3] ، ولم تكن براءة إبراهيم من

(١)– سورة الشعراء : الآيـة ٧٠-٧٧ .

(١)– سورة يونس : من الآيـة ٧١ .

(٢)– سورة هـود : الآيـة ٥٥-٥٦ .

(٣)– سورة الأنعام : من الآيـة ٨١ .

آلهتهم وردوده على أبيه وقومه إلاّ لتزول عنهم شكوكهم وشبهتهم ويهتدوا إلى الحق فلا يعبدوا إلاّ الله سبحانه وتعالى ولا يشركوا به أحدا[1] .

---

(١)- تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ص٢٠٥٧ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٥٤١.

المطلب الثاني : حكم الردّ على الشبهات :

توطئة:

إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالهدى ودين الحق لدعوة الناس إليه ، ووسيلة الدعوة التخاطب ، والتخاطب إنما يتم عبر طريقتين ؛ المحادثة والكتابة ، وكل رسول خاطب قومه بما يحسنون من لغة التخاطب ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1] .

وللخطاب ، أي : الخطاب الدعوي ، طريقتان رئيستان ؛ طريقة عرض الحقائق المجرّد من الرّد وطريقة الردّ على الشبهات لإحقاق الحق وإثبات الصواب – كما سلف ذكرهما – ، ولكل منهما مناهج متعددة وأساليب متنوعة .

وكان الرسل يتخذون من تلك المناهج والأساليب في دعوة النـــاس إلى الهـــدى حســـب الاحتياج إليها ، وقد تبينت من خلال الدراسة في المطلب الأول من هذا الفصل مشروعية الـــردّ على الشبهات في الدعوة إلى الله ، كما اتضح بأن الردّ يكون إما لهداية ضالّ ، أو تعليم جاهل ، أو تـــثبـــيت متردد ، أو إلزام منكر ، أو قطع معاند ، أو إفحام مبطل متلدد ، فهو أحد طـــرق الرسل في الدعوة إلى الله، والقرآن الكريم حافل بردود الأنبـــياء على شبهات أقوامهم الباطلـــة ومعتقداتهم الضالة .

وهذا المطلب تم تخصيصه بتوفيق الله – عزّ وجلّ – للبحث عن حكم الردّ على الشـــبهات في الدعوة إلى الله ، وسيـــبحث الباحث عن حكمه من خلال الكتاب والسنة وأقـــوال العلمـــاء وأرائهم.

---

(١)– سورة إبراهيم : الآيـــة ٤ .

أولاً: القرآن الكريم :

تأتي فيما يلي دراسة موجزة لبعض الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع لاسترشاد بها في تقرير حكم الردّ على الشبهات .

(١)- ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾[١] .

﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ :

يقول الله تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذبين بأنهم افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، واعتنائه بهم، ورضاه عنهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، فأمر الله ﷻ نبيه محمداً - ﷺ - أن يردّ عليهم اعتقادهم الباطلة حيث قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ، أي: يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، يعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فالصواب في الأمر هو: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم . روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : "إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "[٢] ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ أي : تضاعف لهم الحسنة

---

(١) - سورة سبأ : الآيـة ٣٥ - ٣٧ .

(٢) - صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب: تحريم ظلم المسلم وخذلـه واحتقاره ودمه وعرضه ومالـه ، ص١٠٣٥، رقم الحديث : ٢٥٦٤ ، .

بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ أي : في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه(١) .

وهناك آيات أخرى تردّ على هذه الشبهة منها – مثلاً – :

قول الله ﷻ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾(٣) .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾(٤) .

(٢)– قال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٥) .

لما وجه الكافرون اتهامهم إلى المصدر الأول للشريعة الإسلامية ؛ القرآن الكريم ، واختلقوا حوله شبهة حكاها الله عنهم بقوله : ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي : إن القرآن هو قصص الأولين وأساطيرهم ، استنسخها محمد – ﷺ – وهي تقرأ عليه في أول النهار وآخره ، فأمر الله ﷻ نبيه محمداً – ﷺ – وعلمه أن يردّ عليهم شبهتهم الواهية وقولهم الباطل عن القرآن ويبين لهم الحق فيه والصواب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي : أنزل الله سبحانه وتعالى

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢٣٢٢/٣ .

(٢) – سورة المؤمنون : الآيـــة ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) – سورة التوبـــة : الآيـــة ٥٥ .

(٤) – سورة المدثـــر : الآيـــة ١١ – ١٧ .

(٥) – سورة الفرقـــان : الآيـــة ٥ ، ٦ .

الذي يعلم غيب السموات والأرض ، والقرآن الذي يشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً[1] .

(٣)- قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[2] .

لما وجه الكفار قولهم هذا إلى النبي - ﷺ - والمؤمنين متـــنكرين ومستبعدين قيام الساعة التي كان يتوعدهم بها ، أمر الله ﷻ نبيه - ﷺ - بالردّ عليهم فقال : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] أي : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر لا يزاد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾[4] ، وقال ﷻ : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾[5] .

(٤)- قال الله ﷻ : ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[6] .

جاء في هذه الآية أمر بجدال الصنف المعارض من المدعوين للحق ، يعارض هذا الصنف دعوة الحق ويعاندها بسبـــب شبهات تكون قد تمكنت منه أو شهوات سيطرت عليه حتى صار كالأسير بين يديها ، فيُجادَل المدعوون من هذا الصنف بالتي هي أحسن ، ويردّ عليهم شبهاتهم من خلال الحوار والمناظرة والمجادلة حتى تزول عنهم الشبهات فيهتدوا إلى الحق والصواب .

وذكر صاحب "زاد المسير" ثلاثة أقوال في معنى الآيـــة ، وهي :

١- جادلهم بالقرآن . قاله ابن عباس - رضي الله عنه - .

٢- جادلهم بلا إله إلا الله . قاله ابن عباس - رضي الله عنه - .

٣- جادلهم غير فظ ولا غليظ ، وأَلِنْ لهم جانبك ، قاله الزجاج[7] .

---

(١) - تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي : ص٥٢٦ ، وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير : ٢٠١٩/٣.

(٢) – سورة يونس : الآيـــة ٤٨ .

(٣) – سورة سبأ : الآيـــة ٣٠ .

(٤) - سورة نوح : الآيـــة ٤ .

(٥) - سورة هود : الآيـــة ١٠٤ .

(٦) - سورة النحل : الآيـــة ١٢٥ .

(٧) – زاد المسير في علم التفسير : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ٥٠٦/٤ ، ط٣ ، ١٤٠٤هـــ ، المكتب الإسلامي، بيروت .

وقال عبد الرحمن بن نجم الحنبلي – رحمه الله – في هذه الآيـــة : ‘‘ فيحتمل أن يكون المراد بالأحسن الأظهر من الأدلة ، ويحتمل بالتعجيز عن الإتيان بمثل القرآن ؛ لأنه أحسن الأدلة نظاما وبيانا ، وأكملها حسنا وإحسانا ، وأرجحها من الثواب ميزاناً ، وأوضحها على اختلاف مدلولاتها كشفاً وبرهاناً ، ويحتمل بالإصغاء إلى شبههم والرفق بهم في حلّها ودحضها ، ويحتمل بترك الغلظة عليهم في حال جدالهم لتكون الحجة عليهم أظهر والجحد منهم أنكد ، وهي سنة الأنبـــياء – عليهم الصلاة والسلام – مع الأمم عند الدعوة والمجادلة ’’[(١)].

(٥) – قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[(٢)] .

قد أظهر الإسلام دعوته الخالصة وأعلن كلمته الفاصلة بين عقيدة التوحيد ومعتقدات الوثنية الضالة ، فهو لا يقبل الحل الوسط في الأمور الاعتقادية ، فقد رغبت قريش بأن يتفاوض معها رسول الله – ﷺ – في التنازل عن شيء من دعوته، وأرادت أن تعمل حلاً وسطاً في نظرها بأن يعبد محمد – ﷺ – آلهتهم عاماً ويعبدوا إلهه عاماً آخر ، فكان الردّ صريحاً وحازماً بالفصل بين العقيدتين : عقيدة التوحيد وعقيدة الوثنية حيث قال الله تعالى لرسوله – ﷺ – رداً على المشركين ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[(٣)]،[(٤)] .

استخلاص الفوائد المتعلقة بالموضوع من الدراسة :

(١)- يتبين من خلال الآيات التي سلفت دراستها آنفاً بأن الردّ على الشبهات منهج سماوي ثابت حيث اتخذه سائر الأنبـــياء والمرسلين في دعوة أقوامهم إلى الله ﷻ .

---

(١) – كتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم : الإمام عبد الرحمن نجم الدين المعروف بابن الحنبلي ، تحقيق : د. زاهر عواض الألمعي ، ص٥٢، ٥٣ ، ط٢ ، ١٤٠١هــ – ١٩٨١م ، مطابع الفرزدق التجارية .

(٢) – سورة الكافــرون : الآيــة ١-٦ .

(٣)- سورة الكافــرون : الآيــة ١-٦ .

(٤)- مناهج الجدل في القرآن الكريم : د/ زاهر عواض الألــمعي ، ص٣٤ .

(٢)- كثيراً ما يأمر الله ﷻ نبيه محمداً - ﷺ - أن يردّ على المخالفين شبهاتهم الضالة واعتراضاتهم الواهية ومعتقداتهم الباطلة ويبـــين لهم الحق والصواب .

(٣)- الآيات المذكورة أمثلة من الآيات الكثيرة التي جاءت تردّ على شبهات الناس متخذةً في ذلك أساليب متعددة ومتنوعة لإزالتها عن نفوسهم وإقناعهم للحق والصواب.

(٤)- إنّ كون "الردّ على الشبهات" إحدى الطريقتين الرئيستين اللتين اتخذهما سائر الأنبـــياء والمرسلين في الدعوة إلى الله ﷻ ، وكثرة الأوامر القرآنية للنبي - ﷺ - بأن يردّ على شبهات الناس ، وكثرة ورود آيات الردّ على الشبهات ، وكثرة ردّ النبي الكريم - ﷺ - على المخالفين شبهاتهم وشكوكهم وافتراءاتهم ، وهي أدلة صريحة واضحة ، تقرر وجوب القيام بالردّ على الشبهات عند الحاجة أثناء عملية الدعوة إلى الله .

ثـــانيـــاً : الســـنة النبويـــة :

(**١**)- عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحابٌ يأخذون بسنـــته ، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل "[١] . ولا شك أن الردّ على شبهات المشركين والمخالفين ومقارعتهم بالحجة ، ودفع صيالهم عن الإسلام وأهله ضرب من ضروب الجهاد باللسان ، يكون مستحباً حيناً ويصير واجباً حيناً آخر حسب مقتضى الحال.

(**٢**)- عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنـــتكم "[٢] ، قال ابن حزم رحمه الله : " وهذا حديث في غاية الصحة ، وفيه الأمر بالمناظرة ، وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله "[٣] . ومن المعلوم بأن المناظرة لا

---

(١)- صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، ص٧٠ ، رقم الحديث :٥٠ .

(٢)- سبق تخريجه .

(٣)- الإحكام في أصول الأحكام : الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بـــن حـــزم ، المجلـــد الأول ، ص٢٧ ، ط١ ، ١٤٠٥هـــ - ١٩٨٥م ، دار الكتب العلمية ، بيـــروت ، لبنان .

تتم إلاّ بالردّ على المخالف ومقارعته بالحجة ، وقال الصنعاني[(١)] – رحمه الله – : " الحديث دليل على وجوب الجهاد بالنفس وهو بالخروج والمباشرة للكفار ، وبالمال وهو بذله لما يقوم به من النفقة في الجهاد والسلاح ونحوه ، والجهاد باللسان بإقامة الحجة عليهم ودعائهم إلى الله تعالى ، وبالأصوات عند اللقاء والزجر ونحوه من كل ما فيه نكاية للعدو ...."[(٢)] .

(٣)– عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " احتج آدم وموسى – عليهما السلام – عند ربهما ، فحجّ آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأَسْجَدَ لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أَهْبَطْتَ الناس بخطيئتك إلى الأرض ؟ فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجياً ، فَبِكَمْ وجدت الله كتب التوراة قبل أن أَخْلَقَ ؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[(٣)] . قال : نعم ، قال : أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ ".

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " فحج آدم موسى "[(٤)] ، فلم يقبل آدم من موسى – عليه السلام – قولـه بأن آدم هو السبب في إخراج الناس من الجنة وشقاوتهم ، وردّ عليه شبهته قائلاً بأن الذي حصل تنفيذ أمر الله سبحانه الذي كتبه علي قبل أن يخلقني ، فكيف تلومني يا موسى وأنت قد أوتيت من العلم ما لم يؤت كثيراً من الخلق حيث اصطفاك الله برسالته وبكلامه ؟ !

ثالثاً : أقوال العلماء وآراؤهم في هذه المسألة :

1- الإمام أبو المعالي الجويني :

---

(١)– هو : أبو إبراهيم ، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاني ، ثم الصنعاني ، عز الدين المعروف بالأمير ، مجتهد من بيت الإمامة في اليمن ، له مائة مؤلف منها : سبل السلام شرح بلوغ المرام ، وتطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد . ولد سنة ١١٠٩هـ . انظر : البدر الطالع ٢/ ١٣٣ تر : ٤١٧ ، والأعلام ٣٨/٦ .

(٢) – سبل السلام : محمد بن إسماعيل الصنعاني الأمير ، تحقيق : محمحد عبد العزيز الخولي ، ٤١/٤ ، ط٤ ، ١٣٧٩هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٣) – سورة طـه : من الآيـة ١٢١ .

(٤)– صحيح مسلم : كتاب القدر ، باب : حجاج آدم وموسى عليهما ، ص١٠٦٤ ، رقم الحديث : ٢٦٥٢ ، وأخرجه البخاري : ٣٤٠٩ ، ٧٥١٥ ، ٤٧٣٦ .

قسم الإمام الجويني – رحمه الله تعالى – الجدل إلى: محمود مرضِيّ ، ومذموم محرّم، واستدل على هذين النوعين بنصوص الكتاب والسنة، وصرح بوجوب كشف الخطأ وردّ الشبهة بالبرهان وحسن الجدال حيث قال عقب استدلاله على النوع المحمود : " وهذه الألفاظ عموم في التوحيد والشريعة ، وهي أيضاً – سيرة الرسل – عليهم السلام – مع أممهم وسيرة رسولنا – ﷺ –، وسيرة علماء الصحابة – رضي الله عنهم – بعده ، ومن بعدهم من التابعين وأتباعهم ، إلى يومنا هذا ، وعليه عادة العقلاء في أديانهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم ، ويفزع العقلاء إلى النظر والمناظرة فيما غاب عن حواسهم ، فعُلم صحَّة النظر وكونُه طريقا إلى العلم فيما لا يكون الحس وخبر التواتر طريقا له[1] ... حتى أن من أنكر صحة النظر والمناظرة لجأ إلى النظر فيما يروم فيه بيان فساد النظر ، إذ لا يجد طريقا إلى فساده من جهة الحس والبديهة وخبر التواتر، لاشتراك العقلاء في طرق الضرورات والبدائه .

ومما يدل على حسن الجدال ، بل على وجوبه من طريق المعنى : ما ثبت من وجوب معرفة الشريعة على الجملة ، فرضا على الكافة ، وتفاصيلها فرضا على الكفاية ، ولا سبيل إلى ذلك دون معرفة أصولها ، من أدلة العقول وأحكامها ، فإذا رأى العالم مثله يزل ويخطئ في شيء من الأصول والفروع وجب عليه من حيث وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاؤه عن الباطل وطريقه ، إلى الحق وطريقه ، وطريق الرشد والصواب فيه ، فإذا لَجَّ في خطابه ، وقوَّى على المحق شبهته ، وجب على المصيب دفعه عن باطله ، والكشف له عن خطئه بما أمكنه من طريق البرهان وحسن الجدال ، فحصل – إذ ذاك – بينهما المجادلة ، من حيث لم يجدا بدا منه في تحقيق ما هو الحق ، وتمحيق ما هو الشبهة والباطل .

---

(١)– هذه من طوام المتكلمين وهي قصر إفادة العلم على الحس وخبر التواتر دون خبر الآحاد ؛ لأنه – يفيد عندهم – الظن مطلقا ، فلا يعتمدونه في مسائل الأعتقاد ، ومنهم من لا يعتمده مطلقا – في الاعتقاد والأحكام – ومنهم – كالرازي وغيره – من لا يعتمد الخبر مطلقا – المتواتر والآحاد – بل حتى نصوص القرآن الكريم ؛ لأنها كما يزعمون أدلة لفظية لا تفيد اليقين ، فلا يجعلونها عمدة في استدلالتهم ، ويقدمون عليها عقلياتهم عند التعارض . وهذه البدعة لا سلف لـــهم فيها من الصحابة والتابعين وأئمة الدين المهديين ، وقد ردّ عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الشهور : درء تعارض العقل النقل، وتلميذه ابن القيم في كتابه : الصواعق المرسلة ، وفي مواضع من كتبهما الأخرى .

والصحيح أن خبر الواحد المحتف بالقرائن يفيد العلم النظري الاستدلالي ، ولا شك أنه دون المتواتر ، ولكنه يحتج به في العقائد والأحكام ، والتفريق بينهما لا دليل عليه . (انظر : منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد رسالة مقدمة من الباحث عثمان بن علي حسن لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة ، بكلية أصول الدين في جامعة الإمام ، الرياض ، العام ١٤١٦–١٤١٧هـــ ، ص٢٢١ .

وصار – إذ ذاك – بهذا المعنى الجدال من آكد الواجبات ، والنظر من أولى المهمات ، وذلك يعم أحكام التوحيد والشريعة ''[1] .

٢- الإمام أبو بكر الطيب الباقلاني :

ذهب القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني[2] - رحمه الله - إلى وجوب النظر والاحتجاج المأمور به شرعاً ، واستدل على ذلك بما وقع بين الصحابة من المناظرات والردود[3] .

٣- الإمام أبو محمد بن حزم[4] :

يقول : '' وقد أمرنا (تعالى) في نص القرآن باتباع ملة إبراهيم - عليه السلام - وخبَّرنا (تعالى) أن من ملة إبراهيم المحاجة والمناظرة – فمرَّة للملك ومرَّة لقومه – والاستدلال كما أخبرنا (تعالى) عنه ، ففرض علينا اتباع المناظرة لنصرف أهل الباطل إلى الحق ، وأن نطلب الصواب بالاستدلال فيما اختلف فيه المختلفون ؛ قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] ، فنحن المتَّبعون لإبراهيم - عليه السلام - في المحاجة والمناظرة فنحن أولى الناس به ، وسائر الناس مأمورون بذلك. قال الله (تعالى) : ﴿ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[6] ، ومن ملته المناظرة ، كما ذكرنا، فمن نهى عن المناظرة والحجة فليعلم أنه عاص لله عز وجل ، ومخالف لملة إبراهيم ومحمد – صلى الله عليهما وسلم - ...''[7] .

---

(١)- الكافية في الجدل : عبد الملك الجويني إمام الحرمين ، ص٢٢-٢٤ .

(٢) – القاضي أبو بكر الباقلاني : (٣٣٨ – ٤٠٣هـ = ٩٥٠ – ١٠١٣م) قاضي ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة . كان جيد الاستنباط ، سريع الجواب . من كتبه '' إعجاز القرآن '' ، و '' التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة . وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ ، وقضاة الأندلس ٣٧ – ٤٠ ، وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ، والوافي بالوفيات ٣ : ١٧٧ ، والديباج المذهب ٢٦٧ ، وتبيين كذب المفتري ٢١٧ – ٢٢٦ .

(٣)- انظر : عيون المناظرات : أبو علي عمر السكوني ، تحقيق : سعد غراب ، ص١٥٧-١٦٢ ، ط : بدون ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٧٦هـ .

(٤) – هو : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، الإمام الحافظ ، ولد سنة ٣٨٤هـ ، وتوفى سنة ٤٥٦هـ ، (انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل : ٢ / ٨٩ ، المناظرة بين الإسلام والنصرانية : ص٣٢ – ٤٥٢) .

(٥) – سورة آل عمران : الآية ٦٨ .

(٦) – سورة آل عمران : من الآية ٩٥ .

(٧)- الإحكام في أصول الأحكام : الإمام أبو محمد بن حزم ، ٢١/١-٢٦ .

٤- **الإمام ابن تيمية – رحمه الله تعالى –** :

– يقول الإمام رحمه الله تعالى : " يتغير الدين بالتبديل تارة ، وبالنسخ أخرى ، وهذا الدين لا ينسخ أبداً ، لكن يكون فيه من يدخل من التحريف ، والتبديل ، والكذب ، والكتمان ما يلبس به الحق من الباطل ، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل ، فينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فيحق الله الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المشركون "(١) .

– وقد ذهب الإمام – رحمه الله – إلى وجوب الردّ على المخالفات سواء أكانت ناشئة من الشبهات أو الشهوات بل وقد صرح بأنه واجب باتفاق المسلمين حيث يقول : " وإذا كان النصح واجباً في المصالح الدينية الخاصة والعامة ، مثل : نقلة الحديث الذين يغلطون أو يكذبون ، كما قال يحيى بن سعيد : سألت مالكاً ، والثوري ، والليث بن سعد – أظنه – والأوزاعي عن الرجل يتهم في الحديث أو لا يحفظ ؟ فقالوا : بيِّن أمره . وقال بعضهم لأحمد بن حنبل : إنه يثقل عليَّ أن أقول فلان كذا ، وفلان كذا . فقال : إذا سكتَّ أنت ، وسكتُّ أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السَّقيم ؟ !

ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة ، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة ؛ فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين ، حتى قيل لأحمد بن حنبل : الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع ؟ فقال إذا قام وصلَّى واعتكف فإنما هو لنفسه ، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين ، هذا أفضل . فبيَّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله ؛ إذ تطهير سبيل الله ، ودينه ، ومنهاجه ، وشرعته ، ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولو لا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين ، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدوِّ من أهل الحرب ؛ فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعاً ، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء "(٢).

---

(١) – مجموع فتاوى : الإمام ابن تيمية ، ١١ / ٤٣٥ .

(٢) – مجموع فتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٢٨ / ٢٣١ – ٢٣٦ .

– ويقول أيضاً – رحمه الله تعالى – في موضع آخر : '' فكل من لم يناظر أهل الإلحاد ، والبدع، مناظرة تقطع دابرهم ، لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور ، وطمأنينة النفوس ولا أفاد كلامه العلم واليقين ''[(١)] .

٥– **الإمام ابن القيم** :

يقول – رحمه الله تعالى – : '' ... وهو الذي بعث الله رسوله وأنزل كتبه بإبطاله – أي عبادة الأصنام – وتكفير أصحابه ولعنهم وأباح دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم وأوجب لهم النار ، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الردّ على أهله وإبطال مذهبهم '' [(٢)].

ويقول في موضع آخر :

'' ... وقد أشبعنا الردّ على هؤلاء ؛ أي المكذبون للرسل المنكرون للصانع ، في كتابنا الكبير المسمى بالمفتاح ''[(٣)] ، أي: مفتاح السعادة.

ويقول – رحمه الله – في موقف أهل السنة من الردّ على البدعة ودفعها ؛ والبدعة كما هو معلوم إفراز لمرض الشبهة ، والشبهة باب البدعة[(٤)] : '' اشتدَّ نكير السلف والأئمة لها ، وصاحوا بأهلها ؛ من أقطار الأرض وحذروا فتنــتهم أشد التحذير ، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش ، والظلم ، والعدوان ؛ إذ مضرة البدع ، وهدمها للدين ، ومنافاتها له : أشد ''[(٥)] .

ويقول أيضاً :

'' ... إن النبي – ﷺ – قال :''كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ'' وفي لفظ ''من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ''[(٦)] ، والردّ فعل بمعنى المفعول أي فهو مردود ، وعبر عن المفعول بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس الردّ ، وهذا تصريح بإبطال كل عمل على خلاف أمره ورده

---

(١)– درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٣٥٧/١ .

(٢)– إغاثــة اللهفان من مصائد الشيطان : ابن القيم الجوزيــة ، تم التحقيق بمركز الدراسات والبحــوث بمكتبــة نــزار مصطفى الباز ، وأشرف على التحقيق حازم القاضي ، ٢٢٤/١ ، ط١، ١٤١٦هـــ – ١٩٩٦م ، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض .

(٣) – المرجع نفسه : ٢ / ١٢٥ .

(٤)– الردود : الشيخ بكر بن عبد الله ، ص٩ .

(٥)– مدارج السالكين : ابن القيم ، ٣٧٢/١ .

(٦)–صحيح مسلم : كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة، وردّ محدثات الأمور، ص٧١٤، رقم الحديث: ١٧١٨.

وعدم اعتباره في حكمه المقبول ، ومعلوم أن المردود وهو الباطل بعينه بل كونه ردّاً أبلغ من كونه باطلاً إذ الباطل قد يقال لما لا تقع فيه أو لما منفعته قليلة جداً ، وقد يقال لما ينتفع به ثم يبطل نفعه ، وأما المردود فهو الذي لم يجعله شيئا و لم يترتب عليه مقصوده أصلاً ''[1] .

فاستنبط الإمام ابن القيم من خلال هذا الحديث قاعدة مهمة وهى تصريح إبطال المردود إذ المردود باطل سواء أكان منشأه شبهة أو شهوة أو جهلاً .

٦- الإمام محمد بن عبد الوهاب :

ذهبت الباحثة مرفت بنت كامل بن عبد الله أسرة إلى أن الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب[2] - رحمه الله - قد احتسب على المخالفين للعقيدة الصحيحة بكافة الوسائل السلمية المتاحة له آنذاك، وبذل في أمرهم بالتوحيد ونهيهم عن الشرك جهوداً جبارة حيث قد فشا في عصره - رحمه الله - كثير من البدع والخرافات والشركيات التي عادت بالناس إلى عصر الجاهلية، فلو لا فضل الله تعالى ورحمته، ثم ردّ الشيخ وإنكاره الدؤوب على كافة صور الشرك والوثنية تارة بسنانه وأخرى بلسانه وثالثة بجنانه ، لغرق الناس في مستنقعات الضلال [3] .

يرى الشيخ - رحمه الله - وجوب الردّ على الشبهات ، ووجوب التسلح بالكتاب والسنة لدحضها ، يقول في كتابه '' كشف الشبهات '': '' ... الطريق إلى الله لا بد له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة وعلم وحجج ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحاً لك تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك ﷻ : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ

---

(١)- حاشية ابن القيم : الإمام ابن القيم ، ١٦٩/٦ ، ط٢، ١٤١٥هـــ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) – هو : شيخ الإسلام ، الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي النجدي الحنبلي ، ولد في العيـــينة سنة ١١١٥هـــ ، ونشأ بها ، وحفظ القرآن قبل العاشرة من عمرو ، ودرس على والده ، ثم حج وأخذ عن بعض علماء الحرم الشريف ، ثم زار المدينة ، وأخذ عن بعض علمائها ، ثم رجع إلى نجد وقصد البصرة ، وأخذ عن بعض علمائها ، ثم رجع إلى الأحساء ، وأخذ عن بعض علمائها ، ثم رجع إلى نجد ، ودعا إلى التوحيد الخالص فنفع الله به العباد ، وأنقذهم به من الشرك ، توفى – رحمه الله – سنة ١٢٠٦هـــ ، (انظر : تاريخ نجد : لحسين بن غنام ، ص٧٥ ، وعلماء نجد خلال ستة قرون ، ١ / ٢٧ .

(٣)- احتساب الشيخ محمد بن عبد الوهاب : مرفت بنت كامل بن عبد الله أسرة ، ص٣٩١ ، ط١ ، ١٤١٩هـــ - ١٩٩٨م ، دار الوطن للنشر ، الرياض .

ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾[1] ، ولكن إذا أقبلت على الله تعالى وأصغيت إلى حججه سبحانه وبيناته فلا تخـف ولا تحزن ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[2] ''[3] .

٨- الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد :

يرى الشيخ أن القيام بالردّ على الشبهات من حقوق الله التعبديَّة ، من جنس الجهاد، والأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، لاسيما والحاجة إليها ملحَّة في هذه الأزمنة ؛ فإن وطأة الأَهواء شديدة ، وسُبُلَها متكاثرة ؛ لكثرة المضلين المفتونين الرابضين بينـنا ، المنطوين على رَشْحٍ أصاب ضمائرهم بآراء ساقطة ؛ يخزي بعضها بعضاً من عَلْمَنَةٍ ، وحَدَاثة ، وإباحية ، ودعوة إلى عصبيات عرقية وشعوبية ، وقومية نصرانية ، وقومية عربية ، وعصبية رياضية[4] .

وقال أيضاً :

'' فقل لي بربِّك : إذا أظهر المبطلون أهواءهم ؛ والمرصدون في الأمة : واحد يخذل ، وواحد ساكت فمتى يتبـين الحق ؟ ألا إن النـتيجة تساوي : ظهور الأقوال الباطلة ، والأهواء الغالبة على الدين الحق بالتحريف والتبديل ، وتغير رسومه في فطر المسلمين ، فكيف يكون السكوت عن الباطل إذاً حقاً ، والله يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[5] .

ألا إن السكوت عن كل مبطل وباطله أبَداً : هو هنا أبطل الباطل ، وخوض في باطن الإثم وظاهره .

فيا لله كيف يؤول ''التخذيل '' إلى مكيدة للإسلام يصير بها نهاباً للأهواء ، ألا إنه لولا تكفل الله بحفظ دينه ، وبعث حرَّاسه وحماته ؛ لشقَّت هذه الأهواء في قلوب المسلمين أخاديد لا بقاءَ معها للإسلام صافياً في نفوسهم ولا حواضن له . ولأصابت هذه الهجمات الشَّرسة من

---

(١) – سورة الأعراف : الآيـة ١٦- ١٧ .

(٢) – سورة النساء : من الآيـة ٧٦ .

(٣) – كشف الشبهات : الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ط : ١١١٥ – ١٢٠٦هـ ، الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، المملكة العربية السعوديـة .

(٤) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد ، ص١١ .

(٥) – سورة الأنبياء : الآيـة ١٨ .

الدين مقتلاً لا بواكي له . لهذا رأيت تجريد القلم في هذه المقالة مساهمة في إِحياء ما اندثر من هذا الواجب الكفائي في نفوس المقصرين ''[1] .

وقد صرح الشيخ في موضع آخر بأنه واجب على الكفاية حيث يقول : '' ... أن ردّ الهوى والبدعة ، ونقض الشبهة ، ورفض داعي الشهوة : أَصل عقدي ، متصل العقد في اعتقاد أَهل السنة والجماعة ، وأَنهم يد على من ناوأَهم ، حرب على من عاداهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، فيقوم بهذا الواجب الكفائي من شاء الله من علمائهم ، حتى تحيا السنن ، وينتصر أهلها، وتموت البدعة ويخمد حملتها '' .

وقال أيضاً في الردّ المحمود :

''واجب، أو مستحب ، وهو الذي يحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويهدف إلى الرَّشد، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ، والأشخاص ، والبواعث ، والمقامات ، والنفوذ إلى ديار الإسلام .

فالرَّدُّ على : الكفار '' المستشرقين '' ، والبعثيين ، والشيوعيين ، والاشتراكيين، والعلمانيين ، والحداثيين ، من أوجب الواجبات وأعظم المهمات والردُّ على من في قلوبهم زيغ متخبطين بأحكام الديانة بما يقولون أو يكتبون، من أهم المهمات، وأعظم الواجبات.

وإبطال شبه الخرافيين أرباب البدع التعبديَّة ، عشاق المجاذيب ، حلفاء الدراويش من أهم الواجبات .

وتفنيد دعاوى الخصوم الملدين بغير علم الذين يضغطون الإسلام للواقع ويسخرون النصوص لآرائهم الشَّاذة وأقوالهم الفجة من أجلِّ الواجبات ، وبيان زلة العالم محمدة في الإسلام.

ومجادلة من جنح به الرأي إلى قول شاذ ، أو إحداث قول جديد في مسألة ... باب عظيم من أبواب النصح والإرشاد .

فالردُّ والمجادلة عن الحق بالحق : رتب ومنازل ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً ''[2] .

ويقول أيضاً : '' القيام بهذا الواجب الكفائي ، يحقق مطالب شرعية ، وثماراً مباركة تلتمع في حياة المسلمين ....'' [3]

ويقول أيضاً بأنه '' واجب كفائي ، معلوم بالضرورة ''[1] .

---

(١) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد ، ص١٧ .

(٢)– المرجع السابق : ص٤٩– ٥٠ .

(٣) – المرجع نفسه : ص٨٥ .

ويتعين مما سلف من الدراسة آنفاً من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة وأقوال العلماء بأن الردّ على الشبهات والاتهامات والشكوك والمزاعم الباطلة والمعتقدات الضالة لإزالة الشبهة عن نفس المدعو وإرشاده إلى الحق والصواب ، أو لرفع التردد والشكوك من المتردد والمريب وتـــثبيته على الحق ، أو إبطال مزاعم المدعو الباطلة ومعتقداته الضالة إما لهدايته إن كان مستهدياً ، أو قطعه وإفحامه إن كان معانداً ، أمر مشروع يتردد بين الاستحباب والوجوب بحسب مقتضى الحال ، قال الإمام ابن تيمية – رحمه الله – : " وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى "[٢] .

شبهة وإزالتها :

ذهب فريق من العلماء إلى أن المنهج الصحيح للدعوة إلى الله هو طريق العرض ؛ أي عرض حقائق الإسلام وتوضيحها للمدعويين دون مناقشة معتقداتهم الموروثة ، وبلا إجابة على تساؤلاتهم في نفوسهم حول الدعوة ، نحو صلاحية الدين الذي يدعوا إليه أو إمكانية تطبيقه في العصر الحاضر ، ولا ردّ على شبهاتهم ولا جدال في مخالفاتهم لكشف بطلان ما هم عليه من معتقدات وشبهات ، فعلى الداعية الاكتفاء بعرض الحقائق وبيان الصواب .

أدلة أهل هذا الرأى :

(١) – قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤] .

نهى الله سبحانه وتعالى في الآيتـــين المذكورتين المؤمنين عن مجالسة الكفار الذين يكفرون بحجج الله وآيات كتابه ، ويستهزئون بها ، وحذرهم سبحانه وتعالى بأنهم – أي المؤمنين – إن

---

(١) – المرجع نفسه : ص٨٧ .

(٢)– درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١٧٤/٧ .

(٣) – سورة النساء : الآيـــة ١٤٠ .

(٤)– سورة الأنعام : الآيـــة ٦٨ .

جالسوهم وهم يستهزئون بآيات الله أو يكفرون بها ، فهم – أي المؤمنون – مثلهم ؛ أي مثلهم في فعلهم ، فقد تساووا الكفار وأهل الباطل فيما هم فيه[1].

فاستدل هذا الفريق من النهي عن مجالسة الكفار وأهل الباطل على عدم مناظرتهم ومكالمتهم والردّ عليهم .

(٢)- قول النبي – ﷺ – : عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : تلا رسول الله – ﷺ – ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[2] . قالت : قال رسول الله – ﷺ – : " إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم "[3] .

(٣) – قول عطاء : " أوحى الله ﷻ إلى موسى – عليه السلام – لا تجالس أهل الأهواء ، فإنــــهم يحدثون في قلبك ما لم يكن فيه "[4] .

(٤) – قول الحسن وابن سيرين – رحمهما الله تعالى – " لا تجالسوا أهل الأهواء ، ولا تجادلوهم ، ولا تسمعوا منهم "[5] .

(٥) – قول عبد الله بن البسري[6] : " ليس السنة عندنا أن ترد على أهل الأهواء ولكن السنة عندنا أن لا نكلم أحدا منهم "[7] .

---

(١)- جامع البيان عن تأويل آي القرآن : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ٦٠٢/٧ .

(٢) – سورة آل عمران : الآيــة ٧ .

(٣)- صحيح مسلم ، كتاب العلم ، باب : النهي عن اتباع متشابــه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن ، رقم الحديث : ٢٦٦٥ ، وأخرجه البخاري : ٤٥٤٧ .

(٤)- الإبانــة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة : الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطــة العكـــبري الحنبلي ، تحقيق ودراسة : رضا بن نعسان معطى ، ٤٣٣/٢ ، برقم : ٣٥٨ ، ٤٣٤/٢ ، بـــرقم : ٣٥٩ – ٣٦٢ ، ط١ ، ١٤٠٩هـــ – ١٩٨٨م ، دار الراية للنشر والتوزيع ، الرياض .

(٥)- سنن الدارمي : ١١٠/١ ، باب : اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة ، وشرح أصـــول اعتقـــاد أهـــل الســـنة والجماعـــة : الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ، تحقيق : أحمد سعد حمـــدان ، ١٣٣/١ ، برقم : ٢٤٠ ، ط : بدون ، الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض . والإبانـــة : ابن بطة ، ٤٤٤/٢ ، ٤٦٤ ، برقم : ٣٩٥ ، ٤٥٨ .

(٦) – لـــم أجد من ترجم لـــه .

(٧)- الإبانـــة : ابن بطة ، ٤٧١/٢ برقم : ٤٧٨ .

(٦) – قول محمد بن واسع[(١)] : "رأيت صفوان بن محرز[(٢)] وأشار بيده إلى ناحية من المسجد وشببة قريبة منه يتجادلون ، فرأيته ينفض ثوبه وقام ، وقال : إنما أنتم جرب"[(٣)] .

(٧) – قول أيوب السختياني[(٤)] – رحمه الله – : "لستُّ براد عليهم بشيء أشدّ من السكوت"[(٥)].

(٨) – قال يحيى بن كثير[(٦)] : "إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في غيره"[(٧)] .

(٩) – وقول الإمام أحمد بن حنبل : سئل الإمام – رحمه الله – فقيل له : " إن ههنا رجلاً يناظر الجهمية ويبين خطأهم ، ويدقق عليهم المسائل ، فما ترى ؟ قال : لست أرى الكلام في شيء من هذه الأهواء ، ولا أرى لأحد أن يناظرهم ، أليس قال معاوية بن قرّة[(٨)] : الخصومة تحبط الأعمال ، والكلام الرديء لا يدعو إلى خير ، لا يفلح صاحب كلام ، تجنبوا أصحاب الجدال والكلام ، عليكم بالسنن ، وما كان عليه أهل العلم قبلكم ؛ فإنهم كانوا يكرهون الكلام

---

(١)– هو : أبو بكر ، ويقال : أبو عبد الله ، محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس ، الأزدي ، الإمام الرباني ، أحد الأعلام ، حدث عن أنس بن مالك ، ومحمد بن سيرين وغيرهما ، وعنه سفيان الثوري وحماد بن سلمة وغيرهما ، توفي سنة ١٢٣هـ ، وقيل ١٢٧هـ . انظر : التاريخ الكبير للبخاري ٢٥٥/١ تر : ٨١٤ ، والسير ١١٩/٦ تر : ٣٣ .

(٢) – هو : صفوان بن محرز بن زياد المازني البصري ، من التابعين ، حدث عن أبي موسى الأشعري وغيره ، وروى له البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة ، رتبته عند ابن حجر: ثقة عابد ، وعند الذهبي : ثقة بكاء خاشع واعظ. انظر : رواة التهذيبين ، حلية الأولياء ٣٠٤/١، صفة الصفوة ٣٥٦/١، تذكرة الحفاظ ٦٠/١ .

(٣) – الشريعة : الإمام أبوبكر محمد بن حسين الآجري ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ص٥٨ ، ط١ ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م ، مطابع الأشرف ، لاهور ، باكستان . والإبانة : ابن بطة ، ٥١٣/٢ –٥١٤ برقم : ٥٩٥-٥٩٨ .

(٤) – هو :أيوب السختياني ،الإمام الحافظ ، أبو بكر بن أبي تميمة كيسان ، العتري ، ولد سنة ٦٨هـ ، وحج أربعين حجة ، وتوفى بالبصرة ، (انظر : سير أعلام النبلاء : ٦ / ١٥ .

(٥) – الإبانة : ابن بطة ، ٤٧١/٢ ، رقم ٤٧٩ ، والشريعة : الآجري ، ١ / ٦٤ .

(٦) – هو : أبو نصر ، يحيى بن أبي كثير الطائي ، مولاهم اليمامي ، روى عن أنس بن مالك وجابر وغيرهما ، وروى عنه أيوب السختياني وحرب بن شداد ، توفي سنة ١٢٩هـ ، وقيل سنة ١٣٢هـ ، انظر : تهذيب الكمال ٥٠/٣١، تر : ٦٩٠٧ ، والسير ٢٧/٦ ، تر : ٩ .

(٧) – الشريعة : الآجري ، ص٦٤ ، والإبانة : ابن بطة ، ٤٧٤/٢-٤٧٥ ، برقم : ٤٩٠-٤٩٢ .

(٨) – هو : أبو إياس ، معاوية بن قرة بن إياس المزني ، البصري ، روى عن أنس وابن عباس ، وروى عنه ابنه إياس والأعمش ، توفي سنة ١١٣هـ . انظر تهذيب الكمال ٢١٠/٢٨ ، تر : ١٥٣ ، والسير ، ١٥٣/٥ ، تر : ٥٥ .

والخوض في أهل البدع والجلوس معهم ، وإنما السلامة في ترك هذا ، لم نؤمر بالجدال والخصومات مع أهل الضلال فإنه سلامة له منه ''[1] .

(**١٠**) **–** قول أبي بكر الآجري[2] – رحمه الله – : '' ولا نناظر ولا نجادل ولا نخاصم ، وإذا لقي صاحب بدعة في طريق أخذ في غيره ، وإن حضر مجلساً هو فيه قام عنه ، هكذا أدَّبنا من مضى من سلفنا ''[3] . وقال في موضع آخر : '' سكوتك عنهم وهجرتك لما تكلموا به أشد عليهم من مناظرتك لهم ''[4] .

(**١١**) **–** قول أبي القاسم الأصبهاني [5] – رحمه الله – : '' ترك مجالسة أهل البدع ، ومعاشرتهم سنة ؛ لئلا تعلق بقلوب ضعفاء المسلمين بعض بدعتهم ، وحتى يعلم الناس أنهم أهل البدعة ، ولئلا تكون مجالستهم ذريعة إلى ظهور بدعتهم ، والخوض في الكلام المذموم ، ومجانبة أهله محمود ليعلم أنهم ناكبون عن طريق الصحابة – رضي الله عنهم – ''[6] .

---

(١) – الإبانـــة : ابن بطة ، ٢/٥٣٩–٥٤٠ ، برقم : ٦٧٧ .

(٢) – هو محمد بن الحسين بن عبد الله أبو بكر الآجري ، الفقيه الشافعي المحدث ، صاحب كتاب الأبعين حديثاً ، كـــان صالحاً وعابداً وثقة وصدوقاً ، وله تصانيف كثيرة ، سمع أبا مسلم الكجي وأبا شعيب الحراني وأحمد بن يحيى الحلواني وجعفر بن محمد الفريابي والمفضل بن محمد الجندي وأحمد بن عمر بن زنجويه القطان وخلقا من اقرانهم ، وحدث ببغداد قبل ســـنة ثلاثين وثلاثمائة ثم انتقل إلى مكة فسكنها حتى توفي بها في المحرم سنة ستين وثلاثمائة ، روى عنه على وعبد الملك ابنا بشـــران وعلى بن احمد بن عمر المقرئ ومحمود بن عمر العكبري ومحمد بن الحسين بن الفضل القطان وأبو نعيم الأصبهاني وغيرهم ، (تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ، ٢/٢٤٣ ، و وفيات الأعيان : ابن خلقان ، ٤/٢٩٣) .

(٣) – الشريعة : الآجري ، ص٦٤ .

(٤) – المرجع السابق : ص٦١ .

(٥) – هو إسماعيل بن محمد ابن الفضل بن علي بن أحمد بن طاهر التميمي الطلحي الأصبهاني الجُزري الحافظ قوام الدين أبو القاسم ، إمام وقته وأستاذ علماء عصره وقدوة أهل السنة في زمانه، وله مصنفات كثيرة منها التفسير الكبير سماه الجامع ، وكتاب الإيضاح في التفسير ، والموضح في التفسير ، والترغيب والترهيب ، والمعتمد في التفسير ، وشرح صحيح البخاري ومسلم ، كتاب السنة ، وكتاب المغازي ، وكتاب دلائل النبوة ، وكتاب التذكرة وغير ذلك ، وكان أئمة بغداد يقولون ما رحل إلى بغداد بعد أحمد بن حنبل أفضل ولا أحفظ منه ، ولد سنة ٤٥٩ وتوفي سنة ٥٣٥ هـــ ، (طبقات الشافعية : ابن قاضي شهبة ، ١/٣٠٢) .

(٦) – الحجة في تبيـــن المحجة وشرح عقيدة أهل السنة : الإمام أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني ، ٢/٥٠٩ ، ط١ ، ١٤١١هـــ – ١٩٩٠م ، دار الرايـــة للنشر والتوزيع ، الرياض .

المدلول الصحيح لما ذكر من أدلة هذا الفريق :

يظهر مما سلف ذكره من أدلة الفريق الأول النهي المطلق عن مجالسة أهل الشبهات والبدع والردّ عليهم ، والأمر بهجرهم كلياً والابتعاد عنهم .

ولكن هناك أدلة وأقوال أخرى لكثير من السلف الصالح تقيد هذا الإطلاق في النهي وتثبت وتقرر بأنه ، أي : نهي السلف عن مجالسة أهل الشبهات والضلال والردّ عليهم ، لم يكن مطلقاً وإنما كان لأسباب وأحوال معينة حيث كان منوطاً بالمصلحة الشرعية ، ويأتي فيما يلي ذكر ذلك بإيجاز :

أولاً : إنّ نصوص الكتاب والسنة التي دلت على مشروعية الردّ على الشبهات ووجوب القيام به تقيد هذا الإطلاق في النهي عن مجالسة أهل الشبهات والردّ عليهم[١] .

ثانياً : من أسباب المنع والنهي أنّ "المبتدع يعارض بين نصوص الشرع مما قد يوقع الشك في نفسه تجاه بعض هذه النصوص التي لا تعارض بينها ، وهو داء يذهب بالإيمان بنصوص الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[٢] ، فنهى السلف عن مناظرة هذا المتشكك لاحتمال توريث شكه هذا لسليم معافى "[٣] ، فقد يكون المناظر ضعيف العلم فلا يقدر على ردّ الشبهات والشكوك فيغلب عليه صاحبها ومن ثم تأخذ الشبهات طريقاً إلى قلبه ومن يستمع إلى هذه المناظرة من أصحاب القلوب الضعيفة .

ثالثاً: إن المنع من مجادلة أهل الأهواء والشبهات والبدع والردّ عليهم لم يكن إلا لما يغلب عليهم من تنقل بين الأهواء والبدع ؛ وذلك متابعة منهم لما تقتضيه نتائج الجدل والمناظرات والردود ، فالدين عندهم مع من غلب ، فلأجل ذلك نهى السلف عن مثل هذه الردود والمناظرات ، - فمثلاً - :

---

(١) – أنظر تلك النصوص في المطلبين السابقين .

(٢) – سورة النساء : من الآيـــة ٨٢ .

(٣)– منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد : عثمان بن علي حسن ، ص٢٥٩ (رسالة الدكتوراه ، قدمت في جامعة الإمام ، بكلية أصول الدين ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ، في العام الجامعي : ١٤١٦ – ١٤١٧هـــ) .

(١) – قال عمر بن عبد العزيز[١] – رحمه الله – نهياً عن مجادلة أهل الأهواء والردّ عليهم: ''من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل''[٢] .

(٢) – وقال سعيد بن جبير لذر الهمداني[٣] : يا ذر ، ما لي أراك كل يوم تجدِّدُ ديننا''[٤].

(٣) – وقال الخليل بن أحمد[٥] – رحمه الله – : '' ما كان جدل إلاّ أتى بعده جدل يبطله ''[٦] .

(٤) – يُروى أنه جاء رجل إلى الحسن البصري – رحمه الله – وقال : ''يا أبا سعيد تعال حتى أخاصمك في الدين ، فقال الحسن : أما أنا فقد أبصرت ديني ، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه''[٧] .

(٥) – قال رجل يقال له : أبو الحورية[١] لمالك بن أنس : '' يا عبد الله اسمع مني شيئاً أكلمك به ، وأحاجك وأخبرك برأي ، قال (مالك – رحمه الله –) فإن غلبتني ؟ قال : إن

---

(١) – عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، ولد سنة ٦٣هـ ، وقيل ٦١هـ ، أرسله والده إلى المدينة يتفقه في الدين ، فلما توفي والده أخذه عمه عبد الملك بن مروان ، وزوجه بنته فاطمة، وعندما ولي الوليد بن عبد الملك ولاه المدينة ومكة والطائف من سنة ٨٦هـ إلى ٩٣هـ ، ثم قدم الشام ، وبقي بها حتى ولي الخلافة في ١٠ / ٢ / ٩٩هـ ، فأصلح الله به العباد والبلاد ، ثم مات مسموماً في ٢٥ / ٧ / ١٠١هـ ، (انظر: البداية والنهاية : ٩ / ٩٢ – ٩٦ ، وسير أعلام النبلاء : ٥ / ١٢٢ .

(٢)- سنن الدارمي : ٩١/١ ، باب من قال العلم الخشية وتقوى الله ، وجامع بيان العلم : أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق : أبو الأشبال الزهري ، ٩٦٧/٢ ، ط٤ ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، الرياض .

(٣) – هو : أبو عمر ، ذر بن عبد الله بن زرارة المرهبي الهمداني ، الكوفي ، روى عن سعيد بن جبير وعبد الله بن شداد، وعنه عطاء بن السائب وجماعة ، كان على معتقد المرجئة ، هجره النخعي وسعيد بن جبير لذلك ، وكان من عباد أهل الكوفة . انظر : تهذيب التهذيب ٢١٨/٣ ، برقم : ٤١٦ .

(٤) – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : اللالكائي ، ٩٩٠/٥ ، الرقم : ١٨١١ .

(٥) – هو محمد بن أحمد بن محمد بن الخليل بن أحمد ، الإمام أبو سعد الخليلي النوقاني ، ولد في سنة سبع وستين وأربعمائة، وسمع : أبا بكر بن خلف الشيرازي ، روى عنه : عبد الرحيم السمعاني ، وقال : توفي في أواخر المحرم بنوقان ، قال أبو سعد في التحبير : هو من أهل نوقان ، وهو إمام ، وحافظ ، وفقيه ، ومفسر ، وأديب ، وشاعر ، وواعظ ، وهو حسن السيرة ، وكان من مفاخر خراسان ، (تاريخ الإسلام : الذهبي ، ١/ ٣٨١٢) .

(٦) – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : اللالكائي ، ١٢٨/١ ، رقم : ٢١٧ .

(٧) – الشريعة : الآجري ، ص٥٧ ، والحجة : الأصبهاني ٢٨٠/١-٢٨١ . والإبانة : ابن بطة ، ٥٠٩/٢ ، برقم : ٥٨٦ . منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد ، رسالة الدكتوراه : عثمان بن علي حسن ، ص٢٥٩ .

(١) – هو : عبد الله بن عمران ، ويقال له : أبو الحورية ، كوفي ، روى عن حماد بن أبي سليمان ، وروى عنه حماد بن خالد ومعن بن عيسى القزاز ، انظر : التهذيب : ٦٢/٢ ، تر : ٢٤٨ .

غلبتك اتبعني ، قال : فإن جاء رجل آخر فكلمنا فغلبنا ؟ قال : نتبعه ، فقال مالك – رحمه الله – يا عبد الله ، بعث الله ﷻ محمداً – ﷺ – بدين واحد ، وأراك تنتقل من دين إلى دين''[1]، وروي عنه أنه قال : '' أرأيت إن جاء من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟''[2].

رابعاً : – كما نهى السلف ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة عن القيام بالردّ على أهل البدع والشبهات وجدالهم ، يقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله – : '' وقد ينهون – يعني السلف – عن المجادلة والمناظرة ، إذا كان المناظر ضعيف العلم بالحجة وجواب الشبهة، فيُخاف عليه أن يفسده ذلك المُضلُّ ، كما ينهى الضعيف في المقاتلة أن يقاتل عِلجاً قوياً من علوج الكفار ، فإن ذلك يضرُّه ويضر المسلمين بلا منفعة ، وقد يُنهى عنها إذا كان المناظر معانداً يظهر له الحق فلا يقبله – وهو السوفسطائي – فإن الأمم كلهم متفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدمات معروفة بيِّنة بنفسها ضرورية وجحدها الخصم كان سوفسطائياً ، ولم يؤمر بمناظرته بعد ذلك ، بل إن كان فاسد العقل داووه ، وإن كان عاجزاً عن معرفة الحق – ولا مضرة فيه – تركوه ، وإن كان مستحقاً للعقاب عاقبوه مع القدرة ؛ إما بالتعزير وإما بالقتل ، وغالب الخلق لا ينقادون للحق إلاّ بالقهر .

والمقصود أنهم – أي السلف – نهوا عن المناظرة من لا يقوم بواجبها ، أو مع من لا يكون في مناظرته مصلحة راجحة ، أو فيها مفسدة راجحة ، فهذه أمور عارضة تختلف باختلاف الأحوال .

أما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى ''[3] .

خامساً : – وقد نهى السلف عن مجادلة أهل الضلال والبدع هجراً وزجراً لكي يتوبوا ويرجعوا إلى الحق والرشد ، يقول إسحاق بن إبراهيم بن هانئ – رحمه الله – : '' سألت أبا عبد الله – أي الإمام أحمد – عن رجل مبتدع داعية يدعو إلى بدعته يجالس ؟ قال أبو عبد الله : لا يجالس ، ولا يكلم ؛ لعله يتوب ''[4] .

يقول الدكتور عثمان بن علي :

---

(١) – الشريعة : الآجري ، ص٥٦–٥٧ ، والإبانة : ابن بطة : ٥٠٨/٢ برقم : ٥٨٣ .

(٢) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٣ /١٥٧ .

(٣)– المرجع السابق : ١٧٣/٧–١٧٤ .

(٤)– الإبانة : ابن بطة ٤٧٥/٢ ، الرقم : ٤٩٤ .

"وغالب ما روي عن السلف والأئمة من النهي المطلق عن مجالسة ومجادلة المبتدعة فمحمول على هذا القصد ، وهو هجرهم وزجرهم ابتغاء توبتهم ورجوعهم ، أو قطع شرهم عن المسلمين"[1] .

سادساً: – وقال الحافظ بن عساكر – رحمه الله – : "وإنما سمَّى أبو الحسن – رحمه الله – مناظرة المعتزلة بدعة وكرهها ؛ لأن السلف كانوا يرون مكالمة أهل البدع ومناظرتهم خطأً وسفها ... " وقال أيضاً : " فلما ظهرت فيما بعد أقوال أهل البدع ، واشتهرت ، وعظمت البلوى بفتـــنتهم على أهل السنة وانتشرت ، وانتدب للردّ عليهم ومناظرتهم أئمة أهل السنة لما خافوا على العوام من الابتداع والفتـــنة كفعل أبي الحسن – رحمه الله – وأشباهه خوفا من التباس الحق على الخلق واشتباهه"[2] .

ومما يدل أيضاً أن ما ورد عن السلف والأئمة من النهي من الجدل والردود لم يكن مطلقاً وإنما كان لأسباب معينة وفي أحوال مخصوصة قيام كثير منهم بالردّ على المخالف من أهل الشبهات والبدع ومناظرتهم ، فمنهم – مثلاً – علي وابن عباس وابن عمر وجابر – رضي الله عنهم – ، وعمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة وأحمد – رحمهم الله –[3] .

و" يرى أبو بكر الآجري – رحمه الله – ، الذي ورد عنه النهي بصيغة مطلقة – المناظرةَ لأهل الزيغ إذا احتيج إليها في وقت من الأوقات ليدفع المناظر بالحق باطل المخالف والخارج عن الجماعة ، فتكون غلبته لأهل الزيغ عائدة بالبركة على المسلمين "[4] .

---

(١)– منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد : رسالـــة الدكتوراه : عثمان بن علي حسن ، ص٢٦٤ .

(٢) – المرجـــع السابق : ص٩٩ .

(٣) – المرجع نفسه ، ص ٢٦٨ .

(٤) – المرجع نفسه ، ص ٢٦٨ . (بتصرف) .

وقال الشافعي[1] – رحمه الله – : " ما ناظرت أحدا أحببت أن يخطئ إلا صاحب بدعة؛ فإني أحب أن ينكشف أمره للناس ..."[2] .

وقال أبو عمر بن عبد البر[3] – رحمه الله – بعد أن ساق نصوص الأئمة في النهي عن مناظرة أهل البدع : "... إلاّ أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل، وصرف صاحبه عن مذهبه ، أو خشي ضلالة عامة أو نحو هذا "[4] .

وقال ابن تيمية – رحمه الله – : "... ولا حرَّموا – يعني السلف – معرفة الدليل على الخالق وصفاته وأفعاله ، بل كانوا أعلم الناس بذلك ، وأعرفهم بأدلة ذلك ، ولا حرَّموا نظراً صحيحاً في دليل صحيح يُفضي إلى علم نافع ، ولا مناظرة في ذلك نافعة إما لهَدْي مسترشد ، وإما لإعانة مستنجد ، وإما لقطع مبطل متلدد ، بل هم أكمل الناس نظراً واستدلالاً واعتباراً وهم نظروا في أصح الأدلة وأقومها ..."[5] .

وقال – رحمه الله – في موضع آخر : " وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة ، والبحث عنها محظوراً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾[6] ، وقال تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ ﴾[2] ، أي من حجة وبرهان .

---

(١) – هو : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن السائب ، يلتقي مع النبي – ﷺ – في عبد مناف ، ولد في غزة ، وقيل: بعسقلان ، سنة ١٥٠هـ ، ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين ، فنشأ بها وقرأ القرآن، ورحل إلى مالك في المدينة وعرض عليه الموطأ بعد حفظه له ، ثم رجع إلى مكة ، ورحل إلى اليمن ، ثم رحل إلى العراق سنة ١٨٤هـ ، ثم عاد إلى مكة ثلاث مرات ، ثم رحل من العراق إلى مصر ، وبقي بها حتى توفى سنة ٢٠٤هـ، (انظر : البداية والنهاية : ١٠ / ٢٥١) .

(٢) – تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي ، ط١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، بيروت ، ص٣٤٠ .

(٣) – هو: أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النميري القرطبي المالكي، وهو من كبار حفاظ الحديث، يقال له حافظ المغرب ولد بقرطبة سنة ٤٦٣هـ، (انظر : تذكرة الحفاظ : ٣ / ١١٢٨ ، الأعلام : للزركلي : ٨ / ٢٤٠) .

(٤) – المرجع نفسه : ص٢٧١ ، وجامع بيان العلم وفضله : أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ، تحقيق : أبو الأشبال الزهري ، ٢/ ٩٣٨ ط٢ ، ١٤٠٢هـ ، دار الكتب الإسلامية ، مصر .

(٥)– درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٣ / ١٦٦ .

(٦)– سورة النمل : من الآية ٦٤ .

(١)– سورة الأنفال : من الآية ٤٢ .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾[٣] ، إلى قوله : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾[٤] ، وذكر إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه في معرض الثناء عليه ، وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾[٥] "[٦].

وقد سبق ذكر قوله – رحمه الله – : " فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان ، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس ، ولا أفاد كلامه العلم واليقين "[٧].

فدلّ ما سبق من الكلام على أن السلف والأئمة كانوا يردّون على الشبهات والضلال لكشف زيغها ووهنها وإحقاق الحق وبيانه ، كما تبين أن ما ورد عنهم من النهي والتحذير من الردّ على أهل الشبهات والضلال ومجالستهم ومناظرتهم لم يكن مطلقاً وحكماً عاماً في جميع الأحوال وإنما كان مقيداً في أحوال معينة مخصوصة .

ثم بالنظر في أدلة مشروعية الردّ على الشبهات وحكمه – كما سبق ذكر ذلك في المطلبين السابقين – يترجح بأن طريقة الردّ ؛ أي الردّ على شبهات المدعويين ومناقشة المنكرين والمبطلين لإبطال الباطل وإزالته وإحقاق الحق وإثباته منهج صحيح مشروع في الدعوة إلى الله ، ويتردد حكمه بين الاستحباب والوجوب بحسب مقتضى الحال ، وعلى الداعية الاستفادة من كلتا الطريقتين ؛ طريقة العرض وطريقة الردّ حسب مقتضى حال المدعو وقدرة الداعية .

---

(١)- سورة يونس : من الآية ٦٨ .

(٢)- سورة الأنعام : من الآية ١٤٩ .

(٣) – سورة البقرة : من الآية ٢٥٨ .

(٤) – سورة البقرة : من الآية ٢٥٨ .

(٥)- سورة الأنعام : من الآية ٨٣ .

(٦)- درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٧ / ١٦١، ١٦٢ .

(٧)- المرجع السابق : ٣٥٧/١ .

الفصل الثاني

أسباب إثارة الشبهات على الدعوة الإسلامية ودوافعها ومظاهرها :

المبحث الأول : أسباب إثارة الشبهات على الدعوة الإسلامية ودوافعها :

المطلب الأول : مصادر الشبهات .

المطلب الثاني : أسباب الشبهات ودوافعها .

المطلب الثالث : إمكانية معالجة دوافع الشبهات وإزالة أسبابـــها .

المبحث الثاني : مظاهر الشبهات المثارة على الدعوة الإسلامية :

المطلب الأول : مظاهر الشبهات المثارة حول الداعي .

المطلب الثاني : مظاهر الشبهات المثارة حول المدعو .

المطلب الثالث : مظاهر الشبهات المثارة حول الدعوة .

المبحث الأول

أسباب إثارة الشبهات على الدعوة الإسلامية ودوافعها

المطلب الأول : مصادر الشبهات :

المقصد الأول : مفهوم المصدر .

المقصد الثاني : تعريف المدعو (مصدر الشبهات) .

المقصد الثالث: أصناف المدعو (أصناف مصدر الشبهات) .

المطلب الأول : مصادر الشبهات

المقصد الأول : مفهوم المصدر:

المصادر في اللغـــة جمع " المصدر "، و" المصدر" مشتق من " صَدْر " و" الصدر" : أعلى مقدَّم كل شيء وأوله ، يقال : صدر النهار والليل ، وصدر الشتاء والصيف "[1] .

و" (صَدَر) عن الماء وعن البلاد من باب نَصَرَ ودَخَلَ ، و(أصْدَره فَصَدَر) أي : رَجَعَه فَرَجَعَ والمَوْضِع (مصدر) ومنه (مصادر) "[2] .

و" المصدر " هو " ما يصدر عنه الشيء ، وهو عند علماء اللغة : صيغة اسمية تدل على الحدث فقط "[3] .

والمعنى المقصود من " المصدر " في هذه الدراسة مأخوذ من أحد معانيه ومدلولاته في اللغة وهو المنبأ والمنشأ ؛ وعلى هذا فيكون معنى " مصادر الشبهات " منشأ الشبهات ؛ والمنشأ – هنا – المدعو ؛ لأن المدعو هو الذي ينشأ منه شبهة أو شبهات بقصد أو بغير قصد ، والمدعو الذي يثير الشبهات بغير قصد يختلف عمن يثيرها بقصد ؛ فالذي يثيرها بغير قصد ليس له مصلحة أو مصالح دنيوية يريد تحقيقها من وراء إثارة الشبهات كمن يثيرها بقصد ؛ فأهل المصالح يقومون ضد الحق ويسعون بشتى الأساليب لكبته ، ومن تلك الأساليب إثارة الشبهات حول الدعوة وتشويه سير الدعاة إليها ، وبذر الشكوك عنهم وإطلاق الشائعات ضدهم ، ومحاربتهم في أفكارهم وأرزاقهم ، وقد صدق الله إذ يقول : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾[4]

ومصادر الشبهات أي المدعوون الذين تنطلق منهم سهام الشبهات والافتراءات نحو الدعوة الإسلامية ودعاتها أصناف متعددة ، وسأتحدث عنها فيما يلي باختصار – إن شاء الله – ليتسنى لنا فيما بعد اكتشاف أسباب شبهاتهم وافتراءاتهم ودوافعها ضد الدعوة والداعية .

المقصد الثاني : تعريف المدعو (مصدر الشبهات):

---

(١) – لسان العرب : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، ٤/٤٤٥ .

(٢) – مختار الصحاح : الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، ص٣٥٨ .

(٣) – المعجم الوسيط : باب الصاد ، ص٥١٠ .

(٤) – سورة المنافــقون : من الآيــة ٧ .

المدعو في اللغة اسم مفعول من دعاه يدعوه ، فهو : مَدْعُوٌّ . وفي اصطلاح الدعوة الإسلامية : هو " الإنسان " مطلقاً ، ذكراً كان أو أنثى ، مسلماً كان أو غير مسلم ، عربياً كان أو أعجمياً ، أبيضاً كان أو أسوداً ، مهما كان جنسه ومهنته وبلده ومعتقده وثقافته ؛ لأن الإسلام رسالة الله الخالدة بعث الله به محمداً – ﷺ – إلى كافة الناس ، قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[1] ،

وقال سبحانه تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2] .

ولذلك كان ممن آمن بالله وبرسوله محمد – ﷺ – وبما جاء به من الدين العربي كأبي بكر، والحبشي كبلال ، والرومي كصهيب ، والفارسي كسلمان ، والمرأة كخديجة ، والصبي كعلي بن أبي طالب ، والغني كعثمان بن عفان ، والفقير كعمار ، والأعمى كعبد الله بن مكتوم – رضي الله عنهم أجمعين – [3] .

المقصد الثالث : أصناف المدعو (أصناف مصدر الشبهات) :

(١) – سورة سبأ : من الآيــة ٢٨ .

(٢) – سورة الأعراف : من الآيــة ١٥٨ .

(٣) – أصول الدعوة : د. عبدالكريم زيدان ، ص٣٧٣ ، والمدخل إلى علم الدعــوة : محمد أبو الفــتح البــيانوني ، ص٤١، ٤٢ .

يمكن تقسيم المدعوين إلى عدة أصناف ومن حيثيات مختلفة حسبما يلي :

أ - أصناف المدعوين من حيث المعتقدات .

ب - أصناف المدعوين من حيث الحالة والوضع الاجتماعي .

ج - أصناف المدعوين من حيث قابلية الاستجابة للحق .

أ - أصناف المدعوين من حيث المعتقدات

(١) - المسلمون

(٢) - أهل الكتاب

(٣) — المشركون

(٤) — الملحدون

(١) — المسلمون أو المؤمنون :

وهم المعروفون في الاصطلاح الدعوي بأمة الاستجابة ، وينقسم المسلمون من حيث الاهتداء والضلال إلى :

(أ) مسلمون مهتدون .

(ب) مسلمون ضالون .

وغالباً ما يستخدم هذا التقسيم بهذين الاصطلاحين في سياق الحديث عن الحكم على المسلمين باعتبار عقائدهم لبيان ما يتوافق من العقائد مع الكتاب والسنة وما يجانب منها الصواب؛ " وذلك لأن المسلم قد يضل في عقيدته ضلالاً لا يخرجه عن الملة الإسلامية ، كأن يكون صاحب بدعة خطيرة في العقيدة لا يكفر بها ، وذلك كمن أنكر مسألة أصلية شرعية متأولاً بدليل أو شبهة ، كما وقع في هذا الشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرهم على وجه عام ، أما أفرادهم فقد يكون فيهم الضال أو الكافر بحسب ما يصدر عنهم من مكفر في القول أو العمل "[١] .

---

(١) – المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، ص١٧٤ ، وانظر : " الاعتصام " للشاطبي ، ١٨٥/٢، ٢٠٠ – ٢٢٣ ، ٢٢٦ – ٢٣٠ .

كما ينقسم المسلمون من حيث قوة أو ضعف التزامهم بتعاليم الإسلام إلى ثلاثة أقسام، وهي:

(أ) – سابق بالخيرات : وهو التقي الصالح .

(ب) – ظالم لنفسه : وهو الفاسق الفاجر .

(ج) – ومقتصد : وهو الضعيف المتردد بين الصنفين السابقين .

وقد دل قول الله ﷻ على هذا التقسيم حيث قال :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1] .

وقد يوجد في بعض هذه الأصناف لاسيما في الصنفين الأخيرين بعض صفات المشركين أو المنافقين مما يؤاخذون عليه ، وإن لم يخرجوا من الملة ، ومن هنا وجد في الفقه الإسلامي اصطلاح " كفر دون كفر " ، " وضلال دون ضلال " ، فورد – مثلاً – في الحديث النبوي : " من حلف بغير الله فقد كفر " وفي رواية : " فقد أشرك " ، أي عمل عمل أهل الشرك ، وكان التعبير النبوي بالشرك تغليظاً لفعله وتنفيراً منه ، يقول الإمام النووي تعليقاً على هذا الحديث : وفسر بعض العلماء قوله " كفر أو أشرك " على التغليظ ، كما روي أن النبي – ﷺ – قال : " الريا شرك "[2] .

وورد في الحديث النبوي الآخر : " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر "[1] . أي إذا وجدت في المؤمن خصلة أو أكثر من خصال المنافقين ما لم يبلغ إلى الأربع المذكورة في الحديث : ففيه خصال نفاق ولا يحكم عليه بالمنافق

---

(١) – سورة فاطر : الآية ٣٢ .

(٢) – جامع الترمذي : كتاب النذور والأيمان ، باب : ما جاء أن من حلف بغير الله فقد أشرك ، ص٢٦٩ رقم الحديث: ١٥٣٥، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، (وأخرجه أحمد : ٣٤/٢ ، ٦٩ ، ٨٦ و٨٧ ، وإسناده صحيح ، وصححه الحاكم (٢٩٧/٤) ووافقه الذهبي) .

– ورياض الصالحين : الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ، حواشي : صفي الرحمن المباركفوري ، ص٤٥١، ط٥ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م ، مكتبة دار السلام ، الرياض .

(١) – صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، باب : علامة المنافق ، ص٣٠ ، رقم الحديث : ٣٤ ،

وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق ، ص٥٥، ٥٦ ، رقم الحديث : ١٠٦ .

وإنما هو شبـــيه بالمنافقين ، والنفاق مخالفة الباطن للظاهر ، فإن كان في الاعتقاد أي الإيمان فهو نفاق الكفر ، وإن كان في العمل فهو نفاق العمل[1] .

إذن فهذه الأصناف من المدعوين قد تصدر من بعضهم شبهة أو شبهات بسبب الجهل أو سوء الفهم أو الشهوة أو بغيرها من الأسباب التي سيأتي ذكرها فيما بعد ، وبالتالي فتكون دعوتهم بحسب حالهم وموقعهم من الاستجابة لدعوة الحق والالتزام بتعليماتها ، والشبهات التي تصدر عنهم ، فيدعى السابق بالخيرات إلى تقوية الإيمان والازدياد في العمل والترفع في التقوى ، ويحذر من الاغترار بما يعمله من الصالحات ، ويُرد على الشبهات التي تبعث الرياء والسمعة في نفوسهم.

ويُدعى الظالم لنفسه إلى ترك الفسق والفجور ، والتوبة من جميع المعاصي والكبائر على وجه الخصوص ، والامتـــثال بأوامر الله سبحانه وتعالى وأحكامه .

ويُدعى المقتصد أيضاً إلى ترك المعاصي ، والانتقال إلى المتقين السابقين بالخيرات ، والتوقف عن حالته الترددية والثبات على الطاعة والصلاح ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[3] .

كما يُدعى المسلمون الضالون ؛ أي الذين وقعوا في شيء من الضلال العقدي ، إلى تصحيح عقائدهم والرجوع عن ضلالهم ؛ وذلك ببـــيان العقائد الصحيحة ؛ عقائد أهل السنة والجماعة ، وإثبات أحقيتها بالحجة والبرهان وكشف زيغ عقائدهم وإبطال شبهاتهم .

فلكل صنف من الأصناف المذكورة أساليب دعوية تناسبهم في دحض شبهاتهم ، ودفع تأويلاتهم الباطلة ، فلا يسوّى بينهم لا في أساليب دعوتهم ولا فيما يُدعون إليه .

(٢) – أهل الكتاب :

أهل الكتاب هم أهل الديانات السابقة كاليهود والنصارى ، وسُمّوا "أهل الكتاب" لانتسابهم إلى كتبهم السابقة المنـــزلة من الله ﷻ على الرسل المبعوثين إليهم ، وتسميتهم بهذا الاسم هو باعتبار أصل انتسابهم إلى الكتب السماوية إلاّ إنهم من الكفار لوقوعهم في الشرك ،

---

(١) – فتح الباري : الحافـــظ بن حجر العسقلاني ، ١/٩٠ ، ٨٩ .

(٢) – سورة الزمر : الآيـــة ٥٣ .

(٣) – سورة الأعراف : الآيـــة ٢٠١ .

وعدم استجابتهم لدعوة محمد – عليه السلام –، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[1] ، وسنتحدث – باختصار – عن اليهود والنصارى لكونهم المدعوين المدَّعين بتمسكهم بكتبهم السماوية وبأنهم على الحق ، ولوجودهم المحسوس عدداً في أنحاء العالم .

أولاً : اليـــهود :

تطلق كلمة '' اليهود '' على أهل الديانة اليهودية ، واليهودية : '' هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم – عليه السلام – ، والمعروفين بالأسباط (بني إسرائيل) الذين أرسل الله إليهم موسى – عليه السلام – ، مؤيداً بالتوراة ليكون لهم نبيـاً . واليهودية ديانة يبدو أنها منسوبة إلى يهود الشعب . وهذه بدورها قد اختلف في أصلها . وقد تكون نسبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب وعممت على الشعب على سبيل التغليب ''[2] .

والدين الذي جاء به موسى – عليه السلام – كان ديناً حنيفاً كدين سائر المرسلين ؛ دين توحيد خالص ، ولكن شوّهه أتباعه بعد سليمان – عليه السلام – فنشأت بذلك اليهودية ، وحفلت أعمالهم بالمخازي ، وتصرفاتهم بالخطايا ، وطغت عليهم المادة ، فرأوا في الهيمنة الاقتصادية على العالم أساساً وحيداً لسيادة جنس اليهود ، ولذا حاربوا العالم كله ، فنشروا فيه الانحلال الخلقي ، وساندوا الظلم ، وكرسوا العدوان ، وشوهوا الدين ، وخرجوا على الفطرة البشرية أيَّما خروج بدعوى عنصرية فارغة وادعاء سيادة زائفة ، وتم ذلك كله وغيره ، من خلال الجمعيات اليهودية المتعددة التي انطلقت في ظل هذه الديانة ، لا لتسيء إلى هذا الدين فحسب ، بل لزلزلة عقائد أهل الأديان كافة ، من خلال عملية تمويه ذكية ، فلم تشر هذه الجمعيات مطلقاً إلى أنها تنبثق من اليهودية أو إلى أن دعوتها موجهة لخدمة أهداف هذه الديانة المنسوخة . كما استطاعت هذه الجمعيات أن تتسرب في ذكاء ودهاء بالغين إلى كثير من المنظمات العالمية ذات الصبغة الإنسانية لكي تباشر عملياتها الهدامة من خلالها في خفاء عجيب ، ولكن الله سبحانه وتعالى شاء

---

(١) – سورة آل عمران : الآيـة ٨٥ .

(٢) – الموسوعـة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة : ١/ ٤٩٥ ، ط٤ ، ١٤٢٠هـ ، الناشر : دار الندوة العالمية للطباعـة والنشر والتوزيع ، الرياض ، إشراف وتخطيط ومراجعة : د. مانع بن حماد الجهني .

أن يكشف دسَّها اللعين ضد الدين ، فظهرت على حقيقتها وبدت جلية أمام كثير من أصحاب العقول الرشيدة والآراء السديدة ، فحاولوا وقف مدها[1] .

وكان هؤلاء أشد الناس بغضاً وعداوة للإسلام والمسلمين ، ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾[2] ، وقد بذلوا وما زالوا يبذلون كل ما في وسعهم من الإمكانات المادية والمعنوية لتشويه دين الإسلام وإضعاف المسلمين ، فقاموا يكيدون لهم ويشعلون نار الفتـــنة والشهوة والشبهات فيهم وفي دينهم ، وقالوا بتعدد الآلهة والتجسيم والنفعية وبأنهم شعب الله المختار ، وأن أرواح اليهود جزء من الله .

والذين يشكلون خطراً داهماً على الإسلام هم " يهود الدونمة الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية رغبة في الكيد للمسلمين ، ولذا استوطنوا جهة الغرب من آسيا الصغرى وأسهموا في تقويض الدولة العثمانية ، وهاجموا حجاب المرأة ودعوا إلى السفور والتحلل وإفساد شباب الأمم كلها "[3] .

كما نشأت من اليهودية حركات ومنظمات مدمرة كالصهيونية ، والماسونية ، ونادي الليونز ، ونادي الروتاري لهدف سيطرة اليهود على العالم من خلال الدعوة إلى الإلحاد والإباحية والفساد مع التستر تحت شعارات خداعة كالحرية والمساواة والإخاء والإنسانية . وقد استطاعت هذه المنظمات أن تضم إليها كثيراً من الشخصيات المرموقة في العالم ، ومن خلالهم تحاول تحقيق أهدافها التي تتمثل في تكوين حكومة لا دينية عالمية[4] .

إذن اليهود مصدر نشيط وخطير جداً من مصادر الشبهات التي تـــثار حول الدعوة والداعية والمدعو .

ثـــانيـــاً : النصارى :

" النصارى " كلمة معربة تطلق في العربية على أتباع المسيح – عليه السلام – ، يرى بعض المستشرقين أنها من أصل سرياني هو (نصرايا) ، ويرى البعض الآخر أنها تسمية عبرانية أطلقها

---

(١) – الموسوعـــة : ١ / ٤٩٢ .

(٢) – سورة المائدة : الآيـــة ٨٢ .

(٣) – الموسوعـــة : ١ / ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٤) – الموسوعـــة : ١ / ٤٩٣ ، (بتصرف) .

اليهود على من اتبع ديانة المسيح ، ويرى بعض المؤرخين أن لها صلة بالناصرة التي كان منها يسوع حيث يقال يسوع الناصري ، أو أن لها صلة بالناصريين ؛ إحدى الفرق القديمة اليهودية المتـــنصرة ، وقد بقي اليهود يُطلقون على اتباع ديانة المسيح ، ولهذا المعنى وردت الكلمة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ومن ثم صارت " النصرانية " عَلماً على الديانة المسيحية عند المسلمين[1] . ويمكن تعريف النصرانية بما يلي :

"هي الدين الذي انحرف عن الرسالة التي أُنزلت على عيسى – عليه السلام – مكمِّلة لرسالة موسى – عليه السلام – ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم ، موجهة إلى بني إسرائيل، داعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح ، وهذه الرسالة جابهت مقاومة واضطهاداً شديداً ، فسرعان ما فقدت أصولها ، مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها ، فابتعدت كثيراً عن أصولها الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات وثنية ، فنشأت النصرانية"[2] .

وأذكر فيما يلي فكرة مختصرة عن حقيقة النصرانية وأفكارها الأساسية بعد تحريف كتابها، وحركاتها النشطة ، وكيد النصارى من خلالها للإسلام والمسلمين ليحصل القارئ على معرفـــة عامة حقيقية عن هذا النوع من المدعوين ، وليتبين له بأنهم كانوا ولا يزالون مصدراً خطيراً من مصادر الشبهات التي تثار حول الدعوة والداعية والمدعو :

كتاب النصارى :

كتاب النصارى هو الإنجيل ، أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله عيسى – عليه الصلاة والسلام – ، يحدثنا القرآن الكريم عنه فيقول : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[3] .

والكتاب المقدس عند النصارى يشمل العهد الجديد والعهد القديم ، وقد اتفق النصارى في بداية القرن الخامس الميلادي على اختيار سبعة وعشرين سفراً من أسفارهم واعتمادها بأنها وحدها الأسفار الموحى بها ، ومن ثم فهي وحدها أسفار مقدسة ، ويعتقدون أن الله سبحانه

---

(١) – أصناف المدعوين وكيفية دعوتـــهم : د. حمود بن أحمد الرحيلي ، ص٣٣ ، ط١ ، ١٤١٤هـــ ، دار العاصمة ، الرياض ، (بتصرف) .

(٢) – الموسوعـــة : ٢ / ٥٦٤ .

(٣) – سورة المائدة : من الآيـــة ٤٦ .

وتعالى أوحى بها إلى أصحابها بمعانيها لا بألفاظها ، وسمّوها بالعهد " الجديد " ، كما سمّوا ما اعتمدوا من أسفار اليهود المقدسة بالعهد " القديم "[1] .

والناظر في تلك الأسفار يجد الكثير من التناقض والتضارب فيما جاءت به من تعليمات وأخبار مع مناقضتها للعقل السليم ، وذلك لما لحقها من التحريف والتبديل ، يشير القرآن الكريم إلى ذلك حيث يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾[2]، "وقد تصدى لهذا الموضوع كثير من جهابذة العلماء المحققين قديماً وحديثاً، مثل الإمام ابن حزم في كتابه : " الفصل في الملل والأهواء والنحل "، والإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس المعروف بالقرافي في كتابه : " الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة " ، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه : " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " ، والإمام ابن القيم في كتابه : " هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى " ، والشيخ رحمة الله الهندي في كتابه : " إظهار الحق " ، وغيرهم ممن ذكروا أمثلة كثيرة للتناقض والتحريف الذي أصاب هذه الكتب "[3] .

أهم الحركات والفرق النصرانية التي تهدف إلى القضاء على الإسلام :

– **فرقة الجزويت** : هي فرقة كاثوليكية يسوعية متعصبة ، أنشأها قسيس فرنسي يُدعى أنياس لايولا في القرون الوسطى ، تهدف إلى القضاء على الديانات غير النصرانية لاسيما الدين الإسلامي[4] .

– **حركة التنصير** : هي حركة دينية سياسية استعمارية ظهرت إثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة وبخاصة بين المسلمين بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب[1] .

---

(١) – الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام : الدكتور علي عبد الواحد وافي ، ص٧٥ ، ط: دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة . وأصناف المدعوين وكيفية دعوتهم : الدكتور حمود بن أحمد الرحيلي ، ص٣٤ .

(٢) – سورة المائدة : الآية ١٤ .

(٣) – أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم : د. حمود بن أحمد الرحيلي ، ص٣٤ ، ٣٥ .

(٤) – الموسوعة : ٢ / ٦٣٢ ، ٦٣٣ .

(١) – المرجع السابق : ٢ / ٦٦٥ .

– **الأبوس دبي** : هذه منظمة سرية هدفها إعلاء النصرانية الكاثوليكية عن طريق الإفادة من كل المعطيات الحديثة للتربية والسياسة والاقتصاد ، ومن خلال أعضاء يجب أن يكونوا قدوة حسنة[1].

– **المارونـــية** : هي طائفة نصرانية كاثوليكية شرقية تقول بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ، وقد أعلنوا طاعتهم لبابا روما ، وتعاونوا مع الصليـــبيـــين ضد الإسلام إبان الحروب الصليـــبـــية[2] .

– **الـــمونـــية** : هي حركة مشبوهة تدعو إلى توحيد الأديان في بوتقة دين المتنبي الكوري الكاذب " صن مون "[3] .

– **شهود يهوه** : هي منظمة سرية تدعي أنها نصرانية ولكنها تعمل لحساب اليهود ، وتتعاون مع المنظمات التبشيرية ضد الإسلام[4] .

– **الاستـــشراق** : هو تيار فكري يدرس أديان الشرق وحضارته وثقافته وآدابه ولغاته عامة والشرق الإسلامي خاصة بنظرة نصرانية وبغير الموضوعية – في أغلب الأحيان – ، ولذا فتأتي الدراسات الاستشراقية في معظمها ضد حقائق الإسلام[5] .

– **الـــتغريب** : هو أيضاً تيار فكري ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية ، يهدف إلى صبغ حياة الأمم عامة والمسلمين خاصة بصبغة غربية ، وإلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة[6] .

وهنا يتـــبين من خلال ما سلف من الحديث خطورة هذا المصدر ومن ثم ضرورة الردّ على ما يثيرها من الشبهات ويفتريها من الاتهامات حول الدعوة والداعية والمدعو.

---

(١) – المرجع السابق : ٢ / ٦٥٧ .

(٢) – المرجع نفسه : ٢ / ٦٢٦ – ٦٣٠ .

(٣) – المرجع نفسه : ٢ / ٦٥٧ .

(٤) – المرجع نفسه : ٢ / ٦٥٩ .

(٥) – المرجع نفسه : ٢ / ٦٨٧ .

(٦) – المرجع نفسه : ٢ / ٦٩٨ .

(٣) – المشـــركون :

الـــشرك:

يطلق "الشرك" في اللغة على النصيب ، والنّد ، والمثيل ، والشبيه ، والنظير ، والعديل، والأرباب ، والكفر . وجمع الشرك : أشراك[١] .

أما في الاصطلاح الشرعي فقد عرّفه الإمام الذهبي بقوله : هو أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك، وتعبد معه غيره[٢] .

ويمكن القول على ما ذُكر من معانيه في اللغة وتعريفه في الشرع أنه : شرك العبد مع الله غيره في الاعتقاد أو صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى من أصنام أو أوثان أو إنس أو جن أو أحجار أو أشجار أو قبور أو قوى طبيعية أو غير ذلك من المخلوقات .

والشرك أكبر الكبائر وأعظم الذنوب ، وهو الذنب الذي لا يغفر إن لم يتب منه صاحبه قبل موته ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٣] ، وروي عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : سألت النبي – ﷺ – أي الذّنب أعظم عند الله ؟ قال : "أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ..."[٤] ، وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : ذكر رسول الله – ﷺ– الكبائر ، أو سُئل عن الكبائر ، فقال : " الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين، فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قول الزور ، أو قال : شهادة الزور"[٥] .

---

(١) – مختار الصحاح : محمد الرازي ، ص٣٣٦ ، القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، ص١٢٢٠ ، معجم مقاييس اللغة : أبو الحسن أحمد بن فارس ، ٢٦٥/٣ ، مفردات غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، ص٢٥٩ ، لسان العرب : لابن منظور ، ٤٤٨/١٠ .

(٢) – كتاب الكبائر وتبيين المحارم : الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، ص٣٨ ، ط١ ، ١٤٠٤هـــ ، مؤسســة الرسالــة .

(٣) – سورة النساء : من الآيــة ٤٨ .

(٤) – صحيح البخاري : كتاب التفسير ، باب : قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ، ص٨٤٦ ، رقــم الحــديث : ٤٤٧٧ .

وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب ، ص ٦٢ ، رقم الحديث ١٤١ .

(٥) – صحيح البخاري : كتاب الأدب ، باب عقوق الوالدين من الكبائر ، ص١١٥٩ ، رقم الحديث : ٥٩٧٧ .

وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده ، ص٦٣ ، رقــم الحــديث : ١٤٤.

المشـــركون :

هم الذين أشركوا مع الله غيره في الاعتقاد أو العبادة ، مثل مشركي العرب وغيرهم من الوثنيـــين في الأمم الأخرى ، الذين أخبر الله عنهم بقوله :

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[١] .

وهؤلاء مصدر قديم لإثارة الشبهات حول دعوة التوحيد ودعاتها ، لما ينحط الإنسان فكرياً يميل إلى الماديات والمحسوسات ، وهنا يقع في التخبط العقلي ، وهذا ما يحصل مع المشرك ؛ فتارة يتصور معبودها في أجرام سماوية من شمس أو قمر أو كوكب ، وتارة في حجر وشجر، وتارة في صنم ، وأخرى في قبر .. وهكذا .

فالمشركون يؤمنون بوجود الله ، و"يقرون بربوبيته ، وبأنه الخالق والرازق والمالك لكل شيء ، المدبر لشؤون خلقه ، النافع ، الضار ، المنفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار "[٢] .

قال تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٣] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[٤] .

وقال ﷻ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٥]

ولكنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية ، ولا يخلصون العبادة لله وحده ، وإنما يشركون معه – سبحانه – آلهة أخرى ، حيث يذبحون لها ويقدمون النذور ، وكان مشركوا مكة " إذا أهلوا

---

(١) – سورة الزمر : الآيـــة ٣ ، وانظر لتعريف المشركين : المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، ص١٧٨.

(٢) – أصناف المدعوين وكيفية دعوتـــهم : د. حمود بن أحمد الرحيلي ، ص٥٧ ، ٥٨ .

(٣) – سورة لقمان : من الآيـــة ٢٥ .

(٤) – سورة يونس : الآيـــة ٣١ .

(٥) – سورة الزخرف : من الآيـــة ٨٧ .

بالتلبية ، يشركون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده ''[1] ، يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد – ﷺ – : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[2] .

(٤) – الملحدون :

الإلحاد في اللغة :

الميل عن القصد ، والعدول عن الشيء ، والظلم والجور ، والجدال والمراء ، يقال :

- لَحَدَ في الدين يَلْحَدُ وألْحَدَ : مال وعدل .
- الْمُلْحِد : العادل عن الحق الْمُدْخِل فيه ما ليس فيه ، يقال : ألْحَدَ في الدين ولَحَدَ : أي: حاد عنه .
- أَلْحَدْتُ : أي مارَيْتُ وجادلت .
- لَحَدتُ : أي جرت وملت .
- ألْحَدَ : مارى وجادل[3] .

و'' الإلحاد '' : '' هو الميل عن الحق ، والانحراف عنه بشتّى الاعتقادات ، والتأويل الفاسد '' ، '' والمنحرف عن صراط الله ، والمعاكس لحكمه يُسمّى ملحداً ''[4] ، قال تعالى -: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[5] .

الإلحاد في الاصطلاح :

هو '' مذهب فلسفي يقوم على إنكار وجود الله سبحانه وتعالى ، ويذهب إلى أن الكون بلا خالق ، ويعد أتباع العقلانية هم المؤسسون الحقيقيون للإلحاد الذي ينكر الحياة الآخرة ، ويرى أن المادة أزلية أبدية ، وأنه لا يوجد شيء اسمه معجزات الأنبياء فذلك مما لا يقبله العلم في زعم الملحدين الذين لا يعترفون أيضاً بأية مفاهيم أخلاقية ، ولا بقيم الحق والعدل ولا بفكرة

---

(١) – أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم : د. حمود بن أحمد الرحيلي ، ص ٥٨ .

(٢) – سورة يوسف : الآية ١٠٦ .

(٣) – لسان العرب : ابن منظور ، ٣/٣٨٨ ، ٣٨٩ ، مادة '' لحد '' .

(٤) – أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم : د. حمود بن أحمد الرحيلي ، ص٨٤ .

(٥) – سورة الأعراف : الآية ١٨٠ .

الروح ، ولذا فإن التاريخ عند الملحدين هو صورة للجرائم والحماقات وخيبة الأمل ، وقصته لا تعني شيئاً ، والإنسان مجرد مادة تطبق عليه القوانين الطبيعية كافة ''[1] .

وشبهات ملحدي العصر الحديث ليست بمختلفة عما كان يقوله الدهريون القدماء ، وقد أخبر القرآن الكريم بما كانوا يقولون حيث قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[2] ، وقال الله – سبحانه وتعالى – حكاية عنهم أيضاً : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[3] .

وانتشر الإلحاد في الناس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين ، وكان له سبيلان اتخذهما أصحابه ، وهما :

الأول : رفع شعار العقلانية والعَلْمَانيّة ، الذي سيطر بقوة على الفكر الغربي بعد التمهيد لذلك بإطلاق مبادئ الحرّيات الفكرية والسلوكية ، وبعض الحرّيات السياسية والاجتماعية الأخرى .

الثاني : نشر الماركسية ، بكل فلسفاتها ، وشعاراتها ، وبرامجها الاقتصادية ، وألوان مكرها وكيدها ، التي بنيت بناءً كلياً على الإلحاد بالله تعالى ومقاومة كل الأديان ، ومع أن الإلحاد المنتشر في الأرض اليوم لا سند له من العلم ، ولا دليل عليه من العقل ، فقد انتشرت شبهاتهم وكثر جدالهم بالباطل لدحض الحق به ونشر الإلحاد ، ومن ثم كان هؤلاء مصدراً مهماً من مصادر نشر الفساد والشبهات[4] .

ب – أصناف المدعوين من حيث الحالة والوضع الاجتماعي :

(١) – الملأ .

(٢) – جمهور الناس وعامتهم .

(٣) – المنافقون .

(١) – الملأ :

---

(١) – الموسوعة : ٨٠٦/٢ .

(٢) – سورة المؤمنون : الآية ٣٧ .

(٣) – سورة الجاثية : الآية ٢٤ .

(٤) – أصناف المدعوين وكيفية دعوتهم : د. حمود بن أحمد الرحيلي ، ص٨٥ ، ٨٦ .

من معاني ‘‘ الملأ ’’ في اللغة : التَّشَاوُرُ ،والأشْرَافُ ، والعِلْيَةُ ، والجماعَةُ ، والطَّمَعُ ، والظَّنُّ ، والقومُ ، ذَوُو الشَّارة ، والتَّجَمُّعُ ، والخُلُقُ[1] .

وقيل : الملأ هم أشراف الناس ووجهاؤهم الذين يملئون العيون جمالاً والقلوب هيبةً[2].

وأما في الاصطلاح الشرعي فهم : أشـــراف القوم وقادتهم ورؤساؤهم وساداتهم وكبراؤهم[3].

وقيل : هم الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين جرت العادة باستكبارهم على الحق وعدم انقيادهم للرسل[4].

فهم إذن : أعلام المجتمع وأهل النفوذ فيه ، يعتبرهم الناس أشرافاً وسادة ، ومن ثم يستحقون قيادة المجتمع والزعامة والرئاسة فيه ؛ فقد يباشرون ذلك فعلاً أو تكون لهم علاقة وثيقة بالسلطة يُمالئونها وتمالئهم ، ويتقربون إليها وتتقرب منهم ، ويرضونها وترضيهم ، ويشتركون في كثير من المصالح معها ، ويعينونها في تحقيق مصالحها وتعينهم في إشباع أهوائهم .

ويقاوم الحق بل يحاربه وأهلَه من المرسلين والدعاة مستخدمين في ذلك كل الإمكانات المتاحة لهم من القوة المادية والمعنوية من تعذيب ومقاتلة وتشريد ، ومقاطعة اجتماعية واقتصادية، وضغوط سياسية ونفسية ، وإثارة شبهات حول الحق وتشويه سير دعاته .

وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن موقف الملأ العدائي من الحق ، وبين دورهم في مواجهة دعوات الرسل – عليهم الصلاة والسلام – ومحاربتها ، فمثلاً :

– يحكي القرآن الكريم مواجهة الملأ لنوح – عليه السلام – حيث قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[5] .

---

(١) – القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، ص٦٦ .

(٢) – الفروق في اللغة : أبو هلال العسكري ، في مادة ‘‘ملأ ’’ .

(٣) – تفسير القرآن العظـــيم : الإمام ابن كثير ، ١١٢٥/٢ ، والجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله ، ٢١٤/٧ ، ط٢ ، ١٣٧٢هـــ ، دار الشعب ، القاهرة ، وزبدة التفـــسير من فتـــح القدير : للإمام الشوكاني ، ص٢٠٢ .

(٤) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٩٣ .

(٥) – سورة الأعراف : الآيـــة٥٩ – ٦٠ .

- **ويحكي مواجهتـــهم لـــهود – عليه السلام – قال** ﷻ :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1] .

- **ويذكر موقفهم الاستهزائي من نبي الله صالح – عليه السلام – قال تعالى :**

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[2] .

- **ويخبر عن محاربتهم لنبي الله شعيب – عليه السلام – قال الله** ﷻ:

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾[3] .

- **ويخبر عن إضلالهم لقومهم عن الحق وإبعادهم عنه ، قال جلَّ شأنه :**

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[4] .

- **ويحكي موقفهم من نبي الله موسى – عليه السلام – قال** ﷻ :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾[5] .

- **ويحكي عنهم أنه إذا هدأت العواصف** واستقرت بعض الزوابع ، يثيروها من جديد وينفخون نار العداوة والفتـــنة ، ويدفعون السلطة لذلك ويتعاونون معها حيث قال ﷻ :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾[6] .

- **ويذكر تآمرهم على الداعية لمحاربته بل وقتله ، قال تعالى :**

---

(١) – سورة الأعراف : الآيـــة ٦٥ – ٦٦ .

(٢) – سورة الأعراف : الآيـــة ٧٥ – ٧٦ .

(٣) – سورة الأعراف : الآيـــة ٨٨ .

(٤) – سورة الأعراف : الآيـــة ٩٠ .

(٥) – سورة الأعراف : الآيـــة ١٠٩ .

(٦) – سورة الأعراف : الآيـــة ١٢٧ .

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[1] .

فهذا هو منطق الملأ ، يعادون الدعوة إلى الله ويقاومونها ، ويقودون حملة الأكاذيب ، والشبهات ، والافتراءات ، والتضليلات ضد الدعوة والأنبياء والدعاة .

ومثله كان موقف ملأ قريش من النبي – ﷺ – ودعوته المباركة، آذوا رسول الله – ﷺ– واتهموه بالسحر والكذب ، وأبدوا استغرابهم من دعوته إلى التوحيد ، وأكدوا صحة الشرك وعبادة الأصنام ، وشجعوا الجمهور على الثبات والاستمرار على عبادة الآلهة والأوثان ، قال تعالى حكاية عن ذلك : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾[2] .

(٢) – جمهور الناس وعامتهم :

يتكون المجتمع البشرى من حيث الوضع الاجتماعي و السياسي من طبقتين من الناس:

الطبقة الأولى : طبقة الحكام والرؤساء وأشراف القوم وساداتهم ، وهذه طبقة "الملأ" ، وقد سلف الحديث عنهم .

الطبقة الثانية : طبقة المحكومين أو المرؤوسين للملأ ، وهم الرعايا ، جمهور الناس وعامتهم، وهم أكثرية الناس في كل مجتمع بشري ، ويزاولون مختلف الأعمال والحرف والمهن ، وأغلبهم فقراء وضعفاء .

خصائص الجمهور من منظور دعوي :

لا يوجد في الجمهور – غالباً – ما يوجد في الملأ من موانع وعوامل تمنعهم من الاستجابة لرسل الله ودعاة الحق كالكبر والغرور وحب الجاه والسلطة ، ومن ثم فهم أسرع من غيرهم للاستجابة للحق ، ولذا فهم يصدقون رسل الله ويؤمنون بهم قبل غيرهم ، ويكونون أوائل أتباع الأنبياء والمرسلين ، وقد ذكر القرآن الكريم قول الملأ من قوم نوح ما يفيد ذلك حيث قال : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ

---

(١) – سورة قصص : الآيــة ٢٠ .

(٢) – سورة ص : الآيــة ٤ – ٧ .

كَٰذِبِينَ ﴾[1] ، أي الفقراء والضعفاء وأهل الحرف والمهن الدنية ، فوصف الملأ من آمن من الجمهور بالفقر والضعف وبأنهم ليسوا أهل تفكر وبصيرة ورؤية وتأمل[2] ، وقول الملأ من ثمود كما حكاه الله ﷻ عنهم : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[3] ، وكذلك الأوائل الذين استجابوا للنبي محمد – ﷺ – في مكة المكرمة كانوا من الضعفاء ، وقد نالهم من المشركين أذى كثير [4] ، فكان الجمهور في كل الأزمنة أسرع من غيرهم إلى قبول الحق ، يقول الإمام ابن كثير في تفسيره ردّاً على الملأ : '' فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[5] ، ولما سأل هرقل – ملك الروم – أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي – ﷺ – قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم . قال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل هم أتباع الرسل ''[6] .

ولكن '' مع أن الجمهور مهيأ للاستجابة السريعة أكثر من غيره وأن فرص الإيمان أمامه كثيرة وأن فطرته سليمة فإن هناك احتمال لتأثر الجمهور بمكائد الملأ والسير وراء تضليلهم وأكاذيبهم ''[7] ، بل هذا حاصل وواقع مشهود ، فقد حصل ذلك – مثلاً – لقوم فرعون حيث

---

(١) – سورة هـود : من الآيـة ٢٧ .

(٢) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٠٨ ، وزبدة التفسير من فتـح القدير : للإمام الشوكاني، ص٢٨٨ .

(٣) – سورة الأعراف : الآيـة٧٥ – ٧٦ .

(٤) – السيرة النبوية : عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، أبو محمد ، تحقيق: طـه عبد الرؤف سعد ، ٢/ ١٨٧ ، ط١، ١٤١١هـ ، دار الجيل بيروت .

(٥) – سورة الزخرف : الآيـة ٢٣ .

(٦) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١٤٠٨/٢ .

(٧) – أصول الدعوة : الدكتور عبد الكريم زيدان ، ص٣٩١ .

اتبعه الجمهور على ضلاله وباطله وساندوه عليه وناصروه ، قال الله تعالى عن ذلك ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾[1] ، " أي : استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال فاستجابوا له "[2] .

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أن الجمهور ما داموا مهيئين للاستجابة السريعة فلماذا يتأثرون بباطل الملأ مع وضوح الحق وعدم وجود الموانع للاستجابة عندهم ؟ الجواب عن ذلك يرجع إلى الأسباب التالية :

أولاً : الخوف من البطش والعذاب : إن الملأ بيده القوة والسلطة والنفوذ ، يستطيع أن يرهب الجمهور ويخوفهم إن خرجوا عن الكفر الذي هم فيه واستجابوا لرسول الله وداعي الحق ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[3] ، فأغلب قوم نوح تأثروا بالملأ ولم يستجيبوا لنوح – عليه الصلاة والسلام – مع بقائه الطويل بين أظهرهم حيث ظل يدعوهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ، وكذلك قوم هود ، لم يؤمن أغلبهم بسبب الخوف من جبابرة قومهم، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[4] .

وكذلك قوم موسى لم يؤمنوا به بسبب الخوف من بطش فرعون وملئه إلاّ قلة منهم ، فهم القلة من الجمهور الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يخيفهم التهديد والوعيد بالبطش والعذاب أن يؤمنوا بالحق إذا تبين لهم ذلك ، ويعلنون إيمانهم بكل جرأة واطمئنان غير هيابين ولا وجلين كما حصل لسحرة موسى عندما أعلنوا بالإيمان بالله وبما جاء به موسى – عليه السلام – من دعوة الحق ، ولم يبالوا بتهديد فرعون لهم بالصلب والقتل قائلين له : ﴿ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] ، وكما حصل لأصحاب الأخدود الذين آمنوا بالرغم من العذاب الشديد ، قال الله تعالى حكاية عنهم : ﴿ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ

---

(١) – سورة الزخرف : الآية ٥٤ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٢٥٤١ .

(٣) – سورة هود : من الآية ٤٠ .

(٤) – سورة هود : الآية ٥٩ .

(٥) – سورة الشعراء : من الآية ٥٠ – ٥١ .

﴿ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[1] .

ثانياً : الإغراء بالمال وحب الدنيا : إن الملأ يملكون المال والثروة أيضاً بجانب النفوذ والسلطة ، وهذه الأمور متلازمة ، فقلما نجد شخصاً في هذا الزمان يتمتع بالسلطة والنفوذ دون المال والثروة ، وإغراء الملأ داعي الحق بالمال لإيقافه عن دعوته أو إغرائهم الجمهور لمنعهم عن الاستجابة لداعي الحق أمر قديم متوارث بين أهل الزيغ والباطل ، كما يدفع حب الحصول على المال وحطام الدنيا بعض الجمهور إلى اتباع الملأ على باطلهم والرضاء بقيادتهم ومعادة داعي الحق وعدم الاستجابة له ، قال الله ﷻ : ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴾[2] ، فإنهم اتبعوا ساداتهم وكبراءهم ؛ أصحاب الرئاسة والأموال ، على أمل الحصول على شيء من أموالهم[3] ، الذين – في واقع الأمر – ما زادوهم في أموالهم ولا في أولادهم إلاّ خسارا[4] ، ولما خاف فرعون ميل قومه إلى موسى جمعهم ليغريهم بماله وملكه حيث قال كما يحكي ذلك القرآن الكريم : ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[5] ، ولما رأى ملأ قريش وأشرافهم محمداً – ﷺ – يمضي في دعوته إلى الحق و لم يتوقف عنه برغم المحاولات العديدة منهم لإيقافه عن دعوته إلى دين جديد ، أجمعوا أمرهم لإغرائه بالمال وحطام الدنيا ، فعرضوا عليه – ﷺ – أن يعطوه ما يشاء من المال مقابل تركه دعوته ، فرُوي أنّ عتبة بن ربيعة جاء النبي – ﷺ – نيابة عن قريش لإغرائه بالدنيا وإيقافه عن الدعوة حيث عرض عليه قائلاً : ‘‘يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشطر في العشيرة والمكان في النسب ، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فالسمع مني حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال: فقال رسول الله – ﷺ – : يا أبا الوليد أسمع ، قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر

---

(١) – سورة البروج : الآيـــة ٤ – ٨ .

(٢) – سورة نوح : الآيـــة ٢١ .

(٣) – أصول الدعوة : الدكتور عبد الكريم زيدان ، ص٣٩٤ .

(٤) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٨٨٩ .

(٥) – سورة الزخرف : الآيـــة ٥١ .

مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه – أو كما قال – حتى إذا فرغ عتبة ، قال له النبي – ﷺ –: أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : اسمع مني ، قال : افعل ، فقال رسول الله – ﷺ –: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] فمضى رسول الله – ﷺ – يقرأها فلما سمع بها عتبة أنصت لها ، وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً عليها ليسمع منه حتى انتهى رسول الله – ﷺ – إلى السجدة فسجدها ثم قال : سمعت يا أبا الوليد ؟ قال سمعت ، قال : فأنت وذاك ، ثم قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلسوا إليه قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال : هذا رأي لكم فاصنعوا ما بدا لكم"[2].

وهناك وقائع أخرى كثيرة حصلت مع دعاة الحق على مر العصور التي تدل على أن الملأ يغرون الدعاة بالمال إعطاءً أو منعاً لإيقافهم عن الدعوة ، ويغرون جمهور الناس بالمال أيضاً إعطاء أو منعاً لصدهم عن الاستجابة لدعوة الحق ، كما يمتنع بعض الجمهور عن الاستجابة لدعوة الحق بسبب حبهم الشديد للحصول على المال من الملأ وأشراف القوم .

ثالثاً: الشبهات : سبق القول بأن الملأ يستخدمون كل الإمكانات المتاحة لهم لصد الناس عن دعوة الحق ، ومنها إثارة الشبهات وإشاعتها بين الجمهور، وهذه الشبهات أنواع كثيرة منها ما يقصد به تحطيم شخصية الداعي وتنفير الناس عنه، ومنها ما يثار حول أحقية الدعوة نفسها، وبما

---

(١) – سورة فصلت : الآيــة ٢-٣ .

(٢) – البدايــة والنهايــة : الحافظ ابن كثير ، ٦٣،٦٤/٣ ، ومسند أبي يعلى : أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي ، تحقيق : حسين سليم أسد ، (باختلاف يسير) ، ٣/ ٣٤٩، رقم الحديث : ١٨١٨، ط١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م ، دار المأمون للتراث ، دمشق .

أن من طبع الناس حبّهم لآبائهم وأجدادهم، ومن ثم ما يتوارثونها عنهم من المعتقدات والعادات، تأخذ هذه الشبهات طريقاً إلى نفوسهم وتجعلهم لا يستجيـــبون للحق بل يعادونه لأن الملأ يلقون الشبهات ويثيرونها بأسلوب ناعم مؤثر إضافة إلى إغرائهم للجمهور بالمال وتهديدهم لهم بالقوة، والإنسان بطبعه يحب الحياة والتمتع فيها ويخاف الأذى والحرمان، فتجتمع الشبهات مع هذه الغرائز الإنسانية فيقع التأثير في أكثر الجمهور ولا ينجو منه إلاّ القليل منهم ، ومع هذا يبقى أكثر أتباع الرسل الكرام من الجمهور لا من الملأ[1] .

(٣) – المنافقون :

في اللغة : جمع المنافق ، وهو مشتق من النافقاء ، والنافقاء هو جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها ، يقال : نفَّقَ اليربوع تنفيقاً ، أو نافق اليربوع نفاقاً أي دخل في نافقائه ؛ فالمنافق مأخوذ من " النافقاء " . لا من النّفَق ، وهو السرب الذي يستـــتر فيه لستره كفره .

– ويقال : نَافقَ ويُنَافق ، مُنافَقَة ونفاقاً .

– والنِّفاق بالكسر : فعل المنافق ، والمنافق من يظهر خلاف ما يبطن .

وفي الاصطلاح : النِّفاق هو : إظهار الإيمان وستر الكفر ، والمنافق : من يخفي الكفر ويظهر الإيمان ، ومن يضمر العداوة ويظهر الصداقة[2] .

ويأتي النفاق بمعنى الرياء ، ففي الحديث .: " أكثر منافقي هذه الأمة قُرَّاؤها "[3] ، المراد بالنفاق هنا الرياء وهو إظهار غير ما في الباطن[4] .

يقول ابن كثير –رحمه الله– في تفسير الآية : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[5]: " النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر "[6] ، وهو نوعان :

---

(١) – أصول الدعوة : الدكتور عبد الكريم زيدان ، ص٣٩٤ . (بتصرف)

(٢) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ٣٥٧/١٠ ، والمعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاءه ، ص٩٤٢ .

(٣) – مسند الإمام أحمد : حديث عقبة بن عامر الجهني ، ص١٢٣٦ ، رقم الحديث : ١٧٤١٠ ، (قال شعيب الأرنؤوط : حسن لغيره) .

(٤) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ١٠ / ٣٥٩ .

(٥) – سورة البقرة : الآيــة٨ – ٩ .

(٦) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١/ ٨٠ .

(١) – اعتقادي : وهو الذي يخلد صاحبه في النار لكونه منافقاً خالصاً إذ يخفي التكذيب بالله ورسوله وكتابه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[1] .

(٢) – عملي : وهو من أكبر الذنوب ؛ لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه ، وسرُّه علانيته ، ومدخلُه مخرجَه ، ومشهدُه مغيبَه ، وتوجد فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق[2] ، والذي نريد الحديث عنه هنا في هذه الدراسة هو المنافق الخالص الذي يخفي كفره وتكذيبه بأصول الإيمان .

نشأة النفاق وتاريخ المنافقين :

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره : " نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه ، من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهًا وهو في الباطن مؤمن ، فلما هاجر رسول الله – ﷺ – إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله – ﷺ – المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام – رضي الله عنه –، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان – عليه الصلاة والسلام – وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة ، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يُملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توجه ، فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد (نافق) ، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة . قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن

---

(١) – سورة النساء : من الآيــة ١٤٥ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١/ ٨٠ (بتصرف) .

عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، يعني المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم، وكذا فسرها بالمنافقين من الأوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسدي ، ولهذا نبه الله سبحانه وتعالى على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر ، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أي: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر كما قال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾[2]، أي: إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط لا في نفس الأمر، ولهذا يؤكدون في الشهادة بإن ولام التأكيد في خبرها ، أكدوا أمرهم، قالوا : آمنا بالله وباليوم الآخر وليس الأمر كذلك كما كذبهم الله ﷻ في شهادتهم وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[3]، وبقوله: ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾"[4] .

إذن أستخلص مما سلف من الكلام بأنه إذا انتشر الإسلام في المجتمع الكافر وعلت كلمة الله ودخل الناس في دين الله أفواجا وتم استئصال سطوة الكفر نفوذه وصار للحق سلطان وللمسلمين قوة ومنعة عند ذلك ينشأ النفاق في بعض النفوس لأسباب سيأتي ذكرها فيما بعد – إن شاء الله – فلا يؤمن هؤلاء أهل النفاق مع المؤمنين ، ولا يعلنون كفرهم وبقاءهم مع الكافرين ومناصرتهم خوفاً من قوة الحق وغلبة المؤمنين ، ويتسترون بالإسلام ليعيشوا مع المسلمين ويحيكوا ضدهم المؤامرات والمكائد في الخفاء ، ولذا فهؤلاء أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من الكفار الذين أعلنوا كفرهم جهاراً ، فعرفهم المسلمون ، وحذروا منهم ، وعلى هذا ، فالنفاق – في الغالب – لا ينشأ في مجتمع يحكمه الكفار لعدم وجود خوف من إظهار الكفر والتمرد على الإسلام ، ولهذا لم يكن للمنافقين وجود في مكة المكرمة قبل الهجرة إلى

---

(١) – سورة البقرة : الآيــة ٨ .

(٢) – سورة المنافقون : من الآيــة ١ .

(٣) – سورة المنافقون : من الآيــة ١.

(٤) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١/ ٨١ .

المدينة حيث كان المسلمون فيها قلة مستضعفين لا حول لهم ولا منعة ولا سلطان ، ولكن لما صار للمسلمين قوة وسلطان في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها نشأ النفاق وظهر المنافقون .

علامات النفاق وصفات المنافق :

لما كان النفاق إظهار الإسلام وإخفاء الكفر ، والأصل في الأمر خفاء ما في القلب ، كان السبيل الوحيد إلى معرفة المنافق ظهور علامات النفاق عليه ، فإذا ما ظهرت هذه العلامات أو بعضها حذره المسلمون وتوقوا شره سواء أكان من المنافقين الخالصين أو كان من الذين عندهم أصل الإيمان ولكن شاب إيمانه بعض معاني النفاق واتصف ببعض صفات المنافقين ، فمن ظهرت عليه صفات المنافقين عومل معاملة المنافقين بقدر ما ظهر فيه من صفاهم سواء أكان عنده أصل الإيمان بالله ورسوله أو لم يكن عنده هذا الأصل[1] .

وقد بين القرآن الكريم والسنة النبوية علامات النفاق وصفات المنافق ، أذكر فيما يلي أهم تلك العلامات والصفات والسمات للتعرف على حقائق وطبائع هذا النوع من المدعوين والتي من خلالها يمكن – فيما بعد – اكتشاف الأسباب والدوافع التي تجعلهم يثيرون الشبهات حول الدعوة ويفترون الأكاذيب حول الداعية :

(١) – الخداع والتردد :

يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً ﴾[2]

يخبر الله سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين الكريمتين عن المنافقين بما كانوا عليه من قبيح الصفات وشنائع السمات، ومنها مخادعتهم الله سبحانه بإظهار الإيمان وإبطان الكفر ظناً منهم أو اعتقاداً لجهلهم وقلة علمهم ونقص عقلهم بأنه يروج على الله ولا يعلمه كما راج عند الناس أمرهم في الدنيا وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة ، وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد

---

(١) – أصول الدعوة : الدكتور عبد الكريم زيدان ، ص٣٩٧ .

(٢) – سورة النساء : الآيـــة ١٤٢ ، ١٤٣ .

معتقدين أن ذلك نافع لهم عنده ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾(1) .

(٢) – التكاسل والرياء في العبادة:

قال الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾(2)

من صفاقم التكاسل والرياء في العبادة والأعمال الصالحة ، وكيف يخلص في العمل الصالح ويخشى في العبادة من لم يكن في قلبه إيمان ؟! ذكر الله تعالى في الآية المذكورة تثاقلهم في أشرف الأعمال وأفضلها وهي الصلاة ، إذا قاموا إليها قاموا كسالى لا يحبونها ولا يرغبون فيها ، لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية ، وهذه صفة ظواهرهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾(3) ، ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة ، فقال: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ، أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة ، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالباً كصلاة العشاء في وقت العتمة ، وصلاة الصبح في وقت الغلس ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله – ﷺ – قال " إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوقم بالنار "(4).

(٣) – **الغفلة عن العبادة وقلة الذكر** :

قال الله تعال : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(5)

من صفاقم أنهم لا يذكرون الله في صلاقم إلاّ قليلا لأنهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون بل هم في صلاقم ساهون لاهون ، قال النبي – ﷺ – : " تلك صلاة المنافق ، تلك

---

(١) – سورة المجادلة : من الآية ١٨ .

(٢) – سورة النساء : من الآية ١٤٢ .

(٣) – سورة التوبة : من الآية ٥٤ .

(٤) – صحيح البخاري : كتاب الأذان ، باب : فضل العشاء في الجماعة ، ص١٤٠ ، رقم الحديث ٦٥٧ ، وصحيح مسلم : كتاب المساجد ، باب : فضل صلاة الجماعة ، ص٢٥٦ ، ٢٥٧ ، رقم الحديث : ٢٥٢ .

(٥) – سورة النساء : من الآية ١٤٢ .

صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان ، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً ""[1] .

(٤) – التذبذب بين الإيمان والكفر :

قال الله جلّ شأنه : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[٢] .

من صفاهم أهم مترددون بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، فلا هم من المؤمنين ظاهراً وباطناً ، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً ، أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر ، ولهذا قال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾[٣] ، أي: لن تجد طريقاً لهدايته ، ولا وسيلة لترك غوايته ، لأنه انغلق عنه باب الرحمة ، وصار بدله كل نقمة[٤] .

(٥) – الكذب :

قال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[٥]، أي : إذا حضروا عندك واجهوك بهذا القول ، وأظهروا لك شهادهم ليشعروك بأها صادرة من صحيح قلوهم مع خلوص اعتقادهم ، ولكن واقع اعتقادهم على عكس من ذلك ، فإهم كاذبون فيما يقولون وإن كان قولهم مطابقاً للخارج لأهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه[٦].

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب المساجد ، باب : استحباب التبكير ، ص٢٤٦ ، رقم الحديث : ٦٢٢ .

(٢) – سورة النساء : من الآية ١٤٣ .

(٣) – سورة النساء : من الآية ٨٨ .

(٤) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١/ ٧٧٨ ، ٧٧٩ ،

– وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي، ص٢١١ .

(٥) – سورة المنافقون : الآية ١ – ٣ .

(٦) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٢٨٥٠ ،

وزبدة التفسير من فتح القدير : للإمام الشوكاني ، اختصار : الدكتور محمد سليمان عبد الله الأشقر ، ص٧٤٢ .

فالكذب من صفات المنافقين البارزة ، جاء في الحديث " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان "[1] .

(٦) – الحلف على الكذب وكره المسلمين والجزع منهم :

قال تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[2] .

من صفات المنافقين الكذب والحلف عليه ، يخبر الله تعالى في الآية المذكورة أن المنافقين يحلفون بالله أنهم من المسلمين وهم كاذبون إذ الحقيقة خلاف ذلك ، ولكنهم يخافون أن ينكشف كفرهم فيعاقبهم المسلمون ، إنهم يكرهون المسلمين كرهاً ، ولهذا فهم في هم وحزن كلما رأوا الإسلام وأهله في عز ونصر ورفعة ، كلما سرّ المسلمون ساءهم ذلك ، فهم لا يودون مخالطتهم ولا رؤيتهم ، فلو وجدوا ملجأ أو مغارات أو مدخلاً ؛ وهو النفق في الأرض ، لأسرعوا إليها ليغيبوا عنهم ولا يروهم[3] .

(٧) – مرض القلب :

قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[4] ، المراد بالمرض هنا الشك والشبهة والنفاق ، ويعرض للقلب مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله ، وهما :

- مرض الشبهات الباطلة .
- ومرض الشهوات المردية .

فالكفر والنفاق والشكوك والبدع كلها من مرض الشبهات ، والزنا ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات ، كما قال تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[5] وهو

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق ، ص٥٦ ، رقم الحديث : ٥٩ ، (أخرجه البخاري : ٣٣ و ٢٧٤٩ و ٢٦٨٢ و ٦٠٩٥) .

(٢) – سورة التوبة : الآية ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) – انظر : تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١٣٠٧/٢ (بتصرف) .

(٤) – سورة البقرة : الآية ١٠ .

(٥) – سورة الأحزاب : من الآية ٣٢ .

شهوة الزنا ، والمعافى من عوفي من هذين المرضين ، فحصل له اليقين والإيمان ، والصبر عن كل معصية ، فرفل في أثواب العافية .

وفي قوله عن المنافقين : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين ، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة ، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾[3] ، فعقوبة المعصية ، المعصية بعدها ، كما أن من الحسنة ، الحسنة بعدها ، قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾[4] .

(٨) – اللدد في الخصومة والعزة بالإثم :

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[5] ، أي : المنافق إذا تكلم ، راق كلامه للسامع ، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع ، ويشهد الله على ما يقول ليؤكد أن ما يقوله حق وصواب ، ولكنه كاذب في ذلك ؛ لأنه يخالف قوله فعله ، فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل ، كحال المؤمن غير المنافق ، ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ أي: إذا خاصمته وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب وما يترتب على ذلك من مقابح الصفات ، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم ، والانقياد للحق وظيفتهم والسماحة سجيتهم[6]، وجاء في الحديث الصحيح عن النبي – ﷺ – "أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت

---

(١) – سورة الأنعام : من الآية ١١٠ .

(٢) – سورة الصف : من الآية ٥ .

(٣) – سورة التوبة : من الآية ١٢٥ .

(٤) – سورة مريم : من الآية ٧٦ ، وانظر : تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٤ .

(٥) – سورة البقرة : الآية ٢٠٤ – ٢٠٦ .

(٦) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٧٦ .

فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ''[١].

وإضافة إلى هذه الأخلاق الرذيلة ، يجتهد أيضاً في الإفساد في الأرض وإهلاك ما ينفع الناس من حرث ونسل ، وإذا قيل له : اتق الله وامتنع عن قول فاجر وسعي فاسد وارجع إلى الحق ، تكبر وأنف وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم ، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام[٢].

(٩) – الإفساد في الأرض :

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[٣] .

أي إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم لا تعصوا الله ولا تفسدوا في الأرض ،لم يمتنعوا عن المعصية بل قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون ، والفساد هو الكفر والعمل بالمعصية والأمر بها ؛ لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بالمعصية فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض بالطاعة وفسادها بالمعصية[٤].

(١٠) – الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف :

قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٥] .

من صفات المنافقين أنهم يأمرون بالمنكر ، وهو الكفر والفسوق والعصيان ، وينهون عن المعروف وهو الإيمان والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة ، والآداب الحسنة[٦]، وذلك لأن نفوسهم المريضة لم تعد ترغب في رؤية الخير يعمله الناس ، فهم يسعون لإشاعة الشر والمنكر

---

(١) – صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، باب : علامة المنافق ، ص٣٠ ، رقم الحديث : ٣٤ ،
وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق ، ص٥٥، ٥٦ ، رقم الحديث : ١٠٦ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣٤٦/١ ،
وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٧٦ .

(٣) – سورة البقرة : الآيــة ١١ – ١٢ .

(٤) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثــير ، ١ / ٨٤ .

(٥) – سورة التوبــة : الآيــة ٦٧ .

(٦) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٤٣ .

بينهم ، فهذا هو الذي تهواه نفوسهم ويشفي حقدهم وغيظهم على أهل الحق ، وإضافة إلى هذه الصفة الخبيثة فإنهم بخلاء أيضاً في الإنفاق في سبيل الله وفي فعل الخير وفي الأمر به والدلالة عليه[1].

(١١) – الغدر وعدم الوفاء بالعهد :

قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[2].

يقول الله تعالى في هذه الآية الكريمة إنّ من المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه بأن لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكوننّ من الصالحين ، فلما أعطاه – سبحانه – من فضله وبسط عليه من الدنيا ووسعها له ، ما وفي بما قال ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ﷻ يوم القيامة[3].

وقد قال النبي – ﷺ – : " أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلّة منهن كانت فيه خلّة من النفاق حتى يدعها : إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر "[4].

(١٢) – يرمـــون المؤمنـــين بالسفه :

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[5].

فمن صفات المنافقين أنه " إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، أي : كإيمان الصحابة – رضي الله عنهم – ، وهو الإيمان بالقلب واللسان ، قالوا – بزعمهم الباطل – أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ، يعنون – قبّحهم الله – الصحابة – رضي الله عنهم – ، لزعمهم أن سفههم أوجب لهم الإيمان ، وترك

---

(١) – أصول الدعوة : الدكتور عبد الكريم زيدان ، ص٤٠٣ .

(٢) – سورة التوبـــة : الآيـــة٧٥ – ٧٧ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢/ ١٣٢١ .

(٤) – صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، باب : علامـــة المنافـــق ، ص٣٠ ، رقم الحديث : ٣٤ ، وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان خصال المنافـــق ، ص٥٥، ٥٦ ، رقم الحديث : ١٠٦ .

(٥) – سورة البقرة : الآيـــة ١٣ .

الأوطان ، ومعاداة الكفار ، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك ، فنسبوهم إلى السفه ؛ وفي ضمن ذلك أنهم هم العقلاء أرباب الحجا والنهى .

فرد الله ذلك عليهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة ، لأن حقيقة السفه جهل الإنسان بمصالح نفسه ، وسعيه فيما يضرها ، وهذه الصفة منطبقة عليهم ، كما أن العقل والحجا، ومعرفة الإنسان بمصالح نفسه ، والسعي فيما ينفعه ، وفي دفع ما يضره ، وهذه الصفة منطبقة على الصحابة والمؤمنين ، فالعبرة بالأوصاف والبرهان ، لا بالدعاوى المجردة ، والأقوال الفارغة "[١].

(١٣) – يعيـــبون المؤمنين ويسخرون منهم :

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢].

من صفات المنافقين أيضاً عيـــبهم للمؤمنين ولمزهم بهم في جميع الأحوال وطعنهم بهم لأجل الإيمان ، وتتبعهم لأحوالهم ليجدوا مقالاً يقولونه فيهم ، فما سلم أحد من المؤمنين من عيـــبهم ولمزهم حتى ولا المتصدقون ؛ إن جاء أحد من المؤمنين بمال جزيل قالوا هذا مراء ، وقولهم هذا غلط فاحش ، وحكم على الغيب ، ورجم بالظن ، وأي شر أكبر من هذا ؟! ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ، وهذا كلام مقصوده باطل ، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير ، بل غني عن أهل السماوات والأرض ، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه[٣] .

(١٤) – تواصيهم بترك الجهاد :

قال الله تعالى : ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴾[٤] .

يبـــين الله ﷻ في هذه الآية الكريمة تبجح المنافقين بتخلفهم عن الجهاد وعدم مبالاتهم بذلك ، والذي يدل على عدم الإيمان ، واختيار الكفر على الإيمان ، فهم على عكس من

(١) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٤٣ .
(٢) – سورة التوبـــة : الآيـــة ٧٩ .
(٣) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٠٤ ، ٣٠٥ .
(٤) – سورة التوبـــة : الآيـــة ٨١ .

المؤمنين الذين يحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لما في قلوبهم من الإيمان ، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه ، وإذا تخلفوا – ولو بعذر – حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف ، أما المنافقون فلا يكتفون بقعودهم وبفرح قعودهم عن الجهاد بل يوصون غيرهم من المنافقين بعدم الجهاد لما فيه من المشقة كالحر ، وينسون هؤلاء المنافقون أن نار جهنم أشد حراً من هذا وأن العاقل من يعمل ما ينجيه منها ، ولكنهم قدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة[1].

(١٥) – التحاكم إلى الطاغوت :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[2] .

إن العدل عن الكتاب والسنة والتحاكم إلى ما سواهما من صفات المنافقين ، والآية الكريمة المذكورة إنكار من الله ﷻ على المنافقين الذين يدّعون الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء السابقين ، وهم مع ذلك يريدون أن يتحاكموا في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، فكيف يجتمع هذا والإيمان ؟ ! إن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور ، فالذين زعموا أنهم مؤمنون واختاروا حكم الطاغوت على حكم الله فهم كاذبون في زعمهم ، وهذا إضلال الشيطان لهم ، وقد أمرهم الله تعالى بالبراءة منه ، فكيف يكون حال هؤلاء الضالين إذا أصابتهم مصيبة بسبب نفاقهم وتمردهم على أوامر الله سبحانه وتعالى ثم يأتون إلى النبي – ﷺ – معتذرين يحلفون بالله أنهم ما قصدوا بالتحاكم إلى الطاغوت إلاّ الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في ذلك، فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1] ، والله ﷻ يعلم ما في قلوبهم

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٠٥ .

(٢) – سورة النساء : الآية٦٠ – ٦٣ .

(١) – سورة المائدة : من الآية ٥٠ .

من المرض والنفاق ، وأخيراً يأتي توجيه رباني إلى النبي – ﷺ – أن لا يقابلهم على ما فعلوه واقترفوه ، ويبـــين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله تعالى ، والترهيب من تركه ، وينصحهم سراً ، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به[1].

(١٦) – الإضرار بالمؤمنين والتستر بفعل عمل ظاهره مشروع :

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[2] .

كان أناس من المنافقين من أهل قباء بنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء بأمر من أبي عامر الراهب لهدف المضارة والمشاقة بين المؤمنين وليكون حصناً للمحاربين لله ورسوله ، فلما تم بناء المسجد ، ذهب المنافقون إلى النبي – ﷺ – يطلبون منه أن يأتي إلى هذا المسجد ويصلي فيه ، وذلك ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، وكان النبي – ﷺ – في ذلك الوقت على سفر إلى تبوك فقال لهم بأنه سوف يأتيهم إذا رجع من السفر إن شاء الله ، وعند الرجوع إلى المدينة أراد أن يذهب إلى ذلك المسجد ، فلما اقترب من المدينة و لم يبق بينه وبين المسجد إلاّ سفر يوم أو بعض يوم ، نزلت هذه الآية الكريمة لتكشف عليه حقيقة هذا المسجد وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ؛ مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى ، ونهاه الله ﷻ عن الصلاة فيه ، وحثه على الصلاة بمسجد قباء ، فبعث رسول الله – ﷺ – إلى ذلك المسجد من هَدَمه قبل مقدمه المدينة[3].

وأمثال هذا المسجد كثيرة اليوم، تتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبـــيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين، وتتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام، أو

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير، ١ / ٧١٢ ، و تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي، ص١٨٤.

(٢) – سورة التوبة : الآيـــة ١٠٧ – ١٠٨ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ .

وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٠٩ .

تشويهه وتمويهه وتمييعه ، وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتختفي وراءها وهي تهدم هذا الدين ، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام ... ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها ، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله – ﷺ – .

(١٧) – موالاة الكفار والتربص بالمؤمنين :

قال تعالى : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾[1] .

من صفات المنافقين اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين بمعنى أنهم معهم في الحقيقة ، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم إذا خلوا بهم : إنما نحن معكم ، إنما نحن مستهزئون، أي بالمؤمنين .

ومن صفاتهم أنهم ينتظرون زوال دولة المسلمين وظهور الكفار عليهم وذهاب ملتهم ، فإن كانت للكفرة غلبة على المسلمين قالوا لهم إنا كنا معكم في الواقع وكنا نساعدكم في الباطن ، وإن كان للمسلمين نصر وتمكين قالوا لهم ألم نكن معكم ، فالمنافقون يصانعون المسلمين والكفار ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلاّ لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم[2].

(١٨) – الإفساد بين المؤمنين :

قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3] .

إن من صفات المنافقين أنهم حريصون على تفريق صفوف المؤمنين وإضعافهم ، تبين هذه الآية الكريمة أنهم لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد لما زادوهم إلاّ نقصا ، ولسعوا في الفتـــنة والشر

---

(١) – سورة النساء : الآيــة ١٣٨ – ١٤٠ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٧٧٨ .

(٣) – سورة التوبــة : الآيــة ٤٧ .

بينهم ، وفرقوا جماعتهم المجتمعين ، وبالإضافة إلى حرصهم على فتنة المسلمين وإلقاء العداوة بينهم ، يوجد في صفوف المسلمين سماعون لهم ، أي : مطيعون لهم ومستجيبون لحديثهم وكلامهم لأنهم لا يعلمون حالهم ، فيؤدي ذلك إلى وقوع الشر بين المؤمنين ، فللّه أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم ، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم[(١)].

(ج) – أصناف المدعوين من حيث قابلية الاستجابة للحق

ينقسم المدعوون إلى ثلاثة أقسام من حيث قابلية الاستجابة لديهم للحق ، وهي :

الأول : أن تكون لدى المدعو قابلية تامة للاستجابة بحيث يرغب في الخير والهدى ويقبل عليه ، فمتى ما اتضح وتبين له الحق قبله وعمل بمقتضاه ، فهذا يكفي في حقه مجرد دعوته إلى فعل ما أمر الله به ورسوله – ﷺ – واجتناب ما نهاه عنه .

الثاني : أن تكون لدى المدعو قابلية للاستجابة مع وجود الفتور والكسل بحيث تكون رغبته في الشر أشد وأكبر من إقباله على الخير والهدى ، فهذا لا يكفي معه مجرد الدعوة بل يحتاج إلى أن يُدعى بالموعظة الحسنة مقترنة بالترغيب في الخير والطاعة ، والترهيب من الشر والكفر والفسوق ، وبيان عواقب كل منهما .

الثالث : أن يكون المدعو معرضاً عن الخير والهدى ومندفعاً إلى الشر ، فهذا لا يكفي في حقه مجرد الدعوة والموعظة ، بل ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن حتى تندحض حجته وتبطل طريقته .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : " الناس ثلاثة أقسام إما أن يعترف بالحق ويتبعه ، فهذا صاحب الحكمة ، وإما أن يعترف به لكن لا يعمل به ، فهذا يوعظ حتى يعمل ، وإما أن لا يعترف به فهذا يجادل بالتي هي أحسن ؛ لأن الجدال فيه مظنة الإغضاب ، فإذا كان بالتي هي أحسن حصلت منفعته بغاية الإمكان كدفع الصائل "[(٢)].

ويقول ابن القيم – رحمه الله – :

" المنتفع بالآيات من الناس نوعان :

---

(١) – و تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٩٩ .

(٢) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٢ / ٤٥ .

أحدهما : ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبـيه ولا يحتاج بأن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته ، بل قلبه واع ذكي قابل للهدى غير معرض عنه ، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط ، لكمال استعداده وصحة فطرته ، فإذا جاء الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه مكتوباً فيه فهو قد أدركه مجملاً ، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملاً .

النوع الثاني : من ليس له هذا الاستعداد والقبول ، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه، وأحضر قلبه ، وجمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله ، وهذه طريقة أكثر المستجيـبين ، ولهم نوع ضرب الأمثال ، وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والأجوبة عنها ، فالأولون هم الذين يدعون بالحكمة ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيـبين.

وأما المعارضون المُدعَون للحق فنوعان : نوع يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن فإن استجابوا وإلا فالمجالدة فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد .

ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهذه الأقسام متناولة لها كلها كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ، فهؤلاء المدعوون بالكلام ، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتـنة ويكون الدين كله لله ''[1].

ويقول – رحمه الله – مفسراً قول الله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[2]، أن الله سبحانه وتعالى جعل مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق ، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يُدعى بطريق الحكمة ، والقابل الذي عنده غفلة وتأخر يدعى بطريق الموعظة الحسنة ، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن[3] .

---

(١) – مفـتاح دار السعادة : الإمام ابن القيم ، ص٢١٧ .

(٢) – سورة النحل : من الآيـة ١٢٥ .

(٣) – مفتاح دار السعادة : الإمام ابن القيم ، ص١٩٥ .

وأشار الإمام أبو السعود إلى أن المدعوين ثلاثـــة أصناف متباينة وهم : خواص الأمة ، وعوام الأمة ، والمعاندون[1] .

وقال الإمام الألوسي مثل ذلك وفصل القول على النحو التالي :

الطائفة الأولى : خواص ، وهم أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لإدراك المعاني ، قوية الانجذاب إلى المبادئ العالية ، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه ، وهؤلاء يُدعَوْنَ بالموعظة الحسنة .

الطائفة الثانية: عوام، أصحاب نفوس كدرة، ضعيفة الاستعداد، شديدة الإلف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان، ولكن لا عناد عندهم، وهؤلاء يُدْعَوْنَ بالموعظة الحسنة .

الطائفة الثالثة : معاندون، يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق لما غلب عليهم من تقليد الأسلاف، ورسخ فيهم من العقائد الباطلة، فصاروا بحيث لا تنفعهم المواعظ والعبر، بل لابد من إلقامهم الحجر بأحسن طرق الجدال، لتلين عريكتهم، وتزول شكيمتهم ، وهؤلاء الذين أُمر – ﷺ – بجدالهم بالتي هي أحسن[2].

وخطّأ ابن القيم القول بأن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص ، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي وهو ردّ شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات ، وقال بأنه قول باطل ، ومبني على أصول الفلسفة ، ومناف لأصول المسلمين وقواعد الدين ، والقائل به أسير منطق اليونان [3].

---

(١) – تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) : الإمام محمد بن محمد العماري أبـــو الســـعود ، ١٥١/٥ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٢) – تفسير روح المعانى : الإمام أبو السعود الآلوسى ، ١٤ / ٢٥٤ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيـــروت .

(٣) – مفتاح دار السعادة : الإمام ابن القيم ، ١ / ١٥٣ .

المبحث الأول :

أسباب إثارة الشبهات على الدعوة الإسلامية ودوافعها

المطلب الثاني : أسباب الشبهات ودوافـــعها:

المقصد الأول : مفهوم السبب والدافع .

المقصد الثاني : ضرورة دراسة أسباب ودوافع الشبهات وأهميتها .

المقصد الثالث : هل الدوافع جبلية في الإنسان أم هي مكتسبة ؟

المقصد الرابع : منشأ دوافع الشر وأسبابه .

المقصد الخامس : أهم دوافع الشبهات .

المطلب الثاني : أسباب الشبهات ودوافـــعها

المقصد الأول : مفهوم السبب والدافع:

أولاً : السبـــب :

هو الحبل ، وكل ما يتوصل به إلى الغير ، واعْتِلاقُ قَرابةٍ ، وفي التنـــزيل العزيز ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[1] .

– والسبب من مقطعات الشِّعر : حرف متحرك وحرف ساكن ، أو متحركان ، فالأول يسمَّى السَّبب الخفيف ، والثاني يسمى الثقيل .

– وفي الشرع : ما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه كالوقت للصلاة .

– وجمع السبب : أسباب ، وأسباب السماء : مراقيها أو نواحيها أو أبوابها ، وفي القرآن الكريم : ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾[2] . ويقال : تقطعت بهم الأسباب : أعيتهم الحيل ، وأسباب الحكم (في القضاء) ما تسوقه المحكمة من أدلة واقعية وحجج قانونية لحكمها[3] .

والمعنى المقصود من ‘‘ السبب ’’ هنا في هذه الدراسة هو ‘‘ ما يتوصل به إلى الغير ’’، فالسبب هو ما يجعل المدعو يثير شبهة أو شبهات ، أو الأمر الذي يوصل المدعو إلى أن يثير الشبهات ، فالسبب – كما هو معلوم – هو الذي يتوقف عليه وجود المسبَّب ، والسبب بهذا المعنى ينقسم إلى قسمين ، وهما :

(١) — السبب التام : هو الذي يوجد المسبب بوجوده فقط .

(٢) — السبب غير التام : هو الذي يتوقف وجود المسبب عليه لكن لا يوجد المسبب بوجوده فقط[4] .

---

(١) – سورة الكهف : الآيـــة ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) – سورة غافر : من آيتي ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) – القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، باب الباء ، فصل السين ، مادة : سَـــبَّـــهُ ، ص١٢٣ ، والمعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، مادة : السَّـــبَبُ ، ص٤١١ — ٤١٢ ، ومخـــتار صحاح : محمد بـــن أبي بكـــر الـــرازي ، مـــادة : السَّـــبَبُ، ص٢٨١ .

(٤) – والتعريفات : : علي بن محمد الجرجاني ، باب السين ، ص١٣٠ .

ثانياً : الدافع

الدافع في اللغة :

دفع إليه الشيء : ردّه ، ودفع عنه الأذى ، كمنع ، دفعاً ومَدْفعاً .

والدَّفْعَةُ : المَرَّة ، وبالضم : الدُّفعة من المطر ، وجمعه : دُفَعٌ ، كَصُرَدٍ .

ويقال : طريق يدفع إلى مكان كذا : ينتهي إليه .

ودَفع عن الوضع : رَحَل عنه .

ودَفع القوم : جاءوا بمرَّة .

ودَفَع الشيء : نحَّاه وأزاله بقوة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[(١)] .

ويقال : دفع القول : ردَّه بالحجة .

ودفع فلاناً إلى كذا : اضطره .

ودافع عنه الأذى : أبعده ونحَّاه .

ودافع فلاناً في حاجته : ماطله فيها فلم يقضها .

ويقال : دافع الرجلُ أمرَ كذا : أولع به وانهمك فيه[(٢)].

والمعنى الذي تستخدم له كلمة " الدافع " هنا في هذه الدراسة مأخوذ من بعض معانيها اللغوية ، حيث المقصود من " الدافع " هو ما يجعل المدعو يثير الشبهة ، أو هو ما ينقله إلى حالة تجعله مضطراً ليثير الشبهة ، أو هو ما يدفعه لإثارة الشبهة .

الدافع في علم النفس

من المعروف أن " كل سلوك وراءه دافع " ، ولكن ما هو تعريف الدافع ؟

إن من المشاع في ميدان دراسة الدافعية مفاهيم متعددة مثل " الدافع " و" الحافز " و" الباعث " و" الحاجة " و" الهدف " و" القصد " إلى غير ذلك من المفاهيم التي تشير إلى الدافعية أو تتصل بها ، ورغم أن الكثير من علماء علم النفس يتقبل هذه المفاهيم

---

(١) – سورة البقرة : من الآيــة ٢٥١ .

(٢) – القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، باب العــين ، فصل الدال ، مادة : دَفَــعــه ، ص٩٢٤ ، والمعجــم الوســيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، مادة : دَفَــعَ ، ص٢٨٩ ، ومخــتار صحاح : محمد بن أبي بكر الــرازي ، مــادة: دَفَـــعَ ، ص٢٠٧ .

كمصطلحات '' دافعية '' في طبيعتها إلاّ أن الخصائص أو الوظائف التي تميز مفهوم كل منها عن الآخر لم تلق بعد تحديداً كافياً[1].

وتوجد تعريفات عديدة للدافع في الدراسات النفسية منها – مثلاً – :

(١) – أنه '' قوى داخلية تدفع الفرد إلى بذل النشاط والقيام بأنواع مختلفة من السلوك ، توجهه نحو أهداف معينة ، وتبقي على السلوك وتجعله مستمراً حتى يتحقق الغرض منه ''[2].

(٢) – هو '' حالة داخلية تنتج عن حاجة ما ، وتعمل هذه الحالة على تنشيط أو استثارة السلوك الموجه عادة نحو تحقيق الحاجة المنشطة ''[3].

(٣) – هو المنبه الذي يحفز الكائن الحي على السلوك والحركة لنيل أهدافه وغاياته ''[4].

(٤) – هو '' باعث على الفعل (السلوك) بطريقة معينة ''[5].

مدلولات هذه الأقوال واحدة أو متقاربة مع فروق يسيرة ودقيقة في تفصيلات جانبية .

وتستخدم كلمة '' دافع '' عموماً في الحياة اليومية بمعان أشمل وأوسع من معناها في علم النفس ، فتشمل بذلك الحاجات والحوافز والمثيرات والبواعث والعادات والأهداف والانفعالات ... الخ[6] ، إن المدلول الحرفي لكلمة '' دافع '' يتضمن كل ما سبق من حيث إنه يتضمن معنى التحريك أو الدفع[7] ، هذا من وجه المدلول العام ، أما باعتبار المعنى النفسي (السيكلوجي) الخاص فهي تُستعمل للدلالة على فكرة تستخدم لتوضح بأن سلوك الكائن الحي يتوقف في تغيره على تعرضه لعمليات معينة[8].

---

(١) – المدخل إلى النفس : الدكتور ممدوح الكناني ، و د. أحمد محمد الكندري ، ود. عيسى عبد الله جابر ، ود. حسن الموسوي ، ص٨٩ ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م ، مكتبة الفلاح ، بيروت .

(٢) – المرجع السابق : ص٩١ ، ٩٢ .

(٣) – مدخل علم النفس : نوال وزملاؤه ، ترجمة : د. سيد الطواب ، و د. نجيب خزام ، ص٤٣١ ، ٤٣٢ ، ط٢ ، دار المريخ ، الرياض .

(٤) – معجم علم الاجتماع : البروفسور وينكن ميثيل ، ترجمة : د. إحسان محمد الحسن ، ص٢١٠ ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ، دار الرشيد للنشر .

(٥) – قاموس علم الاجتماع : تحرير ومراجعة : د. محمد عاطف غيث ، ص٢٩٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م .

(٦) – الدوافع النفسية : د. مصطفى فهمي ، ص٣٩ ، مكتبة مصر ، القاهرة .

(٧) – المرجع السابق : ص١٣٩ .

(٨) – المرجع نفسه : ص٣٩ .

وهذا المدلول العام الذي تستخدم لأجله كلمة ''دافع'' عموماً في الحياة اليومية بمعان أشمل وأوسع من معناها في علم النفس هو المراد هنا في هذه الدراسة .

المقصد الثاني : ضرورة دراسة أسباب ودوافع الشبهات وأهميتها:

إن من حقائق التاريخ البشري أنه ما بُعث نبي إلى أمة من الأمم إلاّ وقد افترق الناس ما بين المستجيب القابل الذكي المسارع إلى الحق ، والمستجيب الغافل المماطل الذي يأبى الحق ولا يستجيب إلاّ بعد المواعظ الحسنة بالترغيب والترهيب ، والمعاند الجاحد المعادي للحق ، والمنافق المتظاهر استجابته للحق والمبطن – في الحقيقة – عداوته له ولأهله . فهذا مستبشر مقبل ، وذاك منفر مدبر ، وآخر منافق أو معادي ، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : لماذا ؟ ما السر وراء ذلك ؟

ذكر الدكتور سيد محمد الشنقيطي بأن السبب يتعلق بمكنونات النفوس التي لا يعلمها إلاّ خالق النفوس جلّ وعلا [(١)]، ويقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴾[(٢)] : ''وقيل : أي لمختلف الأخلاق فمنكم راحم وقاس ، حليم وطائش ، جواد وبخيل ، وشبه ذلك''[(٣)]، وقد جاء في الحديث عن النبي – ﷺ – ما يشير إلى اختلاف الناس الخَلَقى الظاهر ، والخُلُقى الباطن ، ويؤكد الفروق الفردية التكوينية الظاهرة والفروق الطبعية الكامنة في النفوس حيث قال – ﷺ – : '' إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر ، والأبيض ، والأسود ، وبين ذلك ، والسهل، والحزن، والخبيث ، والطيب ، وبين ذلك ''[(٤)].

إن الفوارق أصيلة في طبيعة النفس البشرية ، فالناس تختلف طبائعهم ومشاربهم وتصوراتهم واهتماماتهم ، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص .

---

(١) – وظيفة الأخبار في سورة الأنعام .

(٢) – سورة الليل : الآيـــة ٤ .

(٣) – الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، ٢٠ / ص٨٢ ، ط : الكتاب العربي ، بدون تاريخ الطبعـــة .

(٤) – سنن أبي داود : كتاب السنة ، باب في القدر ، ص٥١١ ، رقم الحديث : ٤٦٩٣ ، (قال الترمذي: حسن صحيح) – وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادتـــه الفتح الكبير : محمد ناصر الـــدين الألبـــاني ، ٢ / ١٠٩ ، رقـــم الحديث : ١٧٥٥ ، ط٣، ١٤٠٢هـــ ، المكتب الإسلامي ، بيـــروت .

فالناس لطبيعتهم هذه يختلفون في موقفهم من دعوة الحق وسبل الخير ، ومن الشر ودروبه، يشهد على ذلك موقف الأمم السابقة من أنبيائهم ، كما أن موقف هذه الأمة من الرسالة الأخيرة والنبي الخاتم – ﷺ – برهان واضح على ذلك ، فهذا أبو بكر – رضي الله عنه – يقبل الدعوة بلا تردد ، وذاك أبو جهل يجحد ، ويعادي ، ويصد عن سبيل الله ، بل انظر إلى رؤية النجاشي – رحمه الله – السديدة وموقفه، وموقف كسرى الأحمق ، ثم انظر إلى مواقف من نوع آخر موقف هرقل والمقوقس ، ألا يدعو كل ذلك إلى التعجب ؟ ألا يدلّ على مبلغ اختلاف طباع الناس ؟

إن هذا الاختلاف في موقف الناس من الحق أو الباطل ، من الخير أو الشر ، من الهدى أو الضلال ، يتطلب ويدعو إلى دراسة الإنسان دراسة تفصيلية خاصة ، دراسة تتعلق بنفس هذا الإنسان التي هي ميدان الدعوة الإسلامية ، فالإنسان هو الذي كان دائماً موضوع الرسالات السماوية إذ هو مناط التكليف الإلهي والخلافة في الأرض ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[(١)] ، ولذا فموضوع بواعث السلوك ودوافعه كان من أهم الموضوعات التي يجب دراستها للتعرف عليها وعلى حقائقها ؛ " وذلك لأن سلوك الإنسان سلوك غرضي تحركه دوافع ، ويحقق غرضاً أو أغراضاً له "[(٢)] .

يقول الدكتور عبد الرحمن الملاحي : " لابد من بذل الجهد المخلص الدؤوب لتهذيب هذه الدوافع – يريد الدوافع التي يجعل الناس يختلفون في موقفهم من الحق أو الباطل – وتطويعها لتصل إلى الغاية التي خلقها الله من أجلها "[(٣)].

وكثيراً ما يدعو القرآن الإنسان إلى النظر والتفكر في مخلوقات الله ؛ في السماوات والأرض وفي الأنفس ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[(٤)] ، وقال ﷻ ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى

---

(١) – سورة البقرة : من الآية ٣٠ .

(٢) – مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام : عبد الرحمن الباني ، ص٤٢ ، ط٢ ، المكتب الإسلامي .

(٣) – دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها : د . عبد الرحمن الملاحي ، ص١٥٣، ط١ ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م ، دار عالم الكتب ، الرياض ، (أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير ، قدمت في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام)

(٤) – سورة الأعراف : من الآية ١٨٥ .

﴿ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾[1] ، ويقول سبحانه وتعالى ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٌ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[2] ، أي :" فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه "[3].

وقد قال جماعة من العلماء بوجوب النظر في آيات الله والاعتبار بمخلوقاته فقد ذم الله تعالى من لم ينظر فيها و لم يعتبر ، فهو لم ينتفع بحواسهم حيث قال : ﴿لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾[4]، " وقد اختلف العلماء في أول الواجبات هل هو النظر والاستدلال أو الإيمان الذي هو التصديق الحاصل في القلب الذي ليس من شرط صحته المعرفة ، فذهب القاضي وغيره إلى أن أول الواجبات النظر والاستدلال لأن الله تبارك وتعالى لا يُعلم ضرورة وإنما يُعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التي نصبها لمعرفته ، وإلى هذا ذهب البخاري – رحمه الله – حيث بوّب في كتابه باب العلم قبل القول والعمل لقول الله ﷻ : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[5] ، وقال القاضي : من لم يكن عالماً بالله فهو جاهل والجاهل به كافر ، وقال ابن رشد في مقدماته : وليس هذا بالبين لأن الإيمان يصح باليقين الذي قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد وبأول وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار في غير ما آية ، وقال : وقد استدلّ الباجي على من قال إن النظر والاستدلال أول الواجبات بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلد مؤمنين ، قال : فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحاً لما صح أن يسمى مؤمناً إلاّ من عنده علم بالنظر والاستدلال ، قال : وأيضاً فلو كان الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون

---

(١) – سورة الغاشية : الآية ١٧ – ٢٠ .

(٢) – سورة الذاريات : الآية ٢٠ ، ٢١ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٢٦٧٦ .

(٤) – سورة الأعراف : من الآية ١٧٩ .

– وانظر : تفسير القرطبي : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله ، تحقيق : أحمد عبد العليم البردوني ، ٧/ ٣٣١ ، ط٢ ، ١٣٧٢هـ ، دار الشعب ، القاهرة .

(٥) – سورة محمد : الآية ١٩ .

أن يقولوا لهم : لا يحل لكم قتلنا لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلاّ بعد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل ، قال : وهذا يؤدي إلى تركهم على كفرهم وأن لا يقتلوا حتى ينظروا ويستدلوا ''[1] ، وإلى هذا الرأي ذهب الإمام القرطبي حيث قال : ''هذا هو الصحيح في الباب ، قال رسول الله – ﷺ – : '' أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ، ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله ''[2]، وترجم ابن المنذر في كتاب الأشراف ذكر صفة كمال الإيمان : أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن ما جاء به محمد حق ، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام وهو بالغ صحيح العقل أنه مسلم ، وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مرتداً يجب عليه ما يجب على المرتد ، وقال أبو حفص الزنجاني : وكان شيخنا القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد السمناني يقول : أول الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به ثم النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى ، فيتقدم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله .

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية في الموضوع في مباحث عدة مفصلاً في بعضها وموجزاً في البعض الآخر[3] ، ومما قال : '' فذهب كثير من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية ومن وافقهم من الطوائف من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم إلى أنها لا تحصل إلا بالنظر وهؤلاء يقولون في أول واجب على العبد : هل هو النظر والاستدلال المؤدي إلى معرفة الله أو المعرفة ؟ وقد تنازعوا في ذلك على قولين ذكرهما هؤلاء الطوائف من أصحاب أحمد وغيرهم .

والنزاع لفظي فإن النظر واجب وجوب الوسيلة من باب ما لا يتم الواجب إلا به ، والمعرفة واجبة وجوب المقاصد فأول واجب وجوب الوسائل هو النظر ، وأول واجب وجوب المقاصد هو المعرفة ، ومن هؤلاء من يقول : أول واجب هو القصد إلى النظر ، وهو أيضا نزاع لفظي فإن العمل الاختياري مطلقا مشروط بالإرادة ''[1] .

---

(١) – تفسير القرطبي : الإمام محمد القرطبي ، ٣٣١/٧ .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ص٤٣ ، رقم الحديث : ٢١ .

(٣) – انظر – مثلاً – درء تعارض : ٣٧١/٤،٢٦٨،١١٦،٩٨،٧٧، و٣٣١/١٦ .

(١) – المرجع السابق : ٥٢/٤ .

وعلى أية حال ، يتبين مما أسلفنا من الحديث أهمية النظر والتفكر في نفس الإنسان ؛ وذلك لأنه مخلوق عجيب ، في نفسه آيات تؤدي إلى معرفة الله ﷻ ، ومن عجائبها والآيات الكامنة فيها دوافع السلوك والفروق الخَلْقية والخُلُقية من نفس إلى نفس ، كما تتضح أهمية موضوع الدراسة وهو ضرورة دراسة الدوافع التي تدفع المدعو إلى إثارة الشبهات للتعرف على حقيقتها ومنشأها ؛ وذلك للبحث عن كيفية معالجتها والتعامل الصحيح معها .

المقصد الثالث : هل الدوافع جبلية في الإنسان أم هي مكتسبة ؟

ذهب بعض العلماء إلى أن الدوافع جبلية في الإنسان[1]، واستدلوا بأدلة منها — مثلاً — قول عمر – رضي الله عنه – : " إن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال "[2] ، وقال البعض الآخر من العلماء ومنهم القاضي عياض[3] والإمام أحمد بن حجر ، بأن منها ما هو جبلي ومنها ما هو مكتسب[4] ، واستدلوا بحديث أشج عبد القيس قال : قال النبي – ﷺ – : " إن فيك خَلَّتين يحبهما الله : الحلم والأناة ، قال : يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما ؟ قال : بل الله جبلك عليهما ، قال : الحمد الله الذي جبلني على خَلَّتين يحبهما الله ورسوله "[5].

يقول الإمام ابن حجر — رحمه الله – : " فترديد السؤال وتقريره عليه يشعر بأن في الخلق ما هو جبلي ، وما هو مكتسب "[6] ، ويستثني القاضي عياض من ذلك الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – حيث يرى أنهم يطبعون على الأخلاق الحميدة في أصل جبلتهم[1]، وأما غيرهم فيطبعون على بعض هذه الأخلاق دون جميعها ، ويولدون عليها فيسهل عليهم اكتساب

---

(١)– فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ١٠ / ٤٥٩ ، ط : بدون ، المكتبة السلفية ، القاهرة .

(٢) – تاريخ عمر بن الخطاب : ابن الجوزي ، تحقيق : أحمد شومان ، ص٢٢١ ، ط : بدون ، مكتبة المؤيد ، الطائف.

(٣) — أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي البستي عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ولي قضاء سبتة ثم قضاء غرناطة وتوفي بمراكش مسموماً سنة ٥٤٤هـ ، – رحمه الله تعالى — له عدة مصنفات أشهرها " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " ، و " ترتيب المدارك " ، و " شرح صحيح مسلم " ، (انظر : وفيات الأعيان : ابن خلكان ، ١ / ٣٩٢) .

(٤) – فتح الباري شرح صحيح البخاري :الإمام ابن حجر ، ١٠ / ٤٥٩.

(٥) – سنن أبي داود : كتاب الأدب ، باب : في قبلة الرجل ، ص٥٦٦، رقم الحديث : ٥٢٢٥.

(٦) – فتح الباري شرح صحيح البخاري : الإمام ابن حجر ، ١٠ / ٤٥٩ .

(١) – الشفاء بتعريف حقوق المصطفى : القاضي عياض بن موسى اليحصبي ، ص٧٧ ، ط : بدون ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .

تمامها عناية من الله ، كما نشاهد من خلقه بعض الناس على حسن السمت أو الشهامة أو صدق اللسان أو السماحة ، وكما نجد بعضهم على ضدها ، و بالاكتساب يكمل ناقصها ، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها ، ويعتدل منحرفها ، وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس فيها ، وكل ميسر لما خلق له [١] ، ومما يستدل به أهل هذا القول من الأدلة على صحة قولهم حديث النبي – ﷺ -: " كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلاّ الخيانة والكذب "[٢]، وقول عمر – رضي الله عنه – الذي سلف ذكره آنفاً ، والتحقيق في ذلك أن حال الإنسان مركب من أصول الدوافع المحمودة ، ومن أصول الدوافع المذمومة ، فإن مال إلى الأولى فهو من السعداء ، وإن مال إلى الثانية فهو من الأشقياء[٣]، ودور الاكتساب وأثره يبدأ بسن مبكرة ، ويضعف ويشتد بحسب أهمية الدافع لدى الفرد ، وتوفر دواعيه لديه ، ويبرز هنا أثر الوارثة والتربية والبيئة بأقسامها الداخلية والخارجية (الطبعية ، والاجتماعية ، والنفسية) سلباً وإيجاباً[٤].

والدوافع تنقسم إلى قسمين، قسم يدفع النفس نحو الخير والسلوك السوي، والآخر يدفع الإنسان نحو الشر والسلوك غير السوي، وهذه الدوافع يصعب حصرها إذ هي متنوعة ومتعددة، ومتجددة ومتولدة ، وموضوع دراستنا هو الدوافع ذات النـــزعة العملية نحو الشر التي تدفع المدعو إلى إثارة الشبهات حول الدعوة والداعية .

المقصد الرابع : منشأ دوافع الشر وأسبابه

يقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله – بأن منشأ السيئات الجهل والظلم ، فإن أحدا لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها ، ولا يترك حسنة واجبة إلاّ لعدم علمه بوجوبها ، أو لبغض نفسه لها[١].

---

(١) – المرجع السابق : ص٧٧ ، ٧٨ .

(٢) – مشكاة المصابيح : محمد عبد الله الخطيب التبريزي ، تحقيق : الألباني ، ٣ / ١٣٦٤ ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

(٣) – شرح الشفا شمائل صاحب الاصطفاء (ﷺ) : الإمام نور الدين القاري ، تحقيق: حسنين مخلوف ، ١ / ٥٤٦، ط : بدون ، مطبعة المدني ، القاهرة .

(٤) – الحديث النبوي وعلم النفس : د . محمد عثمان نجاتي ، ص١٠٢ ، ١٠٣ ، ط١ ، ١٤٠٩هـ ، دار الشروق .

(١) – الحسنة السيئة : الإمام ابن تيمية ، التحقيق : محمد عثمان الخشت ، ص٧٠ ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

ويقول في موضع آخر :

" الغفلة والشهوة أصل الشر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[1]، والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلاّ مع الجهل ، وإلاّ فصاحب الهوى إذا علم قطعا أن ذلك يضره ضرراً راجحاً انصرفت نفسه عنه بالطبع ، فإن الله تعالى جعل في النفس حبا لما ينفعها وبغضاً لما يضرها فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضرراً راجحاً بل متى فعلته كان لضعف العقل "[2] ، " ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من مجرد النفس ، فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي منافع لا مضار كما فعل إبليس بآدم وحواء ، فقال : ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾[3] ، وقال : ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[4] .

ويقرر الإمام ابن القيم – رحمه الله – بأن الأخلاق الحسنة تقوم على أربعة أركان ، وهي: الصبر ، والعفة ، والشجاعة ، والعدل ، والأخلاق السافلة أيضاً منشؤها أربعة أركان ، وهي : الجهل والظلم والشهوة والغضب .

فالجهل : يُري الإنسان الحسن في صورة القبيح ، والقبيح في صورة الحسن ، والكمال نقصاً والنقص كمالاً ، والظلم : يحمله على وضع الشيء في غير موضعه ؛ فيغضب في موضع الرضا ، ويرضى في موضع الغضب ، ويتواضع في موضع العزة ويتكبر في موضع التواضع ، والشهوة : تحمله على الحرص ، والشح ، والبخل ، وعدم العفة ، والنهمة ، والجشع ، والذل ، والدناءات ، والغضب : يحمله على الكبر ، والحقد ، والحسد ، والعدوان والسفه[1].

ثم يقول بأن " ملاك هذه الأربعة أصلان : إفراط النفس في الضعف ، وإفراطها في القوة .

ويتولد من إفراطها في الضعف : المهانة والبخل والخسة ، واللؤم والذل والحرص والشح وسفساف الأمور والأخلاق ، ويتولد من إفراطها في القوة : الظلم والغضب والحدة والفحش

---

(١) – سورة الكهف : من الآيـــة ٢٨ .

(٢) – الحسنة السيئة : الإمام ابن تيمية ، ص٧١ ، ٧٢ .

(٣) – سورة طــه : من الآيـــة ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) – سورة الأعراف : من الآيـــة ٢٠ .

(١) – مدارج السالكين : ابن القيم الجوزية ، ٢ / ٣٠٨ .

والطيش ، ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر : أولاد غية كثيرون ، فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر ، وأذلهم إذا قهر ، ظالم عنوف جبار ، فإذا قهر صار أذل من امرأة ، جبان عن القوي ، جريء على الضعيف ، فالأخلاق الذميمة : يولد بعضها بعضاً ، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً ''[1] .

ويمكن القول استخلاصاً مما سبق من الكلام أن منشأ الدوافع ذات النـزعة العملية نحو الشر وأسبابه هي الأركان الأربعة التي ذكرها الإمام ابن القيم ، وهي : الجهل ، والظلم ، والشهوة ، والغضب .

وبعد معرفة ضرورة دراسة أسباب ودوافع الشبهات وحقيقتها ومنشأها ينتقل الحديث إلى أصل موضوع الدراسة والحديث عن أهم الدوافع التي تدفع المدعو إلى إثارة الشبهات حول الدعوة والداعية .

المقصد الخامس : أهم دوافع الشبهات

وهي :

الأول : اتباع الهوى .

الثاني : حب الرياسة والجاه .

الثالث : الكبر .

الرابع : الجهل .

الخامس : أحاديث مكذوبة مختلقة .

السادس : الحكايات الكاذبة عن القبور .

السابع : البيئة الفاسدة .

الثامن : التأثر بالملأ .

التاسع : الحسد .

العاشر : التقليد الأعمى .

---

(١) – مدارج السالكين : ابن القيم الجوزية ، ٢ / ٣٠٩ .

الدافع الأول : اتباع الهوى

المسألة الأولى : مفهوم الهوى :

الهوى في اللغة :

تطلق كلمة الهوى في اللغة على معان عدة منها :

– ميل النفس إلى ما تشتهي[1].

– إرادة النفس ما تحب[2] .

– محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه[3] .

– عشق الشيء وتمكنه من القلب[4] .

ويقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله – عن " الهوى " :

" والهوى مصدر هوى يهوي هوى ، ونفس المهوي يسمى هوى ما يهوى ، فاتباعه كاتباع السبيل كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ ﴾[5] ، ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ ﴾[6] ، وقوله ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[7] "[1] .

فاستنباطاً مما سبق ذكره من معاني " الهوى " يمكن القول بأن معنى اتباع الهوى في اللغة هو : السير وراء ما تشتهيه النفس وما تحبه وتعشقه .

واتباع الهوى في الاصطلاح :

---

(١) – بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز : الفيروز آبادي ، ٥ / ٣٥٩ .

(٢) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ١٥ / ٣٧٢ ، بصائر ذوي التميز : الفيروز آبادي ، ٥ / ٣٥٩ .

(٣) – المرجع السابق .

(٤) – المرجع السابق .

(٥) – سورة المائدة : من الآية ٧٧ .

(٦) – سورة لقمان : من الآية ١٥ .

(٧) – سورة الأنعام : من الآية ١٥٣ .

(١) – الزهد والورع والعبادة : الإمام ابن تيمية ، تحقيق : حماد سلامة ومحمد عويضة ، ص٢٥ ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، دار النشر : مكتبة المنار ، الأردن .

تستخدم كلمة '' الهوى ''في الخير والشر ، فإذا أطلقت انصرفت إلى ما كان شراً أو إلى ما كان مذموماً ، وإذا أريد به ما كان خيراً أو ما كان محموداً، فلا بد من تقييد ذلك بوصف أو نحوه كأن يقال : هوى حسن ، وهوى موافق للصواب[1].

ويشير الإمام ابن تيمية إلى هذا المعنى معرفاً معنى اتباع الهوى حيث يقول : '' مجرد الحب والبغض هو هوى ، لكن المحرم منه اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله ، ولهذا قال الله تعالى لنبيه داود – عليه السلام – ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾[2] ، فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله ، وهو هداه الذي بعث به رسوله ، وهو السبيل إليه ''[3] .

ويقول – رحمه الله – في موضع آخر مبيناً معنى اتباع الهوى : '' اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها ''[4] .

فالمراد باتباع الهوى في الاصطلاح الشرعي هو : السير وراء ما تحبه النفس وتشتهيه بغير هدى من الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[5] .

ويقول الدكتور السيد محمد نوح : '' هو السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي ، أو النزول على حكم العاطفة من غير تحكيم العقل ، أو رجوع إلى شرع ، أو تقدير لعاقبة ''[6] .

وحيث تختلف شهوات الإنسان ، فإن موارد اتّباع الهوى تختلف هي الأخرى ، والسؤال : ما هي شهوات الإنسان ؟ وبالتالي ما هي أهواؤه ؟

شهوات الإنسان كثيرة ومتنوعة، منها – مثلاً – شهوة الخلود، وشهوة الراحة، وشهوة الأمن والسلامة، وأخيراً شهوة الملك والسيطرة، هي جميعاً شهوة واحدة هي ''شهوة الحياة''، وهي أعمق شهوة في النفس البشرية؛ لأنها صورة لهوى النفس، وشهوة الطعام والمسكن واللباس،

---

(١) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ١٥ / ٣٧٢ .

(٢) – سورة ص : من الآية ٢٦ .

(٣) – الاستقامة : الإمام ابن تيمية ، تحقيق : د . محمد رشاد سالم ، ٢ / ٢٢٦ ، ط١ ، ١٤٠٣هـ ، دار النشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المدينة المنورة .

(٤) – الزهد والورع والعبادة : الإمام ابن تيمية ، ص٢٦ .

(٥) – سورة القصص : من الآية ٥٠ .

(٦) – آفات على الطريق : الدكتور السيد نوح ، ٢ / ٣٣ ، ط١١ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م ، دار الوفاء ، المنصورة ، مصر .

وشهوة الأولاد ، وحسن التكيف مع البيئة ، وحسن التكيف مع المجتمع ، والاستسلام لضغوط السلطة ، كل هذه صور أخرى وإن كانت باهتة – أحياناً – عن شهوة الحياة إذ لا يخضع الفرد لتوجيه المجتمع إلاّ خوفاً من العقوبة المتمثلة في منعه عن ضرورات حياته ، وحباً لحياته وما يحافظ به عليها من ضرورات، وما ترتبط به هذه الضرورات من التكيّف مع البيئة أو مع المجتمع .

وحين يخضع الإنسان للمجتمع ، أو للبيئة ، أو للسلطة ، تخضع كل مناحي حياته معه ، وفي طليعتها فكره ، ولذلك فإنه يدفع بفكره باتجاه التوافق مع المجتمع والاستسلام لتوجيهاته ، وكذلك باتجاه الخضوع للسلطة .

إذاً أهواء النفس هي : شهواتها ، وطبائعها ، وغرائزها ، وميولها الفطرية والتربوية ، وهي وراء أكثر أسباب الخطأ في الإنسان ؛ ابتداء من الأسباب النفسية ، والتقاليد ، وانتهاءً بالأسباب الطبيعية ، ومروراً بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية[1] .

المسألة الثانية : خطورة اتباع الهوى ودوره في إثارة الشبهات وغواية البشر:

" أهل الأرض كلهم في ظلمات الجهل والغي إلا من أشرق عليه نور النبوة ، كما في المسند وغيره من حديث عبد الله بن عمر عن النبي – ﷺ – قال " إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ فلذلك أقول جف القلم على علم الله "[2] .

ولذلك بعث الله رسله ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور والضياء ، ومن لم يجـــبهم بقي في الضيق والظلمة التي خلق فيها ، وهي : ظلمة الطبع ، وظلمة الجهل ، وظلمة الهوى ، وظلمة الغفلة عن نفسه وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها ، فهذه جملتها ظلمات خلق فيها العبد ، فبعث الله رسله لإخراجه منها إلى العلم والمعرفة والإيمان والهدى الذي لا سعادة للنفس بدونه البتة، فمن أخطأه هذا النور ، أخطأه حظه وكماله وسعادته وصار يتقلب في ظلمات بعضها فوق بعض ، فمدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ،

---

(١) – المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه : محمد تقي المدرسي ، ص١٧٤ ، ١٧٧ ، ط٢ ، تاريخ الطبعـة : بـدون ، دار الجبل، بيروت .

(٢) – جامع الترمذي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، ص٤٢٨، رقم الحـديث: ٢٦٤٢ ، قـال أبـو عيسى: هذا حديث حسن .

وقوله ظلمة ، وعمله ظلمة ، وقصده ظلمة ، وهو متخبط في ظلمات طبعه وهواه وجهله ، وقلبه مظلم ، ووجهه مظلم ، لأنه يبقى على الظلمة الأصلية ، ولا يناسبه من الأقوال والأعمال والإرادات والعقائد إلا ظلماتها .

والمؤمن عمله نور ، وقوله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، وقصده نور ، فهو يتقلب في النور في جميع أحواله .

قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[1] .

ثم ذكر حال الكفار وأعمالهم وتقلبهم في الظلمات فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2] "[3]، وأذكر فيما يلي – بتوفيق الله ﷻ – خطورة اتباع الهوى باختصار ودوره في إثارة الشبهات حول الحق وغواية البشر:

(١) — اتباع الهوى سبب رئيس في غواية الناس ودافع مهم يدفع الكثير منهم إلى أن يثيروا الشبهات كمبرر لتكذيبهم ومخالفتهم الأنبياء بل وقتلهم إياهم لمّا جاءوهم من الحق ما يخالف أهواءهم وشهواتـــهم ، قال تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾[1] .

---

(١) — سورة النور : الآيـــة ٣٥ .

(٢) – سورة النور : الآيـــة ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) – هدايـــة الحيارى في أجوبـــة اليهود والنصارى ، الإمام ابن القيم، ٣٧٥،٣٧٦، تحقيق: د.أحمد حجازي السقا ، دار المطبعة السلفية ، القاهرة .

(١) — سورة البقرة : من الآيـــة٨٧ .

(٢) – أن الهوى يخالف العلم، والعلم هو معرفة الحق ، والإنسان لا يترك الحق – عادة – إلاّ لاتباع الهوى ، والإسلام قد قرر الحق منطلقاً ، واعتبر الهوى منطلقاً آخراً مغايراً من الأول ، وأرشد الإنسان إلى أن يتبع الحق ويسلك طريق العلم وينبذ الهوى ويبتعد عن الشهوات إذ لا يمكن أن يجمع الإنسان بين اتباع الهوى واتباع العلم ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[1] .

(٣) – أن أهواء الناس ضلالات يجب مجانبتها إذ تثير الشبهات في النفوس وتضلهم عن الحق والهدى ، يقول الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[2] ، يأمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة نبـــيه – ﷺ – أن يقول للمشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى بأنه نُهي أن يعبد ما يعبدونه من دون الله من الأنداد والأوثان ، التي لا تملك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً ، فإن ذلك باطل ، وليس لهم فيه حجة ولا شبهة إلاّ اتباع الهوى ، وهو أعظم الضلال ، ولهذا قال : ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ، أي : إن اتبعت أهواءكم بوجه من الوجوه ، وأما ما أنا عليه ، من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة[3] .

(٤) – لا تقتصر الآثار الضارة لاتباع الهوى على صاحبه وإنما تتعداه إلى الآخرين فتـــثير الشبهات في نفوسهم وتسبب في إضلالهم وإبعادهم عن طريق الحق والهدى ، وقد لفت المولى ﷻ النظر إلى ذلك في قوله : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[1]، تحذر هذه الآية الكريمة من كثير من الناس حيث يضلون غيرهم بما تهوى أنفسهم بغير علم لشبه توجد عندهم بحسب أهوائهم الفاسدة ، وآرائهم القاصرة المجردة عن علم وحجة وبرهان ، ويقول الله ﷻ لنبـــيه محمد – ﷺ – محذراً عن طاعة أكثر الناس :﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ

---

(١) – سورة البقرة : من الآيـــة ١٢٠ .

(٢) – سورة الأنعام : الآيـــة ٥٦ .

(٣) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، ص٢٢٠ .

(١) – سورة الأنعام : من الآيـــة ١١٩ .

ٱللَّهِ ﴾[1] ، فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم ، وأعمالهم ، وعلومهم ؛ فأديانهم فاسدة ، وأعمالهم تبع لأهوائهم ، وعلومهم ليس فيها تحقيق ، ولا إيصال لسواء الطريق[2].

(٥) — الذي يتبع هواه إنما هو مشرك حيث يعبد هواه ، وعبادة الـــهوى ضلال لا ضلال فوقه ، قال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾[3] ، وحين بعث الله نبيه داود وجعله خليفة على الناس ، أمره بمخالفة الهوى ؛ لأنها طريق مخالفة للعمل بالحق والهدى، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[4]، إن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله إذ الهوى يدعو إلى الاستغراق في الملذات والشهوات ، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادة الروحانية التي هي الباقيات الصالحات ؛ لأنهما حالتان متضادتان، فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر ، والضلال الناتج من اتباع الهوى – كما هو معلوم – يوجب سوء العذاب[5] .

(٦) — اتباع الظن الذي لا يعدو أن يكون أهواء النفس هو الذي أردى كثيراً من الناس فجعلهم كفاراً ومشركين ، قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾[6]، أي : لم يستندوا فيما هم فيه من الكفر والشرك إلا إلى الأوهام وما تحبه نفوسهم من عبادة الأصنام ومحبة سدنتها ومواكب زيارتها ، وغرورهم بأنها تسعى في الوساطة لهم عند الله تعالى بما يرغبون في حياتهم فتلك أوهام وأمانيّ محبوبة لهم يعيشون في غرورها[1] .

(٧) — إن القيام بالقسط من أعظم الأمور ، وأدلها على دين القائم به ، وورعه ومقامه في الإسلام ، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام ، وأن يجعله نصب عينيه ، ومحل إرادته ، وأن يزيل عن نفســـه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القســـط ، أو العمل به.

---

(١) — سورة الأنعام : من الآيـــة١١٦ .

(٢) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، ص٢٣٣ .

(٣) — سورة الفرقـــان : الآيـــة ٤٣ .

(٤) — سورة ص : من الآيـــة ٢٦ .

(٥) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ١٨٥/١٣ (بتصرف يسير) .

(٦) — سورة النجم : من الآيـــة ٢٣ .

(١) – التحرير والتنوير : الإمام ابن عاشور ، ١٤/ ١٧٨ .

وأعظم عائق لذلك ، اتباع الهوى ، ولهذا ، نبه الله ﷻ على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾[1] ، أي : فلا تـــتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق ، فإنكم – إن اتبعتموها – عدلتم عن الصواب ، و لم توفقوا للعدل ، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً ، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه ، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم[2].

(٨) – أن اتباع الحق يُصلح الأرض والسماوات ومن فيهن ، أما اتباع الهوى فإنه يفسد الجميع ، قال تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[3]، "الحق هو الله ﷻ ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، أي : لفساد أهوائهم واختلافها ، كما أخبر عنهم في قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[4] ، ثم قال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[5] ، وقال : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾[6] ، وقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾[7] ، ففي هذا كله تبيـــين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه ، تعالى وتقدس ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ أي : القرآن، ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[1]"[2].

(٩) – اتباع الهوى يسبب مرض القلب ثم قسوته وموته؛ وذلك لأن الهوى لما يتمكن من قلب شخص يصبح قلبه مليئاً بالشبهات وحب الشهوات ، والتي تدفعه إلى الآثام والمعاصي بل

---

(١) – سورة النساء : من الآيـــة ١٣٥ .

(٢) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، ص١٧٢ .

(٣) – سورة المؤمنون : من الآيـــة ٧١ .

(٤) – سورة الزخرف : من الآيـــة ٣١ .

(٥) – سورة الزخرف : من الآيـــة٣٢ .

(٦) – سورة الإسراء : من الآيـــة ١٠٠ .

(٧) – سورة النساء : الآيـــة ٥٣ .

(١) – سورة المؤمنون : من الآيـــة ٧١ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٩٤١ .

إلى الشرك والضلال ، وينتهي به الأمر بدءاً من مرض القلب إلى موته ، قال النبي- ﷺ-: '' إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1] ''[2].

(١٠) – اتباع الهوى يجعل صاحبه يستهين بالذنوب والآثام ويستهترها لأن قلبه يكون قد مرض وقسا وامتلأ بالشبهات وحب الشهوات كما سبق ذكره آنفاً ، روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : '' إن المؤمن يرى ذنوبه كأنّه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه ، فقال به هكذا .....''[3]، والاستهانة بالذنوب والآثام هي عين الهلاك ، والبوار ، والخسران المبـــين .

(١١) – المتّبع لهواه يصبح عبداً لشهواته ومن ثم لا يجدي معه النصح والإرشاد ، قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[4] ، أي : '' فأعلم – يا محمد ﷺ - أن تركهم اتباعك ، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ولا إلى هدى وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ، فهذا من أضل الناس حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته فلم يلتفت إليه و لم يقبل عليه ، ودعاه هواه إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى ''[1].

إن الحق في القرآن لبين ، وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد يعلمـــه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده بلا دليل ولا حجة ، وإنهما لطريقان لا ثالث لهما : إما إخلاص لله واتباع للحق وخلوص من الهوى ، وإما مماراة في الحق واتباع للـــهوى ؛ وهـــو التكـــذيب والكفر، ولا حجة من غموض في العقيدة ، أو ضعف في الحجة ، أو نقص في الدليل، كما يدعي أصحاب الهوى والشهوات والشبهات .

---

(١) – سورة المطففيـــن : الآيـــة ١٤ .

(٢) – سنن ابن ماجه : كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب ، ص٤٥٨ ، رقم الحديث : ٤٢٤٤ .

(٣) – صحيح البخاري : كتاب الدعوات ، باب : التوبة ، ص١٢١٣ ، رقم الحديث : ٦٣٠٨ .

(٤) – سورة القصص : الآيـــة ٥٠ .

(١) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، ص٥٦٨ .

(١٢) – المتّبع لهواه يتخبط في ظلمة الضلال والشبهات لحبه بل لتعبده ما تشتهي نفسه إليه من الشهوات ، وسعيه لإشباع غرائزه على أية حال وبأية وسيلة ، وإعراضه عن الحق والهدى ، فأنّى يأتيه التوفيق والهداية إلى الصراط المستقيم؟ وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

(١٣) – الذي يتبع هواه بغير هدى من الله ، يتجاوز في ذلك ما حده الله ويتجرأ على ارتكاب المعاصي الكبار ، ويؤثِر حياته الدنيوية على الأخروية ، فيصير سعيه لها ، ويستغرق وقته في حظوظها وشهواتها ، ومن ثم فسيكون مقره الأبدي ومسكنه الدائم هو النار ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[2].

(١٤) – أصحاب الأهواء يريدون الغرق في الملذات والغوص في الشهوات ، يسكرون بالضلال، فيتبعون كل غريب شاذ ، ويلهثون وراء كل متعة مستقذرة ، فتراهم يصابون بالأمراض الفتاكة من العرى ، وتخنث الرجال ، وترجل النساء ، وكل شاذ غريب ، مما يشوه إنسانية الإنسان ، ويقضي على رجولته ، ويباعد بينه وبين كرامته التي خصه الله ﷻ بها من بين سائر مخلوقاته .

فهو بهذا يكره الرجولة ويمقت الفضيلة ، وينفر من الاستقامة ، ويعادي الهداية .

ولهذا تراه حرباً على الدعوة ورجالها ، لأنه يظن أنهم سيسلبونه هناءه ، ويغتصبون منه ملذاته وشهواته ، ويكشفون عوراته ويطاردون باطله ، فيفتري على الدعوة افتراءات كاذبة ، ويثير حول دعاة الفضل وأهل الحق شبهات ضالة ، وصدق الله ﷻ إذ قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ،[2].

---

(١) – سورة الجاثية : الآية ٢٣ .

(٢) – سورة النازعات : الآية٣٧ – ٣٩ .

(١) – سورة البقرة : الآية ١١ – ١٣ .

(٢) – الدعوة إلى الله ، الرسالة ، الوسيلة ، الهدف : د . توفيق الواعي ، ص١٥٢ ، ١٥٣ ، (بتصرف) .

المسألة الثالثة : **أسباب اتباع الهوى**

هناك أسباب وبواعث تدفع النفس إلى اتباع الهوى وإشباع الشهوات بغير هدى من الله ﷻ ، وأهمها ما يلي :

(١) — عدم التعويد على ضبط الهوى وترشيد وتهذيب الطبع منذ الصغر ؛ وذلك لعدم اهتمام الوالدين بأولادهما بهذا الشأن وحبهما المفرط لهم ، الذي يطغى على تنمية الضوابط والمبادئ الشرعية في نفوسهم وطباعهم ، ويعودهم على إشباع رغائبهم وما تشتهي أنفسهم بدون تنظيم أو قيود ، وإذا تربى المرء على هذا النهج ، وشبّ عليه ، استمرّ في انسياقه وراء الشهوات والرغبات حتى ولو كانت مخالفة للشرع ، وكذلك إذا ولد في أسرة كافرة وتربى فيها شبّ على كفر وضلالة ، فلا هدف له من حياته إلاّ اتباع الهوى وإشباع الغرائز إذ من شب على شيء شاب عليه ، إلا من رحم الله ﷻ .

(٢) — عدم المعرفة بالله والدار الآخرة سبب رئيس لاتباع الهوى وحب الشهوات ؛ وذلك لأن الذي يجهل بأن الله ﷻ هو الخالق وحده والرازق وحده ، وإليه المرجع والمآب وهو المعبود وحده لا شريك له ، لا يقدّر الله حق قدره ، ومن ثم يفعل ما يشاء غير مبال بما إذا كان ذلك يرضي الله أو يغضبه ، وينجيه أو يهلكه ، وكثيراً ما يحدثنا القرآن بأن عدم المعرفة بالله ﷻ حق المعرفة كان سبباً في عدم استجابة الناس للحق والهدى ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1]، وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[2] .

---

(١) — سورة الزمر : الآيـــة ٦٤ — ٦٧ .

(٢) — سورة الحج : الآيـــة ٧٣ - ٧٤ .

(٣) – مجالسة أهل الأهواء والضلال والاستماع إليهم أيضاً سبب لاتباع الهوى؛ وذلك لأن الذي يلازم مجالستهم ومصاحبتهم - لا محالة - يتأثر بهم وبأفكارهم لاسيما إذا كان ضعيف الشخصية وقليل العلم .

ولهذا السبب قد أكثر السلف من التحذير من مجالسة أهل الأهواء والضلال ، منها ما أثر - مثلا - عن أبي قلابة قوله : "... لا تجالسوا أهل الأهواء ، ولا تجادلوهم ، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون "، وأثر عن الحسن ، وابن سيرين قولهما : " ولا تجالسوا أصحاب الأهواء ولا تجادلوهم ، ولا تسمعوا منهم"[1].

(٤) – عدم الردّ على شبهات صاحب الهوى سبب مهم في اتباعه هواه ؛ وذلك لأنه إذا رأى حوله استحساناً ، أو سكوتاً ، أو عدم الإنكار والردّ على ما هو عليه من شبهات واتباع الشهوات ، فإنه يمضي ويتمادى فيما هو عليه ، ومن ثم يتمكن الهوى من قلبه ، ويسيطر على كل سلوكياته وتصرفاته .

وهذا أحد الأسباب والحكم التي لأجلها شُرع الردّ على الشبهات ، ومقاومة المنكرات ، وعدم السكوت عنها ، قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1] ، وقال ﷻ : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾[2].

(٥) – الجهل بالعواقب المترتبة على اتباع الهوى أيضاً أحد أسبابه المهمة ؛ وذلك أن "من جهل عواقب محظور من المحظورات ، وقع في هذا المحظور دون أدنى اهتمام أو مبالاة ، ولعل هذا هو السر في اهتمام الشارع الحكيم بالتذكير بالعواقب المترتبة على المأمورات والمنهيات"[3].

---

(١) – سنن الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي ، باب: اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، ١ / ١٢٠ ، قال حسين سليم أسد : إسناده صحيح.

(٢) – سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

(١) – سورة النحل : من الآية ١٢٥ .

(٢) – سورة النساء : من الآية ٦٣ .

(٣) – آفات على الطريق : د . السيد محمد نوح ، ٢ / ٤٢ .

المسألة الرابعة : علاج اتباع الهوى:

علاج اتباع الهوى هو الاستجابة للحق ثم السير على طريق الهدى ، وليتحقق هذا المطلوب من الإنسان المدعو يجب عليه أن يستمع إلى داعي الحق ، كما يجب على الداعية إيصال الحق إلى المدعو مراعياً في ذلك حالته النفسية وأفكاره الاعتقادية وظروفه الاجتماعية ، وهناك خطوات مفيدة ينبغي اتخاذها مع المدعو المتّبع هواه ليتم شفاؤه – بإذن الله تعالى – من هذا الداء الخطير ، وهي كالتالي :

(١) – التذكير بعواقب اتباع الهوى من خلال ما ذكره القرآن الكريم والسنة النبوية وما سجلته كتب التاريخ من وقائع عواقب متبعي الهوى ومحبي الشهوات الذين ضلوا وأضلوا ، فإن في ذلك أثراً إيجابياً كبيراً لتخليص النفس من أهوائها وشهواتها .

(٢) – حث المدعو على الإكثار من مصاحبة أهل الصلاح والاستقامة مع الانقطاع التام عن مجالسة أهل الأهواء وهجرهم، فإنّ ذلك يعينه على تحرير نفسه من الأهواء والشهوات .

(٣) – تعريف المدعو المتبع هواه بالله ﷻ حق المعرفة ؛ بالحجة والبرهان من النقل والعقل، فإن ذلك يولّد في نفسه حبه وإجلاله ، والنـــزول على حكمه في كل أوامره ونواهيه ، ومراقبته وخشيته ، والطمع في جنـــته ورضوانه ، والخوف من ناره وعقابه[1].

(٤) – تحذير المدعو من الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها ، بـــبيان حقيقتها وانتهاء ملذاتها وقرب فنائها ، وبـــبيان أبدية الآخرة ودوام نعيمها وعذابها .

(٥) – تذكيـــر المدعو بأن السعادة والراحة والطمأنينة والفوز إنما هي في اتباع المشروع ، لا في اتباع ما تملي النفس وما تهوى ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[1] ، ويقول ﷻ : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]،[3].

---

(١) – المرجع السابق : ٢ / ٥٠ . (بتصرف) .

(١) – سورة طـــه : من الآيـــة ١٢٣ .

(٢) – سورة البقرة : من الآيـــة ٣٨ .

(٣) – آفـــات على الطريق : د. السيد محمد نوح ، ٢ / ٥٢ ، ٥٣ .

الدافع الثاني : حب الرياسة والجاه:

إنّ حبّ السلطة والرياسة والجاه دافع قوي من دوافع الشبهات ، فأهل السلطة والجاه، والقادة والكبراء ؛ وهم ملأ قوم وبطانة سلطة ، الذين يشتركون فيما بينهم في كثير من المصالح، يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم إذا استجابوا للرسول ودعاة الحق فسيستجيب لهم الناس أيضاً ومن ثم تنتقل السلطة والرياسة إلى الرسول ودعاة الحق ، بل يرون أنهم إذا تركوا الناس يستجيبون للدعوة إلى الله ، وهم لم يستجيبوا لها ، صار الناس أتباعاً للرسول وأنصاراً لدعاة الحق ، وبالتالي يسلب منهم جاههم وسلطانهم ، ولذلك لا هم يستجيبون للرسول ودعاة الحق ولا يتركون الناس يستجيبون لهم ، فيقومون بمعارضتهم ومحاربة ودعوتهم، ويأتون بالأباطيل والافتراءات والشبهات ضدهم وضد دعوتهم لتبرير موقفهم العدائي منهم ومن دعوتهم.

وقد تحدث القرآن الكريم عن حبّ أولئك القوم للسلطة والرياسة والجاه ، وأن هذا الحبَّ كان من دوافع إنكارهم دعوة الحق إلى الله تعالى وإثارتهم الشبهات حولها وحول دعاتها ، فمثلاً:

(١) – ذكر القرآن مواجهة الملأ ؛ أي أهل الرياسة والجاه ، لنوح – عليه السلام – ، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1] .

وقال سبحانه وتعالى في موضع آخر :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[1] .

و لم يكتف " الملأ " – كما نرى في الآية الكريمة الأولى – بعدم الانقياد لنوح – عليه السلام – بل استكبروا عن الانقياد له وقدحوا فيه أعظم قدح حيث نسبوه إلى الضلال ، و لم يكتفوا بمجرد

---

(١) – سورة الأعراف : الآيـة ٥٩ – ٦٠ .

(١) – سورة المؤمنون : الآيـة ٢٤ – ٢٥ .

الضلال بل جعلوه ضلالاً مبيناً ، واضحاً لكل أحد[1] ، ولم يكن هذا الافتراء منهم إلاّ ليبعدوا الناس عن الاستجابة له .

وفي الآية الأخرى يفتري الملأ على نوح – عليه السلام – فيقولون مخاطبين للجمهور بأن نوحاً – عليه السلام – يترفع عليهم ، ويتعاظم بدعوى النبوة ، وهو بشر مثلهم ، فكيف أوحي إليه دونهم ، أي لو أراد الله أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ، فهم لم يسمعوا بهذا؛ أي بعثة البشر، في آبائهم الأولين، "يعنون – بهذا – أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية"[2] ، ثم جاءوا بإفك آخر فقالوا : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ أي : " مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليهم واختصه من بينهم بالوحي "[3] ، ولم يطلقوا كل هذه الافتراءات إلاّ لصرف الناس عن نبي الله نوح – عليه السلام – لتبقى وتدوم سلطتهم ورياستهم لهم ، " والحقيقة أن رسل الله لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ولا رياسة ولا تعاظماً وإنما هم بطبيعة دعوتهم يصيرون أئمة للناس وتصير لهم الرياسة ولكن ليست هي مثل رياسة أولئك الملأ المتكبرين على الله "[4].

(٢) – وذكر القرآن الكريم عن فرعون وملئه حالهم فقال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، فاستكبر فرعون وملؤه عن اتباع الحق والانقياد له، ولم يكن ذلك لسبب مقنع أو لحجة أو برهان وإنما لكونهم قوماً مجرمين ، فكأنهم أقسموا على الإعراض عن الحق إذ كانوا يعلمون أن ما قالوه بأن موسى وهارون يريدان أن تكون لهما الكبرياء ؛ أي العظمة والرياسة في الأرض ، كذب وبهتان كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٥٥ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٩٣٣ .

(٣) – المرجع نفسه : ٣ / ١٩٣٣ .

(٤) – أصول الدعوة : د . عبد الكريم زيدان ، ص٣٨٥ .

(١) – سورة يونس : الآية ٧٥ – ٧٦ .

ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[1]، فلم يتهموهما بذلك إلاّ لحبهم للرياسة والعلو في الأرض ولخوفهم من ذهاب رياستهم على الناس[2] .

(٣) – ويخبر القرآن عن الملأ من قريش فيقول : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾[3] .

أي: انطلق الأشراف من هؤلاء الكافرين من قريش قائلين للناس : امضوا واصبروا على دينكم ، وعبادة آلهتكم لأن الذي يقوله محمد – ﷺ – ويدعونا إليه من قول لا إله إلاّ الله ، شيء يريده منا ، يطلب به الاستعلاء علينا ، وأن نكون له فيه أتباعاً ، ولسنا مجيبيه إلى ذلك[4].

وجاء في تفسير القرطبي : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ كلمة تحذير ، أي : إنما يريد محمد – ﷺ– بما يقول الانقياد له ليعلو علينا ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد فاحذروا أن تطيعوه[5].

وخلاصة ما ذكر أن الملأ من قريش أعرض عن دعوة الحق ورفضها خوفاً من زوال جاههم ، وسلب سلطانهم ، وذهاب رياستهم ، وهو درب الملأ – في أغلب الأحيان – في كل زمان وفي كل مكان .

---

(١) – سورة النمل : من الآيــة ١٤ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ١٣٨٧ .

(٣) – سورة ص : الآيــة ٦ .

(٤) – جامع البيان عن تأويل آى القرآن : الإمام جعفر محمد بن جرير الطبري ، ٢٠ / ٢١ .

(٥) – الجامع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ١٥ / ١٣٤ .

الدافع الثالث : الكبر

المسألة الأولى : مفهوم الكبر

الكبر في اللغة :

– العظمة والتجبُّر ، ومعظم الشيء ، والإثم الكبير ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١] .

– والاستكبار : الامتناع عن قبول الحق معاندةً وتكبُّراً .

– وتكابر فلان : أرى من نفسه أنه كبير القدر أو السِّنِّ .

– الكبرياء : العظمة والتجبر ، والترفع عن الانقياد ، والملك ، قال تعالى : ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٢]،[٣] .

وفي الاصطلاح :

هو الإعجاب بالنفس مع احتقار الآخرين ، والترفع عن قبول الحق ، جاء في الحديث النبوي : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " قال رجل : إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ، قال : " إن الله جميل يحبّ الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس "[٤] ؛ بطر الحق : أي إنكار الحق ودفعه ترفعاً وتجبراً ، وغمط الناس: أي احتقارهم[١] ، وهذا التعريف النبوي للكبر هو المحور لتعاريف العلماء في القديم والحديث ، فعلى سبيل المثال ، يقول القرطبي بأنه " الاستعظام "[٢] ، ويقول الجاحظ : " هو استعظام الإنسان نفسه ، واستحسان ما فيه من الفضائل ، والاستهانة بالناس واستصغارهم ، والترفع على من

---

(١) – سورة النور : من الآيـــة ١١ .

(٢) – سورة يونس : من الآيـــة ٧٨ .

(٣) – القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، باب : الراء ، فصل الكاف ، مادة : كَبُرَ ، ص٦٠١ ، ٦٠٢ ، والمعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، مادة : كَـــبُرَ ، ص٧٧٢ ، ٧٧٣ .

(٤) – صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانـــه ، ص٦٣ ، رقم الحديث : ٩١ .

(١) – المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : الإمام أبو زكريا يحي بن شرف النووي ، ٢ / ٩٠ ، ط٢ ، ١٣٩٢هـــ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيـــروت .

(٢) – الجامع لأحكام القرآن : الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، ١ / ٢٩٦ .

يجب التواضع له[1] ، ويعرفه ابن عاشور بقوله : " العظمة وإظهار التفوق على الناس "[2]، ويقول الغزالي : " هو الخلق الذي في النفس ، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه "[3] ، ويعرفه سليم الهلالي بقوله : " هو رؤية النفس على الحق والخلق "[4] ، وصفوة القول : إن جميع التعاريف عالة على تعريف النبي – ﷺ – الذي حوى بشمول معنى الكبر على وجازته[5] .

الفرق بين التكبر والعزة :

" الفرق بين التكبر والعزة واضح إذ التكبر ترفع بالباطل ، والعزة ترفع بالحق ، أو أن التكبر : نكران النعمة وجحودها ، والعزة : اعتراف بالنعمة وتحدّث بها ، على نحو ما تضمنه الحديث المذكور آنفاً "[6].

المسألة الثانية : أضرار الكبر وآثاره :

الكبر من أهم دوافع إثارة الشبهات ، إذ هو خلق ذميم وآفة عظيمة وبلاء مهلك حيث آثاره كلها سلبية وضارة ، وأهم آثاره كما يلي :

(١) – عدم الهداية والاستمرار على الكفر :

وهذا – في واقع الأمر – نتيجة لما يصيب صاحب الكبر من الحرمان من رؤية الحق في أغلب الأحيان ، وإن تحققت له رؤية الحق فالكبر يمنعه من الاعتراف به والانقياد له ، فنراه يمر على آيات الله المبثوثة في النفس وفي الكون معرضاً عنها إعراضاً تاماً ، يحكي القرآن عن موقفه وأمثاله فيقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[1]،

---

(١) – تهذيب الأخلاق : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قراءة وتعليق : أبو حذيفة وإبراهيم بن محمد ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ ، دار الصحابة للتراث .

(٢) – التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور ، ٢٩ / ٢١٥ ، ط : ١٩٨٤م ، الدار التونسية ، للنشر .

(٣) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٢ / ٤٢٤ .

(٤) – التواضع في ضوء القرآن والسنة الصحيحة : سليم الهلال ، ص٣٥ ، ط : ١ ، ١٤١٠هـ ، دار ابن القيم .

(٥) – دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها : د . عبد الرحمن يوسف الملاحي ، ص١٦٠ .

(٦) – آفات على الطريق : الدكتور السيد محمد نوح ، ١ / ١٦٦.

(١) – سورة يوسف : الآية ١٠٥ .

أي : وكم من آية في السماوات والأرض لله ، عبرة وحجة ودالة على وجوده ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته ؛ وذلك كالأجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها ، ومن الجبال والبحار وسائر ما في الأرض من العجائب الفائتة للحصر ، يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها مصمِّمين على الكفر ، مصرِّين على العناد ، لا يعتبرون بها ولا يفكرون فيها[(١)] ، ثم يأتون بمبررات لإعراضهم عن الحق في شكل افتراءات وشبهات حول الحق والدعاة إليه .

(٢) – القلق والاضطراب النفسي :

إن المتكبر يحب – إشباعاً لرغبة الترفع والتعالي على الناس – أن يحني الناس رؤوسهم له، وأن يكونوا دوماً في ركابه ، ولكن أعزة الناس وكرامهم يأبون ذلك ، فيصاب بخيبة أمل، تكون عاقبتها القلق والاضطراب النفسي ، وهذا فضلا عن أن اشتغال هذا المتكبر بنفسه يجعله في إعراض تام عن معرفة الله وذكره ، وللإعراض عن ذكر الله عواقب أدناها في هذه الدنيا قلق واضطراب نفسي ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[(٢)] ، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾[(٣)] ، [(٤)] .

(٣) – المجادلة بالباطل :

يجادل المتكبر في الحق بغير علم ، ويناقش أهلَ الحق ويخاصمهم بلا حجة وبرهان ، حسب ما يمليه عليه الكبر ودواعيه وبواعثه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾[(١)] ، أي : يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ، وما يحملهم على ذلك إلا ما في صدورهم من كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع[(٢)].

---

(١) – جامع البيان عن تأويل آي القرآن : الإمام الطبري ،٧/٣١١ ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) : الإمام أبو السعود ، ٤/٣٠٩ .

(٢) – سورة طـه : من الآية ١٢٤ .

(٣) – سورة الجن : من الآية ١٧ .

(٤) – آفات على الطريق : د . السيد محمد نوح ، ١ / ١٧٦ ، ١٧٧ .

(١) – سورة غافر : من الآية ٥٦ .

(٢) – معالم التنزيل : الإمام أبو محمد البغوي ١/١٥٢ ، وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤/٢٤٨٣ .

(٤) – الاستهزاء بالحق وأهله :

يجعل الكبر صاحبه يستهزئ بالحق وأهله ، قال تعالى حكاية عما يقول المتكبرون استهزاءً بالقرآن الكريم : ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[(١)] ، وقال سبحانه حكاية عما يقولونه استهزاءً بالنبي – ﷺ – : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴾[(٢)] ، ويقول ﷻ حكاية عنهم عما يقولونه استهزاءً بالمؤمنين : ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾[(٣)] ، ويقول أيضاً سبحانه : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾[(٤)] .

(٥) – معاداة الحق ومحاربة أهله :

الكبر يمنع صاحبه من الرؤية الصحيحة لقدر نفسه فيراها فوق أقدار الناس ، لاسيما لداعي الحق منهم ، فيستنكف أن يكون معه أو يستجيب له أو يتبعه ، بل قد يقترن الحسد مع الكبر لانتشال الناس منه إلى الداعية والتفافهم حوله ، فيزيد من آثاره سوءاً وصدوداً عن الحق ، وجحداً له ، ومحاربة لأهله ، وعداوة لهم .

(٦) – الحرمان من الجنة :

وهذا أثر أخير يترتب على صاحب الكبر إن لم يدعه ، فإن من يعتدي على مقام الألوهية، ويظل مقيماً على ضلاله ورذائله ، ستنتهي به الحياة حتماً ، وما حصّل خيراً يستحق به ثواباً أو مكافأة ، فيحرم الجنة مؤبداً أو مؤقتاً ، فعن النبي – ﷺ – أن الله تعالى قال في الحديث القدسي : " الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، من نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم "[(١)] ، وروي عنه – ﷺ – أيضاً قوله : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر "[(٢)] ، وقال أيضاً – ﷺ – : " ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتلّ جواظ مستكبر "[(٣)] .

---

(١) – سورة فصلت : من الآية ٢٦ .

(٢) – سورة الفرقان : الآية ٤١ .

(٣) – سورة الأنعام : من الآية ٥٣ .

(٤) – سورة هود : من الآية ٢٧ .

(١) – سنن ابن ماجة : كتاب الزهد : باب : البراءة من الكبر والتواضع ، ص٤٥١ ، رقم الحديث : ٤١٧٤ .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، ص٦٤ ، رقم الحديث : ٩١ .

(٣) – صحيح البخاري : كتاب الأدب ، باب : الكبر ، ص١١٧٣ ، رقم الحديث : ٦٠٧١ ،

المسألة الثالثة : صور مما ذكره القرآن عما أدّت إليه صفة الكبر بالمتكبرين من النتائج :

(١) – قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]، فالملأ – وهم الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق ، وعدم انقيادهم للرسل[2] – لم يروا الحق حقاً ولم ينقادوا له ، الذي جاء به نبي الله نوح – عليه السلام – ، بل استكبروا عن الانقياد له وقدحوا فيه أعظم قدح إذ نسبوه إلى الضلال ، ولم يكتفوا بمجرد الضلال وإنما ادعوا بأنه ضلال مبين ، أي : ظاهر وواضح لكل أحد ، فقولهم هذا وادعاؤهم دليل على عماهم وعدم رؤيتهم الحق ، ولم يكن ذلك إلاّ نتيجة لكبرهم .

(٢) – وقال تعالى مخبراً عن الملأ أيضاً من قوم نوح – عليه السلام – :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾[3] ، كان هذا جواب الملأ الكافرين من قوم نوح – عليه السلام – لما دعاهم إلى الحق ، ويقتضي هذا الجواب طعنهم في نبوة نوح – عليه السلام – من ثلاث جهات ، وهي :

الجهة الأولى : قولهم : ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ ، أي : أنت بشر مثلنا ، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا .

الجهة الثانية : قولهم : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أي : ولم يتبعك أحد من الأشراف ، والأراذل : الفقراء ، والذين لا حسب لهم ، ومن يدخل في الحرف الدنية ، أي: فليس لك علينا مزية باتباع هؤلاء الأراذل لك ؛ فإنهم لا يدركون مواقع الخطأ فيما يسمعونه من القول ، بل يتبعون كل من دعاهم إلى مذهب جديد دون تفهم لقوله ، ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ أي: اتبعوك في ظاهر الرأي من غير تعمق ولا تحقق من كونك نبيا .

و(أخرجه مسلم : ٢٨٥٣) .

(١) – سورة الأعراف : الآية ٥٩ – ٦٠

(٢) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٥٥ .

(٣) – سورة هود : الآية ٢٧ .

الجهة الثالثة : قولهم : ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ خاطبوا النبي نوح – عليه السلام – ومتبعيه بهذا ، أي: ما نرى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل تتميزون به وتستحقون ما تدّعونه ، ثم أضربوا عن المطاعن الثلاثة وانتقلوا إلى ظنهم المجرد عن البرهان الذي لا مستند له إلا الكبر الذي تتولد منه العصبية والحسد وحبّ استبقاء ما هم عليه من الرياسة الدنيوية فقالوا : ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾[(1)] .

(٣) – وقال سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[(2)] ، لما دعا نبي الله هود – عليه السلام – قومه عاداً إلى عبادة الله وحده اتهمه الملأ الذين كفروا منهم قادحين في رأيه – عليه السلام – بالحمق ، وخفة العقل ، وبأنه غير رشيد ، وبأنه من الكاذبين ، ولم يقولوا ذلك إلاّ لكبرهم الذي قلّب عليهم الحقيقة ، وأحكم عماهم ، فذموا نبيهم – عليه السلام – بما هم أنفسهم متصفون به ، وهو – عليه السلام – أبعد الناس عنه ، فإنهم هم السفهاء والكاذبون حقا ، فأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالردّ والإنكار ، وتكبر عن الانقياد لله ولرسوله ؟ !!

(٤) – وقال تعالى :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾[(1)] .

استكبر فرعون وملؤه عن الحق و لم ينقادوا له ، وكانوا " قاهرين للناس بالبغي والظلم ، مستعلين عليهم "[(2)] ، والمبرر الذي جاءوا به لكفرهم وعدم اتّباعهم الحق كان كبرا وتعالياً أيضاً حيث قالوا كبراً وتيهاً وتمويهاً ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ كما قال مثل ذلك من قبلهم سواء

---

(١) – زبدة التفسير من فتح القدير : الإمام الشوكاني ، الاختصار : د . محمد سليمان الأشقر ، ص٢٨٨ .

(٢) – سورة الأعراف : الآيـة ٦٥ – ٦٦ .

(١) – سورة المؤمنون : الآيـة ٤٥ – ٤٨ .

(٢) – زبدة التفسير من فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ص٤٥٠ .

بسواء ، تشابهت قلوبهم في الكفر ، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم ، وجحدوا منة الله التي جاءتهم عن طريق موسى وهارون – عليهما السلام –[1] ، فكانت النتيجة : ﴿ فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴾.

(٥) وقال عز وجل :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] ، أي : جحدوها وعاندوها وكابروها ظلماً واستكباراً عن اتباع الحق إذ كانوا يعلمون أنها حق وأنها من عند الله ، فانظر يا محمد – صلى الله عليه وسلم – كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة[3] .

فكُفْر فرعون وقومه بآيات الله التي جاء بها موسى – عليه السلام – لم يكن مستنداً إلى الشك والريب وإنما كان ظلماً منهم وتكبراً على موسى – عليه السلام – حيث كانت نفوسهم متيقنة بصحة نبوة موسى وبما جاء به من الله من الحق والهدى ، فأدّى بهم التعالي والكبر على الحق إلى الهلاك بالإغراق في البحر على تلك الصفة الهائلة .

(٦) – وقال جلّ شأنه :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] .

هذا قول المعترضين على القرآن، والمتكبرين على رسالة الإسلام، والمنكرين نبوة محمد – عليه الصلاة والسلام – .

فقالوا – كما نشاهد في الآية الكريمة المذكورة – معترضين ومتكبرين : هلا كان إنزال القرآن الكريم على رجل عظيم كبـــير في أعينهم من القريتين ، يعنون مكة والطائف ، وعن ابن عباس يعنون بالرجل العظيم جباراً من جبابرة قريش[2] ، ولم يصدر منهم هذا إلاّ بدافع الكبر

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٥٠٢ .

(٢) – سورة النمل : الآيـــة ١٤ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢٠٨٢/٣ .

(١) – سورة الزخرف : الآيـــة ٣١ – ٣٢ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٢٥٣٧ .

والتعالي استخفافاً لشخصية النبي – ﷺ – واستصغاراً لشأنه ، فلم يكونوا يرونه أهلا للرسالة، ويرون أنهم أو غيرهم من الكبراء هم المستحقون للرسالة وتلقي الوحي ، وقد ردّ الله عليهم قولهم بأن الأمر بيد الله ، والله أعلم حيث يجعل رسالته[1] .

(٧) – وقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾[2].

جاء في سيرة نبينا محمد – ﷺ – أن الملأ من قريش طلب من النبي – ﷺ – أن يطرد ضعفاء المسلمين وفقراءهم من مجلسه إذا حضروا هم للجلوس معه لينفردوا معه – ﷺ – ، ثم إذا انتهوا من الحديث معه والسماع منه ، فيدخلهم إن شاء ، و لم يكن ذلك – كما هو ظاهر من كلامهم – إلاّ تكبراً منهم على ضعفاء المسلمين وفقرائهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ ، فعن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي – ﷺ – ستة نفر، فقال المشركون للنبي – ﷺ – : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله – ﷺ – ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[1]،[2]، وقال تعالى عن أولئك المتكبرين المتعجرفين الذين طلبوا ما طلبوا : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[3] .

---

(١) – أصول الدعوة : د. عبد الكريم زيدان ، ص٣٨٥ .

(٢) – سورة الكهف : من الآيـــة ٢٨ .

(١)– تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٧١٦ ، والحديث رواه مسلم : كتاب فضائل الصحابـــة ، بـــاب: في فضل سعد ابن أبي وقـــاص ، ص٩٨٣ ، رقم الحديث ٢٤١٣، باختلاف يسير وهو : ('' لست أسمّيهما'' وليس ''نســـيت اسمَيهما'' كما هو في التفسير ، والله أعلم بالصواب).

(٢) – سورة الأنعام : من الآيـــة ٥٢ .

(٣) – سورة الكهف : من الآيـــة ٢٨ .

المسألة الرابعة : **أنواع التكبر** :

يتبـــين من خلال النظر في النصوص النقلية المتعلقة بالكبر والمتكبرين وما تؤدي بهم إليه صفة الكبر من آثار ونتائج ، والتي قد سبق ذكر أمثلة منها آنفاً ، ومن خلال الاستقراء في واقع المجتمع البشري وتاريخه أن التكبر نوعان رئيسان ، هما :

النوع الأول : التكبر على الحق المنـــزل من الله وهو - بعبارة أخرى - التكبر على الله تعالى بالإعراض عن الإيمان به ، وعن عبادته ، وبالمجادلة بآياته بلا دليل وبرهان ، والأدلة على هذا النوع كثيرة ، منها — مثلاً - :

قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] .

وقوله سبحانه :

﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾[2] .

وقوله ﷻ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾[2] .

النوع الثاني : التكبر على الناس ، وهو ينقسم إلى قسمين ، وهما :

الأول : التكبر على الأنبياء والرسل ودعاة الحق: والأدلة على ذلك كثيرة، منها — مثلا :

(١) — سورة غافـــر : من الآيـــة ٦٠ .

(٢) — سورة الأنعام : من الآيـــة ٣٣ .

(١) — سورة غافـــر : الآيـــة ٥٦ .

(٢) — سورة غـــافـــر : الآيـــة ٣٥ .

قول الله ﷻ :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[1] .

وقوله سبحانه :

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[2] .

الثاني : التكبر على الناس عامة : والأدلة على هذا النوع أيضاً كثيرة ، منها – مثلا – : قول الله ﷻ :

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[3] .

وقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾[1] .

وقول النبي – ﷺ :

'' الكبر بطر الحق وغمط الناس ''[2] .

المسألة الخامسة : أسباب التكبر وبواعثه:

لكل صفة يكتسبها الإنسان أو خلقٍ يتخلق به أسباب وبواعث، سواء أكانت الصفة والخلق من الصفات والأخلاق الحميدة أو الذميمة، وصفة الكبر التي هي إنكار الحق ترفعاً واحتقار الناس[3]، صفة قبيحة جداً ، ولا توجد فيها أدنى فائدة بل هي ضرر وضرار، فلذا كانت صفة مرفوضة عند كل الأقوام وفي جميع الشرائع، وقد تقدم من الكلام في ضوء القرآن

---

(١) – سورة التغابن : الآيــة ٥ ، ٦ .

(٢) – سورة هــود : الآيــة ٩١ .

(٣) – سورة هــود : من الآيــة ٢٧ .

(١) – سورة الأنعام : من الآيــة ٥٣ .

(٢) – صحيح مســلم : كتاب : الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانــه ، ص٦٣ ، رقم الحديث : ٩١ .

(٣) – انظر للتفصيل '' المسألــة الأولى '' من هذا المبحث .

والسنة ما يدل على قبحها وأضرارها، وهناك أسباب وبواعث كثيرة تدفع النفس إلى اكتسابها والتخلق بها أو تجعلها ترسخ في النفس وتتزايد، وأذكر فيما يلي أهم تلك الأسباب والبواعث:

(١) – **القوة والسلطة** :

من الأسباب الرئيسة والبواعث القوية للكبر القوة والسلطة ، وهي سبب قديم قدم الزمان، وقد أضلت كثيراً من الناس الذين اغتروا بها ولم يفهموا حقيقتها ، وقد ذكر القرآن الكريم أمثلة كثيرة من الذين غرتهم القوة والسلطة فتكبروا على الحق وأهله ، واستكبروا في الأرض ولم ينقادوا للحق ، فضلوا وأضلوا كثيراً من الخلق ، وأذكر فيما يلي أمثلة مما ذكره القرآن الكريم من أخبار أمثال هؤلاء :

– **قوم عاد** : لما بعث الله ﷻ هوداً – عليه السلام – إلى عاد ودعاهم هود – عليه السلام – إلى التوحيد ، ونهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض ، وخوّفهم من سخط الله وعذابه إن لم يستجيبوا له ، أنكروا عليه ما دعا إليه واحتقروه ولم يستجيبوا له ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1]، ولم يكن كفرهم بالحق واحتقارهم بالنبي إلاّ استكباراً منهم بسبب ما أُعطوا من القوة التي منعتهم من رؤية الحق ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[2] .

– **قوم ثمود** : بعث الله ﷻ صالحاً – عليه السلام – إلى قومه ثمود ، فدعاهم صالح – عليه السلام– إلى الإيمان والتوحيد ، ونهاهم عن الشرك ، وحذرهم من أن يلحقوا ضرراً بالناقة التي جاءتهم بينة من ربهم وآية سماوية ، وذكّرهم بنعم الله عليهم وما خولهم من الفضل والرزق والقوة ، ومنعهم من نشر الفساد في الأرض وارتكاب المعاصي ، ولكن لم يستجب له إلا عدد من المستضعفين ، أما أصحاب القوة والسلطة فحملهم الكبر فاحتقروا نبي الله ، واستهزءوا به وتكبروا على ما جاء به صالح – عليه السلام – من الحق والهدى ، قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ

(١) – سورة الأعراف : الآيـة ٦٥ – ٦٦ .

(٢) – سورة فصلت : الآيـة ١٥ .

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1]، و لم يكتفوا بالاستهزاء بالنبي وعدم الإيمان بالله ﷻ بل طغوا ، وعقروا الناقـــة ، وعتوا عن أمر الله ، متجرئـــين عليه سبحانه معاجزين له، غير مبالين بما فعلوا ، بل متكبرين مفتخرين به ، فجاءهم الذي يأتي كل من عتا عنه سبحانه من العذاب الشديد ، قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾[2] ، فتولى النبي عنهم قائلاً : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[1] .

– **فرعون وملؤه** : بعث الله ﷻ موسى – عليه السلام – ، وجعل معه أخاه هارون وزيراً له ، إلى فرعون وملئه بالآيات الدالة على صحة التوحيد وبطلان الشرك ، فلما دعاهم موسى – عليه السلام – إلى الإيمان بالله وحده ونهاهم عن عبادة ما سوى الله تعالى ، استكبروا عليه وأعرضوا عن الحق الذي جاء به بعد ما استيقنوه ، فردوه و لم يقبلوه ظلماً وعلواً ، و لم يكتفوا بإعراضهم عنه وإنما جعلوه أبطل الباطل حيث وصفوه بالسحر بل جعلوه سحراً مبيناً ظاهراً ، وهو – في الواقع – الحق المبـــين ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[2]

---

(١) – سورة الأعراف : الآيـــة ٧٣ – ٧٦ .

(٢) – سورة الأعراف : الآيـــة ٧٧ ، ٧٨ .

(١) – سورة الأعراف : الآيـــة ٧٩ .

(٢) – سورة يونس : الآيـــة ٧٥ – ٧٦ .

كانت هذه أمثلة من الأمم السابقة التي غرّهّا القوة والسلطة فتكبّرت وكذبت الرسل وأعرضت عن الحق ، فحقت كلمة العذاب على الكافرين ، أما هذه الأمة؛ أمة محمد – ﷺ – فهناك الكثير ممن تكبر على الحق وصاحبه – ﷺ – والمؤمنين ، أذكر فيما يلي بعضاً منهم :

– **الوليد بن مغيرة**(١) : أنعم الله عليه بنعم الدنيا فأعطاه المال الكثير وعشرة من البنين، فكان ذا قوة ومال ، فغرته هذه النعم ، فتكبر على الحق الذي جاء به النبي – ﷺ – وأعرض عنه، وافترى عليه ، وجعل القرآن الكريم من قول البشر ، قال تعالى : ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾(١) .

– **أبو جهل** : إن أبا جهل قد تجاوز الحد، واستكبر على الله ﷻ ، فأعرض عن الحق الذي بعث به نبيـــه محمداً – ﷺ – إلى الناس، وعاداه وحاربه والذين آمنوا معه، ولم يكن هذا الاستكبار منه ورفض الحق بل ومحاربته إياه إلاّ لاغتراره بمكانه في المجتمع إذ كان من الأشراف وذا قوة وعدد، ويشير القرآن إلى هذا حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾(٢)، روي عن ابن عباس – رضي الله عنه – "قال: مرّ أبو جهل فقال: ألم أنهك ، فانتهره النبي – ﷺ –، فقال له أبو جهل: لم تنـــتهرني يا محمد! فوالله لقد علمت ما بها رجل أكثر نادياً مني"(٣)، فنـــزل القرآن بالتهديد له والوعيد الشديد بأنه إن لم ينـــته عما هو عليه من الكفر والطغيان ومحاربة النبي – ﷺ – ولم ينـــزجر ، ليؤخذَنَّ بناصيته وليجرّنّ إلى النار ، ولن

---

(١) – الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، أبو شمس (٩٥ ق هـــ – ١هـــ = ٥٣٠ – ٦٢٢ م) ، من قضاة العرب في الجاهلية ، ومن زعماء قريش ، ومن زنادقتها ، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم ، فعاداه وقاوم دعوتـــه ، وهلـــك بعد الهجرة بثلاثـــة أشهر ، ودفن بالحجون ، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد ، الكامـــل لابـــن الأثيـــــر 1 / 592، واليعقوبي ١ / ٢١٥ ، والنويري ١٦ / ٢٧٣ ، ورغبـــة الأمل ٥ / ٢٩ .

(١) – سورة المدثر : الآيـــة ١١ – ٢٥ .

(٢) – سورة العلق : الآيـــة ٦ – ٧ .

(٣) – مسند الإمام أحمد : ص٢٠٠ ، رقم الحديث : ٢٣٢١ ، (صحيح البخاري : ٤٩٥٨) ، وانظر : زبدة التفسير من فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ص ٨١٤ ، ٨١٥ .

تغني عنه قوته ؛ أي أهله وعشيرته وقومه ، ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾(1).

(٢) – **ظن دوام النعمة** :

الظن بدوام النعمة أحد أسباب التكبر الرئيسة ؛ وذلك أنّ بعض الناس الذين ينعم الله عليهم بنعم الدنيا يظنون تحت تأثير حبهم الشديد لها وتعلقهم بها أنها ستدوم لهم ولن تزول عنهم، وينتهي بهم هذا الظن إلى الإعراض عن الحق والتكبر والترفع والتعالي على الناس ، قال تعالى عن صاحب الجنتين : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾(2)، ويقول الله ﷻ عن الإنسان : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾(1).

(٣) – **العلم** :

من المعلوم أن الجهل ضلال وظلام ، والعلم نور يسترشد به الإنسان إلى الحق والصواب ، ويميز به بين الخير والشر ، والقبح والحسن ، ويتوصل من خلاله إلى المعرفة بالله ﷻ ، ومن ثم فلا يضل ولا يشقى ، قال الله ﷻ :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾(2) .

وقال سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ (3) .

---

(١) – سورة العلق : الآيـة ١٥ – ١٨ .

(٢) – سورة الكهف : الآيـة ٣٥ – ٣٦ .

(١) – سورة فصلت : الآيـة ٥٠ .

(٢) – سورة سبأ : الآيـة ٦ .

(٣) – سورة القصص : الآيـة ٨٠ .

وقال جل شأنه :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾[1] .

والعلم هو مما يحصل به المرء الفضل والشرف ، قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾[3] .

والعلم هو الذي فضل الله به آدم على الملائكة حيث قال :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[1] .

والعلم داع إلى خشية الله ، وأهل خشيته هم أهل كرامته[2] ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾[3]

وقد وردت نصوص أخرى كثيرة تدل على ما قلته آنفاً ، وتُبـين فضل العلم وأهميته، وتحث الإنسان على الحصول عليه والاستزادة منه ، وأذكر فيما يلي بعضاً من الأحاديث النبوية المطهرة الدالة على ذلك – على سبيل المثال وليس الحصر – :

– عن أبي هريرة – ﷺ – قال : قال رسول الله – ﷺ – : " إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينـتفع به ، أو ولد صالح يدعو له"[4].

---

(١) – سورة الحج : من الآيـة ٥٤ .

(٢) – سورة الزمر : من الآيـة ٩ .

(٣) – سورة المجادلة : من الآيـة ١١ .

(١) – سورة البقرة : ٣١ – ٣٣ .

(٢) – تيسير الكريم الرحمن : للشيخ السعدي ، ص٦٣٥ .

(٣) – سورة فاطر : من الآيـة ٢٨ .

(٤) – صحيح مسلم : كتاب الوصية ، باب : ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفـاتـه ، ص٦٧٠ ، رقـم الحـديث : ١٦٣١ .

– وعنه – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة "(١) .

– وعنه – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها ، إلاّ ذكر الله تعالى ، وما والاه ، وعالم ، أو متعلم "(٢)

فالعلم الصحيح لا يجتمع مع الكبر ، بل إنهما عدوان لا يلتقيان ، ولكن الواقع يشهد أمثلة كثيرة ، على النقيض من ذلك ، فهناك أناس غرّهم العلم فتكبروا على غيرهم واحتقروهم وترفعوا عليهم ، وتكْبُر المصيـــبة إذا انتشر الكبر في علماء الحق ودعاته حيث يكون سبباً في صد الناس عن سبيل الله وتنفيرهم عنه ، لأنهم يرون أن لهم حقاً على الآخرين بأن يكرموهم ويخدموهم ويشكروهم ، فإن قصروا في ذلك استنكروهم ، هذا فيما يتعلق بالدنيا ، أما ما يتعلق بالآخرة فيرون أنفسهم عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، ويرجون لأنفسهم عند الله ما لا يرجون لهم ، وهذا – كما يقول الإمام الغزالي : – رحمه الله – بأن " يسموا الجهال أولى من أن يسموا علماء "(١).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو :

إذا كان العلم نوراً يهدي إلى الحق والصواب ، ويدعو إلى التواضع وعدم الترفع على الآخر، فكيف يتكبر أهل العلم ؟

يجيب الإمام الغزالي عن هذا السؤال جاعلاً لذلك سببـــين :

الأول : "أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً ، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾(٢)، فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، ص١٠٨٢ ، رقم الحديث : ٢٦٩٩ .

(٢) – جامع الترمذي : كتاب الزهد ، باب : منـــه ، ص٣٨٣ ، رقم الحديث : ٢٣٢٢ ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب ، حسن : قال الشيخ الألباني .

(١) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، ٢ / ٤٢٩ .

(٢) – سورة فـــاطـــر : من الآيـــة ٢٨ .

تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا ونفاقاً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالباً"[1] .

ويرى الباحث أن الإمام الغزالي – رحمه الله – جانب الصواب قليلاً فيما قال ، فإن العلم ولو كان علماً مادياً بحتا سواء أكان متعلقاً بالأنفس أم الآفاق فإنه يهدي إلى الإيمان بالله ﷻ ، وإلى الاعتراف بعظمته سبحانه ، إذ الكون كله وكل ما فيه مما خلقه الله ﷻ من الآدميين والحيوانات ، والأشجار والنباتات ، والأبحار وما فيها ، والسماوات وما فيها ، والأراضي وما عليها ، والليل والنهار ، والحر والبرد ، وكل ما يحتاج إليه الإنسان من الماء والهواء والغذاء لتستقر حياته على هذا الكوكب ، مليئة بآلاء الله ﷻ وآياته مما لا يسع الإنسان الإعراض عنها أو تكذيبها قال الله ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[1] .

وقال سبحانه :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[2] .

وقال ﷻ :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾[3] .

وقال جلّ شأنه :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[4].

---

(١) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، ٢ / ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(١) – سورة الغاشية : الآيـــة ١٧ – ٢١ .

(٢) – سورة الملك : الآيـــة ٣ ، ٤ .

(٣) – سورة النحل : الآيـــة ٤٨ .

(٤) – سورة البقرة : الآيـــة ١٦٤ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] .

لذا فإنه لا يسع أهل العلم إلاّ أن يخروا ساجدين ، قائلين :

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[2]

أما ما يتعلق بتسمية " المعارف المادية " أو " العلوم المادية " علماً ، فلا إشكال في ذلك – في رأي الباحث – ، فالعلم الذي شرف الله به آدم وفضله به على الملائكة هو " أسماء الأشياء كلها ، ذواتها وصفاتها وأفعالها "[3]، وقيل : " هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس ؛ إنسان ودابة وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم غيرها "[4].

فيزول الالتباس بهذا الكلام عن التسمية ، إذن ليس العلم من دواعي الكبر وإنما الآراء والفلسفات التي تُخلط مع العلم والتي لا تستند إلى دليل وبرهان بل يخترعها مخترع على أساس الفرضيات والظنون الكاذبة والمعتقدات الضالة هي التي تجعل متلقي هذا العلم لا يصل به إلى الحق ولا يسترشد به إلى الهدى ، ولا يتولد فيه التواضع بل يغتر به فيتكبر على من دونه في العلم ، فالعلم إذا لم يتجرد من أراء فاسدة وفلسفات كاذبة ومعتقدات ضالة ضل الطريق وأضل المتلقين.

---

(١) – سورة الرحمن : الآيــة ٥ – ٢٥ .

(٢) – سورة آل عمران : من الآيــة ١٩١ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ١١٥ .

(٤) – المرجع نفسه : ص١١٤ .

الثاني : أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ، رديء النفس ، سيء الأخلاق ، فإنه إذا خاض في العلم – أي علم كان – صادف العلم من قلبه منــزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره ، و لم يظهر في الخير أثره ، فالعلم كالغيث ينــزل من السماء حلواً صافياً ، فتشربه الأشجار بعروقها ، فتحوله على قدر طعومها ، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة ، كذلك العلم يحفظه الرجال فيحولونه على قدر هممهم وأهوائهم ، فيزيد المتكبر تكبراً ، والمتواضع تواضعاً ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً ، وإذ كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً عَلِمَ أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقا وذلا وتواضعا[1] .

(٤) – **الغفلة عن الآثار المترتبة على الكبر** :

إن من القواعد المعروفة والمتعلقة بالسنن الكونية أن من يغفل عن الآثار الضارة لأمر من الأمور ، أو آفة من الآفات فإنه يصاب بها ، وتتمكن تلك الآثار الضارة من نفسه ؛ وذلك لأنه من تقدير الله ﷻ ، لا يغيره إلاّ مشيئته سبحانه ، ولذا فالغفلة عن الآثار الضارة والعواقب المهلكة التي تترتب نتيجة التكبر على الحق وأهله سبب مهم من أسبابه .

(٥) – **الثراء المالي** :

إن المال والبنين من نعم الله العظيمة على الإنسان إذ هي زينة حياته ، وفرحة قلبه ، وفيها راحة باله ، وحل مشاكله ومعاناته – بإذن الله تعالى – ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[2] ، ولذا فينبغي للإنسان أن يشكر ربه ولا يكفر به ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[3] .

ولكن الثراء المالي يصبح – غالباً – مصيــبة كبيرةً وبلاءً عظيماً حيث يجعل صاحبه يتعظَّم على الأنبــياء والدعاة ويمتنع عن قبول الحق يعانده فيكون من الخاسرين ، قال الله تعالى : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم

---

(١) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٢ / ٤٣٠ .

(٢) – سورة الكهف : من الآيــة ٤٦ .

(٣) – سورة النحل : الآيــة ٧٢ .

بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [1] ، فهؤلاء أهل النفاق والكفر الذين أعطوا كثرة الأموال والأولاد ، استمتعوا بما قدر لهم من ملاذ الدنيا وخاضوا في المنكر والباطل كسلفهم الذين سبقوهم إلى الكفر والنفاق ، فأصبحوا ممن بطلت أعمالهم فلم تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة ، وكانوا من الخاسرين ، فهؤلاء كلهم سواء في الحال والمال والعاقبة الوخيمة[2].

وقال سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾[1] ، فالإنسان الذي منّ الله ﷻ عليه بالغنى وسعة الرزق ، إذا رأى نفسه غنياً ، طغى وبغى ، وتكبر على الحق وتجبر عن الهدى ، ونسي أن لربه الرجعى ، فهذا فرعون الذي جعله ملكُه ومالُه أن تكبر وطغى قال لنبي الله موسى – عليه السلام – ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[2].

أي : نادى فرعون في قومه مستعلياً بباطله ، وقد غره ملكه ، وأطغاه ماله وجنوده : ألست المالك لهذا الملك ؟ ألست المتصرف فيه ؟ ألا ترون هذا الملك الطويل العريض ؟ ألا ترون هذه الأنهار تجري تحتي ؛ يقصد الأنهار المنسحبة من النيل ، الجارية من وسط قصوره والبساتين .

ولم يتكبر على ما تكبر إلاّ لجهله البليغ حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته ، ولم يفخر بأوصاف حميدة ، ولا أفعال سديدة ، ولم يكتف بهذا بل تجاوز الحد فقال :

﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[3] ، يعني المتكبر فرعون – قبحه الله – بالمهين نبي الله موسى بن عمران – عليه السلام – ، أي أنا العزيز ، وهو الذليل المهان المحتقر فأينا خير؟ وإضافة إلى هذا ، إنه لا يكاد يـبين عما في ضميره بالكلام ، لأنه ليس بفصيح اللسان .

ثم استمر فرعون في تكبره وطغيانه بماله فقال :

---

(١) – سورة التوبة : الآية ٦٩ .

(٢) – تيسير الكريم الرحمن : للشيخ السعدي ، ص٣٠٣ .

(١) – سورة العلق : الآية ٦ – ٨ .

(٢) – سورة الزخرف : الآية ٥١ .

(٣) – سورة الزخرف : الآية ٥٢ .

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾[1] ، أي : فهلاّ كان موسى مزيناً مجملاً بالحلي والأساور ؟ ! ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ يعاونونه على دعوته ويؤيدونه على قوله ! وكانت النـــتيجة :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾[2] ، أي : استخف فرعون عقول قومه بما أبدى لهم من هذه الشبه التي سلف ذكرها آنفاً ، والتي لا حقيقة لها ، وليست دليلاً على حق ولا باطل ، ولا تروج أمثالها إلاّ على ضعفاء العقول .

فأي دليل يدل على أن فرعون محق ، في كون ملك مصر له ، وأنهارها تجري من تحته ؟! وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى – عليه السلام – ، لقلة أتباعه ، وثقل لسانه ، وعدم تحلية أمه له بأساور من ذهب ؟ ![1] .

وفيما سبق من الحديث فائدة عظيمة للدعاة، وهي أن يترفعوا ويزهدوا عما بأيدي المدعويـــين الأغنياء من مال وثروة ليكون ذلك أدعى لاستجابتهم للدعـــوة، فقد كان من سيرة أنبياء – عليهم الصلاة والسلام – أن كلاً منهم كان يقول لقومــــه: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾[2] .

المسألة السادسة : علاج التكبر:

التكبر داء خطير ، تصل جذوره إلى عمق النفس ومن ثم فيصعب على صاحبه إقلاعه عن نفسه وتطهيرها عنه والشفاء منه ، وذلك لوجود دواعي التكبر وعوامله معه على الدوام ، والتي تدفعه نحو التكبر والتعالي على الغير لاسيما من يخالفه في رأيه أو مذهبه أو عقيدته ، أو من يخطئه في أي أمر من الأمور .

ويأتي فيما يلي بعض الأسباب والوسائل المعينة – بإذن الله – لعلاج النفس من التكبر وتطهيرها عنه :

---

(١) – سورة الزخرف : من الآيـــة ٥٣ .

(٢) – سورة الزخرف : من الآيـــة ٥٤ .

(١) – تيسير الكريم الرحمن : للشيخ السعدي ، ص٧١٣ .

(٢) – سورة الشعراء : من الآيـــة ١٠٩ .

(١) – تفهيم المتكبر بحقيقة العوامل التي تسبب في إيجاد هذا الداء في نفسه ، ومن أهمها – مثلاً – القوة والسلطة ، والظن بدوام النعم ، والثراء المالي ، والتأكيد على أن الدنيا فانية لا بقاء لها ، ونعيمها زائلة لا دوام لها .

(٢) – تذكير المتكبر بالعواقب والآثار التي تترتب عليه بسبب التكبر ، وإعلامه بما قد ترتب على المتكبرين من قبل من عواقب وخيمة وآثار مهلكة ، سواء أكانت متعلقة بحياتهم الدنيوية أو الأخروية على النحو الذي سلف الحديث عنه آنفاً في المبحث السابق ، فلعل هذا التذكير يحرك نفسه ، ويحملها إلى أن يستمع إلى الحق ويستجيب لداعي الله قبل ضياع العمر وفوات الأوان .

(٣) – حث المدعو على الابتعاد عن مجالسة المتكبرين وأهل الثروة والمال ، وترغيبهم في مجالسة العلماء وصحبة الصالحين الزاهدين .

(٤) – تبصير المدعو المتكبر بحقيقة نفسه ، وإقناعه بالحجة والبرهان من النقل والعقل بأن التكبر لا يليق إلاّ بالله ﷻ إذ هو المالك الحقيقي للكون وما فيه ، وما أعطي الإنسان من النعم فهو بفضله وكرمه ، فهو المعطي وهو المانع ، لا مانع لمن أعطاه وتفضل عليه ، ولا معطي لمن منعه وحرمه عليه " فهو الغني الذي غناه من لوازم ذاته ، وكل ما سواه فقير إليه بذاته ، وعبيده مقهورون بقهره ، وتحت مشيئته "[1] ، فلعل هذا التذكير والتفهيم يولّد في نفس المدعو حب الله ﷻ وإجلاله وخشيته ، والطمع فيما عنده من نعم الدنيا والآخرة ، والخوف من ناره وعقابه إن تكبر و لم يمتثل أوامره ، و لم يجتنب نواهيه .

(٥) – تذكير المدعو المتكبر بأن السعادة والراحة ، والنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة إنما هو في اتباع المشروع ، لا في اتباع أهواء النفس وشهواتها ، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3] .

---

(١) – منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله : د . أحمد بن عبد العزيز الخلف ، ص٦٧٤ .

(٢)– سورة طـه : الآيـة ١٢٣ .

(٣) – سورة البقرة : الآيـة ٣٨ .

الدافع الرابع : الجهل

المسألة الأولى : مفهوم الجهل:

الجهل في اللغة :

- الجهل ضد العلم ، وهو من باب فَهِم وسلِم .
- وتجاهل : أرى من نفسه ذلك وليس به .
- واستَجْهَلَه : عدَّه جاهلا واستَخَفَّه أيضاً .
- والتجهيل : النسبة إلى الجهل[1].

وفي الاصطلاح :

يقول الإمام الجرجاني :

الجَهْلُ : في اصطلاح أهل الكلام : اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه ، واعترضوا عليه بأن الجهل قد يكون بالمعدوم وليس شيئاً والجواب عنه إنه شيء في الذهن .

والجهل البسيط : عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالماً .

والجهل المركب : عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع [1] .

المسألة الثانية : حقيقة الجهل وضرره:

إن الجهل سبب رئيس من أسباب إثارة الشبهات حول الدعوة والدعاة ، وذلك لأنه منشأ الكفر والسيئات ، قال تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾[2] .

يقرر الإمام ابن كثير – رحمه الله – في ضوء هذه الآية أن سبب شرك المشركين بالله إنما هو الجهل وعدم العلم بالحق حيث يقول في تفسيره للآية : " القرآن والكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون – أي قولهم بالشرك واتخاذهم آلهة من دون الله – ، فكل كتاب

---

(١) – مختار الصحاح : الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، مادة " جهل " ، ص١١٥ .

(١) – التعريفات : العلامة علي بن محمد الجرجاني ، باب الجيم ، ص٩٣ .

(٢) – سورة الأنبياء : الآيــة ٢٤ .

أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلاّ الله ، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون ''[1].

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي[2] في تفسير هذه الآيـــة : '' قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم ، أي : ما قاله لهم النبي – ﷺ – من إبطال الشرك ، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء ، بأدلته العقلية والنقلية ، وهذه الكتب السابقة كلها براهين وأدلة لما قلت .

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان القاطع ، يجزم أنه لا معارض له ، وإلاّ لم يكن قطعياً ، وإن وجد معارضات ، فإنها شُبَهٌ لا تغني من الحق شيئا ''[1].

ويقول أيضاً بأن ما أقاموا على ما هم عليه من الكفر والشرك ، فإنما هو تقليد لأسلافهم بغير علم ولا هدى[2] .

ويقول الإمام الرازي[3] مفسراً الآية المذكورة : '' إن وقوعهم – أي المشركين – في هذا المذهب الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه ، بل ذلك لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ، ثم ترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه ''[4] .

ويقرر الإمام ابن تيمية – رحمه الله – أيضاً بأن الجهل منشأ السيئات حيث يقول : ''... وأما السيئات فمنشؤها الجهل والظلم فإن أحدا لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٨٤٢ .

(٢) — هو : أبو عبد الله ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي ، من قبيلة تميم ، ولد في عنيزة في القصـــيم سنة ١٣٠٧هـــ ، وعاش يتيما ، حفظ القرآن ، وتعلم على شيوخ بلده ، ثم جلس للتدريس وعمره ٢٣سنة ، أخـــذ العلـــم عن الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر ، ومحمد بن عبد الكريم الشبل ، من مصنفاتـــه كتابـــه في التفسير ، والقواعد الحسان لتفسير القرآن ، توفي سنة ١٣٧٦هـــ ، انظر : مشاهير علماء نجد : ص٣٩٢ ، وترجمته بخط أحد تلاميذه في مقدمة تفســـير السعدي : ص٥ .

(١) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٤٧٠ .

(٢) — المرجع السابق : ص٤٧٠ .

(٣) — هو : محمد بن عمر بن الحسن الحسين التميمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي يقال له ابن خطيب الري ولد في الري سنة (٥٤٤هـــ) من كتبه '' مفاتيح الغيب '' تفسير القرآن الكريم (٨) مجلدات و '' معالم أصول الدين '' و '' أساس التقديس'' وغيرها ، توفي في هراه سنة ٦٠٦هـــ ، انظـــر : البدايـــــة والنهايـــة : ١٣/ ٥٣ ، ٥٤ ، والأعـــلام : ٦ / ٣١٣.

(٤) – التفسير الكبير : الإمام الرازي ، ٢٢ / ١٥٨ .

قبيحة ، أو لهواه وميل نفسه إليها ، ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجوبها أو لبغض نفسه لها .

وفي الحقيقة ، فالسيئات كلها ترجع إلى الجهل ، وإلا فلو كان عالما علما نافعا بأن فعل هذا يضره ضررا راجحا لم يفعله ؛ فإن هذا خاصية العاقل ، ولهذا إذا كان من السيئات ما يعلم أنه يضره ضررا راجحا كالسقوط من مكان عال ، أو في نهر يغرقه ، أو المرور بجنب حائط مائل، أو دخول نار متأججة ، أو رمي ماله في البحر ونحو ذلك لم يفعله ؛ لعلمه بأن هذا ضرر لا منفعة فيه ، ومن لم يعلم أن هذا يضره كالصبي والمجنون والساهي والغافل فقد يفعل ذلك .

ومن أقدم على ما يضره مع علمه من الضرر عليه ، فلظنه أن منفعته راجحة ، فإما أن يجزم بضرر مرجوح ، أو يظن أن الخير راجح ؛ فلا بد من رجحان الخير ، إما في الظن ، وإما في المظنون ،كالذي يركب البحر ويسافر الأسفار البعيدة للربح ؛ فإنه لو جزم بأنه يغرق أو يخسر لما سافر ، لكنه يترجح عنده السلامة والربح وإن كان مخطئا في هذا الظن.

وكذلك الذنوب ، إذا جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع لم يسرق ، وكذلك الزاني، إذا جزم بأنه يرجم لم يزن ، والشارب يختلف حاله فقد يقدم على جلد أربعين وثمانين ، ويديم الشرب مع ذلك ؛ ولهذا كان الصحيح أن عقوبة الشارب غير محدودة ، بل يجوز أن تنتهي إلى القتل إذا لم ينته إلا بذلك كما جاءت بذلك الأحاديث كما هو مذكور في غير هذا الموضع .

وكذلك العقوبات ، متى جزم طالب الذنب بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله ، بل إما أن لا يكون جازما بتحريمه ، أو يكون غير جازم بعقوبته ، بل يرجو العفو بحسنات ، أو توبة ، أو بعفو الله ، أو يغفل عن هذا كله ، ولا يستحضر تحريما ، ولا وعيدا ؛ فيبقى غافلا غير مستحضر للتحريم ، والغفلة من أضداد العلم ''[1].

ويقول في موضع آخر : '' ... والهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل ، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعا أن ذلك يضره ضررا راجحا انصرفت نفسه عنه بالطبع ؛ فان الله تعالى جعل في النفس حبا لما ينفعها وبغضا لما يضرها ؛ فلا تفعل ما تجزم بأنه يضرها ضررا

---

(١) – الحسنة والسيئة : الإمام ابن تيمية ، دراسة وتحقيق وتعليق : محمد عثمان الخشت ، ص٧٠ ، ٧١ ، ط١ ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

راجحا ، بل متى فعلته كان لضعف العقل ، ولهذا يوصف هذا بأنه عاقل ، وذو نهى[1] وذو حجى ، ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من مجرد النفس ؛ فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ويذكر لها ما فيها من المحاسن التي هي منافع لا مضار كما فعل إبليس بآدم وحواء فقال – كما يخبرنا القرآن الكريم – :

﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ﴾[2].

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَـٰلِدِينَ ﴾[3] .

لهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾[2] .

وقال جلّ شأنه : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[3] .

وقال ﷻ : ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ﴾[4] ، هو بتوسيط تزيـــين الملائكة والأنبياء والمؤمنين للخير ، وتزيـــين شياطين الجن والإنس للشر ... قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَـٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ ﴾[5] .

وقال ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾[6]

فأصل ما يوقع الناس في السيئات : الجهل ، وعدم العلم بكونها تضرهم ضرراً راجحاً ؛ أو ظن أنها تنفعهم نفعاً راجحاً . ولهذا قال الصحابة – رضي الله عنهم – : " كل من عصى الله ، فهو

---

(١) – نهى : هي العقول ؛ لأنها تَنهَى عن القبيح .

(٢) – سورة طه : الآيـــة ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) – سورة الأعراف : من الآيـــة ٢٠ .

(١) – سورة الزخرف : الآيـــة ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) – سورة فاطر : الآيـــة ٦ .

(٣) – سورة الأنعام : الآيـــة ١٠٨ .

(٤) – سورة الأنعام : من الآيـــة ١٠٨

(٥) – سورة الأنعام : الآيـــة ١٣٧ .

(٦) – سورة فاطر : من الآيـــة ٢٨ .

جاهل''، وفسروا بذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[1] .

وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

ولهذا يسمى حال فعل السيئات '' الجاهلية '' فإنه يصاحبها حال من حال جاهلية .

قال أبو العالية[1] : سألت أصحاب محمد – ﷺ – عن هذه الآيـــة : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[2] ، فقالوا '' كل من عصى الله ، فهو جاهل ، ومن تاب قبيل الموت ، فقد تاب من قريب '' .

وعن قتادة[3] : قال أجمع أصحاب محمد – ﷺ – على أن كل من عصى ربه فهو في جهالة ، عمدا كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل ، وكذلك قال التابعون ومن بعدهم .

قال مجاهد[4] : من عمل ذنباً ، من شيخ ، أو شاب ، فهو بجهالة .

وقال : من عصى ربه فهو جاهل ، حتى ينـــزع عن معصيته .

وقال أيضاً : من عمل سوءاً خطأً ، أو إثما عمداً ؛ فهو جاهل ، حتى ينـــزع منه ''[5] .

---

(١) – سورة النساء : الآيـــة ١٧ .

(٢) – سورة الأنعام : الآيـــة ٥٤ .

(١) – أبو العالية الرياحي رُفيع بن مهران ، البصري : فقيه ، مقرئ . رأى أبا بكر ، وقرأ القرآن على أبي وغيره . وسمع من عمر وابن مسعود وعلي وعائشة وطائفة . قال أبو بكر بن أبي داود : ليس أحد أعلم بالقرآن بعد الصحابـــة من أبي العالية ثم سعيد بن جبير . وثقه أبو زرعة وأبو حاتم وغيرهما . مات سنة تسعين ، والأصح سنة ثلاث وتسعين رحمـــه الله تعـــالى ، انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ١ / ٦١ .

(٢) – سورة النساء : الآيـــة ١٧ .

(٣) – ولد أبو الخطاب قتادة بن دعامـــة بن قتادة السدوسي سنة ٦٠هـــ . وكان مفسراً ، وفـــقيهاً ، وعالمـــاً بالشـــعر ، والأنساب ، وتاريخ الجاهلية . كان تابعياً ، وروى عن الصحابي أنس بن مالك ، وعن كثير من كبار التابعين ومنهم الحسن البصري . وتوفي سنة ١١٨هـــ ، انظر : الطبقات لابن سعد : ٧ / ٢٢٩ – ٢٣١ ، (بيـــروت) .

(٤) – ولد أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي في مكة حوالي سنة ٢١هـــ . وكان أحد تلاميذ ابن عباس القريبين منه . درس مجاهد أيضاً على علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وعبد الله بن عمر ، انظر : الطبقات لابن سعد ٤ / ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

(٥) – الحسنة والسيئة : الإمام ابن تيمية ، ص٧٠-٧٤ ، و مجموع فتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٢٩١/١٤.

وقال أيضاً – رحمه الله – بأن مما يـــبين ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[1] ، وكل من خشيه وأطاعه وترك معصيته فهو عالم كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2] ، وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا [3] .

وبيّن الإمام ابن القيم – رحمه الله – أن الذي يوقع الناس في الشرك والبدع والفتن هو أمران ؛ الشبهات والشهوات ، وقد يجتمع هذان الأمران في العبد ، وقد ينفرد العبد بأحدهما .

والأول أعظم من الثاني ، وسببه ضعف البصيرة وقلة العلم ولاسيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى ، فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلاله ، فهو من الذين قال الله فيهم : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ ﴾[1] ، وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهي فتنة أهل البدع على حسب مراتبهم[2] ، ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في كل شيء ، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء ، وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد ، وهو متبع .

وأما النوع الثاني فهو الشهوات ، وقد جمع سبحانه بين ذكر النوعين في قوله : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ ﴾[3] ، أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها ، والخلاق هو النصيب المقدر ، فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات .

---

(١) – سورة فاطر : من الآيــة ٢٨ .

(٢) – سورة الزمر : من الآيــة : ٩

(٣) – الحسنة والسيئة : الإمام ابن تيمية ، ص٧٥

(١) – سورة النجم : من الآيــة ٢٣ .

(٢) – ينظر لكلام ابن القيم في مراتب أهل البدع كتابه : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، تحقيق وتعليق : مجدي فتحي السيد ، ص٢٢٣، ط : بدون ، دار الحديث ، القاهرة .

(٣) – سورة التوبة : من الآيــة ٦٩ .

فأشار الله سبحانه إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق ، والخوض بالباطل لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به ، أو العمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها وهو فساد من جهة الشبهات .

والثاني : فسق الأعمال وهو من جهة الشهوات[1] .

وأسباب الشبهات كثيرة ، ومنها الجهل : أي " الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله ، بل جميع الرسل : من تحقيق التوحيد ، وقطع أسباب الشرك ، فقل نصيبهم جداً من ذلك ، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة ، و لم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته ، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل ، وعصموا بقدر ما معهم من العلم "[1].

---

(١) – منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى : د . أحمد بن عبد العزيز الخلف ، ص٦٧١ ، ٦٧٢ .

(١) – إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان : ابن قيم الجوزيـة ، تحقيق وتعليق : مجدي فتحي السيد ، ص٢٢٠ .

الدافع الخامس : أحاديث مكذوبة مختلقة:

تعد الأحاديث المكذوبة من أسباب الشبهات الرئيسة التي أوقعت كثيراً من المسلمين في فتنة البدع والضلال والشرك .

وتحدث الأئمة والعلماء كثيراً عن الآثار السيئة للأحاديث الموضوعة وأضرارها على الأمة الإسلامية ، منهم – مثلاً – الإمام ابن القيم ، تحدث – رحمه الله – كثيرا في مؤلفاته في هذا الموضوع ، وذكر آثاراً ضارة كثيرة نتجت عن الأحاديث المكذوبة على الأمة ، وعدّها من الأسباب الرئيسة التي أوقعت عباد القبور في الافتـــتان بها مع العلم بأن ساكنيها أموات لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً حيث قال : " أوقعتهم في ذلك أمور : ... ومنها : أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عباد الأصنام من القبوريين على رسول الله – ﷺ – تناقض دينه وما جاء به ، كحديث " إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور". وحديث : " لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه " ، وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام ، وضعها المشركون ، وراجت على أشباههم من الجهال الضلال ، والله بعث رسوله بقتل من حسن ظنه بالأحجار "[1] .

وهذه الأحاديث – مع الأسف الشديد – كثيرة جداً بحيث تُعد المئات بل الألوف ! كيف وقد وضع رجل واحد من الزنادقة نحو أربعة آلاف حديث ! ووضع ثلاثة من المعروفين بالوضع أكثر من عشرة آلاف حديث ! فماذا نقول في الأحاديث الأخرى التي وضعها أناس آخرون لغايات مختلفة وأغراض متباينة ، منها السياسية ، ومنها العصبية الجنسية ، والمذهبية ، ومنها التقرب إلى الله تعالى بزعمهم ! ومنها الخطأ دون القصد من بعض المغفَّلين من الصوفية ، ومن ضعفاء الحفظ ، ومن لا عناية لهم بالحديث وضبطه ! وهي منـــتشرة في كتب الفقه والتفسير ولاسيما في كتب الوعظ والترغيب والترهيب وغيرها .

ولكن الله تبارك وتعالى سخَّر لهذه الأحاديث طائفة من الأئمة بيَّنوا ضعفها وكشفوا عوارها وأوضحوا وضعها ، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً على هذه الجهود العظيمة الجبارة إذ تبين بها حال أكثر الأحاديث من صحة أو ضعف أو وضع ، وقد أصّلوا – رحمهم الله – أصولاً متينة ، وقعّدوا قواعد رصينة ، مَن أتقنها وتضلع بمعرفتها أمكنه أن يعلم درجة أي حديث ولو لم ينصوا عليه ، وذلك هو علم أصول الحديث أو مصطلح الحديث .

---

(١) – المرجع السابق ، ص٢٢٠ .

وألف المتأخرون منهم كتبا خاصة للكشف عن الأحاديث وبيان حالها ، مثل كتاب "المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة " للحافظ السخاوي ؛ وهو أشهرها وأوسعها ، وكتاب : " نصب الراية لأحاديث الهدايـــة " للحافظ الزيلعي ، و" المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار " للحافظ العراقي ، وكتاب "تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير" للحافظ ابن حجر العسقلاني ، و" تخريج أحاديث الكشاف " له ، و" تخريج أحاديث الشفاء " للشيخ السيوطي ، وكلها مطبوعة[1] - ولله الحمد - .

(١) – سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة : محمد ناصر الدين الألباني ، ص٦ ، ١٠ ، ط٤، ١٣٩٨هـــ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، (بتصرف يسير) .

الدافع السادس : الحكايات الكاذبة عن القبور:

إن الحكايات التي يحكيها القبوريون عن بعض القبور منشأ فتـــنة الشبهات حول أحقية التوحيد وصحة الشريعة التي جاء به النبي – ﷺ – ، والحكايات كثيرة ومختلفة ، منها – مثلا–: أنّ فلاناً استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها ، وفلانا دعاه أو دعا به في حاجة، فقضيت له ، وفلاناً نزل به ضر فرجا صاحب ذلك القبر ، فكشف ضره ، وعند السدنة والقبوريين من ذلك شيء كثير يطول ذكره ، وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات ، والنفوس مولعة بقضاء حوائجها ، وإزالة ضررها ، ويسمع بأن قبر فلان ترياق مجرب ، والشيطان له تلطف في الدعوة ، فيدعوهم أولا إلى الدعاء عنده ، فيدعو العبد عنده بحرقة وانكسار وذلة فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه ، لا لأجل القبر ، فإنه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه ، فيظن الجاهل إن للقبر تأثيراً في إجابة تلك الدعوة ، والله ﷻ يجيب دعوة المضطر ، ولو كان كافراً ، وقد قال تعالى : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾(١) ، ولما دعا الخليل ربه : ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأَخِرِ﴾(٢) فقال ﷻ : ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلاً ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾(٣) .

فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضياً عنه ، ولا محباً له ، ولا راضياً بفعله ، فإنه يجيب البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، وكثير من الناس يدعو دعاء يعتدي فيه ، أو يشترط في دعائه ، أو يكون مما لا يجوز أن يسأل ، فيحصل له ذلك أو بعضه ، فيظن أن عمله صالح مرضي لله ، ويكون بمنـــزلة من أملي له وأمد بالمال والبنين ، وهو يظن أن الله تعالى يسارع له في الخيرات ، وقد قال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَىۡءٍ﴾(٤) .

---

(١) – سورة الإسراء : الآيـــة ٢٠ .

(٢) – سورة البقرة : من الآيـــة ١٢٦ .

(٣) – سورة البقرة : من الآيـــة ١٢٦ .

(٤) – سورة الأنعام : من الآيـــة ٤٤ ، وانظر : إغاثة اللهفان : الإمام ابن القيم ، ص٢٢١ .

الدافع السابع : **البيئة الفاسدة**

المسألة الأولى : **تعريف البيئة** :

تأتي كلمة " البيئة " بمعنى المنـــزل ، والحال .

ويقال : بيئة طبيعية ، وبيئة اجتماعية ، وبيئة سياسية[1] .

وتأتي بمعنى : منـــزل القوم .

واستباءه : أي اتخذه مباءةً .

وتَبَوَّأْتُ منـــزلاً : أي نَزَلْتُه ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ ﴾[2] ، جعل الإيمان محلا لهم على المَثَل ، وقد يكون أراد : وتَـــبَوَّءوا مكان الإيمان وبلد الإيمان، أي: تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان، فحذف المضاف من الثاني والمضاف إليه من الأول وعوض عنه اللام[3].

وتبوأ المكان : حله .

وإنه لحسن البيئة : أي هيئة التبوء .

والبيئة ، والباءة ، والمباءة : المنـــزل .

وفي الحديث : "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[4]، وتكررت هذه اللفظة في الحديث ، ومعناها لينـــزل منـــزله من النار ، يقال بوأه الله منـــزلاً أي أسكنه إيـــاه[5] .

أما " البيئة " في علم الاجتماع فهي : العوامل التي يتعامل معها الفرد ، وهذا يشمل جميع المواقف أو المثيرات التي يستجيب لها الإنسان .

وزاد بعض علماء الاجتماع بأن البيئة تعني جميع ما يحيط بالفرد من مواقف مادية أو بشرية أو معنوية[6] . فالبيئة لا تعني المكان وحده ، وإنما هي المكان والإنسان والأفكار والعادات ، هذه كلها في مجموعها تكون البيئة[7].

---

(١) – المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، مادة : ب و أ ، ص٧٥ .

(٢) – سورة الحشر : من الآيـــة ٩

(٣) – تفسير البيضاوي : الإمام البيضاوي ، ص٣٢٠ .

(٤) – صحيح البخاري : كتاب العلم ، باب : إثم من كذب على النبي ﷺ ، ص٤٦ ، رقم الحديث : ١١٠ .

(٥) – لسان العرب : ابن المنظور الأفريقي ، مادة " بوأ " ١ / ٣٩ .

(٦) – السلوك الإنساني ، تحليل وقياس المتغيرات : د . سعد عبد الـــرحمن ، ص٤٦٥ ، ط : بـــدون ، مكتبـــة الفـــلاح ، والسلوك الإنساني : د . انتصار يونس ، ص ٦ ، ط : ١٩٨٦ م ، مكتبة دار المعارف .

(٧) – المجتمع الرباني : محمد إبراهيم شقره ، ص٦٩ ، ط٢ ، ١٤١٠هـــ ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، الأردن .

فيمكن القول مستخلصا مما سبق ذكره من معاني البيئة أن المقصود منها في هذه الدراسة هو : المؤثرات والعوامل الموجودة في المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان ، والتي تؤثـــر في فكره وسلوكه وتصرفه ، وهي قد تـــتشابه أو تختلف أو تزيد أو تنقص من مجتمع إلى مجتمع .

المسألة الثانية : أثر البيئة :

تعد البيئة من أهم وأخطر دوافع التأثير في فكر الإنسان وسلوكه وتصرفه سلباً أو إيجاباً ، إيجاباً إن كانت البيئة صالحة ، وسلباً إن كانت فاسدة ، أو إيجاباً وسلباً معاً بقدر المؤثرات والعوامل الصالحة والفاسدة الموجودة في المجتمع ، وعلة تأثر الإنسان بالبيئة هي كون الإنسان كائناً اجتماعياً بطبعه إذ هو مفطور على ذلك منذ أن أعطاه الله خلقه ، حيث أنشأ الناس من آبائهم وأمهاتهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾[(١)] ، وجعل بين الأزواج ثم بين الأبناء والآباء الأنس والسكن والمودة والرحمة ، فكانت هذه أهم أسباب في اجتماع الإنسان وعدم انعزاليته ، قال تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(٢)] ، ولذا ، فالإنسان يتوارث الدافع الاجتماعي من آبائه وأجداده للأسباب التي سبق ذكرها آنفاً ، إضافة إلى ما يجده في الاجتماع من الشعور بالأمن ، والتعبير عما في نفسه ، وتحقيق مصالحه وحاجاته .

ونظراً لما للبيئة من قوة التأثير في تربية الإنسان وصناعته فكرياً ونفسياً وسلوكياً ، فقد اهتم الإسلام وعلماؤه ودعاته اهتماماً بالغاً في إيجاد وتوفير البيئة الصالحة من خلال تكوين المجتمع المسلم الصالح الخالي من شوائب الكفر والضلال ، ومن ظلمة الأفكار الباطلة والفلسفات المنحرفة ، ومن الإباحية والانحلال الخلقي ، وذلك من خلال التعليم والتربية ، والدعوة والإصلاح عبر المؤسسات المختلفة ، بدءاً من تكوين الأسر المسلمة على أساس الإيمان والدين والخلق ، فقد حرم الإسلام تكوين الأسرة على أساس الكفر والشرك حيث قال : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ

---

(١) – سورة الحجرات : من الآيـــة ١٣ .

(٢) – سورة الروم : الآيـــة ٢١ .

بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[١] ، وقال النبي – ﷺ – " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ......"[٢] ، وقال أيضاً – ﷺ – : " تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك "[٣] .

فلم يكن هذا الحكم وتوجيه النبي – ﷺ – واهتمامه في بناء الأسرة إلاّ لأهميتها وقوة تأثيرها في صياغة الإنسان وتطبيعه ؛ فهي أول بيئة ينشأ فيها الإنسان ويترعرع ، وأول مدرسة يتعلم فيها ويتربى ، فلها من قوة التأثير والمؤثرات ما يجعل فطرة الإنسان تتأثر به أو تتغير وتتكون من جديد ، يشير النبي – ﷺ – إلى هذا المعنى في قوله – عليه السلام – : " ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟"[٤].

وهذه الأسرة هي النواة الأولى للمجتمع ، وأهم مقوماته ، وأول عناصر تكوينه ، مكانها في المجتمع مقام القلب في الجسم ، إذا صلحت صلح المجتمع كله ، وإذا فسدت فسد المجتمع كله، وإضافة إلى الأسرة ، فقد اهتم الإسلام بالمجتمع أيضاً اهتماماً كبيراً ، ففي الشريعة ما يخص الفرد والأسرة ، وما يخص المجتمع والدولة ، فالتعزيرات والحدود إنما شرعت لإعطاء كل ذي حق حقه ، وإقامة العدل بين الناس ، وتوفير البيئة الصالحة الخالية من الظلم والجرائم لهم ، هذا إضافة إلى التوجيهات والتعليمات الربانية ؛ التشريعية والأخلاقية ، التي جاءت من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، الكفيلة – بإذن الله – لبناء مجتمع مسلم يعيش في بيئة صالحة نقية، وهي كثيرة وشاملة لجميع جوانب الحياة ، فمنها – مثلاً – :

(١) قوله الله تعالى : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[٥] .

---

(١) – سورة البقرة : الآية ٢٢١ .

(٢) – جامع الترمذي : كتاب النكاح ، باب : ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه ، ص١٩٢ ، رقم الحديث : ١٠٨٥ .

(٣) – متفق عليه ، صحيح البخاري : كتاب النكاح ، باب : تزويج المعسر ، ص١٠٠٩ ، رقم الحديث : ٥٠٩٠ ، (وأخرجه مسلم : رقم الحديث : ١٤٦٦) .

(٤) – صحيح مسلم : كتاب القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ، ص١٠٦٦، رقم الحديث : ٢٦٥٨ .

(٥) – سورة التوبة : من الآية ٧١ .

(٢) وقوله سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[١] .

(٣) وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٢] .

(٤) وقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٣] .

(٥) وقوله جلّ شأنه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[٤] .

(٦) وقوله ﷻ : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾[٥] .

---

(١) – سورة المائدة : من الآيـــة ٢ .

(٢) – سورة البقرة : الآيـــة ٢٧٧ – ٢٨١ .

(٣) – سورة آل عمران : الآيـــة ١٣٠ .

(٤) – سورة النساء : الآيـــة ٢٩ .

(٥) – سورة الرعد : الآيـــة ٣٢ – ٣٥ .

(٧) وقوله سبحانه : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(١) .

(٨) وقوله جلّ شأنه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾(٢) .

(٩) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٣) .

أما التوجيهات النبوية التي تضمن للإنسان بيئة صالحة ومجتمعاً طيباً فهي أيضاً كثيرة ، أذكر بعضاً منها على سبيل المثال :

(١) – عن المنذر ابن جرير عن أبيه – رضي الله عنهما – قال : قال : رسول الله – ﷺ – " من سن في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء "(٤) .

(١) – سورة التوبة : الآية ١٠٥ .

(٢) – سورة المؤمنون : الآية ١ – ١١ .

(٣) – سورة الحجرات : الآية ١٠ – ١٣ .

(٤) – صحيح مسلم : كتاب الزكاة ، باب : الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار ، ص٣٩٢ ، رقم الحديث : ١٠١٧ .

(٢) – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " آية المنافق ثــلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان "[١] .

(٣) – وعن جابر – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " اتقوا الظلم ، فــإن الظلــم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم علــى أن ســفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم "[٢].

(٤) – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من نفس عن مــؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ، ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله له بــه طريقــاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلاّ نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطّأ بــه عَمَله ، لم يسرع به نسبه " [٣].

(٥) – عن أبي ذر – رضي الله عنه – ، قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " يا أبا ذر إذا طبخــت مرقة ، فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك "[٤].

(٦) – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! قيل : ومن يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه "[٥] .

(٧) – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " سبعة يظلهم الله في ظلّه يــوم لا ظلّ إلا ظلُّه : الإمام العادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبــه معلّــق في المســاجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال:

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق ، ص٥٦ ، رقم الحديث : ٥٩ ، (أخرجــه البخــاري : ٣٣ و ٢٧٤٩ و ٢٦٨٢ و ٦٠٩٥) .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم ، ص١٠٤٠ ، رقم الحديث : ٢٥٧٨ .

(٣) – صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرن وعلى الذكر ، ص١٠٨٢ ، رقــم الحديث : ٢٦٩٩ .

(٤) – صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب : الوصية بالجار والإحسان إليه ، ص١٠٥٤ ، رقــم الحــديث : ٢٦٢٥ .

(٥) – صحيح البخاري : كتاب الأدب ، باب : إثم من لا يأمن جاره بوائقه ، ص١١٦٥ ، رقم الحديث : ٦٠١٦ .

إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ، ففاضت عيناه ''[1] .

(٩) – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : '' لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ ، وكونوا عباد الله ! إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ها هنا '' – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – '' بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ''[2] .

هذا ، وقد بذل المسلمون لاسيما العلماء منهم والدعاة ما استطاعوا عليه من الجهود العلمية والدعوية والتربوية والتوعية والإصلاحية ؛ الفردية والجماعية ، لإصلاح المجتمع وتوفير البيئة الصالحة .

وقد تنبه أهل الضلال والمفسدون في الأرض لما للبيئة من تأثيرات قوية في تطبيع الإنسان وتوجيهه عقدياً وفكرياً ونفسياً وسلوكياً ، فوظفوا ما يملكون من الإمكانات الهائلة في خلق بيئات تحقق أهدافهم الرامية إلى صناعة أجيال إسلامية قشيبة يغزونها صناعة وفكرا ويمتطون ظهورها لتحقيق ما يرومونه من قضاء على التدين والالتزام بالشريعة والأخلاق ، ونشر الفساد الفكري والانحلال الأخلاقي .

وقد تنوع هذا الغزو تنوعاً كثيراً ، وابتكرت له صور شتى ، فكان منها ما يلي :

(١) – '' البيئات المؤسسة تأسيساً كاملاً لتحقيق هذا الهدف ، مع تغليفه بأهداف إنسانية نبيلة :

– كالمدارس والمعاهد والجامعات ، ودور الطلبة الصليبية ، أو اليهودية ، أو العلمانية، أو الإلحادية ، التي يؤسسها أعداء الإسلام في بلدان المسلمين ، وأخطرها ما كان منها داخلياً ، إذ يعيش الطالب في بيئتها ليلاً ونهاراً ، فتصنعه على ما رسم له .

– وكملاجئ رعاية اللقطاء ، والمشردين ، ومن لا ولي لهم ولا منفق عليهم من أسرهم .

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الزكاة ، باب : فضل إخفاء الصدقة ، ص٣٩٧ ، رقم الحديث : ١٠٣١ . (أخرجه البخاري : ٦٦ ، ١٤٢٣ ، ٦٤٧٩ ، ٦٨٠٩) .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب : تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ، ص١٠٣٥ ، رقم الحديث : ٢٥٦٤ .

– وكدور رعاية الأيتام ، أو الأرامل والمطلقات ، ودور الرعاية الاجتماعية العامة ، ودور رعاية العجزة .

– وكالنوادي الأدبية والفنية والرياضية ، والمكتبات الخاصة والعامة ، والملاعب والملاهـــي والمسابح ، والفنادق وأشباه ذلك .

– وكالمستشفيات والمستوصفات ودور الرعاية الصحية ، وأشباه ذلك .

(٢) – البيئات المؤسسة تأسيساً كاملاً لتحقيق هذا الهدف في بلدان المسلمين ، دون تغليفه بأي هدف إنساني نبيل .

– كالحانات التي تفسد عقول مرتاديها ، ونفوسهم ، وأخلاقهم ، وأجسادهم .

– وكنوادي القمار التي تفسد النفوس والأفكار ، وتبدّد الأموال والأعمـــار ، وتجّــر إلى الخراب والدّمار .

– وكدور اللهو والرقص والغناء والتمثيل المفسد ، وما يوضع فيها من برامج مليئة بعناصر الشر والإفساد ، وما يوجد فيها من أخلاط تجر إلى مواقع الإثم الفاحش والرذيلة المنكرة .

– وكبيوت الزّنا المأذون به بصفة قانونية .

– وكدور السينما التي تعرض أفلام الفحش والرذيلة ، وأشباه ذلك .

(٣)– إفساد البيئات الإسلامية في الأسواق والمحلات التجارية ، والحدائق ، والمنــتزهات، والمطاعم ، والمقاهي ، والفنادق ، ونحو ذلك ، بتوجيه الشبان والشابّات الأجنبيات أو الوطنيات من النصارى واليهود أو الملاحدة أو الوثنيـــين ، ليختلطوا بأبناء المسلمين وبناهم ، حتى يقتبس هؤلاء عادات أولئك ، وأنماط سلوكهم وحركة أزيائهم المتطورة، وطرائق حياهم ، ومفاهيمهم للوجود والحياة والكون ، واستهانتهم بفضائل الحشمة والعفة ، وعدم التزامهم بالابتعـــاد عـــن المحرمات من مأكولات ومشروبات وشهوات وغيرها .

وتعتمد المخططات اليهودية والصليـــبية على هذه الوسيلة اعتماداً كبيراً لإفســـاد أبنـــاء وبنات المسلمين ، وهذا ما نشاهده في كلّ بلد من بلدان العالم ، وفي فلسطين المحتلة ، من قبـــل اليهود ، نشاط كبير في هذا المجال ، يقوم به فتيان اليهود وفتياهم لإفساد ذراري المسلمين الذين يعيشون بينهم .

(٤) – البيئات الخاصة التي تنشأ عن طريق تبادل الزيارات العائلـــية ، وإقامـــة الحفلات المختلطة ، بين الأسر الإسلامية والأسر غير الإسلامية .

(٥) – المحافل والمجالس العامة وتأثيراتها الجماهيرية الغوغائية ، فالمعروف والثابت علمياً أن أكثر الناس متى ساروا في تيار الجماهير تعطل من تفكيرهم الخاص بمقدار عدد الجماهير ، وبذلك يقعون فريسة قناعات غوغائية ، ثقة منهم بأن الآخرين لا يمكن أن يقبلوا هذه الأفكار وهم مخطئون ، ويكرر كل منهم هذا الخطأ نفسه .

أما الذين يستغلون هذا الشلل الفكري عند الجماهير فهم أفراد معدودون ، قد أعدوا أنفسهم سابقاً لبث أفكار في وسط غوغاء الجماهير ، واستغلال حالتهم تلك لإقناعهم بما يريدون إقناعهم به ، وتوجيههم لما يريدون منهم من قول أو عمل .

(٦) – استدراج أبناء المسلمين وبناتهم إلى بلدان أعداء الإسلام والمسلمين ، بغية غمسهم في بيئات تلك البلدان ، بكل ما فيها من إثم وفجور ، وتقاليد وعادات ، ومفاهيم وعقائد ، وأنماط سلوك فردي أو اجتماعي .

وهذا الاستدراج إما أن يكون للدراسة ، أو للسياحة ، أو للمصالح الاقتصادية التجارية أو الصناعية ، أو غير ذلك .

وحين يذهب شبان المسلمين وشوابُّهم إلى بلدان الكفر ، فإن الكثير منهم يقتبس من مجتمعات تلك البلدان ما يتنافى مع مبادئ دينه وعقائده وأخلاقه وشرائعه ، وذلك بمقتضى تأثيرات البيئة الجديدة التي انغمس فيها هنالك ، ولدى عودته إلى بلاده فإنه يحاول أن ينقل ما اقتبسه في الخارج ، ويغير بموجبه واقع بيئة أهله وذويه ، وجميع من يستطيع التأثير عليهم''[١] .

إذن البيئة سبب مهم ، ووسيلة قوية في هداية الإنسان أو ضلاله ؛ وذلك ببيان الحق والدعوة إليه ، أو بإثارة الشهوة ونشر الشبهات ، ومن ثم فهي عامل مهم في إصلاح المجتمع أو إفساده .

---

(١) – غزو في الصميم : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ص١٥٧ – ١٦٠ ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م ، دار القلم، دمشق ، بيروت .

الدافع الثامن : التأثر بالملأ :

إثارة الشبهات حول الدعوة الإسلامية من قبل بعض الجمهور متأثراً بالملأ يعتبر أيضاً أحد الأسباب المهمة في ذلك ، فمن الوسائل المشهورة التي يستخدمها الملأ من قديم الزمان إلى وقتنا الحاضر لصد الجمهور عن دعوة الحق وتنفيرهم عنها وسيلة الشبهات ، حيث يخلق الملأ الشبهات بأنواع كثيرة ويثيروها مفترين على الدعوة والداعية ، مبدين بأنهم في مقاومتهم ومحاربتهم الدعوة والداعية لا يريدون إلاّ حماية عقيدة الناس ومصالحهم ودفع الضرر والفساد عنهم ، وهذه أيضاً إحدى شبهاتهم بل هي شبهة قوية يتأثر بها كثير من الناس فيقعون فريسة في شبكة شبهاتهم الكثيرة ثم لا يجدون مخرجاً ، قال تعالى عن مثل هذه الشبهة التي في واقعها قديمة ، وفي طبيعتها متجددة في كل زمان : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[2] ، وكان الملأ من كفار مكة يقول مثل قولهم بأن الرسول – ﷺ – يريد إفساد عقيدتهم وتسفيه آلهتهم ، ولهذا فهم يحاربونه ، كما لهم شبهة أخرى يستخدموها لإقناع الناس بأنهم على حق وصدق ، وهي " أن لهم الأموال الكثيرة والجاه والسلطان وأن هذا دليل على أحقيتهم وصلاحهم ، ولهذا فهم خير من الداعي ولو كان رسولا، قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[3] ، ففرعون يعتز بملكه وسلطانه وثرائه ومنعته ، ويوهم الجمهور أنه – وهذه منـــزلته – أحق بالحق من موسى الذي ليس عنده شيء مما عنده ، والذي لا يكاد يفصح عن مقصده وغرضه ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[4] ، فهم يستدلون بما أعطاهم الله من أموال وأولاد على صلاحهم ونجاتهم من العذاب، وجهلوا سنة الله في العطاء والمنع ، فالله تعالى يعطي المال لمن يحب ولمن لا

---

(١) – سورة غافر : الآيـــة ٢٦ .

(٢) – سورة الأعراف : من الآيـــة ١٢٧ .

(٣) – سورة الزخرف : الآيـــة ٥١ – ٥٢ .

(٤) – سورة سبأ : الآيـــة ٣٤ – ٣٥ .

يحب ، فلا يكون المال دليلا على صلاح الشخص ورضى الله عنه "[1] . فهذه الشبهة ، على بطلانها ، فإنها تؤثر في كثير من الجمهور فيصدقونهم في شبهاتهم ويتبعونهم في ضلالهم .

---

(١) – أصول الدعوة : الدكتور عبد الكريم زيدان ، ص٣٩٤ .

الدافع التاسع : الحسد :

الحسد دافع مهم من الدوافع التي تدفع بعض المدعويـــين لاسيما الملأ منهم إلى إثارة الشبهات حول الدعوة والداعية ، فما حقيقة هذا الدافع ؟ ولماذا يحسد المدعو الداعية الذي لا يريد له إلاّ الخير ، وما الأسباب التي توجِد الحسد في نفس المدعو تجاه الدعوة والداعية ؟ وما الآثار التي تترتب على المدعو نفسه بسبب حسده ؟ وما علاج هذا المرض وسبل التغلب عليه ؟

سيحاول الباحث الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال ما يلي من الدراسة في الموضوع – إن شاء الله – .

المسألة الأولى : تعريف الحسد:

أولاً : الحسد لغة :

الحسد في أصل وضعه اللغوي : القشر ، يقال : حسد الشجرة ، أي : قشر عنها لحاءها ، ومعلوم أن الشجرة إذا قشر عنها لحاؤها يـــبست .

وقيل : الحسد كالقراد ، ومنه أُخذ : الحسد يقشر القلب كما تقشر القراد الجلد فتمتص دمه[1] .

وقيل : هو أن تـــتمنى زوال نعمة المحسود إليك ، وبابه : دَخَل، وحَسَدَه يَحْسِدُه (بكسر السين) ، ويَحْسُدُه (بضم السين) حَسَداً ، وحسوداً وحسادَةً .

وحَسَّدَه : تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته ، أو يُسلَبَهُما ، وهو حاسد من حَسَّدٍ وحُسَّادٍ وحَسَدةٍ ، وحَسُودٌ من حُسُدٍ .

ويقال : حسدني الله ، إن كنتُ أحسُدكَ ، أي : عاقبني على الحسد .

وتحاسدوا : حَسَدَ بعضهم بعضاً[2] .

ثانياً : الحسد شرعاً :

للحسد في الاصطلاح الشرعي تعاريف عدة ، أهمها كما يلي :

---

(١) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ج٢ ، ص٨٦٨ ، مادة " حسد " .

(٢) – مختار الصحاح : الإمام محمد الرازي ، ص١٣٥ ، مادة "حسد " ، والقاموس المحيط : الفيروز آبـــادي ، ص٣٥٣ ، باب الدال ، فصل الحاء .

(١) – عرفه الإمام الماوردي بقوله : " وحقيقة الحسد : شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل "[١] .

(٢) – ويقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله – :

" والتحقيق أن الحسد : هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود "[٢] .

(٣) – ويقول الإمام أبو حامد الغزالي[٣] – رحمه الله – :

" الحسد حدُّه : كراهة النعمة ، وحبُّ زوالها عن المنعم عليه "[٤] .

(٤) – ويعرفه الإمام أبو عبد الله الحسين بن حسن المعروف بالحليمي[٥] – رحمه الله – بقوله:

" والحسد : الاغتمام بالنعمة يراها لأخيه المسلم ، والتمني بزوالها عنه "[٦].

(٥) – ويقول الإمام محيي الدين النووي – رحمه الله – بأن الحسد :

" تمنِّي زوال النعمة "[١] .

---

(١) – أدب الدنيا والدين : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ، ص٣٨٢ ، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، دار إحياء العلوم ، بيروت.

(٢) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ١ / ١١٢ .

(٣) – هو محمد بن محمد أبو حامد الغزالي المعروف بالغزالي الفقيه الشافعي ، كان إماما في علم الفقه وأصول الديانات ، وسمع صحيح البخاري من أبي سهل محمد بن عبيد الله الحفصي ، قدم نيسابور إلى درس إمام الحرمين وجدّ واجتهد وتخرج في مدة قريبة وبذ الأقران ، وصار أنظر أهل زمانه وأفقه أقرانه ، وكان الطلبة يستفيدون منه ويدرس لهم ويرشدهم ، فظهر اسمه في الآفاق وارتفق بذلك أكمل الارتفاق حتى أدت الحال به إلى أن رسم للمصير إلى بغداد للقيام بالتدريس بالمدرسة الميمونية النظامية بها ، فصار إليها ، وأعجب الكل بتدريسه ومناظرته ، وصار بعد إمام خراسان إمام العراق ، ثم خرج إلى الشام زائرا لبيت المقدس ، فقدم دمشق سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وأقام بها مدة ، وصنف بها بعض مصنفاته ثم رجع إلى بغداد ، ومضى إلى خراسان ودرس مدة بطوس ، ثم ترك التدريس والمناظرة واشتغل بالعبادة ، ولد سنة ٤٥٠هـ وتوفي سنة٥٠٥هـ ، (تاريخ مدينة دمشق : ابن عساكر ، ٥٥/٢٠٠) .

(٤) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ، باب بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبة ، ٢ / ٢٣٨ .

(٥) – هو : أبو عبد الله ، الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي ، القاضي العلامة رئيس المحدثين ، كان محدثا متفننا ، سيال الذهن ، مناظرا ، ولد سنة ٣٣٨هـ ، وله مصنفات نفيسة ، توفي سنة ٤٠٣هـ ، انظر : السير : ١٧/ ٢٣١ ، وطبقات السبكي : ٤ / ٣٣٣ .

(٦) – المنهاج في شعب الإيمان : الإمام الحافظ أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي ، الباب الثالث والأربعون من شعب الإيمان : الحث على ترك الغل والحسد ، تحقيق : حلمي محمد فوده ، ٣ / ١٠٣ ، ط١ ، ١٣٩٩هـ دار الفكر ، بيروت .

(١) – المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج : الإمام النووي ، ٥ / ٤٢٣ ، ٤٢٦ .

(٦) – ويقول الإمام ابن حجر – رحمه الله – بأن الحسد :
" تمنِّي زوال النعمة عن المنعم عليه "[1] .
(٧) – ويعرفه الإمام القرطبي – رحمه الله – بقوله :
" أن تـــتمنّى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم "[2] .
(٨) – ويعرفه العلامة الجرجاني – رحمه الله – بقوله :
" تمنِّي زوال نعمة المحسود إلى الحاسد "[3] .

وبالنظر إلى هذه التعاريف يتبـــين أن أفضل التعاريف هو تعريف الإمام ابن حجر العسقلاني – رحمه الله – ؛ وذلك لكونه تعريفاً جامعا ومانعاً ، والله أعلم بالصواب .

ثالثاً : الحسد في علم النفس المعاصر:

ذهب كثير من علماء النفس المعاصرين إلى أن الحسد من مكوّنات انفعال الغيرة التي تحمل على الصراع بين المتنافسين ، وتنمِّي الخصومة بينهم .

ويرى بعضهم بأن الحسد من مكوِّنات سمة العداوة (Hostility trait) ، وهي سمة مرتفعة عند الجانحين، فكلما زاد الحسد، وما يرتبط به من حقد، وغيظ، وخصومة، وشحناء، وبغضاء ، زاد الميل للعُدوان والرغبة في التعدي على الناس وممتلكاتهم .

أما مدرسة فرويد النفسي فترى أن الحسد عند البنات أعلى منه عند الأولاد ، وردُّوا ذلك إلى عوامل فطرية قائلين : إن البنت تحسد الولد ، وتميل إلى أبيها ، وتغير عليه من أمها ، وتسمِّي ذلك (عقدة الكترا) ويميل الولد إلى أمه ، ويغير عليها من أبيه (عقدة أوديب) .

وقد أثبتت الدراسات التجريـــبـــية خطأ هذا التصور نظراً لكون الحسد بين أفراد الجنس الواحد أعلى منه بين أفراد الجنسين ، فالبنت تحسد البنت مثلها أكثر مما تحسد الأولاد، والولد يحسد الولد مثله أكثر مِمَّا يحسد البنات[4] .

---

(١) – فتح الباري : الإمام ابن حجر العسقلاني ، ١ / ١٦٦ .
(٢) – الجامع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ٢ / ٧١ .
(٣) – التعريفات : العلامة علي الجرجاني ، ص١٠١ .
(٤) – آفات على الطريق : د . السيد محمد نوح ، ٥ / ٢١٧.

المسألة الثانية : **الفرق بين الحسد والغبطة**

أولاً : **تعريف الغبطة** :

الغبطة لغة : أصل مادة هذا اللفظ هو " الغين " و " الباء " و " الطاء " (غبط) ، وتطلق تصاريفه على معان عدة أهمها ما يلي :

– الجس : يقال : غَبِطَ الكبش غبطاً ، أي جَسَّهُ ليتعرف سِمْنَه من هُزاله .

– حسن الحال والمَسَرَّةُ : يقال : غُبِطَ غِبْطَةً ، أي حَسُنَتْ حاله ، فهو مغبوط .

– دوام الشيء ولزومه : يقال : أغْبَطَ الرحْلَ على الدابة ، أي أدامه ، واغْبَطت السماء ، أي دام مطرها ، واغْبَطَتْ عليه الحمى ، أي دامت .

– الفرح بالنعمة : يقال : اغْتَبَطَ ، أي فرح بالنعمة .

– الحُزْمَةُ من الزرع بعد حصاده : وهي تسمى " الغَـبْطُ " ، وجمعه " غُبُوط "

– أن يتمنى المرء مثل ما للمغبوط من النعمة من غير أن يتمنى زوالها عنه ، وهذا يسمى " الغبطة "[(١)].

الغبطة شرعاً :

جاءت تعاريف كثيرة للغبطة في الاصطلاح الشرعي ، وجميعها متقاربة في المدلول والمعنى ، ويأتي فيما يلي ذكر بعض منها على سبيل المثال ولا الحصر :

(١) – يعرفها الإمام ابن حجر – رحمه الله – بقوله :

" ومعنى الغبطة : تمني المرء أن يكون له نظير ما للآخر من غير أن يزول عنه "[(٢)].

(٢) – ويقول الإمام الحليمي – رحمه الله – :

" والغابط من يتمنى أن يكون له من الخير مثل ما لغيره "[(٣)] .

(٣) – ويعرفها العلامة الجرجاني – رحمه الله – بقوله :

" الغبطة عبارة عن تمني حصول النعمة لك كما كان حاصلاً لغيرك من غير تمني زوالها عنه"[(١)] .

---

(١) – القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، ص٨٧٧ ، باب الطاء ، فصل الغين .

والمعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، ص٦٤٣ ، مادة غبط وتصاريفه .

(٢) – فتح الباري شرح صحيح البخاري : الإمام ابن حجر العسقلاني ، ١ / ١٦٦ .

(٣) – المنهاج في شعب الإيمان : الإمام الحليمي ، ٣ / ١٠٣ .

وكل هذه التعاريف متقاربة المعنى تفيد أنّ الغبطة : تمني المرء أن يكون له من النعمة مثل ما لغيره من غير زواله عنه .

ثانياً : الفرق بين الحسد والغبطة :

بالنظر إلى ما سبق من الحديث عن مدلولات الحسد والغبطة ومعانيهما ، يتبين أنهما يشتركان في الطلب من القلب غير أن الحسد تمني زوال النعمة عن الغير ، والغبطة تمني حصول مثلها من غير تعرض لطلب زوالها عن صاحبها[٢].

والحسد تارة يكون ممدوحاً وتارة يكون حراما ، وكذلك الغبطة .

فالحسد بمعنى تمني زوال النعمة ، أو عدم نزولها بمن هو أهل لها حرام باتفاق العلماء لقول الله ﷻ :

﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[٣] .

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – :

" وتأمل تقييده سبحانه : شرَّ الحاسد بقوله : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ ؛ لأن الرجل قد يكون عنده حسد ، ولكن يخفيه ، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما ، لا بقلبه ، ولا بلسانه ، ولا بيده ، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك ، ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصم الله .

وقيل للحسن البصري : أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك لإخوة يوسف ، لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك ، وهو لا يطيعها ، ولا يأتمر بها ، بل يعصيها طاعة لله ، وخوفاً ، وحياءً منه ، وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده ، فيرى ذلك مخالفةً لله ، وبغضاً لما يحب الله ، ومحبَّةً لما يبغضه فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ، ويلزمها بالدعاء للمحسود ، وتمني زيادة الخير له ، بخلاف ما إذا حقَّق ذلك وحسده ، ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب ،

---

(١) – التعريفات : العلامة علي الجرجاني ، ص١٧٥ .

(٢) – الفروق : العلامة شهاب الدين أبو العباس الصنهاجي ، المشهور بـ " القرافي " ، ٤ / ٢٢٤ ، ط : دار المعرفة ، بيروت .

(٣) – سورة الفلق : الآية ١ – ٥ .

واللسان، والجوارح ، فهذا الحسد المذموم ، هذا كله حسد تمني الزوال ، وللحسد ثلاث مراتب أحدهما هي هذه .

الثانية : هي تمني استصحاب عدم النعمة ، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة ، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله ، أو فقره، أو ضعفه ، أو شتات قلبه عن الله ، أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب ، فهذا حسد على شيء مقدَّر ، والأول حسد على شيء محقَّق ، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله وعدو عباده ، وممقوت عند الله تعالى ، وعند الناس ، ولا يسود أبداً ، ولا يواسي ، فإن الناس لا يسوِّدون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم ، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً ، إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها ، فهم يـــبغضونه ، وهو يـــبغضهم .

والثالثة : حسد الغبطة ، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير وأن تزول النعمة عنه فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه ..."[1] .

ولقوله – ﷺ – : " لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً.... "[2] .

أما الحسد بمعنى تمني زوال النعمة أو عدم نزولها بمن ليس أهلاً لها من كافر أو فاسق يستعين بها على معاصي الله تعالى ، فليس بمذموم بل هو ممدوح[3] .

لقوله تعالى على لسان موسى – عليه السلام – :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[4] .

ولقوله سبحانه على لسان نوح – عليه السلام – :

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[1] .

---

(١) – بدائع الفوائد : ابن القيم الجوزية ، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا ، وعادل عبد الحميد العدوي ، وأشرف أحمد الج ، ٢ / ٤٦٢ ، ط١ ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة .

(٢) – انظر تخريجه في ص٢٢٣ ، الحاشية رقم ١ .

(٣) – انظر : فتح الباري ، ١ / ١٦٧ (بتصرف) .

(٤) – سورة يونس : الآيـــة ٨٨ .

ورجاء النبي – ﷺ – يوم بدر عير قريش لتكون نافلةً للمسلمين تعويضاً لهم عما تركوه في مكة من ناحية ، وإزالة لهذا المال من أيدي الكفار لكونهم يستخدمونه في المعصية ، ومنها حرب الله ورسوله والمسلمين من ناحية أخرى .

فقد جاء في الحديث أن النبي – ﷺ – لما سمع بأبي سفيان مُقبلاً من الشام : ندب المسلمين إليهم ، وقال : " هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ..."[٢].

وأما الحسد بمعنى الغبطة ، أي تمني مثل ما عند الغير من النعمة دون زوالها عنه فجائز ، لقول النبي – ﷺ – : " لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها "[٣] .

ويؤكد هذا ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – مرفوعاً :

" لا حسد إلا في اثنتين : رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فسمعه جار له ، فقال : ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان ، فعملت مثلما يعمل ، ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق ، فقال رجل : ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان ، فعملت مثلما يعمل "[٤].

يقول ابن حجر في بيان هذه المسألة :

" وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة ، وأطلق الحسد عليها مجازاً ، وهو أن يتمنى أن يكون له مثلما لغيره من غير أن يزول عنه ، والحرص على هذا يسمى منافسة ، فإن كان في الطاعة فهو محمود ، ومنه ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[٥] ، وإن كان في معصية فهو مذموم ، ومنه: " ولا تنافسوا " وإن كان في الجائزات فهو مباح ، فكأنه قال في الحديث : لا غبطة أعظم أو أفضل من الغبطة في هذين الأمرين ، ووجه الحصر : أن الطاعات إما بدنية ، أو مالية ، أو كائنة عنهما ، وقد أشار إلى البدنية بإتيان الحكمة والقضاء بها ، وتعليمها "[١] .

---

(١) – سورة نوح : الآيـة ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) – الحديث أورده ابن هشام في : السيرة النبوية ، ٢ / ٦٠٦ – ٦٠٧ ، من طريق ابن إسحاق بسند صحيح حيث صرح ابن إسحاق بالتحديث .

(٣) – الحديث سبق تخريجه : ص٢٠٨ .

(٤)– الحديث سبق تخريجه : ص٢٠٧ .

(٥) – سورة المطففين : من الآيـة ٢٦.

(١) – انظر : فتح الباري ، ١ / ١٦٧ .

المسألة الثالثة : **أسباب الحسد** :

هناك أسباب وبواعث توجِد أو تقوي الحسد في نفس المدعو تجاه الدعوة والداعية ، أو في نفس شخص تجاه غيره ، وأهم تلك الأسباب ما يلي :

(١) – **الحرمان من النعم وعدم الإيمان بالله** :

لما يرى المرء نعمة أو نعماً من صحة وعلم ومنصب ومال ورئاسة وكرامة ومكانة وشرف ونحوها عند غيره وهو محروم منها إضافة إلى عدم الإيمان بالله أو بحكمته وتقديره في تدبير خلقه وتقسيم الأرزاق والنعم بأنه قسمها بحكمة وعدل ، ولم يظلم أحداً إذ هو لا يظلم العباد ، ولم يجعل التفاضل بين الناس إلاّ بالتقوى وصالح الأعمال ، يفتح ذلك كله السبيل للشيطان ليلقي على نفس ذلك الشخص المحروم طائفة من التساؤلات من مثل : لِمَ أعطي فلان هذه النعم ؟ ولِمَ خُصَّ بها دوني مع عدم استحقاقه لها حيث لم يبلغ ما بلغت من الأهلية والكفاءة لحصولها واستحقاقها ؟ إن هذه النعم جعلته يحظى بمكان وعزة وشرف في المجتمع ...... الخ ، ويظل الشيطان يلقي مثل هذه التساؤلات على نفسه ، ويوسوس فيها حتى تبدأ نفسه تكره هذه النعم عند غيره المنعَم عليه ، وتتمنى زوالها عنه ، وهذا هو الحسد – كما سلف الحديث عنه في المسألة السابقة –.

والكفر بالله يقود أهله إلى الحسد كما حصل مع كفار مكة وأهل الكتاب ، أما كفار مكة فقد حاولوا بشتى الأساليب صد النبي – ﷺ – عن الدعوة إلى الله ومنع الناس عن الإيمان ، وكان من ضمن الأساليب إثارة الشبهات والافتراءات ضد شخصية النبي – ﷺ – ودعوته ؛ قال الله ﷻ حكاية عنهم : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾[1] .

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية :

" حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم ، أي يصيبوه بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم .

هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي ، والله حافظه وناصره .

---

(١) – سورة القلم : الآية ٥١ .

وأما الأذى القولي ، فيقولون فيه أقوالاً بحسب ما توحي إليهم قلوبهم ، فيقولون تارة ''مجنون '' وتارة '' شاعر '' وتارة '' ساحر ''[1] .

ويقول سبحانه عنهم أيضاً :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ۝ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2] .

أي: لما جاءهم النبي – ﷺ – بالحق الذي أنزله الله عليه من عنده سبحانه ، والذي يوجب على من له أدنى دين وعقل أن يقبله وينقاد له ، أعرضوا عنه ولم يقبلوه ، ولم يكتفوا بجحده والإعراض عنه بل قدحوا به قدحاً شنيعاً ، إذ افتروا عليه بأنه سحر ، والسحر لا يأتي به إلاّ أخبث الخلق، والذي حملهم على ذلك هو حسدهم للنبي – ﷺ – على ما أُعطي من الفضل من النبوة والرسالة والقرآن، ولذلك لم يكتفوا بإثارة الشبهة حول الحق الذي جاء به النبي – ﷺ – وإنما افتروا شبهة أخرى على شخصيته – ﷺ –، فقالوا مستخفين به – ﷺ –: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾، أي: معظّم عندهم، مبجل من أهل مكة، وأهل الطائف، كالوليد بن المغيرة، ونحوه ممن هو عندهم عظيم، أما محمد – ﷺ – فلا يليق به أن يحظى بهذا الشرف، وليس أهلاً لهذا الأمر، وبالتالي فلا ينبغي، ولا هو معقول أن يكون نبياً مرسلا .

فردّ الله عليهم قائلا : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أي : أهم الخزان لرحمة الله ، وبيدهم تدبيرها ، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون ، ويمنعونـــها ممن يشاؤون ؟ ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ ﴾ ، أي: في الحياة الدنيا ﴿ و ﴾ الحال أن ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من الدنيا .

فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى ، وهو الذي يقسمها بين عباده ، فيبسط الرزق على من يشاء ، ويضيقه على من يشاء بحسب حكمته، فرحمته الدينية التي أعلاها النبوة والرسالة ، أحرى أن تكون بيد الله تعالى ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٨١٦ .

(٢) – سورة الزخرف : الآيـــة ٣٠ – ٣٢ .

(١) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٧١٠ (بتصرف) .

وأما اليهود والنصارى فقد حسدوا محمداً – ﷺ – وأمته على الفضل الذي حباهم الله به، حيث أعطى الله محمداً – ﷺ – النبوة والرسالة ، وجعل نبوته خاتمة النبوات ، ورسالته رسالة عالمية ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وقد بلغ بهم الحسد حدّاً ودّوا أن يصير المسلمون كفاراً مثلهم ، قال تعالى :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾[1] .

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – :

" يقول تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ ، وهذا استفهام إنكاري ، أي ليس لهم نصيب من الملك ، ثم وصفهم بالبخل فقال : ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ ، أي: لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس – ولاسيما محمداً – ﷺ – شيئاً ، ولا ما يملأ النقير وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾[2] ، أي : خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاده وإنما هو من بخلكم وشحكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾[3] ، أي: بخيلاً .

ثم قال : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني بذلك حسدهم للنبي – ﷺ – على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له ، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ : نحن الناس دون الناس ، قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ ، أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل ، الذين هم من ذرية إبراهيم ، النبوة ، وأنزلنا عليهم الكتب ، وحكموا فيهم بالسنن ، وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك ، ومع هذا ﴿ فَمِنْهُم

---

(١) – سورة النساء : الآيـــة ٥٣ – ٥٥ .

(٢) – سورة الإسراء : من الآيـــة ١٠٠ .

(٣) – جزء من الآيـــة السابقة .

مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ ، أي: هذا الإيتاء وهذا الإنعام ، ﴿ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُ ﴾، أي: كفر به وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم من بني إسرائيل . فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل ؟ وقال مجاهد : ﴿ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ ، أي: بمحمد – ﷺ – ، ﴿ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُ ﴾ ، فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك ، وأبعد عما جئتهم به من الهدى ، والحق المبين ، ولهذا قال متوعداً لهم : ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ ، أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله "[1] .

واختار الإمام ابن جرير أيضاً أن المراد بالفضل في الآيـــة هو النبوة التي فضل الله بها محمداً – ﷺ – وتشرف بها العرب حيث قال : وأولى التأويلين في ذلك بالصواب قول قتادة ، وابن جريج ، وهو أن الفضل في هذا الموضع هو النبوة التي فضل الله بها محمداً ، وشرف بها العرب إذ آتاها رجلاً منهم دون غيرهم[2] .

وقيل : المراد بمن آتاهم الله فضله جميع الناس الذين بعث إليهم النبي – ﷺ – من الأسود والأحمر ، أي: بل أيحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله ؛ يعني النبوة أو بعثة النبي – ﷺ – منهم، ونزول القرآن بلسانهم أو جمعهم كمالات تقصر عنها الأماني ، أو تهيئة سبب رشادهم ببعثة النبي – ﷺ – إليهم[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[4] .

يحذر الله تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هم عليه من الحسد للمؤمنين ، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ، ويأمر ﷻ عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال ، حتى يأتي أمره سبحانه من النصر والفتح ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه ، عن ابن عباس – رضي الله عنه –

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٧٠٥ ، ٧٠٦ .

(٢) – جامع البيان عن تأويل آي القرآن : الإمام محمد بن جرير الطبري ، ١٥٧/٧.

(٣) – روح المعاني : الإمام محمود الألوسي أبو الفضل ، ٥٧/٥ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٤) – سورة البقرة : الآيـــة ١٠٩ .

قال : كان حيي بن أخطب وأبو ياسر ابن أخطب ، من أشد اليهود حسداً للعرب ، إذ خصهم الله برسوله – ﷺ – ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ ، وقيل بأن كعب بن الأشرف اليهودي ، وكان شاعراً ، كان يهجو النبي – ﷺ – ، ففيه أنزل الله ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ إلى قوله ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ ﴾ ، وعن ابن عباس – رضي الله عنه – أيضاً ، أن رسولاً أمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات ، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ ، يقول من بعد ما أضاء لهم الحق ، لم يجهلوا منه شيئاً ، ولكن الحسد حملهم على الجحود ، فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة ، وشرع لنبيه – ﷺ – وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم ، وما أنزل من قبلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم[1] .

(٢) – الاستعلاء والتكبر :

إن الاستعلاء والتكبر من الأسباب الرئيسة في الحسد ؛ وذلك لأن المتكبر والمستعلي يستعظم نفسه ، ويستصغر الناس ويستهين بهم ، ويترفع عليهم ، ويرى أنه أحق بكل شرف ومنصب وفضل وأمر كبير ، فإن " رأى من يفوقه أو يتقدم عليه ، وهو غير قادر على مضاهاته أو مساواته فإنه يحقد عليه ، وبمرور الزمن يتحول الحقد إلى الحسد "[2] ، ومن ذلك امتناع الكبراء من الاستجابة للرسل والتسليم لهم ؛ لأن ذلك يعني أنهم سيفقدون الأمر والسلطة وحق الإتباع ، وسيصبحون متبعين لهم بعد أن كانوا متبوعين ، فاعرضوا عنهم وحسدوهم على ما أعطوا من الفضل والشرف من النبوة والكتاب ، وحاربوهم وأثاروا الشبهات حولهم وحول دعوتهم .

ومن ذلك أيضاً حسدهم للدعاة إلى الحق غير الأنبياء بل حتى للضعفاء والمساكين الذين يمتنّ الله عليهم بالهداية فيستجيبون لنبي الله ، يقول الله حكاية عنهم : ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٢٢١ .

(٢) – آفات على الطريق : د . السيد محمد نوح ، ٥ / ٢٤١ .

عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ ﴾[1] ، فهؤلاء الكبراء الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على سبقهم في الإسلام فقالوا : لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء والمساكين وأن نعترف لهم بالتبعية ، فكان ذلك يشق عليهم[2] ، فقالوا هذه المقولة كالاستحقار لهم والأنفة منهم[3] ، وفي هذا السبب ، تظهر بوضوح مدى العلاقة بين دافع الكبر ودافع الحسد إذ هي علاقة وطيدة وعكسية ، بمعنى أن كلاً منهما سبب لوجود الآخر ، ويفيد أيضاً أنهما بهذه الحقيقة يكونان خليطاً واحداً ، وبهذا يقوى المانع بين الإنسان وبين الحق[4] .

(٣) — البغض والعداوة :

يُعد البغض والعداوة من الأسباب الرئيسة للحسد ، نجد إشارة واضحة إلى ذلك في قول الله – تبارك وتعالى — :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا ﴾[5].

يقول الإمام الألوسي – رحمه الله – في تفسير هذه الآيـــة :

"﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ ﴾ أيها الذين آمنوا ﴿ حَسَنَةٞ ﴾ نعمة من ربكم ، كالألفة ، واجتماع الكلمة، والظفر بالأعداء ﴿ تَسُؤۡهُمۡ ﴾ ، أي تحزنهم وتغظهم ، ﴿ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ ﴾ ، أي محنة ، كإصابة العدو منكم ، واختلاف الكلمة فيما بينكم ﴿ يَفۡرَحُواْ ﴾ ، أي يبتهجوا ﴿ بِهَا ﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى تناهي عداوتهم إلى حدِّ الحسد ، والشماتة "[1].

---

(١) – سورة الأنعام : من الآيـــة ٥٣ .

(٢) – التفسير الكبير : الإمام الفخر الدين الرازي ، ٦ / ٢٣٧ .

(٣) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٢٤٣/٢ .

(٤) – دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها : د . عبد الرحمن الملاحي ، ص٢٢٣ .

(٥) — سورة آل عمران : الآيـــة ١١٨ ، ١٢٠ .

(١) – روح المعاني : الإمام محمود الألوسي أبو الفضل ، ٤٠/٤ .

وقد أشار النبي – ﷺ – إشارة واضحة إلى أنهما سبب للحسد في قوله :

" لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث "[1] .

وحصر الإمام الغزالي أسباب الحسد في سبعة ، ذكر من ضمنها " العداوة والبغضاء " ، ذكره أولاً ، واعتبره أشد الأسباب حيث يقول : " وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد ، والحقد يقتضي التشفي والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى ، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده ، وربما يخطر له أنه لا منـــزلة له عند الله حيث لم ينـــتقم له من عدوه الذي آذاه بأن أنعم عليه ، وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنما غاية التقي أن لا يبغي ، وأن يكره ذلك من نفسه ، فإما أن يبغض إنسانا ثم يستوي عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به ، أعني الحسد بالعداوة ، إذ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ، إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ ، وكذلك قال سبحانه : ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ ، والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه "[2].

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً أن الحسد هو البغض والكراهة[1] .

(٤) – خبث النفس :

توجد نفوس تحسد الغير المنعم عليه بدون هذه الأسباب التي سلف ذكرها آنفاً ، وذلك بسبب الخبث الذي طبعت عليه تلك النفوس .

---

(١) – صحيح البخاري : كتاب الأدب ، باب : ما ينهى عن التحاسد والتدابر ، ص١١٧٢ ، رقم الحديث : ٦٠٦٤ ، (أخرجه مسلم : ٢٥٦٣) .

(٢) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٢ / ٢٤٢ .

(١) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ١ / ١١٢ .

ذكر الإمام الغزالي خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله من ضمن أسباب الحسد ، وقال معللاً كونه سبباً : "فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به ، فهو أبدا يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته ، ويقال : البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة ، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع "[1].

ومعالجة النفس من هذه الدناءة والرذالة أمر جدّ عسير ، إن الحسد الذي ينشأ بأسباب غير التي سلف ذكرها آنفاً هي أسباب عارضة يمكن زوالها أو الاجتناب عنها أو القضاء عليها ، ومن ثم فيرجى شفاؤه ، أما الحسد الناتج عن خبث النفس فيتعثر إزالته ويصعب معالجته بل يستحيل في العادة الشفاء منه لكونه من الجبلة والطبع[2] .

هذه هي أهم أسباب الحسد التي قد يتجمع كلها أو بعضها في المدعو لاسيما إن كان من الملأ فيعظم فيه الحسد بذلك ، فينحرف عن التفكير السديد ، ويبغض داعي الحق سواء أكان من الأنبياء أو غيرهم ، ويعاديه ويحاربه سعيا منه بكل وسيلة ممكنة لإزالة النعمة عنه لاسيما النبوة إن كان نبياً ، وغيرها من النعم ، وإيقافه من دعوة الناس إلى الحق ، ومنع الناس عن الاستجابة له ، لئلا يحصل له نعمة الشرف والعزة والمكانة والمنصب .

المسألة الرابعة : أضرار الحسد وآثاره :

(١) – عدم الاستجابة للحق ومحاربته :

إن الحسد يحول بين المرء وقبول الحق والتسليم له ، فيتركه يتخبط في ظلام الغي والضلال، يشير النبي – ﷺ – إلى ذلك في قوله: "دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم ؟ أفشوا السلام بينكم"[1] .

---

(١) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٢ / ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٢) – المرجع السابق : ٢ / ٢٤٤ ، (بتصرف) .

(١) – جامع الترمذي :كتاب صفة القيامة ، باب : ما جاء في صفة أواني الحوض ، ص٤٠٨ ، رقم الحديث : ٢٥١٠.

فالحسد يمنع صاحبه عن قبول الدين وتعاليمه .

ومن ذلك كان امتناع إبليس من السجود لآدم حيث لما خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود له ، سجد الملائكة إلاّ إبليس ، قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] ، ولم يكن امتناعه إلاّ حسداً منه واستعلاءً واستكباراً على آدم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3] .

يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – :

" ومن أعظم هذه الأسباب – أي الأسباب المانعة من قبول الحق – " الحسد " ، فإنه داء كامن في النفس ، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه وأوتي ما لم يؤت نظيره فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه . وهل منع إبليس من السجود لآدم إلاّ الحسد ؟ ! فإنه لما رآه قد فضل عليه ورفع فوقه غص بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة"[4].

ومن ذلك – أي الحسد – أيضاً كان امتناع اليهود من الإيمان بعيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله – ﷺ – ، يقول الإمام ابن القيم :

" وهذا الداء – يقصد الحسد – هو الذي منع اليهود من الإيمان بعيسى بن مريم وقد علموا علماً لا شك فيه أنه رسول الله ، جاء بالبينات والهدى ، فحملهم الحسد على أن اختاروا الكفر على الإيمان وأطبقوا عليه ، وهم أمة فيهم الأحبار والعلماء والزهاد والقضاة والملوك والأمراء .

---

(١) – سورة ص : الآيـة ٧١ – ٧٤ .

(٢) – سورة ص : الآيـة ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) – سورة البقرة : الآيـة ٣٤ .

(٤) – هداية الحيارى : الإمام ابن القيم ، ص٤٩ .

هذا ، وقد جاء المسيح بحكم التوراة و لم يأت بشريعة يخالفهم و لم يقاتلهم ، وإنما أتى بتحليل بعض ما حرم عليهم تخفيفاً ورحمة وإحساناً ، وجاء مكملا لشريعة التوراة ، ومع هذا فاختاروا كلهم الكفر على الإيمان ، فكيف يكون حالهم مع نبي جاء بشريعة مستقلة ناسخة لجميع الشرائع ، مبكتاً لهم بقبائحهم ، ومناديا على فضائحهم ، ومخرجا لهم من ديارهم ، وقد قاتلوه وحاربوه وهو في ذلك كله ينصر عليهم ويظفر بهم ويعلو هو وأصحابه وهم معه دائماً في سفال ، فكيف لا يملك الحسد والبغي قلوبهم ؟ وأين يقع حالهم معه من حالهم مع المسيح وقد أطبقوا على الكفر به من بعد ما تبين لهم الهدى ؟ ''[1] .

قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] ، تدل هذه الآيـــة على مدى عمق حقد كثير من أهل الكتاب وحسدهم من النبي – ﷺ– والمؤمنين ، ومن دلالاتها حول الحسد :

– أنه لم يكن من التدين والميل مع الحق بل هو منبعث من أصل نفوسهم بالغاً أقصى مراتبه[3] .

– وأنه لم يصدهم عن الحق وحسب بل ودوا لو ردوا غيرهم عن الحق ليساووهم في الانحطاط والنقصان ، ومع هذه الرغبة عمل دؤوب بشتى الوسائل لصد الناس عن الحق[4].

– وفيها توجيه وتنبيه وإعلام المسلمين بحقيقة أعدائهم ، فما يقدمونه كنصح لهم إنما يلبسون عليهم الأمور ويلقون إليهم بالشبهات ، فأصل مبعث هذا إنما هو مكرهم السيئ الذي مبعثه الحقد والحسد وليس النصح الذي مبعثه الاعتقاد[1] .

---

(١) – المرجع نفسه : ص٥٠ .

(٢) – سورة البقرة : الآيـــة ١٠٩ .

(٣) – تفسير أبي السعود : محمد بن محمد العمادي أبو السعود ، ١ / ١٤٦ ، ط: بدون ، الناشر : دار إحياء التراث العربي، بيروت .

(٤) – صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٣٠٣ ، وانظر : الفروق النفسية بين صفات الـــنفس الطيبـــة والنفس الخبيثة ، ص٤٠ (نقلاً من : دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها : د . عبد الرحمن الملاحـــي، ص٢٣٢ ، ٢٣٣).

(١) – المرجع السابق ، ص٢٣٣.

وقد مرت الأزمان والعصور لنشأة الإسلام ولكن لم ينته حقد اليهود على المسلمين وحسدهم إياهم بل توارثوه جيلاً بعد جيل ، إلى يومنا هذا .

أما النصارى فموقفهم لا يختلف كثيراً عن موقف اليهود من الإسلام والمسلمين إذ قد حال الحسد أيضاً بينهم وبين الإيمان بالنبي محمد – عليه أفضل الصلاة والسلام – والتسليم لدينه ، ولذلك جاء التخاطب في الآيات التي سلف ذكرها آنفاً – " أهل الكتاب " مع أن الحديث فيها منصب على اليهود ليعلم أن النصارى يدخلون في هذا الحسد[1] .

أما الشواهد على أن الحسد كان حائلاً رئيساً بين اليهود وبين الإيمان بالنبي محمد – ﷺ – وبرسالته الإسلام فهي كثيرة منها – مثلاً – :

" كانت اليهود تقول : اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان ، فلما التقوا هزمت يهود خيبر فعاذت اليهود بهذا الدعاء ، فقالت : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم ، قال فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان فلما بعث النبي – ﷺ – كفروا به فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾[2] "[3] .

والشواهد على حسد أهل الكتاب عامة واليهود منهم خاصة وحقدهم من دين الإسلام ونبيه والمسلمين كثيرة، لا يمكن حصرها إذ هي سلسلة مؤامراتهم التي تمتد عبر العصور من بعثة النبي – ﷺ – إلى يومنا هذا ، ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾[4] .

وهذا المانع هو الذي منع فرعون من اتّباع موسى، فإنه لما تبين له الهدى عزم على اتباع موسى –عليه السلام–، فقال له وزيره هامان: "بينا أنت إله تعبد تصبح تعبد ربا غيرك" قال: صدقت[1].

أما مشركو مكة فلنسمع ما يقوله أبو جهل لما سئل عن محمد – ﷺ – :

(١) – التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور ، ١ / ٦٥٣ .

(٢) – سورة البقرة : من الآيــة ٨٩ .

(٣) – هدايــة الحيارى : الإمام ابن القيم ، ص٥٣ .

(٤) – سورة البقرة : من الآيــة ١٢٠ .

(١) – هدايــة الحيارى : الإمام ابن القيم ، ص٥٤ .

"قال المسور بن مخرمة[1] لأبي جهل يا خالي : هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال : يا ابن أختي ! والله لقد كان محمد - ﷺ - فينا وهو شاب يدعى الأمين، فما جربنا عليه كذباً قط . قال : يا خال ! فما لكم لا تتبعونه ! قال : يا ابن أختي تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي فمتى ندرك مثل هذه ؟ "[2] .

ولما سأله الأخنس بن شريق يوم بدر : " يا أبا الحكم : أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس ها هنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا ؟ فقال أبو جهل : ويحك ! والله إن محمدا لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ "[3] .

وفي قصة مشهورة أن أبا سفيان وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفي خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - ﷺ - وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، ولا أحد يعلم عن غيره ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في قلبه شيئاً ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود ، ثم

---

(١) - المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، أبو عبد الرحمن، صحابي صغير، كان والده أحد علماء قريش يكنى أبا صفوان، وأمه الشفاء بنت عوف أخت عبد الرحمن بن عوف، ولد بمكة بعد الهجرة بسنتين وقدم به أبوه المدينة في عقب ذي الحجة سنة ثمان وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر وقبض النبي - ﷺ - والمسور ابن ثمان سنين، وسمع من النبي - ﷺ - وحفظ عنه، وحدث عن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن عوف - رضي الله عنه -، وكان فقيها من أهل الفضل والدين، لم يزل مع خاله عبد الرحمن بن عوف مقبلا ومدبرا في أمر الشورى، وبقي بالمدينة إلى أن قتل عثمان، ثم انحدر إلى مكة فلم يزل بها حتى توفي وهو يصلي بحجر أصابه من حجارة المنجنيق أثناء القتال بين الحصين بن نمير وابن الزبير وذلك مستهل ربيع الأول سنة أربع وستين، وصلى عليه ابن الزبير بالحجون وهو معدود في المكيين، توفي وهو ابن اثنتين وستين سنة - رضي الله عنه -، (الاستيعاب : ابن عبد البر ، ٣/١٣٨٠،١٣٩٩).

(٢) - هداية الحيارى : الإمام ابن القيم ، ص٥٠ — ٥١ .

(٣) - المرجع السابق : ص٥١ .

تعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال : يا أبا ثعلبة لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس وتركه ''[1].

وكان حسد المشركين يظهر أيضا من خلال استهزائهم بالمسلمين ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾[2].

فكان المشركون يضحكون من المؤمنين ، أي: يستهزئون بهم ويحتقروهم ، وإذا مروا بهم يتغامزون عليهم ، وإذا رجعوا إلى منازلهم انقلبوا إليها فاكهين ، أي: مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم بل اشتغلوا بالمؤمنين يحقروهم ويحسدوهم لكوهم على غير دينهم[3] .

وهنا يتبين كيف كان الحسد سبباً وباعثا في العناد والمكابرة والاستكبار على الحق وعدم التسليم له .

(٢) – قتل النفس

قد يدفع الحسد صاحبه حتى إلى قتل النفس ، فهناك وقائع كثيرة حصل فيها قتل الأنفس بسبب الحسد والبغض ، وأول قتل في التاريخ البشري على وجه الأرض إنما وقع بسبب الحسد، وهو قتل قابيل أخاه هابيل ، وهما ابنا آدم – عليه السلام – ؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قبل ما قدمه هابيل من قربان ولم يتقبل من قابيل قربانه ، جاء في القرآن الكريم قصتهما حيث قال

---

(١) – مختصر سيرة الرسول : الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص١٤٠ .

(٢) – سورة المطففين : ٢٩ – ٣٢ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٣٠٠٥ .

تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[1] .

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – في ضمن تفسير هذه الآيات :

" يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور ، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله ، بغياً عليه وحسداً له ، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله ﷻ ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين ، فقال تعالى : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ ، أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم، هابيل وقابيل "[2] .

وأصبح قابيل أشقى الناس رجلاً إذ ما يسفك دم في الأرض منذ قتله أخاه إلى يوم القيامة إلاّ ويلحق به منه شر ، وذلك أنه أول من سنّ القتل ، قال النبي – ﷺ – : " لا تقتل نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل "[3] .

وهذا إضافة إلى ما يلحق به من العذاب في الآخرة ، فقد ورد في الحديث أن النبي – ﷺ – قال : " ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم "[1] ، وقد اجتمع في فعل قابيل بسبب الحسد ذنبان كبيران شنيعان وهما : – كما أشار إليهما الحديث – قتل النفس بغير الحق وقطع صلة الرحم .

---

(١) – سورة المائدة : الآيــة ٢٧ – ٣٠ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ٨٨١ .

(٣) – صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : خلق آدم وذريتــه ، ص٦٣٦ ، رقـــم الحـــديث : ٣٣٣٥ ، (أخرجــه مسلم : ١٦٧٧) .

(١) – سنن أبي داود : كتاب الأدب ، باب : في النهي عن البغي ، ص٥٣٢ ، رقم الحديث : ٤٩٠٢ .

ولفظاعة فعل قابيل وشناعة ذنبه جاء من الله تعالى تحذير شديد حيث قال : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1] .

أي : من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً شرع الله سبحانه وتعالى للناس وأعلمهم أن من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحمل قتلها بلا سبب ولا جناية ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن حرم قتلها واعتقد ذلك ، فقد سلم الناس كلهم منه لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس[2] .

ويجدر ذكر قصة عظيمة الاعتبار في هذا المقام ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : دخلت على عثمان – رضي الله عنه – يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك ، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ، فقال: يا أبا هريرة ، أيسرُّك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم ؟ قلت : لا ، قال : فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور ، قال : فانصرفت و لم أقاتل[3] .

فهل اعتبر الناس جميعاً ؟ ! كلاّ ، ولاسيما اليهود منهم ، فتوارث هؤلاء الحقد والحسد جيلاً بعد جيل ، وارتكبت أيديهم قتلاً بعد قتل .

إنّ : " هذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديماً وأسلافهم وخيارهم، قد أخبرنا الله سبحانه عن أذاهم لموسى ونهانا عن التشبه بهم في ذلك فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾[4] .

وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء : قتلوا زكريا وابنه يحيى وخلقاً كثيراً من الأنبياء، حتى قتلوا في يوم سبعين نبياً وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئاً .

واجتمعوا على قتل المسيح وصلبه فصانه الله من ذلك وأكرمه أن يهينه على أيديهم ، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه ، وراموا قتل خاتم النبيين مراراً عديدة والله يعصمه منهم "[1] .

---

(١) – سورة المائدة : من الآية ٣٢ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ /٨٨٩ .

(٣) – المرجع نفسه : ٢ / ٨٨٩ .

(٤) – سورة الأحزاب : الآية ٦٩ .

وهنا يتضح أن الحسد دافع قوي يمنع بعض المدعوين لاسيما الملأ منهم عن الاستجابة للحق ودعاته بل يدفعهم إلى معاداة الخير ومحاربة دعاته بكل الأساليب المتاحة لهم بما فيها من إثارة الشبهات وافتراء الاتهامات الكاذبة حول الحق ودعاته .

(٣) – الاختلاف والتفرق :

إن الحسد سبب رئيس في زرع الاختلاف في النفوس وإيقاع الفرقة بين الناس بل كان هو السبب الأول في إيجاد الاختلاف والتفرق بين الناس وصدهم عن قبول الحق ، يقول الله تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾[٢] .

أي كان الناس كلهم على دين واحد، وهو الإسلام، بين آدم ونوح – عليهما السلام – ، وقيل : المراد نوح – عليه السلام – ومن كانوا في سفينته ، وكانوا على التوحيد ، ثم تطاولت القرون ، وانتشرت عبادة الأوثان ، فأصبح الناس ما بين مؤمن وكافر ، فبعث الله النبيين مع الكتب السماوية لهدايتهم فيما اختلفوا فيه من العقائد وشؤون الغيب، وحسن الأعمال وقبحها ، ولم يختلفوا فيها إلاّ بعد ما قامت عليهم الحجج ، وما حملهم على ذلك إلاّ البغي : أي الحسد والحرص على الدنيا ، بدل أن يكون الكتاب السماوي المليء بالحجج والبراهين سبباً للاتفاق والسير على طريق الهداية[٣] .

ويذكر الإمام الرازي أنه لم يكن اختلافهم إلاّ بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا[١] .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾[٢] ، أي : بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم

---

(١) – هداية الحيارى : الإمام ابن القيم ، ص٥٥ .

(٢) – سورة البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٣) – زبدة التفسير من فتح القدير : للإمام الشوكاني ، د . محمد سليمان عبد الله الأشقر ، ص٤١ ، ٤٢ . وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٣٥٠ .

(١) – التفسير الكبير : الإمام الفخر الدين الرازي ، ٣ / ٦ – ١١ .

(٢) – سورة آل عمران : من الآية ١٩ .

وتباغضهم وتدابرهم ، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً[1]، وقيل المراد خلاف اليهود والنصارى في نبوة نبينا محمد – ﷺ – ونبوة عيسى – عليه السلام – ، واختلافهم في ذات بينهم ، حتى قالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، وكل ذلك سببه الحسد والتباعد من الحق علواً واستغناء[2] .

وهنا يتبين كيف كان الحسد سبباً في اختلاف الناس حول الحق وبالتالي ردّه وعدم قبوله بل إثارة الشبهات حوله وإلحاق الافتراءات به .

كما يؤدي الحسد إلى اتساع هوة الخلاف والتصدع بين أفراد المجتمع ، وهذا يوصل إلى تفرق الأمة أحزاباً وشيعاً حتى يذهب مجدها ، ويضعف جندها بظهور الحسد وانتشار الحاسدين، وبظهور هؤلاء ينتشر معهم الكبر والحقد والبغضاء[3] .

ولذا حذر النبي – ﷺ – أمته من هذا المرض الوبيل فقال : " لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا "[4] .

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٤٨٩ .

(٢) – زبدة التفسير من فتح القدير : للإمام الشوكاني ، د . محمد سليمان عبد الله الأشقر ، ص٦٥ .

(٣) – الأخلاق الإسلامية وأسسها : عبد الرحمن حسن الميداني ، ١ / ٧٣٨ ، ط١ ، ١٣٩٩هـ ، دار القلم ، بيروت .

(٤) – تقدم تخريجه .

الدافع العاشر : **التقليد الأعمى** :

إن التقليد الأعمى نفسه شبهة وأحد الدوافع القوية في إثارة الشبهات حول الحق ودعاته ، وفيما يلي دراسة مختصرة عنه، تتناول أنواعه، وحكمه، وحقيقته، وأسبابه، وآثاره .

المسألة الأولى : **تعريف التقليد** :

(أ) – التقليد في اللغة :

التقليد من مشتقات "قَلَدَ" .

– يقال : قلد الماء في الحوض ، وقلد اللبن في السقاء ، وقلد الشراب في البطن ، يَقْلِدُه : جَمَعَه فيه ، وقَلَد الشيء على الشيء : لواهُ[1].

– والقلادة : ما جُعِل في العنق ، ويكون للإنسان ، والفرس ، والكلب ، والبدنة التي تهدى[2] ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ ﴾[3] .

– وقَلَدَه فَتَقَلَّد ، ومنه التقليد في الدين وتقليد الولاة الأعمال .

– وقَلَّد فلانٌ فلاناً عملاً تقليداً [4].

– ويأتي التقليد بمعنى الإلزام ، ومنه تقليد القضاء ، وهو إلزامه النظر في أموره ، وكذا القلادة للزومها للعنق[5] .

(ب) – في الاصطلاح :

توجد للتقليد تعريفات عديدة متشابهة المعنى في الاصطلاح الشرعي ، أذكر فيما يلي بعضاً منها :

عرفه الجرجاني بقوله : "التقليد : عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل معتقداً للحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليل ، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه "[1] .

---

(١) – القاموس المحيط : الفيروز آبادي، باب الدال ، فصل القاف، مادة " قلد "، ص٣٩٨ .

(٢) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ٣ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، مادة " قلد " .

ومختار الصحاح : الإمام الرازي ، ص٥٤٨، مادة " قلد " .

(٣) – سورة المائدة : من الآية ٢ .

(٤) – لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ٣ / ٣٦٦ ، ٣٦٧، مادة " قلد " .

(٥) – روح المعاني : ٢٤ / ٢١ .

وعرفه الإمام عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي[٢] بقوله : " التقليد في الشرع معناه الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه ، وذلك ممنوع منه في الشرع "[٣] .

وقال الإمام ابن تيمية – رحمه الله – : " هو قبول قول الغير بغير حجة كالذين ذكر الله عنهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[٤] "[٥].

وعرفه الإمام الطوفي[٦] بمثل قول الإمام ابن تيمية حيث قال : " قبول قول الغير من غير حجة "[٧] ، وذكر بأن هذا مأخوذ من معنى التقليد اللغوي ، كأن المقلِّد يطوق المقلَّد سوء ما قلده به في دينه[١]، وعرفه أيضاً بتعبير آخر حيث قال : " عبارة عن العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة "[٢].

وعرفه الإمام القرطبي – رحمه الله – بقوله : " قبول قول بلا حجة "[٣] ، ذكر – رحمه الله – هذا التعريف أثناء تفسيره لآيــة جاء فيها ذم التقليد الذي نهجه الكفار فابتعدوا عن الحق

---

(١) – التعريفات : العلامــة علي الجرجاني ، ص٧٨ .

(٢) – هو محمد بن علي بن إسحاق بن خويز منداد ، ويقال : خواز منداد الفقيه المالكي البصري ، يكنى أبا عبد الله ، هذا الذي رجحه عياض ، وأما الشيخ أبو إسحاق فقال في الطبقات : محمد بن أحمد بن عبد الله بن خواز منداد ، يكنى أبا بكر، تفقه بأبي بكر الأمهري ، وسمع من أبي بكر بن داسة ، وأبي إسحاق الهجيمي ، وغيرهما ، وصنف كتبا كثيرة منــها كتابــه الكبير في الخلاف ، وكتابه في أصول الفقه ، وكتابه في أحكام القرآن ، وكان في أواخر المائة الرابعة ، (لسان الميزان : ابن حجر ، ٢٩١/٥) .

(٣) – ذكر هذا التعريف الإمام ابن القيم – رحمه الله – في معرض كلامــه عــن التقــليد في كتابــه " إعــلام الموقــعين"، ١ /٤٦٠ ، توثيق : صدقي جميل العطار ، ط١٤٢٤هــ ، ٢٠٠٣م ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

(٤) – سورة البقرة : من الآيــة ١٧٠ .

(٥) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٤ / ١٩٧ ، سورة البقرة : من الآيــة ١٧٠ .

(٦) – هو سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري ثم البغدادي الحنبلي نجم الدين الرافضي ، الفقيه الأصولي المتفنن ، ولد في سنة بضع وسبعين وستمائة ، مؤلفاته كثيرة منها بغية السائل في أمهات المسائل في أصول الدين ، والإكسير في قواعد التفسير ، وشرح مقامات الحريري ، وعزر على الرفض بالقاهرة ، وتوفي سنة ست عشرة وسبع مائة ، وقيل إنــه تاب أخيراً من الهجاء والرفض ، (طبقات المفسرين : السيوطي ٢٦٤/١ ، والوافي بالوفيات : صلاح الــدين الصــدفدي ، ٤٣/١٩) .

(٧) – شرح مختصر الروضة : الإمام نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي عبد الكريم بن سعيد الطوفي ، تحقيق : د . عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ٣ / ٦٥١ ، ط١ ، ١٤١٠هــ ، مؤسسة الرسالــة ، بيروت .

(١) – المرجع السابق : ٣ / ٦٥١ – ٦٥٢ .

(٢) – المرجع نفــسه : ٣ / ٦٥٢ .

(٣) – الجامع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ١ / ٢١١ .

ولم يستجيبوا له . وهذا التقليد هو موضوع هذه الدراسة ، أما التعريفات الأخرى فذكرها أصحابها خلال الحديث عن المقلدين من عامة المسلمين ، وأكثر العلماء عرفوه من منظور فقهي متعلق بالمذاهب الفقهية السائدة ، فمناسبة ذكرها في هذا المقام لم يكن بسبب وجود التشبيه بين التقليدين من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر ، وإنما لوجود التشبيه بينهما باعتبار عدم وجود حجة للمقلد .

إن المقصود من التقليد في الأحكام الشرعية هو الرجوع إلى فتوى المجتهد الجامع للشرائط ، والعمل برأيه في جميع مسائل الأحكام الخمسة ، وهي : الواجب والحرام والمستحب والمكروه والمباح ، وسأتحدث – إن شاء الله – وأبحث في مدى صحة هذا التقليد في " المسألة القادمة " بإيجاز لعلاقته الجزئية بموضوع الدراسة .

وأما التقليد المراد دراسته هنا فهو – كما قال صاحب محيط المحيط – : " إتباع الإنسان غيره في اعتقاد دين بلا دليل ولا نظر ولا تأمل "[1] ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[2] .

وقد أخرج العلماء من تعريف التقليد ما يلي :

(١) — قول النبي – ﷺ – ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى : ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[3] ، وعلى هذا فهو حجة بنفسه ؛ لأنه مشرع ، وقد أمرنا باتباع أمره ، والانتهاء عن نهيه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[1].

(٢) — الإجماع ؛ إذ الإجماع حجة بنفسه أيضاً ؛ وذلك لأن الأدلة قائمة على أنه أصل من أصول الشريعة .

(٣) — رجوع العامي للمفتي بسؤاله ؛ قال الإمام القرطبي — رحمه الله — متحدثاً عن ذلك: "العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها ؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة ، ولا تصل بعدم الفهم إلى علم ذلك ؛ لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة . والله أعلم .

---

(١) – محيط المحيط : المعلم بطرس البستاني ، ٢ / ١٧٥٠ ، ط١٨٧٠م .

(٢) – سورة البقرة : من الآيــة ١٧٠ .

(٣) – سورة النجم : الآيــة ٤ .

(١) – سورة الحشر : من الآيــة ٧ .

ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المرادون بقول الله ﷻ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] ، وأجمعوا على أن الأعمى لابد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه ، فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لابد له من تقليد عالمه.

وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا ، وذلك – والله أعلم – لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم"[2] .

(٤) – أصول الدين ؛ من الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ، والإيمان برسوله – ﷺ – ، والإيمان بالبعث ، والجزاء للمؤمنين بالجنة ، وللعصاة بالنار ، وكذلك الإيمان بالقرآن الكريم، وأنه كلام الله ، وكل ما فيه حق وصدق ؛ وذلك لأن الحق في هذه المسائل واحد لا يتعدد، وأن ما سوى ذلك الحق هو خروج من الإسلام .

(٥) – أركان الإسلام الخمسة ؛ وقد مر الحديث عن الإيمان بالله ورسوله – ﷺ – آنفاً ، وأما بقية الأركان فيجب أن يعلم الإنسان فرضية الصلاة وفرضية الطهارة لها ، وكذا الصوم ، وما لا يتم الصوم إلا به ، ومثله الزكاة ومتى يجب إخراجها ، وكذلك الحج ، وأنه مرة في العمر إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وهذه الأمور من المعلوم من الدين بالضرورة ، وقد نقلت نقلاً متواتراً ، فيجب العلم بجملتها ، ويشترك في العلم بها العامة والعلماء [1] .

المسألة الثانية : حقيقة التقليد وأنواعه وحكمه:

إن التقليد يطوّق النفس ويأسرها كما تطوق القلادة الجيد ، فنرى المقلد لا يعمل بموجب وعي ومعرفة وعلم ويقين وحجة وبرهان .

فهل التقليد مذموم البتة وممنوع عنه في الشرع كلياً ؟

---

(١) – سورة النحل : من الآيـة ٤٣ .

(٢) – الجامـع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ١١ / ٢٤٠ .

(١) – روضة الناظر وجنة المناظر: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، تحقيق : د. عبد العزيز عبـد الـرحمن السـعيد ، ٣٨٢/١-٣٨٤ ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ ، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض .

الجواب عن هذا السؤال يتطلب التفصيل في القول ، وذلك لما نرى في القرآن الكريم آيات تذم التقليد وأخرى تدعو إليه .

إذن التقليد نوعان ، نوع سائغ محمود وآخر مذموم محرم .

النوع السائغ المحمود : تقليد الأنبياء وأهل الهدى تقليد محمود ، قال تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[(1)] ، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه وعبده محمدا – ﷺ – أن يقتدي ويتبع الأنبياء – جاء ذكرهم في الآيات السابقة للآية المذكورة – ، الذين هداهم الله واجتباهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، وهم الأشباه ، وإذا كان هذا أمراً للرسول – ﷺ – ، فأمته تبع له[(2)] .

وقال الله تعالى عن يوسف – عليه السلام – تركه ملة قوم كافرين بالله وبالآخرة واتّباعه لملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب : ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[(3)] ، يقول الإمام القرطبي – رحمه الله – في تفسير هذه الآيـــة : '' فلما كان آباؤه – عليه وعليهم السلام – متبعين للوحي ، وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله ، كان اتباعه آباءه من صفات المدح ''[(4)] .

وسلف الذكر آنفاً بأن العلماء لم يختلفوا أنَّ العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله ﷻ: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[(1)] ، وأجمعوا على أن من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه[(2)] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – عن التقليد السائغ : '' وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور''[(3)] ، ويقول أيضاً : '' وأما القادر على الاستدلال ، فقيل :

---

(١) – سورة الأنعام : من الآيـــة ٩٠ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ١٠٣٦ .

(٣) – سورة يوسف : الآيـــة ٣٧ ، ٣٨ .

(٤) – الجامع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ٢،١ / ٢١٣ .

(١) – سورة النحل : من الآيـــة ٤٣ .

(٢) – جامـــع بيان العلم وفضلـــه وما ينبغي في روايته وحملـــه : الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر النمـــري القـــرطبي ، ص٤٤٦ ، ط٢ ، ١٤٠٢هـــ ، دار الكتب الإسلامية ، مصر .

يحرم عليه التقليد مطلقاً ، وقيل : يجوز مطلقاً ، وقيل : يجوز عند الحاجة كما إذا ضاق الوقت عند الاستدلال ، وهذا القول أعدل ، والاجتهاد ليس هو أمراً واحداً لا يقبل التجزيء والانقسام بل قد يكون الرجل مجتهداً في فن أو باب أو مسألة دون فن وباب ومسألة ، وكل أحد فاجتهاده بحسب وسعه ''[٢] .

ويذكر الإمام ابن القيم بأن تقليد من بذل جهده في اتّباع ما أنزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه فهذا محمود غير مذموم ، ومأجور غير مأزور[٣] ، وذكر في موضع آخر بأن التقليد في مثل هذه الحالة واجب ، وهو فعل أهل العلم ، إذ التقليد إنما يباح للمضطر[٤].

ويجدر الذكر هنا بأن لفظ '' التقليد '' لم يذكر في القرآن الكريم بهذا اللفظ وإنما ورد بلفظ الاتباع والاقتداء والاهتداء كما سبق ذكرها في الآيتين السالف ذكرهما آنفاً — مما يشير إلى أنها تستعمل لمعنى واحد .

ولهذا يضاف لفظ '' الأعمى '' إلى '' التقليد '' خشية الوقوع في الالتباس والاشتباه بين التقليد السائغ والتقليد المذموم .

وإذا أطلق التقليد عند الفقهاء فينصرف معناه في الغالب إلى التقليد المذموم ، أما التقليد المباح فيسمونه الاتّباع حيث قالوا : '' التقليد معناه في الشرع : الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه ، وذلك ممنوع منه في الشريعة ، والاتّباع ما ثبت عليه حجة '' ، وقالوا أيضاً ما يوضح الأمر أكثر ''فكل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده ، والتقليد في دين الله غير صحيح ، وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله ، فأنت متبعه ، والاتباع في الدين مسوغ ، والتقليد ممنوع''[١] .

---

(١) – مجموع الفتاوى : ٩ / ٢٦٢ .

(٢) – المرجع السابق : ٤٥٨/٢ .

(٣) – إعلام الموقعين عن رب العالمين: الإمام ابن القيم ، ٤٥٣/١ .

(٤) – المرجع السابق : ٥٠٩/١ .

(١) – المرجع نفسه : ص٤٥٠ ، ورسالة التقليد : الإمام ابن القيم ، تحقيق وتعليق : محمد عفيفي ، ص١٣ ، ط١، ١٤٠٣هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

وعلى هذا يمكن القول بأن التقليد مذموم والاتباع سائغ أما تقليد الكفار في الأمور المادية، والعلوم التجريبية البحتة ، والتجارب العسكرية ، ونحوها ، فهو مباح ، وقد يصبح ممدوحاً أو واجباً حسب متطلبات الأمة ومصالحها .

النوع المذموم : يمكن القول استخلاصاً مما سبق ذكره من تعريفات التقليد وكلام العلماء فيه بأن قبول قول الغير الذي توصل إليه صاحبه من خلال بحثه العلمي من غير سؤاله عن الحجة والأدلة التي استند إليها في قوله تقليد مذموم في الشرع ، لا يصح كمنهج في أخذ العقائد أو معرفة الأحكام إذ لابد من الفحص والتدقيق وعدم الاعتماد على أراء وأقوال الآخرين في العقيدة أو الأحكام ، فالإسلام يطالب أتباعه بالخروج من تقليد الغير ولو كان من الآباء والأجداد تقليداً محضاً مجرداً من وعي ومعرفة ودليل ، ويدعو إلى البحث والتفكير والتأمل والأخذ بالمنهج العلمي السديد في أخذ العقائد ومعرفة الأحكام ، فقد تحدث القرآن الكريم في جملة من الآيات عن التقليد عندما تكون دوافعه العصبية أو المذهبية أو الطائفية ، وجاء هذا العرض القرآني لهدف التنويه والتذكير بأضرار التقليد ومخاطره بما يحتمل في كيانه من آثار ماحقة للكيان الإنساني ، وعبثيةٍ بالعقل ، قائمةً مَقامه في اتخاذ الآراء وإصدار الأحكام بغير دراية وأساس علمي ووعي موضوعي ، وتجرد من المؤثرات البيئية الخارجية ، ومن ثم فالتقليد لا يساعد على قبول معتقد صحيح أو فكرة صائبة أو بناء رأي سديد وحكم صحيح ، بل يرقى الأمر إلى أخطر من هذا عندما يتحول إلى صنمية جوفاء وعبودية صماء ، ليس فيها إلاّ الأخذ والتسليم من غير إعمال للعقل والفكر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [1]، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد[1] ، وتقليد الآباء والأجداد الضالين شبهة من أوهى الشبه[2]، إذ يتشبثون بما يجدونه من تراث جاهلي وتقاليد بالية منحرفة، ويعتمدونها دليلاً لردّ أي دعوة، ولمناقشة أي رسالة، فهو عندهم من المسلمات التي لا تحتمل الخطأ، فهم سائرون على نهج آبائهم، متمسكون به ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ

---

(١) – سورة الزخرف : من الآيـــة ٢٣ .

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيـــر ، ٤ / ٢٥٣٦ .

(٢) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ السعدي ، ص٧٠٩ .

﴿ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1]، قال الإمام ابن عبد البر – رحمه الله – : فمنعهم الإقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء فقالوا : ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ، كان هذا نموذجاً قرآنياً جلياً للتمسك بمنهج أو فكرة على غير بصيرة وهدى .

ونموذج آخر يتبين من خلاله حب التقليد الأعمى الذي يحرك الإنسان وهو يرفض نداء العقل ويدفع الرسالة السماوية الهادية ، قال تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[2]، هذا هو الردّ الجاهلي على النبي موسى – عليه السلام – ، والذي يؤرخ بدقة متناهية وسرد نفسي عميق للمشاعر التي كانت تستحوذ على النفوس ، وتحرك وضع الرفض للرسالة السماوية بزعم السيطرة والسلطة لتشحن وتصادر العقول تحت وطأة معارضة الأفكار الموروثة التي هي بمثابة المقدسات التي لا تمس ولا تخدش .

ومن الآيات التي تذم التقليد الأعمى قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3] .

وعن عدي بن حاتم قال أتيت النبي – صلى الله عليه وسلم – وفي عنقي صليب من ذهب فقال : '' يا عدي اطرح عنك هذا الوثن '' ، وسمعته يقرأ في سورة براءة : ''﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه ''[4] ، وهذه هي عبادتهم .

وروي عن علي – رضي الله عنه – : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعث جيشاً ، وأمر عليهم رجلاً ، فأوقدوا ناراً ، وقال : ادخلوها . فأراد ناس أن يدخلوها ، وقال الآخرون : إنَّا قد فررنا منها . فذكر ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها : '' لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة ''. وقال للآخرين قولاً حسناً ، وقال : '' لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف ''[1] .

---

(١) – سورة الزخرف : الآيـــة ٢٤ .

(٢) – سورة يونس : الآيـــة ٧٨ .

(٣) – سورة التوبـــة : من الآيـــة ٣١ .

(٤) – جامع الترمذي : كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة التوبـــة ص٤٩٢ ، رقم الحديث : ٣٠٩٥ .

(١) – صحيح مسلم : كتاب الإمارة ، باب : وجوب طاعـــة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ، ص٧٦٩ ، رقم الحديث : ١٨٤٠ . (أخرجـــه البخاري : ٤٣٤٠ ، ٧١٤٥ ، ٧٢٥٧) .

قال الألباني – رحمه الله – معلقاً على الحديث : " وفي الحديث فوائد كثيرة ، أهمها : أنه لا يجوز طاعة أحد في معصية الله – تبارك وتعالى - ، سواء في ذلك الأمراء والعلماء والمشايخ ، ومنه يعلم ضلال طوائف من الناس :

الطائفة الأولى : بعض المتصوفة الذين يطيعون شيوخهم ولو أمروهم بمعصية ظاهرة بحجة أنها في الحقيقة ليست بمعصية ، وأن الشيخ يرى ما لا يرى المريد ...

الطائفة الثانية : وهم المقلدة الذين يُؤْثِرون اتباع كلام المذهب على كلام النبي - ﷺ -، مع وضوح ما يؤخذ منه ...

ولهذا ذهب كثير من المحققين إلى أن أمثال هؤلاء المقلدين ينطبق عليهم قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1] "[2] .

وعن عمرو بن عوف[3] عن أبيه عن جده ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:" إني لا أخاف على أمتي من بعدي إلاّ من أعمال ثلاثة ، قالوا : وما هي يا رسول الله؟ قال : أخاف عليهم زلة العالم ، وحكم جائر ، وهوى متَّبع "[4] ، يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - مستدلاً بهذا الحديث : " والمصنفون في السنة جمعوا بين فساد التقليد وإبطاله وبيان زلة العالم ليبينوا بذلك فساد التقليد ، وأن العالم قد يزل ولابد ؛ إذ ليس بمعصوم ، فلا يجوز قبول كل ما يقوله ، وينزل قوله منزلة قول المعصوم ، فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض ، وحرموا وذموا أهله ، وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم ؛ فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه ، وفيما لم يزل فيه ، وليس لهم تمييز بين ذلك ، فيأخذون الدين بالخطأ ولابد ، فيحلون ما حرم

---

(١) – سورة التوبة : من الآية ٣١ .

(٢) – السلسلة الصحيحة : محمد ناصر الدين الألباني ، ٣٥١/١ ،رقم الحديث : ١٨١ ، ط: بدون ، مكتبة المعارف ، الرياض .

(٣) – أبو عبد الله : عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة المزني ، أحد البكائين ، صحابي مات في خلافة معاوية . انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر ، ٣ / ٩ ، وتقريب التهذيب ، ص٤٢٤ ، رقم الترجمة (٥٠٨٦) .

(٤) – أخرجه ابن عبد البر بسنده إلى عمرو بن عوف : جامع بيان العلم وفضله ، ١٣٤/٢. وذكره ابن القيم مستدلاً به أثناء الحديث عن التقليد المذموم : إعلام الموقعين ، ٤٥٥/١ . وضعفه محمد ناصر الدين الألباني : ضعيف الترغيب والترهيب، ٣٨/٢، رقم الحديث : ٣٦ ، الناشر : مكتبة المعارف ، الرياض ، (بدون عدد وتاريخ طبع) .

الله ، ويحرمون ما أحل الله ، ويشرعون ما لم يشرع ، ولابد لهم من ذلك ؛ إذ كانت العصمة منـــتفية عمن قلدوه، فالخطأ واقع منه ولابد ''[١].

ويقول في موضع آخر '' ومن المعلوم أن المخوف من زلة العالم تقليده فيها ؛ إذ لو لا التقليد لم يُخَفْ من زلة العالم على غيره ''[٢].

وقد حرم الإمام ابن تيمية – رحمه الله – هذا التقليد حيث قال:'' التقليد المذموم هو قبول قول الغير بغير حجة كالذين ذكر الله عنهم أنهم إذا قيل لهم ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[٣] ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾[٤]، وقال : ﴿ إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴾[٥] ، ونظائر هذا في القرآن كثير، فمن اتبع دين آبائه وأسلافه لأجل العادة التي تعودها ، وترك اتباع الحق الذي يجب اتباعه، فهذا هو المقلد المذموم، وهذه حال اليهود والنصارى بل أهل البدع والأهواء في هذه الأمة الذين اتبعوا شيوخهم ورؤساءهم في غير الحق، كما قال تعالى : ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنًا كَبِيرًا ﴾[٦]، وقال تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[٢] ، وقال : ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم

---

(١) – إعــلام الموقــعين : الإمام ابن القيم : ١ / ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(٢) – المرجع نفسه : ١ / ٤٥٦ .

(٣) – سورة البقرة : من الآيــة ١٧٠ .

(٤) – سورة البقرة : من الآيــة ١٧٠ .

(٥) – سورة الصافات : الآيــة ٦٩ ، ٧٠ .

(٦) – سورة الأحزاب : الآيــة ٦٦ – ٦٨ .

(١) – سورة الفرقان : الآيــة ٢٧ – ٢٩ .

(٢) – سورة البقرة : الآيــة ١٦٦ ، ١٦٧ .

مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾[1] ، وأمثال ذلك مما فيه بيان أن من أطاع مخلوقاً في معصية الله كان له نصيب من هذا الذم والعقاب، والمطيع للمخلوق في معصية الله ورسوله إما أن يتبع الظن وإما أن يتبع ما يهواه ، وكثير يتبعهما وهذه حال كل من عصى رسول الله من المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن أهل البدع والفجور من هذه الأمة كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[2]، والسلطان هو الكتاب المنــزل من عند الله ، وهو الهدى الذي جاءهم من عند الله كما قال تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾[3]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾[4]، وقال لبني آدم: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[5]، وبيان ذلك أن الشخص إما أن يـــبين له أن ما بعث الله به رسوله حق ويعدل عن ذلك إلى اتباع هواه ، أو يحسب أن ما هو عليه من ترك ذلك هو الحق ، فهذا متبع للظن والأول متبع لهواه ، قال تعالى في صفة الأولين: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] ، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ

---

(١) — سورة غافر : الآيـــة ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) — سورة النجم : الآيـــة ٢٣ .

(٣) — سورة الروم : الآيـــة ٣٥ .

(٤) — سورة غـــافـــر : من الآيـــة ٥٦ .

(٥) - سورة طـــه : الآيـــة ١٢٣ — ١٢٧ .

(١) — سورة الأنعام : من الآيـــة ٣٣ .

(٢) — سورة النمل : الآيـــة ١٤ .

أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[1]، وقال تعالى في صفة الأخسرين: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلاً ﴾[2]، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾[3] ، فالأول حال المغضوب عليهم الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه كما هو موجود في اليهود ، والثاني حال الذين يعملون بغير علم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[5] ، وكل من يخالف الرسل هو مقلد متبع لمن لا يجوز له اتباعه ، وكذلك من اتبع الرسول بغير بصيرة ولا تبين ، وهو الذي يسلم بظاهره من غير أن يدخل الإيمان إلى قلبه كالذي يقال له في القبر ما ربك وما دينك وما نبيك؟ فيقول هاه هاه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، هو مقلد ، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصفق أي لمات ، وقد قال تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾[6] ، فمن لم يدخل الإيمان في قلبه وكان مسلماً في الظاهر فهو من المقلدين المذمومين ، فإذا تبين أن المقلد مذموم وهو من اتبع هوى من لا يجوز اتباعه كالذي يترك طاعات رسل الله ويتبع ساداته وكبرائه أو يتبع الرسول ظاهرا بغير إيمان فيقلبه ، تبـين أن اليهود والنصارى كلهم مقلدون تقليداً مذموماً وكذلك المنافقون من هذه الأمة ''[1] .

وصرح – رحمه الله – في موضع آخر بحرمة التقليد المحرم ، وذكر اتفاق المسلمين على ذلك حيث قال : '' قد ذم الله تعالى في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نشأ عليه من دين آبائه ، وهذا هو التقليد الذي حرمه الله ورسوله ، وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول ، وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ،

---

(١) – سورة البقرة : الآيـة ١٤٦ .

(٢) – سورة الكهف : الآيـة ١٠٣ .

(٣) – سورة فاطـر : من الآيـة ٨ .

(٤) – سورة الأنعام : من الآيـة ١١٩ .

(٥) – سورة القصص : من الآيـة ٥٠ .

(٦) – سورة الحجرات : من الآيـة ١٤ .

(١) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيميـة ، ٤ / ١٩٧ – ٢٠١ .

والرسول طاعته فرض على كل أحد من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان في سره وعلانيته وفي جميع أحواله ''[1] .

وقد قسم الإمام ابن القيم – رحمه الله – التقليد المحرم إلى ثلاثة أنواع كما يلي :

الأول : الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاءً بتقليد الآباء .

الثاني : تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله .

الثالث : التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد ، والفرق بين هذا وبين النوع الأول أن الأول قَلَّد قبل تمكنه من العلم والحجة ، وهذا قلَّد بعد ظهور الحجة له؛ فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله[2] .

وقد ذم الله هذه الأنواع الثلاثة من التقليد في غير موضع من كتابه كما في قوله عزّ وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[3] ، وفي قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾[4] ، وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[1] ، وهذا في القرآن كثير ، يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء[2] .

ويقول – رحمه الله – في قوله تعالى : '' ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾[3] ، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾[4] ، ولا وليجة أعظم ممن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام الله وكلام رسوله وكلام سائر الأمة ، يقدمه على

---

(١) – المرجع نفسه : ١٩ / ٢٦٠ .

(٢) – إعلام الموقعين : الإمام ابن القيم ، ١ / ٤٥٢ .

(٣) – سورة البقرة : الآية ١٧٠ .

(٤) – سورة الزخرف : الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(١) – سورة المائدة : من الآية ١٠٤ .

(٢) – إعلام الموقعين : الإمام ابن القيم ، ١ / ٤٥٢ .

(٣) – سورة آل عمران : من الآية ١٤٢ .

(٤) – سورة التوبة : من الآية ١٦ .

ذلك كله ، ويَعْرض كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة على قوله فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله وما خالفه منها تلطف في رده وتطلب له وجوه الحيل ، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة ! وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴾[1] ، وهذا نص في بطلان التقليد ''[2] .

فالمنهج الصحيح وطريق أهل العلم في الموضوع هو : طلب أقوال العلماء وضبطها والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنة الثابتة عن رسول الله – ﷺ – وأقوال خلفائه الراشدين ، فما وافق ذلك منهم قبلوه ، ودانوا الله به ، وقضوا به وأفتوا به ، وما خالف ذلك منها لم يلتفتوا إليه، وردُّوه ، وما لم يتبين لهم كان عندهم من مسائل الاجتهاد التي غايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع ، من غير أن يلزموا بها أحداً ، ولا يقولوا إنها الحق دون ما خالفها[3] .

ويقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله – : '' فدين الله مبني على اتباع كتاب الله وسنة نبيه ، وما اتفقت عليه الأمة ؛ فهذه الثلاثة هي المعصومة ، وما تنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته ، يوالي عليها ويعادي ؛ غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة ، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة ، يوالون على ذلك الكلام أو تلك السنة ويعادون ''[1] .

إذن خلاصة القول في الموضوع هي :

– التقليد على الجملة مذموم ومنهي عنه في الشرع ، وأن المنع منه إن لم يكن إجماعاً فهو مذهب الجمهور ، وأن الأصل هو العمل بالكتاب والسنة .

– وإن جاز التقليد – في حالة سلف ذكرها – فلا يجوز في أصول الدين والعقائد الثابتة بنصوص الكتاب والسنة ، كتقليد المشركين في عبادتهم للأوثان ، والنصارى في عقائدهم ، وتقليد دول الكفر في اعتقاد عدم صلاحية الشريعة للحكم ، أو في تعطيل حدود الله أو نحو ذلك، ويكون التقليد في مثل هذه الحالات كفراً ظاهراً .

– التقليد كتقليد الكفار واليهود والنصارى بوجه عام تقليد محرم .

---

(١) – سورة الأحزاب : الآيــة ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) – إعــلام الموقــعين : الإمام ابن القيم ، ١ / ٤٥٣ .

(٣) – المرجع السابق : ١ / ٤٨٣ .

(١) – المرجع نفسه : ١ / ٤٨٣ .

- تقليد الكفار أو اليهود أو النصارى في أعيادهم واحتفالاتهم وموافقتهم فيها محرم.

المسألة الثالثة : **أسباب التقليد وخطورته** :

يقول الأستاذ عبد الرحمن حسن الميداني بأن التقليد الأعمى يتولد من ضعف الثقة بالنفس، مضافاً إليه عامل الثقة العمياء بالشخص المتبوع أو الجماعة أو القوم المتبوعين ، وهذه الثقة تأتي من دافع المحبة أو من دافع الهوى ، أو من قناعة غير مستندة إلى أسس عقلية وعملية صحيحة ، أو من دافع الأنانية في التابع حينما يكون المتبوع من أصوله ، أو من قومه ، أو من بيئته ، أو من ساكني وطنه(1).

ويتبين من خلال الكتاب والسنة والمشاهدة والتأمل في حياة الإنسان أن للتقليد الأعمى سببين مهمين ، هما :

الأول : فساد بيئة المولود وانحرافها عن منهج الله .

الثاني : التعصب للآباء .

الأول : فساد بيئة المولود وانحرافها عن منهج الله: فالبيئة لها أثر عميق في بناء تفكير المولود وتكوين طبيعته ، حيث ينشأ فيها ويترعرع متلقياً ومتلقفاً منها كل ما يجد من خير أو شر، حتى إن فطرته التي يولد عليها مرهونة للبيئة التي ولد فيها ، يدل على ذلك قول النبي - ﷺ - بكل وضوح : " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه "(1).

فالتقاليد والعادات الفاسدة والأفكار والمعتقدات المنحرفة الضالة التي يتلقفها الإنسان منذ صغره وينشأ عليها تصبح هي دينه لا يرضى التنازل عنها ، بل يكون مستعداً لبذل التضحيات في سبيله ولأجله .

يقول الإمام الشوكاني - رحمه الله : " ومنهج الحق واضح ، ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه ، وأدرك آباءه وأهل بلده ، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة يوقع في التعصب ، والمتعصب وإن كان بصره صحيحاً فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو

---

(1) - الأخلاق الإسلامية وأسسها : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، 1 / 755، ط: 1391، دار القلم ، دمشق ، بيروت .

(1) - صحيح البخاري : كتاب الجنائز ، باب : ما قيل في أولاد المشركين ، ص268 ، رقم الحديث : 1385 .

الحق ، غفلة منه وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقي ما جاء في الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم "[1].

الثاني : التعصب للآباء : الحب للآباء أمر طبيعي وممدوح ، ولكن الإفراط فيه حتى يتحول إلى التعصب الذي يمنع أهله من الاستجابة للحق والتسليم له ، ويدفعهم إلى القول والاعتقاد بأحقية كل ما كان عليه الآباء وصحتها أمر مذموم في الشرع وممنوع عنه فيه .

وهذا التعصب أو – بعبارة أخرى – عصبية النسب والدم ، وعصبية الأصنام حيث كان المشركون يأنفون أن يعبدوا معها غيرها[2] ، كما يشير إليه القرآن : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾[3] ، كان من أهم أسباب رفض الأمم دعوات الأنبياء والمرسلين، بل وإثارة الشبهات حولها ومحاربتها ، ولم يكن لهم في ذلك مبرر إلاّ أنهم كانوا يقولون : إن هذه الدعوة خروج عن عقيدة الآباء ، ولا نتبع إلا ما ألفينا عليه آباءنا ، قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[1] ، فكان قولهم هذا بعيداً عن التعقل أو التفكير أو النظر لكونه صادراً عن عصبية مقيتة جاهلية لما هو موروث من الآباء .

كان المشركون يرون أن التعرض لمعتقداتهم تعرض لآبائهم ، ولذا كانوا كثيراً ما يكررون في بداية حوارهم مع الرسول – ﷺ – قولهم : ضللت الآباء[2] ، فالتعصب الغضوب للآباء دفعهم للتعصب لعقائدهم كذلك ، دون أي تأمل أو تفكر ، فهو يثيرهم أن تمس عقيدتهم الموروثة ، كما يثورون لحماية الحوزة أو الذود عن الآباء والأجداد لأنه – بحسب عقيدتهم – من جملة ما ورثوه عن الآباء[3] ، فقاموا ضد دعوة النبي – ﷺ – ، وأثاروا الشبهات حولها ، وافتروا الاتهامات الكاذبة حول شخصية النبي – ﷺ – ، وحاربوا الدعوة والنبي والمؤمنين بكل ما أعطوا من القوة والإمكانات ، وقد واجه قبله سائر الأنبياء والمرسلين مثل ما واجه النبي – ﷺ – ، فمن هنا كان التقليد أحد أهم أسباب إثارة الشبهات حول الدعوة والداعية .

---

(١) – فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٢ / ٢٤٣ .

(٢) – الجامع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ١٦ / ٢٤٥ .

(٣) – سورة الفتح : من الآيــة ٢٦ .

(١) – سورة البقرة : من الآيــة ١٧٠ .

(٢) – السيرة النبويــة : الإمام ابن كثيــر ، ١ / ٥٠٤ .

(٣) – عبقرية الصديق : عباس العقاد ، ص٧٥ ، ط : المكتبة العصرية ، صيداء ، بيروت .

المبحث الأول

أسباب إثارة الشبهات على الدعوة الإسلامية ودوافعها

المطلب الثالث : إمكانية معالجة دوافع الشبهات وإزالة أسبابها :

توطئة .

أولاً : الأدلة من الكتاب والسنة .

ثانياً : الأدلة من الواقع والمشاهدات .

المطلب الثالث : إمكانية معالجة دوافع الشبهات وإزالة أسبابها

توطئة :

قد يظن القارئ من خلال ما سلف من الكلام والدراسة عن دوافع الشبهات وأسبابها – لما لها من أثر عميق في تطبيع الإنسان وتفكيره ومن ثم تخلقه وسلوكه – عدم إمكانية معالجة هذه الدوافع وإزالة تلك الأسباب حيث تتأصل في الإنسان وتتغلغل في نفسه فلا يجد سبيلاً إلى علاجها ، بل قد ذهب بعض الناس إلى هذا الرأي ، وقالوا باستحالة المعالجة إذ '' الأخلاق – عندهم – لا يتصور تغيرها فإن الطباع لا تتغير ''[١] ، وقالوا بأن الله ﷻ قد فرغ من الخَلْق والخُلُق والرزق والأجل[٢] ، أي لا يرون في أي منها التغيير والتبديل ، ولكن الصواب في الأمر أن ما قالوه زعم بلا سند وظن محض ، والظن – كما هو معلوم – ليس بعلم ولا يقين ولا برهان ، فقد ثبت إمكانية العلاج من خلال الكتاب والسنة ، كما ردّ أهل العلم على هذا الزعم، وأثبتوا إمكانية العلاج وبينوا سبله ، والأدلة على ذلك كثيرة ومتنوعة ؛ من النقل والعقل والمشاهدة ، ويأتي فيما يلي ذكر بعض منها :

أولاً : الأدلة من الكتاب والسنة :

(أ) – **الكتاب :**

(**١**)- قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾[١] .

دلت الآية على أن الناس يعلمون الجوارح لطلب الصيد ، والمراد بالجوارح : الكواسب من الكلاب ، والفهود ، والصقور ، والبيزان ، والطيور ، ويعني التعليم هنا بأن تستشلي هذه الجوارح للصيد إذا أشليت ، وتجيب إذ دعيت ، وتنـــزجر إذا زجرت ، وإذا أمسكت لم تأكل ، أي : أنها تعلم أنها أمسكت لصاحبها ، فهي معلمة ومدربة ومطيعة لصاحبها[٢] .

فإذا كان التأثير في طبيعة البهيمة وتغيـــير أخلاقها ونقلها من الوحوش إلى الألوف أمراً ممكناً فكيف ينكر في حق الآدمي التأثير في طبيعته ، والتغيـــير في أخلاقه ، والترشيد في أفكاره

---

(١) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٢ / ٧٠ .

(٢) – عـــدة الصابرين : الإمام ابن القيم ، تحقيق : زكريا علي يوسف ، ص١٢ ، ط : دار الكتب ، العلمية ، بيـــروت.

(١) – سورة المائدة : من الآيـــة ٤ .

(٢) – جـــامع البيان عن تأويل آى القرآن : الإمام الطبري ، ٢ / ٦٤ ، (بتصرف) .

وسلوكه من خلال التعلم والتعليم وقد ميزه الله ﷻ من بين سائر مخلوقاته بالعلم والعقل وقوة التميـــيز ؟ !

(٢) – قال تعالى :

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[(١)] .

أي : عرفها طريق الفجور والتقوى ، وقيل : عرفها الطاعة والمعصية ، فمن زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال أفلح ، ومن دس نفسه بالمعاصي خاب وخسر[(٢)] .

ففي الآيـــة إشارة واضحة أن " الدوافع " لا تُسير الإنسان حتماً ، وإنما في وسعه أن يجنبها عن نفسه ويزيلها ولا يدعها تتمكن من نفسه ، فيمتثل حسب ما تدفعه إليه من رغبات وشهوات ، كما في الآيـــة دلالة واضحة أن الإنسان إذا سعى إلى الخير فأطاع الله وعمل أعمالاً صالحة وتخلق بأخلاق عالية تزكت نفسه وأفلحت.

(٣) – قال تعالى :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[(١)]

أي : بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال ، والخير والشر ، والسعادة والشقاء ؛ وذلك ببعث الرسل ، فآمن أو كفر ، مهتدياً إليه بطبعه وعقله[(٢)] .

إذن بعد بيان النبي طريق الهدى والسعادة وطريق الضلال والشقاء ، يكون الأمر متروكاً للإنسان ، يختار منهما ما يشاء مدفوعاً بطبعه أو مستخدماً عقله ، فإن اندفع بما في طبعه من دوافع الخير واستخدم عقله السليم من خلال ما جاءه من الحق والنور عن طريق النبي – ﷺ – اهتدى إلى الإيمان والسعادة ، وإن اندفع بما في طبعه من دوافع الشر واختار الكفر فقد ضل وشقي .

(ب) : السنة :

(١) – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل

---

(١) – سورة الشمس : الآيـــة ٨ – ١٠ .

(٢) – الجامـــع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ٢٠ / ٦٨ ، (بتصرف) .

(١) – سورة الإنسان : الآيـــة ٣ .

(٢) – الجامـــع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ١٩ / ١١٠ .

تحسون فيها من جدعاء ". ثم يقول أبو هريرة – رضي الله عنه – : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[1] ،[2] .

المراد بالفطرة هنا دين الإسلام ، ومن دلائل الحديث أن الناس متهيئون من أصل جبلتهم لقبول الحق والهدى ، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها و لم يفارقها إلى غيرها ؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد .

وقال ابن القيم – رحمه الله – بأن المراد أن كل مولود يولد على محبته لفاطره وإقراره له بربوبيته وادعائه له بالعبودية ، فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره[1].

فمن تغير عن هذه الفطرة ؛ وهو الإسلام ، كان بسبب أبويه إما بتعليمهما إياه أو بترغيبهما فيه[2] .

إذن فطبيعة الإنسان قابلة ومؤهلة لقبول الحق ورفض الباطل أو قبول الباطل ورفض الحق ، ومن ثم فإمكانية معالجة التغيير الذي يحصل للإنسان في أفكاره ومعتقداته ، أو سلوكه وأخلاقه بسبب أو دافع ما ، أمر واضح وجلي ، يقول الإمام القرطبي – رحمه الله – : " إن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ، ودين الإسلام هو الدين الحق"[3] .

(٢) – عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال : آخر ما أوصاني به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين وضعت رجلي في الغرز أن قال : " أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل "[4] .

---

(١) – سورة الروم : من الآية ٣٠ .

(٢)- صحيح البخاري : كتاب الجنائز ، باب : إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلى عليه ، ص٢٦٤ ، رقم الحديث : ١٣٥٩ . (أخرجه مسلم : ٢٦٥٨) .

(١) – شفاء العليل : ابن القيم الجوزية ، تحقيق : محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي ، ص٢٨٩ ، ط: ١٣٩٨ – ١٩٧٨م ، دار الفكر ، بيروت . شفاء العليل : ابن القيم الجوزية ، تحقيق : محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي ، ص٢٨٩ ، ط: ١٣٩٨ – ١٩٧٨م ، دار الفكر ، بيروت .

(٢) – فتح الباري : شرح صحيح البخاري ، الإمام ابن حجر ، ٣ / ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، (بتصرف) ، ط : ١٣٧٩هـ ، دار المعرفة ، بيروت .

(٣) – المرجع السابق : ٣ / ٢٤٩ .

(٤) – موطأ الإمام مالك : الإمام مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ٢ / ٩٠٢ ، ط : دار إحياء التراث العربي ، مصر ، (والحديث منقطع ، ورجاله ثقات : التمهيد لما في الموطأ من المعني والأسانيد :

في الحديث دلالة واضحة على وجود الأهلية في نفس الإنسان على قبول الأخلاق الحسنة ورفض السيئة أو العكس ؛ حيث لو لم تكن هذه الأهلية في النفس البشري لما جاء هذا الأمر والوصية من النبي – ﷺ – لمعاذ بن جبل – رضي الله عنه – إذ النبي – ﷺ – لا يقول إلاّ حقاً وصواباً، قال الله تعالى عنه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[1] .

(٣) – عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال : " إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ومن يتق الشر يوقه "[1] .

" إنما العلم بالتعلم " أي : تحصيل العلم والمعرفة إنما يكون بالتعليم والتعلم والطلب والاكتساب من أهل العلم والمعرفة ، " وإنما الحلم بالتحلم " أي : ببعث النفس وتنشيطها إليه، والحلم إمساك النفس عن هيجان الغضب ، وإمساكها عن قضاء الوطر إذا هاج الغضب ،" ومن يتحر الخير يعطه "، أي : ومن يجتهد في تحصيل الخير يعطه الله تعالى إياه ، " ومن يتق " وفي رواية: يتوق ،" الشر يوقه " ، أي: من يتق ويبتعد عن الشر يحفظه الله تعالى ويقيه منه .

ويحصل العلم بالفيض الإلهي لكنه نادر ، قال الراغب : الفضائل ضربان ، نظري وعملي ، وكل ضرب منها يحصل على وجهين ، أحدهما بتعليم بشري يحتاج إلى زمان وتدرب وممارسة ، ويتقوى الإنسان فيه درجة فدرجة ، وإن فيهم من يكفيه أدنى ممارسة بحسب اختلاف الطبائع في الذكاء والبلادة ، والثاني يحصل بفيض إلهي ، نحو أن يولد إنسان عالما بغير تعلم كعيسى ويحى – عليهما الصلاة والسلام – ، وسائر الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – حيث حصل لهم من المعارف بغير ممارسة ما لم يحصل لغيرهم ، وذكر بعض الحكماء أن ذلك قد يحصل لغير الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – [2] ، ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب ،

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري ، تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري ، ٢٤ / ٣٠٠ ، ط : ١٣٨٧ ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب) .

(١) – سورة النجم : الآية ٣ ، ٤ .

(١) – مسند الشاميين: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمد بن عبد المجيد السلفي، ٢٠٩/٣، رقم الحديث: ٢١٠٣، ط١، ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، والجامع الصغير وزيادته: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ٤١٠/١ ، رقم الحديث : ٤٠٩٣ ، ط: المكتب الإسلامي، (حسنة الألباني، أنظر حديث رقم ٢٣٢٨ في صحيح الجامع).

(٢) – فيض القدير شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المنادى، ٥٦٩/٢، ط١، ١٣٥٦هـ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

فرب صبي خلق صادق اللهجة سخياً جرياً ، وربما يخلق بخلافه ، فيحصل ذلك بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق[1] .

فالحديث ردّ واضح على من ذهب إلى استحالة تغيـــير الخلق والسلوك ، كما هو صريح الدلالة على إمكانية معالجة الدوافع التي تؤثر في الإنسان .

(٤) — عن أبي هريرة – ﷺ – قال : قال رسول الله : "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يـــبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ها هنا" ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات[1] .

(٥) — وعنه – ﷺ – أيضاً قال : قال رسول الله – ﷺ – : "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم" وأشار بأصابعه إلى صدره[2] .

إن في هذين الحديثين الشريفين دلالة واضحة على أهمية القلب ، وحثاً للاهتمام به وتربيته وتزكيته ؛ وذلك لأن مجازاة الإنسان ومحاسبته إنما يكون على ما في القلب دون الصور الظاهرة ، فهو مكمن القصد والنية و"الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى ، وإنما يحصل بما يقع في القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته"[3] ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن القلب محل الصلاح والفساد ، مؤهل لقبول الخير والشر ، ولذا جاءت هذه النصوص النبوية ، ومثلها كثيرة، تؤكد أهمية تزكية القلب ، وتحث على تطهيره مما يعلق به من أدران الفساد والأمراض بسبب الدوافع المختلفة المتنوعة ، ومنها الدوافع التي سبقت دراستها في المسألة السابقة .

ثانيـــا : الأدلة من الواقع والمشاهدات

---

(١) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٢ / ٧٢ .

(١) – صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب : تحريم ظلم المسلم وخذلـــه واحتقاره ودمـــه وعرضه ومالـــه ، ص١٠٣٥ ، رقم الحديث : ٢٥٦٤ .

(٢) – المرجـــع نفسه : والكتاب والباب والصفحة ورقم الحديث نفسه .

(٣) – المنهاج شرح صحيح الإمام مسلم : الإمام النووي ، ١٦ / ١٢١ .

(**١**) – يقول الإمام الغزالي : " لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيـــير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله – ﷺ – : " حسنوا أخلاقكم "[١] ، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيـــير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق "[٢] .

(**٢**) يرى ابن مسكوية أن الإنسان مطبوع على قبول الخلق بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً ، وهذا مشاهد وملموس[١] ، ثم يقول رداً على من ذهب إلى عدم إمكانية معالجة الدوافع وتغيـــير الخلق بأن ذلك يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى رفض السياسات كلها ، وترك الناس همجاً مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً[٢].

(**٣**) – وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن من فعل ما أُمر به من الإيمان والعمل الصالح، قد يمتنع بذلك عما نهي عنه من أحد وجهين ، إما من جهة اجتماعهما إذ الإيمان ضد الكفر ، والعمل الصالح ضد السيئ ، فلا يكون مصدقاً وفي الوقت نفسه مكذباً ، ومحباً وفي الوقت نفسه مبغضاً ، وإما من جهة اقتضاء الحسنة ترك السيئة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[٣] ، وهذا محسوس ، فإن الإنسان إذا قرأ القرآن وتدبره كان ذلك من أقوى الأسباب المانعة له من المعاصي ، أو بعضها ، وكذلك الصوم جنة ، وكذلك الإيمان نفسه يصد القلب عن إرادته السيئة وذلك بتحريم المحرمات وبعذاب الله على ارتكابها ، فالحسنات إما ضد السيئات وإما مانعة منها ، فهي إما ضد وإما صد[٤] .

إذن تغيـــير الأخلاق والأعمال والسلوك ليس بمستحيل إن وجدت الأسباب والدوافع للتغيـــير .

---

(١) – سبق تخريجه ، وهو من حديث معاذ : " يا معاذ حسن خلقك للناس " .

(٢) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٢ / ٧٠ .

(١) – تهذيب الأخلاق في التربيـــة : ابن مسكويـــة ، ص٢٦ ، ط: ١ ، ١٤٠٥هـــ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) – المرجع نفســـه : ص٢٦ .

(٣) – سورة العنكبوت : من الآيـــة ٤٥ .

(٤) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٢٠/ ١٢٣،١٢٤ .

(٤) – ويقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – أثناء الحديث عن الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة : ‘‘الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره ، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن إن كان خلقاً له وملكه سمي تصبراً ، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمي تصبراً ، كما يدل عليه هذا البناء لغة ، فإنه موضع التكلف كالتحلم ، والتشجع ، والتكرم ، والتحمل ، ونحوها ، وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له ، كما في الحديث عن النبي – ﷺ – أنه قال : ‘‘ ومن يتصبر يصبره الله ’’[1] ، وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية ، وكذلك سائر الأخلاق’’[2] .

ويقول في موضع آخر نقلاً عن الذين ذهبوا إلى إمكانية اكتساب الأخلاق موافقاً لهم بأن المزاولات تعطي الملكات ، ومعنى هذا أن من زاول شيئا واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة[3] .

ويقول نقلا عنهم أيضاً وموافقاً لهم بأن العوائد تنقل الطبائع ، فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطبائع ، وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوة القبول والتعلم ، فنقل الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل[4] .

(٥) – وقال الدكتور دراز : ‘‘ بل ربّ كلمة تصادف القلب ، وربّ حادث مفاجئ يصدم الشعور ، فإذا مجرى الحياة كلها قد تغير في طرفة عين ، وإذا المعوج يعود مستقيماً ، والفاجر العربيد تقيا نقيا ’’[5] ، فهذا عمر – رضي الله عنه – تتغير حياته فجأة خلال لحظات بدون دراسات عميقة أو مقدمات طويلة ، والأمثلة مثل ذلك كثيرة .

(٦) – إن التاريخ الإسلامي بأكمله خير شاهد على انتقال الإنسان بل الأقوام من محيط إلى محيط آخر يختلف عن الأول في كل جوانبه ومعانيه للحياة ، فلا يخفى على أحد ما أحدثه

---

(١) – صحيح البخاري : كتاب الزكاة ، باب : الاستعفاف عن المسألة ، ص٢٨٧ ، رقم الحديث : ١٤٦٩ .
و(أخرجه مسلم ، رقم الحديث : ١٠٥٣) .

(٢) – عدة الصابرين : الإمام ابن القيم ، ص١٢ .

(٣) – المرجع نفسه : ص ١٣ .

(٤) – المرجع السابق : ص١٣ .

(٥) – دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية : د . محمد بن عبد الله دراز ، ص ... ط : ١٤٠٠هـ ، دار القلم ، الكويت .

النبي – ﷺ – من التحول والتغيـــير في حياة الإنسان في العالم أجمع ، بدءاً من العالم العربي بفضل ما أعطي من الهداية ونور العلم والآداب السامية والأخلاق العالية الربانية ، لقد تحول العرب والأعراب من الكفر إلى الإيمان ، ومن وأد البنات ، الذي لم يكن من الإنسانية في شيء ، ومن حروب متناحرة متواصلة لا نهاية لها إلى أمة صارت مصابيح يستنار بمكارم أخلاقها ومحاسن صفاتها ، ولم يقتصر هذا التحول بالعالم العربي وإنما تجاوزه وشمل بلاد العالم أجمع ، ولو لم تتحول قاطبة كالعالم العربي ، فهذا دليل صريح واقعي ومشاهد على إمكان التخلق والتأدب ومعالجة ما يعلق بقلب الإنسان وفطرته الأصلية من أدران الشرك وأمراض الشهوة والشبهات بسبب الدوافع المتنوعة التي تقدمت دراسة أهمها في بداية هذا المبحث .

هذا ، أما المعالجة التفصيلية لكل داء أو دافع من الدوافع التي تمت دراستها فلا يسع المقام لها، وستأتي – إن شاء الله – إشارات علمية مختصرة لما يمكن معالجتها به أثناء الحديث عن مناهج الدعوة في مواجهة الشبهات .

المبحث الثاني

مظاهر الشبهات المثارة على الدعوة الإسلامية

توطئة .

المطلب الأول : مظاهر الشبهات المثارة حول الداعي :

المقصد الأول : التعريف بالداعي .

المقصد الثاني : مظاهر الشبهات التي تثار حول الداعي .

المطلب الثاني : مظاهر الشبهات المثارة حول المدعو

المطلب الثالث : مظاهر الشبهات المثارة حول الدعوة :

- شواهد وأمثلة على الشبهات المتعلقة بالقرآن الكريم .
- شواهد وأمثلة على الشبهات المثارة حول موضوعات الدعوة .

توطئة :

" انطلق المثيرون للشبهات حول الدعوة والداعية ، يروجون الإشاعات المغرضة ، ويفترون الأكاذيب المضللة في كل ناحية ، في المجتمعات ، في الصحائف ، في الكتب ، في الإذاعات ، في التلفاز ، في الندوات ، في البحوث والمؤتمرات ، يريدونها دوياً مهلكاً ، وضباباً كثيفاً بل لهباً مستعراً حول الدعوة والداعية ، أو حول الفكرة والتنفيذ ، أو حول المنهج والقدوة ، ولكي تكون كذلك ، ولكي تؤدي غرضها المطلوب منها على أحسن وجه قذفوا تلك الشبهات إلى ثلاثة أغراض :

الغرض الأول : هو الداعي ، الثاني : هو الدعوة ، الثالث : هو حقل الدعوة ، وهم الناس المحيطون بالداعية "[1] .

فالشبهات يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع كما يلي :

الأول : الشبهات التي تثار حول الداعي ، وهي موضوع الدراسة في المطلب الأول

الثاني : الشبهات التي تثار حول المدعو ، وهي موضوع الدراسة في المطلب الثاني

الثالث :الشبهات التي تثار حول الدعوة نفسها ، وهي موضوع الدراسة في المطلب الثالث.

المطلب الأول : مظاهر الشبهات المثارة حول الداعي

---

(١)- الدعــوة إلى الله ، الرسالــة ، الوسيلــة – الهدف : د / توفيق الواعي ، ص١٥٨ .

المقصد الأول : التعريف بالداعي

قبل الشروع في أصل الموضوع ، وهو مظاهر الشبهات التي تثار حول الداعي ، يجدر الإجابة عن السؤال : من هو الداعي ؟

ولذا ، تأتي – فيما يلي – دراسة مختصرة للتعريف بالداعي إجابة عن السؤال لإيضاح معنى هذا الاصطلاح وبيان المقصود منه .

الداعي في اللغة :

الداعي أو الداعية : اسم فاعل ، الداعي على وزن فاعل ، والداعية على وزن فاعلة، تأتي الهاء في آخر الداعي للمبالغة .

يقال : دعاه ، يدعوه ، فهو داع له .

والداعية : صريخ الخيل في الحروب . وداعية اللبن : بقيته التي تدعو سائره ، ويطلق الداعي على المؤذن أيضاً لأنه يدعو إلى ما يقرب من الله ، وقد دعا فهو داع ، والجمع دعاة وداعون كقضاة وقاضون [1].

والداعي لفظ عام ، يطلق على من يدعو إلى الحق : داعي الحق ، وعلى من يدعو إلى الباطل : داعي الباطل ، ولذا قيل :

الداعية : الذي يدعو إلى دين أو فكرة [2].

ويقال : رجل داعية إذا كان يدعو إلى بدعة أو مذهب أو دين[3] .

ويتأكد هذا المعنى بما جاء في القرآن الكريم على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[4]، وما جاء حكاية عن المشركين : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾[5] .

---

(١) – قاموس المحيط : الفيروز آبادي ، ص١٦٥٥ ، باب الواو ، وفصل الدال .

– وتاج العروس : محمد مرتضى الزبيدي ، ٨٣٨٢/١ .

(٢) – المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، ص٢٨٧ .

(٣) – الدعـــوة إلى الله ، الرسالـــة – الوسيلة – الهدف : د / توفيق الواعي ، ص١٦ .

(٤) – سورة غـــافـــر : الآيـــة ٤١ .

(٥) – سورة البقرة : من الآيـــة ٢٢١ .

الداعي في الاصطلاح الشرعي :

هو "المبلغ للإسلام ، والمعلّم له ، والساعي إلى تطبيقه "[١].

ويشمل مصطلح الداعي من قام بأعمال الدعوة كلها أو بعضها دون بعض ، والذي يقوم بكلها فهو الداعي الكامل ، كالأنبياء والمرسلين ، فهم كانوا دعاة إلى الله على أكمل الوجه كما أراد الله منهم أن يكونوا ، كما كانوا هم الدعاة الأوائل لأممهم ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[٢] .

والداعي الأول إلى الله لهذه الأمة هو نبينا محمد – ﷺ – ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٍ ﴾[٤] ، وقال سبحانه : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾[٥]، وقال ﷻ : ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[٦] ، وقال جلّ شأنه : ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾[٧] .

ويمكن تعريف الداعي بأنه " المسلم " مطلقاً ، أي كل مسلم ومسلمة بتوفر شرط العقل والبلوغ ؛ وذلك من وجهين :

---

(١) – المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، ص٤٠ .

(١) – سورة النحل : الآيـــة ٣٦ .

(٢) – سورة النساء : الآيـــة ١٦٥ .

(٣) – سورة الأحزاب : الآيـــة ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) – سورة الحج : من الآيـــة ٦٧ .

(٥) – سورة الرعـــد : من الآيـــة ٣٦ .

(٦) – سورة القصص : الآيـــة ٨٧ .

(٧) – سورة الأحقاف : الآيـــة ٣١ – ٣٢ .

الأول : تبعاً للنبي – ﷺ – : فالآيات التي سبق ذكرها آنفاً تشمل المسلمين جميعاً ،" لأن الأصل في خطاب الله لرسوله – ﷺ – دخول أمته فيه إلا ما استـــثني ، وليس من هذا المستـــثنى أمر الله تبارك وتعالى بالدعوة إليه "[1].

الثاني : النصوص الصريحة الدالة على وجوب الدعوة على كل مسلم ، وهي متعددة، منها – مثلاً – :

(١) – قول الله ﷻ لنبيه الكريم – ﷺ – : ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾[1]

إن هذه الآيـــة الكريمة صريحة الدلالة على أن الدعوة إلى الله على علم ويقين سبيل النبي – ﷺ – وطريقته ومسلكه ، وهو أيضاً سبيل من اهتدى بهديه فآمن بما جاء به واتبعه ، فإن لم يفعل ذلك أحد بعد الإيمان ، فهو إما لعدم علمه بأن الإيمان يقتضي القيام بالدعوة إلى الله أو هو تقصير منه في أداء الواجب ، يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآيـــة الكريمة: " يقول الله تعالى لرسوله – ﷺ – إلى الثقلين : الإنس والجن ، آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله ، أي : طريقته ومسلكه وسنـــته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله – ﷺ – على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي "[2].

(٢) – وقوله الله سبحانه وتعالى للأمة أجمع :

﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[3]

تدل هذه الآيـــة الكريمة على الأمرين المهمين ، وهما :

الأول : الأمة المسلمة خير الأمم ، وأنفع الناس للناس .

الثاني : أن خيرية هذه الأمة إنما كانت لقيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[4]، وهو وظيفة النبي – ﷺ – ووظيفة سائر الأنبياء والمرسلين – كما سبق ذكره آنفاً – ، " وأول ما

---

(١) – أصول الدعوة : د / عبد الكريم زيدان ، ص٣٠٨ .

(١) – سورة يوسف : من الآيـــة ١٠٨ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ١٤٧٥ .

(٣) – سورة آل عمران : الآيـــة ١١٠ .

(٤) – انظر للاستزادة : الجامع الأحكام القرآن : للإمام القرطبي ، ٢ / ١٦٦ .

يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدعوة إلى الله وحده والبراءة من الشرك بأنواعه ، بل إن القرآن الكريم جعل من صفات المؤمنين الدعوة إلى الله، بخلاف المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله ويدعون إلى غيره ''[1] ، قال تعالى : ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾[1] ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[2] ، يقول الإمام القرطبي – رحمه الله – مستدلاً بهاتين الآيتين : '' فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام''[3].

(٣) – قول النبي – ﷺ – لجميع أفراد الأمة : عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : '' من رأي منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ''[4] .

فالقيام بالدعوة إلى الله — كما يتضح من النصوص التي سلف ذكرها آنفاً — فرض عين ، يجب على كل مسلم مكلف حسب قدرته .

اعتراض والجواب عليه :

يرى بعض العلماء أن واجب الدعوة إلى الله لا يلزم جميع أفراد الأمة لأنه واجب كفائي ، يجب على العلماء فقط ، واستدلوا بما يلي :

(**١**) — قول الله تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[5] .

---

(١)- أصول الدعوة : د / عبد الكريم زيدان ، ص٣٠٨ .

(١)- سورة التوبة : من الآية ٦٧ .

(٢)- سورة التوبة : من الآية ٧١ .

(٣)- الجامع الأحكام القرآن : للإمام القرطبي ، ٤ / ٤٩ .

(٤)- صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، ص٥١ ، رقم الحديث : ٤٩ .

قالوا بأن " من " في قوله تعالى : " منكم " للتبعيض ، وهذا دليل على أن الدعوة فرض على الكفاية ، يقول الإمام أبو بكر الجصاص : " قد حوت الآيـــة معنين : أحدهما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والآخر أنه فرض الكفاية ، إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين "(1).

وقال الإمام الغزالي : " وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين "(2) ، وقال مثل ذلك أهل هذا الرأي .

(٢) – وقول الله سبحانه تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(3) .

قالوا بأن في الآيـــة دليل على أن التفقه والتذكير والإنذار من فروض الكفاية(4).

(٣) – وقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾(5) .

يقول الإمام القرطبي : بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد عينهم الله تعالى بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ ﴾ الآيـــة ، وليس كل الناس مكنوا(6) .

الجواب على الاعتراض

(١) – قد جانب أهل هذا الرأي الصواب حين استدلوا بقول الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(7) ، وذلك من وجهين :

---

(١)- سورة آل عمران : الآيـــة ١٠٤ .

(١) – أحكام القرآن : الإمام أبو بكر الجصاص ، ٢ / ٢٩ .

(٢) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ٣ / ٣٨٢ .

(٣) – سورة التوبـــة : الآيـــة ١٢٢ .

(٤) – تفسير البيضاوي : الإمام البيضاوي ، ١ / ١٧٩ .

(٥) – سورة الحج : الآيـــة ٤١ .

(٦) – الجامـــع لأحكام القرآن : للإمام القرطبي ، ٤ / ١٦٢ .

الأول : تفسير هذه الآيـــة ودلالتها : فتفسير هذه الآيـــة لا تؤيد رأيهم ، بل تفيد بأن تكون فرقة متخصصة متأهلة للدعوة إلى الله ، يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيـــة : ''والمقصود من هذه الآيـــة أن تكون فرقـــة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه ''(١).

إذن ، فلا تعارض بين هذه الآيـــة والنصوص التي دلت على وجوب القيام بالدعوة على جميع أفراد الأمة ، بل الجزء الأخير من الآيـــة ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ يجعلها دليلاً لمن ذهب إلى وجوب الدعوة على كل مسلم حيث يفيد هذا الجزء حصر الفلاح بالقائمين بالدعوة إلى الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والفلاح مطلوب لكل مسلم ومسلمة ، ومن ثم فالحصول عليه واجب عيني ، ولذا كان القيام بالدعوة واجباً عينياً إذ ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب .

وسبب اختصاص الفلاح بأولئك القائمين بالدعوة وجود ضمير فصل '' هم '' بين المبتدأ والخبر ، يقول القاضي أبو السعود أثناء تفسيره للآيـــة : '' 'هم' ضمير فصل ، يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ، ويفيد اختصاص المسند بالمسند إليه ''(٢) .

الثاني : ''من'' في قوله تعالى: ''منكم'' للتبيـــين وليست للتبعيض، فيكون معنى الآيـــة: كونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير ، وتأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر ، يقول الواحدي في تفسيره : '' وليكن كلكم كذلك ، ودخلت من لتخصيص المخاطبين من غيرهم''(٣) ، ويقول الإمام البغوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ '' أي : كونوا أمة، ''من'' صلة ليست للتبعيض ، كقوله تعالى : ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ ﴾''(٤) لم يرد اجتناب بعض الأوثان بل أراد فاجتنبوا الأوثان(٥)، ويقول الثعالبي في تفسير هذه الآيـــة : ''ذهب الزجاج وغير واحد إلى أن المعنى : ولتكونوا كلكم أمة يدعون ، و '' من '' لبيان الجنس ، ومعنى

---

(١) – سورة آل عمران : الآيـــة ١٠٤ .

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٥٣٤ .

(٢) — تفسير أبي السعود : الإمام محمد بن محمد العمادي أبو السعود ، ٦٨/٢، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) – الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير الواحدي) : علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن ، ١ / ٢٢٦ .

(٤) — سورة الحج: من الآية ٣٠

(٥) – معالم التنـــزيل : الحسين بن مسعود الفراء البغوي أبو محمد ، ١ / ٨٤ .

الآيـــة على هذا : أمر الأمة بأن يدعوا جميع العالم إلى الخير ، فيدعون الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة ، ويكون كل واحد في هذه الأمور على منـــزلته من العلم والقدرة''[1] .

والشواهد في القرآن الكريم وكلام العرب على استعمال '' من '' لبيان الجنس كثيرة ، منها – مثلا – :

– قول الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[2] .

'' من '' في قوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ لبيان الجنس وليس للتبعيض ، لأن الوعد من الله بمغفرة الذنوب والأجر العظيم ليس لبعض الذين آمنوا وعملوا الصالحات واتصفوا بالصفات المذكورة دون البعض الآخر ، وإنما لجميعهم ، يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآيـــة '' وليست (من) في قوله تعالى ﴿ مِنۡهُم ﴾ مبعضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنسة مثل قوله تعالى : ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾[3] لا يقصد للتبعيض ، لكنه يذهب إلى الجنس ، أي : فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى منها الزنا ، والربا ، وشرب الخمر ، والكذب ، فأدخل (من) يفيد بها الجنس ، وكذا (منهم) أي من هذا الجنس ''[4].

– وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[5] ، '' من '' في قوله تعالى : ﴿ مِنۡهُمۡ ﴾ للتبيـــين وليس للتبعيض ،

---

(١) – الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، ١ / ٢٩٧ ، الناشر : مؤسسة الأعلمي للمطبوعـــات ، بيـــروت .

(٢) – سورة الفتح : الآيـــة ٢٩ .

(٣) – سورة الحج : من الآيـــة ٣٠ .

(٤) – الجامـــع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ١٦ / ٢٤٨ ، وانظر أيضاً : تفسير بن كـــثير : ٤ / ٢٦٠ ، وتفســـير الجلالين : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بـــن أبي بكـــر الســـيوطي ، ١ / ٦٨٣ ، ط١ ، دار الحديث ، القاهرة ، والكشاف : محمود بن عمر الزمخشري ، ٣ / ٥٥١ .

(٥) – سورة آل عمران : الآيـــة ١٧٢ .

والمقصود من ذكر الوصفين ، وهما الإحسان والتقوى ، المدح والتعليل لا التقييد ؛ لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون[1] .

– أما الشواهد مما ورد من كلام العرب ، فيقول عنه الإمام الرازي : " يقال أيضاً : " لفلان من أولاده جند " ، و " للأمير من غلمانه عسكر " ، " يريد بذلك جميع أولاده وغلمانه لا بعضهم "[2].

(٢) – أن استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[3] ، على أن التفقه في الدين فرض كفاية صحيح ، واستدلالهم بأن عليهم القيام بالتعليم والدعوة والإنذار أيضاً صحيح ، أما قولهم بحصر مسؤولية الدعوة والاحتساب بهؤلاء المتفقهين فليس بصحيح إذ لا دلالة في الآية على ذلك ، يقول الإمام القرطبي أثناء تفسيره للآية : " ... وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة ، وأنه على الكفاية دون الأعيان "[4]، ويقول في موضع آخر ما يجدر بالذكر هنا أن " طلب العلم ينقسم إلى قسمين : فرض على الأعيان كالصلاة والزكاة والصيام، وفي هذا المعنى جاء الحديث النبوي " طلب العلم فريضة على كل مسلم "[5] ، وفرض على الكفاية كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود ، والفصل بين الخصوم ونحوه "[6].

فالآية الكريمة لا دلالة فيها على ما ذهبوا إليه بأن الدعوة والاحتساب لا تجب إلاّ على المتفقهين في الدين فحسب .

---

(١)– تفسير البيضاوي : الإمام البيضاوي ، ١ / ١١٥ ، وانظر أيضاً : تفسير أبي السعود : ٢ / ١١٣ . والتفسير الكبير : الإمام الرازي ، ٩ / ٩٨ .

(٢)– تفسير البيضاوي : الإمام البيضاوي ، ١ / ١١٥ ، وانظر أيضاً : تفسير أبي السعود : ٢ / ١١٣ . والتفسير الكبير : الإمام الرازي ، ٩ / ٩٨ .

(٣) – سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

(٤) – الجامع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ٨ / ٢٦٦ .

(٥) – سنن ابن ماجه : كتاب المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، ص٣٩ ، رقم الحديث : ٢٢٤ ، (قال الألباني : صحيح ، دون قوله : " وواضع العلم ... ") .

(٦) – الجامع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ٨ / ٢٦٦ .

(**٣**) – من أدلتهم قول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[١] .

إنما تفيد هذه الآيـــة أن من واجبات من مكِّن في الأرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليست فيها أن من لم يمكَّن في الأرض ليس عليه هذا الواجب أو لا يقوم به[٢].

المقصد الثاني : مظاهر الشبهات التي تثار حول الداعي :

لقد حرص خصوم الدعوة الإسلامية كل الحرص على إبعاد الناس عن النبي- ﷺ - ؛ الداعي الأول إلى الله تعالى ، بالطعن في شخصه وعقله وخلقه وسيرته وسلوكه وأمانته وعرضه وحالته المعيشية ومكانته الاجتماعية ، وبإلصاق التهم به من السحر والضلالة والكذب ، وبالافتراء عليه في أهدافه من الدعوة وغايته منها ، إلى غير ذلك مما تنخدع بـــه النفوس وترتاب القلوب وتضل العقول .

وهذا ما فعله أسلافهم ؛ أي خصوم الحق والهداية ، مع رسل الله تعالى من قبل ، وهذا ما يفعله خلَفهم مع الدعاة اليوم ، فهي شنشنة قديمة متوارثة بين أهل الباطل يتوارثونها ويتناقلونها جيلاً بعد جيل من قديم الزمان ؛ قدم وجود الحق والباطل ، حيث بدأ الاصطراع بينهما منذ وجودهما ، قال تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ﴾[٣] .

أما هدفهم من كل ذلك فهو صد الناس – كما سبق ذكره – عن الاستجابة لدعوة الحق ومنعها من الانتشار والغلبة على الباطل ، قال تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[١] .

---

(١) – سورة الحج : الآيـــة ٤١ .

(٢) – الحسبة ، تعريفها ، ومشـــروعيتها ، وحكمها : د . فضل إلهي ، ط١ ، ١٤١٠هـــ – ١٩٩٠م ، إدارة ترجمـــان الإسلام ، باكستان ، ججرانولـــة .

– وانظر للاستزادة : (١) أصول الدعوة : د . زيدان عبد الكريم زيدان ، ص٣٠٧ – ٣٢٠ . (٢) المرجـــع الســـابق ، ص٤٤ – ٥٥ .

(٣) – سورة فصلت : من الآيـــة ٤٣ .

(١) – سورة هـــود : الآيـــة ١٨ – ١٩ .

والشبهات – كما تبين – متنوعة وكثيرة ، ولا يقتضي المقام هنا أن نحصرها جميعها ، ولذا فسأكتفي فيما يلي بذكر أمثلة منها كمظاهر من خلال القرآن الكريم حيث يحدثنا عن كثير من الطعون والافتراءات التي أطلقها الكفار والمشركون على رسول الله – ﷺ – والأخرى أطلقها الكفار من الأمم السابقة على أنبيائهم – عليهم الصلاة والسلام – :

(أ) – **الشــبهة في صفــات الداعي** :

يثير أعداء الدعوة والداعية شبهاً في صفات الداعي لتحطيم شخصيته والقضاء على رسالته، قال تعالى – مثلاً – عن :

شبهة في العقل : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[(١)]

هذه الشبهة أثارها خصوم الدعوة حول الداعي الأول ؛ صاحب خاتمة الرسالات السماوية، المبعوث للناس كافة نبينا محمد – ﷺ – ، يقول الإمام الشوكاني في تفسير قوله تعالى على لسان الأعداء ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ " أي: إنك بسبب هذه الدعوة التي تدعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون ، فإنه لا يدعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً "[(٢)] ، ومثل قولهم قال أسلافهم لرسلهم ، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[(٣)]، وقد قال مثل ذلك فرعون لنبي الله موسى – عليه السلام –: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾[(٤)] ، وهنا يتبين مدى تشابه في حال أعداء الحق وأقوالهم ، ولذا قال تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[(٥)] ، الاستفهام في الآيــة للتقريع والتوبيخ والتعجيب من حالهم ، أي: هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وتواطئوا عليه ؟ ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ إضراب عن التواصي إلى ما جمعهم من الطغيان : أي: لم يتواصوا بذلك بل جمعهم الطغيان ، وهو مجاوزة الحد في الكفر[(١)] .

---

(١) – سورة الحجر : الآيــة ٦ .

(٢) – فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٣ / ١٧٤ .

(٣) – سورة الذاريات : الآيــة ٥٢ .

(٤) – سورة الشعراء : من الآيــة ٢٧ .

(٥) – سورة الذاريات : الآيــة ٥٣ .

(١) – معالم التنــزيل (تفسير البغوي) : الإمام البغــوي ، ١ / ٣٨٠ ، وفتح القديــر : الإمام الشوكاني ، ٥ / ١٣٠ .

(ب) – **الشبهة في مصداقية الداعي** :

استخدم الخصوم أساليب عدة في إثارة هذه الشبهة ، منها – مثلا – :

– **الطعن في أمانة الداعي باتهامه بالسحر والكذب** : قال الله تعالى **:** ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[1]، اتهم كفار مكة النبي – ﷺ – بأنه ساحر وكذاب ، ساحر ، أي: يجيء بالكلام المموه الذي يخدع به الناس[2] ، وقيل بأنه ساحر فيما يظهره من المعجزات ، وكذاب ، أي: كذاب فيما يدعيه من أن الله أرسله بالحق والهدى لهداية البشر[3] .

– **اتهام الداعي بالضلال** : قال تعالى حكاية عن قوم نوح : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[4] ، أي : قال أشراف القوم ورؤساؤهم لنبي الله نوح – عليه السلام – : إنا لنراك يا نوح – عليه السلام – في دعائك إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا في ضلال عن طريق الحق[5] ، وهكذا حال الكفار ، فهم يتهمون أهل الحق والهدى بالغي والضلال ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾[6]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[7].

– **اتهام الداعي بالسفاهة والكذب** : قال تعالى حكاية عن قوم هود : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1] ، اتهم الكفار نبي الله هود – عليه السلام – بالسفهة ، والسفيه " هو الجاهل الضعيف الرأي ، القليل المعرفة بمواضع

---

(١) – سورة ص : الآيـــة ٤ .

(٢)- الجامـــع لأحكام القرآن : الإمام القرطبي ، ١٥ / ١٣٢ .

(٣)- فتح القديـــر : الإمام الشوكاني ، ٤ / ٥٩٨ .

(٤) – سورة الأعراف : الآيـــة ٦٠ .

(٥)- فتح القديـــر : الإمام الشوكاني ، ٣ / ٣١٥ (بتصرف) . - فتح القديـــر : الإمام الشوكاني ، ٣ / ٣١٥ (بتصرف) .

(٦) – سورة المطفـــفين : الآيـــة ٣٢ .

(٧)- سورة الأحقاف : الآيـــة ١١ .

(١) – سورة الأعراف : الآيـــة ٦٦ .

المصالح والمضار ""[1]، ولم يكتفوا بإثارة هذه الشبهة والافتراء وإنما أكدوها بافتراء آخر ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

وقد قال خلف هؤلاء في المدينة بعد المائات من السنين مثل قولهم تماماً للنبي محمد – عليه أفضل الصلاة والسلام – والذين آمنوا معــه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

(ج) – الشبهة في إخلاص الداعي وهدفه من الدعوة إلى الله :

استخدم خصوم الحق من قديم الزمان أساليب عدة لتشويه صورة الداعي بالطعن في إخلاصه والتشكيك في هدفه من الدعوة إلى الله ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، أذكر فيما يلي بعضاً منها :

– **طلب السلطة والرئاسة** : من الشبهات التي يثيرها خصوم الدعوة حول الداعي في إخلاصه وهدفه من الدعوة اتهامه بأنه يريد السيطرة على السلطة ، والرئاسة على الناس ، والعلو في الأرض ، قال الله تعالى حكاية عما قال فرعون وملؤه لنبيهم موسى – عليه السلام – : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾[3] ، أي : لما انقطع فرعون وملؤه عن الدليل ، وعجزوا عن الإتيان بالحجة ولم يجدوا ما يجيبون به عما أورده عليهم موسى وهارون – عليهما السلام – لدعوتهم إلى الحق ، لجئوا إلى ما يلجأ إليه أهل الباطل والجهل ، وهو الاحتجاج بما كان عليهم آباؤهم من الكفر ، وضموا إلى ذلك ما هو غرضهم وغاية مطلبهم وسبب مكابرتهم وجحودهم للحق والآيات البينة وهو السلطة والرئاسة الدنيويـــة التي خافوا عليها ، وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا ، وكم بقي على الباطل – وهو يعلم أنه باطل – بهذه الذريعة من طوائف هذا العالم في سابق الدهر ولاحقه ، فمنهم من حبسه ذلك عن الخروج من الكفر ، ومنهم من حبسه عن الخروج إلى السنة من البدعة ، وإلى الرواية الصحيحة من الرأي البحت[1] .

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيــر ، ١ / ٨٥ .

(٢) – سورة البقرة : الآيــة ١٣ .

(٣) – سورة يونس : الآيــة ٧٨ .

(١) – فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٣ / ٦٧٣ (بتصرف يسير) .

إنّ من سيرة الملأ من أهل الضلال أنّه كلما جاء داعي الخير ورسول الهدى يريد إزاحة الكفر والظلم والبغي ، سارعوا باتهامه بأنه لا يريد من دعوته إلاّ الحصول على السلطة والرئاسة والملك ، قال تعالى أيضاً عن قوم نوح : ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1] ، ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أي : " يطلب الفضل عليكم بأن يسودكم حتى تكونوا تابعين له منقادين لأمره "[2] .

– **الإفساد في الأرض** : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[3] ، يكاد الإنسان يذهب عقله دهشة وحيرة لما يرى أعداء الحق يتهمون أطهر الناس وأفضلهم وأصلحهم ؛ الأنبياء والهداة والدعاة ، بأنهم يريدون من دعوتهم الإفساد في الأرض ، فهل إخراج الناس من ظلام الشرك والجهل والضلال إلى نور الإيمان والحق والعلم إفساد في الأرض ؟ ! هل الدعوة إلى الفضيلة تؤدي إلى انتشار الرذيلة والفساد ؟ ! هل الدعوة إلى المحبة والسلام وإقامة العدل وإنهاء الجور يجلب للناس فساداً وخراباً ؟ !

ومن العجيب أن الذين يثيرون مثل هذه الشبهات هم من أطغى الناس وأعتى المفسدين وأبغى الظالمين ، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[4] ، ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾[5] ، ظلم وقتل وتشريد ورعب وإبادة جماعية ، هذا هو عمل فرعون وطغاة عصره في زمن موسى – عليه السلام – .

وإذا أتى النبي الداعي بالهدى والعدل والسلام اتهموه بأنه المفسد الباغي ، وهم المقيمون الفتنة المحرضون على العصيان ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ

---

(١) – سورة المؤمنون : الآيــة ٢٤ .

(٢) – فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٣ / ٦٨٩ .

(٣) – سورة الأعراف : من الآيــة ١٢٧ .

(٤) – سورة القصص : الآيــة ٤ .

(٥) – سورة الأعــراف : من الآيــة ١٢٧ .

رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾[1] ، و" تتكرر المأساة مع الأنبياء والمصلحين والدعاة ، وما ذكرها القرآن إلا ليظهر الحق من الباطل وينبه الأذهان إلى أن الحكم على الأشياء يجب أن يكون من خلال الحقائق لا من خلال الشعارات والدعاوى والدوي الإعلامي ، ومن خلال استعمال مقايـــيس الفضيلة ومنهج الهداية الربانية ، لا من أفواه أصحاب المصالح والشهوات "[2].

– **الخيانة والاتصال المشبوه** : من الشبهات التي يثيرها المبطلون حول الداعي للطعن في إخلاصه في عمله وهدفه من الدعوة اتهامه بأن عمله مريب ومشبوه إذ له علاقة بجهات أجنبية أو بقوم آخرين معينين يعمل لحسابهم ، فهو عميل لهم خائن لقومه ، يهدف إلى إثارة القلاقل ، وبث الفتن ، وزعزعة النظام ، ولذا فيجب الضرب على يده بشده ، وتحذير الناس منه ، وكشف مخططاته وأغراضه . فباسم الحق وباسم الحرية وباسم الأمن والسلام أو باسم القضاء على الإرهاب يجب تدارك هذا الخطر ، وفصل هذا الداء ، والقضاء على هذه العمالة والخيانة .

وتظل المصادر المثيرة للشبهات تردد على أسماع الناس هذه الأكاذيب كل صباح ومساء ، وتظل تدبج لها البراهين الواهية والأدلة التافهة ، وتشيعها وتستفتي عليها ، حتى تجسمها حقيقة ، وتجعلها صرحاً ، وتنصب لها الرايات[3] .

وليست هذه الشبهة بجديدة وإنما كسابقتها قديمة انتقلت إلى يومنا هذا عبر الأزمان، فقد واجهها رسول الله – ﷺ – وواجهتها دعوة الإسلام وذكرها القرآن الكريم ونبه عليها قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[1].

---

(١)– سورة غـــافـــر : الآيـــة ٢٥ – ٢٦ .

(٢)– الدعوة إلى الله ، الرسالـــة ، الوسيلـــة ، الهدف ، د . توفيق الوعي ، ص١٦٢ .

(٣)– المرجع السابق ، ص١٦٥ .

(١) – سورة الفرقـــان : الآيـــة ٤ – ٦ .

المطلب الثاني : مظاهر الشبهات المثارة حول المدعو:[١]

لم يكتف خصوم الدعوة والداعية بإثارة الشبهات حول الدعاة، وإنما أثاروها حول المدعوين أيضاً، لتحول تلك الشبهات والتوهمات بينهم وبين الدعاة فلا يستمعون إليهم ولا يستجيبون لدعوتهم، ''وكيف يترك الأعداء النبتة الغضة تنمو وتترعرع ويكون لها ساق وثمر، وكيف يتركون سحر الحق وجمال المنطق وهدى الله يعمل في القلب، ويقر في الأفئدة والضمائر، لا يتأتى هذا ، ولا يمر في منطقهم بغير وقفات أو مخططات ، أو شبهات هنا وهناك''[٢].

إن أهل الشرك والضلال يسعون لإجهاض الدعوة وإبعاد الناس عن الهدى وإبقائهم فيما هم فيه من ظلام الشرك والضلال ، موظفين في ذلك كل ما أعطوا من القدرات والإمكانات، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾[٣] ، ويقول أيضاً سبحانه محذراً مما يخفي هؤلاء في صدورهم من ضلال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[١] .

ومما يصنعون للضرب على آذان الناس والتشويش على أفكارهم وأفهامهم بالباطل إثارة الشبهات حولهم بأساليب متعددة وطرق شتى ، فمنها – مثلاً – :

(أ) – شبهة الضعف والفقر ، أو شبهة المال والأولاد ، والجاه والمنصب :

لقد استغل أعداء الدعوة المكانة الاجتماعية للمدعو فأثاروا شبهة المال والأولاد ، والجاه والمنصب ، والرياسة والقيادة ، أو شبهة الفقر والضعف التي قد جعلت بعض المدعوين لاسيما

---

(١) – سلفت الدراسة – في المبحث الأول من الفصل الثاني– بشيء من التفصيل عن مفهوم المدعو ومدلولـــه في اللغـة والاصطلاح الشرعي الدعوي ، وأصنافه باعتبارات مختلفة .

(٢) – الدعوة إلى الله ، الرسالة ، الوسيلة ، الهدف ، د . توفيق الوعي ، ص ١٧٥ .

(٣) – سورة النساء : الآيـة ٤٤ .

(١) – سورة آل عمران : الآيـة ٦٨ – ٧٢ .

أصحاب الثروة والترف والجاه والمنصب منهم يأنفون عن الحق ولا يستجيبون له حيث فاتهم أن الحق في نفسه يبقى حقاً سواء اتبعه الضعفاء والفقراء ، أو القادة والرؤساء ، وأن أتباع الحق في الحقيقة هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، وأن الأراذل في الحقيقة هم المعاندون المخالفون للحق وإن كانوا في أعين الناس من الأشراف .

فنرى – مثلا – :

الملأ من قوم نوح – عليه السلام – يحتجون تارة بأن الحق لا يكون مع الأراذل لكونهم ضعفاءً وفقراءً ، ولأنهم قصارَ نظر ورأي فيتبعون بلا إعمال فكر ، ولا رؤية ، ولا تأمل ، قال تعالى : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾(1) ، يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية بأن الشبهة التي أثاروها هنا هو أن نوح – عليه السلام – لم يتبعه إلاّ أراذل من القوم كالحياكة وأهل الصنائع الخسيسة ، ولو كان صادقاً لاتبعه – في زعمهم – الأكياس من الناس والأشراف منهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾(2) .

ويحتجون تارة أخرى بأن أهل الثروة والأولاد، والجاه والمنصب، والرياسة والقيادة هم على الحق وأهله، فيقولون – مثلا – كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(3)، فجعلوا كثرة أموالهم وأولادهم حجة على أنهم أهل حظ عند الله، وهذا من تمويه الحقائق بما يحفّ بها من العوارض، فجعلوا ما حفّ بحالهم في كفرهم من وفرة المال والولد حجة على أنهم مظنة العناية عند الله، وأن ما هم عليه هو الحق(1)، ولأجل ذلك فإنهم ليسوا بمعذبين في الآخرة كما يدعي نوح ليجلب الناس إلى دينه الجديد، بل هم – أي الملأ– وحدهم يستحقون إرشاد الناس إلى الخير وقيادتهم في كل أمورهم، فلا يمكن أن يصدقوا الداعي الذي يدعي أنه على حق ويستجيبوا له ويصبحوا أتباعاً له لأنهم أهل رأي ونظر وبصيرة خلاف الأراذل الذين اتبعوه بلا بينة ولا حجة ولا برهان، وقد قال كفار قريش بمكة مثل قولهم، قال الله

---

(1)- سورة هـــود : من الآيـــة ٢٧ .

(2)- سورة الشعراء : الآيـــة ١١١ .

وانظر : مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ٨ / ٣٩٣ .

(3)- سورة ســـبأ : الآيـــة ٣٥ .

(1)- التحرير والتنوير : الإمام ابن عاشور ، ١١ / ٤٠٥ .

تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1] ، يقول الإمام الرازي عن هذه الشبهة التي أثارها كفار مكة أثناء تفسيره للآيــة : " منصب رسالة الله منصب شريف فلا يليق إلاّ برجل شريف ، وقد صدقوا في ذلك إلاّ أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهى أن الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال وعظيم الجاه ، ومحمد ليس كذلك ، فلا تليق رسالة الله به ، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال "[2] في إحدى القريتين العظيمتين وهما مكة والطائف لكونها أكبر قرى تهامة بلد القائلين ، وأما يثرب وتيماء ونحوهما فهي بلد الحجاز ، فالتعريف في ﴿ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ﴾ للعهد ، فجعلوا عماد التأهل لسيادة الأقوام أمرين : عظمة المسوّد ، وعظمة قريته ، إذا القرية العظيمة مأوى شؤون القبائل وتموينهم وتجارتهم، والعظيم مستعار لصاحب السؤدد في قومه ، فكأنه عظيم الذات.

والمراد بعظيم مكة الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقيل: عتبة بن ربيعة ، وقيل : الوليد بن المغيرة ، وبعظيم طائف حبيب بن عمرو الثقفي ، وقيل : كنانة بن عبد يا ليل ، وقيل: عروة بن مسعود الثقفي ، والمقصود هنا أن الرجلين اللذين عنوهما كانا ذا مال ؛ لأن سعة المال كانت من مقومات وصف السؤدد كما حكي عن بني إسرائيل قولهم : ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾[3] .

(ب) – شبهة الحب والتقليد للآباء والأجداد :

كثيراً ما يثير أعداء الدعوة هذه الشبهة حول المدعوين لإغرائهم بضرورة التقليد للآباء والتمسك بدينهم ، وبالتالي ضرورة مقاومة الدعوة والداعية ، مستغلين في ذلك عاطفة المدعوين وحبهم للآباء بأن الدين الذي كانوا عليه كان حقاً وليس باطلاً ، حيث لم يكونوا سفهاء وجهلاء وحمقاء ، كما يدعي هذا الداعي ويسفه آباءنا وأجدادنا ، قال الله تعالى حكاية عنهم : قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، ويقول أيضاً : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا

---

(١)– سورة الزخرف : الآيــة ٣١ .

(٢)– مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ١٣ / ٤٧٣ .

(٣) – سورة البقرة : من الآيــة ٢٤٧ .

(١) – سورة يونس : الآيــة ٧٨ .

عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [1]، ويقول أيضاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [2] ، فتقليد الآباء بتمسك دينهم ، والسير على منهجهم وطريقتهم بفعل ما فعلوا وعبادة ما عبدوا " شنشة أهل الضلال من السابقين واللاحقين، قد استووا فيه كما استووا في مَثاره وهو النظر القاصر المخطئ ، كما قال تعالى : ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[3] ، أي: بل هم اشتركوا في سببه الباعث عليه وهو الطغيان"[4]، وقال الإمام الطبري في تفسير الآيــة الأخيرة: "يقول جل ثناؤه لمحمد – ﷺ – : فإنما سلك مشركو قومك منهاج من قبلهم من إخوانهم من أهل الشرك بالله في إجابتهم إياك بما أجابوك به، وردّهم ما ردّوا عليك من النصيحة ، واحتجاجهم بما احتجوا به لمُقامهم على دينهم الباطل"[5].

(١)– سورة البقرة : من الآيــة ١٧٠ .

(٢) – سورة الزخرف : الآيــة ٢٣ .

(٣) – سورة الذاريات : الآيــة ٥٣ .

(٤) – التحرير والتنوير : الإمام ابن عاشور ، ١٣ / ١٩٤ .

(٥) – جامــع البيان عن تأويل آى القرآن : الإمام الطبري ، ١٢ / ٥٨٦ .

المطلب الثالث : مظاهر الشبهات المثارة حول الدعوة

لم تسلم الدعوة من الشبهات والطعن والتجريح ، فقد سعى خصومها كل سعي منهم لإجهاضها وإزاحتها عن الطريق ، فأثاروا الشبهات حول كتاب الدعوة نفسها للتشكيك في مصدرها ، كما أطلقوا الافتراءات والطعون على العديد من موضوعاتها الرئيسة ، والشواهد والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها – مثلا – :

أولاً : شواهد وأمثلة على الشبهات المتعلقة بالقرآن الكريم :

(أ) – **الشبهة في مصدر القرآن الكريم** : جاء أهل الزيغ والباطل بأقوال متعددة ومتناقضة فيما بينها لإثارة الشبهات حول مصدر القرآن الكريم ، منها – مثلا – :

(١) – افترى بعض المشركين بأنه قول بشر ، قال الله تعالى حكاية عنهم : ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾[١] ، نزلت هذه الآيـــة في الوليد بن المغيرة المخزومي الذي أعمل فكره وكرّر نظر رأيه ليـــبتكر عذراً يموهه ويروجه على الدهماء في وصف القرآن بوصف كلام الناس ليزيل منهم اعتقاداً أنه وحي أوحي به إلى النبي – ﷺ –[٢] .

ومما يدل أيضاً على أن الوليد كان يقول هذا الكلام عناداً منه ، وليثير شبهة على مسامع الناس حول مصدر القرآن ما رُوي عنه أنه لما سمع من رسول الله – ﷺ – (حم السجدة) وخرج من عند الرسول – ﷺ – قال : سمعت من محمد كلاماً ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، فلما أقر بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله ههنا من أنه قول البشر ، إنما قاله على سبيل العناد والتمرد لا على سبيل الاعتقاد[١] .

(٢) – وقال بعضهم بأن القرآن الكريم من اختلاق محمد نفسه – ﷺ – ، قال الله ﷻ حكاية عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾[٢] ، (أم) في الآيـــة الكريمة استفهام تعجـــبي إنكاري ، والمعنى : بل أيقولون افتراه بعدما تبين لهم من الدلائل على صدقه وبراءته من الافتراء[٣] .

---

(١) – سورة المدثـــر : الآيـــة ٢٥ .

(٢) – التحرير والتنوير : الإمام ابن عاشور ، ١٥/٤١٢.

(١) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ١٦ / ١٥٢ .

(٢) – سورة يونس : من الآيـــة ٣٨ .

(٣) – التحرير والتنوير : الإمام ابن عاشور ، ٦ / ٤٨٤ .

(٣) — وقال آخرون إنه من عند غيره من الناس ، قال تعالى حكايـــة عنهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾[(١)] ، وقال أيضاً ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾[(٢)] .

(٤) — وقال بعضهم الآخر بأنه ليس بالوحي السماوي وإنما الأساطير ، قال الله ﷻ حكاية عنهم : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾[(٣)] ، والأساطير ما سطره المتقدمون كأحاديث رستم واسفنديار ، وهو جمع أسطورة أو أسطار، وقيل غير ذلك ، والشبهة هنا أن محمداً – ﷺ – انتسخ هذه الأساطير من أهل الكتاب[(٤)] .

(٥) — وقال آخرون بأنه سحر ، قال الله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ﴾[(٥)] ، فبتوا القضاء على أنه سحر ، ثم بتوه على أنه بين ظاهر[(٦)] .

(ب) – : **الشبهة بوجود التناقض في القرآن الكريم** : عن ابن عباس – رضي الله عنه – قال : لما نزلت ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[(١)]، شق ذلك على أهل مكة ، وقالوا : شتم الآلهة ، فقال ابن الزبعرى : أنا أخصم لكم محمدا، ادعوه لي ، فدعي ، فقال : يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة ؟ أم لكل عُبد من دون الله ؟ قال : بل لكل من عبد من دون الله ، فقال ابن الزبعرى : خصمت ، وربّ هذه البنية يعني الكعبة ، ألست تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبد صالح ، وأن الملائكة صالحون ؟ قال : بلى ، قال : فهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً ، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، فضج أهل مكة وفرحوا ! فنـــزلت – رداً عليهم – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا

---

(١) — سورة الفرقـــان : من الآيـــة ٤ .

(٢) — سورة النحل : من الآيـــة ١٠٣ .

(٣) – سورة الفـــرقـــان : الآيـــة ٥ .

(٤) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ١١ / ٣٨٨ .

(٥) – سورة سبأ : من الآيـــة ٤٣ .

(٦) – الكشاف : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ، ٥ / ٣٨٨ .

(١) – سورة الأنبياء : الآيـــة ٩٨ .

مُّبۡعَدُونَ ﴾[1] ، يعني عزيراً وعيسى والملائكة ، ونزلت أيضاً : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴾[2]،[3] .

وقد تناقل خصوم الدعوة هذه التهمة ؛ أي: التهمة بوجود التناقض في القرآن الكريم، من جيل إلى جيل ، فقال المستشرقون مثلا – : '' ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقدياً موحداً متجانساً وخالياً من المتناقضات، ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطراً، إلا آثار عامة نجد فيها – إذا بحثناها في تفاصيلها – أحياناً تعاليم متناقضة''[4] .

''...ويقول القرآن : إن الله خلق جميع الحيوانات من الماء ، ثم يذكر بعد ذلك في سبع آيات مختلفات إن الله خلق الإنسان خلقاً ، ثم هو في الوقت نفسه يناقض نفسه بنفسه سبع مرات . فيقول في مرة أولى: إن الله خلق الإنسان من التراب . وفي مرة ثانية من طين . وفي مرة ثالثة من الفخار . ورابعة من الصلصال . وخامسة من صلصال كالفخار . وسادسة من حمأ مسنون . ومرة سابعة من الماء ... وهي كلها متناقضات تؤكد أن تأليف القرآن لم يتم في زمن واحد . ولا على يد مؤلف واحد ''[1].

ولم تكن هذه الشبهة إلاّ عن جهل أو بحقد أو تعصب ، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: عمن يؤخذ تفسير القرآن الكريم ؟ عن الأئمة المهديين المتبحرين في اللغة والدين الذين أخذوا عن السنة وعن أهل اللغة من الصحابة — رضي الله عنهم — الذين نزل فيهم القرآن ، يتلو عليهم النبي – صلى الله عليه وسلم – ويجيب أسئلتهم ويشرح لهم ما يستشكل عليهم فَهْمه من الأمور والأحكام ؟! أم يؤخذ من المستشرقين من النصارى واليهود الذين لا يعرفون من اللغة العربية إلاّ شيئاً يسيرا، إضافة إلى ما اتصفوا واشتهروا به من الخيانة العلمية ، والحقد ، والتعصب ضد الإسلام وأهله .

---

(١) – سورة الأنبياء : الآية ١٠١ .

(٢) – سورة الزخرف : الآية ٥٧ .

(٣) – الدر المنثور في التأويل بالمأثور : الإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، ٧ / ١٠٥ .

(٤) – جولد تسهير في بحثه : نمو العقيدة الإسلامية وتطورها ، والنص عن : الإسلام بين الإنصاف والجحود ، نقلاً : عن : الإسلام في قفص الاتهام : شوقي أبو خليل ، ص٣٢ ، ط٤ ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م ، دار الفكر ، دمشق .

(١) – لوسيان كليموفتش عن كتاب '' المسلمون تحت الحكم الشيوعي '' للأستاذ محمد سامي عاشور ، نقلاً عن : المرجع السابق : ص٣٢ ، ٣٣ .

ثانيا : شواهد وأمثلة على الشبهات المثارة حول موضوعات الدعوة

أولاً : الإيمان

(أ) – الإيمان بالله وتوحيده :

هو أول موضوعات الدعوة وأهمها لأنه أساس الدين ، بل هو أساس جميع الأديان السماوية، وهو أول ما دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين بدون الاستثناء ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1] ، وقال ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[2]، وقال جلّ شأنه : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[3] ، وقال ﷻ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[4] .

وقد أكثر أهل الزيغ والباطل الشبهات حول هذا الموضوع لاسيما حول وحدانية الله في العبادة ، وأذكر – فيما يلي – أمثلة من تلك الشبهات :

(١) – شبهة الدهريين والملاحدة :

أنكر هؤلاء وجود الله ﷻ استناداً إلى قانون العلّية والسببية للكون أو قانون تفاعل الماديات وتأثير بعضها في بعض[1] ، وناقضوا حتى منطقهم هذا حين قالوا بأن العالم وليد صدفة ، أي: وجود العالم كان مصادفة واتفاقاً ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع ، و لم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا[2] ، وقالوا بأن التأثير في الحياة والممات إنما هو من الدهر ، قال الله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[3] ، أي: ليس بعد هذا العالم عالم آخر ، فالحياة هي حياة هذا العالم لا غيـــر ، فإذا مات من كان حياً خلفه من يوجد بعده ، فمعنى ﴿ نَمُوتُ

---

(١) – سورة الأنبياء : الآيــة ٢٥ .

(٢) – سورة الرعــد : من الآيــة ٣٠ .

(٣) – سورة طــه : الآيــة ١٤ .

(٤) – سورة غــافــر : الآيــة ٦٢ .

(١) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) – المنقذ من الضلال : أبو حامد الغزالي ، ص٧٦ .

(٣) – سورة الجاثية : من الآيــة ٢٤ .

وَنَحْيَا ﴾ يموت بعضنا ويحيا بعض ، أي يبقى حيّاً إلى أمد أو يولد بعد من ماتوا ، وللدلالة على هذا التطور عبّر بالفعل المضارع ، أي: تتجدد فينا الحياة والموت ، فالمعنى : نموت ونحيا في هذه الحياة وليس ثمة حياة أخرى[1] .

وقد كثر الملحدون والدهريون في عصرنا هذا لانتشار الفساد الفكري الحديث، والانحراف الاعتقادي الديني ، والضلال الفسلفي اليوناني القديم ؛ وذلك من خلال المناهج التعليمية والتربوية العلمانية السائدة في أنحاء العالم ، وعبر الوسائل الإعلامية الحديثة المتطورة ، وعن طريق الحركات المتعددة التي أنشئت خصوصاً لنشر الأفكار المادية التي تفسر كل شيء من منظور مادي بحت ، وأخرى لتبليغ الفلسفات القديمة اليونانية الضالة، وغيرها لدعوة الناس إلى معتقدات دينية محرفة ، ولا يسع المقام لذكر الأسباب بالتفصيل ، وقد ذكر القرآن الكريم مواقف عديدة ومواجهات حصلت بين بعض جبابرة الملحدين والدهريين والماديين وبين بعض الأنبياء والمرسلين ، فالنمرود بن كنعان – مثلا – لم يكتف بإنكار وجود الله وإنما ادعى لنفسه الألوهية أيضاً ، يذكر القرآن محاجته لنبي الله إبراهيم – عليه السلام – في الله عز وجل فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾[1] ، وادعاؤه لنفسه الألوهية لم يكن إلاّ عناداً ومكابرة وطغياناً لتجبره وطول مدته في الملك إذ قيل أنه بقي في ملك بابل أربعمائة سنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾[2] .

وكذلك فرعون وقارون وهامان ، كانوا من جبابرة الماديين والملحدين ، ولم يكتف فرعون أيضاً بمحاربة نبي الله موسى – عليه السلام – والإنكار بوجود الله عز وجل وإنما تجاوز حده وادعى لنفسه الألوهية والربوبية حيث حشر الناس وقال : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[3] ، وقال أيضاً : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[4] .

---

(١) – التحرير والتنوير : الإمام ابن عاشور ، ١٣ / ٣٢٧ .

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٥٨ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٤٣٤ .

(٣) – سورة النازعات : الآية ٢٤ .

(٤) – سورة القصص : الآية ٣٨ .

وكان فرعون يدرك أن ادعاءه للربوبية ليس أمراً سهلاً تهضمه العقول ، وتستسيغه الأذواق، لاسيما أنه يعرف أن من أفراد مملكته من هو أكبر منه سناً ، ويعرف ولادته ونشأته ، ولكنه أراد التضليل بهذا الادعاء والشبهة لصد الناس عن الإيمان بموسى – عليه السلام – عندما جاءه برسالة الله .

ولهذا هو غير مستقرٍ في دعواه ، إذ يقول – مثلاً – ﴿ مَا عَلِمْتُ﴾ ولم يقل بطريق الجزم ليس لكم من إله غيري ، ويقول ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ ، ولم يجزم بكذبه ، لأنه لا يقدر على أن يدعي خلق السموات والأرض ، وتسيير هذه القوى الكونية في هذا العالم .

ويتبين من تقلبه في الكلام ومراوغته في الجدال ما تنطوي عليه نفسه من المخادعة لصرف الناس عن الحق واستعبادهم ، وتقمصه أثواب الألوهية ، ليرهب من حوله ، ويستميلهم إذا شعر بفجوة بينه وبينهم[1] .

(٢) – شبهة المشركين :

انحرف المشركون عن توحيد الألوهية ، فجعلوا مع الله آلهة أخرى معتقدين فيها النفع والضر ، يقول الله تعالى حكاية عنهم إنكارهم على النبي – صلى الله عليه وسلم – دعوته إلى توحيد الله عز وجل ، وإفراده بالعبادة ، وترك عبادة الآلـــهة المزعومة : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[1] ، أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلاّ هو ؟ ! أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشرك بالله فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم فلما دعاهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ ، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين ﴿ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾[2] ، أي: استمروا على دينكم ، ولا تستجيـــبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد إذ هو لشيء يريد به

---

(١) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص١٥٦ .

(١) – سورة ص : الآيـــة ٥ .

(٢) – سورة ص : الآيـــة٦ .

الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ، ولذا فلن نجيــــبه إليه ولا ينبغي أن تستجيـــبوا له[1] .

(٣) – شبهة اليهود والنصارى :

ضل اليهود والنصارى عن عقيدة التوحيد ضلالاً بعيداً بشبهة افتروها واختلقوها ، قال الله تبارك وتعالى عنهم : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾[2] ، فلم يكن لا لليهود ولا النصارى فيما ادعوه بأن عزيراً والمسيح ابنا الله – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – مستـــند من الحجة والبرهان سوى افترائهم واختلاقهم ﴿ يُضَـٰهِـُٔونَ ﴾ أي: يشابهون ﴿ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبلهم من الأمم ، ضلوا كما ضل هؤلاء[3] .

كما كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم المخالفة لما هو معلوم بالضرورة أنه من الدين، فكانوا يعتقدون أن أحبارهم ورهبانهم يحلّلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله[1] ، فبهذا أشركوا مع الله أحبارهم ورهبانهم فيما هو حقه وحده لا يجوز صرف شيء من ذلك إلى أحد غيره ، ولو كان عالماً عظيماً أو صالحاً تقياً ، قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] .

(ب) – الإيمان بالنبوة والرسالة :

إن تبليغ الرسالة ليس أمراً سهلاً وإنما هو مهمة صعبة ، يشهد التاريخ البشري بأنه لم يقم نبي مرسل بتبليغ رسالته إلاّ وقد قام الباطل بمقاومته ومحاربة رسالته منذ لحظة قيامه بمهمة تبليغ الرسالة ؛ وذلك لأن قبول الرسالة يقتضي أن يتحول الإنسان إلى إنسان آخر؛ يختلف عن الأول

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيــر ، ٤ / ٢٤١٤ .

(٢) – سورة التــوبــة : الآيــة ٣٠ ، ٣١ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيــر ، ٢/ ١٢٨٨ .

(١) – التحرير والتنوير : الإمام ابن عاشــور ، ٦ / ٢٦٦ .

(٢) – سورة التوبــة : الآيــة ٣١ .

في التفكير والاعتقاد والسلوك إذ الذي تقدمه هذه الرسالة من حقائق الحياة والكون ومتطلبات الحياة الأخرى تـــتصادم مع كثير ما يحمله الإنسان المشرك أو الكافر أو الضال المنحرف من أفكار ومعتقدات وتعامل مع الكون والحياة .

فنظراً لعظم هذه المهمة وصعوبة أداء رسالتها لا يختار الله ﷻ لحملها إلاّ أفضل القوم مطلقاً، ولذا كان الأنبياء والرسل هو الصفوة الخيرة من بني الإنسان ، اختصهم الله بهذه النعمة وأعدهم لحمل رسالته ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[1] .

فحين لا يسع أهل الزيغ والباطل القيام بمقاومة النبي لعلو أخلاقه وشهرة أمانته وقوة صدقه وتميزه عن غيره بكل الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية ، أو حين يرون أن الاتهامات التي يوجهونها إليه والافتراءات التي يروجونها عنه لا تعمل ولا تجدي ، يأتون بشبهات يريدون بها القضاء على نبوته ورسالته ، ومن أهمها – مثلاً –:

الإنسان لا ينبغي أن يكون رسولاً ، فالرسول يجب أن يكون مَلَكا مستغنياً عن الطعام والشراب ، كما قال كفار مكة للنبي محمد – ﷺ – : ما بال هذا الذي يدعي النبوة يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد في الأسواق كما نتردد لطلب المعاش، إن النبي ينبغي أن يكون ملكاً، وليس إنساناً، ثم نزلوا إلى طلب أخف من هذا وقالوا بأنه إن صح ما يدّعيه محمد – ﷺ – من النبوة فلماذا لم ينـــزل ملك يصاحبه ويعضده ويساعده ، قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾[1]، وقد قال أسلافهم مثل قولهم ، قال تعالى عن قوم نوح مع نبيهم – عليه السلام – : ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[2] .

(ج) – **الإيمان بالبعث والجزاء** :

الإيمان بالبعث والجزاء أمر أساسي في الإسلام وفي جميع الأديان السماوية إذ لا يقوم الدين بدونه ، وهو ركن من أركان الإيمان في الإسلام ، ولذا اهتمت به الشريعة الإسلامية اهتماماً

---

(١) – سورة الأنعام : من الآيـــة ١٢٤ .

(١) – سورة الفرقـــان : الآيـــة ٧ .

(٢) – سورة المؤمنون : الآيـــة ٢٤ .

بالغاً منذ بداية الدعوة في مكة المكرمة ، فمحاور الآيات والسور المكية إنما كانت التوحيد والرسالة والآخرة ، فهي تتحدث عن هذه الأركان الثلاثة لتثبيت الإيمان في النفوس بوجوه مختلفةٍ مستخدمةً في ذلك المنهجين المعروفين ؛ منهج العرض ومنهج الردّ.

وقد أنكره الفلاسفة الملحدون والكفار الطبيعيون في القديم والحديث ، فالإنكار ممتد من الأمم الماضية إلى هذه الأمة عبر السنين والقرون ، ولا يوجد لدى الإنسان سجل تاريخي صحيح ودقيق لمعرفة الشبهات التي أدت الأمم الماضية إلى إنكار الإيمان بالبعث والجزاء ، ولذا لا يوجد سبيل لمعرفتها إلاّ الرجوع إلى القرآن حيث ذكر بعض الشبهات مع تفنيدها تفنيداً علمياً لبيان الحق والاعتبار ، فمنها – مثلا – :

– قول الله ﷻ : ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[1] ، أي: أنكرو البعث لشبهتين ، أحدهما : قولهم : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ، أي الإعادة محال[1] ، وهذا لا يحتاج إلى دليل وبرهان وإنما هو أمر مشهور، وثانيهما : قولهم: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ ﴾ ، أي: كما وقع هذا الوعد من محمد – ﷺ – فقد وقع قديما من الأنبياء ، ثم لم يوجد مع طول العهد ، فظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا ، ثم قالوا لما كان كذلك فهو من أساطير الأولين ، والأساطير جمع أسطار والأسطار جمع سطر ، أي ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له[2].

– وقوله ﷻ : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[3] ، روي أنه جاء أبيّ بن خلف الجمحي إلى رسول الله – ﷺ – بعظم نخر فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليت عظامنا ، فكانت رميماً أن الله باعثنا خلقا جديداً ؟ ثم جعل يفت العظم ويذره في الريح فيقول : يا محمد من يحي هذا ؟ فقال رسول الله – ﷺ – نعم ، يميتك الله ، ثم يحييك ، ويجعلك في جهنم ، ونزل على رسول الله – ﷺ – ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيــر ، ٣ / ١٩٤٤ .

(١) – سورة المؤمنون : الآيــة ٨١ – ٨٣ .

(٢) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ١١ / ٢٠١ .

(٣) – سورة يس : من الآيــة ٧٨ .

﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾[1]،[2] ، وهناك روايات مختلفة عمن جاء إلى النبي – ﷺ – ليخاصمه في أمر البعث .

وسيأتي الردّ — إن شاء الله – على ما سبق ذكره من الشبهات آنفاً في الفصل الخامس المخصص للحديث عن مناهج الردّ على الشبهات .

ثانيا : الشريعة

لقد أكثر خصوم الدعوة من الكفار والمشركين ، واليهود والنصارى ، من إثارة الشبهات حول أحكام الشريعة الإسلامية أيضاً للنيل من قدسيتها والطعن فيها بكل ما عندهم من وسائل وإمكانات ، وأذكر — فيما يلي — بعضاً من تلك الشبهات :

(أ) – **شبهة حول حكم التحليل والتحريم بالاحتجاج بالقضاء والقدر ومشيئة الله:**

ذكر الله تعالى عن المشركين قولهم في التحليل والتحريم فقال : ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾[1] ، أي : حلال للذكور وحرام للإناث ، هذا إذا ولد ما في البطن حيا ، أما إذا ولد ميتا فالذكور والإناث فيه شركاء ، أي حلال لهم جميعاً .

وقد رد القرآن على قولهم هذا في الآيـــة نفسها فقال : ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ ، أي : سيجزيهم الله على ابتداعهم في التحليل والتحريم حيث وصفوا الحلال بالحرام والحرام بالحلال ، فناقضوا شرع الله وخالفوه ، ونسبوا ذلك إلى الله[2] .

ثم بين الله خسرانهم وسفاهة عقولهم لما كانوا يقدمون على قتل أولادهم خشية الإملاق ، ووأد بناهم خشية العار[3] ، وتحريم ما أحل الله من الرزق افتراءً عليه ﷻ فيقول : ﴿قَدۡ خَسِرَ

---

(١) – سورة يـــس : الآيـــة ٧٧ — ٧٩ .

(٢) – الدر المنثور : الإمام جلال الدين السيوطي ، ٨ / ٣١٩ .

(١) — سورة الأنعام : الآيـــة ١٣٩ .

(٢) – أنظر : تسير الكريم الرحمن : الشيخ السعدي ، ص٢٣٨ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيـــر ، ٢ / ١٠٦٨ .

ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾[1].

وقد ذكر الله تعالى أن المشركين سيحتجون على شركهم بالله وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل من الخير والشر حجة لهم حيث قال: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٍ ﴾[2] ، فهذه شبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغيـــيره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بينـــنا وبين الكفر فلم يغيره ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ، فردّ القرآن عليهم : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾[3] ، أي : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام[1] .

وقد ردّ القرآن الكريم عليهم بمناهج عدة وأساليب مختلفة ، منها – مثلا – قوله تعالى – في الآيـــة نفسها – : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾[2]، وهنا يتبين أن حجتهم فاسدة وشبهتهم كاسدة .

(ب) – شبهة حول حكم النسخ :

أنكر اليهود حكم النسخ واعتبروه مطعناً في أحكام الشريعة الإسلامية ، وأثاروا شبهة حول هذا الحكم وأشاعوها قائلين : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم

---

(١) – سورة الأنعام : الآيـــة ١٤٠ .

(٢) – سورة الأنعام : من الآيـــة ١٤٨ .

(٣) – سورة الأنعام : من الآيـــة ١٤٨ .

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيـــر ، ٢ / ١٠٧٧ .

(٢) – سورة الأنعام : من الآيـــة ١٤٨ .

بخلافة ، ويقول اليوم قولاً وغدا يرجع عنه[1] ، ما هذا من شأن الأنبياء وما هذا إلاّ من كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضا[2] .

وهدفهم من إثارة هذه الشبهة أنهم إذا اعترفوا بصحة حكم النسخ ، الذي يعني إبدال حكم بحكم آخر أو شريعة بشريعة أخرى ، ما حصل لهم إنكار شريعة الإسلام وإنما لزمهم الإقرار بأنها شريعة ختامية ناسخة للشرائع التي قبلها ، فأرادوا تحقيق أمرين من إثارة هذه الشبهة، وهما :

الأول : إنكار رسالة الإسلام بدليل أن النسخ لا يرد على الشرائع؛ ومن ثم فالشرائع السابقة قائمة، ودعوى محمد أنه جاء برسالة خاتمة وناسخة لجميع الشرائع السابقة غير صحيحة.

الثاني : إن ثبت بالحجة والبرهان والمعجزات أن رسالته صحيحة ، فهي رسالة خاصة بالأميـــين (العرب) ، أما أهل الكتاب فلا تشملهم هذه الرسالة بناءً على أن النسخ لا يقع في الشرائع ، فشرائعهم لا تزال قائمة ، وهذا يعني تناقض محمد – ﷺ – في كلامه[3] .

وجاء هؤلاء ومنكرو جواز النسخ بشبه أخرى لدعم وتأيـــيد الشبهة المذكورة أعلاه ، وقالوا باستحالة وقوع النسخ عقلاً وسمعاً ، وهي – بالاختصار – :

الشبهات العقلية :

(١) – قالوا لو جاز النسخ لكان ذلك لحكمة ظهرت لله تعالى وكانت خفية عليه، أو كان لغير حكمة وكل هذين باطل لكونهما محال على الله .

فالأول يستلزم تجويز البداء وهو الظهور بعد الخفاء ، والثاني يستلزم تجويز العبث ، والبداء والعبث محالان على الله تعالى بالأدلة العقلية والنقلية ، فما أدى إليهما وهو جواز النسخ محال.

الرد على الشبهة : أن نسخ الله لما شاء مبني على حكمة كانت معلومة له أولاً ومصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان وتختلف باختلاف الأحوال ، فالنسخ كان لحكمة أيضاً ولا يخلو الحكم الثاني من حكمة جديدة غير الحكمة الأولى وكلها معلومة لله تعالى فلا يلزم فيه بداء ولا عبث .

---

(١) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ٣ / ٢٢٦ .

(٢) – روح المعاني : الإمام الآلوسي ، ١ / ٣٥١ .

(٣) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٣٣٤ ، ٣٣٥ ، (بتصرف) .

(٢) – قالوا : يلزم من النسخ أحد باطلين :

أ- جهله تعالى .

ب- تحصيل الحاصل .

فالجهل أن يقال : إما أن يكون قد علم الحكم الأول المنسوخ مؤبداً أو علمه مؤقتاً ، فإن علمه مؤبداً ثم نسخه فقد انقلب علمه جهلاً ، والجهل محال على الله وإن كان قد علمه مؤقتاً ثم نسخه بعد المدة المحددة يكون تحصيلا للحاصل ، لأن الحكم يرتفع بطبيعته عند انتهاء وقته وتحصيل الحاصل باطل .

الرد على الشبهة : أنه قد سبق في علمه تعالى أن الحكم المنسوخ مؤقت لا مؤبد ، وعلم أيضاً أن توقيته إنما هو بورود ناسخ ينسخه ، فورود الناسخ محقق لما في علم الله تعالى لا مخالف له شأنه تعالى في الأسباب ومسبباتها ، والنسخ بيان بالنسبة إلى الله تعالى ، ورفع بالنسبة إلينا .

(٣) – قالوا : لو جاز النسخ لزم أحد باطلين هما :

أ – تحصيل الحاصل .

ب – ما هو في معناه .

وبيان ذلك أن المنسوخ إما يكون مغيّاً بغاية ينتهي عندها أو يكون مؤبداً .

فالمغيّا ينتهي بمجرد وجود الغاية فلا لزوم للنسخ و إلا لزم تحصيل الحاصل .

أما المؤبد : فإن جاء بنسخه بالرغم من تأييده لزم من ذلك أشياء :

١- التناقض .

٢ – تعذر إفادة التأبيد من الله تعالى للناس لاحتمال إبطال النسخ لكل تأبيد .

٣ – استلزام جواز النسخ للشريعة الإسلامية بغيرها .

ويرد عليهم بما يلي :

أن حصر المنسوخ في المؤبد والمؤقت غير صحيح لأن المنسوخ قد يكون مطلقاً منهما كليهما ، وحتى الحكم المؤبد يمكن نسخه فهو غير ممتنع ، وما ذكروه منقوض بما يلي :

١ – لا تناقض بينهما لأن الخطابات الشرعية مقيدة من أول الأمر بأن لا يرد ناسخ ، كما أنها مقيدة بأهلية المكلف للتكليف ، وأن لا يطرأ عليه جنون أو غفلة أو موت ، وإذن مجيء الناسخ لا يفضي إلى التناقض بينه وبين المنسوخ بحال .

٢ – أما تعذر فهم الناس التأبيد من الله فغير صحيح أيضاً ، لأن التأبيد يفهمه الناس من مجرد الخطابات الشرعية ، لأن الأصل بقاء الحكم الأول ، وطرق الناسخ احتمال مرجوح فيعمل بالأقوى .

٣- جواز نسخ الشريعة الإسلامية جواز عقلي لا شرعي وهو محال شرعي، ولا مانع من أن يكون المحال الشرعي جائز عقلاً، وإنما منعنا منه شرعاً لورود خبر الصادق بذلك وهو قوله تعالى: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[١]، وقوله ﷺ: "إلا أنه لا نبي بعدي"[٢]، والخلف في خبر الصادق محال

(٤) – قالوا الأمر بالشيء يقتضي أنه حسن ، والنهي عنه يقتضي أنه قبيح ، فالنسخ إذن يقتضي اجتماع الضدين[٣] .

ويرد عليهم : أن الحسن والقبيح ليست من صفات الفعل الذاتية ، وإنما هو حسن ما دام أمر الله متعلقاً به ، فإذا نهى عنه أصبح قبيحاً ، فلا اجتماع للضدين على هذا ، لأن الحسن والقبيح يختلفان باختلاف الأحوال والأوقات والأشخاص ، فهنا الوقتان مختلفان فلم يجتمع الحسن والقبح في وقت واحد على فعل واحد .

الشبهة السمعية

قالوا : إن التوراة التي بأيديهم منقولة بالتواتر وجاء فيها : (هذه شريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض) وجاء فيها : (الزموا يوم السبت أبداً) وذلك يفيد امتناع النسخ لأن نسخ شيء من التوراة إبطال لما هو عند الله تعالى وهو غير جائز في نظرهم[١].

الرد على الشبهة من عدة أوجه :

١– إن ثبتت دعواهم فهي امتناع نسخ شريعة موسى - عليه السلام - بشريعة أخرى ، أما تناسخ الشرائع سواها فلا تدل هذه الشبهة على امتناعه، أما النسخ من حيث هو فقد وقع بشريعته للشرائع قبله، وجاء في نصوص التوراة النسخ كتحريم كثير من الحيوان على بني إسرائيل

---

(١) – سورة الأحزاب : من الآيـــة ٣٣ .

(٢) – تقدم تخريجه .

(٣) – مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني ، ١٤٢/٢- ١٤٤ ، ط١، ١٩٩٦م، دار الفكر، بيروت، ومناهج الجدل في القرآن الكريم : د. زاهر عواض الألمعي ، ص٣٤٨-٣٥٠ .

(١) – المرجعان السابقان :الأول ، ١٤٥/٢ ، والثاني ، ص٣٥٠ .

بعد حله لهم، قال تعالى في إخباره عنهم: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[2] ، فالقرآن لم يخل لهم سبيلهم ليستمروا في إشاعة الشبهة وإنما قام بتفنيدها ودحضها بالحجة والبرهان ليظهر زيغ الباطل ويتجلى الحق فتزول الشبهة عن النفوس ، فبين من خلال هذه الآيات وقوع النسخ بأوضح بيان وردّ على منكريه اليهود ردوداً مفحمة.

٢ — لا يسلّم لهم أن التوراة التي بأيديهم منقولة بشكل متواتر سليم بل الأدلة متضافرة على أن التوراة الصحيحة لم يعد لها وجود ، يدل على ذلك اختلاف الأحكام والأخبار الواردة في نسخ التوراة بصورة متناقضة كالزيادة في عمر الدنيا ألف سنة في التوراة التي بين أيدي السامريـــين على ما جاء في نسخة العنانيـــين ، ونسخة النصارى تزيد ألف وثلاثمائة سنة .

وكذلك مخالفتها للتاريخ ففي بعض النسخ أن نوحاً أدرك آباءه إلى آدم وأنه أدرك من عهد آدم نحو مائتي سنة ، وفي نسخة أخرى أن نوحاً أدرك من عمر إبراهيم ثمانياً وخمسين سنة وكل هذا باطل تاريخياً .

٣ — لو كانت التوراة متواترة لحاجوا بها أفضل الرسل محمداً - ﷺ - بل كانوا يتهربون من ذلك مع دعوة الرسول - ﷺ - المسلمين إلى الإيمان بها .

٤ — وردت بعض الأحكام بشكل تأبيد في التوراة ومع ذلك فاليهود مجمعون على نسخها، ومن ذلك ما جاء في البقرة التي أمروا بذبحها (هذه سنة لكم أبداً) ، وما جاء في القربان (قربوا كل يوم خروفاً قرباناً دائماً) .

٥ — الأحكام المؤبدة لفظاً يجوز نسخها على الصحيح ، وشبهة التناقض تندفع بأن التأبيد مشروط بعدم ورود ناسخ[1] .

---

(١) — سورة آل عمران : الآيـــة ٩٣ .

(٢) — سورة الأنعام : الآيـــة ١٤٦ .

(١) — مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، ١٤٥/٢- ١٤٧، و مناهج الجدل في القرآن الكـــريم : د. زاهر عواض الألمعي ، ص٣٥٠ — ٣٥٢ .

(ج) – **شبهة حول الذميـــين والجزية** :

الشبهة هي : " عامل الإسلام الذميـــين بقسوة واضطهاد وإرهاب وقمع للحريات، وأرهقهم بضرائب كبيرة سميت " الجزية " .

قيل بأن أول من آثار هذه الشبهة هو المستشرق " يوليوس فلهاوزن " الذي قال في كتابه " تاريخ الدولة العربية " :

" وكان موقف غير العرب بالنسبة للأرستقراطية الحربية العربية هو موقف الرعايا الخاضعين ، وكانوا هم الدعامة المالية للدولة ، فكان لا بد لهم أن يهيِّـــئوا الحياة لسادتهم من طريق الخراج المفروض عليهم والضرائب التي يدفعونها كرعايا والتي كانت تُشعر بالغضاضة ، وكانت وطأتها عليهم أشد من وطأة الزكاة التي كان يدفعها المسلمون . وكان تدخُّل الدولة العربية في شؤونهم الداخلية – إذا لم تدع إلى ذلك حاجة – أقل من تدخلها في شؤون القبائل ، و لم تكن الحكومة الإسلامية يهمها سوى حمل الخراج إلى بيت المال على المقدار المفروض له ، الذميون بقرة ، الوالي يمسكها من قرونها حتى تسكن ، وعامل الخراج يحلبها "[(1)].

وقد ذكر الذين أخذوا يشيعون هذه الشبهة آيـــة قرآنية لتأيـــيد ما يقولون وتأكيد شبهتهم ودعم افترائهم ، وهي قول الله ﷻ : ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾[(1)] .

حقيقة الشبهة ومناقشتها :

١– الإرشاد الرباني يرسم الطريق القويم للمسلمين في معاملة غير المسلمين:

– جاء في القرآن الكريم : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[(2)]، أي : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرُّوهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، لأن الله

---

(١) – تاريخ الدولة العربية : يوليوس فلهاوزن ، ص٢٧ .

(١) – سورة التوبة : الآيـــة ٢٩ .

(٢) – سورة الممتحنة : الآيـــة ٨

عزّ وجلّ عمّ بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَـٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمۡ ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصصْ به بعضًا دون بعض ، فالله ﷻ يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم ، فيبرّون من برَّهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم[(١)] .

٢– التوجيه النبوي فيما يتعلق بحقوق أهل الذمة :

– قال النبي – ﷺ – : '' من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً ''[(٢)] .

– وقال – ﷺ – : '' ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة ''[(٣)] .

– وقال – عليه الصلاة والسلام – : '' إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا ''[(١)] .

– حدث زيد بن سعنة – وهو من أحبار اليهود – أنه أقرض النبي – ﷺ – قرضاً ، ثم رأى أن يذهب قبل ميعاد الوفاء المحدد ليطالب بدَيْنه قال : أتيته يعني رسول الله – ﷺ – '' فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ – أي عابس – قلت له : يا محمد ، ألا تقضيني حقي ؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب إلا مطلاً – مسوفين في أداء الدَيْن والحقوق – ولقد كان لي بمخالفتكم علم ، ونظر إليَّ عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني ببصره وقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله – ﷺ – ما أسمع ؟ ! وتفعل به ما أرى ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر فوته – لولا ما أخشى أن يفوتني من رضا الرسول – لضربت بسيفي هذا عنقك ! ورسول الله – ﷺ – ينظر إليَّ في سكون وتؤدة فقال : '' إنا كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التباعة ، اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً من تمر ، مكان ما رُعته '' ، قال زيد : فذهب بي عمر ، فقضاني حقي

---

(١) – جامع البيان عن تأويل آى القرآن : الإمام الطبري ، ٥٧٤/٢٢.

(٢) – صحيح البخاري : كتاب الجزية والموادعة مع أهل الذمة الحرب ، باب : إثم من قتل معاهداً بغير جرم ، ص٦٠٧ ، رقم الحديث : ٣١٦٦ .

(٣) – سنن أبي داود : كتاب الخراج ، باب في الذمي يسلم في بعض السنة هل عليه جزية ، ص٣٤٥ ، رقم الحديث : ٣٠٥٢ ، صححه الألباني (انظر: السلسلة الصحيحة، ٨٠٧/١، رقم الحديث: ٤٤٥، ط: مكتبة المعارف، الرياض) .

(١) – صحيح مسلم : كتاب البر والصلة والآداب ، باب : الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق ، ص١٠٥٠، رقم الحديث : ٢٦١٣ .

وزادني عشرين صاعاً من تمر فقلت ما هذه الزيادة يا عمر ؟ قال : أمرني رسول الله – ﷺ – أن أزيدك مكان ما رعتك.... [1] .

٣ – معاملة المسلمين مع الذميـــين :

العهود التي أجراها الفاتحون المسلمون مع أهل الذمة والتي سجلها التاريخ تشهد على حسن معاملتهم معهم ، ويعجز التاريخ أن يقدم نظيرها ، وهي كثيرة ، منها عهود أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ، ومنها – مثلا – :

" ..... بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولا ينـــتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليـــبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يُكْرُهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .....[1] .

ونجد أن عمر – رضي الله عنه – ؛ الذي تمت في عهده أكبر الفتوحات ، مع عهوده زاد عطفا وتسامحا وحسن معاملة ، فمثلاً :

– بينما هو في كنيسة القيامة بالقدس إذ دخل وقت الصلاة فخرج وصلى خارجها ، وقال للبطريرك : لو صليت داخل الكنيسة خفت أن يقول المسلمون من بعدي : هذا مصلى عمر ، وأن يحاولوا أن يقيموا في هذا المكان مسجدا .

– رأى عمر – رضي الله عنه – مُسِّناً يهودياً يسأل الناس ، فسأله : ما الذي حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وذهب إلى منـــزله حيث أعطاه عطاءً سخيا ثم أرسله إلى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيـــبته ثم خذلناه عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من مساكين أهل الكتاب[2] .

---

(١) – صحيح ابن حبان : الإمام محمد بن حبان بن أحمد التميمي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ٥٢١/١، ط٢، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(١) – تاريخ الطبري : الإمام الطبري ، ٢ / ٤٤٩ ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) – مقارنـــة الأديان : د . أحمد شلبي ، ٣ / ١٥١ .

٤ – اعترافات الذميـــين :

مما قال الذميون عن معاملة الفاتحين لهم :

" إن العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا ، يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس ، يعطفون على ديننا ويكرمون قسنا وقديسي الرب ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار"(1)، ويقول " أرنولد " معلقاً على هذه الرسالة : " تحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدين الجديد " .

ويقول " عشو بابه " أحد البطاركة المسيحيـــين : " إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون ، إنهم ليسوا أعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قسيسنا ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا "(1) .

٥ – أسباب دفع الجزية :

" لماذا الجزية ؟ ما مقدارها ؟ .. وما يقابلها عند المسلمين ... " .

– ينـــتفع أهل الكتاب " الذميون " بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء والشرطة ، والمرافق العامة كالطرقات والجسور ومشاريع الري ... " وتحتاج إلى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ، ويسهم أهل الكتاب بالجزية في تكاليف هذه المرافق(2) .

ومقابل دفع الجزية لا يكلف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد ، بل يقوم بذلك المسلمون ، فهي نظير إعفائهم من الواجب الكبير وفي بعض الأحوال التي يقوم بها الذميون بالدفاع عن النفس تسقط عنهم الجزية بدليل " أن المسلمين عندما دخلوا حمص أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا الإسلام ، ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشا كبيرا لمهاجمة المسلمين فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم

---

(١) – الدعوة إلى الإسلام : توماس أرنولد ، ص١٠٢ .

(١) – روح الدين الإسلامي : عفيف طبارة ، ص٢٠١ .

(٢) – مقارنـــة الأديان : د . أحمد شلبي ، ٣ / ١٥٢ .

أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهضوا بذلك فسقطت الجزية عنهم ".

ومما قالوه : " ردَّكم الله علينا ونصركم عليهم – أي على الروم – فلو كانوا هم ، لم يردوا علينا شيئا ، وأخذوا كل شيء بقي لنا "[1] .

– مقدارها : هي على الأغنياء ٤٨ درهما في العام – حوالي جنيهين[1] – وعلى المتوسطين ٢٤ درهما ، وعلى العمال والصناع ١٢ درهما ، فهي إذن : مقدار ضئيل يسير من المال يدفع في كل عام مرة واحدة ، تتفاوت قيمته حسب حالة الذمي المالية .

إذن يعين مقدار الجزية اعتبارا لحالتهم الاقتصادية ، ويؤخذ من الموسرين أكثر ومن الوسط أقل منه ومن الفقراء شيء قليل جدا ، والذين لا معاش لهم أو هم عالة على غيرهم يعفون من أداء الجزية .

٦ – الحقوق العامة لأهل الذمة في الإسلام :

هي كثيرة ، أذكر فيما يلي بعضها على سبيل المثال :

(أ) : – **حفظ النفس** : دم الذمي كدم المسلم.

– روى عمر بن الحسن[2] عن إبراهيم – رحمهما الله تعالى – أن رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الذمة ، فرفع ذلك إلى رسول الله – ﷺ – فقال : " أنا أحق من أوفي بذمته " ، ثم أمر به فقتل[3] .

---

(١) – الدعوة إلى الإسلام : توماس أرنولد ، ص٧٩ .

(١) – مقارنـــة الأديان : د . أحمد شلبي ، ٣ / ١٥١ .

(٢) – هو عمر بن الحسن بن علي بن مالك بن أشرس بن عبد الله بن منجاب أبو الحسين الشيباني المعروف بابن الأشناني ، حدث عن أبيه وعن محمد بن عيسى بن حيان المدائني وموسى بن سهل الوشاء ومحمد بن شداد المسمعي ومحمد بن عبـــدك القزاز والحارث بن أبي أسامة ومحمد بن مسلمة الواسطي وإبراهيم الحربي ونحوهم من البغداديين والكوفيين ، روى عنه أبـــو العباس بن عقدة وأبو عمرو بن السماك ومحمد بن المظفر والدارقطني وغيرهم من المتقدمين ، وكان يتولى القضـــاء بنـــواحي الشام، ووليه ببغداد ثلاثة أيام حسب ثم عزل ، وقيل أن مولده كان ببغداد في سنة تسع وخمسين أو في سنة ستين ومائتين ، وهو من جلة الناس ، ومن أصحاب الحديث الموجودين ، وأحد الحفاظ ، وحسن المذاكرة بالأخبار ، قيل فيه بأنه ضـــعيف وقيل بأنه ثقة ، توفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة (تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ، ٢٣٦/١١، ٢٣٧، ٢٣٨) .

(٣) – مسند الشافعي : الإمام الشافعي ، ٣٤٣/١ ، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت ، وسنن الدار قطني : علي بن عمـــر أبو الحسن الدار قطني البغدادي ، تحقيق : السيد عبد الله هاشم يماني المدني ، كتاب الديات والقصاص ، رقـــم الحـــديث :

– في زمان عمر – رضي الله عنه – قتل رجل من بني بكر بن وائل رجلا من أهل الذمة بالحيرة، فأمر عمر – رضي الله عنه – بتسليم الرجل إلى أولياء المقتول ، فسلم إليهم فقتلوه[1] .

– أيام علي – رضي الله عنه – أخذ رجل من المسلمين بقتل ذمي ، وقامت الحجة عليه فأمر علي – رضي الله عنه – بالقصاص ، فجاءه أخو المقتول وقال : قد تركت القود[2] ، ولكنه – رضي الله عنه – لم يرض بذلك وقال : لعلهم فزعوك أو هددوك ، فقال : لا ، بل قد أخذت الدية ولا أظن أخي يعود إليَّ بقتل هذا الرجل ، فأطلق علي – رضي الله عنه – القاتل وقال : '' من كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا ''[1] .

واشترط الجمهور – ومنهم الشافعي وأحمد – في القصاص الحرية والدين ، فلا يقتل قصاصاً مسلم بكافر لقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : '' لا يقتل مسلم بكافر ''[2] ، وقوله : '' المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَن سِواهم ، ألا لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده ''[3] .

وذهب مالك والليث إلى أن المسلم يقتل بالذمي إذا قتله غيلة[4] .

ولم يشترط الشعبي والنخعي وأبو حنفية وأصحابه التكافؤ في الحرية والدين، وإنما يكفي التساوي في الإنسانية، لعموم آيات القصاص بدون تفرقة بين نفس ونفس، مثل قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾[6] ،

١٥٨٤، (رواه عن ابن عمر من طريق عبد الرحمن بن البيلماني ، وهو ضعيف ، وروي مرسلاً عند محمد بن الحسن ، والشافعي وعبد الرزاق وأبي داود من طريق البيلماني) ط : ١٣٨٦ – ١٩٦٦ ، الناشر : دار المعرفة ، بيروت .

(١) – البرهان في شرح مواهب الرحمن : إبراهيم بن موسى الطرابلسي، ٣ / ٢٧٨ ط: ٩٢٢هـ .

(٢) – القود : القصاص ، أقاد القاتل بالقتيل قتله به '' مختار الصحاح '' : ص٤٧٧ .

(١) – البرهان في شرح مواهب الرحمن : إبراهيم بن موسى الطرابلسي، ٢ / ٢٨٢ .

(٢) – صحيح البخاري : كتاب العلم ، باب : كتابة العلم ، ص٤٧ ، رقم الحديث : ١١١ ، وكتاب الجهاد والسير ، باب: فكاك الأسير ، ص٥٨٣ ، رقم الحديث : ٣٠٤٧ ، وسنن ابن ماجة : كتاب الديات ، باب : لا يقتل مسلم بكافر ، ص٢٨٩ ، رقم الحديث : ٢٦٥٨ ، و ٢٦٥٩ ، و٢٦٦٠ .

(٣) – مسند أحمد بن حنبل : مسند علي بن أبي طالب ، ص١٠٠ ، رقم الحديث : ٩٥٩ ، (قال الألباني : صحيح مختصراً)، وسنن النسائي : كتاب القسامة ، باب : سقوط القود من المسلم للكافر ، ص٤٩٢ ، رقم الحديث : ٤٧٤٥ .

(٤) – نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ٧ / ٩٥ ، تعليقات: يسيرة لمحمد منير الدمشقي ، الناشر : إدارة الطباعة المنيرية .

(٥) – سورة البقرة : من الآية ١٧٨ .

وقوله ﷻ : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومًا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنًا ﴾[2] ، وقوله جلّ شأنه : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[3] ، ولعموم حديث " العمد قود إلا أن يعفو ولي المقتول "[4] ، وصوناً لحق الحياة ، وتحقيق ذلك في قتل المسلم بالذمي أبلغ منه في قتل المسلم بالمسلم ، لأن العداوة الدينية تحمله على القتل خصوصاً عند الغضب ، ورُوي أن النبي – ﷺ – أقاد مؤمناً بذمي ، وقال : "أنا أحق من وفى بذمته"[1] ، ولأن العبد آدمي معصوم الدم فأشبه الحر ، والقصاص يتطلب فقط المساواة في العصمة[2] ، والله أعلم بالصواب .

(ب) : – حفظ الأعراض والأجسام والأموال:

لا يجوز إيذاء الذمي لا باليد ولا باللسان ولا شتمه ولا ضربه ولا غيبته ، وقد ورد في الدرّ المختار : " ويجب كف الأذى عنه وتحريم غيبته كالمسلم "[3] .

فكما حمى الإسلام أنفسهم من القتل حمى أبدانهم من الضرب والتعذيب فلا يجوز إلحاق الأذى بأجسامهم ، ولو تأخروا أو امتنعوا عن أداء الواجبات المالية المقررة عليهم كالجزية والخراج ، هذا مع أن الإسلام تشدد كل التشدد مع المسلمين إذا منعوا الزكاة .

ولم يُجِزْ الفقهاء في أمر الذميين المانعين أكثر من أن يُحبَسوا تأديباً لهم ، بدون أن يصحب الحبس أي تعذيب أو أشغال شاقة ، ورُوي أن هشام ابن حكيم ابن حزام – رضي الله عنه – مر

---

(١) – سورة المائدة : من الآية ٤٥ .

(٢) – سورة الإسراء : من الآية ٣٣ .

(٣) – سورة البقرة : من الآية ١٧٩ .

(٤) – سنن الدارقطني : علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي ، كتاب الحدود ولديات وغيره ، ٣ / ٩٤ ، رقم الحديث : ٤٥ .

(١) – سبق تخريجه .

(٢) – بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع :علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني تحقيق : محمد عدنان بن ياسين درويش ، ٦/٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ط٢ ، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

– والمغني : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي ، تحقيق: د . عبد الله ابن عبد المحسن التركي ود . عبد الفتاح محمد الحلو، ١١ / ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ط٢ ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م ، هجر للطباعة والنشر ، القاهرة .

– والفقه الإسلامي وأدلته : د. وهبة الزحيلي ، ص٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م ، دار الفكر ، دمشق .

(٣) – الدر المختار شرح تنوير الأبصار : محمد بن علي الحصفكي ، ٣ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

على أناس من الأنباط بالشام ، قد أقيموا في الشمس ، فقال : ما شأنهم ؟ قالوا حبسوا في الجزية فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله – ﷺ – يقول : '' إن الله يُعذّب الذين يعذبون الناس في الدنيا ''[1] .

وكتب علي – رضي الله عنه – إلى بعض ولاته على الخراج : '' إذا قدمتَ عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاءً ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تقمه على رجله في طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً ، أي: متاعاً في شيء من الخراج ، فإنما أُمِرنا أن نأخذ منهم العفو ، فإن أنت خالفتَ ما أمرتك به ، يأخذك الله به دوني ، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك '' قال الوالي : '' إذن أرجع إليك كما خرجت من عندك ! – يعني أن الناس لا يدفعون إلا بالشدة – قال : وإن رجعتَ كما خرجتَ ''[1] .

وكتب خالد بن الوليد لأهل دمشق يوم فتحها كتاباً جاء فيه : '' بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ، لا تهدم ولا تسكن ، لهم على ذلك ذمة الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ألا يعرض لهم أحد إلا بخير ...''[2] .

وهكذا عاش غير المسلمين في كنف الإسلام بحفظ وأمان في النفس والجسم والمال ، وعدل وإنصاف في الحقوق والمعاملات ، وحرية ومراعاة في العقائد والعبادات ؛ وذلك بسبب النظام الإسلامي الذي جعل أساسه خشية الله في جميع المعاملات ، مع اتباع المبادئ الثابتة الدائمة .

فهل كان ذلك الادعاء إلا كذباً وافتراءً على الإسلام والمسلمين ؟! وهل كان باعثه إلا حسد وضغينة وعداوة ؟ وما أقل المنصفين من المستشرقين ، وما أكثر المتعصبين منهم ، و''يوليوس'' واحد من الكثيرين الذين كتبوا عن الإسلام بعدم النزاهة والموضوعية ، وكتم حقائقه وخصائصه حتى لا يظهر جمال الإسلام عند الأوربيين فيسلموا ، بل سعوا في تشويه

---

(١) – سبق تخريجه .

(١) – السنن الكبرى : أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، ٩ / ٢٤٥، ٢٤٦ ، و كتاب الخراج : يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف ، ص١٥ ، ١٦ ، ١٢٥.

(٢) – تاريخ مدينة دمشق : الإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر ، تحقيق : محب الدين، أبو سعيد عمر بن غرامة العمري ، ط: ١٩٩٥م ، دار الفكر ،بيروت .

صورة الإسلام في أذهان الأوربيـــين ببث الكثيـــر من الدسائس والشبهات عبر كل وسيلة متاحة ، فمما قالوا أيضاً – مثلاً – :

– لم يتعرض محمد – ﷺ – لنظام الرقيق بأكثر مما تعرضت الكنيسة المسيحية الأولى لهذا الأساس الذي قامت عليه الحياة الاقتصادية عند القدماء ''[١].

– وقالوا : '' لم يبطل محمد الرق حالاً ...''[٢] .

– وقالوا : '' لو كان الإسلام صالحاً لكل عصر لما أباح الرق ، وإنّ إباحته للرق لدليل قاطع على أن الإسلام قد جاء لفترة محدودة ، وأنه أدى مهمته وأصبح في ذمة التاريخ ''[١] .

وأثاروا شُبها حول الهدف من الغزو والجهاد فقالوا – مثلاً –:

– الهدف من الغزوات هو الحصول على الغنيمة .

– '' ونشك في الحقيقة فيما إذا كان الحماس الديني وحده كافياً لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة ، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة ''[٢] .

– '' إننا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة الأكاسرة والقياصرة ، والأراضي الخصبة ، والمدن العامرة ، في الممالك المجاورة كانت عاملا كبيراً في تحمس المسلمين لنشر الإسلام''[٣] .

– '' إن العرب شعب نشيط فعال دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة . واجتياح الأراضي الغنية المجاورة المترفهة ''[٤] .

– '' إن الحاجة المادية هي التي دفعت معاشر البدو – وأكثر جيوش المسلمين منهم – إلى ما وراء تخوم البادية القفراء . إلى مواطن الخصب في بلدان الشمال . ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حبب لهم الوغى . فإن ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في أحضان المدنية التي ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذي حبب لهم القتال''[٥] .

---

(١)- تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل برو كلمان ، ص٨١ .

(٢)- قالــه وليم مور ، انظر : حقوق الإنسان : محمد الغزالي ، ص١٢٤ .

(١)- شبهات حول الإسلام : محمد قطب ، ص٣٧ .

(٢)- عقيدة الشيعـــة : دوايت دونلدش ، ص١٨ .

(٣)- Arabs in Spain : ستانلي لان ، ص٤٣ .

(٤) Arabs in Spain : ستانلي لان ، ص٤٣ .

(٥) المرجع نفسه : ص٤٣ .

كانت هذه نماذج من الشبهات التي أثيرت حول الدعوة وصاحب الدعوة والدعاة والمدعويـــين ، وأكتفي بذكر هذه النماذج أو المظاهر من الشبهات والردّ على بعضها إذ لم يكن الهدف من الدراسة حصرها والردّ عليها ، وسيتناول الباحث - إن شاء الله - ما يتيسر له من هذه الشبهات أو غيرها مع الردود عليها لكشف المناهج المستخدمة فيها في الفصل الخامس المخصص لأجله .

الفصل الثالث

خصائص منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات وضوابطه:

المبحث الأول : خصائص منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات.

المبحث الثاني : ضوابط منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات.

المبحث الأول

خصائص منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات:

تـــوطئـــة .

المطلب الأول : خصائص منهج الردّ بإيقاظ الفطرة .

المطلب الثاني : خصائص منهج الردّ العقلي .

المطلب الثالث : خصائص منهج الردّ الحسي .

المطلب الرابع : خصائص انفرد بها منهج الردّ القرآني .

توطئة :

تعددت مناهج مخاطبة الناس للردّ على شبهاتهم تبعاً لعدة عوامل منها اختلافهم في طبائعهم وأفهامهم وثقافاتهم ومعتقداتهم وبيئاتهم ، وتفاوتهم في عقولهم ووجهات نظرهم لتقدير الأمور وقدراتهم لاستجابة الحق ، ومن ثم كانت لكل منهج مزايا وخصائص تخصه وتتناسب مع طبيعة الفئة أو الصنف الذي يخاطَب به من أصناف المدعويين ، ويتميز بها عن غيره من المناهج ، وقد تشترك هذه المناهج في بعض المزايا والخصائص لأمور كثيرة مشتركة بين الناس ، ولتوحيد أهداف المناهج وغايتها المرجو تحقيقها ، كما يخاطَب صنف واحد من المدعويين بأكثر من منهج في وقت واحد ، أو تارة بمنهج وأخرى بمنهج آخر حيث إنّ من خاصية الإنسان أنه يتميز بالعقل أو الحس أو الشعور أو الوجدان ، لكن الواحد منهم يختلف عن الآخر في درجة الإشباع بها ، فهذا يحتاج إلى الأدلة العقلية أكثر من الأدلة الحسية أو العاطفية ، وذاك يشبع بالأدلة العاطفية أكثر من الأدلة العقلية والحسية وآخر يقنع بالأدلة الحسية أكثر من الأدلة العقلية والعاطفية وهكذا ... ، وذلك لفروق فردية جعلها الخالق الحكيم القدير في الناس ، فله سبحانه الحكمة البالغة فيما خلق ، وله القدرة الكاملة المطلقة على ما يريد .

ولذا، فيتبين بالنظر والتأمل في حوار القرآن الكريم والسنة النبوية مع المشركين واليهود والنصارى، وردّهما عليهم معتقداتهم الباطلة ، ومناقشتهما إياهم فيما يثيرون من شبهات ويلقون من تهم وأباطيل، أنهما استخدما في ذلك أساليب متعددة عبر المناهج الثلاثة الرئيسة[1]، وهي:

(١)- منهج الردّ بإيقاظ الفطرة .

(٢)- منهج الردّ العقلي .

(٣)- منهج الردّ الحسي .

---

(١) – انظر للحديث المفصل في الموضوع : المطلب الأول بمقاصدها الثلاثة في المبحث الأول تحت الفصل الخامس ، ص٣٤٧- ٤٢٩ .

المطلب الأول : خصائص منهج الردّ بإيقاظ الفطرة :

لاعتماد هذا المنهج على الفطرة والجبلة حيث يخاطب الشعور ويهز العاطفة ويدعو إلى التأمل ويحرك كوامن النفس ويلفتها إلى الحق والصواب ، يتميز بخصائص تخصه ، وأذكر فيما يلي أهمها[1] :

(١) – لطف أسلوبه في الردّ بالخطاب اللين والعبارات المؤثرة .

(٢) – سرعة تأثيره في نفوس المدعوين وإزالة الشبه عنها ؛ وذلك بالتأثير في عواطف المدعوين ومشاعرهم بالاستدلال بما يواجهون – مثلا – من كرب أو ضر فيكشف الله عنهم ذلك .

(٣) – إزالة العناد عن نفوس أهل الشبهات وإيقافهم من الإعراض عن الحق وإثارة الشبهات .

(٤) – كثرة استخدام هذا المنهج لكون الطبع العاطفي هو الطبيعة الغالبة في نفوس الناس.

(٥) – هو أقوى المناهج أثراً في المدعوين البدائيين لسلامة فطرهم ونقاء أفكارهم وبقاء مداركهم على الجبلة التي خلقوا عليها أول مرة .

---

(1) – انظر : دراسة مفصلة لهذا المنهج في المقصد الأول بالمطلب الأول والثاني تحت المبحث الأول من الفصل الخامس ، ص٣٤٧ – ٣٥٠ ، ٤٣٢ – ٤٣٦ .

المطلب الثاني : **خصائص منهج الردّ العقلي** :

يرتكز منهج الردّ العقلي على الأدلة والبراهين العقلية داعياً إلى التأمل والتفكر والتدبر والاعتبار ، ومن ثم يتميز بمزايا وخصائص يختلف بها عن غيره من المناهج ، أذكر فيما يلي أهمها[1] .

(**١**) – الاعتماد على الاستنتاجات العقلية والقواعد المنطقية في الردّ على الشبهات.

(**٢**) – الإقناع العقلي وليس التسليم المحض ؛ وذلك بمخاطبة العقل بالخطاب السهل الميسر يفهمه العامة والخاصة ، بعيداً عن غموض الفكر الفلسفي والمنطق اليوناني .

(**٣**) – التأثير العميق ، وترسيخ الحق والصواب بعد تفريغ الأذهان من الأوهام والقلوب من الشبهات .

(**٤**) – إفحام الخصم المعاند، وذلك بأقرب الطرق، وهي كثيرة في القرآن، منها – مثلا–:

– **التحدي** : تحدى الله ﷻ كفار قريش بأن يأتوا بمثل القرآن ، ثم بعشر سور مفتريات ، ثم بسورة واحدة ؛ وذلك رداً وإبطالاً ما اختلقوا من الشبهة بمصدر القرآن وقالوا بأنه ليس من عند الله .

– **مجاراة الخصم** : وهو موافقته فيما يقول في بعض المقدمات ، ثم التعقيب عليه بما يقلب عليه نتائج قوله ، ويبطل دعواه ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن الرسل مع أقوامهم: ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[1] ، فالرسل سلّموا بالمقدمة التي بنى عليها أقوامهم إنكارهم ، ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾[2] .

---

(1) انظر : الدراسة حول هذا المنهج في المقصد الثاني بالمطلب الأول والثاني تحت المبحث الأول من الفصل الخامس ، ص٣٥٦ – ٤٠٨ ، ٤٣٨ – ٤٤٨ .

(1) – سورة إبراهيم : الآيـة ١٠ ، ١١ .

(2) – سورة إبراهيم : من الآيـة ١١ .

(٥) – ضيق دائرته بالنسبة لدائرة المنهج العاطفي ، وإن كان هذا الضـــيق أو الســـعة تختلف من قوم إلى قوم[1] .

(٦) – هو أقوى المناهج أثراً مع المدعويين المعتدّين لعقولهم وأفكارهم .

---

(1) – المدخل إلى علم الدعـــوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، ص٢١٣ .

المطلب الثالث : **خصائص منهج الردّ الحسي** :

يعتمد المنهج الحسي للردّ على الشبهات على الأدلة الحسية المستنتجة من المشاهدات والتجارب ، وينفرد بخصائص ومزايا تخصه ، ويختلف بها عن غيره من المناهج ، ويأتي فيما يلي ذكر أبرز تلك الخصائص[1] :

(١) – قوة استدلاله وشدة ردّه لاعتماده على الأمر المحسوس والمشاهد من غير أفكار منطقية معقدة .

(٢) – سرعة زوال الشبه به عن نفس المدعو لسرعة تأثره بدليله الحسي .

(٣) – تخفيف عناد المدعو وتقليل إصراره على الشبه لما يحس أو يرى ويشاهد من الأدلة الحسية المخالفة لاعتقاده وآرائه .

(٤) – عمق تأثيره في نفس المدعو لمعاينته الشيء المحسوس المخالف لاعتقاده وشبهته.

(٥) – كثرة استخدامه لاشتراك جميع أصناف الناس في الاعتماد على الحس وسرعة تأثرهم به .

(٦) – مفضل لدى العلماء والمتخصصين بالعلوم التجريبية ، ومؤثر جداً للمتجاهلين للسنن الكبرى ، والمنكرين للبدهيات العقلية ، إذ الخصوم المعاندون المثيرون للشبهات لا تفيد معهم إلاّ الحقائق الملموسة والأدلة المحسوسة ، وكان ذلك من الحكمة التي لأجلها جاءت كثيرة من المعجزات على أيدي الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – مادية محسوسة .

---

(١) – انظر : الدراسة المفصلة حول هذا المنهج في المقصد الثالث بالمطلب الأول والثاني تحت المبحث الأول من الفصل الخامس ، ص٤١٠ – ٤٢٩ ، ٤٥٠ – ٤٥١.

المطلب الرابع : **خصائص انفرد بها منهج الردّ القرآني**

الخصائص التي انفرد بها القرآن الكريم في الردّ على شبهات المدعوين كثيرة ، منها :

(١) – الإعجاز : القرآن بكل ما فيه معجز ، فإيجازه وإطنابه معجز ، وألفاظه معجزة، ونظمه معجز ، وكذا بيانه وأساليب بيانه معجزة واستدلالاته ومناهج استدلالاته في إثبات الحق والصواب أو إبطال الباطل وردّ الشبهات معجزة ، لا يصل إلى درجته أي كلام ، والفرق بين القرآن وكلام أعلى أئمة البيان يجعل الموازنة بينهما غير مستقيمة ، إذ الفرق بينه وبين القرآن هو الفرق بين الخالق والمخلوق ، لأنه فرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق[1] .

فمناهج الردّ القرآني على الشبهات معجزة ، يستمد إعجازها من إعجاز القرآن ، والقرآن كله معجز ، فمحال أن يعارض أحد القرآن في مناهجه للردّ على الشبهات حيث يأتي بما يناقض القرآن ، أو يعارضه ، أو يماثله في منهج الردّ ، أو جودة الأسلوب ، أو صدق المعنى ، يقول الباقلاني – رحمه الله – وهو يتحدث عن وجوه الإعجاز في القرآن : " أن المعاني التي تضمنها – أي القرآن – في أصل وضع الشريعة والأحكام ، والاحتجاجات في أصل الدين ، والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضا في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع "[2] .

وقد شاهد الإنسان منذ نزول القرآن الكريم أنه ردّ على المشركين شركهم ، والملحدين إلحادهم واليهود والنصارى معتقداتهم الباطلة ، وقطعهم جميعاً بالحجة الدامغة والبرهان الساطع ، فما استطاعوا له رداً ، ولا عنه حولاً ، فهذا الوليد بن المغيرة الذي بعثته قريش إلى النبي – ﷺ– بغية أن يقطعه ويكفّه عنه حيث كان سيد قريش وأحد فصحائهم ، فلما جاء إلى النبي – ﷺ – وانتهى من عرضه له ، أسمعه النبي – ﷺ – القرآن ، يقول الزركشي – رحمه الله – بأنه " لما سمعه – أي القرآن – أخرس لسانه ، وبَلُد جنانه ، وأُطفئ بيانه ، وقُطعتْ حجتُه ، وقُصِم

---

(١) – المعجزة الكبرى : محمد أبو زهرة ، ص٣٤٣ ، ط: ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

(٢) – إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، ١ / ٤٢ الناشر: دار المعارف – القاهرة .

ظهرُه، وظَهَرَ عجزُه ، وذَهُلَ عقلُه ، حتى قال قوله المشهور : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه ليعلو ولا يعلى[1] .

(٢) – الدوام والبقاء والشمول والعموم :

إن مناهج الردّ القرآني وردود القرآن وحججه وبراهينه وأدلته تبقى صالحة لكل زمان ومكان ولجميع أصناف الناس ، وتظل قاطعة لجميع الحجج الباطلة والأفكار الواهية ، ودامغة لجميع الشبهات الباطلة والافتراءات الكاذبة ، لا يغير من ذلك زمان ولا مكان ولا إنسان ما بقيت السموات والأرض ، وهذا الدوام والبقاء والشمول والعموم إنما مستمدة من بقاء الرسالة وعمومها وشمولها وربانية مصدرها ، قال الله تعالى : ﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[2] ، وروي عن النبي – ﷺ – أنه قال : " ما من الأنبياء نبي إلاّ أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "[3].

فلا يسع لأحد ، في أي زمان وفي أي مكان ، معارضة ردود القرآن أو حججه أو براهينه وأدلته بأدلة تقطعها أو تـثير الشك في مصداقيتها ، مثل ما يكون لحجج بعض الناس التي تقطع بعضها البعض، أو تبدو صالحة في وقت من الأوقات ، ثم لا تلبث أن يتبين بطلانها أو ضعفها ؛ فالقائلون – مثلا – بعدم بقاء العرض زمانين، وبنوا على ذلك نفي الصفات عن الله تعالى ، قد عرف أهل العلم والإيمان بطلان حجتهم في ذلك الوقت[4] ، وتبين لغيرهم ممن تأخر زمانهم بطلانها بدليل الحس ؛ وذلك بعد ظهور الأجهزة التي تعنى بحفظ الأصوات والصور ونحوها من الأعراض[5] .

---

(١) – البرهان في علوم القرآن : محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٢ / ١١٠ ، ١١١ ، ط١٣٩١ ، دار المعرفة ، بيروت .

(١) – سورة الأعراف : من الآية ١٥٨ .

(٢) – سورة سبأ : من الآية ٢٨ .

(٣) – صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب : كيف نزل الوحي وأول ما نزل ، ص٩٩١ ، رقم الحديث : ٤٩٨١ ، وصحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد – ﷺ – إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ، ص٨٥ ، رقم الحديث : ١٥٢ .

(٤) – ولابن حزم كلام جيد في مناقشة هذه الشبهة وتفنيدها ، انظر : الفصل ٥ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٥) – منهج الجدل والمناظرة : عثمان بن علي حسن ، ص٢٨٧ .

(٣) – مخاطبة العقل والوجدان :

من أهم خصائص مناهج الردّ القرآني مخاطبة العقل والوجدان معاً ، فيستخدم القرآن الدليل العقلي داعياً إلى التفكر والتدبر لإزالة شبهة المدعو وإقناعه بالحق والصواب مع مخاطبة وجدانه وفطرته التي تسرع لاستجابة الحق إذا ما تم إيقاظها وصفاؤها من الغبش وأدران الشبهات، ويكون مخاطبة العقل والشعور والوجدان على مستوى مناسب موزون بكامل الدقة حيث يشبع كل واحد منهما في آن واحد ، وهذا لا يقدر عليه الإنسان مهما أعطي من العلم والحكمة ، فلا يمكنه أن يأتي بكلام واحد فيه البرهان العقلي مع الخطاب للوجدان والشعور ، وإن جاء بالأمرين في كلام واحد فلا يكونان على مستوى واحد وبمقدار مناسب ، بل يكونان متفاوتين ، إذا قوي أحدهما ضعف الآخر واضمحل " فمن نظر في كلام الناس من الفلاسفة والحكماء ، وكلام الشعراء والأدباء لم يجد إلا غلوا في جانب وقصورا في الجانب الآخر ، فالحكماء – مثلا – يقدمون لك ثمار عقولهم ، وعصارة أفكارهم غذاء لعقلك من غير أن تتطلع نفوسهم إلى إشباع عاطفتك وإرواء وجدانك "[1].

فلا تكاد تجد بشرا وفّى بحق العقل إلا وبخس بحق الوجدان ، أو وفّى بحق الوجدان إلا وبخس بحق العاطفة ، أما القرآن الكريم فقد جمع الله تعالى فيه بين القوتين : قوة الحجة العقلية البرهانية حتى إنه ليقنع ، أو يقطع أرباب المعارف العقلية والفلسفية ، وقوة المتعة الوجدانية والعاطفية حتى إنه ليرضي ويشبع فحول الأدباء والشعراء ، فهو كلام الله عز شأنه، لا يشغله شأن عن شأن ، فهو القادر على مخاطبة العقل والقلب معا وبلسان واحد، وأن يمزج بين الحق والجمال.

انظر – مثلا – إلى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2] ، وتأمل وتدبر كيف اجتمع في كلمات سبع عمق المقدمات اليقينية ، ووضوحها ، ودقة تصوير ما يعقب التنازع من الفساد الرهيب ؛ مما لو ابتغى تقرير مثله فلاسفة العصور كلها لما استطاعوا إلا بعبارة طويلة جافة[3] .

---

(١) – منهج الجدل والمناظرة : عثمان بن علي حسن ، ص٢٨٨ .

(٢) – سورة الأنبياء : من الآية٢٢ .

(٣) – منهج الجدل والمناظرة : عثمان بن علي حسن ، ص٢٨٨ .

(٤) – **قطعي الثبوت والدلالة** :

إن نصوص القرآن الكريم قطعية الثبوت والدلالة لورودها بالتواتر – كما هو المعلوم عند الفقهاء والأصوليين – تفيد العلم اليقيني الاضطراري ، ومن ثم فأدلة ردود القرآن الكريم أيضاً قطعية الثبوت من حيث الورود وقطعية الدلالة من حيث المعنى والاستدلال بها للردّ على شبهات المدعوين ، وإقامة الحجة على معتقداتهم الباطلة ، وإحقاق الحق وبيان الصواب .

(٥) – **عمق المعنى ووضوح البيان** :

من خصائص مناهج الردّ القرآني انفرادها وامتيازها عن الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية واليونانية من حيث الوضوح في البيان ، والعمق في المعنى ، وإثارة الضمير ، وإيقاظ الفطرة ، وتحريك الوجدان ، والدفع بالعقول إلى التأمل والتدبر ، كل ذلك بدون الاصطلاحات المنطقية الفلسفية المعقدة ، وبلا غموض وإلغاز الطرق الكلامية في الاستدلال التي لا يفهمها إلاّ طائفة خاصة من الناس ، ولأجل ذلك قال الرازي – بعد خبرته الطويلة في الكلام – في آخر عمره : "لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات : ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[1] ، ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾[2] ، واقرأ في النفي : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾[3] ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ﴾[4] ، ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[5] ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي"[6] .

---

(١) – سورة طه : الآية ٥ .

(٢) – سورة فاطر : من الآية ١٠ .

(٣) – سورة الشورى : من الآية ١١ .

(٤) – سورة طه : من الآية ١١٠ .

(٥) – سورة مريم : من الآية ٦٥ .

(٦) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ١٦٠ .

المبحث الثاني :

ضوابط منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات

المبحث الثاني : ضوابط منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات:

بعد ما تبين ثبوت مشروعية الردّ على الشبهات ، واستبان وجوب القيام به ، واتضحت مناهج القرآن والسنة ووجوب الأخذ بها ، ووجوب الاستفادة من مناهج السلف الصالح والأئمة والعلماء ، لكشف الشبهات ودرء الباطل ، وإحقاق الحق وبيان الصواب ، كل ذلك لهداية البشر ، ولكن هذه وحدها لا تكفي للوصول إلى الغاية المطلوبة فإن هنالك جملة من الضوابط والقواعد يجب تطبيقها عند القيام بالردّ على الشبهات وتفنيدها ، كما هنالك جملة من الآداب ينبغي للقائم بالردّ أن يتأدب ويلتزم بها ، فإنها ؛ أي الضوابط والقواعد والآداب ، تصونه بإذن الله تعالى عن الاضطراب والوقوع في الخلل ، وتحفظه من الانحراف عن المنهج القويم السديد، ومن أهمها :

(١) – الإخلاص في الردّ :

الإخلاص لله ﷻ في الردّ على شبهات المدعوين ، والابتعاد – كليا – عن الرياء أو السمعة أو طلب الجاه أو إظهار الرفعة العلمية ، فلا يهدف الداعية من الردّ على الشبه إلاّ إزالتها عن نفس المدعو وهدايته ، أو إفحامه بأدلة مفحمة وملزمة إن كان للحق معانداً ومكابراً ، وإحقاق الحق وتعزيزه ونصرته .

(٢) – العلم الغزير بالأدلة الشرعية :

العلم الغزير بالأدلة الشرعية ، وردود الكتاب والسنة على المعتقدات الباطلة والشبهات الضالة السائدة آنذاك ، والإطلاع الواسع العميق على ردود السلف الصالح والأئمة والعلماء على شبهات أهل البدع والكلام والفرق المنحرفة والفلاسفة والمستشرقين .

(٣) – التعرف على الشبهات وتفاصيلها :

الإطلاع الواسع على الشبهات وأدلتها ومصادرها ومنشئها ، والتعرف على الأصول والقواعد التي بنى عليها أهل الشبهات أفكارهم وآراءهم ، والمناهج التي سلكوها في استدلالهم لإثبات معتقداتهم وآرائهم .

(٤) – العلم بمناهج الردّ وأساليبه الصحيحة :

العلم العميق بمناهج وأساليب الكتاب والسنة والسلف الصالح ، والأئمة والعلماء ؛ القدماء منهم والمعاصرين ، في الردّ على الشبهات وتفنيدها ، ومناقشة أدلة الخصوم المعاندين وإبطالها .

فإن غياب هذا الضابط أو الضابط الثاني أو الثالث ؛ المذكوران أعلاه ، قد يجعل الداعية القائم بالردّ يقع في الفتنة حيث قد يتأثر ببعض الشبهات فيظن صحتها لعلمه بأدلتها وعدم علمه ببطلانها والأدلة الشرعية التي تنقضها وتفندها ، أو يفتتن به ؛ أي الداعية ، صاحبُ الشبهة حيث يتأكد بصواب ما هو عليه من الباطل لعدم تمكن الداعية من إثبات بطلان ذلك وعرض الحق والصواب بالأدلة الشرعية ، أو يكون سبباً في افتتان الجمهور من المدعوين حيث يظنون صواب ما عليه صاحب الشبهة من المعتقد الباطل ؛ وذلك لعدم قدرته على كشف الباطل وتفنيد الشبهة وفشله في إحقاق الحق وإثبات الصواب .

(٥) – تجاهل الردّ على الشبهات عديمة التأثير :

تجاهل الردّ وعدم الوقوف عند الشبهات عديمة التأثير والواضح تفاهتها ، فقد كان النبي – ﷺ – يتجاهل الشبهات الهزيلة التافهة ولا يرد عليها ، وقد أكد القرآن ذلك وذكر موقفه حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾[1] ، فهذه الشبهة ما هي إلا تعنتات وتعجيزات ، وصدرت عن سفه ، وجحود للحق ، وسوء أدب مع الله ، فالرسول مبلغ ليس بيده الإتيان بالآيات من نفسه إلا بأمر

---

(1) – سورة الإسراء : الآيــة ٨٩ – ٩٥ .

ربه ، فأمره أن ينـــزهه ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى ﴾ عما تقولون علواً كبيراً ، فآياته وأحكامه ليست تابعة لأهوائهم الفاسدة ، وآرائهم الضالة[1] .

فـــ"سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوتـــه ، بل هو الفعال لما يشاء ؛ إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رســـول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وقد فعلت ذلك وأمركم فيما سألتم إلى الله ﷻ "[1] .

فحلم النبي – ﷺ – مع هؤلاء المدعوين مقابل أسئلتهم التعجيزية ، وعدم إعراضـــه عـــن دعوقم إلى الحق ، والاكتفاء بتجاهل الردّ على هذه الشبه الضعيفة التافهة مع بيان ضعفه لكونه بشراً موقف حكيم نال من الله قبولاً وتأيـــيداً .

وفي المدينة التي تعددت فيها أصناف المدعوين ، نراه – ﷺ – يتعامل معهم بغاية الرفـــق واللين والحلم ، ويتجاوز عن بعض شبهاتم ، فالشبهة التي أثارها – مثلا – رأس المنافقين عبـــد الله بن أبي كانت في غاية الشناعة لعلاقتها بعرض النبي – ﷺ – وأم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – ، ومع ذلك تجاهلها النبي – ﷺ – لئلا تتضخم ، وتأخذ حجماً لا تستحقه ، فالـــداعي يجب أن يدرك بأن الشبهة إن كان سببها عداوة ، يحمل صاحبها حسداً وضغينة للحق وصاحبه فإن علاجه يطول ، فالشبهة ليست منحصرة دائماً بسوق الأدلة والبراهين حتى تـــزول ، وإنمـــا القضية تتطلب التعامل الحكيم مع الجهد المتواصل والوقت الطويل .

(٦) – التخلق بالأخلاق العالية :

التحلي بالأخلاق الإسلامية العالية أثناء القيام بالردّ مطلوب ، وكذلك احترام المخالف في الرأي ، أو صاحب الشبهة ، وعدم الظن في شخصيته أو النيل منه بلمزه أو الاستهزاء به .

(٧) – تقديم الأدلة النقلية على الأدلة العقلية :

" إذ تقديم العقل على الأدلة الشرعية ممتنع متناقض ، أما تقديم الأدلة الشرعية على العقل فهو ممكن مؤتلف ، فوجب الثاني وامتنع الأول "[2] .

([1]) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٤١٧ .

([1]) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٦٩٥ ، ١٦٩٦ .

([2]) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلـــة : الإمام ابن القيم ، ٣ / ٨٢٣ .

إن كثرة التناقض والاضطراب بين الفلاسفة وأهل الكلام الباطل وعدم الاستقرار والاتفاق على رأي واحد ، بل ربما قال الواحد من أئمتهم ورؤسائهم القول وقال إنه مقطوع بـــه ، ثم في كتاب آخر يقول إنه مقطوع بخلافه ، فعقولٌ هذه حالها لا يصلح أن تكون معتـــبرة في الأمـــور الجزئية ، فضلاً عن تقديمها على نصوص الأنبياء والمرسلين في الأمور العظيمة من أصول الدين[1].

(٨) – الأهم فالمهم :

تقديم الأهم فالمهم من الحجج والبينات والأدلة المفحمة للخصم بقصد الإقنـــاع وإظهـــار وجه الصواب [2] .

(٩) – عدم الإطالة في الاستدلال :

مجانبة إطالة الكلام ، وغرابة الألفاظ ، أو خروجها عن صلب الموضوع[3] .

(١٠) – جلب المصالح ودرء المفاسد :

الامتناع عن الردّ على الشبهة إن كان يؤدي إلى حدوث فتنة وفساد أو إلحاق ضرر كبير بالداعية أو المدعو ، فالردّ لا يكون إلاّ لجلب المصلحة للمدعو ودفع المفسدة عنه ؛ وذلك أخـــذاً بالقاعدة الأصولية التي تقول : " الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد ، وتقليلها ، وأنها ترجح خير الخيرين وشر الشرين ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهمـــا ، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما "[4] ، إذن يجب ألاّ تترتب إثر القيام بالردّ مفسدة أكبر من المصلحة فإن أدّى إلى مفسدة أكبر فلا يشرع الردّ عندئذٍ ، إذ درء المفسدة الراجحة أولى من جلب المصلحة المرجوحة .

---

(١) – طريق الوصول إلى العلم المأمول : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص٦٩، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م ، رمادي للنشر ، الدمام ، السعودية .

(٢) – وسائل الدعوة : د . عبد الرحيم بن محمد المغزوري ، ص٩٩ ، ط١ ، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م ، دار اشبيليا، الرياض .

(٣) – المرجع السابق : ص٩٩ .

(٤) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٢٠ / ٤٨ ،

(١١) – مراعاة حال المدعو :

مراعاة الظروف المحيطة بصاحب الشبهة والبيئة التي يعيشها ، واستخدام الأدلة التي تتناسب مع نفسيته وعقليته من خلال المنهج المتوافق مع حاله المستنبط من الكتاب أو السنة أو المتوافق معهما إذ الغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة .

(١٢) – عدم ذكر الشبهات مفصلة عند عامة المدعوين :

مواجهة الشبهات والتشكيك بذكر الشبهة إجمالاً والردّ عليها تفصيلاً ، حيث لا ينبغي أن تشغل عقول عامة المدعوين بتفصيل الشبهة ، وإنما يكون التفصيل بالردّ الذي يأتي بالجواب الشافي على جوانب الشبهة ، مع عدم افتراض الشبهات وتشقيقها[1] .

(١٣) – تجنب الأحكام القبلية في نيات الخصم[2] .

(١٤) – الأمانة في نقل الأقوال والتثبت في نسبتها عند الاستدلال بها :

فالصدق والأمانة والنزاهة والتثبت مطلوبة وجوباً في جميع التعامل وفي كل مجالات الحياة، ولا يستثنى من ذلك – على أية حال – الردّ على الشبهة وإبطال رأي الخصم .

(١٥) – عدم الشدة والغضب :

تجنب الشدة والعنف على صاحب الشبهة عند الردّ على شبهته مهما اشتدت مخالفته للحق، فلعله حريص على معرفة الحق ولكن أخطأ الطريق ، فهو في حاجة إلى هاد ومرشد وليس إلى مقرّع ومؤنّب ، والمغالبة غالباً والمحاجة الفظة وشدة الخصومة لا تذعن المخالف للحق ، وإنما تصرفه عنه وتبعده .

كما يجعل الغضب الشديد الداعية يفقد توازن العقل ، ويصعب عليه ضبط الأفكار مما يجعله يعيا في الردّ والاستدلال القوي ، ولذا ينبغي للداعية القائم بالردّ على الشبهات الأخذ بقول النبي – ﷺ – : " ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب "[1] .

---

(1) – الإسلام في مواجهة التحديات : د . محمد رأفت سعيد ، ص١٢٦ .

(2) – منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة إلى الله ، رسالة الدكتوراه ، عبد الله بن رشيد بن محمد الحوشاني ، ص٦٢٩.

(١٦) – إقامة الدليل أمر إلزامي لكلا الفريقين :

يجب أن يدرك الداعي القائم بالردّ على الشبهات أنه كما يلزمه الدليل على رأيه ، فإنه يلزم مخالفه – صاحب الشبهة – إقامة الدليل على رأيه أيضاً ، فليكن اجتهاده غير منحصر في إقامة الدليل على رأيه فقط ، ولكن يشمل مطالبة مخالفه بالأدلة الصحيحة على رأيه أيضاً.

فعلى سبيل المثال : إذا قال المستشرق " شاخت " – مثلا – : السنة النبوية هذه لا وجود لها ، لأنها من وضع الفقهاء والمحدثين ، .. ثم أورد بعض الشبهات التي دعته للقول بهذا الرأي ، فلا يكن موقفه هو إقامة الدليل على رأيه بأن الأمر على عكس ما ادعاه ، ثم يسرد أدلته فقط ، بل ينبغي أن يطالبه بعد ذلك أو قبله بالأدلة على رأيه ، أو ينظر في أدلته ويفنِّدها .

فإذا احتج على أن السنة النبوية ثابتة وليست من وَضْعِ الفقهاء والمحدِّثين بأدلة منها : الأسانيد التي رُويت بها السنة وَفْق ضوابط المحدثين ، وقال له المجادل : هذه الأسانيد لا تُثْبِتُ ما تقول ، لأنها أيضاً موضوعة مكذوبة ، فلا يقف عند هذا الحد ، وإنما يطالبه بالدليل على زعمه فإنه يعود خاسئاً وهو حسير[٢] .

(١٧) – الردّ على الأصول قبل الفروع :

البدء بالردّ على الشبهات المتعلقة بأصول الدين ، إذ الأصول أهم لكونها أسس الدين وعماده، ثم الشبهات المتعلقة بالفروع والجزئيات غالباً ما تزول بزوال الشبهات المتعلقة بالأصول، وإن بقيت فتسهل إزالته إذا تم التسليم للأصول من قبل المدعوين من أهل الشبهات .

(١٨) – الاعتراف بالحق :

الاعتراف بالحق ولو جاء على لسان الخصم ، فالاعتراف بالحق لا يضر الحق الذي مع الداعي ، ولا يضعف رأيه ولا يبطل حجته ، بل إنه مما يقويه ويعظمه في نظر المدعوين بما فيهم صاحب الشبهة أو خصمه ومخالفه .

---

(١) – صحيح البخاري : كتاب الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، ص١١٨٠، رقم الحديث : ٦١١٤ ، وصحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب ، باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب ، ص١٠٤٩، رقم الحديث : ٢٦٠٩ .

(٢) – قواعد ومنطلقات في أصول الحوار وردّ الشبهات : د . عبد الله بن ضيف الله الرحيلي ، ص١٩ ، ٢٠ (بتصرف) .

(١٩) – الحجة في مجموع الأدلة وليست في دليل واحد :

تفنيد دليل واحد من أدلة الداعي أو إبطالُه من جانِب المخالف لا يعني أنه هو المنـــــتصر ، وأنّ رأيه هو الراجح ؛ لأن ذلك لا يكفي حتى يسري البطلان على سائر أدلـــة الـــداعي ؛ لأن الحجة ليست منحصرة في دليل واحد من الأدلة ، بل الحجة في مجموع تلك الأدلة ، بل من الخير للداعي أن لا يتمسك بالدليل الضعيف ، فإنه بهذا قد يضعف الثقة بدليله القوي[١] .

(٢٠) – وضع الدليل في موضعه :

التأكد من صحة استدلال أهل الشبهات بالدليل الصحيح ، وعدم الغفلة عما صـــح مـــن أدلتهم بأنها قد وضعت في موضعها الصحيح ، فما أكثر هؤلاء الذين يثيرون الشبهات بقصـــد ويسعون إلى إثبات شبهاتهم عن طريق الاستدلال الخاطئ بالدليل الصحيح .

(٢١) – الرجوع إلى قواعد أصول الفقه واللغة :

الرجوع إلى قواعد أصول الفقه ومنهج الاستنباط ، وقواعد اللغة وأساليبها ودلالاتها علـــى المعاني ومراعاة ذلك كله والاستفادة منه في باب الردود[٢] .

(٢٢) – صريح العقل لا يخالفه السمع :

إنّ ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة ، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط ، وما يخالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع[٣] .

(٢٣) – عدم الاحتجاج بالقدر :

" الاحتجاج بالقدر حجة داحضة باطلة باتفاق كل ذي عقل ودين من جميـــع العـــالمين ، والمحتج به لا يقبل من غيره هذه الحجة إذا احتج به في ظلم ظلمه إياه وترك ما يجب عليـــه مـــن

---

(١) – المرجع السابق : ص٣٤ .

(٢) – المرجع نفسه : ص٥٩ ، (بتصرف يسير) .

(٣) – طريق الوصول إلى العلم المأمول : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص٦٧ .

حقوقه ، بل يطلب منه ما له عليه ويعاقبه على عدوانه عليه ، وإنما هو من جنس شبه "السوفسطائية" التي تعرض في العلوم ، ولا يحتج به أحد إلا مع عدم علمه بالحجة بما فعله ، فإذا كان معه علم بأن ما فعله هو المصلحة وهو المأمور وهو الذي ينبغي فعله لم يحتج بالقدر، وكذلك إذا كان معه علم بأن الذي لم يفعله ليس عليه أن يفعله أو ليس بمصلحة أو ليس هو مأموراً به لم يحتج بالقدر ، بل إذا كان متبعاً لهواه بغير علم احتج بالقدر "[1] .

(٢٤) – عدم التكفير :

عدم تكفير صاحب الشبهة ولو كانت الشبهة كفراً إن كان قالها مع الجهل والتأويل ، إذ "لا يلزم إذا كان القول كفراً أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل ، فإنّ ثبوت الكفر في حق الشخص المعين ، كثبوت الوعيد في الآخرة في حقه ، وذلك له شروط وموانع"[2].

(٢٥) – عدم إدخال المنطق في العلوم الصحيحة :

" إدخال المنطق في العلوم الصحيحة يطول العبارة ويبعد الإشارة ويجعل القريب من العلم بعيداً واليسير منه عسيراً ، ولا يفيد إلا كثرة الكلام والتشقيق مع قلة العلم والتحقيق ، فعلم أنه من أعظم حشو الكلام وأبعد الأشياء عن طريق ذوي الأحلام "[3] .

(٢٦) – الإعراض عن الحجة لا يمنعها من القيام :

حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم ، فليس من شرط حجة الله علم المدعوين بها ، ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعاً من قيام حجة الله عليهم ، وكذلك إعراضهم عن المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار المأثورة عنهم ، وإعراض أهل الشبهات عن الأدلة الشرعية الثابتة لا يمنع الحجة إذ المكنة حاصلة[4] .

---

(1) – المرجع السابق : ص٨٧ ، ٨٨ .

(2) – المرجع نفسه : ص٩٦ .

(3) – المرجع نفسه : ص١٠٤ .

(4) – المرجع نفسه : ص١٦٦ ن (بتصرف يسير) .

(٢٧) – **المقدمات ليست بلازمة** :

لا يلزم للعلم من المقدمات إلا ما يحتاج إليه واحدة أو اثنتين أو أكثر بحسب المقام والعبارة، لا كما زعمه الفلاسفة أنه يحتاج إلى مقدمتين فقط لا أقل ولا أكثر[١] .

(٢٨) – **النظر في العلوم الدقيقة** :

النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدربه ويقويه على العلم ، ولهذا كان كثير من علماء السنة يرغب في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة كالجبر والمقابلة وعويص الفرائض والوصايا لشحذ الذهن ، فإنه علم صحيح في نفسه ولهذا يسمى الرياضي ، والرياضة ثلاثة أنواع :

١ – رياضة الأبدان بالحركة والمشي .

٢ – ورياضة النفوس بالأخلاق الحسنة المعتدلة والآداب المحمودة .

٣ – ورياضة الأذهان بمعرفة دقيق العلم والبحث عن الأمور الغامضة .

ويروى عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال : " إذا لهوتم فالهوا بالرمي ، وإذا تحدثتم فتحدثوا بالفرائض "[٢] .

(٢٩) – **لا حجة للفلاسفة لتكذيب الأنبياء** :

لا يعرف الفلاسفة ما جاء به الرسل – عليهم الصلاة والسلام – من أخبار وحقائق ، بل كفار اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم منهم بالأمور الإلهية ، لا فرق بين العلوم النقلية ولا العقلية الصحيحة التي جاءت بها الرسل ، فهذه العقليات الدينية الشرعية الإلهية هي التي لم يشموا رائحتها ولا في علومهم ما يدل عليها ، وأما ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذاك أمر أعظم من أن يذكر في ترجيحه على الفلسفة .

فإذا كان أشرف العلوم لا سبيل للفلاسفة إلى معرفتها بطريقهم كما قرر وتقرر واعترفوا به لزم أمران :

أحدهما : أنه لا حجة لهم على ما يكذبون به مما ليس في قياسهم دليل عليه .

---

(١) – الردّ على المنطقيين : الإمام ابن تيمية ، ص٢٣٩ – ٢٤١ ، وطريق الوصول إلى العلم المأمول : للشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص١٦٧ .

(٢) – المرجع السابق : ص٢٥٥ .

ثانيهما : أن ما علموه خسيس بالنسبة إلى ما جهلوه ، فكيف إذا علم أنه لا يفيد النجاة ولا السعادة ، والرسول أخبر عن أمور معينة : مثل نوح – عليه السلام – وخطابه لقومه وأحواله المعينة، ومثل إبراهيم – عليه السلام – وأحواله المعينة ، ومثل موسى – عليه السلام – وعيسى – عليه السلام – وأحوالهما المعينة ، وليس شيء من ذلك يمكن معرفته بقياسهم لا البرهاني ولا غيره[1] .

(٣٠) – البحث عن الحق وإيصاله :

ينبغي للمدعو أن يكون طالباً للحق ، وينبغي للداعي أن يكون حريصاً على إيصال الحق إلى المدعو وإزالة الشبهة عنه ، وينبغي لطالب الحق والداعي إليه تجنب الخطأ الشائع وهو الالتقاء ليردّ أحدهما على الآخر دون أن يكون هدفهما البحث عن الحق والصواب .

---

(١) – الردّ على المنطقيين : الإمام ابن تيمية ، ص٤٤٥ ، ٤٤٦ ، وطريق الوصول إلى العلم المأمول : للشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص١٧١ ، ١٧٢) .

الفصل الرابع

آثار الشبهات على الدعوة الإسلامية

المبحث الأول : آثار الشبهات على موضوع الدعوة .

المبحث الثاني : آثار الشبهات على الداعية والمدعو .

المبحث الأول : آثار الشبهات على موضوع الدعوة

(١) - عدم وضوح أحقية الدعوة :

لا تتضح أحقية الدعوة وصدقها وجلالها وجمالها إذا حجبتها الغيوم السوداء الناتجة من الشبهات المثارة حولها والافتراءات المشاعة ضدها ، ومن ثم فلا يكاد يستبين درب الهدى ولا يتضح سبيل المؤمنين .

ولأجل ذلك كان مما داوم عليه المؤمنون المتقون من الدعاء : " اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ".

(٢) – الشك في الدعوة :

قد ينجح خصوم الدعوة في سعيهم الدؤوب المتواصل للتشكيك في الدعوة بإثارة الشبهات حولها أو حول بعض من موضوعاتها ، فتصبح الدعوة في موضع الشك والريب بالنسبة لبعض المدعوين ، تشير الآيـــة الكريمة إلى هذا المعنى التي خاطب الله فيها نبيه الكريم – عليه أفضل الصلاة والسلام – لتنبيه الناس من الوقوع في الشك، ولأجل البيان بأن الدعوة التي يدعو إليها النبي – ﷺ – والقرآن الذي ينـــزل عليه هو من لدن رب العالمين، فهو الحق من الله لا ريب فيه حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ ﴾[(١)] ، وقال عز وجل : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾[(٢)] ، ثم جاء الوعيد الشديد للكفار الذين يفترون الأكاذيب ويثيرون الشبهات حول الدعوة لإيقاع الناس في الشك ومن ثم صدهم عن الاستجابة لها حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[(٣)] ، يقول الشيخ السعدي – رحمه الله – في تفسير هذه الآيـــة : " يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ، ويدخل في هذا كل من كذب

---

(١) – سورة البقرة : الآيـــة١ ، ٢ .

(٢) – سورة هـــود : من الآيـــة ١٧ .

(٣) – سورة هـــود : الآيـــة ١٨ ، ١٩ .

على الله بنسبة شريك له ، أو وصفه بما لا يليق بجلاله ، أو الإخبار عنه بما لم يقل ، أو ادعاء النبوة ، أو غير ذلك من الكذب على الله ، فهؤلاء أعظم الناس ظلماً ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ ليجازيهم بظلمهم ، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَـٰدُ ﴾ أي : الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم : ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي : لعنة لا تنقطع ، لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً ، لا يقبل التخفيف .

ثم وصف ظلمهم فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فصدوا أنفسهم عن سبيل الله – وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها – وصدوا غيرهم عنها ، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.

﴿ وَيَبۡغُونَهَا ﴾ أي : سبيل الله ﴿ عِوَجًا ﴾ أي : يجتهدون في ميلها ، وتشيينها ، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة ، فيحسنون الباطل ويقبحون الحق ، قبحهم الله ، ﴿ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَـٰفِرُونَ ﴾ ''[1] .

(٣) – **القضاء على الدعوة وتوهين المسلمين** :

إن هناك مذاهب وأفكار ونحل تهدف إلى القضاء على الدعوة والاقتحام على المسلمين ديارهم وأوطانهم ، واغتيال عقولهم وتخريبَ نفوسِهم ، فتسعى لتشويه حقائق الإسلام وتعليماته لتصبح مغلوطة وغير واضحة لدى المسلمين وغير المسلمين وتشعل حرب المفاهيم والمصطلحات وتبثّ الشبهات والافتراءات بكل ما تملك من الوسائل والأساليب ، ولكن غالباً ما تفشل في تحقيق ذلك ، ولكن يتحقق لها ذلك أو شيء من ذلك أحياناً لاسيما إن لم تجد المقاومةَ الكافيةَ من قبل المسلمين ، ولا يتحقق ذلك إلاّ ببذر الشكوك ، وإشاعة الشبهات ، وتوهين تعاليم الإسلام ومناهجه في نفوس المسلمين .

إن المناهج والمذاهب والأفكار الوافدة من الغرب أو الشرق الغير الإسلامي لا تأتي دائماً مسلحة بالدبابات والطائرات والمدافع ، وإنما تأتي في أغلب الأحيان مسلحة بسموم الشبهات والتوجهات والافتراءات الملحة على عقول المسلمين وأفكارهم ومعتقداتهم ، ومن هنا كان لزاماً أن يقوم الداعية بإجلاء هذه الشبهات وفضح تلك الافتراءات بالدليل والبرهان لتتم هيمنة الحق على القوى الباطلة التي تسعى بكل إمكاناتها للقضاء على الإسلام وتوهين المسلمين بسلب

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٣٥ .

هويتهم الدينية ، وثقافتهم الإسلامية ، وتراثهم الديني ، ومنهجهم السماوي ، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَـٰعُواْ ﴾[1] ، ويقول أيضاً ﷻ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾[2] .

لقد كان العرب أذل الناس فصاروا سادهم ، وكانوا أهون الناس فصاروا خير أمة أخرجت للناس ، وكانوا أضعف الناس فكونوا دولة لم يخرج التاريخ لها مثيلاً أو شبيهاً .

يقول توماس كاريل : " خرجت جيوش رعاة الأمس تقتحم الأرض شرقاً وغرباً وتفتح باسم الدين الجديد ، وفي خلال قرن واحد من الزمان قضت على القوى العظمى وملكت الأرض من تحت أرجلهم ، إنها معجزة ، ولو لا أنها حقيقة تاريخية لقلت إنها خرافة أو خيال .

لقد كانت صيحة محمد أشبه ما تكون بشرارة ملتهبة وقعت لا على كثبان كسولة من رمال الصحراء ، ولكن على جبال من البارود الذي تفجر مرة واحدة فعم نوره الآفاق من هضاب الهند وحتى سهول الأندلس "[3] .

ثم ما الذي أصاب هؤلاء المؤمنين ؟ لماذا توقفوا ؟ بل لماذا وهنوا وتراجعوا ؟

يجيب المستشرق توماس عن هذه الأسئلة محللاً وضع المسلمين : " إن سبب انحطاط الشرق الإسلامي هو ترك روح الإسلام وتشبثه بالأفكار الباطلة "[4] .

ولكن ما سبب ترك الشرق الإسلامي إسلامه ؟ وكيف تم تشبثه بالأفكار الباطلة؟ !

لقد ركز أعداء الإسلام هجومهم وتضليلهم على منهج الإسلام وعلى حملته والدعاة إليه ، وأقاموا المؤتمرات والندوات ، وسهروا الليالي الطوال ، في بحث وتدبير وتنصيب وتفكير ، ليقطعوا شرايين العقيدة في القلب المسلم ، ويسكتوا نبض الإيمان من الجسد المؤمن، ويبدلوه بها أنابيب من صنعهم وأجهزة من اختراعهم ، كي لا يستطع أن يحرك قدماً أو يرفع جسدًا .

---

(١) – سورة البقرة : من الآيـــة ٢١٧ .

(٢) – سورة البقرة : من الآيـــة ١٠٩ .

(٣) – الدعوة إلى الله ، الرسالـــة – الوسيلة – الهدف : د . توفيق الواعي ، ص١٤١ .

(٤) – المرجع السابق : ص١٤١ .

وكان من أسلحتهم الكبرى إثارة الشبهات حول الدعوة والدعاة ، ثم تلقين تلك الشبهات لأعداء الدعوة والدعاة في الداخل والخارج حتى تتكون سحب قاتمة ، وينتشر دخان أسود يضل الناس عن الحق ، وحتى يثار دوي وينبعث ضجيج قوي يصم الآذان عن سماع الهدى .

وطبيعي إذا انصرف الناس عن الإيمان والهدى والحق ، فإنه لا يبقى إلا الضلال واتباع الغواية والوقوع في حبائل الشيطان ، وصدق الله إذ قال : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾(1) .

(1) – سورة يونس : من الآية ٣٢ .

المبحث الثاني

آثار الشبهات على الداعية والمدعو

المطلب الأول : آثار الشبهات على الداعية .

المطلب الثاني : آثار الشبهات على المدعو .

المبحث الثاني : أثار الشبهات على الداعية والمدعو

المطلب الأول : أثار الشبهات على الداعية:

إن الشبهات التي تثار حول الداعية هي من صميم المحن والشدائد التي يواجهها الداعية المسلم متى ما قام بمهمته الدعوية وأينما قام ، وهذه المحنة أو الفتنة حينما تنـــزل بالداعية المسلم فإنها تزلزل كيانه ، وتكاد تعصف به إلاّ من رحم الله ﷻ ، لاسيما إن لم يتوقعها الداعية و لم يستعد لها و لم يعرف طريق الخلاص منها وسبيل مواجهتها ، وحينئذ قد يحصل له ما يلي :

- الإحباط النفسي ، فلا يعلو عزمه للدعوة ولا يتشجع لها .
- الفتور عن الدعوة وعدم القيام بأنشطتها.
- عدم التحمس للدعوة وعدم الرغبة فيها.
- ترك الدعوة والابتعاد عن سبيلها.

تظهر هذه الآثار على الداعية عندما يرى بأن الشبهات التي أثيرت حوله نالت منه وأهانته بعدما كان في قومه ذا عزة وشرف حيث جعلته :

- شخصية صفات نقص وعيوب[1] وهو لم يكن كذلك .
- وشخصية مطعونة في إخلاصه وهدفه[2] ، وقد كان على العكس من ذلك ؛ فكان مخلصاً في دعوته لا يهدف إلاّ إلى إصلاح الناس وهدايتهم .
- وشخصية كريهة ينفر منه الناس لأنـــه ساحر أو كذاب غير صادق مع قومه فيما يدعو إليه[3]، وهو بعيد عن كل هذه الافتراءات والاتهامات ، ومن ثم فقد يحصل له مما سلف ذكره أنفاً من الإحباط النفسي ، والفتور عن الدعوة ، أو عدم التحمس لها ، أو تركها نهائياً ، فليحذر هؤلاء من المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4] .

---

(١) – انظر للتفصيل : المقصد الثاني ضمن المطلب الأول من المبحث الثاني في الفصل الثاني ، ص٢٦٨ .

(٢) – انظر للتفصيل : المقصد الثاني ضمن المطلب الأول من المبحث الثاني في الفصل الثاني ، ص ٢٧٠،٢٧١،٢٧٢ .

(٣) – انظر للتفصيل : المقصد الثاني ضمن المطلب الأول من المبحث الثاني في الفصل الثاني ، ص٢٦٩ .

(٤) – سورة العنكبوت : الآيـــة ١٠ .

ولعل هذا هو سر حديث الإسلام المتكرر عن المحن والفتن وكيفية التعامل معها ، فيقول الله تعالى – مثلا – : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1] .

أي: لتُمتَحنُنَّ ولتختبَرُنَّ في أموالكم بالمصائب ، والإنفاقات الواجبة ، وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال ، والابتلاء في الأنفس بالموت ، والأمراض ، وفقد الأحباب ، والقتل في سبيل الله ، والطعن فيكم وفي دينكم وفي أعراضكم من قبل اليهود والنصارى وسائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب ؛ فالصبرُ على كل ذلك والاستمرار على طريق الهداية والدعوة مما يجب على المؤمنين أن يعزموا عليه[2] .

ويقول الله ﷻ في موضع آخر : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾[3]، أي: ما يقال لك من هؤلاء الكفار من وصفك بالسحر والكذب والجنون إلاّ مثل ما قيل للرسل من قبلك ، فإن قومهم كانوا يقولون لهم مثل ما يقول لك هؤلاء[4] ، فصبر أولئك الرسل – عليهم الصلاة والسلام – على أذاهم وتكذيبهم ، فالصبر كما صبروا[5] .

وقال ﷻ أيضاً لنبيه الكريم – الذي كان حريصا على هداية الناس منتهى الحرص – لما أحزنه إعراض الناس عما جاء به من الإيمان والهداية حزناً شديداً: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[6]، أي : فلعلَّك يا محمد – صلى الله عليه وسلم – قاتل نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾[7]، تمردا منهم على ربهم، إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك فيُصدِّقوا بأنه من عند الله، حزناً وتلهفاً ووجْداً بإدبارهم عنك وإعراضهم عما أتيتهم به وتركهم الإيمان بك ؟![1]

---

(١) – سورة آل عمران : الآيـــة ١٨٦ .

(٢) – فتح القدير : الإمام محمد بن علي الشوكاني ، ٦١٤/١ ، (بتصرف يسير) .

(٣) – سورة فصلت : من الآيـــة ٤٣ .

(٤) – فتح القدير : الإمام محمد بن علي الشوكاني ، ٤ / ٧٣٩ .

(٥) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٦٩٦ .

(٦) – سورة الكهف : الآيـــة ٦ .

(٧) – سورة الإسراء : من الآيـــة ٩٠ .

(١) – جامع البيان عن تأويل آى القرآن : الإمام الطبري ، ١٤٩/١٥ .

كان هذا الإرشاد الرباني توجيهاً كريماً وتسلية مشفقة للنبي – صلى الله عليه وسلم – في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه ، أي : " لا تأسف عليهم ، بل أبلغهم رسالة الله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات "[1] .

وفي إخبار الله ﷻ لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد منها – مثلا – :

(١) – التمحيص والتميـيز :

تقتضي ذلك حكمة الله تعالى ليتميز المؤمنون الصادقون والدعاة المخلصون إلى الله من غيرهم ، فإنهم خير أمة أخرجت للناس ، هم خلفاء الله في الأرض ، وحاملو الرسالة السماوية الربانية إلى البشرية كافة ، يمثلون المنهج الرباني ويطبقونه على أرض الواقع ، فلهذا جاءت البيانات والبلاغات القرآنية لتكون نوراً لهم يستهدون به على دروبهم ، أما المنافقون أو الضعاف المهازيل ؛ ضعاف النفوس مهازيل القلوب ، فلا يتسللون إلى الصف، وإن تسللوا فلا يمكنهم الاستمرار مع الصادقين إذ تتم تصفيتهم من خلال البلاء والمحن والفتن ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾[2] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾[3] .

وقال ﷻ : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[1] .

وقال جلّ شأنه : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[2] .

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١٧٠٦/٣ .

(٢) – سورة العنكبوت : الآيــة ١ – ٣ .

(٣) – سورة البقرة : الآيــة ٢١٤ .

(٤) – سورة محمد : الآيــة ٣١ .

(١) – سورة آل عمران : من الآيــة ١٧٩ .

(٢) – سورة آل عمران : الآيــة ١٤١ .

إذن المطلوب من المؤمنين الصادقين والدعاة المخلصين أن يواجهوا فتنة الشهوات والشبهات وعواصف المحن والشدائد بكل عزم وصبر .

(٢) – علو المنــــزلة وتكفير الذنوب :

إن الله تعالى يقدر عليهم هذه الأمور ، لما يريده بهم من الخير ليعلي درجاتهم ، ويكفر من سيئاتهم ، وليزداد بذلك إيمانهم ، ويتم به إيقانهم ، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسۡلِيمًا ﴾[(١)] .

(٣) – توطين نفس الداعية المؤمن :

أخبر الله تعالى المؤمنين بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك ، والصبر عليه إذا وقع ؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه ، فيهون عليهم حمله ، وتخف عليهم مؤنته ، ويلجئون إلى الصبر والتقوى ، ولهذا قال : ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾[(٢)] ، أي : إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم وأعراضكم من الابتلاء والفتن ، وعلى أذية الظالمين المادية والمعنوية ، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله ، والتقرب إليه ، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال ، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله ، ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[(٣)] ، أي : من الأمور التي يعزم عليها ، وينافس فيها ، ولا يوفق لها إلاّ أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[(١)] .

(٤) – ترسيخ الإيمان وتقوية العزم وعلو الهمة :

مهما بلغت شدة الابتلاء والمحن ، وطالت أذية الظالمين وافتريت الاتهامات والشبهات ، لا يتراجع الداعية عن مهمته الدعوية وإنما يمضي في طريقه متوكلاً على الله بكل إيمان وعزم وهمة ؛

---

(١) – سورة الأحزاب : من الآيــة ٢٢ ، وانظر : تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص١٢٧ .

(٢) – سورة آل عمران : من الآيــة ١٨٦ .

(٣) – سورة آل عمران : من الآيــة ١٨٦ .

(١) – سورة فصلت : الآيــة ٣٥ ، وانظر : تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص١٢٧ .

وذلك لأنه على حق وغيره على باطل ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[1] ، ثم إن كانت الحياة والممات لله رب العالمين ، كما قال ﷻ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] ، فهل يبالي الداعية المؤمن في الله لومة لائم ؟ ! ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾[3] ، أي : ادع يا محمد – عليه الصلاة والسلام – الناس إلى الدين الذي شرع لكم ربكم ، واستقم على العمل به ولا تَزِغ عنه ، واثْبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة ، ولا تتبع أهواء هؤلاء الذين شكوا في الحق الذي شرع الله لكم ، من الذين أُرِثوا الكتاب من بعد القرون الماضية قبلهم ، فتَشُكَّ فيه كالذي شكُّوا فيه ، وقل : صدّقتُ بما أنزل الله من كتاب كائناً ما كان ذلك الكتاب ، توراةً كان أو إنجيلاً أو زبوراً أو صحف إبراهيم ، لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعض معشرَ الأحزابِ ، وتصديقكم ببعض[4] ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ۝ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾[5] ، أي : كما أكرمتُك بما أنزلت عليك فالصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ، ولا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك بل بلّغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل عليه فإنه يعصمك من الناس[6] .

(٥) — الاستفادة من الدروس والعبر :

في إخبار الله المؤمنين بذلك دروس وعبر ، منها – مثلا — أن العمل على نشر الفضيلة التي هي أساس الإصلاح في الأرض كفيل لحصول رضى الله ﷻ ، وأن الاستقامة والسير في الطريق الصحيح من أهم ما يعين الداعية في تحقيق ذلك ، وأن الباطل بغيض ومهلك .

---

(١) – سورة الزخرف : الآيـة ٤٣ — ٤٤ .

(٢) — سورة الأنعام : الآيـة ١٦٢ .

(٣) — سورة الشورى : الآيـة ١٥ .

(٤) – جامع البيان عن تأويل آى القرآن : الإمام الطبري ، ٤٨٥/٢٠ .

(٥) — سورة الإنسان : الآيـة ٢٣ — ٢٤ .

(٦) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢٩٦٦/٤ .

وصدق الله القائل : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾(1) .

ومن هذه الدروس معرفة أن عدل الله لا يحابي فيه أحد ، وأنه من أعوج عن الطريق أُخذ و لم يفلت من العقاب .

﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾(2) ، ﴿ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾(3) .

فلا بد أن يفهم الداعية هذا جيداً حتى لا تعصف به الشبهات والحوادث ، وحتى لا يظن أن ذلك من غضب الله عليه ، أو أن ذلك خاص به وحده ، وإنما هذه سنة الدعوات وطريق الرسالات(4) .

---

(1)- سورة الحج : الآيــة ٤١ .

(2)- سورة إبراهيم : الآيــة ٤٥ – ٤٧ .

(3) – سورة النمل : الآيــة ٥١ .

(4)- الدعوة إلى الله الرسالـــة – الوسيلـــة - الهدف : د . توفيق الواعي ، ص١٣٤ – ١٣٥ .

المطلب الثاني : آثار الشبهات على المدعو

(١) – تعمية المدعو :

من آثار الشبهات أنّها كثيراً ما تعمي بصيرة المدعوين فلا يرون أن ما يدعو إليه داعي الحق – سواء أكان نبياً مرسلا أو مؤمناً من المؤمنين – هو الحق ، وأنه هو سبيل الرشاد والهدى ، وأنه هو سبب الفلاح والنجاة ، وأن ما هم عليه من معتقدات موروثة وعادات قومية مخالفة لما جاء به هذا الداعي هو باطل لا سلطان عليه من الله ولا برهان ولا حجة ، فهو سبيل الضلال الذي لا يؤدي إلاّ إلى الهلاك .

ذكر الله تعالى قولهم في الآخرة : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[(١)] ، ولأجل إحكام التعمية على الناس ، كان أعداء الدعوة من قريش يأتون بالأساطير والقصص ليسمعوا الناس ويلفتوهم عن القرآن وعن اتباع سبيل الهدى ، فقد اشتهر النضر بن الحارث بما كان يفعله ويصنعه من حفظ قصص وأساطير الفرس وحكايات أبطالهم وحروبهم وتحديث الناس بها في المجالس والنوادي لتحل تلك الأساطير محل قصص القرآن وما تحويه من هداية ورشاد ، قال تعالى حكاية عن ذلك ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[(٢)] ، كما اشتهر أيضاً أبو لهب بما كان يفعله من تنفير الناس وتحذيرهم عن النبي – ﷺ – ودعوته حيث كان يتبع النبي – ﷺ – عند خروجه إلى الناس في منازلهم أو في الأسواق أو في الحج لدعوهم إلى الله ، فإذا قال لهم : " يا أيها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا " واجتمع الناس حوله ليسمعوا منه ، جاء خلفه أبو لهب وقال : " إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب "، أو قال : " يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم "[(١)] .

---

(١) – سورة طـه : الآيـة ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) – سورة لقمان : الآيـة ٦ – ٧ .

(١) – سنن البيهقي الكبرى : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، ٩/ ٧، رقم الحديث : ١٧٥٠٥ ، ط : ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م ، الناشر : مكتبة دار الباز – مكة المكرمة ، والبدايـة والنهايـة : الإمام ابن كثير ، ٣ / ٤١ .

(٢) – تصادم المدعو مع الداعي وبغضه إياه :

ينــتج ذلك نتيجة لما يبذله خصوم الدعوة من السعي لإيجاد التصادم والبغض بين الداعي أو الدعاة والمدعوين ؛ وذلك بإثارة الشبهات التي يهدفون منها إلى إيجاد اليقين لدى المدعوين بأن ما جاء به النبي ، أو ما يدعو إليه أتباعه المؤمنون من الدين الجديد بهتان وزور ، وخروج على دين الآباء وعلى مألوف الناس وعاداتهم القديمة التي ينبغي أن تُتبع وتُقدس ، حيث لم يكن الآباء الذين توارثنا منهم الدين والعادات حمقى وسفهاء ، ولم يكونوا على ضلالة وخرافة ، فيتأثر المدعوون بذلك فيرغبون عن الدعوة بل يبتعدون عنها ويكرهونها إذ يرون أنها ليست بحق وإنما كذب وافتراء ، وسبب الفتن والقلاقل في المجتمع ، وما كان عندهم من قبل من الدين والعادات والمعتقدات هو الحق الناصع النافع الذي ينبغي التمسك به والاستمرار عليه ، ومحاربة من يقوم ضده أو يدعو إلى ما يخالفه ، وهذا هو الذي دعا إليه أبو جهل حين قال أمام الناس قبل يوم بدر حين التقى القوم " اللهم ! أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة "[(١)]، يقصد بقوله هذا بأن الدعوة التي جاء بها محمد – ﷺ – تفرق بين الأرحام وتقطع بين الأواصر، فاستفتح على محمد – ﷺ– وأصحابه المؤمنين ، فنــزل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٢)] .

(٣) – انخداع المدعو :

ينخدع المدعون لاسيما العوام منهم بما يثير ويشيع ملأ القوم وخصوم الدعوة من افتراءات كاذبة وشبهات ضالة يهدفون بها إلى تشويه الدعوة وهم يعلمون أنها الحق ؛ وذلك للدفاع عن أمجادهم الكاذبة والحفاظ على مكانتهم المتداعية ، أو لإشباع رغباتهم المادية وشهواتهم النفسية[(١)]، فنرى ذلك – مثلا – فيما رُوي " أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله – ﷺ – وهو يصلي بالليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيــر ، ٢ / ١٢٢٠ .

(٢) – سورة الأنفال : الآيــة ١٩ .

(١) – انظر للتفصيل : المبحث الأول من الفصل الثاني بعنوان : " أسباب إثــارة الشبهات على الــدعــوة الإسلامية ودوافــعها .

مجلساً ليستمع منه . وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، قال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا . فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها فقال الأخنس : وأنا والذي حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع به أبدا ولا نصدقه ''[1] .

ورُوي عن المغيرة بن شعبة أنه قال : '' إن أول يوم عرفت رسول الله – ﷺ – أني أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله – ﷺ – فقال رسول الله – ﷺ – لأبي جهل : '' يا أبا الحكم ، هلم إلى الله وإلى رسوله ، أدعوك إلى الله ''. فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت منتهٍ عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت ؟ فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك . فانصرف رسول الله – ﷺ – . وأقبل عليّ فقال : والله إني لأعلم أن ما يقول حق ، ولكن (يمنعني) شيء . إن بني قصي قالوا: فينا الحجابة . فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا السقاية ، فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا الندوة ، فقلنا نعم . ثم قالوا فينا اللواء ، فقلنا نعم . ثم أطعموا وأطعمنا . حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي ، والله لا أفعل''[1] ، ومع هذا الذي يقوله أبو جهل ويصرح بسبب إنكاره ومحاربته للنبي – ﷺ – ودعوته ، – وأمثاله كثير – يسير وراءهم الكثير من المدعوين ، منتصرين للباطل ، محاربين الحق ودعاته وهم في خداع وغرور .

---

(١)– البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير ، ٣ / ٦٤ .

(١)– المرجع السابق ، ٣ / ٦٤ ، ٦٥ .

الفصل الخامس

منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات وأوجه الاستفادة منها في العصر الحاضر:

المبحث الأول : منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء القرآن والسنة.

المبحث الثاني : منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء سير السلف الصالح.

المبحث الثالث : أوجه الاستفادة من المناهج المشروعة في الردّ على الشبهات في العصر الحاضر.

المبحث الأول:

منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء القرآن والسنة :

توطئة .

المطلب الأول : مناهج الردّ على الشبهات في ضوء القرآن والسنة :

توطئة .

المقصد الأول : منهج الــردّ بــإيــقاظ الفطرة .

المقصد الثاني : منهج الــردّ العقلي .

المقصد الثالث: منهج الــردّ الحسي.

المطلب الثاني : أساليب الردّ على الشبهات في ضوء القرآن والسنة :

المقصد الأول : أساليب منهج الردّ بإيقاظ الفطرة .

المقصد الثاني : أساليب منهج الردّ العقلي .

المقصد الثالث: أساليب منهج الردّ الحسي.

المبحث الأول : منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء القرآن والسنة

توطئة :

استمر الكبراء والمبطلون المعارضون للدعوة الإسلامية من اليهود والنصارى والمشركين في إلقاء الشبهات وبثٍّ الأباطيل والتهم ضد الدعوة والداعي والمدعو لإطفاء نور الحق ومنع الدعوة من الوصول إلى المدعو منذ فجرها إلى اليوم ، ولن يتوقفوا عن ذلك إلاّ أن يشاء الله ، قال الله ﷻ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1]، وقد وفى الله ﷻ بما وعد ، وأظهر دينه على رغم من كفر وجحد ، فأظهره بالحجة والبيان، ونصره بالسيف والسنان ، وأيد أهله على من سواهم ، ونصرهم بالحجة على من ناوأهم ، كما أظهرهم بالسيف على من كانوا له يحاربون ، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[2] ، وأيد رسوله وأتباعه بالحجج الصحيحة العلمية ، والبراهين القاطعة العقلية والنقلية ، بما لم يبق بعده للمخالف إلا محض العناد ، وحينئذٍ فالدواء الشافي من هذا الداء سيف الجهاد ، وكفى لمن جانب جانب الاعتساف ، وسلك طريق العدل والإنصاف، ما تضمنه القرآن العربي المبين من البينات والحجج والبراهين ، فهو الشفاء النافع لمن استشفى ، والكفاية التامة لمن به استكفى ، وهو الهدى والنور ، وشفاء وسوسة الصدور ، وهو الكفيل بالانتصار على المبطلين لمن كان به خبيراً كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[1] ، فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما يبطلها ويلقيها من شاهق ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[2] ، وجاء في الحديث النبوي عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال في صفة القرآن : "... فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو

---

(١) – سورة التوبة : الآية ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) – سورة الصافات : الآية ١٧٣ .

(١) – سورة الفرقان : الآية ٣٣ .

(٢) – سورة الأنبياء : من الآية ١٨ .

الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾[1]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم ..."[2] .

وأمر الله تعالى رسوله بإقامة الحجة على الكافرين بطريق الجدال ، وشرع ذلك في السور المكية والمدنية حتى بعد فرض القتال ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[4] ، وأمره بعد إقامة الحجة على النصارى بالمجادلة أن يدعوهم إلى الملاعنة والمباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1] .

فلم يزل – ﷺ – في جدال الكفار على اختلاف مللهم ، وتباين نحلهم إلى حين وفاته ، وكذلك أصحابه من بعده ، ومن تبعهم من أئمة الدين وحماته ، وبهذا الأمر قام الدين ، واتضح منهاجه للعابدين ، وإنما جعل السيف ناصراً للحجة والبرهان ، مسهلاً طريق البلاغ إلى المكلفين بالسنة والقرآن[2] .

---

(١) – سورة الجن : جزء من آيتي ١ ، ٢ .

(٢) – جامع الترمذي : كتاب فضائل القرآن ، باب : ما جاء في فضل القرآن ، ص٤٦٤ ، رقم الحديث : ٢٩٠٦ . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال ، والأرجح أنه من كلام علي – رضي الله عنه – .

(٣) – سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٤) – سورة العنكبوت : الآية ٤٦ .

(١) – سورة آل عمران : الآية ٦١ .

(٢) – منحة القريب المجيب في الردّ على عباد الصليب: الشيخ عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر آل معمر ، ص١٤– ١٦، الناشر : دار ثقيف للنشر والتأليف ، ط١ ، ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩م ، الرياض.

وقد تبـــين مما سلف من الحديث عن مشروعية الردّ على الشبهات وحكمه الشرعي من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وسير الصحابة – رضي الله عنهم – ، وشرع من قبلنا ، وأقوال الأئمة والعلماء بأن مواجهة الشبهات والاتهامات والشكوك والمزاعم الباطلة والمعتقدات الضالة إنما تكون – في الغالب – بالردّ عليها ؛ وذلك لإزالتها عن نفس المدعو وهدايته إلى الحق ، أو لرفع التردد والشكوك من المتردد وتـــثبـــيته على الحق ، أو إبطال مزاعم المدعو الباطلة ومعتقداته المنحرفة الضالة إما لهدايته إن كان مستهدياً ، أو قطعه وإفحامه إن كان معانداً ، فالردّ على شبهات المدعويـــين ومناقشة المنكرين لإبطال الباطل وإزالته ، وإحقاق الحق وإثباته أصل شرعي في مواجهة الشبهات[1] .

(١) – انظر : للتفصيل المبحث الثاني من الفصل الأول في هذه الدراسة .

المطلب الأول : مناهج الردّ على الشبهات في ضوء القرآن والسنة

توطئة :

سلك القرآن الكريم ؛ وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، في الردّ على الشبهات مناهج عدة وأساليب شتى لاختلاف المدعويـــين في مشاربهم ، وتفاوتهم في مداركهم ، وتباينهم في مقاصدهم من إثارة الشبهات وعدم الاستسلام للحق ، فقد يكون منبع الشبهة عادة موروثة ، أو مصلحة قائمة ، أو رياسة دنيوية ، أو حمية جاهلية ، لتؤثر الشبهة بسبب هذه الأمور في نفوس المدعويـــين الضعيفة التي لها صلة بهذه الأشياء ، وتتعلق بها ، وتحاول أن تدفع بها الحق ، وتخاصم الدعاة إلى الله تعالى ، وتهرب من الاستماع إلى نداء الحق[1].

ولذا فعند إمعان النظر في كتاب الله نجد أنه تارة يخاطب العقل ، وتارة القلب ، وتارة العقل والقلب معاً ، وتارة العاطفة ، وتارة الحس ، فيكون للقرآن وقع شديد على قلب المدعو وتأثير قوي في نفسه إذا قرأه بتدبر وتأمل وتمعن ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَـٰبٗا مُّتَشَـٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[2] .

وسلك القرآن الكريم في أدلته للردّ على الشبهات طرق الإقناع والتوجيه والإرشاد تارة، وطرق الإلزام والإفحام تارة أخرى ، فاحتوى على أحكم المناهج ، وأفضل الأساليب ، وأقوى الحجج سواء في ردّه على الشبهات ، أو عرضه للحقائق المجردة من الردّ ، وكذلك السنة النبوية المطهرة إذ نجد فيها مواقف كثيرة تطبيقية وردت فيها الردود على شبهات المدعوين وأباطيل المبطلين بمناهج عدة وأساليب مختلفة ، فالمنهج يتعدد ويختلف من مدعو إلى مدعو حسب شبهته وحاله .

وسأحاول – بتوفيق الله ﷻ – فيما يلي استنباط المناهج من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المستخدمة في الحوار مع المشركين واليهود والنصارى والردّ عليهم ومناقشتهم فيما يثيرون من شبهات ويلقون من تهم وأباطيل ؛ وذلك لكون الكتاب والسنة مصدرين أساسين للعقيدة والشريعة والدعوة والأخلاق .

---

(١) – الدعوة إلى الله على بصيـــرة : د . عبد النعيم محمد حسنين ، ص٢١٣ .

(٢) – سورة الزمر : من الآيـــة ٢٣ .

أنواع المناهج :

لأسباب سبق ذكرها ، وتبعاً لركائز الفطرة الإنسانية التي هي : القلب ، والعقل والحس ، استخدم القرآن الكريم أساليب متعددة عبر المناهج الثلاثة الرئيسة للردّ على شبهات المدعوين وهي :

(١) – منهج الردّ بإيقاظ الفطرة .

(٢) – منهج الردّ العقلي .

(٣) – منهج الردّ الحسي .

المقصد الأول : منهج الردّ بإيقاظ الفطرة :

(أ) - تعريف هذا المنهج وأهميته ومواطن استخدامه .

(ب) – كيفية الردّ بهذا المنهج وأمثلة على الردود به .

(أ)– تعريف هذا المنهج وأهميته ومواطن استخدامه :

– الفطرة : الابتداء والاختراع ، قال الله ﷻ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١]، فطر الله العالم : أوجده ابتداء ، قال الله تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[١] .

– والفَطْـر : الشق ، يقال : فطره فانفَطَر ، وتفطَّر الشيء: تشقق ، قال تعالى : ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾[٢]

– والفِطْر : الإفطار .

– والفِطْرة : الخلقة التي خلق عليها كل موجود أول خلقة ؛ والطبيعة السليمة لم تُشب بعيب[٣] ، فطر الله الخلق (فطراً) من باب " قَـتَلَ " ، والاسم الفِطرة (بالكسر) ، قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[٤] ، وقال النبي – ﷺ – " ما من مولود إلاّ يولد على

---

(١) – سورة فـاطـر : من الآيـة ١ .

(١) – سورة الأنعـام : من الآيـة ٧٩ .

(٢) – سورة الملـك : من الآيـة ٣ .

(٣) – لسان العرب : مادة فـطـر ، ٥ / ٥٥ ، ومختار الصحاح : مادة فـطـر ، ص٥٠٦ ، ٥٠٧ ، والمعجم الوسيط: مادة فـطـر ، ص٦٩٤ .

(٤) – سورة الروم : من الآيـة ٣٠ .

الفطرة، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنـــتج البهيمة بهيمة جمعاء[1] ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ''[2] ، قيل معناه : الفطرة الإسلامية والدين الحق الذي يولد عليه الإنسان ، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ، أي: ينقلانه إلى دينهما[3] ، وقيل معناه : أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ لقبول الدين ، فلو تُرك عليها لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها إلى غيرها وإنما يعدل عنها من يعدل لآفة من آفات البشر والتقليد[4] ، ويقول الجرجاني أيضاً : ''الفطرة : الجبلة المتهيئة لقبول الدين''[5] .

ومن خصائص الإنسان ، وقد ميزه الله تبارك وتعالى عن سائر المخلوقات بالعقل والإدراك، أن جعل الله له فطرة تبعثه على الرجوع إلى الحق ، وتوقظ فيه ذلك الحس الكامن في نفسه كلما لهى عن ذكر ربه أو شذ عن صراط بارئه .

وكيفية هذه الفطرة وكنهها من الأمور الغامضة التي لم يصل إليها عقل الإنسان ، وقد حاول بعض الباحثين تفسيرها وتحديد كيفيتها وماهيتها ، ولعل من أقرب ما قيل في تفسيرها هو'' صفاء في النفس ونقاء في الطبع ، واستقامة في السريرة ، تميل بالنفس إلى الحق ، وتميل بها عن الباطل والإثم والعدوان ''[1] .

وعند علماء النفس الفطرة : '' قدرة أو سلوك أو دافع ، أو ما ينتقل عن طريق الوراثة فلا يحتاج الفرد إلى تعلمه واكتسابه ، بل ما يكون تلقائياً ''[2] .

فالفطرة على هذا '' ليست عقلاً صرفاً ولا عاطفة محضاً ، وإنما هي مزيج من العقل والعاطفة، إذا التقيا فلم يطغ أحدهما على الآخر كانت الفطرة سليمة تنشد الله وتعرف سبيلها إليه من أقرب السبل ''[3] .

---

(١)- جمعاء : أي : مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لا توجد فيها جدعاء (أي : كاملة الأعضاء لا نقص فيها) ، جدعا : مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ، انظر : شرح النووي على مسلم ، ٢٠٩/١٦ .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب القدر ، باب : معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ص١٠٦٦ ، رقم الحديث : ٢٦٥٨ .

(٣) – المصباح المنير : مادة فطر ، ٢ / ٤٧٦ .

(٤) – النهاية في غريب الحديث والأثر ابن الأثير : باب الفاء مع الطاء ، ٣ / ٨٨٢ .

(٥) – التعريفات : للجرجاني ، ١ / ٢١٥ .

(١) – مناهج الدعوة : د . علي جريشة ، ص٢٩ .

(٢) – أصول علم النفس : د . أحمد عزت راجح ، ص٨٥ ، ط : دار القلم ، الكويت .

(٣) – الشيخ أحمد الباقوري في تقديمه لكتاب العلم يدعو للإيمان : ص٢٦ .

وأياً ما كان تعريفها ، فالفطرة في مفهومها تمثل (الوازع) المحرك للإنسان إما ابتداءً من غير إثارة خارجية ، أو استجابة لمؤثر ما ، أو هزة نفسية ، أو واقعة عاطفية ، أو حدثاً عارضاً .

والمنهج الفطري للردّ على الشبهات في الدعوة إلى الله من أنجع المناهج وأنجحها، ذاك أنه لا يخلو إنسان من فطرة سليمة كانت أو ران عليها غبش كثيف أو رقيق من الهوى والشبهات والشهوات، ويرى البعض أن هذا المنهج منحصر في القوم البدائيين الذين لم يتأثروا بدرن الفلسفات ودنس الخرافات، ولا يمنع أن ينجح هذا المنهج الفطري لدى غيرهم – على ما يبدو – وإن كان البدائيون أكثر المدعويين استجابة لهذا المنهج لسلامة فطرهم ونقاء أفكارهم وبقاء مداركهم على الجبلة التي خلقوا عليها أول مرة، ولهذا المعنى خصّ الله ﷻ العرب دون غيرهم بحمل الرسالة الخاتمة وتبليغها، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، ولئن كان الهدف الدعوي الأول هو إفراد الله ﷻ بالعبادة، فإن المنهج الفطري لإزالة الشبهات التي تحجب الفطرة الأصلية السليمة والتي يكمن فيها الإقرار بتوحيد الله ﷻ وإخلاص العبادة له وحده، من أمثل المناهج لتحقيق ذلك، وفي القرآن العظيم ولاسيما في السور المكية أساليب متنوعة تخاطب فطر الناس وتبعثها من مرقدها وتثيرها من هجعتها وتزيل عنها غبش الأهواء والشبهات بتوجيه النظر والفكر إلى تجدد الخلق وظهور الحياة والموت في الإنسان والحيوان والنبات... وكيف أن هذه الكائنات قد هديت سبلها في استمرار البقاء والنماء، ومن هذه الأساليب ما يحرك كوامن النفس ويلفتها إلى عظيم صنع الله وبديع خلقه ودقة تناسب هذا الخلق بقوانين الحياة وانتظامها واستقامتها على نحو معجز ينتزع من الفطرة السليمة هتافاً بأن لهذا الكون خالقاً مدبراً ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير[1].

فمن حكمة القول مع المدعويين ؛ الملحدين منهم والمشركين خاصة ، أن يستخدم الداعية إلى الله تعالى في دعوته لهم الأدلة الفطرية لإزالة ما علق بفطرهم من أدران الشرك وغبش الشبهات ؛ وذلك بالبيان والتوضيح لهم أن المولود يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيئ لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها و لم يفارقها إلى غيرها ، وإنما يعدل عنها من يعدل ؛ لآفة من آفات البشر والتقليد ، وبالبيان لهم أن كل مولود يولد على معرفة الله والإقرار به ، فلا تجد أحداً إلاّ وهو يُقر بأن له صانعاً وإن سماه بغير اسمه ، أو عبد معه غيره.

---

(١) – الدعوة إلى الله تعالى ، "دراسة مستوحاة من سورة النمل" : د . عبد الرب نواب الدين آل نواب ، ص١٣٠ ، ١٣١ ، ط١ ، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م ، دار القلم ، والدار الشامية ، بيروت .

وقد وضّح شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ذلك بالمثل حيث قال : " ومثل الفطرة مع الحق مثل ضوء العين مع الشمس ، وكل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس ، والاعتقادات الباطلة العارضة من : تهودٍ ، وتنصرٍ ، وتمجسٍ ، مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس ، وكذلك كل ذي حس سليم يحب الحلو ، إلا أن يعرض في طبيعته فساد يحرفه حتى يجعل الحلو في فمه مراً "(١) .

(ب) – كيفية الردّ بهذا المنهج وأمثلة على الردود به:

أخبر الله ﷻ أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلاّ هو حيث إنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾(٢) ، وقال ﷻ : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾(١) .

إذن الإقرار بأن الله هو الرب ، وأنه لا إله إلاّ هو ، أمر كامن في كل نفس بني آدم ، والذي يمكن كشفه وإيقاظه بإزالة أدران الشرك وغبش الأهواء والشبهات بالأدلة الفطرية ، فيقال للمدعو المشرك أو الملحد – مثلا – :

أنظر إلى حالة الناس إذا مستهم الضراء وكربتهم الشدائد ، وأحاطت بهم المهالك كيف تتوجه قلوبهم إلى الله وحده ، وترتفع أصواتهم بسؤاله وحده ، وتنظر أفئدتهم إلى إغاثته ، لا تلتفت يمنةً ولا يسرةً إلا إليه(٢) .

ومما يزيد ذلك وضوحاً أن الخلق متى شاهدوا شيئاً من الحوادث المتجدّدة كالرعد والصواعق ، والبرق والزّلازل ، والبراكين المتفجرة الثائرة ، والريح الشديدة ، وانهمار الأمطار الغزيرة ، وفيضانات الأنهار ، واضطراب الأمواج في البحار والمحيطات ، متى شاهدوا ذلك دعوا

---

(١) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٤ / ٢٤٧ .

(٢) – سورة الأعراف : الآية ١٧٢ – ١٧٤ .

(١) – سورة الروم : من الآية ٣٠ .

(٢) – الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص٢٥١ ، ٢٥٢ ، ط١٤٠٥هـ ، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض .

الله وسألوه ، وافتقروا إليه ؛ لأنهم يعلمون أن هذه الحوادث المتجددة لم تتجدد بنفسها ، بل لها محدث أحدثها ، وإن كانوا يعلمون هذا في سائر المحدثات ؛ لكن ما اعتادوا حدوثه صار مألوفاً لهم ، بخلاف المتجدّد ، ولو لم يكن إلا خلق الإنسان ، فإنه من أعظم الآيات ، فكل يعلم أنه لم يحدث نفسه ، ولا أبواه أحدثاه ، ولا أحد من البشر أحدثه ، ويعلم أنه لا بدّ له من خالق خلقه، وأن هذا الخالق موجود ، حيّ ، عليم ، قدير ، سميع ، بصير ، حكيم ، حفيظ[1] .

ولذا فقد كان منهج إثارة الفطرة وإيقاظها وإرجاع النفس إلى أصل فطرتها ، والتساؤل معها عن مظاهر الخلق والتدبير والملك أحد المناهج الرئيسة التي نهجها القرآن الكريم للردّ على شرك المشرك ووثنيته والحاد الملحد وضلاله ، والعودة بهم إلى الحق والصواب والرشد والهداية ، ويأتي فيما يلي ذكر أمثله منها :

(**١**) – يقول الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[1] .

أي: إذا نالتْكم الشدة والجهد في البحر ، ﴿ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ ﴾ ، أي : فقدتم من تدعون من دون الله من الأنداد والآلهة ، وجار عن طريقكم فلم يغثكم ، ولم تجدوا غير الله مغيثاً يغيثكم، دعوتموه، فلما دعوتموه وأغاثكم وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر ، أعرضتم عمّا دعاكم إليه ربُّكم من خلع الأنداد ، والبراءة من الآلهة ، وإفراده بالألوهية ؛ كفراً منكم بنعمته[2]، أي ليس على أساس الحجة والبرهان وإنما لمجرد الجحد والكفر بنعمة الله اتباعاً لشهوة أو شبهة ، وامتناعاً عن استماع صوت الفطرة والتسليم له .

(**٢**) – قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾[3].

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : ما حل بكم من نعمة فمن الله ، وتفيد الآية العموم، وأيضاً مما يدل على أن كل نعمة من الله ، كون كل شيء موجود إما واجب لذاته ، وإما ممكن لذاته ، والواجب لذاته ليس إلا الله تعالى ، والممكن لذاته لا يوجد إلا لمرجح ، وذلك المرجح إن كان واجباً لذاته كان حصول ذلك الممكن بإيجاد الله تعالى ، وإن كان ممكناً لذاته عاد التقسيم

---

(١) – الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى : سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، ص٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ط١ ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م ، الرياض ، ودر تعارض العقل والنقل ، للإمام ابن تيمية ، ٣ / ١٢٢ – ١٢٩ ، ١٣١ – ١٣٧ .

(١) – سورة الإسراء : من الآية ٦٧ .

(٢) – جامع البيان عن تأويل آي القرآن : الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ١٤ / ٦٦٨ .

(٣) – سورة النحل : الآية ٥٣ .

الأول فيه ، ولا يذهب إلى التسلسل بل ينـــتهي إلى إيجاد الواجب لذاته ، فثبت بهذا البيان أن كل نعمة فهي من الله ، والنعم كثيرة ، منها دينية وأخرى دنيوية ، وهي خارجة عن الحصر والتحديد كما قال ﷻ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾[1] ، ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ ﴾ ، أي : من الأسقام والأمراض أو الحاجة ، ﴿ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ ، أي : ترفعون أصواتكم بالاستغاثة ، وتتضرعون إليه بالدعاء ، يقال : جأر يجأر جؤاراً ، وهو الصوت الشديد كصوت البقرة ، فالآيـــة تردّ على شبهة المشرك بشأن التوحيد وشبهة الملحد بشأن وجود الله ﷻ حيث يبـــين الله ﷻ من خلال هذه الآيـــة أن جميع النعم من الله تعالى ، ثم إذا اتفق لأحد مضرة توجب زوال شيء من تلك النعم فإلى الله يجأر ، أي لا يستغيث أحداً إلاّ الله تعالى لعلمه بأنه لا مفزع للخلق إلاّ هو ، فكأنه تعالى قال لهم : فأين أنتم عن هذه الطريقـــة في حال الرخاء والسلامة ، ثم قال بعده : ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[1] ، فبين ﷻ أن عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون ، ففريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر فلا يفزع إلاّ إلى الله تعالى ، وفريق منهم يتغير ويشرك بالله غيره ، وهذا جهل وضلال ، لأنه لما شهدت فطرته الأصلية وخلقته الغريزية عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع إلاّ إلى الواحد ، ولا مستغاث إلاّ الواحد ، فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يـــبقى على ذلك الاعتقاد ، فأما أنه عند نزول البلاء يقر بأنه لا مستغاث إلاّ الله تعالى ، وعند زوال البلاء يثبت الأضداد والشركاء ، فهذا جهل عظيم وضلال كامل[2] .

(٣) – قال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[3] .

تشير هذه الآيـــة إلى التناقض والاضطراب في اعتقاد الملحدين والمشركين ، وترد عليهم إلحادهم وشركهم حيث إذا ركبوا في الفلك وأحاطهم تلاطم الأمواج وخافوا من الهلاك ، لم يذكروا إلاّ الله ، ولم يشعروا إلاّ بقوة واحدة يلجئون إليها ؛ هي قوة الله ﷻ وحده في

---

(١) – سورة إبراهيم : من الآيـــة ٣٤ .

(١) – سورة النحل : الآيـــة ٥٤ .

(٢) – مفتاح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ٩ / ٤٠٣ .

(٣) – سورة العنكبوت : الآيـــة ٦٥ .

مشاعرهم وعلى ألسنتهم سواء ، تركوا وقتذاك إلحادهم وأندادهم ، وأطاعوا فطرهم التي تحس وحدانية الله ، فلما أزال الله عنهم الشدة ونجاهم من الهلاك ، نسوا إخلاصهم لله ودعاءهم له ، وانحرفوا إلى الشرك بعد الإقرار والتسليم !

"إن الله ﷻ قد ألزم المشركين في هذه الآية بإخلاصهم لله في حال الشدة عند ركوب البحر ، وتلاطم أمواجه ، وخوفهم من الهلاك ، يتركون وقتذاك أندادهم ، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له ، فلما زالت عنهم الشدة ، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر ، أشركوا به من لا نجاهم من شدة ، ولا أزال عنهم مشقة .

فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة ، واليسر والعسر ، ليكونوا مؤمنين حقاً، مستحقين ثوابه ، مندفعاً عنهم عقابه ، ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر، ليكون عاقبته الكفر بما آتيناهم ، ومقابلة النعمة بالإساءة ، وليكملوا تمتعهم في الدنيا ، الذي هو كتمتع الأنعام ، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم"[(١)] ، وهذا ردّ قوي ومفحم على المشركين والملحدين .

(**٤**) — قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[(٢)].

قيل : المراد بظلمات البر والبحر شدائدهما وأهوالهما ؛ وظلمات البر هي ظلمة الليل ، وظلمة السحاب ، والخوف الشديد من هجوم الأعداء ، وأما ظلمات البحر فهي تجتمع فيه ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة السحاب ، والرياح الشديد ، والأمواج البحرية الهائلة .

فعند اجتماع هذه الأسباب يتولد في نفوس المشركين والملحدين خوف شديد من عدم الاهتداء إلى طريق النجاة وكيفية الخلاص من تلك الأهوال ، فيرجعون إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع له وحده ظاهراً وباطناً ، فبين الله ﷻ أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلاّ إلى الله ، ولا تعويل إلاّ على فضل الله ، وجب على المشركين والملحدين التخلي عن الأنداد والإلحاد ، والبقاء على هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات

---

(١)- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٥٨٥ .

(٢) — سورة الأنعام : الآيـــة ٦٣ ، ٦٤ .

حيث ينجيهم الله وحده من تلك المخاوف والشدائد ، ومن سائر موجبات الخوف وجميع الكروب ، ثم إنهم يقدمون على الشرك ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ ، فلا يفون لله بما قالوا ، وينسون نعمه عليهم ، فأي برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك ، وصحة التوحيد ؟ ! ![1] .

(٥) – قال الله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[2] .

لما ذكر الله ﷻ في الآية السابقة لهذه الآية وهي ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾[1] ، أن الناس إذا أصابهم الضر لجئوا إلى الله تعالى ، فإذا أذاقهم الرحمة عادوا إلى عادتهم من إهمال جانب الله والمكر في آياته ، وكان قبل ذلك قد ذكر مثل هذا في قوله ﷻ ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2] ، ولما بينت هاتان الآيتان أمراً كلياً وقاعدة عامة في أحوال الناس وسلوكهم عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء ، واليسر بعد العسر ، أوضح تعالى في قوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ ...﴾ ، ذلك الأمر الكلي وتلك القاعدة العامة بمثال جلي كاشف عن حقيقة معنى القاعدة والأمر الكلي، ينقطع فيه رجاء الإنسان عن كل متعلق به إلا الله تعالى ، فيخلص له الدعاء وحده في كشف هذه النازلة التي لا يكشفها إلا هو سبحانه ، ويتبين بطلان عبادته ما لا يضر ولا ينفع[3] .

ويقول الله تعالى في موضع آخر لتنقشع ظلمة الشبهات عن النفس ، وتزول أدران الشرك والإلحاد عنها ، وتنجلي الفطرة وتعود إلى أصلها ، فتعترف بتوحيد الله وتخلص له الدين : ﴿ أَلَمْ

---

(١) – فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٢ / ٤٢٦ ، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) – سورة يونس : الآية ٢٢ .

(١) – سورة يونس : الآية ٢١ .

(٢) – سورة يونس : الآية١٢ .

(٣) – تفسير البحر المحيط : الإمام أبو حيان محمد حيان ، ٦ / ٢٨٢ .

تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴾[1] .

فتبين من خلال ما سلف من الحديث أن المشركين ، وإن أشركوا بالله في العبادة ، فإنهم يقرون بوجود الله ويوحدونه في الربوبية ، قال الله تعالى حكاية عن ذلك : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾[1] ، يقول الله تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو ، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم ، فتفاوت بينهم ، فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلاً منهم ، ومن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء، المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك ، فلِمَ يعبد غيره ؟ و لم يتوكل على غيره ؟ فكونه الواحد في ملكه يقتضي أن يكون الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية[2] ، ولذلك سعى القرآن الكريم إلى إيقاظ الفطرة وإثارتها وتذكيرها بما هو مغروس في أعماقها لتزول الشبهة أو الكبر والعناد وتتوجه النفس باختيارها الفطري إلى الله ﷻ.

---

(١) – سورة لقمان : الآية ٢٩ – ٣٢ .

(١) – سورة العنكبوت : الآية ٦١ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ٢١٦٣ ، ٢١٦٤ .

المقصد الثاني : منهج الردّ العقلي :

(أ) – تعريف هذا المنهج وأهميته وحالات استخدامه .

(ب) – أمثلة على الردود بهذا المنهج .

(أ) – **تعريف هذا المنهج وأهميته وحالات استخدامه :**

العقل : هو العلم بصفات الأشياء ، من حسنها وقبحها ، وكمالها ونقصانها ، أو العلم بخير الخيرين ، وشرِّ الشرين ، أو مطلق لأمور ، أو لقوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن ، ولمعانٍ مجتمعةٍ في الذهن . يكون بمقدماتٍ يستَتِبُّ بها الأغراض والمصالح ، ولهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه . والحق أنه نور روحاني ، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية . وابتداء وجوده عند اجتنان الولد ، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ ، جمعه : عقول ، عَقَلَ يعقِل عقلاً ومعقولاً وعقَّل ، فهو عاقل من عقلاءَ وعقَّال[1] .

ويقول الجرجاني : "قيل العقل جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان ، وقيل العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل ، وقيل العقل جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وقيل العقل قوة للنفس الناطقة وهو صريح بأن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة وأن الفاعل في التحقيق هو النفس ، والعقل آلة لها بمنزلة السكين بالنسبة إلى القاطع ، وقيل العقل والنفس والذهن واحد إلا أنها سميت عقلا لكونها مدركة ، وسميت نفسا لكونها متصرفة ، وسميت ذهنا لكونها مستعدة للإدراك ، وما يعقل به حقائق الأشياء ، قيل: محله الرأس وقيل محله القلب، وهو مأخوذ من: عقال البعير، يمنع ذوي العقول عن سوء السبيل، والصحيح أنه جوهر مجرد يدرك الفانيات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة "[2] .

ويقول الإمام الغزالي في بيان شرف العقل: "وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجري الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ؟"[3]، إن من نعم الله العظيمة أن وهب للإنسان عقلا يتدبر به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، وزوده باستعداد فطري للتعليم، واكتساب المعرفة والعلوم والمهارات؛ مما يزيد من قدرته على تحمل تبعة أعماله،

---

(١) – القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، باب اللام ، فصل العين ، مادة : العقل ، ص١٣٣٦ ، (بتصرف يسير) .

(٢) – التعريفات : علي بن محمد بن علي الجرجاني ، ص١٩٧ .

(٣) – إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد الغزالي ، ١ / ١١١ .

ومما يمكّنه من تنمية قدراته ومهاراته، بما يكفل له بلوغ ما شاء الله تعالى له من الكمال الإنساني[1] .

ويدل على ذلك تصنيف القدرات العقلية في القرآن إلى أصناف عديدة: القدرة على التأويل ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾[2]، القدرة على التدبر ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[3]، القدرة على الفقه ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1]، القدرة على التفكر ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾[2]، القدرة على التذكير ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾[3]، القدرة على النظر العقلي ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[4]، القدرة على الاعتبار ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[5]، وتتفاوت هذه القدرات قوة وضعفاً من شخص لآخر أو عند الشخص الواحد خلال فترات حياته[6] .

وفي ذلك إشارة إلى تعدد السبل العقلية للردّ على شبهات المدعو وإقناعه بصحة الدعوة؛ وذلك تبعاً لاختلاف شخصيات المدعوين، والفروق الفردية، وتبعاً لنوعية الشبهات الموجودة في ذهن المدعو.

وأساس المنهج العقلي هو العقل، وتكليف الإنسان -كما هو معلوم- منوط بالعقل والإدراك، ولكل من العقل والعلم والفكر مفاهيم واسعة الدلالة، وتتداخل المفاهيم العامة لكل من العقل والعلم والفكر فيما بينها، ولا يستوجب هذا التداخل بين الاصطلاحات الثلاثة أن تكون شيئا واحداً بل هناك ثمة فرق بين كل منها ليس هنا مجال بسطه .

---

(١) – النظريـــة الخلقية عند ابن تيمية : د . محمد بن عبد الله عفيفي ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ص١٤١ ، ط١ ، ١٤٠٨هـــ .

(٢)- سورة يوسف : من الآيـــة ٤٤ .

(٣)- سورة محمد : الآيـــة ٢٤ .

(١)- سورة الإسراء : من الآيـــة ٤٤ .

(٢)- سورة سبأ : من الآيـــة ٤٦ .

(٣)- سورة عبس : الآيـــة ١١ ، ١٢ .

(٤)- سورة الأعراف : من الآيـــة ١٨٥ .

(٥)- سورة الحشر : من الآيـــة ٢ .

(٦) – دوافـــع إنكار دعوة الحق : عبد الرحمن بن يوسف الملاحي ، ص٣٠٧ ، ٣٠٨ .

فمنهج الردّ العقلي على الشبهات يمكن أن يعرف بما يلي :

(أ) – هو : طرق الردّ على شبهات المدعو بالأدلة التي ترتكز على العقل ، وتدعو إلى قبول الحق من خلال التفكر والتدبر، والتأمل والاعتبار .

أو – بعبارة أخرى – هو:

(ب) – استعمال الأدلة والأساليب التي يغلب عليها مخاطبة عقل المدعو لإزالة الشك والشبهة عن نفسه .

إنّ هذا المنهج مهم جداً لكشف الشبهات وبطلان الأباطيل وإظهار وهنها لإزالتها عن نفوس المتأثرين والمخدوعين بها لاسيما في الحالات التالية :

(١) – في مواطن إنكار المدعويين للأمور الظاهرة ، والبدهيات العقلية[١] .

(٢) – مع المعتدّين بعقولهم وأفكارهم من المدعويين ، لأنهم أسرع من يتأثر بالمنهج العقلي السليم[٢] .

(٣) – مع المنصفين من المدعويين ؛ غير المتعصبين لأرائهم ، والمتجردين من الأغراض الخاصة ، المستجيـــبين لما يتعين ويثبت بالأدلة العقلية .

وفي غيرها من حالات ومواطنَ يرى الداعية جدوى استخدامه مسترشداً بالكتاب والسنة، فقد بين الله ﷻ من الآيات الدالة على ذاته سبحانه وعلى وحدانيته وقدرته وعلمه وغير ذلك ما أرشد العباد إليه ودلهم عليه ، كما بين أيضاً ما دلّ على نبوة أنبيائه وما دلّ على المعاد وإمكانه .

فهذه المطالب شرعية من جهتين ؛ من جهة أن الشارع أخبر بها ، ومن جهة أنه بين الأدلة العقلية التي يستدل بها عليها ، والأمثال المضروبة في القرآن هي أقيسة عقلية ، وهي أيضاً عقلية من جهة أنها تعلم بالعقل أيضاً[٣] ، وأذكر فيما يلي أمثلة من هذا المنهج:

(ب) – أمثلة على الردود بهذا المنهج :

أولاً : الردّ على شبهة الإلحاد.

ثانياً : الردّ على شبهة الشرك .

ثالثاً : الردّ على شبهة منكري البعث .

---

(١) – المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، ص٢١٢ .

(٢) – المرجع السابق : ص٢١٢ .

(٣) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٣ / ٨٨ .

أولاً : **الردّ على شبهة الإلحاد** :

إن قضية وجود الخالق ﷻ قضية بدهية لا تحتاج في إثباتها إلى حجة أو دليل إذ " أول شعور يشرق في أعماق الإنسان إذا تأمل في نفسه وفي الكون من حوله ، ليشعر بوجود قوة كبرى مهيمنة على الكون تمنحه التنظيم والبقاء والفناء والتغيّر والحركة والسكون ، سواء استطاع أن يقيم الدليل البرهاني على صدق هذا الشعور أم لم يستطع ، فدليل الفطرة ، ودليل البداهة شاهد حق يسبق الشواهد النظرية ، وقد يكون أدق منها وأصدق.

إن كثيراً من علومنا ومعارفنا ليس لها دليل في أنفسنا غير شعورنا الفطري بها، ومن أمثلة ذلك:

انسياق الرضيع إلى ثدي أمه بفطرته الأولى دون أن يتعلم ذلك من معلم ، ودون أن يدركه بدليل عقلي أو حسي ظاهر .

ونشعر بوجود روح تسري فينا ، فندافع عنها ، ونحرص على بقائها دون أن نحس بها بإحدى حواسنا الظاهرة ، ونشعر بالعواطف داخلنا سواء كانت عواطف آمال أم آلام ، فما الدليل على وجودها فينا وهي متغلغلة في داخلنا ؟ ! .

وأما المنكرون والجاحدون لوجود الله فإنهم في قرارة أنفسهم يقرون ويشهدون بوجود خالق عظيم ، أوجد هذا الكون العجيب ، وإذا ما ألمت بأحدهم ضائقة أو مصيبة لجأ إلى خالقه، مفرج الكربات "[1] كما سلف الحديث عن ذلك في " المقصد السابق " ، ولكن على الرغم من هذه الحقيقة ، قد تمكن الإلحاد من قلوب كثير من الناس .

ومن ثم كان لزاماً أن يقوم الداعية بالردّ العقلي على المادّيين والطبيعيين والدهريين الذين يتظاهرون بإنكار وجود الله تعالى بل ويدعون إليه بحجة أن العقل يستبعد وجود الله ، ولذا لزم أن يردّ عليهم بالبراهين والأدلة العقلية المختلفة ، ونورد – فيما يلي – بعضا منها على سبيل الأمثلة وليس الحصر ليسترشد بها الداعية في الردّ على أهل الإلحاد ودعوتهم إلى الحق والصواب :

(١) – دليل السببية .

(٢) – دليل الإتقان والإبداع .

(٣) – دليل الممكنات العقلية الثلاث للتخليق .

(١) – دليل السببية :

---

(١) – أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة : د . حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار ، ص٤٣ ، ط٢ ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، مركز الدراسات والإعلام ، دار اشبيليا ، الرياض .

إن كل شيء في الكون وأجزاء كل كائن في حركة دائبة وتحول مستمر ، ومن المعلوم أن كل تحول أو تغيّر أو حركة لابد لها من سبب ، وهذا يقودنا إلى أن هناك أسباباً أخرى متعاقبة، بعضها ناشئ عن بعض ، أدّى جميعها إلى ذلك التحول أو التغيّر أو الحركة المستمرة ، وهذا الأمر ، أي الأسباب المتعاقبة ، تقودنا إلى وجود سبب أصيل نشأت عنه تلك الأسباب المتعاقبة العارضة المؤثرة ، وهو سبب الأسباب .

" وسبب الأسباب لابد له من أن يكون كامل القدرة إذ صدرت عنه القوى الكونية، وأن يكون كامل الحياة إذ دبت عنه صورة الحياة في الأجساد والنباتات ، وأن يكون كامل العلم والحكمة ، وهذا السبب الحقيقي واجب الوجود ، كامل الصفات هو "الله سبحانه تعالى "[1].

ويشهد الواقع المشاهد ويدرك العقل السليم أن أي حادث لم يحدث من غير سبب ، وأيَّ شيءٍ لم يُوجد من غير موجدٍ ، وقد أصبح هذا المعنى أمراً بدهياً وواقعاً مشاهداً حتى لا يَتَصور العقل خلافَه ، ولا يأبى الإقرارَ به إلاّ فاقدُ العقلِ أو قاصِرُه .

ولذلك أدرك أعرابي بدوي هذا الدليل السببي وأثبت به وجود الله ﷻ حيث أجاب حين سئل عن الدليل على وجود الرب : إن البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وليل داج ، ونهار ساج ، أفلا تدل على الصانع الخبير[2] .

وقد استخدم الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – دليل السببية في الردّ على بعض الملحدين في مناظرة جرت بينه وبينهم حيث طلبوا منه أن يقيم لهم الدليل على وجود الله، فذكر لهم موعداً يأتيهم فيه للمناظرة .

ولما حان الموعد تأخر عنهم وهم ينتظرون ، فضجّوا وتصوروا أنه هرب من لقائهم ومناظرتهم ، ثم قدم عليهم يسرع الخطى ، فعاتبوه في التأخر ، فذكر لهم عذراً اصطنعه ، وهو أنه لم يجد صاحب زورق ينقله إلى مكان الموعد من الشاطئ الثاني للنهر ، ولما يئس وهمّ

---

(١) – المرجع السابق ، ص٤٥ ، والإيمان بالله : محمد حسن الحمصي، ص١٥ – ١٧ ، ط : دار الرشيد ، دمشق . (بدون سنة طبع) .

(٢) – جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب : السيد أحمد الهاشمي ، ٢ / ١٩ ، ط : دار الفكر ، بدون سنة طبع ، والرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص٢٥٨ .

بالرجوع إلى منـــزله ، رأى ألواحاً من الخشب قادمة بنفسها ، ثم صارت تنضم على أنفسها حتى صارت زورقاً ، فعجب لها ، ولما رآها زورقاً متقن الصنع ركبه وقدم إليهم .

فقالوا له : أهزأ بنا ، كيف يصنع زورق نفسه بنفسه ؟ ! فقال لهم : هذا ما اجتمعتم لتجادلوني به ، إنكم لم تصدقوا أن زورقاً يصنع نفسه بنفسه ، وتؤمنون بأن هذا الكون العظيم قد صنع نفسه بنفسه ، فبهتوا ، وآمن من آمن منهم[1] .

ويقول أستاذ الطبيعة الحيوية الدكتور بول كلارنس اير سولد في مقال له بعنوان : " الأدلة على وجود الله " : " إن الأمر الذي نستطيع أن نـــثق به كل الثقة هو أن الإنسان ، وهذا الوجود من حوله ، لم ينشأ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق ، بل إن لهما بداية ، ولابد لكل بداية من مبدئ ... وإن معجزة الحياة ذاتها لها بداية ، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان ، إنها بداية مقدسة ، وتوجيه مقدس ، وتدبير إلهي محكم "[1] .

ويقول " أندور كونواي إيفي " وهو عالم الفسيولوجيا ، عن دليل السبــبية : إنّ أحداً لا يستطيع أن يثبت خطأ قانون السبــبية ، فبدونه تنعدم جميع الأشياء الحية، والعقل البشري لا يستطيع أن يعمل إلاّ على أساس السبــبية ، إنني أسلّم أن لقانون السبــبية وجوداً حقيقياً[2] .

ويقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله – بأن " ما يشهده الناس من الحوادث آيات دالة على الفاعل المحدث بنفسها ، من غير أن يجب أن يقترن بها قضية كلية : أنّ كل محدَث فله محدِث ، وهي أيضاً دالة على الخالق سبحانه ، من حيث يعلم أنه لا يحدثها إلا هو ، فإنه كما يستدل على أن المحدثات لا بد لها من محدِث قادر ، عليم ، مريد ، حكيم ، فالفعل يستلزم القدرة ، والإحكام يستلزم العلم ، والتخصيص يستلزم الإرادة ، وحسن العاقبة يستلزم الحكمة.

وكل حادث يدل على ذلك كما يدل عليه الآخر ، وكل حادث كما دل على عين الخالق، فكذلك الآخر يدل عليه ، فلهذا كانت المخلوقات آيات عليه ، وسماها الله آيات، والآيات لا تفتقر في كونها آيات إلى قياس كلّي : لا قياس تمثيلي ، ولا قياس شمولي، وإن كان

---

(١) – براهين وأدلة إيمانية : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ص١٦١ ، ط١ ، ١٤٠٨هــــ – ١٩٨٧م ، دار القلـــم ، دمشق .

(١) – الله يتجلى في عصر العلم ، أشرف علي التحرير : جون كلوقر مونسما ، ترجمة : د . الدمر داش عبد المجيد سرحان، مراجعة وتعليقات د . محمد جمال الدين الفندي ، ص٣٨ ، ط٣ ، الناشر : مؤسسة الحلبي وشركاه ١٩٦٨م ، القاهرة .

(٢) – المرجع نفسه : ص١٥٢ .

القياس شاهداً لها ومؤيدا لمقتضاها ، لكن علم القلوب بمقتضى الآيات والعلامات لا يجب أن يقف على هذا القياس ، بل يُعلم موجبها ومقتضاها ، وإن لم يخطر لها أن كل ممكن فإنــه لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح ، أو لا يترجح وجوده على عدمه إلا بمرجح .

ومن هنا يتبــين لك أن ما تنازع فيه طائفة من النظّار وهو أن علة الافتقار إلى الصــانع ، هل هو الحدوث أو الإمكان ، أو مجموعيهما ، لا يحتاج إليه ، وذلك أن كل مخلوق فنفسه وذاته مفتقرة إلى الخالق ، وهذا الافتقار وصف له لازم ، ومعنى هذا أن حقيقته لا تكون موجودة إلا بخالق يخلقه ، فإن شُهدت حقيقته موجودة في الخارج عُلم أنه لا بد لها من فاعل ، وإن تصورت في العقل علم أنها لا توجد في الخارج إلا بفاعل ، ولو قدر أنها تتصور تصوراً مطلقا عُلم أنها لا توجد إلا بفاعل ، فهي في نفسها لا توجد إلا بفاعل ، وهذا يعلم بنفس تصورها وإن لم يشــعر القلب بكونها حادثة أو ممكنة ، وإن كان كل من الإمكان والحدوث دليلاً أيضــا علــى هــذا الافتقار، لكن الحدوث يستلزم وجودها بعد العدم ، وقد عُلــم أنهــا لا توجــد إلا بفاعــل ، والإمكان يستلزم أنها لا تكون إلا بموجد ، وذلك يستلزم إذا وجدت أن تكون بموجد ، وهــي من حيث هي هي ، وإن لم تدرج تحت وصف كلي يستلزم الافتقار إلى الفاعل ، أي لا تكــون موجودة إلا بالفاعل ، ولا تدوم وتبقى إلا بالفاعل المبقي المديم لها ، فهي مفتقرة إليه في حدوثها وبقائها ، سواء قيل إن بقاءها وصف زائد عليها ، أو لم يقل.

ولهذا يعلم العقل بالضرورة أن هذا الحادث لا يبقى إلا بسبب يبقيه ، كما يعلــم أنــه لم يحدث إلا بسبب يحدثه ، ولو بنى الإنسان سقفا ولم يدع شيئا يمسكه ، لقال له الناس : هذا لا يدوم ولا يبقى ، وكذلك إذا خاط الثوب بخيوط ضعيفة وخاطه خياطة فاسدة ، قالوا له: هذا لا يبقى البقاء المطلوب ، فهم يعلمون بفطرهم افتقار الأمور المفتقرة إلى ما يبقيها ، كما يعلمــون افتقارها إلى ما يحدثها وينشئها''[(١)] .

وقد أثبت العالم الإنجليزي '' نيوتن '' بطريقة فذة أنه لا بد لكل سبب من مسبِّب، وذلك بأن صنع على يدي ميكانيكي حاذق مصغراً للنظام الشمسي ، وقد ظهرت فيه كواكب ممثلة بكرات تحركها يد يسيرها نظام معقّد يقوم على مسنــنات وأحزمة . واتفق أن زار نيوتن أحد أصدقائه من العلماء – وكان ملحداً – وقد روى ما دار بينهما : ففي يوم من الأيام بينما كان نيوتن جالساً في مكتبه يقرأ ومصغر النظام الشمسي على طاولة إلى جانبه ، إذ دخل عليه أحد

---

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٣ / ١٢٤ – ١٢٦ .

أصدقائه الملحدين – وكان الرجل عالماً – فتعرف فوراً على الأجرام السماوية تتحرك في محاورها وكلها تجري بمقدار، فتراجع قليلاً وقال: ما أعجب هذه الآلة الميكانيكيّة ! فمن الذي صنعها؟

فردّ عليه نيوتن من غير أن يتحرك من مقعده قائلاً : لا أحد .

فالتفت الملحد إلى نيوتن وقال : إنك ولا شك لم تفهم سؤالي ، فقد سألتك من صنعها ؟ فرفع نيوتن هذه المرة رأسه إلى صديقه وقال له مؤكداً بكل صراحة ورصانة: إن عناصر هذه الآلة قد اجتمعت من نفسها على هذه الصورة العجيبة، فاستغرب الملحد هذا القول، وقال لنيوتن: أتظنني أحمق حتى أقبل هذا القول؟ إنها ولا شك من صنع إنسان لا بل إنسان عبقري وأودّ أن أعرف اسمه .

وضع نيوتن الكتاب الذي كان يقرأه، ومد يديه ونهض واقفاً، ووضع يده على كتف صديقه وقال: ليست هذه الآلة إلاّ تقليداً لنظام أعظم تعرف أنت قوانينه، فإذا كنت لا أستطيع أن أقنعك بأن هذه الآلة ظهرت من غير صانع فكيف تزعم أن ليس للنظام الشمسي الحقيقي خالق، بينما لم يفعل صانع هذه الآلة إلاّ أنه قلد الأصل، فقل لي بربك بأي منطق وصلت إلى قناعتك ؟[1] .

وقد استخدم القرآن الكريم دليل السببية الموجب لوجود الله ﷻ في مواضع كثيرة، وأشارت إليه السنة المطهرة أيضاً ، فيقول الله تعالى – مثلا – : ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ﴾[2] ، وقال النبي – ﷺ – : "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء"[3] ، وقال الإمام الطحاوي مستفيداً من الآية الكريمة والحديث النبوي : " قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء " ، وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرحه لهذا القول : " هو معنى اسمه سبحانه " الأول والآخر " ، والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة ، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته ، قطعاً للتسلسل ، فأنت تشاهد حدوث الحيوان والنباتات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ،

---

(١) – خلق لا تطور : تأليف فريق من العلماء ، تعريب : د . إحسان حقي ، ص٤٦ ، ٤٧ ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، دار النفائس ، بيروت .

(٢) – سورة الحديد : من الآية ٣ .

(٣) – صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، ص١٠٨٨، رقم الحديث : ٢٧١٣ .

فإن الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها ، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفي وجودها ، ووجودها ينفي امتناعها، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ ﴾(1) ، يقول ﷻ : أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم ، ومعلوم أن الشيء المحدَث لا يوجِد نفسه ، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه، بل إن حصل ما يوجده و إلا كان معدوماً ، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه وعدمه بدلاً عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له "(1) .

وإن كنا نعبّر عند ذكر هذا النوع من الدليل بلفظ السبب ومعنى السببية ، فإن القرآن الكريم قد جاء التعبير فيه عن سبب الأسباب كلها ، باللفظ الدقيق الذي يتناسب مع ربوبيته ﷻ، وهو لفظ الخلق ومشتقاته ؛ ذلك لأن السببية متى انتهت إلى العليم الحكيم المريد كانت خلقاً(2)، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(3) ، وقال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(4) ، وقال ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(5) ، وقال جل شانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

(1) – سورة الطور : الآيـة ٣٥ .

(1) – شرح الطحاويـة في العقيدة السلفية : صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ص٦٦ ، ط : ١٤١٨هـ ، الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، الرياض .

(2) – أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة : د . حمد العمار ، ص٤٩ .

(3) – سورة البقرة : الآيـة ٢٩ .

(4) – سورة الأنعام : الآيـة ٧٣ .

(5) – سورة فاطر : الآيـة ١١ .

لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)] .

(٢) – دليل الإتقان والإبداع :

إذا ما رأى الإنسان شيئا جميلا وأعجبه ما به من جمال وإبداع وإتقان، مدح صانعه وحكم على كفاءته وأهليته وقدرته التي تظهر من صنعه الذي أبدع فيه وأتقنه .

فلو رأى – مثلا – منـــزلاً مصمماً على طراز حديث، أو آلة كهربائية أو ميكانيكية أو الكترونية متقنة التركيب، أو مركباً جديداً من سيارة أو طائرة أو سفينة صنعت بتصميم جديد رائع وهندسة عالية متطورة وعناية فائقة وشكل جذاب، لقال بدهشة أو بإعجاب: إنها لرائعة ... لقد أتقن صانعها في صنعه وأبدع فيها ! ولم يخطر بباله أبداً بأنها صنعت أو وجدت صدفة بلا خالق .

يقول الأستاذ نوفل :

" إذا رفع الإنسان بصره إلى السماء رأى ما فيها من نجوم وكواكب ، وإذا نظر إلى الأرض وجد ما عليها من إنسان وحيوان ، وما فيها من زرع وشجر ، وإذا تفكر وتدبر، وجد شمسا تشرق ولم تخلف موعدها لمحة بصر على ممر الأزمان والأجيال ، وليلا دائب السعي يدب ويدور بلا سرعة أو إبطاء !

وكثيرا ما تأملت ودهشت ، أحقا هناك من يشك في وجود القدرة الجبارة التي خلقت فأتقنت ، وصورت فأبدعت ، وكونت فنظمت كل شيء بدقة ونظام وتقدير وإتقان "[(١)].

إن الجمال والإبداع يـــبدوان ملازمين لكل شيء في الكون ؛ السحب ، وقوس قزح والسماء الزرقاء ، والنجوم ذات الألوان وانتـــشارها وانتظامها وحركاتها وهندستها ، والقمر ساعة طلوعه عندما يكون بدراً أو هلالاً أو ساعة توسطه قبة الفلك ، والشمس في شروقها وغروبها ، وكل ورقة من أوراق الشجر ، وكل زهرة من الأزهار برشاقتها الفاتنة وتصميماتها

---

(١) – سورة النور : الآيـــة ٤٣ – ٤٥ .

(١) – الله والعلم الحديث : عبد الرزاق نوفـــل ، ص٥ ، ط : بدون ، الناشر : مؤسسة دار الشعب ، القـــاهرة .

الرائعة ، وألوانها الموزعة والمختلفة ... كل ذلك آثار إبداع عظيم تـــثير في النفس كل آن مباهج من الروائع[١] .

والإنسان ، أليس هو كائن عجيب مدهش ، أليس خلقه ، وتقدير عناصره ، وخلاياه ، وأعضائه ، وأجزائه ، ووظائفها ، وأعمالها وحركاتها ، وأشكالها الظاهرة وصفاتها الباطنة من الإتقان الكامل الرائع العجيب الدال على الخالق العليم القدير ؟ ![١] .

أليس من الإتقان البديع المدهش المحير هذه المجموعات الكثيرة في عالم النبات ؛ أشجارها ، وثمارها ، وأزهارها ، وجذورها ، وفروعها ، وبزورها ، وأوراقها وأخشابها ، ولدنها ، وصلبها، وألوانها ، وأشكالها ، وطعومها ، وروائحها ، وصفاتها ، وتأثيرها ، وخصائصها .

أليس من الإتقان البديع تكوين الأرض ؛ يابسها ، وبحارها، وجبالها ، وأغوارها، ووديانها، وسهولها ، وصخورها ، ورمالها ، ومعادنها ، وأنهارها ، وحرّها ، وبردها ، وليلها ونهارها ، وسيرها في فلكها ، ودورانها حول محورها ، وصفاتها وخصائصها .

سل علماء الحيوان عن عجائب وغرائب ما في الحيوانات ، وعن إتقان تكوين كل منها، أو علماء النبات عن عجائب النباتات ، وإتقان صنعها ، وتسخيرها لأداء وظائفها ، أو علماء الجغرافية عن غرائب الأرض وإتقان تكوينها ، أو علماء الأفلاك عن عجائب السماء وغرائب ما فيها من نجوم وكواكب وسحاب ، يبدون لك ويشرحون من أمورها عجباً يسلمك إلى الحيرة والدهشة ، ويفجر في قلبك الإيمان بصانعها العظيم ، ويعرفك بأن خالقها هو العليم الحكيم القدير الذي أتقن كل شيء صنعاً[٢] .

إذن إلى أي أساس يستـــند الملحد في إنكاره لوجود الله ﷻ ؟ ! ويركن المتشكك في وجوده سبحانه ؟ !

إن الأرض والشمس والنجوم التي تملأ السماء ما هي إلاّ كواكب تسير سابحة في هذا الكون العظيم الفسيح وفق مخطط دقيق مرسوم ، لا تحيد عنه مطلقاً ، ولو أن نجماً منها غيّر سرعته ، زيادة أو نقصانا ، أو غيّر مساره قليلاً ، لأدى ذلك إلى اختلال نظام التجاذب القائم

---

(١) – الله جل جلاله : سعيد حوّى ، ص٨٦ ، ط٣ ، ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م ، دار الكتب العلمية ، بيـــروت ، لبنـــان ، (بتصرف) .

(١) – براهين وأدلـــة إيمانية : عبد الرحمن حسن الميداني ، ص١٦٥ ، (بتصرف) .

(٢) – المرجع السابق : ص١٦٦ ، (بتصرف) .

بين الكواكب ، وبالتالي فإنه يؤدي إلى اصطدام بعضها ببعض ودمارها ، غير أنه قد أحكم تكوينها في دقة متناهية بحيث تقف سابحة في الفضاء الفسيح[1] ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] ، وإنها لا ترتكز في علوها إلاّ على دعائم القدرة ، ولا تطير إلاّ بأجنحة أعارها لها ربها[2] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[3].

وقد نبّه القرآن الكريم على دليل الإتقان بطريقة عقلية في آيات متعددة منها – مثلا – :

(١) – قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[4] .

(٢) – وقوله ﷻ : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[5] .

(٣) – وقوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾[6] .

---

(١) – الإيمان بالله : محمد حسن الحمصي ، ص٢٧ ، ط : دار الرشيد ، دمشق ، بدون سنة طبع .

(١) – سورة يس : الآيــة ٣٨ – ٤٠ .

(٢) – أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة : د . حمد العمار ، ص٥١ .

(٣) – سورة فــاطــر : الآيــة ٤١ .

(٤) – سورة السجدة : الآيــة ٧ – ٩ .

(٥) – سورة النمل : الآيــة ٨٨ .

(٦) – سورة النبأ : الآيــة ٦ – ١٦ .

تشـــير هذه الآيات الكريمات إلى أن كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى هو على أكمل الإحكام وأتم الإتقان ، فلا فلتة فيه ، ولا ثغرة ، ولا نقص ، يتدبر المتدبر في هذه المخلوقات العجيـــبة وآثارها ، فلا يعثر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير ولا حساب ، في الصغير والكبير ، فكل شيء بتدبير وتقدير ، وهذا دليل ظاهر على عظيم قدرته ، وكمال علمه وبالغ حكمته ، يقول الإمام الرازي : في تفسير الآيات المذكورة من سورة النبأ : '' إن تلك الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة ، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم '' .

(٤) — وقوله جلّ شأنه: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾[1] .

تشير هذه الآيات أيضاً إلى آيات من آيات الله الكونية ، في الآفاق والأنفس ، فيها إبداع وإتقان ، وعناية وإحكام ، ونعم من الله على عباده ، وهذه الآيات نظير منهج الآيات من سورة النبأ التي سبق الاستشهاد بها آنفاً .

(٥) — وقوله ﷻ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[2].

ففي الآيتـــين المذكورتين تمجيد رب العالمين وذكر عظمته على جميل ما خلق في السماء من البروج ، وهي النجوم والكواكب العظام ، والشمس وهي السراج لأهل الأرض ، والقمر المنير المضيء الذي يشرق بنور لا حرارة فيه ، مختلف تـــماماً من نور الشمس ، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[3] ، والليل والنهار المتعاقبان ، لا يفتران ، إذا

---

(١) — سورة عبـــس : الآيـــة١٧ — ٣٢ .

(٢) — سورة الفرقـــان : الآيـــة ٦١ ، ٦٢ .

(٣) — سورة يونس : من الآيـــة ٥ .

ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾[(١)] ، وقال سبحانه : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [(٢)] .

فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنـــتظم ، والجمال العظيم، دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها ، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع لدليل على كثرة خيراته وعظيم إحسانه على عباده[(١)] .

إن هذه الآيات الكونية مجالات رحبة أيضاً للدارسين الباحثين من العلماء ، كسائر آيات الله في الكون ، وهي جميعها تهدي ذوي الألباب إلى حقيقة وجود الرب الخالق ، فكمال صفاته، فوحدانيته في ربوبيته وإلهيته ، فواجب حمده وشكره وطاعته ، وإخلاص العبادة له[(٢)] .

فإن لم يكن عقل المرء سقيماً ، فمتى ما شاهد شيئاً مركباً متقناً في تكوينه ومحكماً في تركيبه وتنظيمه ، فإنه يدرك – بداهة – أن متقناً حياً عالماً قادراً حكيماً قد أتقن صنعه وأحكم ترتيبه ، رافضاً رفضاً كلياً أن يكون صنعه وترتيـــبه قد جاء على طريق المصادفـــة ؛ لأن صورة الإتقان على سبيل المصادفـــة في المركبات ذات الأعـــداد الكبيرة من المستحيلات في مألوف العقلاء ، ومن المستحيلات أيضاً لدى الحسَّاب الرياضيـــين .

وقد نطق بالحقيقة كثير من علماء العلوم الكونية والتجريـــبية بل اعترف بها الملحدون منهم، فمثلا :

قال سقراط : '' إن كل جزء من أجزاء هذا الكون متجه نحو غاية ، وتلك الغاية متجه نحو غاية، وتلك الغاية متجه إلى غاية أعلى منها حتى يتم الوصول إلى غاية نهائية مفردة وحيدة ، وليس من الممكن أن يحمل ذلك على المصادفة '' .

أما لابلاس فيقول : '' إن القدرة التي وضعت الأجرام السماوية في المجموعة الشمسية ، وكثافتها ، وأقطارها ، ومداراتها ، وحددت مدة دوران السيارات حول الشمس ، والتوابع حول السيارات بنظام مستمر إلى ما شاء الله ، لا يمكن أن تنسب إلى المصادفة ''.

---

(١) – سورة إبراهيم : من الآيـــة٣٣ .

(٢) – سورة الأعراف : من الآيـــة٥٤ .

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ٢٠٣٩ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبـــد الـــرحمن الســـعدي ، ص٥٣٣ ، ٥٣٤ ، وجامـــع البيان : الإمام الطبري ، ١٧ / ٤٨٢ – ٤٨٥ .

(٢) – براهين وأدلة إيمانية : عبد الرحمن حسن الميداني ، ص١٧١ .

أما سبنسر الذي لم يكن يعترف بالأديان ، فقد قال : '' إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة ، متعالية عن الإدراك ''.

وقال الفلكي الكبير جيمس جينـــز : '' لا يمكن أن تكون المصادفة هي التي أوجدت نظام هذه الكواكب ''.

ويقول إبراهام لنكولن: '' إنني لأعجب لمن يتطلع إلى السماء ، ويشاهد عظمة الخلق ، ثم لا يؤمن بالله ''.

والدكتور أ.ج. كرونين الذي بدأ حياته ملحدا إلى أن وضع أصابعه على ينابيع الإيمان ، فأصبح مؤمنا بالله يقول : '' إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ، ونظامه ودقته ، وضخامته ، وروعته ، لا بد أن نفكر في إله خالق ، من ذا الذي يتطلع إلى السماء في ليلة صيف صافية ، ويرى النجوم اللانهائية تتألق بعيدا ، ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء ؟ وعالمنا هذا وهو يدور في الفضاء في حركة دقيقة منـــتظمة ، وفصول متـــتابعة، لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة ، نـــزعت من الشمس ، وألقيت في الفضاء بلا معنى أو سبب ؟

أما آرثر كومبتون ، أحد حائزي جائزة نوبل في الفزيا للكشوف الذرية ، فيقول : لست في معمل أعني بإثبات حقيقة الحياة بعد الموت ، ولكني أصادف كل يوم قوى عاقلة، تجعلني أحس إزاءها أحيانا بأنه يجب علي أن أركع احتراما لها ''.

وقد سئل الدكتور تشارلس ستاينمتز ، الذي كان من أعظم العلماء ، عن نوع البحث الذي سيحظى بأعظم تقدم في النهاية ، فأجاب : '' ستحدث أعظم الاكتشافات في النواحي الروحية ، فسوف يأتي اليوم الذي يتعلم فيه الناس أن الأشياء المادية لا تجلب سعادة ، وإنها قليلة النفع في جعل الرجال والنساء أقوياء قادرين على الإبداع ، وعندئذ سوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى دراسة الله (الإيمان بالله) والصلاة ، وعندما يأتي هذا اليوم ، سيشاهد العالم في جيل واحد من التقدم أكثر مما شاهده في الأجيال الأربعة السابقة ''[1] .

فأدلة الإتقان والإبداع للردّ على شبهة الملحدين والمنكرين بوجود الله لا تقع تحت حصر ، ولا يمكن وضعها في مؤلفات ، إذ آيات وجوده – جل وعلا – تظهر من جميع مخلوقاته التي تحيط بنا من كل جهة ، ونحس بها بجميع حواسنا ، فإن نظر المرء إلى الأرض وما عليها من نبات

(١) – الله و العلم الحديث : عبد الرزاق نوفـــل ، ص١٥ – ١٧ .

وأشجار ، وثمار وأزهار ، ومعادن وأحجار ، وأنهار وأبحار ، أو إذا نظر إلى السماء وما فيها من كواكب وأبراج ، ونجوم وأفلاك ، أو إذا أحس بالهواء والرياح ، أو شاهد الرعد والأمطار ، وجد عند كل ذلك وفي كل حين آيات تدل على الله العظيم : إذن ، فهل هناك مبرر معقول لشبهة ملحد وإنكار منكر ؟ ! ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

(٣) – دليل الممكنات العقلية الثلاث للتخليق :

يُردّ على الملحدين والدهريين وكل من أنكر وجود الله ﷻ أو ربوبيته بدليل أنّ لوجود المخلوقات والحوادث المتجددة والتغيرات التكوينية سواء في العالم العلوي أو السفلي ممكنات عقلية ثلاث ، وهي :

(١) – إما أن توجد تلك المخلوقات والحوادث والتغيرات في الكون بنفسها من غير محدث ولا خالق فهذا محال ممتنع يجزم العقل ببطلانه ضرورة ، ويعلم يقيناً أن من ظن ذلك فهو إلى الجنون أقرب منه إلى العقل ، لأن كل من له عقل يعرف أنه لا يمكن أن يوجد شيء محدث من غير موجد ولا محدث .

(٢) – وإما أن تكون تلك المخلوقات والحوادث والتغيرات هي المحدثة لنفسها الخالقة لها، أي: الطبيعة هي الخالق، وهذه شبهة قيلت في القديم ، وراجت في العصر الحديث، يحاول الملحدون الدهريون أن يعللوا بها وجود الكون، وهذا أيضاً محال ممتنع بضرورة العقل، فكل عاقل يجزم أن الشيء لا يحدث نفسه ولا يخلقه ؛ لأنه قبل وجوده معدوم ، والمعدوم لا يكون خالقاً، فإذا تأمل المرء ذو العقل السليم في المخلوقات المختلفة من إنسان وحيوان وأشجار وأزهار، أو تفكّر في الحوادث التي تحدث حوله من رياح وأمطار، أو نظر إلى المتغيرات من ليل ونهار وما يجري في كل آن من حركات منتظمة مقدرة بمنتهى الدقة للشمس والقمر والنجوم والكواكب، جزم بأن ذلك كله ليس من صنع العدم، إذن ، بطل هذان القسمان عقلا وتعين القسم الثالث، وهو:

(٣) – أن هذه المخلوقات والحوادث لها خالق خلقها ومحدث أحدثها وهو الرب العظيم الخالق لكل شيء ، المتصرف في كل شيء ، المدبر للأمور كلها ، وقد ذكر الله ﷻ دليل التقسيم العقلي في القرآن الكريم حيث قال : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ

---

(١) – سورة الأعراف : الآية ١٨٥ .

ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾[1] ، فالمخلوق لا بد له من خالق ، والأثر لا بد له من مؤثر ، والمحدَث لا بد له من محدِث ، والموجَد لا بد له من موجِد ، والمصنوع لا بد له من صانع ، والمفعول لا بد له من فاعل .

هذه قضايا بديهية جلية يشترك في العلم بها جميع العقلاء ، وهي أعظم القضايا العقلية ، فمن ارتاب فيها أو شك في دلالتها فقد برهن على اختلال عقله وضلاله[1] .

ويقول الشيخ السعدي – رحمه الله – :

" تفكر في نفسك وانظر في مبدأ خلقك من نطفة إلى علقة إلى مضغة حتى صرت بشراً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة ، أما يضطرك هذا النظر إلى الاعتراف بالرب القادر على كل شيء ، العليم الذي أحاط علمه بكل شيء ، الحكيم في كل ما خلقه وصنعه ، فلو اجتمع الخلق كلهم على النطفة التي جعلها الله مبدأ خلقك على أن ينقلوها في تلك الأطوار المتنوعة ويحفظوها في ذلك القرار المكين ، ويجعلوا لها سمعاً وبصراً وعقلا وقوى باطنة وظاهرة ، وينموها هذه التنمية العجيبة ، ويركِّبوها هذا التركيب المنظم ، ويرتِّبُوا الأعضاء هذا الترتيب المحكم ، لو اجتمعوا على ذلك فهل في علومهم ، وهل في اقتدارهم، وهل في استطاعتهم الوصول إلى ذلك؟ فهذا نظر يوصِّلُكَ إلى الاعتراف بعظمة الله واقتداره والخضوع له والتصديق بكتبه ورسله ، وهو دليل وبرهان عقلي وفطري اضطرت فيه الفطر إلى معرفة ربها وعبوديته "[2] .

إن كل ما في الكون يحكي أنه إيجاد موجد حكيم عليم خبير ، منفرد في ذاته كامل في صفاته ، متنـــزه من أي عيب أو نقص ، متصف بكمال العلم ومطلق القدرة، ولكن الإنسان ظلوم جهول : ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَـٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضۡبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونًا وَنَخۡلًا ﴾[3] .

---

(١) – سورة الطور : الآيـــة ٣٥ ، ٣٦ .

(١) – الرياض الناضرة والحدائق النيـــرة الزاهـــرة : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٢) – المرجع السابق : ص٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٣) – سورة عبـــس : الآيـــة ١٧ – ٢٩ .

كيف يكون الكون أو ما فيه من المخلوقات خلقت نفسها وهي لم تكن ؟ ! فالكون خلق الكون ، والسماء خلقت السماء ، والأرض خلقت الأرض ، والكون خلق الإنسان والحيوان ، وقد سلف الحديث بأن العقل السليم يرفض التسليم بأن الشيء يوجد نفسه ، وهل الشيء يخلق شيئا أرقى منه ؟ إن السماء والأرض والشمس والقمر ، والنجوم والكواكب لا تملك عقلا ولا سمعاً ولا بصراً ، فكيف تخلق إنساناً سميعاً عليما بصيراً ؟ !

أما تخليق الكون وما فيها صدفةً فكيف يمكن أن تأتي المصادفة في ذلك كله ؟ ! وفي خلق الإنسان وتكوينه ، وفي صنع طعامه الذي تشارك فيه الأرض والسماء ؟ !

ففي ما سلف من الحديث دلالات وبراهين عقلية واضحة وقاطعة على أن الله هو الخالق لكل شيء ، وأن الصدفة أو العدم أو الطبيعة لا قدرة لها ولا تصرف في مخلوقات الله تعالى ، وبهذا تبطل شبهات أهل الإلحاد والعناد .

مغالطات الملحدين والرد عليها :

يطرح الملحدون على عوام المسلمين مغالطات استدلاليه عقلية على وجود الله ﷻ لإيجاد الشك والريب في إيمانهم لنقلهم من الإيمان إلى الكفر وإضلالهم عن طريق الحق والهدى إلى الكفر والضلال ، ومن مغالطاتهم – مثلا – قولهم :

(١) – ألستم تقولون : إن كل موجود لا بد له من موجِد ، وإن هذا الكون موجود فلا بد له من موجد ، وذلك هو الله تعالى ؟

فيجيب المسلم العامي الذي لا يعرف أصول المغالطات : بلى ، وعند ذلك يستدرج معه الملحد الماكر ، فيقول له : الله موجود وهو على حسب الدليل لا بد له من موجِد ، فيجد العامي نفسه قد انقطع إذ لم يجد ما يردّ به عليه .

الردّ على المغالطة :

إن صيغة أساس الدليل التي جاء بها الملحد كمقدمة للاستدلال بها على ما يريد مقدمة كاذبة غير صحيحة حيث قال : ''كل موجود لا بد له من موجد'' ، والصحيح الذي نقصده ونقول به هو : '' كل موجود حادث لم يكن ، ثم كان ، لا بد له من محدث '' ، وعلى هذا نقول – مثلا – : إن هذا الكون موجود حادث لم يكن ثم كان باعتراف العقول السليمة وشهادات البحوث العلمية، إذن ، فلا بد أن يكون لهذا الكون من محدِث ، وهذا المحدِث للكون

لا بد أن يكون موجوداً أزلياً غير حادث ، ولا بد أن يكون منــزهاً عن كل الصفات التي يلزم منها حدوثه .

فمغالطة الملحد في المقدمة التي أوهم بها قائمة على التعميم إذ وضع " كل موجود " بدل " كل موجود حادث " ، ومعلوم أن عبارة " موجود " تشمل الموجود الأزلي والموجود الحادث .

وهكذا يسعى الملحدون لنشر شبهاتهم وترويج مغالطاتهم لإخراج العوام من المسلمين من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر والإنكار .

إن وجود الخالق هو الأصل والأزلي ، فلا يُسأل عن علة وجوده ، والسؤال عن علة وجوده أمر مخالف للحقيقة العلمية والعقل السليم كما سلف الحديث عن ذلك .

وكما لا يُسأل عما أصله العدم ما هي علة عدمه ؟ لأن مثل هذا السؤال لا يرد إلا على افتراض أن أصله الوجود ، وهذا يناقض أن أصله العدم ، كذلك ما أصله الوجود لا يسأل عن علة وجوده ولا يــبحث عنها ، لأن أي سؤال أو بحث عنها لا يكون إلا على افتراض أن أصله العدم ، وبهذه العلة تحول من العدم إلى الوجود ، لكن هذا الافتراض مرفوض ابتداء ، باعتبار أن أصله الوجود .

وبهذا يتضح لنا تماما أنه لا يسأل ولا يبحث عن علة وجود ما الأصل فيه هو الوجود .

وبهذا أيضاً تسقط المغالطة التي طرحها الملحد في مناقشته ، ويظهر فساد تسويته بين الكون الحادث وبين الخالق الأزلي ، وحينما نطالبه بعلة وجود الحادث وهو الكون فليس من حقه المنطقي أن يطالبنا بعلة وجود الله الأزلي .

وليس من حق الملحد أن ينكر الوجود الأزلي كله ما دام الواقع يكذبه ، والبراهين العلمية تهزأ به ، لأنه لو لم يكن في الوجود موجود أزلي لاستحال أن يوجد شيء في هذا الكون ، لأن الافتراض على هذا يقوم على أساس العدم المطلق .

وهل يتحول العدم المطلق بنفسه إلى وجود ؟

هذا من المستحيلات البدهية ، ولا يقبله عقل سليم ، إن هذا الكون الذي نحن جزء منه موجود، حادث، ذو بداية ، وكل ذي بداية لا بد له من علة كانت السبب في وجوده ، وإيجاده قد كان عملية من عمليات الخلق، وعملية الخلق إنما تتم بخالق قادر، وهذا الخالق القادر لا بد أن

يكون أزليا ، ولا بد أن يكون متحليا بالكمال المطلق ، هذه هي عقيدة المؤمنين بالله ، وهكذا وضحت لنا مغالطات الملحد[1] .

(٢) — **مغالطة** :

جنّد الملحد " د. العظم "[2] كل ما لديه ولدى غيره من أفكار ومغالطات ، ليثبت وجود التناقض بين الدين والعلم ، وليعتبر هذا التناقض حقيقة مقررة ، بغية التوصل من ذلك إلى إنكار الدين كله ، باعتباره مناقضا للعلم حسب فريته القائمة على المغالطات والتمويهات ، فيقول — مثلا – :

" ولنلمس طبيعة هذا الفارق بين النظرة الدينية القديمة وبين النظرة العلمية التي حلت محلها، سنوجه انتباهنا إلى مثال محدد يبين بجلاء كيف يقودنا البحث العلمي إلى قناعات وتعليلات تتنافى مع المعتقدات والتعليلات الدينية السائدة ، مما يضطرنا إلى الاختيار بينها اختيارا حاسما ونهائيا " .

ثم أتى بالمثال الذي زعم أنه يدعم كلامه فقال :

" لا شك أن القارئ يعرف التعليل الإسلامي التقليدي لطبيعة الكون ونشأته ومصيره : خلق الله هذا الكون في فترة معينة من الزمن ، بقوله : كن فكان ، ولا شك أنه يذكر حادثة طرد آدم وحواء من الجنة ، تلك الحادثة التي بدأ بها تاريخ الإنسان على هذه الأرض ، ومن صلب المعتقدات الدينية أن الله يرعى مخلوقاته بعنايته وهو يسمع صلواتنا وأحيانا يستجيب لدعائنا ، ويتدخل من وقت لآخر في نظام الطبيعة فتكون المعجزات ، أما الطبيعة فقد حافظت على سماتها الأساسية منذ أن خلقها الله ، أي : إنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها " .

ثم يقول في معارضة ما جاء في الدين :

---

(١) — صراع مع الملاحدة حتى العظم : عبد الرحمن حبنكة الميداني ، ص١٠٨ — ١١٠ ، ط٣ ، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م، دار القلم ، دمشق ، بيروت .

(٢) — هو الدكتور صادق جلال العظم ، وهو من ملاحدة هذا العصر الذين ينكرون الله واليوم الآخر ، ويكذبون الرسل ، ويجحدون الكتب السماوية مرتدين أقنعة العلمانية والبحث العلمي المتقدم ، زاعمين أن التقدم العلمي الحديث يدعم مذهب الإلحاد والكفر بالله ، مع أن العلم الحق إنما يدعو إلى الإيمان بالله لا الكفر به أيا كان نوع هذا العلم . (المرجع السابق ، ص٦٧) .

" أما النظرة العلمية حول الموضوع ذاته فلا تعترف بالخلق من لا شيء ، ولا تقر بأن الطبيعة كانت منذ البداية كما هي عليه الآن "[1] .

الردّ على المغالطة

إن في الكلام الذي قاله كذباً على الدين ، وشبهة ومغالطة ذكرها مع بعض أمور هي من الدين ، ليغشي بها على نظر القارئ ، فلا يبصر مواطن الافتراءات والمغالطات .

لقد أدخل فكرة لا يعترف بها الدين أصلا ، ضمن عرضه لطائفة من المفاهيم والعقائد الدينية الصحيحة ، ليضلل القارئ بالإيهام الذي اصطنعه له ، وليجعله يعتقد أن هذه الفكرة الدخيلة هي فعلا من المفاهيم الدينية ، ما دامت أنها قد وردت ضمن مجموعة مفاهيم صحيحة يعرفها هو عن الدين .

لقد زعم أن "الإسلام يرى أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها الله"، أي : أنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها .

إنّ هذا افتراء صريح على الدين ، تكذبه النصوص القرآنية ، يقول الله ﷻ – مثلا –: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] ، الشاهد: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، جاءت الآيـة بصيغة الفعل المضارع التي تدل على الحال والاستقبال، للدلالة على أن عمليات التجديد في الخلق الرباني للأشياء مستمرة غير منقطعة ، ففي الآيـة دلالة صريحة مخالفة لما زعم د. العظم من أن الدين يقرر أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها الله .

---

(١) – صراع مـع الملاحدة حتى العظم : عبد الرحمن حبنكة الميداني ، ص١١٠– ١١١.

(٢) – سورة النحل : الآيـة٣ – ٨ .

أما ما قاله عن الأجرام السماوية فلا يوجد في القرآن أو السنة ما يدل عليه ، بل في النصوص ما يدل على خلاف ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[1] .

فكلمة ﴿ لَمُوسِعُونَ ﴾ في الآيـــة تشير إلى أعمال التوسعة المتجددة في السماء ، وذلك لأن هذه الكلمة من صيغ اسم الفاعل ، وصيغة اسم الفاعل بقوة المضارع من جهة الدلالة ، هي للتعبير عن الحال أولا ثم عن الاستقبال .

أما قوله : إن النظرة العلمية لا تعترف بالخلق من لا شيء .

فهو يشير بهذا إلى نظرية " لافوازية " التي تقول : لا يخلق شيء من العدم المطلق ولا يعدم شيء وإنما هي تحولات من مادة لطاقة ، أو من طاقة لمادة ، أو من مادة لمادة .

وحين ندقق النظر في أصول ما قرره لافوازية نجد أنها تتحدث عن مجال معين ذي أبعاد، وليس في مستطاعها أن تتحدث عن كل الوجود في كل أبعاده من الأزل إلى الأبد، فهذا أمر لا تستطيع تقريره أية نظرية استقرائية مهما بلغ شأنها ، إلا أن يكون كلامها رجما بالغيب ، وتكهنا لا سند له ، وطرحا تخيليا محضا .

وأبعاد نظرية (لافوازية) هذه ثلاثة :

الأول : البعد الزمني .

الثاني : البعد المكاني .

الثالث : البعد الإدراكي .

وهنا نتساءل : هل رصد واضعو هذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في كل الأزمان ، بما فيها الأزمان السحيقة في القدم ، وعرفوا منها أنه لم يخلق في الأزمان القديمة جدا شيء من العدم ؟

والجواب : أنهم لم يفعلوا ذلك لأنه لا يتسنى لهم بحال من الأحوال ، وهم أبناء النهضة العلمية الحديثة ، على أن الأدلة العلمية التي سبق بيانها قد أثبتت أن لهذا الكون بداية ، وهذا يعني أنه لم يكن ثم كان ، فهو إذن مخلوق من العدم ، بقدرة خالق موجود أزلي .

فهذه النظرية لا تتحدث عن الانطلاقة الأولى للكون ، لأن أيا من الأجهزة العلمية لا تستطيع أن تسترجع الأزمان السحيقة وترصد الكون فيها ، وكذلك لا تستطيع النظرات

---

(١) – سورة الذاريـــات : الآيـــة ٤٧ .

التحليلية الاستنتاجية أن تحكم على ماضي الكون وانطلاقــته الأولى ، بالقياس على واقعه النظامي الذي نشاهده في الحاضر ، لاحتمال الاختلاف البيِّن بين نقطة البدء وبين ما يأتي بعدها من حالات نظامية مستمرة .

فنظرية " لافوازيه " لا تتناول بحال من الأحوال الزمن الأول لبداية الكون ، ومجالــها يأتي في الأزمان التي يترجح فيها قــيام النظام الكوني الذي درسته هذه النظرية، وبهذا يتبــين لنا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان الماضي غير صحيح .

ثم نتساءل ثانيا : هل رصد واضعو هذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في مستقبل ما يأتي من الأزمان ، وثبت لهم من رصدهم أنه لا يمكن أن يخلق شيء من العدم، ولا يمكن أن يعدم شيء موجود ؟

ولكن كيف يتسنى لهم رصد المستقبل وهم لا يملكون استقدامه ، جل ما يملكونه قياس المستقبل على الحاضر والماضي ، بشرط استمرار نظام الكون القائم ، ولا يستطيعون أن يحكموا على الكون بأنه لا يمكن أن يتغير نظامه الكلي ، فتأتيه حالة من الحالات يمسي فيها عدما ، أو تنعدم بعض أجزاء منه ، أو تضاف إليه أجزاء لم تكن هيئتها ولا مادتها فيه ، فهذا حكم لا سبيل إليه ، لأنه حكم على مجهول ، والحكم على المجهول باطل .

فنظرية " لافوازية " تنطبق على هذا الكون بشرط استمرار نظامه القائم ، وهي لا تحكم على المستقبل حكما قاطعا باستحالة تغير هذا النظام ، ولكن ما دام هذا النظام الكوني قائما ، فإن ضابطه أن جميع ما يجري من مدركات فيه إنما هو من قبيل التحولات، وبهذا يتــبين لنا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان المستقبل غير صحيح.

هذا ما يتعلق بتحديد البعد الزمني للنظرية ، أما تحديد البعد المكاني لها فنقول فيه :

هل رصد واضعو هذه النظرية ومقرروها هذا الكون في كل أبعاده المكانية ؟

ألا يحتمل وجود مكان سحيق فيه لم يرصدوه ولم يعرفوا ما فيه ؟ أفيحكمون عليه إذن حكما غيابيا قياسا على ما رصدوه منه في الأمكنة التي استطاعت أن تبلغ إلى مداها أجهزتهم وملاحظاتهم ؟

إن هذا الحكم الغيابي مع جهالة الخصائص والصفات حكم باطل ، وهذا طبعا لا يعني ضرورة مخالفة الغائب للحاضر ، ولكن لا يعني أيضاً لزوم موافقته .

فلابد إذن من تحديد مكان النظرية بالأبعاد المكانية التي كانت مجال الملاحظة والقياس بالأجهزة ، مع التجاوز بصحة قياس ما شابهها عليها ، مما لم يخضع للملاحظة المباشرة .

وهكذا يظهر لنا تحديد البعد المكاني لهذه النظرية ، وهو أمر تقتضيه الدراسة المنطقية الحيادية، وتوجبه الأمانة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة ، وهذا هو الأمر الذي يتظاهر (د. العظم) بالتحمس له وبالغيرة عليه .

أما تحديد البعد الإدراكي للنظرية فيتلخص بأن النظرية قد اعتمدت على ملاحظة عالم الشهادة من الكون المنظور المدرك ، أما عالم الغيب الذي لا تصل إليه الإدراكات الإنسانية المباشرة أو عن طريق الأجهزة فهو عالم خارج بطبيعته عن مجال النظرية ، لذلك فإنها لا تستطيع أن تحكم عليه ، لأن حكمها عليه من قبيل الحكم على الغائب المجهول في ذاته وفي صفاته ، جل ما تستطيعه النظريات في هذا المجال هي أن تعلق أحكامها تعليقا كليا ، أو تصدر أحكاما مشروطة احتمالية غير جازمة ، وهذا ما تقتضيه الدراسة العلمية المنطقية الحيادية ، وتوجبه الأمانة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة .

وهكذا ظهر لنا أن نظرية " لافوازيه " لم تتناول من الكون إلا مقطعا محدود الأبعاد الثلاثة : البعد الزماني والبعد المكاني والبعد الإدراكي ، وهذا المقطع هو مجال ملاحظتها .

يضاف إلى كل ذلك أن وجود الحياة في المادة لم يقترن بأي دليل تجريبي يثبت تحول المادة غير الحية إلى مادة حية ، عن طريق التولد الذاتي ، رغم كل التجارب العلمية التي قامت في عالم البحث العلمي حتى الآن .

لذلك نلاحظ أن الآراء العلمية في هذا المجال ترجع إلى أصول ثلاثة كبرى :

الرأي الأول منها :

ما قرره " أغاسيز " في كتابه " تصنيف العضويات " سنة ١٨٥٨م إذ قرر أن كل نوع من الأنواع خلق بفعل خاص من أفعال القوة الخالقة ، و" باستور " مكتشف جراثيم الأمراض على هذا الرأي ، والقائلون بهذا الرأي قد استقر مذهبهم على " أن كل حي لا بد أن يتولد من حي مثله " .

الرأي الثاني :

الرأي الذي قال به " هيرمان أبير هارد ريختر " إذ رأى أن الفراغ الذي نراه مملوء بجراثيم الصور الحية ، كالجواهر الفردة التي تتكون منها المادة الصماء ، كلاهما في تجدد مستمر ، ولا

يتطرق لهما العدم ، وبنى قاعدته في أصل الحياة على '' أن كل حي أبدي ، ولا يتولد إلا من خلية '' ، وهذا الرأي يتضمن أن تطورات المادة من المادة ، وتطورات الحياة من الحياة .

الرأي الثالث :

هو ما ذهب إليه الماديون من أن الحياة نشأت من المادة بالتولد الذاتي ، وليس لهذا الرأي أي شاهد تجريبي ، أو مستند عقلي ، وقال بهذا الرأي الدكتور '' باستيان '' في انكلترا ، والأستاذ '' هيكل '' في ألمانيا ، بعد هذه النظرات العلمية المنطقية لنظرية ''لافوازيه'' وما يتعلق بها ، يعترضنا سؤال حول النصوص الدينية ، إذ نجد فيها استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها بالنسبة إلى الأحداث والتغيرات التي توجد داخل مجال النظرية المذكورة ، وداخل المقطع المحدود الأبعاد الثلاثة الذي هو محل تطبيقها ، أفلا يعتبر استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها في مجال تطبيق نظرية '' لافوازية '' مناقضا أو معارضا لمضمون هذه النظرية ؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بد من المعرفة باستعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها في اللغة العربية وفي نصوص الشريعة الإسلامية .

ونجد بعد الرجوع إليها أن المادة اللغوية للخلق لا تعني دائما الإيجاد من العدم المطلق، بل كثيرا ما تستعمل مرادا منها التحويل في الصفات والعناصر التركيـــبية من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومن هيئة إلى هيئة ، ومن خصائص إلى خصائص، دون زيادة شيء على المادة الأولى من العدم المطلق ، وفي حدود هذا الاستعمال نجد قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[1] .

ففي كل صور الخلق هذه نشاهد عمليات التحويل من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال ، ومن صورة إلى صورة ، ومن خصائص إلى خصائص ، وقد أطلق على هذه التحويلات أنها خلق ، باعتبار أن القدرة الربانية هي المتصرفة في كل هذه التحويلات .

---

(١) – سورة المؤمنون : الآيـــة ١٢ – ١٤ .

وجاء في القرآن إطلاق الخلق على تغيير هيئة الطين وجعله على صورة طير ، نظرا إلى أن الخلق لا يستدعي دائما أن يكون إيجادا من العدم ، وذلك في قول الله لعيسى عليه السلام : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي .... ﴾(١) .

وبما أن كل التغييرات الكونية إنما تجري بإرادة الله وقدرته ، فهي ظواهر لأعمال الخلق التي يقوم بها جل وعلا .

فعلى التسليم الكامل بنظرية " لافوازية " ضمن حدودها ، لا نجد تعارضا بينها وبين المفاهيم الدينية التي دلت عليها النصوص الصحيحة الصريحة .

لكن مثل هذه الحقائق لا تسر الملحدين ، لأنهم حريصون جدا على أن يظفروا بما ظاهره التناقض بين العلم والدين ، حتى يتخذوا ذلك ذريعة لنقض الدين من أساسه .

ولن يظفروا مهما أجهدوا نفوسهم ، وستبوء كل مساعيهم بالفشل ، لأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من عزيز حميد ، عليم بكل شيء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر(٢) .

ثانياً : الرد على شبهة الشرك

الشرك هو أن يجعل المرء لله نداً ، أي : أن يجعل مع الله إلهاً آخر ؛ من ملك أو رسول أو ولي أو شمس أو قمر أو حجر أو غيره من المخلوقات ، يعبده كما يعبد الله ؛ وذلك بدعائه والاستغاثة به ، أو الذبح والنذر له ، أو غير ذلك من أنواع العبادة .

والشرك أشنع الشبهات وأعظم المهلكات ، ينافي التوحيد الذي هو أساس الدين ، وكلمته " لا إله إلاّ الله " ، ومعناه " لا معبود يستحق العبادة إلاّ الله " ، ولا يتحقق إلاّ بتوحيد الله في ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وعبادته ؛ إقراراً بالقلب ، وشهادة باللسان ، وعملاً بالجنان ، والتوحيد أعظم حقوق الله على العباد ، والشرك به اعتداء على حقه سبحانه ، وليس للإنسان فيه حظ نفس ، وليس شهوة يريد أن ينال مراده ، وإنما هو ظلم، بل ظلم عظيم ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٣) .

---

(١) – سورة المائدة : من الآية ١١٠ .

(٢) – صراع مع الملاحدة حتى العظم : عبد الرحمن حسن الميداني ، ص111 – ١١٩ .

(٣) – سورة لقمان : من الآية ١٣ .

وقد عنى القرآن الكريم في جميع سوره عموماً وفي سوره المكية خصوصاً بقضية التوحيد عناية بالغة لأهميتها في الدين ولكونها نقطة الخلاف الأولى بين دعـــوة الإسلام وأوهام الجاهلية : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾[1].

ولأجل ذلك أقام القرآن أدلة ناصعة على فساد عقيدة الشرك ، وفندها بطرق شتى ، ونادى البشر جميعاً ليعبدوا إلهاً واحداً في ذاته وصفاته لا ند له ولا شريك ، ولا صاحبة ولا ولد: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2].

وقد نهج القرآن مناهج عدة في الردّ على هذه الشبهة ومن ضمنها المنهج العقلي ، وهو موضوعنا هنا في هذا المبحث ، ولذا نورد – فيما يلي – بعضاً من الأدلة والبراهين العقلية التي تفند شبهة الشرك وتدحضها وتحق عقيدة التوحيد وتـــثبتها ، وذلك تحت العناوين التالية :

(١) – إتقان العالم وانتظامه واتساقه .

(٢) – ضعف الآلهة التي تعبد من دون الله وعجزها .

(٣) – الإله الحق من له الكمال المطلق .

(٤) – اتفاق الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد وإبطال الشرك .

(٥) – سبب الشرك دليل على بطلانه .

(٦) – النعم الحاصلة للإنسان وتسخير الكون له .

(١) – إتقان العالم وانتظامه واتساقه :

إن إتقان العالم وانتظامه بكل دقة منذ خلقه ، والاتساق والارتباط بين المخلوقات في العالم العلوي والسفلي في غاية الكمال ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[3] ، ودليل صريح وبرهان جلي على أن خالقه واحد ، وربه واحد ، ومدبره واحد ، ومن ثم فلا إله غيره ولا معبود سواه ، يذكر القرآن الكريم أدلة متعددة لبيان هذه الحقيقة رداً

---

(١) – سورة ص : الآيـــة ٤ – ٦ .

(٢) – سورة الإخلاص : الآيـــة ١ – ٤ .

(٣) – سورة الملك : الآيـــة ٣ ، ٤ .

على شرك المشركين ، فمنها – مثلا – قول الله ﷻ : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1] .

وقولـــه ﷻ : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[2] .

فلو كان للعالم مدبران وربان أو أكثر من ذلك لاختل نظامـــه ، وتقوضت أركانه؛ وذلك لأن تعدد الآلهة يقتضي التمانع والتنازع والاختلاف ، فيحدث بسببه الهلاك ، فلو كان للعالم إلهان – فرضاً – ، وأراد أحدهما أن يخلق شيئاً والآخر لا يريد ذلك ، أو أراد أن يعطي والآخر أراد أن يمنع ، أو أراد أحدهما تحريك جسم والآخر يريد تسكينه ، فحينئذٍ يختـــل نظام العالم ، ويحصل فيه الفساد والخراب ، فالقول بوجود إلهين يفضي إلى المحال ، لأن على القول بوجود إلهين أو أكثر ، لا بد أن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات ، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك جسم وتسكينه ، فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه ، فلا يخلو مما يلي :

– إما أن يقع المرادان، وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين حيث يلزم من ذلك أن يكون الجسم متحركاً وساكناً في آن واحد، وأن يكون الشيء الواحد حياً وميتاً في الوقت نفسه.

– أو لا يقع مراد واحد منهما وهو أيضاً محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر ، فلا يمتنع مراد هذا إلاّ عند وجود مراد ذلك ، وبالعكس .

– أو يقع مراد أحدهما دون الثاني ، وذلك محال أيضاً لوجهين : أحدهما : أنه لو كان كل واحد منهما قادراً على ما لا نهاية له ، امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر ، بل لابد وأن يستويا في القدرة ، وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح . وثانيهما : أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر ،

---

(١) – سورة الأنبياء : الآيـــة ٢٢ .

(٢) – سورة المؤمنون : الآيـــة ٩١ ، ٩٢ .

فالذي وقع مراده يكون قادراً ، والذي لم يقع مراده يكون عاجزاً ، والعجز نقص ، وهو على الله محال[1] .

فالقول بإلهين أو أكثر أبطل الباطل ، والشرك مع الله أعظم الشبهات ، إن القاهر الغالب على أمره هو الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع ، ولا منازع ولا مخالف ، ولا ند ولا شريك ، هو الله والواحد الأحد ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

(٢) – ضعف الآلهة التي تعبد من دون الله وعجزها:

إن من المعلوم عقلاً وشرعاً بأن الإلهية واستحقاق العبادة يتطلبان أن يكون المعبود كامل الصفات ، ومنـــزها من كل نقص ، وقادراً على إيصال النفع ودفع الضر ، وفعل كل ما يريد ، لا يعجزه شيء عما يريد ، ولا يتوفر ذلك كله إلاّ في الله ؛ الإله الحق الخالق المنفرد الواحد في ذاته وصفاته .

أما ما يعبده المشركون من دون الله من الأنبياء أو الصالحين أو الملائكة أو الجن، أو الأحجار والأشجار، فهو ضعيف وعاجز من كل الوجوه ، إنه لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً من نفع أو ضر ، أو حياة أو موت ، أو إعطاء أو منع ، أو عز أو ذل ، وإنه لا يتصف بأي صفة من الصفات التي يتصف بها الله ﷻ ؛ الإله الحق ، فكيف يُعبد مَن هذه حاله ؟! وكيف يُدعى من هذه صفاته ، ويرجى منه ويستغاث به ويخاف منه ؟! وكيف يُسأل من لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ؟ !

وقد ردّ القرآن الكريم على المشركين بمثل هذه الأدلة العقلية في مواضع كثيرة ، نذكر فيما يلي بعضاً منها :

– قال تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2] .

---

(١) – مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ٥ / ٣٢٧، درء تعارض العقل والنقل: الإمام ابـــن تيميـــة، ٩/ ٣٣٧ – ٣٥٤ ، وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٩٤٦ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الـــرحمن الســـعدي ، ص٤٧٠ .

(٢)– سورة المائدة : الآيـــة ٧٦ ، ٧٧ .

يقول الله منكراً على من يعبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، إلزاماً له ، وقطعاً لشبهته ، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئا من الإلهية : ﴿ قُلْ ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم – ودخل في ذلك النصارى وغيرهم – ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي: لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا إيصال نفع إليكم ، ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه ؟ ثم قال ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أُمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ، ﴿ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال[1] .

– قال الله ﷻ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[2] .

إن هذه الآية ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم وعزير، وعلى نفر من المشركين كانوا يعبدون نفراً من الجن، وأسلم أولئك النفر من الجن، ولكن بقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم.

احتجت هذه الآيــة على فساد عقيدة ومذهب هؤلاء المشركين أن الإله المعبود هو الذي يقدر على إزالة الضرر ، وإيصال المنفعة ، وهذه الأشياء التي يعبدونها ، لا يقدرون على كشف الضر ولا على تحصيل النفع ، فوجب القطع بأنها ليست بآلهة[3] .

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ٩٣٨ ، وفتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٢ / ٩٥ .

(٢) – سورة الإسراء : الآيــة ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) – مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ١٠ / ٧٦ ، وفتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٣ / ٣٤٠ .

شبهة وإزالتها :

قد يقول المعترض المشرك : إن هذا الدليل الذي جئتم به إنما يتم إذا ثبت أن الملائكة أو غيرها مما نعبده من آلهتنا لا قدرة لها على كشف الضر ولا على تحصيل النفع ، فما الدليل على أن الأمر كذلك ؟ فإن قلتم بأننا نتضرع على آلهتنا ولا تحصل لنا الإجابة ، قلت : نرى المسلمين أيضاً يتضرعون إلى الله ولا تحصل لهم الإجابة ، أنتم المسلمون تقولون : إن القدر الحاصل من كشف الضر وتحصيل النفع إنما يحصل من الله تعالى لا من الملائكة ، ونحن نقول إنه يحصل من آلهتنا ؛ من الملائكة أو غيرها من معبوداتنا ، فدليلكم ليس بتام وغير صحيح .

الجواب : أنتم – الكفار – تقرون بأن الملائكة أو غيرها من آلهتكم عباد الله ، ومن البدهي أن يكون خالق العالم وخالق معبوداتكم أقدر وأقوى منهم ، وأكمل حالاً منهم .

وإذا ثبت هذا فنقول : كمال قدرة الله تعالى معلوم متفق عليه ، وكمال قدرة معبوداتكم غير معلوم ولا متفق عليه ، بل المتفق عليه أن قدرتهم بالنسبة إلى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الله تعالى أولى من الاشتغال بعبادة ما تعبدونه من المخلوقات ؛ لأن كون الله مستحقاً للعبادة معلوم ، وكون آلهتكم مستحقة للعبادة كذلك مجهول ، والأخذ بالمعلوم أولى ، إذن دليلنا صحيح وتام .

وللمتكلمين من أهل السنة والجماعة ردّ آخر وهو أنهم يقيمون بالحجة العقلية على أنه لا موجد إلاّ الله تعالى ولا مخرج لشيء من العدم إلى الوجود إلاّ الله تعالى ، وإذا ثبت هذا ثبت أنه لا ضار ولا نافع إلاّ الله تعالى ، فوجب القطع بأنه لا معبودا إلاّ الله تعالى[1].

– وقال ﷻ :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ

(١) – مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ١٠ / ٧٦ ، ٧٧ .

﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(1) .

إن المقصود من هذه الآيات الردّ على المشركين وإقامة الحجة عليهم بأن ما يعبدون مع الله من الأنداد والأصنام والأوثان لا تصلح للإلهية لأنها ضعيفة وعاجزة من كل الوجوه :

– فهي مخلوقة مربوبة، لا تخلق شيئا ولا تقدر على التخليق، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾(2) أي: لو اجتمع كل من يعبدهم المشركون ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئا من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾، وقال حكاية عن إبراهيم – عليه السلام –، ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾(3) .

– إن تلك الآلهة لا تملك شيئا من الأمر ، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها ، بل ولا عن أنفسها ، فكيف تتخذ مع الله آلهة ؟ ! إن هذا إلاّ أظلم الظلم ، و أسفه السفه .

– وإنها لا تسمع دعاء من دعاها ، كما قال إبراهيم – عليه السلام – : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾(4)

– إنها عبيد الله مخلوقون مثلكم أيها المشركون ، فكلكم مملوكون لله سبحانه ، فإن كنتم كما تزعمون صادقين ، في أنها تستحق من العبادة شيئا ﴿ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ ﴾ فإن استجابوا لكم ، وحصلتم مطلوبكم وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوة، مفترون على الله أعظم الفرية ، وهذا لا يحتاج إلى تبيين فيه ، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء ، فليس لها أرجل تمشي بها ، ولا أيد تبطش بها ، ولا أعين تبصر بها ، ولا آذان تسمع بها ، فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان .

---

(1) – سورة الأعراف : الآية ١٩١ – ١٩٨ .

(2) – سورة الحج : الآية ٧٣ .

(3) – سورة الصافات : من الآية ٩٥ .

(4) – سورة مريم : من الآية ٤٢ .

فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها ، فهي عباد أمثالكم ، بل أنتم أكمل منها ، وأقوى على كثير من الأشياء ، فلأي شيء عبدتموها .

هذه دلالات الآيات المذكورة على كمال عجزها وضعفها، ولذا ختمت الآية بالتحدي والتعجيز لآلهة المشركين وأصنامهم حيث قال سبحانه لنبيه محمد - ﷺ -: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1] أي: ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر، ثم أنتم وهم جميعاً أوقعوا السوء والمكروه بي من غير إمهال ولا إنظار ولا تأخير، وليس بعد هذا التحدي لهم والتعجيز لأصنامهم شيء .

ثم قال لهم: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي: كيف أخاف هذه الأصنام التي هذه صفتها، ولي وليٌّ ألجأ إليه وأستنصر به، وهو الله ﷻ ﴿ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الذي فيه الهدى، والشفاء، والنور، وهو من توليه وتربيته لعباده، وهذه الجملة تعليل لعدم المبالاة بآلهة المشركين، فلما بين في الآيات المتقدمة أن هذه الأصنام لا قدرة لها على النفع والضر، بين بهذه الآية أن الواجب على كل عاقل عبادة الله تعالى لأنه هو الذي يتولى تحصيل منافع الدين ومنافع الدنيا ، أما تحصيل منافع الدين فبسبب إنزال الكتاب ، وأما تحصيل منافع الدنيا فهو الحفظ والنصرة وإيصال النفع وكشف الضرر[2] .

- وقال ﷻ :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[3] .

هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون منهم التعزز والتقوي والنفع ، وأن الأمر ليس كما يرجون ، بل مثلهم في ذلك كمثل العنكبوت في ضعفه

---

(١) - سورة الأعراف : الآية ١٩٥، ١٩٦ .

(٢) - مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ٦ / ٣٣٥ - ٣٣٧ ، وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، وفتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٢ / ٤٠٤ (بتصرف) ، وتيسير الكريم الرحمن ، الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص ٢٧٥ .

(٣) - سورة العنكبوت : الآية ٤١ - ٤٣ .

ووهنه حيث اتخذت بيتاً لا يغني عنها شيئا ، لا في حرّ ولا قرّ ولا مطر ، فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة ، وبيتها من أضعف البيوت وأوهاها ، فما ازدادت باتخاذه إلاّ ضعفاً .

فالذين اتخذوا من دون الله أولياء ، فقراء عاجزون من جميع الوجوه ، وحين اتخذوا الأولياء من دونــه يتعززون بهم ، ويستنصرونهم ، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم ، ووهناً إلى وهنهم .

فإن اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم ، وألقوها عليهم ، تخلوا هم عنها ، على أنّ أولئك سيقومون بها ، فخذلوهم ، فلم يحصلوا منهم على طائل ، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل .

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال من اتخذوهم لم يتخذوهم ، ولتبرءوا منهم ، ولتولوا الرب القادر الرحيم الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه ، كفاه مئونة دينه ودنياه ، وازداد قوة إلى قوته ، في قلبه وبدنه وحاله وأعماله .

ولما بــيَّن نهاية ضعف آلهة المشركين ، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه ، وأنها ليست بشيء ، بل هي مجرد أسماء سموها ، وظنون اعتقدوها ، وعند التحقيق يتبــين للعاقل بطلانها وعدمها ، ولهذا قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍ ﴾ أي: إنه تعالى يعلم – وهو عالم الغيب والشهادة – أنهم ما يدعون من دون الله شيئا موجوداً ، ولا إلهاً له حقيقة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾[2] .

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ الذي له القوة جميعاً ، الذي قهر بها جميع الخلق . ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها ، الذي أحسن كل شيء خلقــه ، وأتقن ما أمره[3] .

(٣) – الإله الحق من له الكمال المطلق :

تبــين – من خلال ما سلف من الحديث أنفاً – عجز معبودات المشركين وضعفها من كل الوجوه؛ فهي لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً ، وهذا دليل واضح وحجة قاطعة

---

(١) – سورة النجم : من الآيــة ٢٣ .

(٢) – سورة يونس : من الآيــة ٦٦ .

(٣) – الدر المنــثور في التأويل بالمأثور : الإمام السيوطي ، ٨ / ٣٧ ، تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ٢١٥٤ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٥٨٠ ، ٥٨١ .

على أنها لا تستحق العبادة ، وإنما الذي يستحق العبادة هو من له الكمال المطلق ؛ يملك كامل القدرة والسلطان ، والغلبة والقهر ، والهيمنة على كل شيء ، ويعلم بكل شيء ، له ملك السموات والأرض ، يملك النفع والضر لمن يشاء ، والعطاء والمنع لمن يريد ، وهو الله ﷻ ، ومن كان هذا شأنه وعظمته وكبرياؤه ، فإنه حقيق أن يُعبد وحده ولا يُشرك معه ، ويُطاع ولا يُعصى ، ويُشكر ولا يُكفر .

وصفات الكمال المطلق لله وحده ، لا يشاركه فيها أحد ولا يحيط بها ، ومن تلك الصفات – مثلا – :

– **التوحيد** : فهو الواحد المتفرد في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله عن جميع الخلائق ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]، وقال : ﴿ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[3] ، وقال ﷻ : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[4] ، ومن ثم فهو المتفرد بالألوهية والربوبية ، لا يستحق العبادة إلا هو وحده ، ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[5] ، ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[6] .

– **الأزلية والأبدية** : أي: هو الحي الذي لا يموت أبداً ، وهو القيوم الذي قام بنفسه ، وهو المستغني الذي استغنى عن جميع الخلائق ، وهي مفتقرة إليه في كل شيء ، وهما أي : الحي والقيوم ، " من أعظم أسماء الله الحسنى ، حتى قيل : إنهما الاسم الأعظم، فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقـه "[7] ، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا تأخذه سنة

---

(١) – سورة الإخلاص : الآيـة ١ .

(٢) – سورة الشورى : من الآيـة ١١ .

(٣) – سورة آل عمران : من الآيـة ٤٠ .

(٤) – سورة الأنبياء : الآيـة ٢٣ .

(٥) – سورة الأنعام : الآيـة ١٠٢ .

(٦) – سورة البقرة : الآيـة ١٦٣ .

(٧) – شرح الطحاويـة في العقيدة السلفية : صدر الدين الحنفي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر : ص٧٧ .

ولا نوم[1] ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[2] ، وقال النبي – ﷺ – : "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام "[3] .

– **القدرة الكاملة المطلقة** : فهو القادر على كل شيء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4] ، وقال ﷻ ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾[5]، ولا يعجزه شيء ولا يعيي من أمر ، قال ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [6] ، ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[7] ، "لا يؤده" أي: لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه ، فهذا النفي لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده ، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[8] لكمال عدله ، وقوله ﷻ : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[9] لكمال علمه ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[10] لكمال قدرته ، وقوله ﷻ: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[11] لكمال حياته وقيوميته ، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[12] لكمال جلاله وعظمته وكبريائه[13] .

---

(1) – المرجع نفسه : ص٧٦ .

(2) – سورة البقرة : من الآيـة ٢٥٥ .

(3) – صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب : في قولـه ﷺ إن الله لا ينام ، وفي قولـه : حجابـه النور لو كشفـه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، ص٩٨ ، رقم الحديث : ١٧٩ .

(4) – سورة البقرة : من الآيـة ٢٠ .

(5) – سورة الكهف : من الآيـة ٤٥ .

(6) – سورة فـاطـر : من الآيـة ٤٤ .

(7) – سورة البقرة : من الآيـة ٢٥٥ .

(8) – سورة الكهف : من الآيـة ٤٩ .

(9) – سورة سبأ : من الآيـة ٣ .

(10) – سورة ق : من الآيـة ٣٨ .

(11) – سورة البقرة : من الآيـة ٢٥٥ .

(12) – سورة الأنعام : من الآيـة ١٠٣ .

(13) – شرح الطحاويـة في العقيدة السلفية : صدر الدين الحنفي ، ص٦١ .

- **خضوع جميع الخلائق لسلطانه** : فانقادت له المخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها، وإنسها وجنها وملائكتها ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾[1] ، فكل ما في السماوات والأرض وما بينهما عبيده ، وتحت أمره وسلطانه وتدبيره وقهره ، قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾[2] .

- **النفع والضر** : إن الله تعالى هو الإله الحق الذي بيده النفع والضر، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]، إن هذه الآية من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه هو النافع، الضار، المعطي، المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ لأن الخلق، لو اجتمعوا على أن ينفعوا أحداً بشيء، لم ينفعوه إلا بما كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه ، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ، فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : كنت خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - يوماً فقال : " يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف "[4] ، ولهذا قال : ﴿ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ ﴾ أي: لا يقدر أحد من الخلق أن يرد فضله وإحسانه ، كما قال تعالى : ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾[5] .

---

(١) – سورة آل عمران : من الآيــة ٨٣ ، وانظر : الحكمة في الدعوة إلى الله : سعيد القحطاني ، ص٣٧٥ .

(٢) – سورة مريم : الآيــة ٩٣ .

(٣) – سورة يونس : الآيــة ١٠٧ .

(٤) – جامــع التــرمذي : كتاب صفــة القيامــة ، باب : ما جاء في صفة أواني الحوض ، ص٤٠٨ ، رقم الحــديث : ٢٥١٦ .

(٥) – سورة فــاطــر : من الآيــة ٢ .

﴿ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه ، والله ذو الفضل العظيم ، ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ لجميع الزلات ، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته ، ثم إذا فعلها العبد غفر الله ذنوبه ، كبارها ، وصغارها .

﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين، فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحداً من الخلق، ليس بيده من هذا شيء، إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل[1] .

(٤) – اتفاق الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد وإبطال الشرك :

إن اتفاق الأنبياء في دعوة أممهم إلى التوحيد وإبطال الشرك وتحذيرهم منه لدليل عقلي صريح على صحة التوحيد وبطلان الشرك ، فما من أمة متقدمة أو متأخرة ، إلاّ وقد بعث الله فيها رسولاً ، يدعو إلى عبادة الله وحده وينهى عن الشرك به ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[2] ، فكل الرسل متفقون على دعوة واحدة ودين واحد ، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له إذ قال كل منهم لقومه: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾[3] ، ويقول الله ﷻ عن دعوة رسله – عليهم الصلاة والسلام –: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[4]، فدلت هذه الآيات على أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل سليم سديد، ولا نقل صحيح عن الرسل، قال تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾[5]، المقصود من الخطاب في هذه الآية الكريمة تقريع مشركي قريش بأن ما هم عليه من الشرك لم يأت في

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٣١ .

(٢) – سورة النحل : من الآية ٣٦ .

(٣) – سورة الأعراف : من الآية ٥٩ .

(٤) – سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .

(٥) – سورة الزخرف : الآية ٤٥ .

شريعة من الشرائع وإنما جميع الرسل – عليهم الصلاة والسلام – دعوا إلى ما دعا النبي – ﷺ – الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا ما نهى عنه من عبادة الأصنام والأنداد[1] .

(٥) – سبب الشرك دليل على بطلانه :

إن الشرك ليس بمأخوذ من الكتب السماوية ، ولا هو يستند إلى قول نبي من الأنبياء أو دليل علمي أو عقلي وإنما منشأه وسببه هو الغلو في الصالحين[2] ، فقد كان الناس منذ أن أُهبط آدم – عليه السلام – إلى الأرض على دين الإسلام ، روي عن ابن عباس – رضي الله عنه – أنه قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام "[3] ، ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنه – عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[4] ، أن " هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت "[5] .

قال ابن عباس– رضي الله عنه –: "وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد"[1] .

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٢٥٤٠ ، وفتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٤ / ٧٩٤ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٩٣ – ٧١٢ .

(٢) – القول المفيد على كتاب التوحيد : الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، ١ / ٣٦٢ ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ ، دار ابن الجوزي ، السعودية . (بتصرف) .

(٣) – صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ ﴾ ،ص٩٧١، رقم الحديث: ٤٩٢٠، والبداية والنهاية: ابن كثير، ١/ ١٠١– ١٠٥. والمعنى: (وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ (الإسراء: من الآية١٧)، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ (المؤمنون: الآية٣١)، وقال تعالى: ﴿ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان: من الآية٣٨)، وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ (مريم : من الآية٧٤)، وكقوله– عليه السلام –"خير القرون قرني" الحديث، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهر الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين، والله أعلم . انظر: البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير ، ١ / ١٠١).

(٤) – سورة نوح : الآية ٢٣ .

(٥) – البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير ، ١ / ١٠٥ .

(١) – المرجع السابق : ١ / ١٠٥ .

وقال الإمام الطبري في تفسيره :

'' كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم تُـبّاع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون ، دبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم ''[1] .

فالشيطان يدعو إلى الغلو في الصالحين وإلى عبادة القبور ، ويلقي في قلوب الناس أن البناء والعكوف عليها من محبة أهلها من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والإقسام على الله بها، وشأن الله أعظم من أن يُسأل بأحد من خلقه، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم إلى دعاء صاحب القبر وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثنـاً تعلق عليه الستور، ويطاف به، ويستلم ويقبل، ويذبح عنده، ثم ينقلهم من ذلك إلى مرتبة رابعة : وهي دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدًا، ثم ينقلهم إلى أنّ من نهى عن ذلك فقد تنقصَ أهل هذه الرتب العالية من الأنبياء والصالحين ، وعند ذلك يغضبون[2] .

ولذلك جاء في القرآن الكريم والسنة النبويـة تحذير شديد صريح من الغلو في الدين والإفراط في تعظيم الصالحين سواء بالقول أو الفعل أو الاعتقاد ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾[3] ، فحذر الله سبحانـه من الغلو : وهو مجاوزة الحد ، والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع في تعظيم عبد من العباد ورفع منـزلته ، كما صنع اليهود في عزير والنصارى في المسيح ، وغيرهم من المشركين في رجال صالحين [1] ، وروي عن النبي – ﷺ – أنـه قال : '' إياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين''[2]،

---

(١) – جامع البيان عن تأويل آي القرآن : الإمام ابن جرير الطبري ، ٢٣ / ٣٠٣ .

(٢) – فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : عبد الرحمن بم حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق : عبد القادر الأرنـؤوط ، ص٢٤٦ ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، بيـروت ، والحكمة في الـدعوة إلى الله : سـعيد بـن علـى القحطاني ، ص٣٧٩ ، ٣٨٠ .

(٣) – سورة النساء : من الآيـة ١٧١ .

(١) – انظر للتفصيل : تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثيـر ، ١ / ٨٠٩ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص١٧٩ .

(٢) – سنن ابن ماجـة : كتاب مناسك ، باب : قدر حصي الرمي ، ص٣٢٨ ، رقم الحديث : ٣٠٢٩ .

وروي عنه – ﷺ – أيضاً أنـــه قال : ''يا أيها الناس عليكم بتقواكم ولا يستهوينَّكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منـــزلتي التي أنزلني الله ﷻ ''(١) ، وروي عنه – ﷺ – أيضاً أنـــه قال محذراً عن الإطـــراء : ''لا تُطْرُوني كما أطْرَت النصارى ابن مريم، فإنـــما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسولـــه ''(٢) .

وحذر النبي – ﷺ – تحذيراً شديداً عن اتخاذ المساجد على القبور لأنه سبب مهم لوقوع الناس في الشرك، فلما ذكرت أم حبيـــبة وأم سلمة – رضي الله عنهما – لرسول الله – ﷺ – كنيسة في الحبشة فيها تصاوير قال: ''إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامـــة ''(٣) .

وهناك أحاديث نبوية كثيرة تحذر من الإطراء والغلو في التعظيم، إذ الغلو في تعظيم الأنبياء والصالحين كان سبباً رئيساً لوقوع الناس في الشرك، وهو ليس بدليل أو حجة على صحة الشرك وإنما دليل على بطلانه .

شبهة وإزالتها

الشبهة : يقول المشركون بأن للأنبياء والصالحين والملائكة جاهاً عظيماً ومقامات عالية عند الله ﷻ ، فهم يشفعون لنا عنده سبحانـــه كما يُـــتقرب إلى الوجهاء والوزراء لقضاء الحاجات وتحقيق المراد لكونهم وسائط عند الملوك والسلاطين .

الردّ على الشبهة وإزالتها :

يجب أن يُعلم أن من يتعلق بغير الله تعالى ويطلب الشفاعة منه أنّ : '' الملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء ؛ إما لقصور علمهم ، أو لنقص قدرتهم ؛ فيساعدهم الشفعاء في ذلك ، أو لقصور سلطانهم ؛ فيتجرَّأ عليهم الشفعاء ، فيشفعون بدون استئذان ، ولكن الله ﷻ كامل العلم والقدرة والسلطان ، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده ، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا

---

(١) – أحمد بن حنبل : مسند أنس بن مالك ، ص٨٦٥ ، رقم الحديث : ١٢٥٥١ .(قـــال شعيب : إسناده صحيح) .

(٢) – صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : قـــول الله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، ص٦٦٤ ، رقم الحديث : ٣٤٤٥ .

(٣) – صحيح البخاري : كتاب الصلاة ، باب : هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانـــها مســـاجد ، ص١٠٤ ، رقم الحديث : ٤٢٧ . (أخرجـــه مسلم : ٥٢٨)

بإذنه لكمال سلطانه وعظمته "[1] ، فقولهم من أبطل الباطل ، دل على بطلانه العقل والنقل ، ونورد فيما يلي بعضاً من الأدلة على ذلك :

أولاً : الدليل العقلي :

يستوجب من قول المشركين تشبيه الله العظيم ملك الملوك بالملوك الفقراء المحتاجين للوزراء والوجهاء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم ، فإن الوسائط بين الملوك وبين الناس على أحد الوجوه الثلاثة التالية :

(١) – إما لإخبارهم عن أحوال الناس بما لا يعرفونه.

(٢) – أو يكون المَلِكُ عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يعينونه ، فلا بد له من أنصار وأعوان لذُلِّهِ وعجزه .

(٣) – أو يكون المَلِكُ ليس مريداً لنفع رعيته والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج ، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظه ، أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه [2] .

فالملوك يقبلون شفاعة الشافع لأحد ثلاثة أمور :

(أ) – تارة لحاجتهم إليه .

(ب) – وتارة لخوفهم منه .

(ج) – وتارة لجزاء إحسانه إليهم .

أما الله ﷻ فأمره على العكس من هذا، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع البصير، وليس له ظهير ولا ولي في الذل، قال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾[2]، وكل ما في الوجود من

---

(١) – القول المفيد على كتاب التوحيد : الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، ص٣٢٩ .

(٢) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية : ١ / ١٢٦ – ١٢٨ .

(١) – سورة سبأ : الآيــة ٢٢ .

(٢) – سورة الإسراء : الآيــة ١١١ .

الأسباب فهو خالقه وربه ومليكه ، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم في الحقيقة شركاؤهم في الملك، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾[1]، قد سدت هذه الآية على المشركين جميع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك أبلغ سد وأحكمه، فإن العابد إنما يتعلّق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينتفع بها عابده، أو يكون شريكاً لمالكها، أو ظهيراً أو وزيراً أو معاوناً له، أو وجيهاً ذا حرمة وقدر يشفع عنده ، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده[2] .

ثانياً : الدليل النقلي

الشفاعة نوعان :

(أ) – شفاعة مثبتة : وهي التي تطلب من الله وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له ، لقوله تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾[3]، ولقوله ﷻ : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[4] ، ولقوله ﷻ : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[5] .

(ب) – الشفاعة المنفية : وهي ما كان فيها شرك ، وهي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، وهي الشفاعة بغير إذنه ورضاه ، ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾[1] ، ويستثنى شفاعة النبي – ﷺ – في تخفيف عذاب أبي طالب ، فعن ابن عباس ، أن رسول الله – ﷺ – قال: " أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه[2] .

ثالثاً : دليل الإجماع :

---

(١) – سورة سبأ – الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) – التفسير القيم : الإمام ابن القيم ، ص٤٠٨ .

(٣) – سورة البقرة : من الآية ٢٥٥ .

(٤) – سورة الأنبياء : من الآية ٢٨ .

(٥) – سورة طه : الآية ١٠٩ .

(١) – سورة المدثر : الآية ٤٨ .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب أهون أهل النار عذاباً ، ص١١٥ ، رقم الحديث : ٢١٢ .

يحتج على المشركين بأنه لم يشرع النبي – ﷺ – ولا أحد من الأنبياء قبله للناس أن يدعوا الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين ، كما لم يأذنوا لهم أن يطلبوا منهم الشفاعة ، ولم يفعل ذلك أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ، ولم يستحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا مجتهد يُعتمد على قوله في الدين ولا من يُعتبر قوله في مسائل الإجماع ، فالحمد لله رب العالمين(١) .

(٦) – النعم الحاصلة للإنسان وتسخير الكون له :

إن النعم الحاصلة للإنسان سواء أكانت من نعم الدنيا أو نعم الدين ؛ وهي كثيرة يستحيل على الإنسان إحصاؤها ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(٢) ، دليل عقلي صريح على صحة التوحيد وبطلان الشرك ؛ وذلك لأن المنعم هو الله وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(٣) .

فالله سبحانه هو الذي عمّ الناس وغمّرهم بوافر نعمه الظاهرة والباطنة فهو المستحق للعبادة وحده ، قال سبحانه ممتناً على عباده على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾(٤) ، أي: هو الذي سبحانه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنــزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أي في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾(١) .

---

(١) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ١ / ١١٢ .

(٢) – سورة النحل : من الآيــة ١٨ .

(٣) – سورة النحل : من الآيــة ٥٣ .

(٤) – سورة لقمان : الآيــة ٢٠ .

(١) – انظر : تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ٢٢٠٢ .

وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، أي: سخر لعباده في خلقه في سماواته وأرضه مما تتعلق به مصالحهم، وتقوم به معايشهم من الشمس والقمر والكواكب والأمطار والرياح والجبال والبحار والأنهار والحيوانات والأشجار والثمار وغير ذلك مما هو من مصالح الإنسان ، كل ذلك رحمة منه لعباده، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ ، أي: المذكور من التسخير ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، خص المتفكرين لأنه لا ينـــتفع بها إلاّ من تفكر فيها ، فإنه ينـــتقل من التفكر إلى الاستدلال بها على التوحيد[2] .

والأدلة العقلية من هذا النوع التي تبطل الشرك وتدعو إلى عبادة الله وحده كثيرة ، فمن الآيات التي جاءت على وجه التفصيل في الموضوع – مثلا – :

قول الله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[3] .

وقوله ﷻ :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

إن ذلك كله دال على أن الله وحده هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلاّ له، لأنه هو المنعم وذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل شيء فقير إليه، وذليل لديه، بما فيه معبودات المشركين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[2] .

---

(١) – سورة الجاثـــية : الآيـــة ١٣ .

(٢) – فتح القدير : الإمام محمد بن علي الشوكاني ، ٥ / ٨ .

(٣) – سورة إبراهيم : الآيـــة ٣٢ – ٣٤ .

(١) – سورة النحل : الآيـــة ١٤ – ١٨ .

(٢) – سورة الحج : الآيـــة ٦٢ .

فهل يسع العاقل إلاّ أن يخر ساجداً لله وحده الذي أسدى لعباده هذه النعم ؟ ! .

ثالثاً : الردّ على شبهة منكري البعث:

أنكر الطبيعيون والماديون وقوع البعث بعد الموت، وقد اتفقت الأديان السماوية على وقوعه ، ودعا جميع الرسل إلى الإيمان به .

حجة شبهة المنكرين :

استبعاد إعادة الأجسام بعد موها إذا تمزقت وبليت العظام وتفتت وتفرقت واختلطت بأجزاء الأرض ، وتحللت أخيراً إلى ذرات ترابية ، وربما أكلتها السباع فصارت غذاءً لها واختلطت بأجزائها ، فكيف يمكن إعادها إلى حالتها التي كانت عليها من قبل ؟ ![1] .

فهذا أمر غريب على عقول المنكرين ، وعجيب في الوقت نفسه عندهم ، والحديث عنه خرافة ، والمتحدث به إما مفتر على الله الكذب وإما مجنون سلب عقله ، فخيل له جنونه ذلك الحديث وأجراه على لسانه[2] .

وقد عبر شاعرهم عن ذلك الإنكار ، مبيناً أن الحديث عنه خرافة بقوله :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو

أيوعدني ابن كبشه أن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام[1]

ويقول الحق جلّ شأنه مخبراً عن ذلك الجحود العنيد والإنكار الشديد ، واهام الداعية بالجنون، أو الكذب والافتراء على الله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴾[2] .

الردّ على الشبهة

اعتنى القرآن الكريم بقضية البعث عنايته بقضية الألوهية ، فكما تعددت الآيات الدالة على إثبات التوحيد والتحذير من الشرك ، فقد كثرت الآيات التي تقرر البعث ، وتؤكد وقوعه ، وقد

---

(١) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٣١١ – ٣١٣ ، ومنهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان: د . على بن محمد ناصر الفقهيي ، ص٢٩٠ ، ٢٩١ ، والحكمة في الدعوة إلى الله : سعد بن علي القحطاني ، ص٣٩١ .

(٢) – منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان : د . على بن محمد ناصر الفقهيي ، ص٢٩٠.

(١) – تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ، ٦ / ١٢٦ ، ط١، ١٩٧٠م ، بيروت .

(٢) – سورة سبأ : الآيـــة ٧ ، ٨ .

سلك القرآن الكريم في معالجة هذه القضية والردّ على الشبهة منهجاً قويماً يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان بما تشاهد وتحس ، ويقع منها تحت تأثير السمع والبصر وبين ما تقرره العقول السليمة ولا يتنافى مع الفطر المستقيمة ، وتلك طريقة تميز بها القرآن الكريم مما لا نجده في كتب الحكمة النظرية[1] ، ونورد فيما يلي بعض الأدلة العقلية التي تبطل شبهة الطبيعيين والماديين وتقرر وقوع البعث ، وذلك من خلال العناوين التالية :

(١) – تقتضيه عدالة الله ويرشد إليه العقل ويحتمه المنطق .

(٢) – القادر على إيجاد الخلق أول مرة قادر على إعادته .

(٣) – الخالق لما هو أعظم قادر على خلق ما هو أهون منه .

(٤) – إخراج النار من الشجر الأخضر دليل على البعث .

(٥) – اختلاف الناس في الحق يتطلب البعث .

(٦) – اليقظة بعد النوم تدل على البعث .

(١) – تقتضيه عدالة الله ويرشد إليه العقل ويحتمه المنطق:

خلق الله الإنسان لطاعته وعبادته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] ، وأرسل الرسل وأنـزل الكتب لتمكين الإنسان من تحقيق هدف تخليقه وغاية حياته ، ورتّب على ذلك الثواب والجزاء ؛ ليثيب العبد المطيع المحسن على طاعته وإحسانه ، ويجازي العبد المسيء الباغي على إساءته وتجاوزاته ، فلم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم هملاً ، قال ﷻ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1] ، ففي الآية توبيخ للمشركين على إنكارهم البعث وظنهم بأنهم خلقوا عبثاً ؛ وهو ما خلا عن الفائدة مطلقاً ، كما فيها إشارة واضحة إلى أن الحكمة تقتضي تكليفهم في الحياة الدنيا وبعثهم للجزاء[2] .

وكان من مقتضى حكم التكليف والبعث والجزاء أن يترك للإنسان حرية الاختيار بين الخير والشر ، ومن ثم فقد جعل الله ﷻ في الطبيعة البشرية الاستعداد لقبول الخير والشر ، كما

---

(١) – منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان : د . على بن محمد ناصر الفقهيي ، ص٢٩٠ ، و مناهج الجدل في القرآن الكريم: د . زاهر عواض الألمعي ، ص٣١٤ .

(٢) – سورة الذاريات : الآيــة ٥٦ .

(١) – سورة المؤمنون : الآيــة ١١٥ .

(٢) – روح المعاني : الإمام محمود الآلوسي أبو الفضل ، ١٣ / ٣٠٢ .

قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1] ، وبيّن – جلّ شأنه – الخير وسبله والشر وطرقه عن طريق الرسل والكتب السماوية تاركاً لهم حرية الاختيار بينهما .

و" قد يطغى جانب الشر أحياناً على جانب الخير ، استجابة لداعي الشهوة ، الموجودة في الطبيعة البشرية ، فهي غالباً ما تجمح بصاحبها إلى تعدي الحدود التي يتحتم على المرء ألا يتجاوزها ، فيوقع الظلم على الآخرين .

وواقع الحال يبين لنا أن كثيراً ممن ارتكبوا تلك الجرائم في حق غيرهم ، وأوقعوا الظلم بالآخرين قد غادروا هذه الحياة الدنيا ، و لم ينل المظلوم حقه منهم ، مع العلم بأن كل ذلك واقع بعلم الله القوي القادر السميع البصير ، الذي يمهل ولا يهمل ، والذي حرّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً .

ولما كان الظالم والمظلوم قد غادرا هذه الحياة الدنيا ، و لم يأخذ المظلوم حقه من ظالمه ، ولما كانت عدالة الله تعالى تقتضي القصاص وأن يأخذ المظلوم حقه من الظالم ، كان لا بد من حياة أخرى ، غير هذه الحياة ، يتم فيها تقاضي الحقوق بين العباد ويقتص فيها للمظلوم من الظالم ، هذه الحياة هي التي تكون في الآخرة ، حين يبعث الله الناس من قبورهم، ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾[2] ولذا كان من المحتم على المرء الاعتقاد بوقوعه وتحققه، وهذا أمر يرشد إليه العقل، ويحتمه المنطق، وتدل عليه النصوص الدينية "[1]، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[3].

إن العقل السليم لا يقبل التساوي بين الخبيث والطيب ، والمؤمن والكافر ، والمحسن والمسيء ، والظالم والمظلوم فكيف يتساوى ذلك عند الله وهو أعدل العادلين وأقدر القادرين ،

---

(١) – سورة الشمس : الآية ٧ ، ٨ .

(٢) – سورة المعارج : الآية ٤٣ .

(١) – منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان : د . على بن محمد ناصر الفقهيي ، ص٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) – سورة يونس : من الآية ٤ .

(٣) – سورة القيامة : الآية ٣٦ – ٤٠ .

الذي حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرّماً ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[(١)]، وقال سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[(٢)].

(٢) – القادر على إيجاد الخلق أول مرة قادر على إعادته:

إن النشأة الأولى للخلق ووجوده تنفي امتناع المعاد ؛ إذ الممتنع لا يمكن أن يكون موجوداً[(٣)] ، والذي أوجده أول مرة ، وهو الله ﷻ ، إذا أراد إعادته بعد إهلاكه فما الذي يمنعه من ذلك؟ أو لماذا يشق عليه ذلك ؟ إن إعادة الخلق أيسر وأهون على من خلقه أول مرة ثم أهلكه، وقد ردّ القرآن الكريم على منكري البعث بهذا الدليل حيث قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[(٤)]، أي: يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت للبعث وهو ؛ أي: البعث، هين عليه[(٥)]، وأسهل من المبدأ.

ويجدر هنا التوضيح أن الأسهلية هنا على طريق التمثيل بالنسبة لما يفعله البشر مما يقدرون عليه، فإن إعادة شيء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداءً، والمراد التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث، وإلاّ فكل الممكنات بالنسبة إلى قدرته تعالى ﷻ سواء[(١)]، فلا شيء عليه بعزيز .

ويقول تعالى في موضع آخر في كتابه العزيز : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[(٢)] ، ففي الآيـــة إنكار توبيخي شديد على المشركين على تعجبهم واستبعادهم إعادتهم بعد موتهم ، واستدلال عقلي صريح بالبداءة على الإعادة ، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان و لم يك شيئا ، أفلا يمكنه إعادته وقد صار شيئا بخلقه سبحانه ؟ ![(٣)]، ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[(٤)] ، أي : إن كنتم

---

(١) – سورة الجاثـــية : الآيـــة٢١ .

(٢) – سورة القلم : الآيـــة ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٣٠ .

(٤) – سورة الروم : من الآيـــة ٢٧ .

(٥) – معالم التنـــزيل : الإمام البغوي ، ١ / ٢٦٧ .

(١) – روح المعاني : الإمام الآلوسي ، ١٥ / ٣٥٦ .

(٢) – سورة مريم : الآيـــة ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٧٨٣ ، وفتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٣ / ٤٩٠ .

أيها المشركون والملحدون في ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانياً[٢] ، ويقول الإمام الرازي في تفسيره: " ومنهم – أي المنكرون – من ذكر شبهة وإن كانت في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين ، أحدهما : أنه بعد العدم لم يـــبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ؟ وثانيهما: أنّ من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع ؟ بل لو أكل إنسان إنساناً آخر فكيف الإعادة ؟ وقد ردّ على الشبهة الأولى بقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[٣] ، يعني كما خلق الإنسان و لم يكن شيئاً مذكوراً ، كذلك يعيده وإن لم يـــبق شيئاً مذكورا .

أما الشبهة الثانية فقد أبطلها بقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[٤] ، ثم ذكر الأجزاء الأصلية في الإنسان ، والأجزاء الفضلية ، والله عالم بكل ذلك فهو يعيد كل جزء إلى صاحبه ثم يعيد فيه الحياة "[٥] ، وهذا مثل قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[١] ، أي: ألم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قـــال ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾[٣] ، أي: من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ ! ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ ، أي: استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي

---

(١) – سورة الإسراء : من الآيـــة ٥١ .

(٢) – مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ٢٣ / ٧ ، (بتصرف يسير) .

(٣) – سورة يـــس : من الآيـــة ٧٩ .

(٤) – سورة يـــس : من الآيـــة ٧٩ .

(٥) – مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ٢٦ / ١٠٩ .

(١) – سورة يـــس : الآيـــة ٧٧ – ٧٩ .

(٢) – سورة المرسلات : الآيـــة ٢٠ – ٢٢ .

(٣) – سورة الإنسان : من الآيـــة ٢ .

خلقت السموات والأرض للأجسام والعظام الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ، ولـــهذا قال ﷻ: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ، أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت[1] .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى : ﴿ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ ، قياس حذفت إحدى مقدمتيه لظهورها ، والأخرى سالبة كلية قُرِن معها دليلها ، وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي ، أي : لا أحد يحي العظام وهي رميم ، فإن كونها رميما يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليـــبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة ، ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ، ولنحو ذلك من الشبهات .

والتقدير : هذه العظام رميم ، ولا أحد يحي العظام وهي رميم ، فلا أحد يحيـــيها ، ولكن هذه السالبة كاذبة ، ومضمونها امتناع الإحياء ، فبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقد أنشأها من التراب ، ثم قال : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ليـــبين علمه بما تفرق من الأجزاء أو استحال[1] .

هذا ، وقد جاءت في السنة أيضاً أدلة كثيرة من هذا النوع ، فمنها – مثلاً – : قول النبي – ﷺ – في الحديث القدسي : " يقول الله تعالى : كذبني ابن آدم و لم يكن له ذلك ، وشتمني و لم يكن له ذلك ، فأما تكذيـــبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد ، لم ألد و لم أولد ، و لم يكن لي كفؤاً أحد "[2] ، وقولـــه – عليه الصلاة والسلام – في الحديث القدسي أيضاً : " قال الله تعالى : أنّى تُعجزُني ابن آدم وقد خلقتك من مثل هذه ، فإذا بلغت نفسك هذه وأشار إلى حَلْقه قلتَ أتصدّق وأنّى أوانُ الصدقـــة "[3] .

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٢٣٧٩ ، ٢٣٨٠ .

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٣٣ .

(٢) – صحيح البخاري : كتاب التفسير ، باب : قولـــه الله الصمد ، ص٩٨٩ ، رقم الحديث : ٤٩٧٤ .

(٣) – سنن ابن ماجـــه : كتاب الوصايا ، باب : النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عنـــد المـــوت ، ص٢٩٥ ، رقـــم الحديث : ٢٧٠٧ .

فالأدلة القطعية التي تدحض شبهة التكذيب بالبعث وتدل على أن من خلق الخلائق وابتدع خلقهم من العدم قادر على إعادة خلقهم مرة أخرى كثيرة جداً ، والتي سبق ذكرها هنا لم تكن إلاّ أمثلة لتوضيح الموضوع وبيانه .

(٣) – الخالق لما هو أعظم قادر على خلق ما هو أهون منه :

إنّ الله الذي خلق الأكوان مثل السموات وما فيها من الكواكب ، والأرض والبحار وما فيها من العجائب والغرائب لأقدر على بعث الناس بعد الموت ؛ " فإنه من المعلوم ببداهة العقول أنّ خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم ، والقدرة عليه أبلغ ، وأنّ هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك "[١] ، قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[٢] ، وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٣] ، وقال ﷻ : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾[١] ، وقال جلّ شأنه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢] .

إنّ جميع هذه الآيات وما في الآيات من المعاني والدلالات لأكبر برهان على قدرة الله المطلقة التي لا تقيد بقيود ولا تنتهي عند حدود ، وإنّ خلق تلك الأكوان لأعظم من إعادة خلق الإنسان ، فما وجه التكذيب بالبعث واستبعاده وإنكاره ؟ ! .

(٤) – إخراج النار من الشجر الأخضر دليل على البعث:

أي: إن الله تعالى يخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر ، الذي هو بارد وفي غاية الرطوبة ، فذلك أبلغ في المنافاة لتضادهما وشدة تخالفهما ، فمن كان قادراً على أن يخلق من

---

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٣٢ .

(٢) – سورة غافر : من الآية ٥٧ .

(٣) – سورة يس : الآية ٨١ .

(١) – سورة الإسراء : من الآية ٩٨ ، ٩٩ .

(٢) – سورة الأحقاف : الآية ٣٣ .

الشجر الأخضر ناراً أولى بالقدرة على أن يخرج إنساناً حياً من التراب كما خلقه أول مرة[1] ، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[2] ، يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآيـــة : '' ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به حياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه ، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب ، وأنتم تحضرون حيث منه توقدون وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السموات والأرض ''[3] .

(٥) – اختلاف الناس في الحق يتطلب البعث:

إن اختلاف الناس في الدنيا لا يرتفع ''واختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه'' فوجب أن يكون هنا معاد ينحسم فيه النـــزاع ولا يكون ذلك إلا بين يدي الحي القيوم، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾[1] .

وقد أورد السيوطي في الإتقان قول ابن السيد في الآيتين السابقتين '' وتقريرهما أن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه ، والحق في نفسه واحد فلما ثبت أن ها هنا حقيقة موجودة لا محالة وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف إذ كان الاختلاف مركوزاً في فطرنا وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة ونقلها إلى صورة غيرها صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة فيها يرتفع الخلاف والعناد ، وهذه هي الحالة التي وعد الله

(١) – درء تعارض العقل والنقل: الإمام ابن تيمية، ٣٤/١ ، وتيسير الكريم الرحمن: الشـــيخ عبـــد الـــرحمن الســـعدي ، ص٦٤٥ .

(٢) – سورة يـــس : الآيـــة ٨٠ .

(٣) – مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ٢٦ / ١١٠ .

(١) – سورة النحل : الآيـــة ٣٨ ، ٣٩ .

بالمصير إليها فقال : ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ ﴾[1] ، أي : حقد ، فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث ينكره المنكرون ".

فكل خصومة لا بد لها من منتهى في موقف ينقطع فيه الجدال بالباطل ويذهب فيه عنفوان المكابرة والعناد[2] .

(٦) – اليقظة بعد النوم تدل على البعث:

إن اليقظة بعد النوم دليل على البعث ؛ وذلك لأن النوم شبيه بالموت واليقظة بعد النوم شبيه بالحياة بعد الموت ، قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] ، أي يتوفى الله تعالى الأنفس عند الموت وعند النوم ، والنفس التي يتوفاها عند الموت يمسكها ، أما التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة ، وتستمر هذه الحالة إلى أجل مسمى ؛ وذلك الأجل هو وقت الموت[4].

وللإمام الرازي كلام جميل في الموضوع قاله ضمن تفسير هذه الآيـــة، ومجمل ما قاله هو: أن النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء وهو الحياة، فنقول إنه في وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه، ولا ينقطع ضوءه عن باطن البدن، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلاّ أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه ، وذلك اليقظة.

ثانيها: أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم.

---

(١) – سورة الأعراف : من الآيـــة ٤٣ .

(٢) – الإتقـــان في علوم الـــقرآن : الإمام السيوطي ، ٤ / ٥٤ ، ومناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهـــر عـــواض الألمعي ، ص٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) – سورة الزمر : الآيـــة ٤٢ .

(٤) – مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ١٣ / ٢٦٧ ، وفتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٦ / ٢٩٠ .

وثالثها: أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية، وهو الموت، فثبت أن الموت والنوم يشتركان في كون كل واحد منهما توفياً للنفس، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة في صفات معينة[1].

فالقادر العليم الحكيم الذي يصدر منه هذا التدبير العجيب ألا يقدر على إعادة الخلق ونشوره؟ ! ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾[2] .

المقصد الثالث : منهج الردّ الحسي :

(أ) – التعريف بهذا المنهج ومواطن استخدامه .

(ب) – أمثلة على الردود بهذا المنهج .

(أ) – التعريف بهذا المنهج ومواطن استخدامه:

الحس: حسستُ الشيء، أحُسُّه حَسّاً وحِسّاً وحَسيساً بمعنى أحْسَسْــتُه بمعنى: علمتُه وعرفــتُه وشعرت به، تقولُ العربُ : إنّ العامرِيَّ ليَحِسُّ للسَّعدِيِّ أي يَرِقُّ له وذلك لِما بينهُما من الرَّحِم .

– ويقال: هل أحسستَ صاحبك؟ أي: هل رأيته وهل أحسستَ الخبر؟ أي: هل عرفتَه وعلمتَه؟، وأحسَسْتُ الشيء : وجدت حِسَّهُ أي : حركته أو صوته ، وتحسستُ من الشيء أي: تخبرتُ خبره ، وبكل ما ذكر فُسِّر قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾[1] .

– والإحساس : العلم بالحواس ، وهي مشاعر الإنسان ومداركه كالعين والأذن والأنف واللسان واليد ، وحواسُّ الإنسان المشاعر الخمس ، وهي الطعم والشم والبصر والسمع واللمس، والحواس جمع حاسَّة[2] .

---

(١) – مفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازي ، ١٣ / ٢٦٧ .

(٢) – سورة الأنعام : الآيــة ٦٠ – ٦٢ .

(١) – سورة يوسف : من الآيــة ٨٧ .

فالمقصود بمنهج الردّ الحسي هنا – في هذه الدراسة – هو :

(أ) – طرق الردّ على شبهات المدعو بالأدلة التي ترتكز على الحواس وتعتمد على المشاهدات والتجارب .

أو – بعبارة أخرى – هو :

(ب) – استعمال الأساليب والأدلة التي يغلب عليها مخاطبة الحواس لإزالة الشك والريب والشبهة عن نفس المدعو.

إن هناك كثيراً من الناس من ولعوا بالمحسوسات حتى أصبحوا لا ينفع معهم إلاّ ما يحسونه ويلمسونه ، ولا تزول شبهتهم وشكوكهم إلاّ بأدلة علمية محسوسة وحقائق ثابتة ملموسة ، ومن ثم كان لزاماً على الداعية أن ينهج هذا المنهج الحسي في الردّ على شبهاتهم ، ويجدر هنا ذكر بعض الفئات من الناس الذين ينفع معهم هذا المنهج أكثر من غيره :

(١) – يُستخدم هذا المنهج عند مخاطبة العلماء والمتخصصين في العلوم التطبيقية التجريبية لإزالة الشبهات عن نفوسهم مستدلاً في ذلك بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، مع ملاحظة ضرورة عدم التوسع في استخدام النصوص الشرعية لتأييد النظريات العلمية والفرضيات ، والاكتفاء بالاستشهاد بها على الحقائق العلمية الثابتة التي تفند شبهاتهم وتزيل توهماتهم .

(٢) – يُستخدم في الردّ على شبهات المتجاهلين للسنن الكونية ، والمنكرين للبدهيات العقلية ، فإن المعاندين لا تنفع معهم إلاّ الأدلة والحقائق المعتمدة على الملموسات والمحسوسات، ولذلك ما بُعث نبي إلاّ وقد أعطي معجزات مادية محسوسة(١) .

ولا يُقتصر استخدام هذا المنهج مع المعاندين فحسب وإنما يستخدمه الداعية مع غيرهم أيضاً من المدعوين من يرى أنه ينفع معهم ويزول به شبهاتهم وتتلاشى توهماتهم وظنونهم .

وقد استخدم القرآن الكريم هذا المنهج في الدعوة إلى الحق وتفنيد الشبهات حيث ذكر أدلة حسية كثيرة ، كما سلكه النبي – ﷺ – مع شرائح كثيرة من مجتمع عصر النبوة ، وكان لهذا المنهج صور عديدة ، ونتجت عنه أثار ونتائج إيجابية كثيرة .

---

(١) – مختار الصحاح : محمد الرازي ، ص١٦٧ ، ولسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ٦ / ٤٩ ، والقاموس المحيط : الفيروز آبادي ، ص ٦٩٣ ، وتاج العروس : محمد مرتضى الحسين الزبيدي ، ١ / ٣٨٩٥ ، ٣٨٩٦ ، ٦٦٩١ ، ط: بدون، دار الهجرة .

(١) – المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، ص٢٢٠ ، (بتصرف) .

وللتعرف على ذلك سيسعى الباحث – فيما يلي – أن يذكر ما يتيسر له – بفضل الله ﷻ – أمثلة على الردود بالأدلة الحسية من الكتاب والسنة .

(ب) – **أمثلة على الردود بهذا المنهج** :

أولاً : الردّ على شبهة الإلحاد .

ثانياً : الردّ على شبهة إنكار البعث .

ثالثاً : الردّ على الشبهات المثارة حول نبوة محمد – ﷺ – ورسالته .

أولاً : **الردّ على شبهة الإلحاد**

إن الأدلة الحسية الملموسة والمشاهدة التي تفند شبهة الإلحاد وتدحض عقيدة الملحدين وتثبت وجود الله ﷻ وتدل على ربوبيته وتقرر أنه تعالى هو الخالق لكل شيء المستحق وحده للعبادة كثيرة جداً ومتنوعة ، سأذكر فيما يلي – بعون الله سبحانه وتعالى – بعضاً منها كأمثلة لتوضيح الموضوع :

(١) – **أدعية العباد المقبولة المتعلقة بأمور الدنيا** :

إن إجابة الله تعالى لدعوات العباد في جميع الأوقات براهين قاطعة على وجوده وربوبيته سبحانه وتعالى ، وردود صريحة وقوية على شبهة الحاد الملحدين وشرك المشركين ، " فلا يحصي الخلق ما يعطيه الله السائلين ، وما يجيب به أدعية الداعين من برّ وفاجر ، ومسلم وكافر ، فتحصل المطالب الكثيرة ، ولا يعرفون لها شيئاً من الأسباب سوى الدعاء والطمع في فضل الله ، والرجاء لرحمته ، وهذا برهان مشاهد محسوس لا ينكره إلاّ مباهت مكابر "[1] .

عن أنس – رضي الله عنه – أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة ، من باب كان نحو دار القضاء ، ورسول الله – ﷺ – قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله – ﷺ – قائما ، ثم قال : يا رسول الله، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا . فرفع رسول الله – ﷺ – يديه ، ثم قال: "اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا ". قال أنس: ولا والله ، ما نرى في السماء من سحاب، ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، فلا والله، ما رأينا الشمس ستا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة – يعني الثانية – ورسول الله – ﷺ – قائم يخطب، فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله – ﷺ –، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا. قال: فرفع

---

(١) – الرياض الناضرة : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٥٣ .

رسول الله – ﷺ – يديه ، ثم قال: '' اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظِّراب[1] ، وبطون الأودية ومنابت الشجر ''. قال : فأقلعت ، وخرجنا نمشي في الشمس ''[2] .

إن هذا الحديث برهان قاطع على وجود الله وقدرته المطلقة ، ودليل صريح على أنه سبحانه سميع مجيب ، وردّ قوي على الحاد الملحد وشرك المشرك ، وقد حصل هذا للمسلمين كثيراً ، '' فكم خرج المؤمنون يطلبون – بقلوب وَجِلَةٍ تائبة – من ربهم أن يسقيهم الغيث ، فكانت الإجابة على الفور في كثير من الأحيان ، فيأتي الغيث إلى المدينة أو القرية التي خرجت تدعو ربها، والقرى أو المدن التي بجوارها لا يأتيها شيء ، وعلى هذا يشهد مئات الملايين من المسلمين، ومن رأى هذه الإجابات من المنصفين في مشارق الأرض ومغاربها ''[3] .

فمن الذي سمع دعاء المستغيثين فأجابهم فأنشأ السّحاب وأنـــزل المطر ؟ ! هل هو وثن لا يقدر على فعل شيء ؟ ! أم طبيعة صمّاء لا تملك إرادة ولا تدبيراً ، أم أن العدم الذي أنشأ وصمم ، وأوجد وكوِّن ، وقدّر وأتقن ، وسمع فأجاب ، وهو العدم الذي لا وجود له ؟ ! ! والحقيقة أن ذلك كله شاهد يتحدث إلى العقول البشرية أن لها ربّاً حكيماً قادراً سميعاً بصيراً مجيباً[1] .

ولينظر المرء إلى أحوال المضطرين الواقعين في المهالك والمشرفين على الأخطار والبائسين من فقرهم المفظع أو مرضهم الموجع، وكيف تضطرهم الضرورات وتلجئهم الحاجات إلى ربهم وإلههم داعين ومفتقرين، وسائلين له مستطعمين فيجيب دعواتهم، ويكشف كرباتهم، ويرفع ضروراتهم، أليس في هذا أكبر برهان على وجوده ووحدانيته، وكمال قدرته، وسعة علمه،

---

(١) – الآكام : جمع إِكمة بكسر الهمزة ، ويقال : أَكَم بفتح الهمزة والكاف ، وأُكُم بضمهما ، وهي دون الجبل وأعلى من الرابية ، وقيل دون الرابية ، وأما الظِراب فبكسر الظاء المعجمة ، واحدها : ظَرِب بفتح الظاء وكسر الراء ، وهي الـــروابي الصغار ، انظر: شرح النووي على مسلم : ١٩٣/٦ .

(٢) – صحيح البخاري : كتاب الاستسقاء ، باب : الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلـــة ، ص٢٠١ ، ٢٠١ ، رقم الحديث : ١٠١٤ .

(٣) – الإيمان : عبد المجيد بن عزيز الزنداني ، ومجموعة من العلماء ، ص٤٠ ، بدون تاريخ ، مؤسسة الكتـــب الثقافيـــة ، بيروت . والحكمة في الدعوة إلى الله : سعيد القحطاني، ص٣٥٧ .

(١) – كتاب التوحيد : عبد المجيد بن عزيز الزنداني ، ١ / ٤٣ ، ١٤٠٨هـــ ، مؤسســـة الكتـــب الثقافيـــة ، بـــيروت . والحكمة في الدعوة إلى الله : سعيد القحطاني، ص٣٥٨ .

وشمول رحمته، وعظيم عطفه، ودقيق لطفه؟![1]، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾[2] .

(٢) – خوارق الآيات والمعجزات :

إن ما يجريه الله على أيدي أنبيائه من خوارق الآيات والمعجزات براهين محسوسة على وجود الله ووحدانيته وربوبيته وقدرته ، وأدلة حسية تفند شبهة الإلحاد والشرك ، وهي مما يكرم الله به أنبياءه في الدنيا وينصرهم ، ويجعل لهم العواقب الحميدة ، ويخذل أعداءهم ويرد على شبهاتهم ، وهي قد تواترت تواتراً لا يتواتر شيء مثلها ، وقد نقلتها القرون والأجيال وصارت أعظم من برهان الشمس والقمر ، فهي كلها أدلة حسية ؛ يشاهدها الناس ويسمعون بها ، تدل على كمال قدرة مرسلها وعظمة سلطانه وسعة علمه وحكمته ، وما ينكرها إلاّ كل متكبر وجبار[3].

ومن أمثلة تلك الآيات القاطعة :

(أ) – من آيات نبي الله موسى – عليه السلام – :

– ضربه البحر بعصاه: حين سار موسى مع قومه المؤمنين نحو البحر بأمر ربه، علم بذلك فرعون، فأتبعهم بجنوده ، فلما وصل موسى وقومه إلى البحر توقفوا لا يدرون ماذا يصنعون، واقترب منهم فرعون وجنوده ، فلما تراءى الجمعان، وظن أصحاب موسى أنهم قد أُدركوا، أوحى الله إلى نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانفلق اثني عشر طريقاً يابساً، والماء بينهما كالجبال، قال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] .

(ب) – ومن آيات عيسى – عليه السلام – :

---

(١) – الرياض الناضرة : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٥١ ، (بتصرف يسير).

(٢) – سورة النمل : الآيــة ٦٢ .

(٣) – الرياض الناضرة : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٥٤ ، (بتصرف يسير).

(١) – سورة الشعراء : الآيــة ٦٠ – ٦٣ .

– إحياء الموتى : كان نبي الله عيسى – عليه الصلاة والسلام – يحي الموتى ويخرجهم من قبورهم بإذن الله تعالى ، قال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1] ، ويقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾[2] .

(ج) – ومن آيات نبينا محمد – ﷺ – :

– انشقاق القمر : انفلق القمر بعضه عن بعض فلقتين ، معجزة للنبي – ﷺ – وكان ذلك بمكة قبل هجرتـــه – ﷺ – إلى المدينة بنحو خمس سنين ، وقد رأى هذا الانشقاق كثيـــر من الناس[3] ، قال الله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[4] ، وقد رويت في هذه المعجزة أحاديث كثيرة ، منها ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : سأل أهل مكة النبي – ﷺ – آيـــة ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فقال: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[5] .

إن هذه الآيات أدلة حسية قاطعة الدلالة على وجود الله سبحانه وتعالى .

(٣) – الكتب السماوية والشرائع الربانية :

إن الكتب السماوية والشرائع الربانية التي فيها صلاح الخلق حيث يستقيم بها دينهم وتصلح دنياهم وأخراهم ، والتي ختمت بالقرآن العظيم المنـــزّل على محمد – ﷺ – ؛ خاتم الأنبياء والمرسلين ، والذي كَمُل بـــه الدين وتمت النعم ، لبرهان قاطع محسوس على وجود مرسلها وعظيم قدرتـــه وتوحيد ذاتـــه وكمال علمه وحكمته ، ففي القرآن الكريم ، الذي قد تكفل الله سبحانه بحفظه ، ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] ، من البراهين والآيات ما لا يعبر عنه المعبرون ، ولا يقدر أن يصفه الواصفون ، وآياته قائمة في جميع الأوقات متحدية للخلق كلهم على اختلاف أصنافهم ، وقد تبين عجز المنكرين وانكشف غي الملحدين ، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى

---

(١) – سورة آل عمران : من الآيـــة ٤٩ .

(٢) – سورة المائدة : من الآيـــة ١١٠ .

(٣) – التفسير الوسيط : الشيخ محمد سيد طنطاوي ، ١ / ٤٠١٩ .

(٤) – سورة القمر : الآيـــة ١ ، ٢ .

(٥) – صحيح البخاري : كتاب المناقب ، باب : سؤال المشركين أن يريهم النبي – ﷺ – آيـــة ، فأراهم انشقاق القمر ، ص٦٩٥ ، رقم الحديث : ٣٦٣٧ ، مسند أحمد بن حنبل : أنس بن مالك ، ص٨٧٤ ، رقم الحديث : ١٢٧١٨ .

(١) – سورة يوسف : من الآيـــة ١٢ .

ﭐلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[(١)] ، ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[(٢)] .

فمن نظر إلى ما احتوى عليه القرآن من الأخبار الصادقة والأحكام العادلة والشرائع المحكمة والصلاح العام وجلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار والخير العظيم ، اضطر إلى الاعتراف بأنه تنـــزيل من حكيم حميد ورب كريم .

وكذلك من نظر إلى ما جاء به الرسول – ﷺ – من الشرع الكامل والدين القويم والصراط المستقيم في كل شؤونه ، اضطره بعض ذلك ، فكيف بكله ؟ إلى الاعتراف بوحدانية الله ، وأن الذي شرعه هو الرب العظيم الحكيم في شرعه ودينه ، كما هو حكيم في خلقه وتقديره[(٣)] .

ثانياً : الردّ على شبهة إنكار البعث

من الأدلة الحسية الملموسة أو المشاهدة التي تفند شبهة استبعاد وقوع البعث ، وتردّ على الطبيعيين والماديين تكذيبهم وإنكارهم به ، وتـــثبت وقوعه ، ما يلي :

(١) – إحياء الله بعض الناس بعد أن أماتهم في الحياة الدنيا :

قد حصل مع بعض الناس أن الله سبحانه أماتهم ثم أحياهم، وهذا من أعظم البراهين الدالة على وقوع البعث، ومن أقوى الردود على المنكرين والمكذبين به ، ومن أمثلة هذه الواقعة:

(أ):– قصة القوم؛ قيل بأنهم كانوا أهل قرية يقال لها ''داور دان''، وذكر غير واحد من السلف بأنهم كانوا في زمان بني إسرائيل، الذين خرجوا من بلدهم فراراً من الطاعون بحثاً عن أرض ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع؛ قيل بأنهم نـــزلوا وادياً أفيح، أماتهم الله، ثم بعدما مضى عليهم الدهر، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، مرّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل ، يقال له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه على ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمعت عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً، فكان ذلك وهو يشاهده، ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره فقاموا أحياءً ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدهم الطويلة وهم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت. فكان في إحيائهم

---

(١) – سورة فصلت : الآيـــة ٥٣ .

(٢) – سورة النحل : من الآيـــة ٨٩ .

(٣) – الرياض الناضرة : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٥٤ ، ٢٥٥ ، (بتصرف) .

عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة[1]، يقول الله ﷻ عن هذه القصة: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[2].

(ب) :- سؤال إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – عن كيفية إحياء الموتى واستجابة الله له برهان قاطع على المعاد ، وردّ صريح على من استبعده وأنكره ، جاءت في القرآن الكريم حكاية هذه الواقعة ، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنۡهُنَّ جُزۡءًا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيًاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم – عليه السلام – هذا أسباباً منها : أنه لما قال لنمرود ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾[4] ، أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة ، فقال : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ ، فاستجاب الله تعالى له وقال : ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً ، فذكروا أنـــه عمد إلى أربعة من الطير ، فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ، ثم جزأهن أجزاء ، وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، قيل : أربعة أجبل ، وقيل : سبعة ، قال ابن عباس : وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله ﷻ أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله ﷻ ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر ، يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم – عليه السلام – فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ، ولهذا قال : ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٤١٥ .

(٢) – سورة البقرة : الآيـــة ٢٤٣ .

(٣) – سورة البقرة : الآيـــة ٢٦٠ .

(٤) – سورة البقرة : من الآيـــة ٢٥٨ .

حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع منه شيء ، وما شاء كان بلا ممانع، لأنه (العظيم) القاهر لكل شيء ، حكيم قي أقواله وأفعاله وشرعه وقدره[1] .

(ج) :- قصة قوم موسى - عليه السلام - الذين قالوا له : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً ، فأماهم الله تعالى ثم أحياهم ، قال الله تعالى حكاية عن هذه القصة : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] ، قيل بأن الذين قالوا هذه المقالة هم السبعون الذين اختارهم موسى ذلك أهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاهم ، فأرسل الله إليهم ناراً وأماهم بإحراقهم به ، ثم دعا موسى ربه فأحياهم كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

(د) :- الواقعة التي وقعت مع الرجل الذي مرّ على قرية ميت أهلها ومدمر عمراها ، فاستبعد أن يحيي الله أهلها ويعيد عمارها التي كانت عليها ؛ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خراها ، فأماته مائة عام ثم بعثه ، قال تعالى : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] .

اختلفوا في الذي مرّ بالقرية، فقال قوم: كان رجلاً كافراً شاكا في البعث، وقال بعضهم: إنه كان مسلماً؛ فذهب البعض إلى أنه كان الخضر- عليه السلام -، وقال الآخرون بأنه كان عزير، وهو القول المشهور، أما القرية فالمشهور أها بيت المقدس، مرّ عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه: كيف يحي بدنه ، فلما استقل سوياً (قال) الله له، أي: بواسطة الملك: ﴿ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٤٣٧ .

(٢) – سورة البقرة : الآيـــة ٥٥ ، ٥٦ .

(١) – سورة البقرة : الآيـــة ٢٥٩ .

﴿بَعۡضَ يَوۡمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: {﴿ أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ ﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض ولا أنتن ، ولا العنب تعفن ، ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ أي : كيف يحيــيه الله ﷻ ، وأنت تنظر ﴿ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي : دليلاً على المعاد ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ﴾ أي : نرفعها ، فيركب بعضها على بعض .

وكانت قد تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً ، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً ، وبعث الله ملكا فنفخ فيه ، فنهق كله بإذن الله ﷻ ، وذلك كله بمرأى من العزير[1] .

(هـــ):- إحياء عيسى – عليه السلام – الموتى بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[2] .

فهذه الأمثلة من الأدلة الحسية ، براهين جلية قاطعة على أن الذي أماتهم ثم أحياهم قادر على بعثهم يوم القيامة ، فإنه لا يعجزه شيء وهو العليم القدير ، " وقد أخبر الله ورسله عن وقوع البعث والحشر فوجب القطع بذلك لأنه أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته "[1] .

(٢) – إحياء الأرض بعد موتها :

إحياء الله الأرض بعد موتها؛ أي بعد ما كانت جدباء مقفرة، وذلك بإنـــزال المطر عليها حيث تبدأ تهتز وتربو فتنبت من كل زوج بهيج، من أعظم الأدلة الحسية على البعث بعد الموت، ذكر الله في القرآن الكريم إنكار الكافرين بالبعث ثم رد عليهم حيث قال: ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ

---

(١) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ٣ / ٤٧٠ ، وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٤٣٦ .

(٢) – سورة آل عمران : الآيـــة ٤٩ .

(١) – مناهج الجدل في القرآن : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٣١٧ .

فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[(١)] .

جزم المنكرون باستبعادهم للبعث فقالوا ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾، أي: بعيد عن العقول، أو الأفهام، أو العادة، أو الإمكان، فردّ الله سبحانه ما قالوه فقال: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾، أي: ما تأكل من أجسادهم، فلا يضل عنا شيء من ذلك، ومن أحاط علمه بكل شيء حتى انتهى إلى علم ما يذهب من أجساد الموتى في القبور، لا يصعب عليه البعث ولا يستبعد منه[(٢)]، ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ ، أي : وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل ، ثم قال سبحانه منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه وهو خلق السماوات التي لا شقوق بها ولا فتوق ولا صدوع ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ ، ثم ردّ الله سبحانه على المنكرين بالبعث بدليل قاطع حسي مشاهد ؛ وهو الأرض التي كانت هامدة ، فلما نـــزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك ، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيي الله الموتى ، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون البعث[(١)] .

وقد تعدد وتكرر ذكر الأدلة الحسية المشاهدة من هذا النوع في القرآن الكريم، فيقول تبارك وتعالى- مثلاً-: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ

---

(١) – سورة ق : الآيـــة ٣ – ١١ .

(٢) – فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٥ / ١٠١ .

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٦٢٦٠ .

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ، ويقول سبحانــه تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] .

ثالثاً : الردّ على الشبهات المثارة حول نبوة محمد ﷺ ورسالته :

لا يستطيع الإنسان أن يدرك بعقله الهدف الذي خلق لأجله ، وإن علم ذلك بالتأمل والتدبر في آيات الله المنتشرة في الآفاق والكامنة في الأنفس ، فسيعجز عن معرفة سبل تحقيقه ؛ وذلك لأن عقله وحده لا يقدر على الاهتداء دائماً إلى تمييز الخير من الشر ، والشر من الخير ، فقد يظن الخير شراً فيبتعد عنه، ويبدو له الشر خيراً فيختاره ويعمل به ما يضره ولا ينفعه ، قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[3] .

" فمدارك العقل محدودة مهما اتسعت وبلغت من العلوم والمعارف وحصّلت ، ولذا تبقى قاصرة محدودة ، ومن أجل هذا احتاجت الإنسانية إلى الرسل لتبين ما يجب تجاه الخالق سبحانه ، وما يحسن فعله مع الخلق ، ومع النفس ، ومن فضل الله سبحانه علينا نحن البشر أن أرسل فينا رسولاً منّا وبلساننا ، وأنــزل علينا ذلك القرآن منهجاً لنا ينظم حياتنا الدنيا وما بعدها ، ونبوة نبينا محمد – ﷺ – ثابتة بالوحي وبالعقل وبالمشاهدة "[4].

ولم يُــبعث رسول إلاّ وقد واجه صعوبة في إقناع الناس برسالته ، وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع وتنوعت أساليــبه من نبي إلى نبي ، فلكل زمانه يختلف عن زمان الآخر وأمته تختلف عن أمة غيره في ثقافتها وعيشها ونمط تفكيرها ومعتقداتها ومشاكلها وحاجاتها.

فلما بُعث الرسول – ﷺ – بدأ – كالأنبياء السابقين – بتقرير أنه مرسل من عند الله، وأنه متصل به سبحانه ، وأنه يتلقى عنه ويأخذ تعاليمه عن طريق الوحي ينــزل عليه من السماء، يأتيه به جبريل – عليه السلام – ، وبدأ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وترْك الشرك به والتخلي عن عبادة الأصنام والأوثان كلية ، ولكن عندما تألف النفوس شيئا وتقيم عليه طويلاً

---

(١) – سورة الروم : الآيــة ٥٠ .

(٢) – سورة فصلت : الآيــة ٣٩ .

(٣) – سورة البقرة : الآيــة ٢١٦ .

(٤) – أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة : د. حمد بن ناصر العمار ، ص٨٧ .

فيكون ذلك الشيء قد تغلغل في أعماقها فلا يكون التخلي عنه أمراً سهلاً ميسورا ، فعارضه قومه معارضة شديدة ، وحاربوا دعوته بكل قوة وعنف متخذين في ذلك كل الوسائل والأساليب المتاحة لهم ، وقد اتحد المشركون واليهود والنصارى لمحاربة هذه الدعوة الفتية ؛ وكان من أهم وسائلهم في ذلك إثارة الشبهات حول نبوة محمد - ﷺ - الخاتمة ورسالته الخالدة لأنهم متى نجحوا في ذلك تم القضاء على الدعوة من جذورها .

وفيما يلي نماذج من تلك الشبهات والرد عليها بالأدلة الحسية :

(١) — **الشبهة** :

قالوا بأن القرآن الكريم ؛ الذي هو أعظم أدلة نبوة محمد - ﷺ - وكتاب رسالته ومصدر شريعته ، ليس من عند الله وإنما هو من اختلاقه ، جاء به من عند نفسه مستعيناً في ذلك بقوم آخرين ، قال الله تعالى حكاية عن هذه الشبهة : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾[١] .

الردّ على الشبهة :

نجد في القرآن الرد على هذه الشبهة بأمرين :

(أ) : أن محمداً - ﷺ - رجل أمي لا يكتب ولا يقرأ ؛ وهذا أمر معلوم لديهم إذ يعرفونه ويرونه منذ طفولته ، فكيف ظهر عليهم فجأة بهذه التعليمات السامية ، والأخبار المطابقة لأخبار الأنبياء فيما تضمنه من القصص ، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[١]، أي: قد لبث محمد - ﷺ - في قومه قبل أن يأتي بهذا القرآن عمراً لا يقرأ ولا يكتب ، يعرف ذلك كل أحد من قومه بالمشاهدة ، وهو صفته في الكتب السماوية المتقدمة أيضاً ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[٢]، فكون هذا القرآن يأتي ممن لا يقرأ ولا يكتب عين المعجزة و برهان على كونه منــزلاً لا ريب فيه إذ لو كان محمد

---

(١) — سورة الفرقــان : من الآيــة ٤ .

(١) — سورة العنكبوت : الآيــة ٤٨ .

(٢) — سورة الأعراف : من الآيــة ١٥٧ .

– ﷺ – قارئاً وكاتباً لكان للمبطل وجه ارتياب، وقالوا: تعلمه من الكتب السابقة أو استنسخه منها ، ولكنه على ما هو عليه لا وجه للارتياب فيما جاء به أنه من الله ﷻ [1] .

(ب) : لو كان في وسع محمد – ﷺ – أن يأتي بالقرآن من عند نفسه باستعانة بعض الناس لكانت قريش أقدر منه – ﷺ – وهم أهل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بمثله لاسيما إذا استعانوا بأهل الكتاب وبما لديهم من خبرة في عرض الأخبار والقصص من الكتب السماوية السابقة ، ولكن لم يفعلوا ذلك بل لم يقدروا ذلك رغم التحدي ؛ فقد تحداهم القرآن أن يأتوا بحديث مثله، وكرر التحدي أكثر من مرة ؛ كل مرة بشيء من التخفيف من التحدي السابق ، فالمرة الأولى تحداهم أن يأتوا بحديث مثله فقال : ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾[2] ، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور فقال : ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[3] ، ثم تحداهم بسورة واحدة فقال : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[4] ، وقد عجزوا كل مرة عن الاستجابة للتحدي ، ثم جاء القرآن بالتحدي العام مخاطباً الثقلين ؛ الجن والإنس ، فقال : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] ، وهكذا قضى القرآن بهذا التحدي على مكابرتهم ومؤامرتهم وشبهتم .

(٢) – الشبهة :

ذكر القرآن الكريم في آيـــة واحدة عدداً من شبهات المنكرين أثاروها طعناً في نبوة محمد – ﷺ – ورسالته ، والآيـــة هي :

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[2] .

---

(١) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ١٣ / ١٨٠ ، وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كـــثير ، ٣ / ٢١٥٨ ، ٢١٥٩ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٥٨٢ ، ٥٨٣ .

(٢) – سورة الطور : الآيـــة ٣٤ .

(٣) – سورة هود : من الآيـــة ١٣ .

(٤) – سورة يونس : من الآيـــة ٣٨ .

(١) – سورة الإسراء : الآيـــة ٨٨ .

(٢) – سورة الفرقـــان : الآيـــة ٧ ، ٨ .

اشتملت هذه الآيـــة على شبهات تالية :

أولاً : أكله الطعام ومشيه في الأسواق : سموه رسولاً استهزاءً وسخرية لإنكار نبوته – ﷺ – والعلة في ذلك أنه – ﷺ – يأكل الطعام كما نأكل ، ويتردد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردد ! فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا في هذه الأمور ؟ ! .

ثانياً : عدم نزول ملك إليه من عند الله ليشهد له ويصدقه ويرد على من خالفه .

ثالثاً : عدم إلقاء إليه كنـــز من السماء لينفقه فلا يحتاج إلى التردد في الأسواق لطلب المعاش ، وهذا والذي قبله مثل قول فرعون في إنكاره نبوة موسى – عليه السلام – : ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾[1] .

رابعاً : عدم كون جنة له ، أي : إن لم يكن له كنـــز فلا أقل من أن يكون كواحد من الدهاقين فيكون له بستان يأكل منه ، ثم بعد إثارة هذه الشبهات جاءوا بتهمة كبيرة قذفوه بها وهي أنه – ﷺ – رجل مسحور ، والمسحور لا يعي ما يسمع ولا يفقه ما يقول[2] .

الردّ على الشبهات :

يتبين من تلك الشبهات مدى تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل، فالشبهات في غاية الوهن والركاكة، ومع ذلك أبطلها الله سبحانه وتعالى، فنرى أنه سبحانه ردّ على الشبهة الأولى بدليل مشاهد حسي حيث قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[2]، فشأن النبي محمد – ﷺ – كغيره من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لطلب المعيشة ، ويتزوج النساء، ويكون له أولاد، ولا يقدح كل ذلك في رسالته كما لم يقدح مثل ذلك في رسالات الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام[3] .

---

(١) – سورة الزخرف : الآيـــة٥٣ .

(٢) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ١١ / ٣٨٩ ، وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كـــثير ، ٣ / ٢٠٢٠ ، ٢٠٢١ (بتصرف) ، وفتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٤ / ٩١ .

(١) – سورة الفرقـــان : من الآيـــة ٢٠ .

(٢) – سورة الرعد : الآيـــة ٣٨ .

(٣) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٢٩٥ ، ٢٩٦ .

أما الردّ على الشبهة الثانية : فإنه قد ثبتت نبوة النبي – ﷺ – بالدلائل الحسية التالية:

(أ) – أمور كائنة في ذاته – ﷺ – كخاتم النبوة بين كتفيه .

(ب) – أمور خارجة عن ذاته – ﷺ – كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته، وتسليم الحجر عليه، وحنين الجذع، وانقياد الشجر له، وإبراء المرضى، وإجابة دعائه، وعصمة الله له من القتل والكيد، وإخباره عن بعض الغيوب التي وقعت كما أخبر بها .

(ج) – أمور تتعلق بصفاته وأخلاقه – ﷺ – .

وكانت وظيفته ومهمته تبليغ ما أُنزل إليه بالوحي كسائر الأنبياء السابقين، ولم يكن له أن يغير أو يبدل في أمور رسالته، ولا أن ينـــزل الملائكة أو الآيات إلاّ بإذن الله ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾(١)، فالله تعالى هو الذي يملك إرسال الملائكة وإنزال الكتب، فالأمر لله وحده. ولو كان لله أن يرسل رسولاً من ملائكته لأرسله في صورة بشر، إذ إرسال ملك بصورته الحقيقي كرسول إلى البشر غير مناسب لحالهم ، ومن ثم بقي هؤلاء الكفار على حالـــهم دون أن يزول عنهم التباسهم، قال تعالى:﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾(١).

أما الشبهة الثالثة والرابعة : فقد جعلوا المال والبساتين سبب الشرف والسعادة ، كما اعتبروها دليلاً على محبة الله ورضاه ، فقالوا طعناً في نبوة محمد – ﷺ – ورسالته بأن الله تعالى لو كان يحب محمداً ولو كان شرفه بالنبوة والرسالة لأعطاه الثروة المادية من الكنوز والبساتين.

وهذا تفكير خاطئ ، واعتقاد باطل ، ومعيار غير سديد ، فالله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا المؤمن والكافر ، والصالح والطالح ، فلينظر المرء حوله ليرى ما أعطي الكفار ؛ وما أكثرهم ، من الملك والمال ، والتقدم المادي ، فهو برهان حسي مشاهد على بطلان شبهتهم التي طعنوا على أساسها في نبوة محمد – ﷺ – ، ورسالته التي لا تكون إلاّ لمن اختصه الله واصطفاه من خلقه ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾(٢) .

وقد بين القرآن حقيقة الدنيا وثروها بأسلوبه الرفيع الفذ ، وضرب أمثلة توضيحية حسية التي يراها الناس حولهم ويحسونها بكل حواسهم ، والتي تفند شبهة الكفار وتبطل دعواهم ،

---

(١) – سورة الرعد : من الآيـــة ٣٨ .

(١) – سورة الأنعام : الآيـــة ٩ ، وانظر : أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة : د . حمد بن ناصـــر العمـــار ، ص١٠٨ ، مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) – سورة الأنعام : من الآيـــة ١٢٤ .

فيقول الله تعالى – مثلا – : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾(١) .

يقول الله ﷻ لنبيه – ﷺ – أصل، وللمؤمنين بعده تبعاً: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا، ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار .

أن مثل هذه الحياة الدنيا ، كمثل المطر ، ينـــزل على الأرض ، فيختلط نباتها ، أو تنبت من كل زوج بهيج ، فبينا زهرتها ، وزخرفها تسر الناظرين ، وتفرح المتفرجين ، وتأخذ بعين الغافلين ، إذ أصبحت هشيماً تذروه الرياح ، فذهب ذلك النبات الناضر ، والزهر الزاهر ، والمنظر البهي ، فأصبحت الأرض غبراء تراباً ، قد انحرف عنها النظر ، وصدف كذلك هذه الدنيا ، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه ، وفاق فيها على أقرانه وأترابه ، وحصل درهمها ودينارها ، واقتطف من لذته أزهارها ، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته ، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه ، إذ أصابه الموت أو التلف لماله ، فذهب عنه سروره ، وزالت لذته ، وحبوره ، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله ، وانفرد بصالح أو سيء أعماله ، هنالك يعض الظالم على يديه ، حين يعلم حقيقة ما هو عليه ، ويتمنى العود إلى الدنيا ، لا ليستكمل الشهوات ، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات بالتوبة والأعمال الصالحات .

فالعاقل الجازم الموفق يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: ''قدِّري أنك قد مِتِّ، ولا بد أن تموتي، فأي الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل لدار أكلها دائم وظلها ظليل، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه، ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره الباقيات الصالحات التي هي جميع الطاعات، الواجبة، والمستحبة، من حقوق الله وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وما يحتاج إليه المجتمع من طب وهندسة وغيرهما من علم نافع، وجميع وجوه الإحسان

---

(١) – سورة الكهف : الآيـــة ٤٥ ، ٤٦ .

إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخير أملاً، فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويجدّ في تحصيلها المجتهدون، وتأمل، كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان :

نوع من زينتها ، يتمتع به قليلاً ، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون .

ونوع يبقى لصاحبه على الدوام ، وهي : الباقيات الصالحات[1] .

ومع ذلك فقد عُرضت على النبي – ﷺ – من الثروة المادية وملك الدنيا ونعيمها ما لم يكن لأحد من البشر ولن يكون لأحد ما بقيت الأرض والسماوات فأبى أن يقبلها ، فقد روى أنه قيل للنبي – ﷺ –: "إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً قبلك ولا نعطي أحداً من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ، فقال : اجمعوها لي في الآخرة "[1]، فأنـــزل الله ﷻ في ذلك: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرًا مِّن ذَٰلِكَ .... ﴾[2].

إذن فهاتان الشبهتان في غاية البطلان ، لا تقدح في نبوة النبي – ﷺ – ولا تنقص من فضله ولا تخل بشيء من أمور رسالته .

(٣) – الشبهة :

اتهم الكفار النبي – ﷺ – بالجنون إثر بدء دعوته إلى توحيد الله ﷻ وإخلاص العبادة له وحده ، وترْك الشرك به والتخلي عن جميع الأصنام والأوثان ، يقول الله تعالى عن هذه الشبهة : ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾[3] .

الردّ على الشبهة :

عندما رأى الكفار حججهم تنهار و شبهاتهم تتلاشى، ثارت كوامن الأحقاد في أنفسهم فهرفوا بما لا يُعْقَل ولا يتفق مع المنطق السليم لعدم توافقه مع الواقع المشاهد المحسوس المعلوم لديهم إذ نشأ محمد – ﷺ – أمام أعينهم فقالوا: إنه مجنون، وهذا كوصفهم إياه بأنه ساحر أو مسحور.

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(١) – رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين بغير هذا اللفظ ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، كتـــاب الهجـــرة ، ٥٧/٣ ، رقم الحديث : ٤٣٨٣ ، ط١ ، ١٤١١هـــ – ١٩٩٠م ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت . قال الـــذهبي في التلخيص : حديث صحيح على شرط مسلم .

(٢) – سورة الفرقـــان : من الآيـــة ١٠ ، وانظر : تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ٢٠٢١ .

(٣) – سورة الحجر : الآيـــة ٦ .

إن الواقع المعلوم المشاهد أن المجنون لا يعقل شيئاً وإنما يهذي بكلام لا يستند إلى منطق عقلي، ولا يكون عنده أسلوب يضم به أطراف الحديث فكيف أتى محمد – ﷺ – بهذا القرآن الذي يتحدى الأجيال أن تأتي بمثله عبر القرون ، إن الأمر في غاية الوضوح ، علماً أن هذه الدعاوى لم تكن وليدة يومها فهي تمتد إلى أعماق القرون الغابرة وهي وسيلة من وسائل التكذيب يستخدمها أعداء الرسل في كل زمان ومكان توجد فيه الرسل ، وقد نـــزل القرآن وفيه تسلية لرسول الله وإشعار له بأن كل نبي تعرض لمثل هذه المفتريات ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾[1] .

وقد طلب القرآن الكريم من هؤلاء المكذبين أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا ، الذي نشأ بينهم وترعرع على مرأى ومسمع منهم بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بالصدق والأمانة ورجاحة العقل ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1] .

وأذكر هنا قصة ضماد الأزدي مع رسول الله – ﷺ – فعن ابن عباس – رضي الله عنه – ''أن ضماداً قدم مكة، وكان من أزْد شَنُوءَةَ، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاءَ من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أنّي رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يديَّ، قال فلقيه، فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله – ﷺ – : ''إن الحمد لله، نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد''، قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله – ﷺ – ثلاث مرات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، قال فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله – ﷺ : ''وعلى قومك''. قال: وعلى قومي، قال فبعث رسول الله – ﷺ – سرية فمروا

---

(١) – سورة الذاريات : الآيـــة ٥٢ .

(١) – سورة سبأ : الآيـــة ٤٦ ، وانظر : مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٢٩٨ ، ٢٩٩ .

بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مِطهرةً ، فقال : رُدّوها ، فإن هؤلاءِ قوم ضِماد ''[1].

إذن فليس هناك حاجة إلى إقامة الحجة والبرهان على سلامة عقلية رسول الله – ﷺ – في جميع أطوار حياته؛ قبل الرسالة وبعدها، فإن هذا ظاهر ظهور الشمس في النهار معلوم لدى الناس ومشهود[2] .

(٤) – الشبهة :

قال اليهود : إن الله عهد إليهم في كتبهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنـــزل نار من السماء فتأكلها .

الردّ على الشبهة :

أثاروا هذه الشبهة حتى لا يقال لهم بأن الحسد هو سبب إنكارهم لنبوة محمد – ﷺ – وإنما السبب عدم إتيانه بالمعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون ، ومن ثم فهم على حق إذا لم يؤمنوا به إذ هو ليس بنبي صادق .

وجاء في القرآن الكريم حكاية هذه القصة مع الردّ المفحم بدليل قاطع حسي من صنع أنفسهم وارتكاب أيديهم حيث قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[1] .

فمطالبة اليهود بالمعجزات لم تكن للاستهداء والاسترشاد وإنما كان على سبيل التعنت وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذه المعجزة من الأنبياء السابقين مثل زكريا ويحيى وعيسى – عليهم السلام – ، فلما أظهروا لهم هذا المعجز سعوا في قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة ، وهذا يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا في قتلهم ، ومتأخرو اليهود راضون بفعل متقدميهم وهذا يقتضي كونهم متعنـــتين أيضاً في مطالبهم ولهذا لم يجبهم الله فيها[2] .

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الجمعة ، باب : التغليظ في ترك الجمعة ، ص٣٣٥ ، رقم الحديث : ٨٦٨ .

(٢) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٣٠٠ .

(١) – سورة آل عمران : الآيـــة ١٨٣ .

(٢) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ٩ / ١٢٢ .

المطلب الثاني

أساليب الردّ على الشبهات في ضوء القرآن والسنة :

المقصد الأول : أساليب منهج الردّ بإيقاظ الفطرة .

المقصد الثاني : أساليب منهج الردّ العقلي .

المقصد الثالث : أساليب منهج الردّ الحسي.

توطئة:

الردود التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على الشبهات المثارة حول الدعوة والداعية والمدعو من قبل الخصوم ، قد أفحمت من تكبر على الحق وعانده ، وألزمت من أنكره ، وأرشدت من تردد فيه ، وأقنعت من طلب الحق بالدليل والبرهان .

وكانت مناهج تلك الردود وأساليبها متعددة ومتنوعة ، وقد سبقت دراسة "المناهج" - بفضل الله ﷻ - في " المطلب السابق " ، أما الأساليب فقد تم تخصيص هذا المطلب لدراستها.

قد ذكر العلماء والباحثون عدداً من الأساليب التي استُخدمت في القرآن الكريم والسنة النبوية لدحض دعاوى المنكرين وتفنيد شبهات المكذبين وإحقاق الحق وإبطال الباطل ،كالإمام السيوطي - رحمه الله - في كتابه الإتقان في علوم القرآن ، والإمام عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي في كتابه "استخراج الجدال من القرآن الكريم " ، والشيخ محمد علي سلامة في كتابه " منهج الفرقان في علوم القرآن " ، والدكتور زاهر عواض الألمعي في كتابه " مناهج الجدل في القرآن الكريم " ، والدكتور عبد الله بن إبراهيم اللحيدان في كتابه " دعوة غير المسلمين إلى الإسلام " ، وغيرهم من العلماء والباحثين الذين تحدثوا عن مناهج القرآن وأساليبه في الدعوة إلى الله .

وسأورد فيما يلي نماذج من أبرز تلك الأساليب حسب مناهجها التي تُستخدم من خلالها:

المقصد الأول : أساليب منهج الردّ بإيقاظ الفطرة :

(١) – التذكير بنعم الله :

جاء الردّ في القرآن الكريم على شبهة الشرك بتذكير الناس بنعم الله تعالى المستوجبة شكره ﷻ بالإيمان والطاعة فيقول تعالى :

– ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾(١) .

لما بين الله ﷻ في الآيتين الكريمتين السابقتين لهذه الآية المذكورة أن الحمد له سبحانه ، وبين بالتفصيل بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد ، بين هنا في هذه الآية نعمه – على سبيل الإجمال – فقال : ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين :

(١) – نعمة الإيجاد : قال تعالى : ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء .

(٢) – نعمة الإبقاء : قال تعالى : ﴿ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء .

ثم بين سبحانه أنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ نظراً إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شيء ، قدير نافذ الإدارة في كل شيء ، ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ، ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلاّ هو ، ثم قال سبحانه : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ ، أي: كيف تصرفون أيها المشركون عن هذا الظاهر ؟ ! وكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت ؟ !(١) .

ويقول في موضع آخر :

– ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) – سورة فاطر : الآية ٣ .

(١) – مفاتيح الغيب : الإمام الرازي ، ١٢ / ٤٤٧ .

(٢) – سورة النحل : الآية ٧٢ .

يذكر الله ﷻ في هذه الآيـــة الكريمة بعضاً من نعمه العظيمة على عباده بأن جعل لهم نعمة الأزواج من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، كما جعل لهم نعمة البنين والحفدة ؛ فهم الأنصار والأعوان والخدام ، ثم ذكر سبحانه نعمة الرزق من طيبات المطاعم والمشارب منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم الأنداد والأصنام ، ﴿ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ ، أي : يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره[1] ، وفي الحديث الصحيح بأن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه.

" ... ألم أجعلك سميعاً بصيراً ؟ ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ؟ ألم أسودك وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى أي رب ، فيقول : فظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : اليوم أنساك كما نسيتني ... "[1] .

(٢) – التحذير بزوال النعمة أو تحويلها إلى نقمة :

هذا الأسلوب يسمى أسلوب الترهيب و التوبيخ والتقريع ، وهو أسلوب قرآني معروف ومشهور ، استُخدم بكثرة ، ورُدّ به على شرك المشركين وإلحاد الملحدين، وأُعْمل لانجلاء الفطرة من رواسب الشرك وأدران الضلال ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

بين الله ﷻ أنه مهد لعباده أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه فيعبدوه وحده ولا يشركوا معه أحدا ، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه وطلب ما لا بد لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس ، ثم امتن عليهم فقال : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ ، أي هل لكم إله من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن

---

(١) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ١٥٨٣ ، ١٥٨٤ ، و

(١) – صحيح ابن حبان : الإمام محمد بن حبان التميمي ، ١٦ / ٤٧٨ ، رقم الحديث : ٧٤٤٥ ، ط٢ ، ١٤١٤هـــ – ١٩٩٣م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(٢) – سورة القصص : الآيـــة ٧١ – ٧٣ .

يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء ونور تطلبون فيه المعيشة ، وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه ، وتصلح به ثماركم ، وتنمو عنده زرائعكم ، وتعيش فيه دوابكم ؟ ! ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ؟

ثم لما فرغ سبحانه من الامتنان عليهم بوجود النهار امتن عليهم بوجود الليل فقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ، أي : جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه نهاراً إلى يوم القيامة ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ ، أي : تستقرون فيه من النصب والتعب ، وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكسب ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصارَ متعظٍ متيقظ حتى تنـــزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله ، وإذا أقروا بأنه لا يقدر على ذلك إلاّ الله ﷻ فقد لزمتهم الحجة وبطل ما يتمسكون به من الشبه الساقطة الواهنة[1].

وهناك آيات كثيرة تردّ على المشركين شركهم والملحدين إلحادهم بتحذير شديد وإنـــذار قوي من بأس الله ، وهي ثلاثة أنواع :

(أ) – **آيات الترهيب بالإنذار من حلول العذاب في الدنيا**: وهي كثيرة، منها – مثلا –:

قول الله ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[3].

وقوله ﷻ :﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

---

(١) – فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٤ / ٢٦٢ ، ٢٦٣ (بتصرف يسير) .

(٢) – سورة الأنعام : الآيـــة ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) – سورة الملك : الآيـــة ١٦ – ١٨ .

(٤) – سورة النور : الآيـــة ٦٣ .

(ب) – آيات الترهيب بالوعيد بالعذاب في الآخرة: وهي أيضاً كثيرة ، منها – مثلا –:

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾[1].

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[1] .

وقوله جل شأنه : ﴿ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾[3].

وقوله ﷻ : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴾[4] .

(ج) – آيات تُحدث عما قد وقع فعلاً من العقاب وحلّ من العذاب والحرمان بـــالأمم المكذّبة : والآيات في ذلك أيضاً كثيرة ، منها :

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾[5] ، قيل إن القرية هنا مكة نفسها، ضربها الله مثلاً لغيرها ؛ وذلك لما دعا عليهم رسول الله – ﷺ – وقال : "اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف"[6] ، فابتلوا بالقحط حتى

---

(١) – سورة النساء : الآيـــة ١٤ .

(١) – سورة النساء : الآيـــة ١١٥ .

(٢) – سورة الجن : الآيـــة ٢٣ .

(٣) – سورة الزمر : الآيـــة ٦٠ .

(٤) – سورة الحج : الآيـــة ١٩ – ٢١ .

(٥) – سورة النحل : الآيـــة ١١٢ .

(٦) – صحيح البخاري : كتاب الأذان ، باب : يهوي بالتكبير حين يسجد ، ص١٦٤ ، رقم الحديث : ٨٠٤ .

أكلوا العظام ، فالمَثَلُ إنذار لغير مكة من مثل عاقبتها إن لم يتخلوا عن الكفر والشرك ، وقيل إنها قرية غير معينة، وفي هذه الحالة يكون المثل أكمل والوعيد أبلغ[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[1] ، أي : لما وقع من أهل سبأ الإعراض عن شكر نعمة الله والكفر به ، أرسل الله عليهم نقمة سلب بها ما أنعم به عليهم .

وقوله ﷻ في قارون وما حلّ به من النقمة والعذاب إثر كفره وطغيانه : ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾[2] .

(٣) – تذكير المشركين والملحدين بحالتهم عند الكرب والشدائد :

عندما يقع الناس في المهالك ، وتحيط بهم الأخطار والشدائد ، تتوجه قلوبهم إلى الله الواحد الأحد ، وتستغيثه أفئدتهم دون الالتفات يميناً أو يساراً ، وينسى المشركون والملحدون ما كانوا يعتقدون من شرك وإلحاد ، وما يثيـــرون حول الحق من شبهات وأباطيل ، ولذلك تذكيرهم

---

(١) – فتح القدير : الإمام الشوكاني ، ٣ / ٢٨٥ (بتصرف يسير) .

(١) – سورة سبأ : الآيـــة ١٥ ، ١٦ .

(٢) – سورة القصص : الآيـــة ٧٦ – ٨١ .

بواقعهم عند ما يخلصون لله تعالى في الشدة ويشركون به في الرخاء ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[1] ، كان من أهم وأبرز أساليب القرآن الكريم في ردّ شبهاتهم وإبطال افتراءاتهم ، ودعوتهم إلى الإيمان بالله وتوحيده سبحانه في حالة الرخاء أيضاً كحالتهم في الشدة والكرب ، حيث تعود النفس إلى فطرتها الأصلية التي خلقت عليها فتتوجه إلى خالقها وربها الواحد الأحد ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها – مثلا – قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

بين الله ﷻ في هذه الآيــة الكريمة أن أولئك الكفرة لما رأوا الهلاك قد أحاط بهم وأحدق ، أخلصوا الدعاء لله هنالك دون أوثانهم وآلهتهم ، وكان مفزعهم حينئذٍ إلى الله دونها ، ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام قائلين ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ، ولكن لما أنجاهم الله مما كانوا فيه من العواصف البحرية والأمواج المتلاطمة الهائجة أخلفوا الله ما وعدوه ، وبغوا في الأرض فتجاوزوا فيها إلى غير ما أذن الله لهم فيها من الكفر به ، والعمل بمعاصيه على ظهرها .

فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء ، كما أخلصوها في الشدة ؟ ! ![2] .

(١) – سورة العنكبوت : الآيــة ٦٥ .

(١) – سورة يونس : الآيــة ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) – تفسير الطبري : الإمام الطبري ، ١٢ / ١٤٦ – ١٤٨ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الــرحمن السـعدي ، ص٣١٨ .

المقصد الثاني : **أساليب منهج الردّ العقلي** :

إن خطاب القرآن العقلي خطاب سهل ميسر يفهمه العامة والخاصة ؛ وذلك لأنّ القرآن إنما جاء لهداية البشر أجمع ، والهدف من منهجه العقلي هو تحرير العقل البشري من الشبهات الباطلة والمعتقدات الضالة والأوهام الكاذبة ، والمنهج العقلي يتجه في خطابه للمدعوين إلى الإقناع بالدليل والبرهان ، لا إلى التسليم المحض ، متخذاً في ذلك أساليب متعددة أبرزها :

(١) – ضرب الأمثال :

إن الأمثال من أقوى الأساليب لإقناع المدعوين على اختلاف طبائعهم وتباين ثقافاتهم وتفاوت طبقاتهم ، فكما يفهمها العالم وينتفع بها العامي ويتعظ ، فإنها تكبح جماح المعاند ، وتقنعه بلزوم الحق واتباعه .

وقد جاءت في القرآن الكريم أمثال كثيرة متنوعة تبين للمشركين زيف شركهم وعجز آلهتهم وتزيل عنهم شبهاتهم ، وتدفعهم للتأمل والتفكر ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

هذا مثل ضربه الله للمشركين رداً على اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة ، وبيتها من أضعف البيوت ، فما ازدادت باتخاذه إلاّ ضعفاً ، وكذلك هؤلاء المشركون الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، فقراء عاجزون من جميع الوجوه ، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم ووهناً إلى وهنهم[٢] .

ومن أمثال القرآن ما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[٣] .

---

(١)– سورة العنكبوت : الآية ٤١ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ٢١٥٣ ، وتيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٥٨٠ .

(٣) – سورة الحج : الآية ٧٣ ، ٧٤ .

يقول الله تعالى في هذا المثل منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها أنه لو اجتمع أيها المشركون جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك ، كما رُوي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة"[1] ، ثم قال تعالى أيضاً : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أي : هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ، فما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها[2] .

(٢) – الاستفهام التقريري :

هو أن يأتي السؤال ومن بعده الجواب لتقرير العقيدة الصحيحة وتفنيد شبهة الشرك والإلحاد ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[3] .

والاستفهام التقريري أسلوب جدلي معروف ، ويأتي بالاستفهام عن المقدمات البينة البرهانية التي لا يمكن لأحد أن يجحدها ، وهي تدل على المطلوب لتقرير المخاطب بالحق واعترافه بإنكار الباطل .

وأسلوب القرآن الاستفهامي التقريري يمتاز بحيث إنه لا يستدل في الردّ على شبهات الخصوم ومجادلاته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها ، كما هي الطريقة الجدلية المعروفة عند أهل المنطق ، بل يستدل بالقضايا والمقدمات التي يسلمها الناس لتكون أدعى للانقياد للحق ومجانبة الباطل ، ولا شك أن في الاستفهام استثارة وبياناً لما في النفوس ليكون الإلزام أبلغ وأقوى[4] ، ومن أمثلة ذلك ما يلي :

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب اللباس والزينة ، باب : تحريم تصوير صورة الحيوان ، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه ، ص٨٧٦ ، رقم الحديث : ٢١١١ . (وأخرجه البخاري: ٥٩٥٣، ٧٥٥٩).

(٢) – تفسير القرآن الكريم : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٩٢١ ، ١٩٢٢ .

(٣) – سورة الأنبياء : الآيـة ٦٦ ، ٦٧ .

(٤) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٧٦ .

(أ) – قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1] .

(ب) – وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

(ج) – وقوله ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[2] .

وهذا الأسلوب سريع التأثير عميق الأثر، كان يزلزل نفوس المشركين، ويصدع أفئدهم، كما روي عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه – رضي الله عنه – أنه قال قبل أن يسلم: ''سمعت النبي – ﷺ – يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير ''[3] .

وهذا الأسلوب لا يقصر استخدامه في المنهج العقلي فحسب وإنما يستخدم أيضاً في المنهج العاطفي والمنهج الحسي حسبما تتطلب حالة المدعو ونوعية الشبهة وعقلية المجادَل .

(٣) – الأقيسة الإضمارية :

وهي التي تحذف فيها إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف ، ومن ينظر في أدلة القرآن يرى أمثلة كثيرة لهذا النوع من الأقيسة[4] .

---

(١) – سورة يس : الآيـــة ٨١ .

(١) – سورة الطور : الآيـــة ٣٥ – ٤٣ .

(٢) – سورة الأنعام : الآيـــة ٤٦ .

(٣) – صحيح البخاري : كتاب التفسير ، باب : قولـــه ، ص٩٥٤ ، رقم الحديث : ٤٨٥٤ .

(٤) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٧٦ .

يقول صاحب شرح الطحاوية في العقيدة السلفية : " والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل ، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية ، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقاً عليها ، استدل بها ، و لم يحتج إلى الاستدلال عليها .

والطريقة الفصيحة في البيان أن تحذف إحدى المقدمات ، وهي طريقة القرآن ، بخلاف ما يدعيه الجهال ، الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية "[1] .

وقال الغزالي – رحمه الله – : " إن القرآن مبناه الحذف والإيجاز ، أي " في شكل الأقيسة"، واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله ، لأنه خلق من غير أب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[2] .

ولا شك في أن المثل الذي ساقه الغزالي حذْف إحدى المقدمات واضح فيه، كما هو واضح من المقايسة بين خلق آدم وعيسى – عليهما السلام – ، وأنه إذا كان الخلق من غير أب مسوغاً لاتخاذ عيسى إلهاً ، فأولى أن يكون الخلق من غير أب ولا أم مسوغاً لاتخاذ آدم إلهاً ولا أحد يقول ذلك .

وإننا لنجد أنه قد حذفت مقدمة أخرى ، وكأن سياق الدليل في غير كلام الله تعالى يكون: إن آدم خلق من غير أب ولا أم ، وعيسى خلق من غير أب ، فلو كان عيسى إلهاً بسبب ذلك لكان آدم أولى ، لكن آدم ليس ابناً ولا إلهاً باعترافكم ، فعيسى أيضاً ليس ابناً ولا إلهاً .

والحذْف قد صيّر في الكلام طلاوة وأكْسَبَهُ رونقاً وجعل الجملة مثلاً مأثوراً يعطي الكلام حجة في الردّ على النصارى ويذكر الجميع بأن آدم والناس جميعاً ينتهون إليه وإنما خلق من تراب ، فلا عزة إلاّ لله تعالى "[3] .

---

(١) – شرح الطحاوية في العقيدة السلفية : صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، ص٣٧ .

(٢) – سورة آل عمران : الآية ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٧٧ ، والمعجزة الكبرى القرآن : محمد أبو زهرة ، ص٣٩٨ .

(٤) – **قياس الخَلْف** :

هو القياس الذي يتضمن إثبات الشيء بإبطال نقيضه[١] ، فيمكن أن يعرف بأنه " إثبات المطلوب بإبطال نقيضه " ؛ وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان ، ولا يخلو المحل من أحدهما كالمقابلة بين العدم والوجود[٢] .

وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب ؛ أي " إثبات الحق بإبطال نقيضه " للردّ على شبهات المشركين وافتراءات المنكرين ، ومن أمثلة ذلك :

(أ): – قوله الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٣] .

أبطل القرآن الكريم في هذه الآيـــة الكريمة الشرك بعدم وقوع النتيجة التي كان وقوعها حتمياً لو كان ما عليه المشركون من الشرك بالله صحيحاً حقا ، وهي ؛ أي: النتيجة الحتمي وقوعها، فساد الأرض والسموات ، ووجه الفساد أن كون مع الله إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتصرف ، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد ، ولكن الواقع أهما صالحان غير فاسدين ، فثبت التوحيد ببطلان نقيضه وهو الشرك حيث لم تقع النــتيجة الحتمية .

ويسمى هذا النوع من الدليل في علم الكلام دليل التمانع ، أي " امتنعت الوثنية لامتناع الفساد فكانت الوحدانية "[٤] .

(ب):– قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[٥] .

قد أبطل الله ﷻ في هذه الآيـــة الكريمة شبهة المشركـــين بأن القرآن من صنع محمـــد – ﷺ – ، أو من اختلاق إنسان آخر أو جن ؛ وذلك لعدم وقوع النتيجة التي كان وقوعها حتمياً لو كان القرآن من عند غير الله فعلاً ، وهي وجود الاختلاف فيـــه ، أي وجـــود الاضـــطراب

---

(١) – الردّ على المنطقيين : الإمام ابن تيمية ، ص٣٣٩ ، ط : دار المعرفة ، بيروت ، بدون رقم الطبع وتأريخه .

(٢) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٧٧ .

(٣) – سورة الأنبياء : الآيـــة ٢٢ .

(٤) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٧٨ .

(٥) – سورة النساء : من الآيـــة ٨٢ .

والتضاد، فبما أنه لم يوجد فيه من ذلك شيء ، ثبت تنـزيله من حكيم حميد ببطلان نقيضه وهو أنه من عند غير الله .

(٥) – قياس التمثيل :

" قياس التمثيل هو اشتراك الجزأين في علة الحكم "[1] ، وعرفه الإمام ابن تيمية في موضع آخر بقوله : " قياس التمثيل هو الحكم على شيء بما حكم به على غيره بناء على جامع مشترك بينهما "[2] ، ويمكن تعريفه من حيث استخدامه في الردّ والجدل بأنه " إلحاق أحد الشيئين بالآخر ، وذلك بأن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه أو على أمر بدهي لا تنكره العقول وبين الجهة الجامعة بينهما "[3] .

وقياس التمثيل أسلوب مهم في مجال الردّ والجدل ، يقول الإمام ابن تيمية : " قياس التمثيل في القياس العقلي كالبصر في العلم الحسي ، وقياس الشمول كالسمع في العلم الحسي ، ولا ريب أن البصر أعظم وأكمل ، والسمع أوسع وأشمل "[4] .

وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب في استدلاله أثناء ردّه على الشبهات على أدق وجه وأحكمه مقرباً ما بين الحقائق والبداهة العقلية ، وكثير من استدلالات البعث تقوم على تقريب البعث وقدرة الله عليه بما يرون من إنشاء الله لذلك الكون البديع ، وخلق الإنسان وبيان أطواره من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات إلى أن يكون خلقاً سوياً ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

يقول الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[5] ، ويقول سبحانه : ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾[6] .

---

(١) – الردّ على المنطقيين : الإمام ابن تيمية ، ص ٢٠٣ .

(٢) – المرجع السابق : ص٢٠٩ .

(٣) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٧٨ .

(٤) – مجموع الفتاوى : الإمام ابن تيمية ، ٩ / ١٩ .

(٥) – سورة يس : الآية ٧٨ – ٨١ .

(٦) – سورة ق : من الآية ١٥ .

نجد في هذه الآيات الكريمات عقد المشابهة بين ابتداء الخلق وإعادته في أبلغ تعبير وأسلم تقرير، وأن في هذه الأمثلة وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم قياس ما في الغيب على المشاهد، وقياس ما بيّنه الله تعالى وأوجب الإيمان به على ما هو واقع مرئي مشاهد وفيه الدلالة الكاملة على قدرة الله تعالى وأنه المالك لما هو واقع والقادر على ما لم يقع الآن ويقع مستقبلاً كما وعد، و الله لا يخلف الميعاد[1] .

(٦) – **القصص** :

القصة حكاية وقائع وحوادث الحياة ، فهي تشتمل على عبر وعظات ، وقد تساق من خلالها أدلة على الحق وردود على الباطل ، ولكون القصة حقيقية تحكي عن الماضي ، تصغي إليها الآذان وتميل إليها النفوس وتتأثر بنتائجها وتعتبر بعبرها ودروسها .

وقد اتخذها القرآن الكريم أسلوباً للردّ على شبهات المدعو ومجادلة خصوم الحق ، وذكر أهم القصص التي شهدها التاريخ الإنساني وما تضمنته من عبر وعظات ونور هداية ، وأربع منها لأولي العزم من الرسل ؛ وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى – عليهم الصلاة والسلام – ، كما حكى قصة النبي هود وصالح وشعيب ويونس ويوسف وسليمان – عليه السلام – ، وقصتين لغير الرسل من المؤمنين وهما قصة أصحاب الكهف وقصة أصحاب الأخدود مع المؤمنين ، وأذكر فيما يلي ما يتيسر لي – بتوفيق الله عز وجل – من قصة إبراهيم – عليه السلام – لتوضيح الموضوع وبيانه :

قصة إبراهيم – عليه السلام – : كان العرب يفخرون بانتساهم إلى نبي الله إبراهيم – عليه السلام – ويعظمونه ويدّعون أنهم على ملته ، وكان اليهود أيضاً ينتسبون إليه ويعظمونه ، ولذا فعرْض قصته كان أسلوبا قوياً ومؤثراً إذ "مجيء الأدلة على لسان رسول يقر بفضله المخالفون يعطي الدليل قوة فوق قوته الذاتية إذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين : من جهة قوة الدليل الذاتية ، ومن جهة أن الذي قاله رسول أمين يعرفونه ، فيكون هذا قوة إضافية ، وفوق ذلك فيه إلزام وإفحام إذ أنهم يدّعون أنهم أتباعه"[2] .

وقصة إبراهيم – عليه السلام – طويلة ، أذكر فيما يلي ما يتعلق بردّه وإنكاره على أبيه وقومه في إبطال شركهم بالله بعبادة الكواكب والأصنام :

يقول الله تعالى عن تلك القصة :

---

(١) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٧٨ ، ٧٩ .

(٢) – المرجع السابق ، ص٧٩ ، ٨٠ ، (بتصرف يسير) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(1)، أي : أنكر إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الأصنام قائلاً بأهم ﴿ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، أي : تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، وضلالهم هذا واضح لا شبهة فيه ، فإن الأصنام التي اتخذوها آلهة لهم لم تكن آلهة في أنفسها بل باتخاذهم إياها آلهة . ثم جاء ببيان وجه الدلالة من خلال نظره إلى خلق السموات والأرض على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقه ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه حيث لما جن عليه الليل ورأى نجماً قال لقومه على سبيل المناظرة والمحاجة : هذا ربي على زعمكم ، لأنهم كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر ، وكذلك قال لقومه عن القمر : إنه ربي على زعمكم ، وللشمس : إنه ربي على زعمكم ، ثم قال لهم ، وقد رأى أفولها : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، أي : أنا بريء من شرككم بالله تعالى ومن هذه المعبودات التي جعلتموها آلهة مع الله و﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، أي : قصدت بعبادتي وتوحيدي لله ﷻ وحده ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي : مائلاً إلى الحق ، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بعبادة ربي(2) .

وبين لهم كذلك أن هذه الأصنام التي تعبدونها عاجزة عن نفعكم أو إلحاق الضرر بكم ، والإله لا يكون عاجزاً عن جلب الخير ودفع الشر، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾(3) .

ولكن ما زاد هذا البيان والبرهان أباه وقومه إلاّ عناداً وتكبراً وتمسكاً بعبادة أصنامهم.

---

(1) – سورة الأنعام : الآيــة ٧٤ – ٧٩ .

(2) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، والجامع لأحكام القــرآن : الإمــام القــرطبي ، ٧ / ٢٤ – ٢٨ ، (بتصرف) .

(3) – سورة الشعراء : الآيــة ٧٢ – ٧٤ .

وقصة إبراهيم مع ملك قومه النمرود الذي ادعى لنفسه الألوهية مشهورة ، فقد أحضر إبراهيم وجادله مجادلة معاند متكبر ، فردّ عليه إبراهيم رداً قوياً مفحماً قال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] ، فهكذا بهت الذي كفر لأن الإله الحق يجب أن يكون كامل القدرة ، متصرفاً في ملكه حيث يشاء .

وقد أراد إبراهيم إزالة شبهة الشرك عن نفوس قومه كلهم ببيان عجز آلهتهم وإقامة الحجة عليهم ، فبينما هم مجتمعون في عيدهم بعيداً عن معبدهم ومعبوداهم ، ذهب إبراهيم يحمل الفأس فكسر الأصنام وأبقى الصنم الكبير ، قال الله تعالى عن هذه القصة :

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2] .

ففي القصة وجهان للدلالة على ضعف هذه الآلهة وهما :

الأول : أن هذه الأصنام إن كانت آلهة فلم لم تدافع عن نفسها عند تكسيرها ؟ والإلـــه الحق حي لا يموت وهذه قد اندثرت وصارت حطاماً .

الثاني : أنها إذ لم تدافع عن نفسها فلماذا لا تجيـــبكم عمن كسرها ؟ فإن أجابتكم عمن كسرها فهي بحاجة إلى الحماية ولذا فهي ليست آلهة لأن الإله الحق غني عن حماية غيره له[3] .

---

(١) – سورة البقرة : الآيـــة٢٥٨ .

(٢) – سورة الأنبياء : الآيـــة ٥٨ – ٦٧ .

(٣) – عقيدة التوحيد في القرآن الكريم : د . محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي ، ص١٩٦ ، ط١ ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، دار ابن تيمية للنشر والتوزيع ، الرياض .

(٧) – **طلب الدليل لإثبات الدعوى** :

إن من أساليب القرآن الكريم في الردّ على شبهة المدعو أو دعوى الخصم مطالبته بدليل لإثبات مدّعاه ، كما طلب ذلك من اليهود حينما ادعت بأن النار لن تمسهم إلاّ أياماً معدودة بقدر الأيام التي عبدوا فيها العجل ، قال تعالى حكاية عن ذلك : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾[١] ، فردّ الله تعالى عليهم فقال : ﴿ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[٢] ، أي : أخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقف على الأمرين اللذين لا ثالث لهما ، وهما :

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً ، فتكون دعواهم صحيحة فليدلوا بذلك العهد الذي هو حجتهم ، والله لا يخلف عهده ، وإما أن يكونوا متقولين عليه ، فتكون دعواهم كاذبة خالية من الدليل[٣] .

وبما أنه لم يثبت عندهم من الله عهد فقد انتفى الأمر الأول وثبت الأمر الثاني ؛ وهو أن دعواهم خالية من الدليل فبطلت لخلوها من الدليل والبرهان .

(٨) – **التسليم** :

أسلوب التسليم هو أن يفرض المحال إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه ، ثم يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه كقوله تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[٤] .

والمعنى ليس مع الله من إله ، ولو سلم أن معه سبحانه إلهاً للزم من ذلك التسليم لذهاب كل إله من الاثنين بما خلق ، وعلو أحدهما على الآخر ، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ فيه حكم ولا تنتظم أحواله ، والواقع خلاف ذلك ففرض إلهين فأكثر محال لما يلزم منه من المحال[٥] .

---

(١) – سورة البقرة : من الآية ٨٠ .

(٢)– سورة البقرة : من الآية ٨٠ .

(٣) – تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٣٨ ، ٣٩ .

(٤) – سورة المؤمنون : الآية ٩١ .

(٥) – الإتقان في علوم القرآن : الإمام جلال الدين السيوطي ، ٢ / ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ط١ ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ، مكتبة المعارف ، الرياض .

(٩) – **مجاراة الخصم** :

وهو أن يسلم الداعي لخصمه بعض مقدماته ؛ وذلك ليس لأنها تدل وتثبت ما ذهب إليه الخصم وإنما لتبكيته وإلزامه كقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾(1) .

فكأن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – قالوا في الردّ على شبهة المنكرين لنبوتهم: إن ما قلتم بأننا بشر حق لا ننكره ، ولكن دعواكم هذه لا دلالة فيها على عدم الرسالة إذ لا ينافي أن يمن الله علينا بها ، بل البشرية شرط في الرسالة إلى عامة البشر ، فإن سنة الله جرت بأن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم يعرفون قدره ومكانته وصدقه وأمانته ، وقد بين الله تعالى هذه الظاهرة بقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾(2) .

(١٠) – **الردّ على شبهة المدعو أو دعوى الخصم بإثبات نقيضها** :

وهو أسلوب من أساليب الردّ المفحم والملزم ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(3) .

" فقد ادعوا سلباً كلياً فكذبهم الله بما يعترفون بـه وهو الإيجاب الجزئي المناقض للسلب الكلي ، فإن اليهود يعترفون بالتوراة التي بين أيديهم ويفتخرون بها على العرب بأنهم أصحاب

---

(١) – سورة إبراهيم : الآيـة ١٠ ، ١١ .

(٢) – سورة الإسراء : الآيـة ٩٤ ، ٩٥ ، وانظر : الإتقـان في علوم القرآن : الإمام جـلال الـدين السـيوطي ، ٢ / ٣٨٢، ومناهج الجدل في القرآن الكريم : د. زاهر عواض الألمعي ، ص٨٣ ، ٨٤ .

(٣) – سورة الأنعام : الآيـة ٩١ .

كتاب ومع ذلك يقولون ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىۡءٍ ﴾ وهذا تناقض في الحقيقة والواقع كما هو في قرارات أنفسهم ، وهو مسلك من مسالك الإفحام والإلزام ''[1] .

---

(1) – مناهج الجدل في القرآن الكريم : د . زاهر عواض الألمعي ، ص٨٥ .

المقصد الثالث : أساليب منهج الردّ الحسي :

للمنهج الحسي أساليب عديدة ، أبرزها :

(١) – الردّ على شبهة المدعو بما هو مشاهد محسوس :

الردّ على المدعو أو الاحتجاج على الخصم بمثل هذا الأسلوب مقنع للمدعو ومفحم للخصم لكون الحجة والبرهان مما هو مشاهد محسوس يعترف به الكل ولا يسع لأحد إنكاره، كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[١] .

(٢) – الردّ بالواقع المعلوم المخالف لشبهة المدعو أو دعوى الخصم :

إقناع المدعو أو إفحام الخصم ببيان أن الواقع المشاهد والمعلوم لا ينتج منه ما ذهب إليه هو من القول والمعتقد ، وأن دعواه تلزمه القول بما لم يقل به أحد ولم يعترف به هو نفسه ، كقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٢] .

فمن الواقع المشاهد والمعلوم أن الجن والملائكة الذين جعلهم المشركون لله شركاء ، هم خلْق من خلق الله ، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، ولم يقل أحد بأنهم ليسوا من خلق الله ، كما من المعلوم أيضاً بأن الله سبحانه وتعالى لا صاحبة له ، ولم يقل أحد بأن له سبحانه صاحبة ، ومن ينسب إليه الولد لا يعتقد بوجود صاحبة له تعالى ، إذن كيف يكون الجن والملائكة شركاء لله الذي له وحده الخلق والأمر ، وكيف يكون له ولد وبنين وبنات وليس له صاحبة ؟ ! فانتفى التولد عنه تعالى لامتناع التولد عن شيء واحد ، وإنما التولد يكون بين اثنين،

---

(١) – سورة الحج : من الآية ٧٣ .

(٢) – سورة الأنعام : الاية ١٠٠ ، ١٠١ .

ومن ثم وجب تنـــزيه الله ﷻ من أن يشرك به أحد أو ينسب إليه ولد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[1] .

(٣) – الردّ بالتحدي بما هو مشاهد محسوس :

يختلف الخطاب في أسلوبه من مدعو إلى مدعو نظراً لاختلاف الواحد منهما من الآخر في حاله وبيئته وثقافته ومعتقداته وشبهاته ، فلكل مدعو أو لكل نوع من المدعوين أسلوب يناسبه.

وقد يكون الحق واضحاً لا يحتاج إلى حجة أو دليل ، تلمسها الحواس وتستيقنها النفـــوس ومع ذلك يجد الداعية عند بعض المدعوين عناداً ومكابرة للحق حيث يعارضونه لأنـــه مخـــالف لدينهم ومعتقداتهم ، دون أن يفكروا أو يتدبروا ، أو دون حجة وبرهان ، فكـــل مـــا خـــالف عندهم معتقدهم أو هواهم كان باطلاً لابد من مقاومته ومحاربته .

ومن هذا النوع كان تشكيك المشركين في مصدر القرآن الكريم ونسبته إلى الله ﷻ ، وقد توارث أهل الغي والضلال هذه الشبهة منذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا ، وقالوا أقوالاً متعددة متعارضة فيما بينها ، فقالوا تارة بأنه – أي القرآن – من اختلاق محمد نفسه – ﷺ – قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾[2] ، وتارة بأن محمداً – ﷺ – افتراه بمعاونة الآخرين ، قال ﷻ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾[3] ، وتارة بأنه – أي القرآن – سحر ، قال ﷻ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[4] ، وتارة بأنه أساطير الأولين ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[5] .

وقد جاء الردّ في القرآن الكريم على هذه الشبهات بأسلوبين :

الأول : نقض تلك الشبهات بكشف زيغها بأدلة عقلية وحسية ، وهذا لـــيس موضـــوع البحث هنا .

---

(١) – انظر : تيسير الكريم الرحمن : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، ص٢٢٩ ، ومنـــاهج الجدل في القرآن الكريم : د. زاهر عواض الألمعي ، ص٨٧ .

(٢) – سورة يونس : من الآيـــة ٣٨ .

(٣) – سورة الفرقـــان : من الآيـــة ٤ .

(٤) – سورة سبأ : من الآيـــة ٤٣ .

(٥) – سورة الأنفال : الآيـــة ٣١ .

الثاني : نقض تلك الشبهات بأسلوب التحدي المقرون بالأدلة الحسية .

وذلك أن دعوى المشركين أن القرآن من وضع البشر سواء أكان من عند محمد – ﷺ – أو غيره من البشر ، تقتضى أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله لاسيما أنهم أرباب البلاغة والفصاحة والشعر والأدب ، ولكنهم لم يقدروا على أن يأتوا بمثله بل ولا بسورة من مثله ، على رغم التحدي الذي وجهه القرآن إليهم عدة مرات ، متدرجاً في ذلك و متسهلا حيث تحداهم أن يأتوا بمثل حديث القرآن فقال : ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾(١) ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حيث قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٢) ، وتحداهم في موضع آخر أن يأتوا بسورة من مثله فقال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾(٣) ، ثم جاء بتحدي عام وجهه إلى كل من الثقلين ؛ الجن والإنس ، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن حيث قال : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(٤) .

وبالفعل لم يقدر المشركون على الإتيان حتى بمثل آية من آيات القرآن العظيم ، فبطلت دعواهم ، وظهر كذبهم ، وانكشف زيغ شبهتهم ، واتضح صدق النبي – ﷺ – ، وثبت بأن القرآن ليس من اختلاقه ولا من وضع البشر ، وإنما من فوق السموات السبع من لدن حكيم عليم : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾(٥) ، والتحدي المذكور قائم ما بقيت السموات والأرض، فالقرآن لا يزال معجزة خالدة تتحدى المشركين والملحدين قرناً بعد قرن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) – سورة الطور : الآيـــة ٣٤ .

(٢) – سورة هود : من الآيـــة١٣ .

(٣) – سورة البقرة : من الآيـــة٢٣ .

(٤) – سورة الإسراء : الآيـــة ٨٨ .

(٥) – سورة النمل : الآيـــة ٦ .

المبحث الثاني :

منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات في ضوء سير السلف الصالح:

المطلب الأول : منهج الصحابة – رضي الله عنهم – في الردّ على الشبهات .

المطلب الثاني : منهج الأئمة والعلماء في الردّ على الشبهات .

المطلب الأول : **منهج الصحابــة – رضي الله عنهم – في الردّ على الشبهات**

توطئة :

إن الصحابة – رضي الله عنهم – خريجو المدرسة النبوية ، علّمهم النبي – صلى الله عليه وسلم – بعلم ورباهم بتربية كان يتلقاهما من ربه من فوق السماوات السبع ، فنشئوا وترعرعوا على التعليمات القرآنية والإرشادات النبوية المطهرة ، فكانوا أفضل الناس وصفوة الأخيار ، وخير القرون والأمم والأجيال ، قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في أصحابه – رضي الله عنهم – : " خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته "[1] ، " فَهُمْ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون بتزكية الله سبحانه وتعالى لهم وثنائه عليهم ، ولأن السنن التي عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال والحرام إلى غير ذلك من أمور الدين إنما ثبتت بعد معرفة رجال أسانيدها ورواتها وأولهم أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "، و" كلهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح ؛ لأن الله عز وجل ورسوله – صلى الله عليه وسلم – زكياهم وعدلاهم، وذلك مشهور "[2] ، فهم ينابيع الهدى ، ومصابيح الدجى الذين استضاءت المعمورة بنورهم واستنارت قلوب البشرية بجهادهم ، قد ضحوا بكل غال ونفيس ، وبالنفس والنفيس في سبيل إبلاغ رسالة الإسلام لهداية البشر بدءاً من مكة والمدينة ثم إلى عالم العرب ثم إلى أقطار العالم الخارجي ، أداءً لواجب الدعوة وامتثالاً بقول الله عز وجل : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[3] ، وقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوَّأْ مقعده من النار "[4]، ملتزمين في ذلك بمنهج القرآن والسنة متمثلين قول الله عز وجل : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[5] ، وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى

---

(١) – صحيح البخاري : كتاب فضائل الصحابة ، باب : فضائل أصحاب الــنبي – صلى الله عليه وسلم – و– رضي الله عنهم – ، ص٦٩٧، رقــم الحديث : ٣٦٥١ ، (وأخرجه مسلم : ٢٥٣٣) .

(٢) – أسد الغابة : الإمام عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري ، المعروف بابن الأثير ، ١/١ ، ط: بدون .

(٣) – سورة آل عمران : من الآيــة ١١٠ .

(٤) – صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل ، ص٦٦٦ ، رقم الحديث : ٣٤٦١ .

(٥) – سورة النحل : من الآيــة ١٢٥ .

﴿ ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1] ، فمنهجهم – ﷺ – في الردّ على الشبهات كان مشتقاً ومنبثقاً من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ويندرج تحت ما ذكرته من أقسام المنهج في المبحث الأول من هذا الفصل ، وتأتي فيما يلي أمثلة من ردودهم – رضي الله عنه – :

أولاً : ردود أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – :

(١) – الشبهة :

" الوصول إلى الشام ثم الرجوع منه في ليلة واحدة أمر مستحيل ، ومن ثم فادّعاء محمد – ﷺ – بالإسراء كذب ودليل على أنه يكذب فيما يدعو إليه ".

لما أخبر النبي – ﷺ – قومه صبيحة الإسراء بأنه قد أسري به الليلة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء ، وأخبرهم بما أراه الله من آياته الكبرى ، استبعد المشركون ذلك ، واشتدّ تكذيبهم له وأذاهم واستجراؤهم عليه ، وأخذوا يشيعون هذا الخبر ليثبتوا بأنه يكذب فيما يدّعي ويدعو إليه ، وهذا كذب جديد ، لا يقبله شخص ذو عقل سليم ، وجاءوا إلى أبي بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك ؟ يزعم أن أسري به الليلة إلى بيت المقدس ، ويقول كذا وكذا .

الردّ على الشبهة :

ردّ أبو بكر – رضي الله عنه – قائلاً : إنكم تكذبون عليه فقالوا : والله إنه ليقوله ، أي: يقول كذا وكذا ما لا يقبله العقل ، فقال : إن كان قاله فلقد صدق ، فقالوا : أتصدقه بأنه أتى الشام في ليلة واحدة ثم رجع إلى مكة ؟ قال : نعم ، إني لأصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء غدوة وروحة ، أي : فما يعجبكم من ذلك ؟ إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، وهذا أبعد مما تعجبون منه ، وهذا ردّ عقلي قوي ، ثم أراد أبو بكر – رضي الله عنه – أن يلزمهم الحجة ويفحمهم فجاء إلى رسول الله – ﷺ – وقال : يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم ، قال : يا نبي الله فصفه لي ، فإني قد جئته ، فجعل الرسول – ﷺ – يصفه ، ويقول أبو بكر : صدقت ، والمشركون يسمعون[2] ، فكان هذا الردّ بالمنهج الحسي بدليل حسي مشاهد.

---

(١) – سورة يوسف : من الآية ١٠٨ .

(٢) – البداية والنهاية : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١١٣ ، وتاريخ الخلفاء : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ص٣٢ ، ط١ ، ١٣٧١هـ ، ١٩٥٢م ، مطبعة السعادة ، مصر .

(٢) – الشبهة :

" إنكار عمر – رضي الله عنه – موت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "

إن وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كانت مصيبة عظيمة وهزة عنيفة للمسلمين ، أصيب الجميع بالهم والحزن والهول والدهشة ، وفقد بعضهم صوابهم ، حتى إن عمر – رضي الله عنه – جعلته المصيبة ينكر موت النبي – صلى الله عليه وسلم – وخرج إلى الناس يكلمهم ويقول : والله ما مات رسول الله، ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين .

الردّ على الشبهة وإزالتها :

جاء أبو بكر – رضي الله عنه – عقب وصول الخبر إليه بوفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – ودخل على عائشة – رضي الله عنها – فتيمم رسول الله وهو مغشي بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ، ثم أكبّ عليه فقبله وبكى ، ثم خرج وعمر يكلّم الناس ، فقال: أيها الحالف على رسْلِك وقال اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس ، فلما تكلم أبو بكر أقبل الناس إليه وتركوا عمر، فجلس عمر – رضي الله عنه – فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه ، وقال : أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمداً – صلى الله عليه وسلم – فإن محمد – صلى الله عليه وسلم – قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[(١)] ، وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[(٢)] ، وقال: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[(٣)] ، وقال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[(٤)] .

فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر – رضي الله عنه – ، وقال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعَقِرْتُ حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، وعلمت أن النبي قد مات[(١)] .

---

(١) – سورة الزمر : الآيـــة ٣٠ .

(٢) – سورة آل عمران : الآيـــة ١٤٤ .

(٣) – سورة القصص : الآيـــة ٨٨ .

(٤) – سورة الرحمن : الآيـــة ٢٦،٢٧.

(١) – فتح الباري شرح صحيح البخاري : الإمام ابن حجر ، كتاب المغازي ، باب : مرض النبي – صلى الله عليه وسلم – ووفـــاتــــه ، ٨ / ١٤٦ ، والبدايـــة والنهايـــة : الإمام ابن كثير ، ٥ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، والحكمة في الدعوة إلى الله : سعيد القحطـــاني ، ص٢١٥ ، ٢١٦ .

فالمصيبة كانت عظيمة والموقف كان خطيراً والخلاف كان واقعاً ولكن أبا بكر – رضي الله عنه – بفضل الله عز وجل أزال الشبهة وحل الخلاف وألف بين القلوب وثبتها، وأسلوب معالجته للقضية واستخدامه الدليل العقلي والنقلي في إثبات وقوع وفاة النبي بالفعل ، وتثبيت المسلمين على الإيمان والدين والعبادة لله لدليل على أنه أوتي عقلاً راجحاً وحكمة بالغةً وشجاعة فائقة – رضي الله عنه وأرضاه – .

(٣) – الشبهة :

قول عمر – رضي الله عنه – نيابة عن رأي المهاجرين – وهو منهم – حين ارتد من ارتد من العرب بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – وقالوا: نصلي ولا نزكي: يا خليفة رسول الله ، اترك الناس يُصلون ولا يؤدون الزكاة، فإنهم لو قد دخل الإيمان في قلوبهم لأقروا بها، ومما استدل به عمر – رضي الله عنه – قوله: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :"أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام ، وحسابهم على الله "[1] ؟!

الردّ على الشبهة وكشف النقاب عنها :

ردّ أبو بكر – رضي الله عنه – قائلا : " والذي نفسي بيده لأن أقع من السماء أحبُّ إليّ مِن أن أترك شيئاً قاتل عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلاّ أقاتل عليه " ، تبين من هذا أن أبا بكر – رضي الله عنه – كان على يقين أن الامتناع عن أداء الزكاة هو من ضمن ما قاتل عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – ، ويتضح هذا أكثر من ردّه على عمر – رضي الله عنهما – عند احتجاجه على عدم القتال بالحديث حيث قال : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحق الإسلام ، وحسابهم على الله "[1] ؟ فردّ أبو بكر – رضي الله عنه – : ألم يقل الرسول : " إلاّ بحقها " ؟ ألا إن الزكاة من حقها ؟ والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقاتلتهم على منعه، يا ابن الخطاب رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ! أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام ! إنه قد انقطع الوحي وتم الدين ، أو ينقص وأنا حي ؟

---

(١) – صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، باب : فإن تابوا وأقاموا الصلاة ، ص٢٨ ، رقم الحديث : ٢٥ .

(١) – تقدم تخريجه .

فهذا الردّ الصديقي الذي منبعه شدة التأسي بالرسول، واستخدامه الدليل النقلي من فعل النبي وقوله - ﷺ - والدليل العقلي حيث قال: ''قد انقطع الوحي وتم الدين، أ و ينقص وأنا حي''، أزال بفضل الله ﷻ الشبهة، فاجتمع رأي المهاجرين والأنصار مع رأي أبي بكر -رضي الله عنه-، فقاتلوا العرب حتى رجعوا إلى الإسلام، فقال عمر - رضي الله عنه - :والذي نفسي بيده ، لذلك اليوم خير من آل عمر[1] .

(٤) – الشبهة :

''ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث لا يضرنا ضلال الضالين''[2]، يقول بعض الناس: لا يجب علينا القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث لا يضرنا ضلال الآخرين، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[3].

الردّ على الشبهة وكشف حقيقتها :

ردّ أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - على شبهة سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبيناً خطأ الاستدلال بالآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[4]، فقد روى الإمام أبو داود عن قيس قال: قال أبو بكر - رضي الله عنه - بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآيـــة وتضعونها على غير مواضعها ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾، وإنا سمعنا النبي - ﷺ - يقول: ''إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب''[1].

فبين الصديق - رضي الله عنه - المنهج الصحيح للاستدلال ؛ وهو وضع النص في موضـــعه عنـــد الاستدلال به ، أما جرّ مدلول النص إلى حيث تشتهي النفس فذلك غواية لا يؤدي إلى ســـبيل

---

(١) – البداية والنهاية : الإمام ابن كثير ، ٦ / ٣١١ ، وحياة الصحابة : الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ، تحقيق : الشيخ نايف عباس ومحمد على دولة ، ١ / ٤٣٤ ، ط٢ ، ١٤١٤هـــ ، ١٩٩٣م ، دار القلم ، دمشق .

(٢) – شبهات حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : د. فضل إلهي ، ص١٣ ، ط١ ، ١٤١١هـــ ، ١٩٩١م ، الناشر : إدارة ترجمان الإسلام ، حجرانواله ، باكستان .

(٣) – سورة المائدة : من الآيـــة ١٠٥ .

(٤) – الآيـــة نفسها .

(١) – سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب : في الأمر والنهي ، ص٤٧٣ ، رقم الحديث : ٤٣٣٨ .

الرشاد ، ثم جاء – رضي الله عنه – بنص صريح في الموضوع من أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – فالأحاديث يفسر بها القرآن كما يفسر القرآن بالقرآن .

ثانيا : ردود عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –

(١) – الشبهة :

" الاهتمام باللباس النفيس وركوب المركب الراقي من أسباب العزة والرفعة والتمكين "،

(أ) – قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء بشأن الصلح مع أهلها على جمل أورق ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب ، وطاؤه كساء انبجاني ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه ، فقال : ادعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلومس ، فقال : اغسلوا قميصي وخيطوه وأعيروني ثوباً أو قميصاً ، فأتي بقميص كتان فقال : ما هذا ؟ قالوا : كتان ، قال : وما الكتان ؟ فأخبروه فنزع قميصه فغسل ورقع وأتى به فنزع قميصهم ولبس قميصه ، فقال له الجلومس : أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً[١] لكان ذلك أعظم في أعين الروم .

الـردّ :

ردّ عمر – رضي الله عنه – بعد ما سمع مقولتهم قائلاً : " نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلا " ، ثم سار عمر من الجابية إلى بيت المقدس ، وقد تعبت دابته ، فأتوه ببرذون فجعل يهملج به ، فقال لمن معه : احبسوا ، احبسوا ، فنزل عنه ، وضرب وجهه ، وقال : لا علّم الله من علّمَك ، هذا من الخيلاء ، ما كنت أظن الناس يركبون الشياطين ، هاتوا جملي ، ثم نزل وركب الجمل ، ثم لم يركب برذوناً قبله ولا بعده[١] .

(ب) – ولما قدم عمر – رضي الله عنه – الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقيه فأمسكها بيد ، وخاض الماء ومعه بعيره : فقال له أبو عبيدة : قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض ، صنعت كذا وكذا ، قال : فصك في صدره وقال : أَوَ لو غيرك يقولها يا أبا

---

(١) – البرذون : الدابة ، ويطلق على غير العربي من الخيل والبغال ، انظر : القاموس المحيط ، ص١٥٢٢ ، والمعجم الوسيط: مادة : برذن ، ١ / ٤٨ ، ومختار الصحاح : مادة : (برذن) ، ص١٨ .

(١) – البداية والنهاية : الإمام ابن كثير ، ٧ / ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ١٣٥ .

عبيدة، إنكم كنــــتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبـــوا العزة بغيره يذلكم الله[1] .

فهذه الردود فيها حقائق تاريخية ودلالات حسية بيّن من خلالها عمـــر – رضي الله عنه – حـــال العرب قبل الإسلام وأن العزة والتمكين والرفعة لم تحصل لهم عن طريق الكبر والغطرسة أو الجاه والترفع ، وإنما حصلت بالإسلام فحسب حيث قال : " إنكم كنـــتم أذل النـــاس ، وأحقـــر الناس، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله " وهـــذا دليـــل حسي مشاهد ومعلوم .

(٢) – الشبهة :

" جاء في القرآن : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[2] ، فإن كانت الجنة عرضها كعرض السموات والأرض فأين النار الذي يتحدث عنه القرآن وصاحب القرآن – صلى الله عليه وسلم – ؟ ! "

جاء ناس من اليهود إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقالوا : أرأيت قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ، فأين النار ؟

ردّ عمر – رضي الله عنه – :

فقال لهم عمر – رضي الله عنه – : أرأيتم إذا جاء الليل أين النهار ؟ وإذا جاء النهار أين الليل ؟

وهذا ردّ عقلي مفحم ، فكما إنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وإن كنا لا نعلمه ، وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل ، ومن المعلوم أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب ، فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنة في أعلى عليـــين فوق السموات تحت العرش ، كما قال تعالى : ﴿ كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، والنار في أسفل سافلين ، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار والله أعلم[2] .

---

(١) – المرجع السابق ، ٧ / ٦٠ .

(٢) – سورة آل عمران : الآيـــة ١٣٣ .

(١) – سورة الحديد : من الآيـــة ٢١ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١/ ٥٥٤ ، وحياة الصحابـــة : الشيخ محمـــد يوســـف الكانـــدهلوي ، ٣ / ٢٩.

(٣) – الشبهة :

" إلزام الناس بعمل كل ما أمر به الله في كتابه على الوجه الكامل وعدم صدور السيئات منهم ".

روى ابن جرير بسنده عن ابن عون عن الحسن البصري : " أن أناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله ﷻ أَمَرَ أن يُعمل بها ، لا يُعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك ، فقدم وقدموا معه .. فلقي عمر – رضي الله عنه – ،

فقال : متى قدمت ؟

قال : منذ كذا وكذا .

قال : أبإذن قدمت ؟

قال الحسن : (فلا أدري كيف ردَّ عليه) .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أناساً لقوني بمصر فقالوا : إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يُعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك في ذلك .

ردّ عمر – رضي الله عنه – على الشبهة :

قال : فاجمعهم لي .

قال : فجمعتهم له (قال ابن عون : في بَهْو) فأخذ أدناهم رجلاً فقال : أنشدك الله وبحق الإسلام عليك : أقرأت القرآن كله ؟

قال : نعم .

قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ يعني : هل استقصيت العمل به في تصحيح نيتك ، وتطهير قلبك ، ومحاسبة نفسك ؟

قال : لا . (ولو قال نعم لَخَصَمَهُ) أي : لأفحمه وألزمه الحجة .

قال : فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في لفظك (أي كلامك) ؟ فهل أحصيته في أثرك (أي خطواتك ومشيك) ؟

ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم – وهو يسألهم – هل استقصيتم العمل بكتاب الله كله في أنفسكم وجوارحكم وأقوالكم وأفعالكم ، وحركاتكم وسكناتكم ، وهم يجيبون : اللهم لا .

فقال عمر : ثكلت عمر أمه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ (أي بالصورة التي تفهمونها أنتم ، و لم تقيموها في أنفسكم باعترافكم) قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات .. وتلا : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾[1] .

ثم قال : هل علم أهل المدينة ؟ ، أو قال : هل علم أحد بما قدمتم ؟ ، أي : يقصد عمر – رضي الله عنه – : هل انتشرت الشبهة التي جئتم بها بين الناس في المدينة ؟

قالوا : لا .

قال : لو علموا لوعظت بكم[2] ، أي: لجعلتكم عظة ونكالاً لغيركم .

وهكذا أزال عمر – رضي الله عنه – الشبهة باستدلاله العقلي والحسي حيث جعلهم يعترفون بالواقع الذي هم عليها يعرفونه ويحسون به وهو مخالف لما يطلبونه ، ثم جاء بدليل نقلي صريح الدلالة على بطلان الشبهة .

ثالثا : ردّ مصعب بن عمير العبدرى – رضي الله عنه –

الشبهة :

"جاء مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة إلى دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر ليسفها ضعفاء قوم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير – رضي الله عنهم أجمعين – بالباطل ويدعواهم إليه".

كان مصعب بن عمير – رضي الله عنه – أول داعية وأول سفير في الإسلام ، بعثه النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى يثرب لتعليم المسلمين أمور دينهم ولدعوة غير المسلمين إلى الإسلام .

وذات يوم خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير – رضي الله عنهما – يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر – وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة – فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر على بئر يقال له بئر مَرَق ، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم – وسعد بن معاذ وأسَيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل وكلاهما مشركان على دين قومهما – فلما سمعا به قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهَهُما أن يأتيا دارَيْنا ، فإنه لولا أسعد ابن زرارة مني حيث قد علمت كفيتُك ذلك ، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدَّماً ، قال : فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه وقد جاءك

---

(١) – سورة النساء : الآية ٣١ .

(٢) – تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ١ / ٦٦٥ ، ٦٦٦ .

فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه ، قال فوقف عليهما مُتَشَــتِّماً فقال: ما جــاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة[1] .

ردّ مصعب – رضي الله عنه – على الشبهة وبيان حقيقة ما يدعو إليه :

ردّ عليه مصعب – رضي الله عنه – قائلاً: أوَ تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلتــه، وإن كرهتَــه كُفَّ عنك ما تكره، فلما سمع أسيد –وهو سيد قومه؛ ذو عقل وفهم وبصيرة– هذا الــردّ، رأى أنه ردّ عاقل حكيم، لا يرفض طلبه ذو عقل سليم، فقال: أنصفتَ، قال ثم ركز حربته وجلــس إليهما، فكلَّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لَعَرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطَّهَّر وتُطهِّر ثوبَيْك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلِّي، فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما : إنَّ ورائي رجلاً إن اتَّــبَعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ .

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بــن معاذ مقبلاً قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عنــدكم ، فلمــا وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، واحتال أسيد على سعد من أجل أن يذهب إلى مصعب ؛ لكي يحدث له ما حدث له ، فقام سعد بن معاذ مغضباً وأخذ الحربة ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف متشتماً لهما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامه ، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، أتغشانا في دارنا بما نكره ؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب : جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك ما تخلف عنك منهم اثنان .

قال مصعب لسعد : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهتــه عزلنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ؛ لإشراقه وتســهله ، ثم قــال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلتم ودخلتم في هذا الدين ؟ قالا : تغتسل وتطهــر ثوبيــك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، فقام واغتسل وطهر ثوبيه ، وشهد شــهادة الحــق ، ثم

---

(١) – البدايــة والنهايــة : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٥٢ ، وحياة الصحابــة : الشيخ محمــد يوســف الكانــدهلوي ، ١/ ١٨٧ ، ١٨٨ .

ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير ، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيّدنا وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قالوا : فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة[1] .

فهذه الاستجابة العظيمة وإسلام هذا الجمع الغفير في يوم واحد لم يكن ليحصل لولا فضل الله ﷻ وتوفيقه لمصعب – رضي الله عنه – لردّه العقلي المقنع على سيدَي قوميهما ، وأسلوبه اللين معهما، وصبره وحلمه ورفقه وأناته عند سماع التهديد منهما – رضي الله عنهم أجمعين – .

رابعاً : ردّ المغيرة بن شعبة وربعي بن عامر – رضي الله عنهما –

الشبهة :

" الهدف من الجهاد في الإسلام إنما كان السيطرة على اقتصاد البلدان الأخرى "

ومما يؤكد هذه الشبهة أنه لما جاء رسل سعد بن أبي وقاص؛ ومنهم النعمان بن مقرِّن، وفُرات بن حبَّان، وحنظلة بن الربيع التميمي، وعُطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معد يكرب –رضي الله عنهم– قبل وقعة القادسية إلى رستم يدعونه إلى الله ﷻ. فقال لهم رستم: ما أقدمكم ؟ فقالوا: جئنا لموعود الله إيانا أخذَ بلادكم، وسبيَ نسائكم وأبنائكم وأخذ أموالكم .

حقيقة الشبهة وإزالتها :

لما تواجه الجيشان ؛ المسلمون والفرس ، في القادسية ، بعث رُستم إلى سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما يسأله عنه ، فبعث إليه المغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – ، فلما قدم عليه جعل رستم يقول له : " إنكم جيراننا ، وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم ، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا " .

أي: فسر رستم الجهاد تفسيراً مادياً ، ورأى أن المسلمين إنما يقاتلون الأقوام للحصول على المال.

ردّ المغيرة – رضي الله عنه – :

فقال له المغيرة – رضي الله عنه – : " إنا ليس طلبنا الدنيا ، وإنما همنا وطلبنا الآخرة ، وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له : إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني ، فأنا منتقم بهم

---

(١) – البداية والنهاية : الإمام ابن كثير ، ٣ / ١٥٢ ، ١٥٣، وحياة الصحابة : الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ، ١ / ١٨٨، ١٨٩ .

منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرّين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحـــد إلاّ ذلّ ، ولا يعتصم به إلاّ عزّ " .

فقال له رستم: فما هو؟ فقال أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، فقال ما أحسن هذا؟! وأي شيء أيضا؟ قال وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، قال: وحسن أيضا وأي شيء أيضا؟ قال: والنـــاس بنو آدم، فهم أخوة لأب وأم، قال وحسن أيضاً، ثم قال رستم: أرأيـــت إن دخلنـــا في ديـــنكم أترجعون عن بلادنا؟ قال: إي والله ثم لا نقرب بلادكم إلا في تجارة أو حاجة، قـــال: وحســـن أيضاً، قال: ولما خرج المغيرة من عنده ذاكر رستم رؤساء قومه في الإسلام فأنفوا ذلك وأبوا أن يدخلوا فيه .

ثم بعث سعد – رضي الله عنه – إلى رستم رسولاً آخر بطلبه وهو ربعي بن عامر ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة وزرابي الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضـــع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم ، وإنما جئتكم حين دعوتموني فان تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها ، فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضـــيق الـــدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبـــل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله ، قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي[1] .

فبذاك التصريح الجلي من المغيرة وهذا البيان الواضح من ربعي – رضي الله عنهما – تبطل هذه الشبهة وتزول اللبس الذي قد ينشأ من قول النعمان بن مقرن لرستم .

خامساً : ردود عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – :

(١) – **الشبهة :**

" وجوب لبس الثياب الخشنة والامتناع عن لبس الثياب الحسنة " .

---

(١) – البداية والنهاية : الإمام ابن كثير ، ٧ / ٣٩ .

(٢) – **الشبهة** :

"عدم جواز تحكيم الرجال في أمر من الأمور بدليل قول الله ﷻ: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[1]".

(٣) – **الشبهة** :

" قاتل علي – رضي الله عنه – معاوية – رضي الله عنه – و لم يَسْبِ و لم يغنم ممن كانوا معه ، فلئن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم ، ولئن كانوا كافرين حل قتالهم وسبيهم " .

(٤) – **الشبهة** :

"محا علي – رضي الله عنه – نفسه عن إمرة المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين".

هذه شبهات أثارها الحرورية من الخوارج الذين انعزلوا عن جيش علي – رضي الله عنه – بعد رجوعه من الشام إلى الكوفة إثر اتفاقه على الصلح ، قيل إنهم كانوا ستة عشر ألفاً ، وقيل اثني عشر ألفاً وقيل أقل من ذلك ، ونزلوا بمكان يقال حروراء ، وأنكروا أشياء وأثاروا هذه الشبهات، فبعث علي – رضي الله عنه – إليهم عبد الله بن عباس فناظرهم فيها ، وردّ عليهم ما توهموه شبهةً و لم يكن له حقيقة[2] .

حوار ابن عباس معهم وردّه عليهم :

" دخل ابن عباس – رضي الله عنهما – فبادروه بقولهم : ما جاء بك يا ابن عباس ؟ وما هذه الحلّة التي عليك ؟

فرد عليهم: وما تعيبون من ذلك ؟ ولقد رأيت رسول الله – ﷺ – وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1] .

فقالوا : ما جاء بك ؟

قال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله – ﷺ – وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عم رسول الله – ﷺ – وعليه نزل القرآن ، وهم أعلم بتأويله ، جئت لأبلغكم عنهم وأبلغهم عنكم .

---

(١) – سورة يوسف : من الآية ٤٠ .

(٢) – البداية والنهاية : الإمام ابن كثير ، ٧ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ (بتصرف) .

(١) – سورة الأعراف : من الآية ٣٢ .

فقال بعضهم : لا تخاصموا قرشيًّا ، فإن الله يقول : ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾[1] .

وقال بعضهم : بل نكلمه ، قال : فكلمني منهم رجلان أو ثلاثة .. قال : قلت : ما نقمتم عليه ؟ قالوا : ثلاثاً .

فقلت : ما هي ؟

قالوا : حَكَّم الرجال في أمر الله والله يقول : ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[2] .

قال : قلت : هذه واحدة ، وماذا أيضاً ؟

قالوا : فإنه قاتلهم و لم يسبِ و لم يغنم ، فلئن كانوا مؤمنين لم يحل قتالهم ، ولئن كانوا كافرين حل قتالهم وسبيهم .

قال : قلت : ماذا أيضاً ؟

قالوا : ومحا نفسه عن إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

قال : قلت : فإن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله ما ينقض قولكم أترجعون ؟

قالوا : وما لنا لا نرجع ؟

قلت : أما قولكم حكّم الرجال في أمر الله ، فإن الله قال في كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾[1] ، وقال في المرأة وزوجها : ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ ﴾[2] .

فصير الله ذلك إلى حكم الرجال ، فناشدتكم الله أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين، وفي إصلاح ذات البين ، أفضل ، أم في ثمن أرنب ثمنه ربع درهم وفي بضع امرأة ؟

قالوا : بلى هذه أفضل ، قال : أخرجتم من هذه ؟ قالوا : نعم . قال : وأما قولكم : قاتل و لم يسبِ و لم يغنم ، أتسبُون أمكم عائشة ؟ فإن قلتم نسبها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم ، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم ، فأنتم ترددون بين ضلالتين ، أخرجتم من هذه ؟

---

(١) – سورة الزخرف : الآيــة٥٨ .

(٢) – سورة يوسف : الآيــة٤٠ .

(١) – سورة المائدة : من الآيــة ٩٥ .

(٢) – سورة النساء : من الآيــة ٣٥ .

قالوا : نعم . قال : وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين فإني آتيكم بمن ترضون ، إن نـــبي الله يوم الحديـــبية حين صالح أبا سفيان ، وسهيل بن عمرو ، فقال أبو سفيان وسهيل بن عمـــرو : ما نعلم أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك .

قال رسول الله - ﷺ - " اللهم إنك تعلم أني رسولك ، يا علي اكتب ، هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو "[١] .

فبهذه الأدلة النقلية والعقلية أزال ابن عباس - رضي الله عنه - هذه الشبهات فرجع من الحروريـــة ألفان ، وبقي بقيتهم الذين عاندوا فخرجوا فقتلوا جميعاً[٢] .

---

(١) – الاعتصام : أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي ، تحقيق : سيد إبراهيم ، ص٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ط : ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م ، دار الحديث ، القاهرة .

(٢) – المرجع السابق : ص٤٢٣ .

المطلب الثاني : منهج الأئمة والعلماء في الردّ على الشبهات

توطئة:

" الحمد لله الذي جعل في كل زمانٍ فترةً من الرُّسل بقايا من أَهل العلم ، يدُلُّون من ضلَّ إلى الهدى ، ويُبَصِّرُونَ بنورِ الله أهل العمى ، فَكَمْ من قَتيلٍ لإبليس قد أحيوه ، وكَمْ من ضالٍّ تَائِهٍ قد هَدَوْه ، فللَّهِ ما أحسن أثرهم على الناس ، ولكن ما أسوأ أثر المخذِّلين عليهم "[1] .

فالسلف والأئمة وكثير من العلماء من هذه الأمة الإسلامية قد قاموا بحراسة الدين وحمايته من العاديات عليه وعلى أهله من خلال هذه الوظيفة ؛ " الردّ على الشبهات " ، خير قيام ، " وإنَّ من حوى جُمَلاً من ذلك التاريخ رأى في خبر الماضين عِبراً ، وأفاد اعتباراً ، ومنها : مصارع أهل السوء على يد أهل السنة ، إثر مواقفهم الدفاعيَّة عن هذه الملَّة ومكاسرتهم لصنوف الأعداء ، من : الصابئة ، والملاحدة ، والباطنية ، والقرامطة ، والاتحادية ، والرافضة ، واليهود ، والنصارى، والمجوس ، وعبدة الأوثان ، والكلامية المؤولة ، والمعطلة ، على اختلاف مراتبهم .

ومن الطرقيَّة الصوفية ، والإباحية ، والمتنبئين ، وأرباب المذاهب المادية من شيوعية واشتراكية ، وذوي الصَّعَقَات العصبية من بعثية وقومية نصرانية ...

وذلك فيما يُلقُونَه ، ويُلَقِّنُونَه ، بصريف الأقلام ، وقذائف الكلام ، من كفر ، وضلال، وهوى غالب ، وانحلال ، وما يثيرونه من أدواء الشبهات ، وبما ينثرونه من أمراض الشهوات ، والشهوة باب المعاصي ، والمعصية سرادق الفسق .

وقد بلغ جُهْد المصلحين الجهادي في هذا مبلغاً عظيماً ، فلابَسُوا الحياة علماً وعملاً ، ومَحَّصوا الحقائق ، وحَصْحَصَ الحق على أيديهم ، بمواقف لا تتخذ من دون الله ولا رسوله وليجة "[1] .

وهم كثيرون – ولله الحمد – ، ومن أبرزهم – مثلا – :

– الإمام أبو حنيفة[2] – رحمه الله – : ردّ على شبهات الخوارج والدهريين الماديين .

---

(١) – الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد ، ص ٧ .

(١) – المرجع السابق : ص١٣ ، ١٤ .

(٢) – أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، إمام ، مجتهد ، ولد ونشأ بالكوفة ، كان قوي الحجة ومن أحسن الناس منطقاً ، كريماً في أخلاقه ، جواد ، حسن المنطق والصورة ، توفي – رحمه الله – في سجن أبي جعفر المنصور سنة (١٥٠هـ) عندما رفض تولي منصب القضاء ، (" تاريخ بغداد : ١٣ / ٣٢٣ – ٤٣٣ " ، و " وفيات الأعيان : ٢ / ٢١٥ –

– الإمام الشافعي – رحمه الله – : ردّ على منكري السنة وأهل البدع .

– الإمام أحمد بن حنبل الشيباني[1] – رحمه الله – : ردّ على الجهمية والمعتزلة ، وأهل الأهواء .

– الإمام أبو حامد الغزالي – رحمه الله – : ردّ على النصارى والفلاسفة .

– الإمام ابن تيمية – رحمه الله – : ردّ على النصارى ، والملحدين ، والرافضة والفلاسفة والمتكلمين .

– الإمام ابن القيم – رحمه الله – : ردّ على اليهود والنصارى ، والمنكرين للصانع ، والمكذبين للرسل ، وأهل البدع والأهواء .

– الإمام ابن حزم – رحمه الله – : ردّ على اليهود والنصارى والمجوس والدهريين.

وهناك عدد من العلماء والدعاة المعاصرين أيضاً قاموا بهذا الواجب وسعوا للردّ على شبهات المدعوين على اختلاف أصنافهم لا يسع المكان لذكر أسمائهم هنا .

وسأتحدث فيما يلي عن مناهج البعض من هؤلاء الأئمة والعلماء في الردّ على شبهات المدعويين بإيجاز .

---

٢١٩ " ، و" النجوم الزاهرة : ٢ / ١٢ " ، و" البداية والنهاية : ١٠ / ١٠٧ "، و" تذكرة الحفاظ : ١ / ١٦٨ " ، و" مطالع البدور في منازل السرور : علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي ، ١ / ١٥ ") .

(١) – أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، أحد الأئمة الأعلام ، ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ ، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين فكفلته أمه ، وبدأ بطلب العلم ، وحج سنة ١٨٧هـ ، ثم رحل إلى صنعاء ليأخذ العلم عن عبد الرزاق صاحب المصنف ، ثم عاد إلى بغداد ، وواصل طلب العلم والتعليم ، وتوفي يوم الجمعة ١٢/ ٤/ ٢٤١هـ ، وحضر جنازته ألف ألف وخمسمائة ألف ، (سير أعلام النبلاء : ١١ / ١٧٧ ، ٣٤٠ ، والبداية والنهاية : ١٠ / ٣٢٥ ، ٣٤٢ ، وتهذيب التهذيب : ابن حجر ، ١ / ٦٢) .

أولاً : منهج الإمام أبي حنيفة في الردّ على الشبهات:

منهج الإمام أبي حنيفة – رحمه الله – في الردّ على شبهات المدعو وبيان الحق له هو منهج السلف الصالح ؛ المستنبط من الكتاب والسنة ، فهو يردّ على الشبهة إما بأدلة نقلية من الكتاب والسنة ، أو بأدلة عقلية ، أو بأدلة فطرية ، أو بأدلة حسية حسب ما يناسب المدعو بالنظر إلى حاله ونوع شبهته .

فموقفه – رحمه الله – من أهل الباطل ومنهجه في الردّ على بطلان عقائدهم وأفكارهم وإحقاق الحق وبيانه لهم مغاير لطريقة الفلاسفة ومنهج المتكلمين ، فمثلا :

(١) – ردّه – رحمه الله – على الملاحدة والدهريين في إنكارهم الخالق :

يجحد الملاحدة خالق الكون ومدبره والمتصرف فيه ، ويزعمون أن العالَم وُجد بلا خالق ويسير بنفسه بلا مدبر ، ويقولون ببقاء الدهر ، وهم بإنكارهم للخالق قد أنكروا البعث والنشور وكذبوا الرسل من غير دليل لهم ولا برهان ، قال تعالى إخباراً عنهم : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[١] .

ردّ عليهم الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – في إحدى مناظراته وقعت بينه وبينهم قائلاً : " أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام وغيره بنفسها وتعود بنفسها فترسو بنفسها وترجع كل ذلك من غير أن يديرها أحد ؟

فقالوا : هذا محال لا يمكن أبداً ، فقال لهم : إذا كان هذا محالا في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله ؟ ......"[١] .

وقد رويت هذه المناظرة بصيغة أخرى مشابهة لها وفيها أن الإمام أبا حنيفة قال لهم : " ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأمتعة وقد احتوشتها في لجة أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهي من بينها تجري مستوية ليس فيها ملاح يجريها ويقودها ويسوقها ولا متعهد يدفعها هل يجوز ذلك في العقل ؟

فقالوا : لا ، هذا لا يقبله العقل ولا يجيزه الوهم .

---

(١) – سورة الجاثية : الآية ٢٤ .

(١) – شرح العقيدة الطحاوية : ص٢٥ ، ٢٦ ، وشرح الفقه الأكبر للقاري : ص١٤ ، ط : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤هـ ، بيروت .

فقال لهم أبو حنيفة : فيا سبحان الله إذا لم يجز في العقل وجود سفينة تجري مستوية من غير متعهد فكيف يجوز قيام الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أمورها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ومحدث لها ؟ ...... ''[1] .

وفي مناظرة أخرى وقعت بين الإمام وملحد دهري ، ردّ الإمام – رحمه الله – على شبهته وأقام عليه الحجة ، والقصة كما يلي :

قال الدهري : '' إنما تغيرت الأشياء من حال إلى حال لأن بناءها على الطبائع الأربعة – رطوبة ويبوسة وبرودة وحرارة – فما دام هذه الطبائع مستوية وصاحبها مستوياً ومتى غلب طبيعة منها على سائرها زالت عن الاستواء فزال استواء صاحبها أيضا.

قال أبو حنيفة – رحمه الله – ردّاً عليه أقررت بالصانع والمصنوع والغالب والمغلوب من حيث أنكرت لأنك قلت إحدى الطباع تغلب على سائرها وسائرها تصير مغلوبة .

فثبت أن للعالم غالبا في الحكمة فقد تعدينا عن مسألتكم فقلنا : الغالب ليس هو إلا الصانع جلت قدرته ..... ''[1] .

وهكذا كان الإمام – رحمه الله – يستخدم أدلة عقلية في الردّ على شبهات الملاحدة والدهريين وافتراءاتهم .

(٢) – نقده لمنهج المتكلمين في الردّ على شبهة الإلحاد وتقرير وجود الله ﷻ :

نهج المعتزلة ومتكلمو الأشاعرة والماتريدية في الردّ على شبهة الإلحاد وتقرير وجود الله ﷻ منهج الفلاسفة ، فسلكوا في الاستدلال على وجود الله ﷻ طريقة الأعراض والجواهر ، واستدلوا بحدوث كل منهما على حدوث العالم ، فإذا ثبت أن العالم حادث فالله هو المحدث.

يقول القاضي عبد الجبار [2] المعتزلي في بيانه لهذه الطريقة :

---

(١) – مناقب أبي حنيفة : الإمام موفق أحمد المكي ، ط : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

(١) – شرح الفقه الأبسط لأبي حنيفة : أبو الليث السمرقندي ، والمطبوع خطأ باسم شرح الفقه الأكبر لأبي منصور الماتريدي ضمن الرسائل السبع في العقائد والصواب أنه شرح الفقه الأبسط لأبي الليث السمرقندي ، انظر تحقيق ذلك في مقدمة الكوثري لكتاب العالم والمتعلم ، ص٣٢ ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ ، دار المعارف العثمانية بالهند .

(٢) – هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار أبو الحسن الهمذاني قال عنه الذهبي : '' العلامة المتكلم ، صاحب التصانيف الكثيرة ، من كبار فقهاء الشافعية ، ولي قضاء القضاء بالري ، تخرج به خلق في الرأي الممقوت مات سنة ٤١٥هـ، سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٤٤ ، وانظر : ترجمته في لسان الميزان ٣ / ٣٨٦ ، وشذرات الذهب ٣ / ٢٠٢ .

" إنه ينبغي لمن أراد الاستدلال على وجود الله عن طريق الأعراض فعليـــه أن يثبتـــها ثم يوضح حدوثها وإنها تحتاج إلى محدث وفاعل يغاير الحوادث وهو الله تعالى "[1] .

وقال الرازي الأشعري شارحا هذه الطريقة :

" وقد عرفت أن العالم إما جواهر وإما أعراض وقد يستدل بكل واحد منهما على وجود الصانع إما بإمكانه أو بحدوثه فهذه وجوه أربعة ... "[2] .

وأشار عضد الدين الأيجي الأشعري[3] إلى هذه الطريقة فقال :

" وقد علمت أن العالم إما جواهر وإما أعراض وقد استدل على إثبات الصانع بكل واحد منهما وبإمكانه أو بحدوثه فهذه وجوه أربعة ..... " [1] .

وقال التفتازاني شارح العقيدة النسفية الماتريدية شارحا هذه الطريقة :

" فإذا تقرر أن العالم أعيان وأعراض والأعيان أجسام وجواهر فنقول : إن الكل حـــادث أما الأعراض فبعضها بالمشاهدة كالحركـــة بعد السكون والضوء بعد الظلمـــة والســـواد بعـــد البياض .... وبعضها بالدليل وهو طريان العدم .... وأما الأعيان فلأنها لا تخلو مـــن الحـــوادث وكل ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ..... فنـــتج من كل هذا أن العالم كله حادث ولمـــا ثبت أن العالم محدَث ومعلوم أن المحدَث لابد له من محدِث ضرورة امتناع ترجيح أحـــد طـــرفي الممكن من غير مرجح ثبت أنه له محدِثا والمحدِث للعالم هو الله تعالى "[2] .

هذه هي طريقة المعتزلة ومن تبعهم من الأشاعرة والماتريدية في إثبات وجـــود الله الخـــالق وحدوث العالم .

---

(١) – شرح الأصول الخمسة : القاضي عبد الجبار الهمذاني ، تحقيق : د . عبد الكريم عثمـــان ، ص ٩٢ ، ط١ ، مكتبـــة وهبة، القاهرة .

(٢) – محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين : الإمام فخر الدين الرازي ، ص١٠٦ ، الناشر : دار الكتاب العربي .

(٣) – هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار الأيجي قال عنه ابن حجر : " كان إماما في المعقول ، قائما بالأصول والمعاني والعربية ، مشاركا في الفنون ، وكان كثير المال جدا كريم النفس يكثر الأنعام على الطلبة ، مات سنة ٧٥٦هـــ .

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : الحافظ بن حجر العسقلاني ، ٢/ ٣٢٢ ،٣٢٣ ، ط : دار الجبل ، بيروت .

(١) – المواقف في علم الكلام : عبد الرحمن بن أحمد الأيجي ، ص٢٦٦ ، الناشر : دار الباز للطباعة والنشر ، ط : دار عالم الكتب ، بيروت .

(٢) – العقائد النسفية : نجم الدين عمر النسفي مع شرح التفتازاني لها ، ط : كُتُب خانة امدادية ، ديوبند ، الهند ، وطبعت ضمن مجموعة النفائس ، بيروت ، لبنان ، مركز خدمات الثقافية ، (نقلاً من أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة : محمد بـــن عبد الرحمن الخميس ، ٢٣٢/١، ٢٣٣، (رسالة الدكتوراه قدمت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام، الرياض، ١٤١١هـــ).

موقف الإمام أبي حنيفة – رحمه الله – من هذا المنهج الاستدلالي:

إن منهج الإمام أبي حنيفة في إثبات وجود الله الخالق وتقرير الربوبية مغاير لهذه الطريقة ، فمسلك الإمام هو مسلك السلف الصالح المستنبط من الكتاب والسنة ، فبالتالي كل طريقة ليس مصدرها الكتاب والسنة فهي طريقة مبتدعة في نظر الإمام ، لذلك شنع على عمرو بن عبيد من المعتزلة لأنه فتح الكلام في هذا حيث قال : " لعن الله عمرو بن عبيد فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما يغنيهم من الكلام "[1] .

وكان ينصح من سأله بعدم سلوك هذه الطريقة لأنها في نظره مقالات الفلاسفة ، ويوصي بلزوم طريقة السلف المأخوذة من الكتاب والسنة والأثر، فقد سئل – رحمه الله – :

" ما تقول فيما أحدثه الناس في الكلام في الأعراض والأجسام ؟ فقال : مقالات الفلاسفة عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعة "[2] .

وهذا هو ما كان عليه السلف فإنهم أنكروا الكلام في الجوهر والأعراض وفي ذلك يقول التيمي[1] :

" أنكر السلف الكلام في الجوهر والأعراض وقالوا : لم يكن على عهد الصحابة والتابعين – رضي الله عن الصحابة ورحم التابعين – ولا يخلو أن يكونوا سكتوا عن ذلك وهم عالمون به، فيسعنا السكوت عما سكتوا عنه ، أو يكونون سكتوا عنه وهم غير عالمين به ، فيسعنا ألا نعلم ما لم يعلموه ، والحديث الذي ذكرناه يقتضي أن ما تكلم فيه الآخرون من ذلك و لم يتكلم فيه الأولون يكون مردوداً ...... "[2] .

وقال أبو الوفاء بن عقيل[3]:

---

(١) – ذم الكلام للهروي مخطوط: (ق ١٩٦ / ب) ، توجد منه نسخة بالمكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة .

(٢) – المرجع السابق : (١٩٤ / ب) .

(١) – هو إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي بن أحمد القرشي التيمي الطلحي الأصبهاني الملقب بقوام السنة، الإمام، العلامة، الحافظ، شيخ الإسلام، مصنف كتاب الترغيب والترهيب، ولد سنة ٤٥٧هـ وتوفي سنة ٥٣٥هـ، (سير أعلام النبلاء:٢٠/٨٠ ، وتذكرة الحفاظ: ١٢٧٧/٤).

(٢) – الحجة في بيان المحجة : أبو القاسم إسماعيل بن محمد التميمي الأصبهاني ، تحقيق : محمد بن ربيع المدخلي ، ص١٧ ، ١٨ ، رسالة دكتوراه ، قدمت في جامعة أم القرى .

(٣) – هو علي بن عقيل بن محمد أبو الوفاء الظفري الحنبلي أحد الأعلام وفرد زمانه علما ونقلا وذكاء وتفننا ، له تصانيف كثيرة منها الفنون في أزيد من أربع مائة مجلدا إلا أنه خالف السلف ووافق المعتزلة في عدة بدع – نسأل الله العفو والسلامة – ، فإن كثرة التبحر في الكلام ربما أضر بصاحبه ، وهو من كبار الأئمة ، كان معتزليا ثم اشهد على نفسه أنه

" أنا أقطع أن الصحابة - رضوان الله عليهم - ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت "[1] .

(٣) – منهجه الاستدلالي في الردّ على شبهة الإلحاد وتقرير الربوبية :

منهج الإمام - رحمه الله - في الردّ على شبهة الإلحاد وتقرير الربوبية هو منهج السلف الصالح - ﷺ - فإنهم أعرضوا عن مبحث الوجود والاستدلال عليه لأنه أمر مسلم به مركوز في فطر البشر لا يكاد أحد ينازع فيه إلا شرذمة قليلة من البشر كالدهرية في القديم والشيوعية ومن سايرها من ملاحدة العصر[1] .

يقول الملا على قاري - رحمه الله - في كتابه شرح الفقه الأكبر عن منهج الإمام - رحمه الله - في تقرير وجود الله ﷻ : " أعرض الإمام عن بحث الوجود اكتفاءً بما هو ظاهر في مقام الشهود ففي التنزيل : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2] ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[3] ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[4] .

تاب عن ذلك ، ثم صنف في الرد عليهم ، وقد أثنى عليه أهل عصره ومن بعدهم وأطراه بن الجوزي وعول على كلامه في أكثر تصانيفه ، كان إماما ، فقيها ، مبرزا ، مناظرا ، مجودا ، حسن العشرة ، سمع الجوهري وأبا بكر بن نشوان وأبا يعلى بن الفراء وجماعة، وروى عنه جماعة منهم أبو المعمر الأنصاري وأبو المظفر السبحي وأبو القاسم الناصحي وآخرون ، كان مولده سنة ثلاثين وأربع مائة أو بعدها بسنة ومات في جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة وخمس مائة ، (لسان الميزان : ابن حجر ، ٤/٢٤٣) .

(١) – تلبيس إبليس : عبد الرحمن بن الجوزي ، ص١٠٥ ، ط : ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، دار الكتب العربي ، بيروت.

(١) – أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة : محمد بن عبد الرحمن الخميس ، ١/ ٢٣٥ ، (رسالة الدكتوراه قدمت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام ، الرياض ، ١٤١١هـ) .

(٢) – سورة إبراهيم : من الآية ١٠ .

(٣) – سورة الزخرف : الآية٨٧ .

(٤) – سورة الروم : من الآية ٣٠ .

فوجود الحق ثابت في فطر الخلق كما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى ويومئ إليه حديث "كل مولود يولد على الفطرة ... "[1] على فطرة الإسلام ، وإنما جاء الأنبياء – عليهم السلام – لبيان التوحيد وتبيان التفريد .

ولذا أطبقت كلمتهم وأجمعت حجتهم على كلمة لا إله إلا الله ، ولم يأمروا أهل ملتهم بأن يقولوا : الله موجود بل قصدوا إظهار أن غيره ليس بمعبود ردا لما توهموا وتخيلوا حيث قالوا : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾[2] ، ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾[3] ، على أن التوحيد يفيد الوجود مع مزيد التأييد ثم العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع الذي هو الأصل .... "[4] .

ولكن لما وُجد في عصر الإمام – رحمه الله – من انتكست فطرته وعميت بصيرته فشك في وجود الرب الخالق سبحانه وتعالى ، وانتشرت هذه الشبهة وكثر الملاحدة ، ناقشهم الإمام وردّ على شبهتهم ، وكان يستدل في الردّ بالأدلة العقلية والحسية ودلالات الفطرة :

(١) – **الأدلة العقلية** : وقد سبق ذكر مثال لاستخدام الإمام الدليل العقلي في الردّ على شبهة الإلحاد .

(٢) – **دلالات الفطرة** : قد استخدم الإمام – رحمه الله – دلالات الفطرة في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى ردّاً على شبهة الملحدين ، وإثبات صفة العلو لله سبحانه وتعالى ردّاً على منكري صفة العلو من أهل الكلام ، فقال – مثلاً – في إثبات صفة العلو : "والله تعالى يدعى من أعلى لا من أسفل لأنّ الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء ..."[1] .

فالنفوس فطرت على أن الله تعالى في العلو لا في السفل ، واستدل الإمام على ذلك بحديث الجارية التي أجابت النبي – صلى الله عليه وسلم – حينما سألها " أين الله ؟ قالت في السماء "[2].

فأجابت بما وقر في فطرتها وجبلت عليه من أن الله في العلو فأقرها النبي – صلى الله عليه وسلم – وأمر بإعتاقها ووصفها بأنها مؤمنة ، هذه دلالة الفطرة على وجود الخالق ومعرفته وأنه في العلو[3] .

---

(١) – صحيح البخاري : رقم الحديث : ١٣٨٥، تقدم تخريجه .

(٢) – سورة يونس : من الآية ١٨ .

(٣) – سورة الزمر : من الآية ٣ .

(٤) – شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة: الملا علي القاري : ص١٦ ، ١٧ ، ط : ١٤٠٤هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(١) – الفقه الأبسط : ص٥١ .

(٢) – صحيح مسلم: كتاب المساجد، باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، ص٢١٧، رقم الحديث: ٥٣٧ .

(٣) – **الأدلة الحسية** : رُوي عن الإمام – رحمه الله – أنه سئل ما الدليل على الصانع ؟ فأجاب :

" أعجب دليل النطفة التي في الرحم والجنين في البطن يخلقه الله في ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة ..... فلما رأينا المرأة تلد مرة ذكرا ومرة أنثى ومرة توأمين وطورا ثلاثة .

وتريد أن تلد فلا تلد وتريد ألا تلد فتلد ، وتريد الذكر فيكون الأنثى ، وتريد الأنثى فيكون الذكر ، على خلاف اختيار الأبوين فعرفنا قطعا قدرة قادر عالم حكيم "[٢] .

وكثيراً ما نجد في القرآن الكريم أدلة من هذا النوع ، يقول الله ﷻ – مثلا – : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾[١] ، " فهذه الآيات تلفت نظر الإنسان أنه كان نطفة في الرحم فصارت النطفة علقة ثم مضغة ثم لحما وعصبا وعظما وأعضاء وحواس ، ثم يخرج بعد تلك الأطوار بشرا سويا صور على أحسن صورة وخلق على أحسن خلقة ، ثم تتعاقب عليه الأحوال من كبر وصغر وضعف وقوة وجهل وعلم ومرض وصحة ، ثم الموت والفناء لكل حي فلا بد لهذه التغيرات من مغير عالم قادر حكيم "[٢] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[٣] .

تدعو هذه الآيات إلى النظر في مخلوقات الله والتأمل والتفكر فيها إذ إنها أدلة قطعية مشاهدة حسية على وجود الله ﷻ ووحدانيته وعظيم قدرته وعلو شأنه وكمال حكمته .

ولأجل ذلك قال الإمام أبو حنيفة : " إنه لا عذر لأحد بالجهل بخالقه لما يرى من خلق السموات والأرض وخلق نفسه وسائر خلق ربه "[٤] .

---

(١) – أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة : محمد بن عبد الرحمن الخميس ، ١ / ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، (بتصرف) .

(٢) – قلائد عقود العقيان في مناقب أبي حنيفة النعمان : (ق ٧٧ ، ب) .

(١) – سورة المؤمنون : الآية ١٢ – ١٥ .

(٢) – أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة : محمد بن عبد الرحمن الخميس ، ١ / ٢٤١ .

(٣) – سورة الغاشية : الآية ١٧ – ٢٠ .

(٤) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٩ / ٦٢ .

وهنا يتبين أنه – رحمه الله – كان يرد على الشبه بمنهج أو أكثر – في الوقت نفسه – من المناهج الثلاثة التي سبق ذكرها[1] حسب ما كان تقتضيه الشبهة المطلوب إبطالها ويتناسب مع حال المدعو.

---

(١) – انظر: المطلب الأول تحت المبحث الأول من هذا الفصل ، ص٣٢٣ .

ثانيا : منهج الإمام الشافعي في الردّ على الشبهات

الشافعي – رحمه الله – أحد أئمة السلف ومن أعظم من حارب الكلام وأهله وردّ على الملحدين وأبطل شبهاتهم ، ونهج في ذلك منهج السلف المستنبط من كتاب الله وسنة نبيه – ﷺ – .

و لم يعرف في عصر الشافعي من له قدرة الشافعي في الردّ على خصمه وإبطال شبهاته ، وما من أحد في عصره كملت فيه أدوات الحوار والردّ والمناظرة وأسباب الفلج كما كملت فيه، ومن أعظم هذه الأدوات : حدة ذكائه ، وسرعة خاطره ، وتوثب الحجج إلى ذهنه ، ولمح الوهن في أدلة خصمه ، وبيانه الذي لا يجارى فيه ، وثروته اللفظية والتعبيرية الهائلة ، مع قوة جنانه وثباته عند اصطراع العقول ، ورمق العيون للعيون[1] .

ورُوى عن موقفه من أهل الكلام أنه قال : '' كل متكلم من الكتاب والسنة فهو الحق ، وما سواهما هذيان ''[1] ، وقال أيضاً : '' ما شيء أبغض إلي من الكلام وأهله ''[2] ، وقال الإمام أحمد – رحمه الله – : '' كان الشافعي إذا ثبت عنده الحديث قال به ، وخير خصاله أنه لم يكن يشتهي الكلام ، إنما همته الفقه ''[3] ، فكان مذهب الشافعي الكراهية في الخوض في الكلام، وكان ينهى الناس عن الخوض فيه[4] .

وليس من كراهية الشافعي لعلم الكلام أنه كان يتخلى عن الإجابة في مسائل هي من علم الكلام[5] ، أو يتوقف عن الردّ على شبهات يثيرها أهل الأهواء والإلحاد ، بل كان يجيب على تلك المسائل ويرد على الشبهات ، وكان منهجه في ذلك منهج السلف الصالح المستنبط من الكتاب والسنة المتمثل فيما جاء ذكره من أقسام المناهج وأساليبها في ضوء القرآن والسنة ، وأذكر فيما يلي بعضاً من ردوده كأمثلة وشواهد على مناهجه – إن شاء الله – :

---

(١) – الإمام الشافعي ، فقيه السنة الأكبر : عبد الغني الدقر ، ص٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ، دار القلم، دمشق ، (بتصرف) .

(١) – توالي التأسيس : الإمام ابن حجر ، ص٦٤ .

(٢) – شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ، ٢ / ٩ .

(٣) – توالي التأسيس : الإمام ابن حجر ، ص٦٣ .

(٤) – آداب الشافعي ومناقبه : أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، تحقيق : عبد الغني عبد الخالق ، ص١٨٨، ١٨٩، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٥) – الإمام الشافعي ، فقيه السنة الأكبر : عبد الغني الدقر ، ص٢٥٠ .

(١) – ردّه – رحمه الله – على بشر المريسي :

سأله بشر المريسي بحضرة هارون الرشيد[1] قال : أخبرني ما الدليل على أن الله تعالى واحد ، فقال الشافعي : يا بشر ما تدري من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم[2] إلا أنه لابد لي أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت ، الدليل عليه به ومنه وإليه[3] .

واختلاف الأصوات من المصوت إذ كان المحرك واحداً ، واختلاف الصور دليل على أنه واحد[1] .

وعدم الضد في الكل على الدوام دليل على أنه واحد[2] ، وأربع نيران مختلفات في جسد واحد متفقات الدوام على تركيبه في استقامة الشكل دليل على أن الله تعالى واحد[3] .

---

(١) – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، ٩ / ٨٣ ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

(٢) – الخواص عند الإمام الشافعي هم علماء السنة أهل الحديث والأثر وليس علماء الكلام فإن بشراً المريسي من أهل الكلام ويعرف لسانهم ولكن الذي لا يعلمه بشر هو طريقة السلف في الاستدلال ، لذلك ذكر له دليل الآيات المشهور .

(٣) – معنى هذا – والله أعلم – أن الشافعي – رحمه الله – يستدل على الله بالله وهذا يشبه قول شيخ الإسلام – رحمه الله – (كيف تطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ، انظر : مجموع الفتاوى ، ١٨/٢، ١٩) .

(١) – يعنى أن آلات الصوت والكلام في الإنسان من لسان وأسنان وشفتين وحلق وحنجرة وحبال صوتية وقوة دافعة للهواء واحدة في كل بني آدم ومع ذلك تجد بين الأفراد اختلافا كبيرا بل نجد الاختلاف في ذلك بين الوالد وأبنائه حتى إن الأطباء في هذا الزمان يقولون إن اختلاف الصوت مثل اختلاف بصمات الأصابع فمن الذي فرق بين الأصوات بهذا الشكل الدقيق الذي لا نجد اثنين مهما كانت قرابتهما متفقين في صوتيهما فهذا يدل على وجود الله ووحدانيته في ، والله أعلم .

ومعنى قوله واختلاف الصور أن الله خلق آدم من تراب وخلف ذريته من ماء مهين ومع ذلك لا نجد اثنين في الدنيا يتشابهان في كل شيء حتى في أبناء الأب الواحد ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (سورة الروم : الآية٢٢) .

(٢) – قوله وعدم الضَد في الكل على الدوام معناه أن الإنسان مع ما فيه تغير وتبدل من حال إلى حال فهو قد كان نطفة ثم علقة ثم تطور إلى أن خرج وصار طفلاً ثم شاباً ثم كهلا ثم شيخاً ومع ما يعتريه في حياته من مرض وصحة وسمن وهزال ومع ذلك فالإنسان هو هو لم يتغير صوته و لم تتغير صورته ، انظر : مناقب الشافعي للرازي : ص١٠٩ .

(٣) – وتفسيره : أن في البدن نيرانا أربعة .

أحدها : نار الشهوة ، وهي الحرارة التي تؤثر في بدن الإنسان عند قضاء الشهوة من الجماع .

وثانيها : حرارة الغضب وهي الحرارة التي تثور عند استيلاء الغضب .

ثالثها : الحرارة القائمة بأعضاء الغذاء وهي الحرارة الغريزية المؤثرة في هضم الغذاء .

ورابعها : الحرارة الغريزية المتولدة في قلبه وهي الحرارة المؤثرة التي يتم بها أمر الحياة . فهذه الأنواع الأربعة من الحرارة : نيران مختلفة بالماهية ثم إنها اجتمعت في بدن الإنسان تبقى كل واحد منها على صفتها المخصوصة وطبيعتها المخصوصة ،

وأربع طبائع مختلفات في الخافقين أضداد غير أشكال مؤلفات على صلاح الأحوال دليل على أن الله واحد[1] .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] ، كل ذلك دليل على أن الله واحد لا شريك له .

(٢) – ردّه على المزني :

روى ابن عساكر بسنده عن المزني قال : لما وافى الشافعي مصر قلت في نفسي إن كان أحد يخرج ما في ضميري وتعلق به خاطري من أمر التوحيد فهو ، فصرت إليه وهو جالس في مسجد مصر ، فلما جثوت بين يديه قلت له إنه قد هجز[2] في ضميري مسألة في التوحيد

وهي كامنة في بدن الإنسان لا تظهر إلا عند وقت الحاجة إليها ، ثم إنها مع اختلافها وتباينها متوافقة متعاونة على مصلحة الإنسان وموجبة لاستقامة وسلامة ذلك الجسد ، مناقب الشافعي للبيهقي : ١ / ٤٠٠ ، مناقب الشافعي للرازي : ١٠٩ .

(١) – وتفسيره أن أبدان الحيوانات (على قول الأطباء) متولدة من الأرض والماء والهواء والنار ..ثم إنها أضداد متغايرة متنافرة متعاندة بطبائعها فاجتماعها في البدن الواحد لا بد وأن يكون بقدرة قادرة وتدبير مدبر قدير ، مناقب الشافعي للرازي، ص١١١ .

وقال البيهقي – رحمه الله – وقد بين الله تعالى ، في كتابه العزيز تحول أنفسنا من حالة إلى حالة وتغيرها ليستدل بذلك على خالقها ومحولها فقال : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (سورة نوح : الآية ١٣ ، ١٤) . وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ (سورة المؤمنون : الآية ١٢ – ١٥) .

''فالإنسان إذا فكر في نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرفة ، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحماً وعظماً ، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال لأنه لا يقدر أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل التي هي كمال عقله وبلوغ رشده عضوا من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة فيدله ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز ، وقد يرى نفسه شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى الشيخوخة والهرم ، ولا اختاره لنفسه ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل هذه الأفعال بنفسه وأن له صانعا صنعه وناقلا نقله من حال إلى حال ...''، الاعتقاد والهداية للبيهقي : ٤٣ .

(١) – سورة البقرة : الآية ١٦٤ .

(٢) – هجز : الهجز لغة في الهجس وهي النبأة الخفية ، اللسان ، ٥ / ٤٢٣ .

فعلمت أن أحداً لا يعلم علمك فما الذي عندك ، فغضب ثم قال لي أتدري أين أنت جالس قلت: نعم أنا جالس بفسطاط مصر في مسجدها بين يدي أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي قال : هيهات إنك بتاران جبلاه[1] يضربك تياره وأنت لا تعلم وهذا هو الموضع الذي غرق فيه فرعون .

أبلغك أن رسول الله – ﷺ – أمر بالسؤال عن ذلك ؟ فقلت لا، فقال : هل تكلم فيه الصحابة ؟ فقلت لا، فقال لي : تدري كم نجم في السماء ؟ فقلت : لا ، قال: فكوكب من هذه الكواكب الذي تراه تعرف جنسيته طلوعه وأفوله مما خلق ؟ قلت لا ، قال: فشيء تراه بعينك خلق ضعيف من خلق الله لست تعرفه تتكلم في علم خالقه ! ثم سألني عن مسألة في الوضوء فأخطأت فيها ففرعها على أربعة أوجه فلم أصب في شيء منه ، ثم قال لي : شيء تحتاج إليه في اليوم مراراً خمسة تدع تعلمه وتتكلف علم الخالق ! إذا هجس في ضميرك ذلك فارجع إلى الله تعالى .. وإلى قوله : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1] ، فاستدل بالمخلوق على الخالق ولا تتكلف علم ما لا يبلغه عقلك .

فقلت : قد تبت إن عدت في ذلك[2] .

(٣) – ردّه على الزنادقة :

روي عن الإمام الشافعي – رحمه الله – أنه قال : استقبلني سبعة عشر زنديقا في طريق غزة فقالوا مالدليل على الصانع ؟ فقلت لهم : إن ذكرت دليلاً شافياً هل تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، قلت : ورق الفرصاد[3] طعمها ولونها وريحها سواء ، فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبريسم، ويأكلها النحل فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر، فالطبع واحد وإن كان موجبا عندك فيجب أن يوجب شيئا واحداً لأن الحقيقة الواحدة لا

---

(١) – تاران : مكان في بحر القلزم وهو أخبث مكان في البحر، به دوران ماء في سفح جبل يقلب السفن فلا سبيل إلى سلوكه ، معجم البلدان ، ٢ / ٦ .

وقد تحرف جبلاه إلى جنبلان وهو خطأ واضح .

(١) – سورة البقرة : من الآية ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) – تبيين كذب المفتري : ابن عساكر ، ص٣٤٢ ، ط : ١٣٩٩هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، وانظر : منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة : د . محمد بن عبد الوهاب العقيل ، ٢ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ط٢ ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م ، مكتبة أضواء السلف ، الرياض .

(٣) – الفرصاد : التوت ، انظر اللسان ، ٣ / ٣٣٣ .

توجب إلا شيئا واحدا ولا توجب متضادات متنافرات ومن جوز هذا كان عن المنقول خارجاً وفي التيه والجاً فانظر كيف تغيرت الحالات عليها فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر يحول عليها الأحوال ويغير التارات .

قال فبهتوا ثم قالوا : لقد أتيت بالعجب العجاب فآمنوا وحسن إيمانهم[1] .

(٤) – ردّه على شبهة الملحدين :

وقال – رحمه الله – : '' رأيت قلعة حصينة ملساء ، لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة وباطنها كالذهب وجدرانها حصينة محكمة ثم رأيت الجدار ينشق فيخرج من القلعة حيوان سميع بصير مصوت ، فعلمت ضرورة أن الطبيعة لا تقدر على ذلك وأنه فعل صانع حكيم، فالقلعة هي البيضة والحيوان هو الدجاجة[1] ، وهذا فيه ردّ قوي على شبهة الملحدين الطبيعيين .

وكان – رحمه الله – كثيراً ما يتمثل بالأبيات التالية :

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبدا شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[2] .

(٥) – ردّه على شبهة خلق القرآن :

روى البيهقي بسنده عن أبي محمد الزبيري قال : قال رجل للشافعي : أخبرني عن القرآن خالق هو ؟ قال الشافعي : اللهم لا ، قال : فمخلوق ؟ قال الشافعي : اللهم لا ، قال : فغير مخلوق ؟ قال : الشافعي اللهم نعم ، قال : فما الدليل على أنه غير مخلوق فرفع الشافعي رأسه وقال : تقر بأن القرآن كلام الله ؟ قال : نعم ، قال الشافعي : سبقت في هذه الكلمة قال الله تعالى : ﴿ وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾[3] .

---

(١) – مفيد العلوم : للقزويني ، ٢٥ ، ٢٦ (مفيد العلوم ومبيد الهموم : القزويني) .

(١) – المرجع السابق: ص٢٦ ، وقد روي نحو هذا عن الإمام أحمد – رحمه الله – ، انظر : عقيدة المسلمين للبليهي، ١/ ١٢٤.

(٢) – مناقب الشافعي : أبو بكر أحمد الحسين البيهقي ، تحقيق : أحمد صقر ، ص١٠٩ ، ط١ ، ١٣٩٠هـ – ١٩٧٠م ، دار التراث .

(٣) – سورة التوبة : الآية ٦ .

﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾[1] .

قال الشافعي : فتقر أن الله كان وكان كلامه أو كان الله ولم يكن كلامه .

قال الرجل : بل كان الله وكان كلامه .

قال فتبسم الشافعي وقال : " يا كوفيون إنكم لتأتون بعظيم من القول إذا كنتم تقرون بأن الله كان قبل القبل ، وكان كلامه فمن أين لكم الكلام أن الكلام الله ؟ أو سوى الله ؟ أو غير الله ؟ أو دون الله ؟ قال فسكت الرجل وخرج "[2] .

يتبين مما سلف ذكره من ردود الإمام الشافعي – رحمه الله – أنه نهج في الردّ تارة منهج إيقاظ الفطرة وتارة المنهج العقلي وتارة الحسي حسب حال المدعو وشبهته مستخدماً الأدلة العقلية المتنوعة والمختلفة والأدلة الحسية الظاهرة والكامنة في مخلوقات الله في الآفاق والأنفس ، كما يلاحظ بوضوح خلو استدلالاته من كلام أهل الكلام والبدع والفلاسفة لإقامة الحجة وبيان الحق .

---

(١) – سورة النساء : من الآية ١٦٤ .

(٢) – مناقب الشافعي : أبو بكر أحمد الحسين البيهقي ، ١ / ٤٠٨ .

ثالثاً : منهج الإمام أحمد بن حنبل في الردّ على الشبهات:

إن الله ﷻ أكرمَ قوماً بطاعتِه ، ثم امتحنَهم ببليَّتِه ، ليُعظم لهم الحظَّ الجزيل من كرامتــه ، ويُــبلِّغهم بذلك أسنى المراتب من نعمته .

وكان من أعظمهم في ذلك عطيّة، وأشدِّهم في دين الله بليَّة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيــباني – رحمه الله –، فإن الله ﷻ ابتلاه ثم صَبَّره، وأقامه لنصرةِ دينه ويسَّره، وأعلى ذكره بذلك ونَشَره، وأجزل له من الثواب وبَشَّره، فسبحان الله الذي أنعم عليه، وقَرّبه لديه، وســاق ذلك الفضلَ العظيمَ إليه[1] .

ترجمت في عصره – رحمه الله – العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرهمــا ، وكان للفلسفة والعلوم الجديدة وعلم الكلام من المأمون أعظــم ناصــر ، وكثــر المخربــون والمفسدون من أهل البدع والكلام ، وكثرت آراؤهم وانتشرت شبهاتهم .

فكان الإمام أحمد من أعظم من وقف ضد هذا التيار المنحرف وحارب الكلام وأهله وردّ عليهم وأبطل شبهاتهم ، وضرب – رحمه الله – أورع المثل في القيام بالردّ على الشبه وقمع البدع ونصر السنة ونشر الحق، وثبت –في سبيل ذلك– في محنة لم يثبت لها الكثير على مثاله، وامتحانه –رحمه الله– لما اشتعلت الفتنة في القول بخلق القرآن في عهد المأمون والمعتصم والواثق مشــهور، وثباته فيه على الحق معروف، وقد أُلّفت في ذلك مؤلفات، أصر على رأيه الصريح، ولم يغير من جوابه وردّه الذي كان يردده كلما صحا من إغماءة التعذيب والتنكيل، فيقول: هو كــلام الله تعالى، غير مخلوق، '' فكانت محنــته مشعل هداية للسارين، وانتصارا رائعاً لأهل السنة الأبــرار المتقين، ولقد قيل لبشر الحافي زاهد عصره، حين ضرب أحمد بن حنبل في المحنة: يا بشــر، لــو قمت فتكلمت كما تكلم أحمد ، فقال: لا أقوى عليه، إن أحمد قد قام في ذلك مقام الأنبياء .

وما أصدق كلمة الإمام والمحدث الشهير علي بن المديني في ذلك : إن الله ﷻ أيــد هــذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة ، وبعمر ابن عبد العزيز يوم رد المظالم ، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة ''[2] .

---

(١) – محنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل : الحافظ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بــن ســرور المقدســي ، تحقيق: د . عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ص٣ ، ط١ ، ١٤٠٧هــ – ١٩٨٧م ، هجر : للطباعــة والنشــر والتوزيــع والإعلان .

(٢) – مقدمة المرجع السابق ، كتبها المحقق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ص١٠ .

ونهج – رحمه الله – في الردّ على شبهات أهل الكلام وافتراءاتهم منهج السلف الصالح المستنبط من كتاب الله وسنة نبيه – ﷺ – المتمثل فيما سبق ذكره من أقسام المناهج وأساليبها في ضوء القرآن والسنة ، وكان "ينهى الناس عن علم الكلام ، وهو العلم الذي يتكلم في العقائد بطرق فلسفية ، فكان يذم أهل الكلام ، وإن أصابوا ، وينهى عن تدقيق النظر في أسماء الله تعالى وصفاته .

وما كان ذلك النهي إلا لأن هذا مسلك لم يسلكه السلف ، ولأنه إن أدّى إلى الصواب مرة فقد يؤدي إلى الضلال ، وقد يتيه العقل به في متاهات لا جدوى عند النجاة منها ، وفيها الضلال البعيد إن لم تكن النجاة "(١) .

وأذكر فيما يلي بعضاً من ردوده كأمثلة وشواهد تتبين من خلالها مناهجه في الردّ – إن شاء الله – .

(١) – ردّ الإمام – رحمه الله – على شبهة الجهمية في الاستواء :

الشبهة :

أنكر الجهمية أن يكون الله تعالى مستوياً على العرش ، بل عندهم أنه في كل مكان لا يخلو منه شيء .

الردّ :

قال الإمام رداً عليهم : أنكرتم أن يكون الله على العرش ، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾(٢) ، وقال : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾(٣) .

فقالوا : هو تحت الأرض السابعة ، كما هو على العرش ، فهو على العرش وفي السموات وفي الأرض وفي كل مكان ، ولا يخلو منه مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان ، وتلوا آية من القرآن : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾(٤) .

---

(١) – ابن حنبل حياته وعصره – آراؤه وفقهُه : الإمام أبو زهرة ، ص٤٥ ، ط : دار الفكر العربي ، (بدون رقم الطبعة وتاريخها) .

(٢) – سورة طـه : الآية ٥ .

(٣) – سورة الحديد : من الآية ٤ .

(٤) – سورة الأنعام : من الآية ٣ .

فقال الإمام : قد عرف المسلمون أماكن كثيرة ليس فيها من عظمة الرب شيء ، فقالوا : أي مكان ؟ فقال : أجسامكم وأجوافكم وأجواف الخنازير والحشوش ، والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب شيء .

وقد أخبرنا الله أنه في السماء، فقال: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾[1] وقال: ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾[2]، وقال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾[3]، وقال: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾[4]، وقال: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾[5]، وقال : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾[6] ، وقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[7] ، وقال : ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾[8] ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾[9] ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[10] ، فهذا خبر الله أخبرنا أنه في السماء، ووجدنا كل شيء أسفل منه مذموماً ؛ يقول الله جلَّ ثناؤه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[11] ، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾[12] .

وقال لهم : أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه والشياطين مكانهم فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس في مكان واحد ، وإنما معنى قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾[13]: هو إله من في السموات وإله من في الأرض ، وهو على العرش وقد أحاط علمه بما دون العرش ،

---

(١) – سورة الملك : من الآية ١٦ .

(٢) – سورة الملك : من الآية ١٧ .

(٣) – سورة فاطر : من الآية ١٠ .

(٤) – سورة آل عمران : من الآية ٥٥ .

(٥) – سورة النساء : من الآية ١٥٨ .

(٦) – سورة الأنبياء : من الآية ١٩ .

(٧) – سورة النحل : من الآية ٥٠ .

(٨) – سورة المعارج : من الآية ٣ .

(٩) – سورة الأنعام : من الآية ١٨ .

(١٠) – سورة البقرة : من الآية ٢٥٥ .

(١١) – سورة النساء : من الآية ١٤٥ .

(١٢) – سورة فصلت : الآية ٢٩ .

(١٣) – سورة الأنعام : من الآية٣ .

ولا يخلو من علم الله مكان ، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان ، فذلك قوله: ﴿ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾[1] .

ومن الاعتبار في ذلك ؛ لو أن رجلاً كان في يديه قدح من قوارير صاف ، وفيه شراب صاف ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح ، فالله – وله المثل الأعلى – قد أحاط بجميع خلقه من غير أن يكون في شيء من خلقه ...[1] .

بهذه الأدلة النقلية ثم الدليل العقلي والمثل الواقعي المشاهد ردّ الإمام على الجهمية فأفحمهم.

(٢) – ردّه على شبهة الجهمية في العلو :

الشبهة :

قالوا : "إن الله معنا وفينا" .

مذهب أهل السنة في العلو :

أن الله عال فوق خلقه ، غير متصل بهم ، علو ذات ومكانة وشرف وقهر ، وهو من الصفات اللازمة له تعالى شأنه ، ثبتت بالسمع ، وتعرف بالعقل الصحيح ، وتدرك بالفطرة السليمة[2] .

الردّ :

قال الإمام – رحمه الله – ردّاً عليهم بالأدلة النقلية : "قلنا – أي للجهمية – : الله جلّ شأنه يقول : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ، ثم قال : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ يعني الله بعلمه ، ﴿ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ﴾ يعني الله بعلمه، ﴿ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ ﴾ يعني بعلمه فيهم، ﴿ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[3] ، يفتح الخبر بعلمه ويختم الخبر بعلمه".

---

(١) – سورة الطلاق : من الآية١٢ .

(١) – الردّ على الزنادقة و الجهمية : الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : د . عبد الرحمن عميرة ، ص١٣٥ – ١٣٧ ، ط : ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م ، دار اللواء ، الرياض .

(٢) – شرح العقيدة الطحاوية : القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، تحقيق : د . عبد الله بن محسن التركي وشعيب الأرنؤوط ، ٢ / ٣٨٠ ، ط١ ، ١٤٠٨هت – ١٩٨٨م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

(٣) – سورة المجادلة : من الآية ٧ .

ثم يردّ بالأدلة العقلية فيقول :

ويقال للجهمي : إن الله إذا كان معنا بعظمة نفسه ، فقل له : هل يغفر الله لكم فيما بينه وبين خلقه ؟ فإن قال : نعم ، فقد زعم أن الله بائن من خلقه دونه ، وإن قال : لا ، كفر ، وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذب على الله حين زعم أن الله في كل مكان ، ولا يكون في مكان دون مكان ، فقل : أليس الله كان ولا شيء ؟ فيقول : نعم . فقل له : حين خلق الشيء خلقه في نفسه أو خارجاً من نفسه ؟ فإنه يصير إلى ثلاثة أقوال ، لابد له من واحد منها :

إن زعم أن الله خلق الخلق في نفسه كفر ، حين زعم أن الجن والإنس والشياطين في نفسه.

وإن قال : خلقهم خارجاً من نفسه ثم دخل فيهم كان هذا كفراً أيضاً ''.

ثم بيّن – رحمه الله – وجوه معية الله لخلقه بالأدلة النقلية حيث قال :

قال الله جلّ شأنه لموسى : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ ﴾[1] يقول : في الدفع عنكما. وقال : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[2] يقول : في الدفع عنا. وقال: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3] ، وقال : ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾[4] يقول : في النصر لكم على عدوكم. وقال : ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾[5] يقول : بعلمه فيهم. وقال : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[6] يقول : في العون على فرعون .

فلما ظهرت الحجة على الجهمي بما ادعى على الله أنه مع خلقه ، قال : هو في كل شيء غير مماس لشيء ولا مباين منه فقلنا : إذا كان غير مباين أليس هو مماس ؟ قال : لا. قلنا : فكيف يكون في كل شيء غير مماس لشيء ولا مباين ؟ فلم يُحسن الجواب . فقال : بلا كيف ، فخدع جهال الناس بهذه الكلمة وموَّه عليهم .

---

(١) – سورة طه : من الآية ٤٦ .

(٢) – سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

(٣) – سورة البقرة : من الآية ٢٤٩ .

(٤) – سورة محمد : من الآية ٣٥ .

(٥) – سورة النساء : من الآية ١٠٨ .

(٦) – سورة الشعراء : الآية ٦١ ، ٦٢ .

ويرد بالدليل العقلي أيضاً فيقول :

" فقلنا : أليس إذا كان يوم القيامة ، أليس إنما هو في الجنة والنار والعرش والهواء .. قال : بلى ، فقلنا : فأين يكون ربنا ؟ فقال : يكون في كل شيء ، حين زعم أنه دخل في مكان وحُشٍّ قذر رديء .

وإن قال : خلقهم خارجاً من نفسه ثم لم يدخل فيهم ، رجع عن قوله أجمع ، وهو قول أهل السنة ".

ويواصل ردّه بالأدلة النقلية والعقلية قائلاً :

" إذا أردت أن تعلم أن الجهمي لا يقر بعلم الله ، فقل له : الله يقول : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾[1]، وقال: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾[2] ، وقال : ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾[3] ، وقال : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾[4] .

فيقال له : تقر بعلم الله هذا الذي أوقفك عليه بالأعلام والدلالات أم لا ؟ فإن قال : ليس له علم ، كَفَرَ ، وإن قال : لله علم محدث ، كَفَرَ ، حين زعم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى أحدث له علماً فعلم ، فإن قال : لله علم وليس مخلوقاً ولا محدثاً ، رجع عن قوله كله ، وقال بقول أهل السنة ، كما كان حين في الدنيا في كل شيء ، فقلنا : فإن مذهبكم أن ما كان من الله على العرش فهو على العرش ، وما كان من الله في الجنة فهو في الجنة، وما كان من الله في النار فهو في النار ، وما كان من الله في الهواء فهو في الهواء ، فعند ذلك تبين كذبهم على الله جل ثناؤه "[5] .

(٣) – ردّه – رحمه الله – على شبهة الجهمية بأن الله في كل مكان :

الشبهة :

" زعموا أن الله في كل مكان لا يخلو منه مكان " .

---

(١) – سورة البقرة : من الآية ٢٥٥ .

(٢) – سورة النساء : من الآية ١٦٦ .

(٣) – سورة هود : من الآية ١٤ .

(٤) – سورة فصلت : من الآية ٤٧ .

(٥) – الردّ على الزنادقة والجهمية : الإمام أحمد بن حنبل ، ص٣٩ – ٤١ .

الردّ : ردّ الإمام على هذه الشبهة بالأدلة النقلية مقترناً بها الأدلة العقلية حيث قال :

" أخبرونا عن قول الله جل ثناؤه : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ ﴾[1] ، لم يتجلَّ للجبل إن كان فيه بزعمهم ؟ فلو كان فيه كما تزعمون لم يكن يتجلى لشيء هو فيه ، ولكن الله جل ثناؤه على العرش وتجلى لشيء لم يكن فيه ، ورأى الجبل شيئاً لم يكن رآه قبل ذلك ".

وقال للجهم : " فالله نور ؟ فقال : هو نور كله ، فقلنا : فالله قال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[2] ، فقد أخبر الله جل ثناؤه أن له نوراً ، فقلنا : أخبرونا حين زعمتم أن الله في كل مكان وهو نور ، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذي هو فيه إن زعمتم أن الله في كل مكان ؟ وما بال السراج إن أدخل البيت يضيء ؟ ! فعند ذلك تبين للناس كذبهم على الله تعالى، فرحم الله من عقل عن الله ورجع عن القول الذي يخالف الكتاب والسنة "[3] .

(٤) – ردُّه على شبهات الزنادقة بوجود التناقض في القرآن :

(أ) : الشبهة :

قالت الزنادقـــة في قوله تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[4]، وفي قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾[5] ، إن الله قد ذم قوماً كانوا يصلون فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ ، وقال في قوم إنهم إنما دخلوا النار لأنهم لم يكونوا يصلون فشكوا في القرآن من أجل ذلك ، وزعموا أنه متناقض ".

الردّ على الشبهة : ردّ الإمام على هذه الشبهة بقوله: " وأما قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ عنى بـــها المنافقين : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[6] حتى يذهب الوقت ، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾[7] يقول : إذا رأوهم صلوا ، وإذا لم يروهم لم يصلوا .

---

(١) – سورة الأعراف : من الآيـــة ١٤٣ .

(٢) – سورة الزمر : من الآيـــة ٦٩ .

(٣) – الردّ على الزنادقـــة والجهمية : الإمام أحمد بن حنبل ، ص١٤٨ – ١٤٩ .

(٤) – سورة المدثر : الآيـــة ٤٢ ، ٤٣ .

(٥) – سورة الماعون : الآيـــة ٤ .

(٦) – سورة الماعون : الآيـــة ٥ .

(٧) – سورة الماعون : الآيـــة ٦ .

وأما قوله : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ يعني الموحدين المؤمنين، فهذا ما شكت فيه الزنادقة ''[1] .

(ب) : الشبهة :

'' وشكّت الزنادقة في ذكر خلق الإنسان في القرآن ، حيث قال الله تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[2] ثم قال : ﴿ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[3] ثم قال : ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾[4] ثم قال : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[5] ثم قال : ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾[6] ، فقالوا : هذا تلبيس ينقض بعضه بعضاً ''.

الردّ على الشبهة :

ردّ الإمام – رحمه الله – على هذه الشبهة قائلا : '' هذا بدء خلق آدم ، خلقه الله أول بدء من تراب ، ثم من طينة حمراء وسوداء وبيضاء ، ومن طينة طيبة وسبخة ، فكذلك ذريته : طيب وخبيث ، أسود وأحمر وأبيض ، ثم بلَّ ذلك التراب فصار طيناً، فذلك قوله: ﴿ مِّن طِينٍ ﴾، فلما لصق الطين بعضه ببعض ، فصار طيناً لازباً ، بمعنى لاصقاً ، ثم قال : ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ ، يقول : مثل الطين إذا عصر انسل من بين الأصابع ، ثم نتن فصار حمأ مسنوناً ، فخلق من الحمأ، فلما جف صار صلصالاً كالفخار ، يقول : صار له صلصلة كصلصلة الفخار ، له دوي كدوي الفخار ، فهذا بيان خلق آدم .

وأما قوله : ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[7] ، فهذا بدء خلق ذريته ، من سلالة يعني النطفة إذا انسلت من الرجل ، فذلك قوله : ﴿ مِّن مَّآءٍ ﴾ يعني النطفة ، ﴿ مَّهِينٍ ﴾ يعني ضعيف ، فهذا ما شكت فيه الزنادقة ''[8] .

---

(١) – الردّ على الزنادقة والجهمية : الإمام أحمد بن حنبل ، ص ٨٩ .

(٢) – سورة فاطر : من الآية ١١ .

(٣) – سورة الصافات : من الآية ١١ .

(٤) – سورة المؤمنون : من الآية ١٢ .

(٥) – سورة الحجر : من الآية ٢٦ .

(٦) – سورة الرحمن : من الآية ١٤ .

(٧) – سورة السجدة : من الآية ٨ .

(٨) – الردّ على الزنادقة والجهمية : الإمام أحمد بن حنبل ، ص ٨٩ – ٩٠ .

وهنا يتبين من خلال هذه الردود للإمام أحمد على الجهمية والزنادقة أنه كان يرد على الشبه بأدلة متنوعة من خلال ما يتناسب من المناهج - التي سبق ذكرها - مع المدعو حسب مقتضى حاله وشبهته ، كما يلاحظ بوضوح خلو استدلالاته من مناهج الفلاسفة وأهل الكلام في الردّ والمجادلة والمناظرة .

رابعاً : منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الردّ على الشبهات :

إذا عُدّ الأئمة والمجتهدون والعلماء الذين قاموا بالردّ على شبهات المدعويين وتخطئة مزاعم الطوائف المنحرفة عن المنهج الحق وإبطال معتقداتهم الباطلة عبر تاريخ المسلمين الحافل بالخير والعطاء فيأتي في مقدمتهم شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية – رحمه الله – الذي نذر حياته في سبيل ذلك فتصدى لأهل الأهواء والفلسفة والكلام وأهل الدهر والإلحاد ، فكشف عما لديهم من شبهات وزيف وضلال ، وجادلهم بالحق وردّ عليهم بالبرهان ، متبعاً منهج سلف الأمة الصالح من لدن صحابة رسول الله – ﷺ – ومن تبعهم بإحسان .

" واجه شيخ الإسلام خصوما كثيرين ، ويجمعهم أنهم المخالفون لمذهب السلف ولذلك تنوعوا حسب الفرق والطوائف المشهورة ، فإضافة إلى الأشاعرة كان هناك من هو أشد انحرافا منهم ، ولذلك ردّ شيخ الإسلام على جميع الطوائف تقريبا ، ابتداءً بملاحدة الفلسفة والتصوف والباطنيين والرافضة إلى أصحاب المقالات المنحرفة "[1] .

وكان منهجه في الردّ على الشبهات ونقض الافتراءات منهج إيقاظ الفطرة ، والمنهج العقلي ، والمنهج الحسي ، يستخدم منها ما يناسب المدعو حسب شبهته وحاله ؛ وذلك من خلال أساليبه المتعددة والمتنوعة ، أذكر فيما يلي نماذج من ذلك :

أولاً : الاستدلال بأنواع من الأدلة أهمها :

(**١**) – الكتاب والسنة .

(**٢**) – الإجماع : ويستشهد بأنواع من الإجماعات ، وهي :

(أ) – إجماع الصحابة .

(ب) – إجماع علماء الأمة .

(ج) – إجماع جميع البشر والخلق .

(د) – إجماع أهل الكتاب .

(**٣**) – أقوال السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم من أئمة الإسلام .

(**٤**) – الفطرة .

(**٥**) – الأدلة العقلية ، وهي أنواع :

---

(١) – موقف ابن تيمية من الأشاعرة : رسالة الدكتوراه ، إعداد : عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ، ص٣٠٦ ، قدمت في كلية أصول الدين ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام بالرياض ، عام ١٤٠٨هـ.

(أ) – الأدلة العقلية من القرآن والسنة .

(ب) – الأدلة العقلية القياسية .

(ج) – الضرورة العقلية .

(٦) – الأدلة الحسية .

(٧) – القياس .

(٨) – اللغة العربية .

(٩) – التوراة والإنجيل .

أمثلة من استدلالاته واستشهاداته بأنواع من الأدلة في الردّ على الشبهات :

الشبهة :

قالت طائفة من متكلمي أهل الإثبات بأن العبد لا مشيئة له ولا اختيار ولا قدرة ، فأفعاله لا تستند إليه إذ هي ليست فعلاً له ، ولا لقدرته تأثير فيها ، ولا هو أحدثها[١] .

وردّ ابن المطهر الرافضي على هذه الشبهة وقال بأن القول بذلك مخالف للمعقول والمنقول، ولكن وقع في شبهة أخرى حيث أنكر مشيئة الله في أفعال العباد مسنداً إليهم مطلق الحرية والإرادة ، وأورد أدلة من الكتاب التي تفيد إسناد أفعال البشر إليهم وترك الأدلة التي تدل على أن أفعال العباد تحدث بمشيئة الله وقدرته ، وأما عن الدليل العقلي فقال بأن ذلك ؛ أي إسناد أفعال البشر إليهم ، من مقتضيات العلم الضروري[٢] .

الردّ على الشبهة :

إن قول أهل الإثبات مخالف للعقل والنقل وما عليه أهل السنة والجماعة ، والقول الصحيح الذي عليه جمهور أهل السنة هو أن أفعال الإنسان الاختيارية مسندة إليه ، وأنه فاعل لها ومحدث لها[٣] .

وقد ردّ الإمام ابن تيمية على شبهة أهل الإثبات والرافضي من وجوه عدة ، أورد فيما يلي ردّه بالأدلة النقلية والعقلية :

---

(١) – منهاج السنة النبويــة : الإمام ابن تيمية ، ٣ / ٢٣٥ – ٢٣٧ (بتصرف) .

(٢) – المرجع السابق : ٣ / ٢٣٥ .

(٣) – المرجع نفسه : ٣/ ٢٣٥ .

(أ) — **الردّ بالأدلة النقلية** : قال – رحمه الله – : " والقرآن مملوء بما يدل على أن أفعال العباد حادثة بمشيئة الله وقدرته وخلقه ، فيجب الإيمان بكل ما في القرآن ، ولا يجوز أن نـؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾(1) .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾(2) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾(3) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾(4) .

وأجمع علماء المسلمين على أن الرجل لو قال : " لأصلين الظهر غدا إن شـاء الله " ، أو " لأقضين الدين الذي عليَّ ، وصاحبه مطالبه " أو " لأردنَّ هذه الوديعة " ، ونحو ذلك ثم لم يفعله : أنه لا يحنث في يمينه ، ولو كانت المشيئة بمعنى الأمر لحنث .

وقال عن إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾(5) .

وقال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾(6) .

وقال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾(7) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(8) .

---

(1) — سورة البقرة : من الآيـة ٢٥٣ .

(2) – سورة الأنعام : من الآيـة ١٢٥ .

(3) – سورة الأنعام : من الآيـة ١١٢ .

(4) — سورة الكهف : الآيـة ٢٣ ، ٢٤ .

(5) — سورة البقرة : من الآيـة ١٢٨ .

(6) – سورة البقرة : من الآيـة ٢٦ .

(7) — سورة الأنفال : من الآيـة ٢٤ .

(8) — سورة يس : الآيـة ٨ ، ٩ .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[2] .

وقال عن بني إسرائيل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[3] .

وقال عن آل فرعون: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾[4].

وقال عن الخليل – ﷺ – : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾[5].

وقال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾[7] ، والفلك من مصنوعات بني آدم .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[8] ، فإن طائفة من المثبتة للقدر قالوا: إن " ما " هاهنا مصدرية ، وأن المراد : خلقكم وخلق أعمالكم ، وهذا ضعيف جداً .

والصواب أن "ما " هاهنا بمعنى " الذي " ، وأن المراد: والله خلقكم والأصنام التي تعملونها.

كما في حديث حذيفة عن النبي – ﷺ – قال : " إن الله خالق كل صانع وصنعته "[1].

---

(١) – سورة مريم : الآية ٣١ ، ٣٢ .

(٢) – سورة الأنبياء : من الآية ٧٣ .

(٣) – سورة السجدة : الآية ٢٤ .

(٤) – سورة القصص : الآية ٤١ .

(٥) – سورة إبراهيم : الآية ٤٠ .

(٦) – سورة إبراهيم : من الآية ٣٧ .

(٧) – سورة يس : الآية ٤١ ، ٤٢ .

(٨) – سورة الصافات : الآية ٩٦ .

(١) – المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، كتاب الإيمان، ١ / ٨٥ ، رقم الحديث : ٨٦ تعليق الذهبي في التلخيص : هذا حديث صحيح على شرط مسلم .

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] ، فذمهم وأنكر عليهم عبادة ما ينحتونه من الأصنام ، ثم ذكر أن الله خلق العابد والمعبود المنحوت "[2] .

(ب) – **الردّ بالأدلة العقلية** : قال – رحمه الله – : " أن يُقال : بل النفاة خالفوا العلم الضروري ، فإن كون العبد مريداً فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا أمر حادث بعد أن لم يكن ، فإما أن يكون له محدِث ، وإما أن لا يكون له محدِث ، فإن لم يكن له محدِث لزم حدوث الحوادث بلا محدِث ، وإن كان له محدِث فإما أن يكون هو العبد ، أو الرب تعالى ، أو غيرهما .

فإن كان هو العبد ، فالقول في إحداثه لتلك الفاعلية كالقول في إحداث أحداثها ، ويلزم التسلسل ، وهو هنا باطل بالاتفاق ، لأن العبد كائن بعد أن لم يكن ، فيمتنع أن تقوم به حوادث لا أول لها .

وإن كان غير الله ، فالقول فيه كالقول في العبد ، فتعيّن أن يكون الله هو الخالق لكون العبد مريداً فاعلا ، وهو المطلوب .

وأهل السنة يقولون بهذا العلم الضروري ، فيقولون : إن العبد فاعل ، والله خلقه فاعلا (أي: والله خالق فعله) ، والعبد مريد مختار ، والله جعله مريداً مختاراً .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[3] ، وقال الله تعالى : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1] ، فأثبت مشيئة العبد ، وجعلها لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى .

وقال الخليل – ﷺ – : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾[2] .

وقال : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾[3] .

وقال هو وإسماعيل – ﷺ – : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[4].

---

(١) – سورة الصافات : الآيــة ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) – منهاج السنة النبوية : الإمام ابن تيمية : ٣ / ٢٥٧ – ٢٦٠ .

(٣) – سورة الإنسان : الآيــة ٢٩ ، ٣٠ .

(١) – سورة التكوير : الآيــة ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) – سورة إبراهيم : من الآيــة ٤٠ .

(٣) – سورة إبراهيم : من الآيــة ٣٧ .

(٤) – سورة البقرة : من الآيــة ١٢٨ .

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾[2] ، وأمثال ذلك في الكتاب والسنة .

فدليلهم اقتضى مشيئة العبد وأنه فاعل بالاختيار ، وهذا الدليل اقتضى أن هذه المشيئة والاختيار حصلت بمشيئة الرب ، فكلا الأمرين حق .

فمن قال : إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار ، أو قال : إنه لا قدرة له ، أو إنه لم يفعل ذلك الفعل ، أو لا أثر لقدرته فيه و لم يحدث تصرفاته ، فقد أنكر موجب الضرورة الأولى .

ومن قال : إن إرادته وفعله حدثت بغير سبب اقتضى حدوث ذلك ، وأن العبد أحدث ذلك ، وحاله عند إحداثه كما كان قبل إحداثه ، بل خص أحد الزمانين بالإحداث من غير سبب اقتضى تخصيصه ، وأنه صار مريداً فاعلا محدثا بعد أن لم يكن كذلك ، من غير شيء جعله كذلك ، فقد قال بحدوث الحوادث بلا فاعل "[3] .

– **الشبهة** :

أنكر ابن المطهر جهة العلو لله سبحانه وتعالى وقال : " وقالت الكرامية : إن الله في جهة فوق ؛ و لم يعلموا أن كل ما هو جهة فهو محدَث ومحتاج إلى تلك الجهة "[4] .

الردّ على الشبهة : ردّ شيخ الإسلام – رحمه الله – على هذه الشبهة بأنواع من الأدلة ، أذكر فيما يلي خلاصة ردّه على الشبهة :

(أ) – **الكتاب والسنة** : من المعلوم أن القرآن نطق بالعلّو في مواضع كثيرة جداً ، حتى قد قيل إنها نحو ثلاثمائة موضع ، والسنن متواترة عن النبي – ﷺ – بمثل ذلك ، وكلام السلف المنقول عنهم بالتواتر يقتضى اتفاقهم على ذلك وأنه لم يكن فيهم من ينكره .

(ب) – دليل الإجماع : يقال لابن المطهر : لم يقل الكرامية ولا غيرهم بأن الله في جهة موجود تحيط به أو يحتاج إليها ، بل كلهم متفقون على أن الله تعالى غني عن كل ما سواه : سُمِّيَ جهة أو لم يُسم .

---

(١) – سورة السجدة : من الآية ٢٤ .

(٢) – سورة القصص : من الآية ٤١ .

(٣) – منهاج السنة النبوية : الإمام ابن تيمية : ٣ / ٢٣٦ – ٢٣٨ .

(٤) – المرجع السابق : ٢ / ٦٤١ .

نعم قد يقولون : '' هو في جهة '' ويعنون بذلك أنه فوق العالم ، فهذا مذهب الكرامية وغيرهم ، وهو أيضاً مذهب أئمة الشيعة وقدمائهم ، وأنت لم تذكر حجة على إبطاله ، فمن شنَّع على مذهبهم ، فلا بد أن يشير إلى بطلانه ، وجمهور الخلق (وقيل: الخلف) على أن الله فوق العالم ، وإن كان أحدهم لا يلفظ بلفظ '' الجهة '' فهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم أن ربهم فوق .

(ج) – **دليل الفطرة** : إنّ هذا – يقصد جهة العلو لله ﷻ – أمرٌ فُطر الناس عليه وجبلوا عليه، كما قال الشيخ أبو جعفر الهمذاني[1] لبعض من أخذ ينكر الاستواء ويقولون : لو استوى على العرش لقامت به الحوادث ، فقال أبو جعفر ما معناه : إن الاستواء عُلم بالسمع ، ولو لم يرد به لم نعرفه ، وأنت قد تتأوَّله ، فدعنا من هذا وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط : يا الله ، إلا وقبل أن ينطق بلسانه يجد في قلبه معنى يطلب العلو لا يلتفت يَمْنَة ولا يَسْرَة ، فهل عندك من حيلة في دفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ فلطم المتكلم رأسه وقال : حيرني الهمداني ، حيرني الهمداني .

---

(١) – ذكر الذهبي في '' العبر '' ٤ / ٨٥ في وفيات سنة ٥٣١ : '' أبا جعفر الهمذاني محمد بن أبي علي الحسن بن محمد الحافظ الصدوق . رحل وروى عن ابن النقور وأبي صالح المؤذن والفضل بن المحب وطبقتهم بخراسان والعراق والحجاز ، قال ابن السمعاني : ما أعرف أن في عصره أحداً سمع أكثر منه ، توفي في ذي القعدة '' ونقل هذا الكلام ابن العماد في '' شذرات الذهب '' ٤ / ٩٧ وزاد بقوله : وقال ناصر الدين : كان حافظاً من المكثرين ''، وقد ورد في ''طبقات الشافعية'' للسبكي وفي ترجمة الجويني في كتاب ''مختصر العلو للعلي الغفار'' للذهبي (ط: المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠١/ ١٩٨١، بتحقيق الألباني ، ما يثبت أن الحوار التالي دار بين الجويني وبين أبي جعفر الهمذاني ؛ ففي '' طبقات الشافعية ، ٥ / ١٩٠ : '' ... عن أبي العلاء الحافظ الهمذاني أخبره ، قال : أخبرني أبو جعفر الهمذاني الحافظ ، قال : سمعت أبا المعالي الجويني وقد سئل عن قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (سورة طه : الآية٥) ، فقال : كان الله ولا عرش ، وجعل يتخبط في الكلام ، فقلت : قد علمنا ما أشرت إليه فهل عند الضرورات من حيلة ؟ فقال : ما تريد بهذا القول وما تعني بهذه الإشارة ؟ قلت : ما قال عارف قط يا رباه إلا قبل أن يتحرك لسانه قام من باطنه قصد لا يلتفت يمنة ولا يسرة يقصد الفوقية، فهل لهذا القصد الضروري عندك من حيلة ؟ فبينها نتخلص من الفوق والتحت ، وبكيت وبكى الخلق ، فضرب بيده على السرير وصاح بالحيرة وخرق ما كان عليه ، وصارت قيامة في المسجد ، فنزل ولم يجبني إلا بتأفيف الدهشة والحيرة ، وسمعت بعد هذا أصحابه يقولون : سمعناه يقول : حيرني الهمذاني ، انتهى '' ، وانظر : مختصر العلو للعلي الغفار ، ص٢٧٦ ، ٢٧٧ .

ومضمون كلامه أن دليلك على النفي لو صح فهو نظري ، ونحن نجد عندنا علماً ضرورياً بهذا ، فنحن مضطرون إلى هذا العلم وإلى هذا القصد ، فهل عندك من حيلة في دفع هذا العلم الضروري والقصد الضروري الذي يلزمنا لزوماً لا يمكننا دفعه عن أنفسنا ؟!

(د) – **الدليل العقلي** : يقال لهم : لم يعلموا ذلك ، ولم تذكر ما به يُعلم ذلك ، فإن قولك : هو محتاج إلى تلك الجهة ، إنما يستقيم إذا كانت الجهة أمراً وجودياً وكانت لازمة له لا يستغني عنها ، فلا ريب أن من قال : إن الباري لا يقوم إلا بمحل يحل فيه لا يستغني عن ذلك وهي مستغنية عنه ، فقد جعله محتاجاً إلى غيره ، وهذا لم يقله أحد .

فمن فهم عن الكرَّامية وغيرهم من طوائف الإثبات أنهم يقولون : إن الله محتاج إلى العرش فقد افترى عليهم ، كيف وهم يقولون : إنه كان موجوداً قبل العرش ؟ فإذا كان موجوداً قائماً بنفسه قبل العرش لا يكون إلا مستغنياً عن العرش .

وإذا كان الله فوق العرش لم يجب أن يكون محتاجاً إليه ، فإن الله قد خلق العالم بعضه فوق بعض ، ولم يجعل عاليه محتاجاً إلى سافله ، فالهواء فوق الأرض وليس محتاجاً إليها ، وكذلك السحاب فوقها وليس محتاجاً إليها ، وكذلك السماوات فوق السحاب والهواء والأرض وليست محتاجة إلى ذلك ، والعرش فوق السماوات والأرض وليس محتاجا إلى ذلك ، فكيف يكون العلي الأعلى خالق كل شيء محتاجاً إلى مخلوقاته لكونه فوقها عالياً عليها ؟ ![1] .

(هـ) – **دليل من الإنجيل** : استدل الإمام – رحمه الله – في هذه المسألة بالإنجيل حيث قال : وفي الإنجيل أن المسيح قال : "لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسي الله ..." ثم قال : "ومثل هذا من الشواهد كثير يطول به الكتاب"[2] .

– **الردّ على الآمدي** : لما ردّ على الآمدي في إثبات امتناع حلول الحوادث بذاته قال : "والسلف والصحابة والتابعين وأهل الحديث متواتر عنهم ذلك"[1] ؛ يقصد بأن الله ﷻ موصوف بصفات الكمال ، منزَّه عن النقائص .

ومما استشهد به في هذه المسألة أيضاً إجماع الأمة ، وإجماع الملل ، والتوراة والإنجيل والزبور وسائر نبوات الأنبياء[2] ؛ واللغة العربية[3] .

---

(١) – منهاج السنة النبوية : الإمام ابن تيمية : ٢ / ٦٤١ – ٦٤٦ .

(٢) – مجموع الفتاوى : ٥ / ٤٠٦ .

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٤ / ٩٥ .

وهكذا يستدلل الشيخ – رحمه الله – ويستشهد بأنواع من الأدلة في الردّ على الشبهات .

ثانيا : بيان جهل مثيري الشبهة بالمنقول والمعقول :

يكشف شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – حال الذي يثير الشبهة ببيان أنه غير عالم بالكتاب والسنة وأقوال السلف وأنّ الأدلة والبراهين العقلية التي يعتمد عليها مخالفة للعقل؛ وذلك ليتبين أن مقاله شبهة واهية غير متطابقة للنقل والعقل فيقول – مثلا – للذين ينفون العلو ويثبتون بعض الصفات : " نحن لا نرضى أن نجيبكم بما تجيبون به أنتم نفاة الصفات وغيرها مما أثبته الرسول – ﷺ – ، بل نجيبكم وأولئك جميعا ببيان أنه ليس معكم فيما تخالفون به النصوص : لا عقل صريح ، ولا نقل صحيح ، بل ليس معكم في ذلك إلا الأكاذيب المموهة المزخرفة بالألفاظ المجملة الموهمة التي تلقاها بعضكم عن بعض تقليدا لأسلافكم ، فإذا فُسِّر معناها وكُشِف عن مغزاها ظهر فسادها بصريح المعقول ، كما علم فسادها بصحيح المنقول "[٣] .

ويقول في موضع آخر : " ومعلوم أن أئمة الجهمية النفاة والمعتزلة وأمثالهم ، من أبعد الناس عن العلم بمعاني القرآن والأخبار وأقوال السلف ، وتجد أئمتهم من أبعد الناس عن الاستدلال بالكتاب والسنة ، وإنما عمدتهم في الشرعيات على ما يظنونه إجماعا ، مع كثرة خطئهم فيما يظنونه إجماعا ، وليس بإجماع ، وعمدتهم في أصول الدين على ما يظنونه عقليات ، وهي جهليات ، لاسيما مثل الرازي وأمثاله ، الذين يمنعون أن يستدل في هذه المسائل بالكتاب والسنة[١] .

ويقول وهو يردّ على من أنكر رؤية الرب تبارك وتعالى : " ... فأبو الحسين وأمثاله من المعتزلة ، وكذلك الغزالي والرازي وأمثالهما من فروع الجهمية ، هم من أقل الناس علماً بالأحاديث النبوية وأقوال السلف في أصول الدين ، وفي معاني القرآن ، وفيما بلَّغوه من الحديث، حتى أن كثيراً منهم لا يظن أن السلف تكلموا في هذه الأبواب"[٢] .

---

(١) – المرجع السابق : ٤ / ٩٥ ، ٧ / ١٣٤ ، وانظر : في مسألة الاستدلال بالتوراة والإنجيل : درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٤ / ٢٣ ، ٧ / ٧٨ ، ٧٩ ، ومجموع الفتاوى : ١ / ٢١٠ ، ٤ / ١٠٩ ، ٥ / ٥٦٥ ، ١٩ / ١٨٤ .

(٢) – المرجع نفسه : ٤ / ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) – المرجع نفسه : ٧ / ١٣٩ ، ١٤٠ .

(١) – المرجع نفسه : ٧ / ٢٩ .

(٢) – المرجع نفسه : ٧ / ٣١ .

وقال في أبي المعالي الجويني : "مع فرط ذكائه وحرصه على العلم وعلو قدره في فنه كان قليل المعرفة بالآثار النبوية ، ولعله لم يطالع الموطأ حتى يعلم ما فيه ، ولم يكن له بالصحيحين البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي وأمثال هذه السنن علم أصلا ... "[1] .

ثالثاً : بيان مصدر الشبهة وتاريخ نشأتها وسبب ابتداعها :

من أدلة الإمام – رحمه الله – العقلية والتاريخية أنه يبين لصاحب الشبهة أو لغيره من المدعوين المتأثرين بالشبهة مصدرها وتاريخها وسبب ابتداعها لكشف حقيقتها وإبطالها ، يقول – رحمه الله – : "أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام ، وأول من ابتدعها ، وما كان سبب ابتداعها "[2] .

وقد تكون الشبهة لطائفة كافرة معلوم خروجها من الدين ، أو طائفة منتسبة إلى الإسلام ومنحرفة عن منهج السلف الصالح ، وقد تكون صدرت عن أهل الأديان الأخرى كاليهود والنصارى ، أو الهندوس والمجوس والصابئة ، وقد تكون قالها أهل البدع أو الفلاسفة أو الملاحدة من الدهريين والطبيعيين ، فلما يعزو الرادُّ الشبهة إلى مصدرها من هؤلاء عزواً عن علم ويقين يصدم صاحب الشبهة صدمة قوية تنهار لها قواه ، ويضعف موقفه وينكشف بطلان شبهته وينجو من ينجو من المدعويين من الوقوع فيها .

وأذكر فيما يلي نماذج لهذا من أقوال الإمام ابن تيمية – رحمه الله – :

(١) – "ثم أصل هذه المقالة مقالة التعطيل للصفات إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين ... "[1] .

(٢) – "والجهمية النفاة " موافقون لآل فرعون أئمة الضلال "[2] ، ويرجع بعض أفكار المتكلمين إلى الجهمية والمعتزلة .

(٣) – "... وحقيقة قول هؤلاء الاتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح ، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد ولا يوحِّد الله إلا الله ... "[3] .

---

(١) – التفسير الكبير : الإمام ابن تيمية ، ٧ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ومنهاج السنة : ٥ / ٤٣٤ .

(٢) – العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية : أبو عبد الله بن أحمد بن عبد الهادي ، تحقيق : محمد حامد الفقي، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(١) – الفتاوى : ٥ / ٢٠ .

(٢) – الفتاوى : ٥ / ١٧٢ ، انظر : التفسير الكبير : ٤ / ٣٥٤ .

(٣) – منهاج السنة النبوية : الإمام ابن تيمية ، ٥ / ٣٧٠ ، ٣٧١.

(٤) – " وهذه الشبهة – شبهة الجهمية – هي في الأصل نشأت من ملاحدة الأمم المنكرين للصانع ، وهؤلاء أجهل الطوائف ، وأقلهم عقلا ، فلهذا لم تكن العرب تعارض بمثل هذه الشبه ، وإنما ذكر الله تعالى نظير قول الجهمية عن مثل فرعون وأمثاله من المعطلة كالذي حاجّ إبراهيم في ربه "[1] .

وقد ذكر الإمام – رحمه الله – عن كثير من الأفراد أيضاً عن مصادرهم التي تلقوا عنها أفكارهم الخاطئة وشبهاتهم الضالة ، فمنها – مثلا – :

(١) – " وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حران وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته ، وأخذها الجهم أيضاً فيما ذكره الإمام أحمد وغيره ... "[2] .

(٢) – " قلت : أبو عبد الله الرازي غالب مادته في كلام المعتزلة : ما يجده في كتب أبي الحسين البصري ، وصاحبه محمود الخوارزمي ، وشيخه عبد الجبار الهمداني ونحوهم .

وفي كلام الفلاسفة : ما يجده في كتب ابن سينا وأبي البركات ونحوهما وبعض كتب القاضي أبي بكر وأمثاله ، وهو ينقل أيضاً من كلام الشهرستاني وأمثاله "[3] .

(٣) – ويقول عن الآمدي : " أن يقال له ولأمثاله كالرازي والشهرستاني ونحوهما من المتأخرين الذين أثبتوا جواهر معقولة غير متحيزة موافقة للفلاسفة الدهرية "[4] .

رابعاً : مقابلة شبهات طائفة بشبهات طائفة أخرى لبيان بطلان شبهاتهما

يقابل شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – شبهات هذا الطرف بشبهات ذلك الطرف المقابل له ليخرج من بينهما الرأي الصحيح الوسط ، فكلما قال الرافضي – مثلاً – شبهة أو طعناً في أحد الخلفاء الثلاثة – أبي بكر وعمر وعثمان – رضي الله عنهم – قابلها شيخ الإسلام بشبهة مشابهة للنواصب والخوارج في علي – رضي الله عنه – ، وهو لا يقصد بهذا تنقص علي – رضي الله عنه – والعياذ بالله ، وإنما يقصد إحراج الروافض وكفهم عن الاستمرار في هجمهم على الصحابة ، لأنه ما من شيء من الطعون والتهم سيثبتونه على واحد من الصحابة إلا وسيثبت الخوارج والنواصب مماثلاً له في علي – رضي الله عنه – .

---

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٧ / ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) – الفتاوى : ٥ / ٢٢ .

(٣) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٢ / ١٥٩ .

(٤) – المرجع السابق ، ٤ / ١٦٢ .

وهذا مما يخرس ألسنة الروافض ، لأنهم في النهاية سيضطرون إلى أن تضع حربهم على الصحابة أوزارها عندما يرون شبههم وأكاذيبهم تقابل بما يناقضها في علي – رضي الله عنه – فعندها سيبادرون إلى أن يختاروا السلم وعدم ترديد الشبهات حفاظاً على مكانة علي أن يمسها أحد بسوء .

وشيخ الإسلام يعلم أن الروافض والنواصب جميعاً أصحاب كذب وغلو ، ولكنه يقابل غلو هؤلاء وكذبهم بغلو أولئك وكذبهم ، ليسكت الجميع ويدفعهم عن الخوض في أعراض الصحابة .

الأمثلة :

المثال الأول :

قال الإمام ابن تيمية : اجتماع الناس على مبايعة أبي بكر كانت على قولكم أكمل ، وأنتم وغيركم تقولون : إن علياً تخلف عنها مدة ، فيلزم على قولكم أن يكون عليّ مستكبراً عن طاعة الله في نصب أبي بكر عليه إماماً ، فيلزم حينئذ كفر عليّ بمقتضى حجتكم ، أو بطلانها في نفسها، وكفر عليّ باطل ، فلزم بطلانها[1] .

الروافض يزعمون أن معاوية – رضي الله عنه – قد استكبر عن طاعة الله في نصب علي – رضي الله عنه – عليه إماماً ، فلهذا هو شر من إبليس الذي استكبر على آدم ، فيجيبهم شيخ الإسلام دافعاً هذه الفرية عن معاوية بأن هذا يلزم علياً كما يلزم معاوية ، فإن علياً قد تأخر أيضاً عن مبايعة أبي بكر بالخلافة ، فيلزم من هذا على قولكم أنه قد استكبر عن طاعته ، فيلزم من ذلك اللوازم الشنيعة التي ألزمتم بها معاوية .

فإذا لم تلتزموا ذلك ، فالحجة من أصلها باطلة ، فإذا بطلت في حق عليّ فهي باطلة في حق معاوية سواء بسواء .

---

(١) – منهاج السنة النبوية : شيخ الإسلام ابن تيمية ، ٤ / ٥١٥ .

المثال الثاني :

قال الإمام ابن تيمية : قال الرافضي : " وأحرق الفجاءة السلمي بالنار ، وقد نهى النبي - ﷺ - عن الإحراق بالنار ".

الجواب : أن الإحراق بالنار عن عليّ أشهر وأظهر منه عن أبي بكر ، وأنه قد ثبت في الصحيح أن عليّاً أُتِيَ بقوم زنادقة من غلاة الشيعة ، فحرَّقهم بالنار ، فبلغ ذلك ابن عباس ، فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار ، لنهي النبي - ﷺ - أن يُعَذَّب بعذاب الله ، ولضربت أعناقهم ، لقول النبي - ﷺ - : " من بدَّل دينه فاقتلوه " ، فبلغ ذلك عليًّا ، فقال : ويح ابن أم الفضل ما أسقطه على الهنات .

فعليّ حرق جماعة بالنار ، فإن كان ما فعله أبو بكر منكراً ، ففعل عليّ أنكر منه ، وإن كان فعل عليّ مما لا يُنكر مثله على الأئمة ، فأبوبكر أولى أن لا يُنكر عليه[1] .

في هذا الموضع - ومثله كثير - يقلب شيخ الإسلام شبهة الروافض على رؤوسهم ليجعلهم يطلبون النجاة من هذا المأزق الذي ورطوا به أنفسهم بجهلهم ، و لم يكذب شيخ الإسلام على عليّ وإنما أبرز للروافض هذه الحادثة الثابتة ليفحمهم بها ، وهي اجتهاد من إمام المسلمين في زمانه ، فلا يذم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بفعله .

المثال الثالث :

قال الإمام ابن تيمية راداً قول الرافضي بأن فاطمة قد دعت على عمر لأنه ظلمها ، فسلط الله عليه أبا لؤلؤة المجوسي حتى قتله ، والداعي إذا دعا على مسلم بأن يقتله كافر ، كان ذلك دعاء له لا عليه ، كما كان النبي - ﷺ - يدعو لأصحابه بنحو ذلك ، كقوله : " يغفر الله لفلان " فيقولون : لو أمتعتنا به وكان إذا دعا لأحد بذلك استشهد.

ولو قال قائل : إن علياً ظلم أهل صفين والخوارج حتى دعوا عليه بما فعله ابن ملجم ، لم يكن هذا أبعد عن المعقول من هذا ، وكذلك لو قال إن آل سفيان بن حرب دعوا على الحسين بما فعل به[1] .

هذا رد مفحم يشابه الردود السابقة ، وهو مقابلة شبهات أهل الرفض بضدها ، فما قالوه في غير عليّ ، قد يقوله غيرهم في عليّ ، فالأولى بهم أن يصمتوا عن تلفيق الأكاذيب.

---

(١) - منهاج السنة النبوية : شيخ الإسلام ابن تيمية ، ٥ / ٤٩٥ ، ٤٩٦ .

(١) - المرجع السابق : ٦ / ٣١ ، ٣٢ .

وتكلم في موضع آخر عن أصحاب علم الباطن المنحرف في ادعائهم خاتم الأولياء ، ثم قال: " ... بل طوائف كثيرون آل الأمر بهم إلى مشاهدة الحقيقة الكونية القدرية وظنوا أن من شهدها سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وهذا هو دين المشركين الذين قالوا : " لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ... " وهؤلاء شر من القدرية المعتزلة ، الذين يقرون بالأمر والنهي، والوعد والوعيد ويكذبون بالقدر ، فإن أولئك يشبهون المجوس ، وهؤلاء يشبهون المشركين المكذبين بالأنبياء والشرائع ، فهم من شر الناس "[1].

ومن ثم فيجب على هؤلاء التخلي عن شبهاهم الباطلة والعودة إلى الحق الذي قال به سلف الأمة متلقين من الكتاب والسنة .

خامساً : بيان التناقض في أراء أهل الشبهات :

الطوائف الضالة أو الفرق المنحرفة أو الأفراد الذين يعتمدون على عقولهم ويأخذون عن أئمتهم معرضين عن الكتاب والسنة لابد أن يكون في مقالاتهم وأرائهم وأصولهم اختلاف وتناقض .

يقول شيخ الإسلام – رحمه الله – : " غالب على المتفلسفة والمتكلمين المخالفين للكتاب والسنة تجدهم دائماً يتناقضون ، فيحتجون بالحجة التي يزعمون أنها برهان باهر ، ثم في موضع آخر يقولون : إن بديهة العقل يُعلم بها فساد هذه الحجة "[1] .

وكل طائفة ترد على الأخرى لإبطال أدلتها وتخطئة آرائها وكذلك الأفراد ، وقد عرف ابن تيمية هذا الداء فيهم كل المعرفة ، فأخذ يرد عليهم بما تناقضوا به هم مع أنفسهم في أقوالهم وأصولهم ، ويضرب بعضهم بحجج بعض ؛ وذلك لأن :

– " التناقض أول مقامات الفساد "[2] ، فإذا أثبته فيهم ، فإن فسادهم ينكشف في أول مقام من مقامات التناظر ، وبوجوده تظهر فسادات كثيرة ويتوصل من خلاله إلى عيوب كبيرة .

– إذا تبين تناقضهم وخلافهم فيما بينهم ، وأن بعضهم قد رد على بعض فقد أثبت أن القضايا عندهم ليست مسلمة ولا يقينية ولا ظاهرة ، وأن كبار هذا المذهب أو الاتجاه كانوا مترددين ، وبعضهم كانوا حائرين مرتابين .

---

(١) – التفسير الكبير : الإمام ابن تيمية ، ٢ / ٨٤ .

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٣٢٦ .

(٢) – التفسير الكبير : الإمام ابن تيمية ، ٥ / ٤٣٤ .

فهذه المعلومة تحل عقدة الإصرار والتصميم على التقليد والاتباع ، وتثبط من حماس الأتباع والمقلدين نحو متبوعيهم ، وتضعف الثقة بما كانوا ملتزمين فيه[1] .

وأذكر فيما يلي نماذج لتناقض أهل الشبهات المخالفين للكتاب والسنة :

يقول – رحمه الله – : " وهؤلاء المبتدعون يجهلون حقائق ما جاء به الرسول ، ويعرضون عنه ، ثم يحكمون بموجب جهلهم أن ليس في ذلك من البراهين من جنس ما في كلامهم ، ولو أوتوا العقل والفهم لما جاء به الرسول – ﷺ – ، لتبينوا أنه الجامع لكل خير.

وأما فساد طرقهم المخالفة للنصوص ، فهو بيِّن لكل ذكي فاضل منهم ومن غيرهم، ويكفيك أن عمدتهم في أصول الدين إما دليل الأعراض ، وقد عُلم ما فيه من الاعتراض، وإما دليل الوجود المستلزم للواجب .

وقد بينا في غير هذا الموضع أن تلك الطريقة لا تدل على وجود واجبٍ ، فإن ذلك إنما يدل إذا ثبت وجود الممكن الذي يستلزم الواجب ، والممكن عندهم هو متناول القديم والحادث، فجعلوا القديم الأزلي داخلاً في مسمَّى الممكن ، وخالفوا بذلك قول سائر العقلاء من سلفهم وغيرهم ، مع تناقضهم في ذلك .

وبهذا التقدير لا يمكنهم أن يقيموا دليلاً على أن الممكن بهذا الاعتبار يحتاج إلى فاعل، وقد أوردوا على هذه الطريقة من الاعتراضات ما أوردوه ، ولم يمكنهم أن يجيبوا عنه بجواب صحيح، كما قد بسط في موضعه ، ثم غايته إثبات وجودٍ واجب لا يتميز عن المخلوقات ، ولهذا صار كثير منهم إلى أن الوجود الواجب لا يتميز عن المخلوقات ، ولهذا صار كثير إلى أن الوجود الواجب هو وجود المخلوقات ، فكثير من نظَّارهم يطعن في دليل إثبات واجب الوجود ، وكثير من محققيهم وعارفيهم يقول : إن الوجود الواجب هو وجود المخلوقات .

ومآل القولين واحد ، وهو قول فرعون الذي أنكر رب العالمين ، فإن فرعون وغيره لم ينكروا وجود هذا العالم المشهود ، فمن جعله هو الوجود الواجب ، أو كان قوله لا يدل إلا على ذلك ، كان منكراً للصانع ، ثم إذا كان هذا هو الوجود الواجب ، كان ما يلزمهم على ذلك من المحالات أضعاف ما فروا منه ، كما بيّنا ذلك في غير هذا الموضع .

---

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٣٧٦ – ٣٧٧ ، وانظر : منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى : عبد الله بن رشيد بن محمد الحوشاني ، ص٧٠٠ ، (رسالة الدكتوراه ، مقدمة في كلية الدعوة والإعلام ، العام الجامعي : ١٤١٣هـ) .

فمن جعله وجود كل موجود ، كان فيه الشهادة على نفس الوجود المحدث الكائن بعد أن لم يكن بأنه واجب ، ومن جعله وجود الفَلَك كان فيه من افتقار واجب الوجود إلى غيره ، ومن حدوث الحوادث بلا سبب فاعل ، ومن غير ذلك ما يناقض أصولهم وأصول غيرهم المتفق على صحتها ، ويوقعهم في شر مما منه فروا ''[1] .

ويقول عن المعتزلة ونحوهم بعد أن ذكر بعضاً من تناقضهم وضلالهم : '' ... وبُيِّن تناقضهم في الصفات والأفعال حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ، ومع نفي الحكمة ، وبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون بعض ، وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً ''[2] .

ويقول أثناء ردّه في مسألة تماثل الأجسام ، أي : إن الله جسم كالأجسام ؛ '' ومعلوم أن أحداً من الطوائف المعروفة وأهل الأقوال المنقولة لم يقل : إنه جسم مماثل للأجسام كما ذكر ، ومعلوم أيضا أن فساد هذا أبين من أن يحتاج إلى ما ذكره من الأدلة، فإن فساد هذا معلوم بالأدلة اليقينية لما في ذلك من الجمع بين النقيضين ، إذ كان كل منهما يلزم أن يكون واجبا بنفسه لا واجبا بنفسه ، محدثا لا محدثا ، ممكنا لا ممكنا ، قديماً لا قديماً ، إذ المتماثلان يجب اشتراكهما في هذه الصفات ''[1] .

ويقول : '' ... فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنة من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولابد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما أحال نظيره إذ كلامهم من عند غير الله وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[2]''[3].

سادساً : الردّ على صاحب الشبهة بحجته ودليله أو بما يماثله :

وأساس هذا الأسلوب هو أن الدليل الصحيح عقلياً أو نقلياً لا يدل إلاّ على الحق[4] .

ومنهج ابن تيمية – رحمه الله – في مسألة أدلة صاحب الشبهة التي يستدل بها على أقواله أنه يسلك معه فيها مسلكين :

---

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٧ / ٣٨١ – ٣٨٣ .

(٢) – التفسير الكبير : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٢٣٤ .

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٤ / ١٩٧ .

(٢) – سورة النساء : من الآيــة ٨٢ .

(٣) – التفسير الكبير : الإمام ابن تيمية ، ٢ / ١٢٨ .

(٤) – منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى : عبد الله بن رشيد بن محمد الحوشاني ، ص٧٢٩ .

الأول : يثبت له أن أدلته النقلية والعقلية لا تدل على مقصوده ومـــراده فـــلا تصـــلح أن يستدل بها .

الثاني : يثبت له أن هذه الأدلة دلالتها على نقيض قصده أولى وأظهر منها على قصده ، بل هي تخالف ما أراد[1] ، يقول – رحمه الله – : " وقد كنت قديماً ذكرت في بعض كلامي أني تدبرت عامة ما يحتج به النفاة من النصوص ، فوجدتها على نقيض قولهم أدل منها على قولهم كاحتجاجهم على نفي الرؤية بقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾[2].

فبينت أن الإدراك هو الإحاطة لا الرؤية ، وأن هذه الآيـــة تدل على إثبات الرؤية أعظـــم من دلالتها على نفيها ... ثم تبين لي بعد ذلك مع هذا أن المعقولات في هذا كالســـمعيات وأن عامة ما يحتج به النفاة من المعقولات هي أيضاً على نقيض قولهم أدل منها على قـــولهم ، كمـــا يستدلون به على نفي الصفات ونفي الأفعال ، وكما يستدل به الفلاسفة على قدم العالم ، ونحو ذلك ، والمقصود هنا التنبيه "[1] .

ومن أمثلة هذا المنهج أنه – رحمه الله – قال : " ... ثم إنهم جعلوا عمـــدتهم في تنـــــزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم ، ومن سلك هذا المسلك لم ينـــزه الله عـــن شـــيء مـــن النقائص ألبته فإنه ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام إلا يقال له فيما أثبته نظير ما يقوله هو في نفس تلك الصفة .

فإن كان مثبتاً لبعض الصفات قيل له : القول في هذه الصفة التي تنفيها كالقول فيما أثبته ، فإن كان هذا تجسيماً وقولاً باطلاً فهذا كذلك ، وإن قلت : أنا أثبت هذا على الوجه الذي يليق بالرب قيل له : وكذلك هذا ، وإن قلت : أنا أثبته وأنفي التجسيم قيل وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين .

وإن كان ممن يثبت الأسماء وينفي الصفات كالمعتزلة قيل له في الصفات ما يقوله هـــو في الأسماء ، فإذا كان يثبت حياً عالماً قادراً ، وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسماً كـــان إثبات أن له علماً وقدرة كما نطق به الكتاب والسنة كذلك .

---

(١) – المرجع السابق : ص ٧٣٠ .

(٢) – سورة الأنعام : من الآيـــة ١٠٣ .

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

وإن كان ممن لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة ، قيل له : فلابدّ أن تـثبت موجوداً قائماً بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً ، وإن قال : لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفي ، قيل له : سكوتك لا ينفي الحقائق ، ولا واسطة بين النفي والإثبات ، فإما أن يكون حقاً موجوداً وإما أن يكون باطلاً معدوماً ... ''[1] .

ويقول – رحمه الله – : الحجج العقلية التي يحتج بها أهل الضلال ، يحتج بها على نقيض مطلوبهم ، كما أن الحجج السمعية التي يحتجون بها حالها كذلك[2].

سابعاً : نقض أصول أهل الشبهات وقواعدهم :

اخترع أهل الشبهات من الفلاسفة والمتكلمين أصولاً وقوانين من عند أنفسهم بغير هدى من الكتاب والسنة يبنون عليها آراءهم ويستدلّون بها على معتقداتهم ، فخالفوا بذلك نصوص الكتاب والسنة وما قال به سلف الأمة .

فكان من أسلوب شيخ الإسلام – رحمه الله – أنه ناقش تلك القوانين والأصول وبين فسادها وتناقضها واللوازم الباطلة التي تلزم من قال بها ، '' فإذا ثبت فساد القانون فسد كل ما أصلوه وفرعوه عليه ، فبفساد الأصل يفسد الفرع ''[1] .

ومن القوانين والأصول – مثلاً – التي بين بطلانها :

(١) – القانون الذي وضعه الرازي والذي ينص على تقديم العقل على النقل عند التعارض: ألف – رحمه الله – كتاب '' درء تعارض '' للردّ على هذا القانون وبيان فساده ، يقول : '' بيَّنا في هذا الكتاب فساد القانون الفاسد الذي صدُّوا به الناس عن سبيل الله ، وعن فهم مراد الرسول وتصديقه فيما أخبر ، إذ كان أي دليل أقيم على بيان مراد الرسول لا ينفع إذا قُدِّر أن المعارض العقلي (القاطع) ناقَضَه ، بل يصير ذلك قَدْحاً في الرسول ، وقدحا فيمن

---

(١) – التفسير الكبير : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٢٧٥ ، وانظر : التفسير الكبير : ٢ / ١٢١ – ١٢٥ ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ١٢٧ – ١٢٩ .

(٢) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٤ / ٦٩ ، وللمزيد يراجع : التدمرية / ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ومنهاج السنة النبوية : الإمام ابن تيمية ، ٦ / ١٨٤ ، ٧ / ٢٦٦، ١٦٧ ، ١٤ ، ١٥ . وانظر : درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ٣ / ١٣ ، ٤ / ٥١ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٤ ، الاستقامة : ١ / ٥٠ .

(١) – مقدمة موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول : الإمام ابن تيمية ، ص٢٧ ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

استدل بكلامه ، وصار هذا بمنـزلة المريض الذي به أخلاط فاسدة تمنع انتفاعه بالغذاء ، فإن الغذاء لا ينفعه مع وجود الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء ، فكذلك القلب الذي اعتقد قيام الدليل العقلي القاطع على نفي الصفات أو بعضها ، أو نفي عموم خلقه لكل شيء أو نفي أمره ونهيه ، أو امتناع المعاد، أو غير ذلك، لا ينفعه الاستدلال عليه في ذلك بالكتاب والسنة إلا مع بيان فساد ذلك المعارض ''[1] .

(٢) – قانون الاستدلال على حدوث العالم بحدوث الأعراض التي هي صفات الأجسام القائمة بها : إما الأكوان ، وإما غيرها[2] .

وهذا القانون '' مبني على مقدمتين : إحداهما : أن الجسم لا يخلو عن الأعراض التي هي الصفات ، والثانية : أن ما لا يخلو عن الصفات التي هي الأعراض فهو محدث ، لأن الصفات – التي هي الأعراض – لا تكون إلا محدثة ، وقد يفرضون ذلك في بعض الصفات التي هي الأعراض، كالأكوان ، وما لا يخلو عن جنس الحوادث فهو حادث ، لامتناع حوادث لا تتناهي.

فهذه الطريقة مما يُعلم بالاضطرار أن محمداً – ﷺ – لم يدع الناس بها إلى الإقرار بالخالق ونبوة أنبيائه ، ولهذا قد اعترف حذاق أهل الكلام – كالأشعري وغيره – بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم ، ولا سلف الأمة وأئمتها ، وذكروا أنها محرمة عندهم ، بل المحققون على أنها طريقة باطلة ، وأن مقدماتها فيها تفصيل وتقسيم يمنع ثبوت المدَّعَى بها مطلقا ، ولهذا تجد من اعتمد عليها في أصول دينه فأحد الأمرين لازم له : إما أن يطَّلع على ضعفها ، ويقابل بينها وبين أدلة القائلين بقدم العالم ، فتتكافأ عنده الأدلة ، أو يرجح هذا تارة وهذا تارة ، كما هو حال طوائف منهم ؛ وإما أن يلتزم لأجلها لوازم معلومة الفساد في الشرع والعقل ، كما التزم جهم لأجلها فناء الجنة والنار ، والتزم لأجلها أبو الهذيل انقطاع حركات أهل الجنة ... ''[1] .

(٣) – قانون الاستدلال بالوجود : سلك ابن سينا وأتباعه كالرازي والآمدي والسهروردي المقتول وأتباعهم هذه الطريقة في إثبات واجب الوجود ؛ الله ﷻ ، وعظموا هذه

---

(١) – درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ٢٠ ، ٢١ .

(٢) – المرجع السابق : ١ / ٣٨ .

(١) – المرجع نفسه : ١ / ٣٩ ، ٤٠ .

الطريقة الاستدلالية ، وظن من ظن منهم أنها أشرف الطرق ، وأنه لا طريق إلاّ وهو يفتقر إليها ، حتى ظنوا أنّ طريقة الحدوث مفتقرة إليها[1] .

وكل ذلك في رأي شيخ الإسلام غلط ، " بل هي طريقة تُوجب إثبات واجب الوجـــود بلا ريب ، لو كانوا يفسرون الممكن بالممكن ، الذي هو ممكن عند العقلاء ، ســـلفهم وغـــير سلفهم ، وهو الذي يكون موجوداً تارة ومعدوماً أخرى .

فأما إذا فُسِّر الممكن بالممكن الذي ينقسم إلى قديم واجبٍ بغيره ، وإلى محـــدث مســـبوق بالعدم – كما هو قول ابن سينا وأتباعه – فلا يصح لهم على هذا الأصـــل الفاســـد لا إثبـــات واجب بنفسه ، ولا إثبات ممكن يدل على الواجب بنفسه .

وهذه الطريقة هي في الحقيقة مأخوذة من طريقة الحدوث ، وطريقـــة الحـــدوث أكمـــل وأَبْـــيَن، فإن الممكن الذي يُعلم أنه ممكن ، هو ما علم أنه وُجد بعد عدمـــه ، أو عـــدم بعـــد وجوده.

هذا الذي اتفق العقلاء على أنه ممكن ، وهو الذي يستحق أن يُسمى ممكناً بـــلا ريـــب ، وهذا محدث ، فإذاً كل ممكن محدث .

وأما تقدير ممكن لم يزل واجباً بغيره ، فأكثر العقلاء دفعوا ذلك ، حتى القائلون بقدم العالم كأرسطو وأتباعه المتقدمين ، وحتى هؤلاء الذين قالوا ذلك – ابن سينا وأتباعه – لا يجعلون هذا من الممكن ، بل الممكن عندهم ما أمكن وجوده وعدمه ، فكان موجوداً تارةً ومعدوما أخرى .

وإنما جعل هذا من الممكن ابن سينا وأتباعه ، – مع تناقضه وتصريحه بخلاف ذلك – لمـــا سلكوا في إثبات واجب الوجود الاستدلال بالموجود على الواجب ، فقالوا : كل ما سواه يكون ممكناً بنفسه واجبا بغيره ، وجعلوا العالم قديما أزليا مع كونه ممكناً بنفسه .

وهذا خلاف قول سلفهم، وقول أئمة الطوائف سواهم، – وخلاف ما صرحوا أيضا به – وهذا ممَّا أنكره ابن رشد وغيره على ابن سينا ، وبسط الكلام فيه له موضع آخر "[1] .

وهكذا ، نقض القوانين والأصول الباطلة كان من أبرز مناهج شيخ الإسلام – رحمه الله – في الردّ على الشبهات وإبطالها وبيان الحق وإحقاقه .

---

(١) – المرجع نفسه : ٣ / ٢٦٧ .

(١) – المرجع نفسه : ٣ / ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

خامساً : منهج الإمام ابن القيم في الردّ على الشبهات :

(أ) : منهج الردّ في دعوة الإمام ابن القيم :

عاش الإمام ابن القيم – رحمه الله – في عصر كان يموج بالآراء والمذاهب والاتجاهات ، فقد انتشرت كتب التصوف والفلسفة وعلم الكلام ، وفتن بها كثير من الناس واختلط عليهم الحق بالباطل .

و لم تخلُ الأمة من علماء تقاة أبرار تصدّوا لهذا التيار ، وكان الإمام ابن القيم من أبرز هؤلاء، قام بمحص هذه الآراء وبيّن غثها من سمينها ، وأخرج الحق من بين غيوم الآراء والفلسفات القاتمة .

وإن من أهم ما تميز به منهج الإمام ابن القيم في الدعوة قدرته الفذة على نقد مناهج أهل الكلام والبدع ، وبيان فساد أسسهم وإلزامهم الحجة ، وذِكْر شبهتهم والردّ عليها ، فقد فاق – رحمه الله تعالى – كثيراً من أقرانه في هذا المنهج لأن كثيراً ممن سبقه مِن سلف هذه الأمة كان يعتمد في دعوته على العرض أكثر من الرد ودفع الشبه وهذا وإن كان فيه الخير والبركة لهذا الدين من وجه حفظ السنة ونشرها وإن كان كثيراً منهم قد تصدى للرد على المخالفين ، إلا أن ابن القيم – رحمه الله – يرى أن ذلك لا يقل عن العرض أهمية إن لم يكن في بعض الأحيان أوجب ؛ وذلك عندما تتمكن الشبه من القلب الضعيف و لم يكن عنده من الإيمان والمعرفة ما يدفعها به[1] ، وهو عنده من أعظم الجهاد ، لا يقل أهمية عن جهاد الكفار والمنافقين حيث يقول: " فكشف عورات هؤلاء ، وبيان فضائحهم ، وفساد قواعدهم ، من أفضل الجهاد في سبيل الله ، وقد قال النبي – عليه أفضل الصلاة والسلام – لحسان بن ثابت – رضي الله عنه – : " إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن رسوله "[2] ، وقال – صلى الله عليه وسلم – : " أهجهم أو هاجهم ، وجبريل معك "[3] ، وقال – صلى الله عليه وسلم – : " اللهم ! أيده بروح القدس ما دام ينافح عن

---

(١) – منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى : د . أحمد بن عبد العزيز الخلف ، ص٤٣١ .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب : فضائل حسان ابن ثابت ، ص١٠١٠ ، رقم الحديث : ٢٤٩٠ ، ولفظه : قالت عائشة فسمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول لحسان : " إن روح القدس لا يزال يؤيدك ، ما نافحت عن الله ورسوله.

(٣) – صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب : فضائل حسان ابن ثابت ، ص١٠٠٨ ، رقم الحديث : ٢٤٨٦ ، (أخرجه البخاري : ٤٥٣ ، ٦١٥٢) .

رسولك ""[1] ، وقال عن هجائه لهم : "والذي نفسي بيده لهو أشد فيهم من النبل""[2] ، وكيف لا يكون بيان ذلك من الجهاد في سبيل الله ؟ ، وأكثر هذه التأويلات المخالفة للسلف الصالح من الصحابة ، والتابعين ، وأهل الحديث قاطبة وأئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسان صدق يتضمن من عبث المتكلم بالنصوص وسوء الظن بها ، من جنس ما تضمنه طعن الذين يلمزون الرسول ودينه من أهل النفاق والإلحاد ، لما فيه من دعوى أن ظاهر كلامه إفك، ومحال ، وكفر ، وضلال ، وتشبيه ، وتمثيل أو تخييل ، ثم صرفها إلى معان يعلم أن إرادتها بتلك الألفاظ من نوع الأحاجي والألغاز، لا يصدر ممن قصده نصح ، وبيان ، فالمدافعة عن كلام الله، ورسوله ، والذب عنه من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وأنفعها للعبد ""[1] .

وخير ما يعبّر ويصور لنا هذا المنهج القويم الذي سار عليه في دعوته كتابه المسمى " الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة " وكتابه " شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل " وغيرهما .

فقد ركز – رحمه الله – فيهما على كشف عورات المبتدعة بذكره أصولهم التي بنوا عليها بدعتهم وشبههم التي حرفتهم عن المسار الصحيح وأوقعت ضعفاء العقول في ظلماتها[2] .

(ب) – مناهجه في الردّ على الشبهات وأساليبه :

قد استخدم – رحمه الله – منهج إيقاظ الفطرة ، والمنهج العقلي ، والمنهج الحسي في الردّ على الشبهات ونقض الافتراءات ، وكانت أساليبه في ذلك كثيرة ومتنوعة ؛ أبرزها كما يلي :

الأول : الاستدلال بأنواع من الأدلة أهمها :

(١) – نصوص الكتاب والسنة .

(٢) – الإجماع .

(٣) – أقوال السلف الصالح .

(٤) – أدلة فطرية .

---

(١) –صحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب : فضائل حسان بن ثابت ، ص١٠٠٨ ، رقم الحديث : ٢٤٨٥ ، دون قوله : " ما دام ينافح عن رسولك " ، (أخرجه البخاري : ٣٢١٣ ، ٤١٢٣ ، ٦١٥٣) .

(٢) – صحيح مسلم: (بنحوه)، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل حسان بن ثابت، ص١٠٠٩، رقم الحديث: ٢٤٩٠.

(١) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، تحقيق : د . علي بن محمد الدخيل الله (أصله رسالة الدكتوراه ، للمحقق) ، ١ / ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، دار العاصمة ، الرياض .

(٢) – منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى : د . أحمد بن عبد العزيز الخلف ، ص٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٥) – أدلة حسية .

(٦) – أدلة عقلية بأنواعها الثلاث ، وهي :

– أدلة عقلية من القرآن والسنة .

– أدلة عقلية قياسية .

– ضرورة عقلية .

(٧) – مدلول اللغة العربية .

الثاني : بيان التناقض الحاصل في أصول أهل الشبهات وكلامهم .

الثالث : كشف الأكاذيب وبيانها .

الرابع : بيان حيرة أهل التأويل وشكوكهم في مقالاتهم وأدلتهم .

الخامس : بيان عدم وجود التعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح .

السادس : بيان منشأ الشبهة وأسبابها .

السابع : بيان استحالة إتيان العقل بما يأتي به النبي من الوحي .

الثامن : بيان اللوازم الخطيرة التي تلزم أهل التأويل لأصل من أصولهم أو شبهة من شبهاتهم.

وأذكر فيما يلي أبرز مناهجه من خلال نموذج من ردوده على الشبهات :

الشبهة : " إن تعارض العقل والنقل ، وجب تقديم العقل ؛ لأنه لا يمكن الجمع بينهما ولا إبطالهما ولا تقديم النقل ؛ لأن العقل أصل النقل ، فلو قدمنا عليه النقل لبطل العقل ، وهو أصل النقل فلزم بطلان النقل ، فيلزم من تقديم النقل بطلان العقل والنقل "[١].

إن هذه الشبهة قاعدة عظيمة لأهل التأويل الباطل وأصل من أصولهم الأربعة التي بنوا عليها مذهبهم وهدموا بها معاقل الدين .

التعليق : سماه ابن القيم – رحمه الله – مجنيقاً وعدّه ضمن أربعة مجانيق التي نصبها أهل التأويل على حصون الوحي[٢] ، وسماه في موضع آخر طاغوتاً ، وعده ضمن أربعة طواغيت التي محت رسوم الدين ، وأزالت معالمه ، وهدمت قواعده ، وأسقطت حرمة النصوص من القلوب حيث استطاع أهل التأويل إقناع كثير من الناس بها فوقعوا في شبههم ونهجوا طريقهم ،

---

(١) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ / ٧٩٦ .

(٢) – المرجع السابق : ٣ / ٧٩٦ – ١٠٣٩ .

واعتصموا بهذه الطواغيت ، واتخذوها جنة يصدون بها عن سبيل الله ، والله تعالى بحوله وقوته ومنه وفضله ، قد كسر هذه الطواغيت طاغوتاً طاغوتاً ، على ألسنة خلفاء رسله وورثة أنبيائه ، فلم يزل أنصار الله ورسوله يصيحون بأهلها من أقطار الأرض ويرجمونهم بشهب الوحي وأدلة المعقول[1] .

الردّ على الشبهة :

ردّ الإمام ابن القيم – رحمه الله – على هذه الشبهة بمائتين وأحد وأربعين وجهاً في كتابه المشهور " الصواعق المرسلة " ، أذكر فيما يلي أهم أدلته وأبرز مناهجه في الردّ عليها :

(١) – الاستدلال ببعض الأدلة النقلية والعقلية

(أ) – الردّ بالكتاب والسنة :

قال – رحمه الله –: "إن الله سبحانه قد تمم الدين بنبيه – ﷺ – وأكمله به و لم يحوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه ولا رأي ولا منام ولا كشوف قال تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا ﴾[1] .

وأنكر على من لم يكتف بالوحي عن غيره ، فقال : ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴾[2] .

ذكر هذا جواباً لطلبهم آية تدل على صدقه فأخبر أنه يكفيهم من كل آية فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل لم يكن دليلاً على صدقه فضلاً عن أن يكون كافياً "[3] .

---

(١) – المرجع نفسه : ٢ / ٦٣٢ ، (بتصرف يسير) ، والطواغيت الأربعة هي :

الأول : إن كلام الله وكلام رسوله أدلة لفظية لا تفيد علماً ولا يحصل منها يقين .

الثاني : إن آيات الصفات وأحاديث الصفات مجازات لا حقيقة لها .

الثالث : إن أخبار رسول الله – ﷺ – الصحيحة التي رواها العدول وتلقتها الأمة بالقبول ، لا تفيد العلم ، وغايتها أن تفيد الظن .

الرابع : إذا تعارض العقل ونصوص الوحي ، أخذنا بالعقل و لم نلتفت إلى الوحي ، (المرجع نفسه : ٢ / ٦٣٢) .

(١) – سورة المائدة : من الآيـة٣ .

(٢) – سورة العنكبوت : الآيـة ٥١ .

(٣) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ /٨٢٦ ، ٥٢٧ .

وقال مستدلاً بالحديث: ''وفي مراسيل أبي داود، أن الرسول – ﷺ – رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة فيها شيء من التوراة فقال: ''كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل على نبي غير نبيهم ''[1] .

وقال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[1] .

فأقسم سبحانه بنفسه أنّا لا نؤمن حتى نحكِّم رسوله في جميع ما شجر بيننا، وتتسع صدورنا بحكمه ، فلا يبقى منها حرج ، ونسلم لحكمه تسليماً فلا نعارضه بعقل ولا رأي ولا هوى ولا غيره ، فقد أقسم الرب سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن هؤلاء الذين يقدمون العقل على ما جاء به الرسول وقد شهدوا هم على أنفسهم بأنهم غير مؤمنين بمعناه وإن آمنوا بلفظه وقال تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2] .

وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده ، وهو الحاكم فيه على لسان رسوله ، فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو الحاكم بوحيه وكتابه وقال تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾[3] .

فأمر باتباع الوحي المنزل وحده ، ونهى عن اتباع ما خالفه ، وأخبر سبحانه أن كتابه بينة وشفاء وهدى ورحمة ونور وفضل وبرهان وحجة وبيان ، فلو كان للعقل ما يعارضه ويجب

---

(١) – روى هذا الحديث بغير هذا اللفظ عند :

– سنن الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، ١/١٣٤، ط١، ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت. (قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح وهو مرسل).

– مصنف عبد الرزاق : ٦ / ١١٣ ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، ط٢ ، ١٤٠٣ هـ ، (فيه مجالد بن سعيد ، ضعفه أحمد) .

– مختصر إرواء الغليل : الألباني ، ص٣١٤ – ٣٢٨ ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي بيروت ، (حسنه الألباني)، (انظر : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ /٨٢٧) .

(١) – سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٢) – سورة الشورى : من الآية ١٠ .

(٣) – سورة الأعراف : من الآية ٣ .

تقديمه على القرآن لم يكن فيه شيء من ذلك ، بل كانت هذه الصفات للعقل دونه وكان عنها بمعزل فكيف يشفي ويهدي ويبين ويفصل ما يعارضه صريح العقل[1] .

(ب) – الردّ بدليل الإجماع :

قال – رحمه الله – " إنه لا يُعلَم آية من كتاب الله ، ولا نص صحيح عن رسول الله – ﷺ – في باب أصول الدين ، اجتمعت الأمة على خلافه ، وغاية ما يقدر اختلاف الأمة في القول بموجبه ، ومن له خبرة بمذاهب الناس ، وأقوال السلف ، يعلم قطعاً أن الأمة اجتمعت على القول به قبل ظهور المخالف ، كما اجتمعت بأن الله مستو على عرشه ، فوق سماواته ، وأن المؤمنين يرونه عياناً بالأبصار من فوقهم في الجنة ، وأنه سبحانه كلم نبيه موسى إليه بلا واسطة تكليماً سمع به كلامه ، ولم يشك أنه هو الذي كان يكلمه .

وأنه كتب مقادير الخلائق ، وقدرها قبل أن يخلقهم ، وأنه علم ما هم عاملوه قبل أن يعملوه ، وأنه يحب ، ويبغض ، ويرضى ، ويغضب ، ويضحك ، ويفرح ، وأن له وجهاً ويدين.

فهذا إجماع معلوم متيقن عند جميع أهل السنة والحديث ، فالفعل الذي يعارض هذا لم تجمع عليه الأمة ، ولم يعرف عن رجل واحد من السلف والأئمة أنه قاله ، وغايته أن يكون عقل فرقة من الفرق اشتقت لأنفسها مذهباً ، وادعت له معقولاً ، فلما صالت عليها نصوص الوحي التجأت إلى العقل ، وادعت أنه يخالفها ، وصدقت وكذبت .

أما صدقها ، فإن نصوص الوحي تخالف معقولها هي ، وذلك من أدل دليل على فساده في نفسه إذ شهدت له نصوص الوحي بالبطلان .

وأما كذبها فزعمها أن نصوص الوحي تخالف العقل المتفق عليه بين العقلاء ، فهذا لم يقع ، ولا يقع ما دامت السماء سماءً ، والأرض أرضاً ، بل تزول السماء والأرض ، وهذا لا يكون ، فأي ذنب للنصوص إذا خالفت عقول بعض الناس ، فقد وافقت عقول أصح الناس عقلاً : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[1] "[2] .

---

(١) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ /٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(١) – سورة الأنعام : من الآية ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ / ٨٣٣ ، ٨٣٤ .

(ج) – الردّ بالدليل العقلي :

إن تقديم العقل على الشرع يتضمن القدح في العقل والشرع ؛ لأن العقل قد شهد للوحي بأنه أعلم منه وأنه لا نسبة له إليه ، وأن نسبة علومه ومعارضه إلى الوحي أقل من خردلة بالإضافة إلى جبل أو تلك التي تعلق بالأصبع بالنسبة إلى البحر ، فلو قدم حكم العقل عليه لكان ذلك قدحاً في شهادته ، وإذا بطلت شهادته بطل قبول قوله ، فتقديم العقل على الوحي ، يتضمن القدح فيه وفي الشرع وهذا ظاهر لا خفاء به[1] .

(د) – الردّ بالدليل الحسي :

يقول الإمام – رحمه الله – : أن يقال لهؤلاء المعارضين بين العقل ونصوص الوحي : أخبرونا عن خلق هذا النوع الإنساني من قبضة تراب ، وعن رجل دعا على قومه أن لا يدع الله منهم على الأرض ديارا ، فأرسل السماء عليهم وأنبع الماء من تحتهم ، حتى علا الماء فوق رؤوس شواهق الجبال علواً عظيماً ، ثم ابتلعته الأرض شيئاً فشيئاً حتى عادت يبساً .

وعن رجل دعا على قومه وهم أعظم الناس أجساماً وأشدهم قوة ، فأرسلت عليهم بدعوته ريح عاصف جعلت تحملهم بين السماء والأرض ، ثم تدق أعناقهم .

وعن أمة كذبت نبيها ، وسألوه آية ، فانفلقت صخرة بمحضر لهم ، وتمخضت عن ناقة من أعظم النوق قائمة وشكلا وهيئة ، فلما تمادوا على تكذيبه ، سمعوا صيحة من السماء قطعت أكبادهم وقلوبهم في أجوافهم ، فماتوا موتة رجل واحد .

وعن نار عظيمة أوقدت برهة من الدهر ، حتى كان الطير يمر عليها من عال ، فيقع مشوياً، ألقي فيها رجل مكتوفاً ، فصارت عليه برداً وسلاماً ، وعادت روضة خضراً وماءً جارياً، وعن رجل ألقى عصاً في يده ، فعادت ثعباناً عظيماً ابتلع ما بحضرته من حبال وعصيّ لا يحصيها إلا الله ، ثم عادت عصا كما كانت ، وعن يد أدخلها صاحب هذه العصا إلى جيبه ثم أخرجها ، فإذا لها شعاع كشعاع الشمس ، وعن ماء انقلب دماً في آنيته ومواضعه ، وعن كثيب عظيم ضربه بعصاه ، فاستحال قملا[1] كله سلط على أهل بلد عظيم ، وعن بحر ضربه بعصاه فانفلق إثني عشر طريقاً ، ثم أرسلت عليه الريح والشمس فأيبسته في ساعة ، وقام الماء بين

---

(١) – المرجع السابق : ٣ / ٨١٠ .

(١) – يشير بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف : الآية١٣٣) ، وانظر : تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ٢٤٢ .

تلك الطرق كالحياض ، فلما جاوزه وسلكه آخرون ضربه بعصاه فالتأم عليهم ، فلم يفلت منهم إنسان ، وعن جبل قلع من مكانه على قدر عسكر عظيم ، حتى رفع فوق رؤوسهم ، وقيل لهم إن تقبلوا ما أمرتم به وإلا أطبق عليكم ثم رد إلى مكانه ، وعن قوم أمسوا وهم في صور بني آدم، فأصبحوا وهم في صور القردة والخنازير .

وعن مدن قلعت من أصولها ، ثم رفعت في الهواء ، ثم أفلت بأهلها وجعل عاليها سافلها وأتبعت بمطر من الحجارة ، وعن رجل ولد من غير أب ، وامرأة خرجت من غير أم ، ورجل يمسح على عين الذي ولد أكمه ، ويدعو الله ، فإذا به يبصر بعينين كالصحيح ، ويمسح الأبرص ليبرأ كأن لم يكن به بأس ، وينفخ في كبة[1] من الطير ، فينقلب طائراً له لحم ودم وريش، وجماعة ينامون في غار ثلاثمائة وتسع سنين لم تأكل الأرض لحومهم ، ثم ينتبهون من نومهم قياماً ينظرون ، وعن رجل أدركه الموت هو وحماره فمكثا مائة عام ، ثم قام الرجل حياً وشاهد عظام حماره وهي تكسى اللحم ويتصل بعضها ببعض حتى قام الحمار حياً ، وشاهد طعامه لم يتغير ، بل هو على حاله ، وعن قتيل قتل بين ظهراني قوم فأمرهم نبيهم أن يذبحوا البقرة ويضربوه ببعضها ، ففعلوا فقام القتيل حياً ناطقاً وقال فلان قتلني .

وعن رسول سأله قومه آية ، فأومأ إلى القمر فانشق فلقتين وهم يشاهدونهما ، ثم عاد فالتأم وقدم السفر فأخبروا برؤية ذلك عياناً[2] .

وأنه قبض من تراب ، ثم رمى بها في وجوه عسكر لا يلتقي طرفاه ، فلم يبق منهم أحد إلا ملأت عينه [3] ، وأنه وضع يده في ماء لا يواريها ، فعاد الماء حتى ملأوا منه كل قربة وكل

---

(١) – الكب : الشيء المجتمع من تراب وغيره . والمعنى هنا أنه ينفخ في أجزاء الطير المجتمعة فينقلب طائراً له لحم وريش ودم، لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ٥ / ٣٨٠٤ .

(٢) – صحيح مسلم : كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب : انشقاق القمر ، ص١١٢٦ ، رقم الحديث : ٢٨٠٢ ، ولفظه : عن أنس ، أن أهل مكة سألوا رسول الله – ﷺ – أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين . (أخرجه البخاري : ٣٩٣٧ ، ٣٨٦٨ ، ٤٨٦٧ ، ٤٨٦٨) .

(٣) – وذلك في غزوة بدر وهو معنى قول الله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (سورة الأنفال : من الآية١٧) ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : " رفع رسول الله – ﷺ – يديه يعني يوم بدر ، فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا ، فقال جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ؛ فولوا مدبرين " ، انظر : تفسير الطبري : الإمام جعفر محمد بن جرير الطبري ، ٩ / ١٣٦ ، وتفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٢ / ٢٩٥ ، وزبدة التفسير من فتح القدير : للإمام الشوكاني ، ٢ / ٢٩٦ .

وعاء في العسكر الجرار[1] ، إلى أضعاف أضعاف ما ذكر ، مما شاهده الناس بأبصارهم عياناً .

فهل مخالفة الأدلة القطعية لما أخبرت به الأنبياء عن الله ، أعظم من مخالفتها لهذه الأمور ؟ !

والشبه العقلية التي تذكر على استحالة هذه الأمور، أكثر وأقوى من الشبه التي يذكرونها في معارضة نصوص الوحي، بل لا نسبة بينهما، فإذا تعارضت أدلة العقول بزعمكم وهذه الأمور، ماذا تصنعون؟ أتقدمونها على أدلة العقول، فتدخلون في المؤمنين بالله ورسله؟ أم تكذبون بذلك؟ وتقولون: العقل يناقض ذلك ويبطله، ومعارضة العقل عندكم لهذه الآيات من جنس معارضته لخبر الأنبياء، لا فرق بينهما البتة، بل الشبه التي يقيمها أعداء الرسل من العقل على بطلان هذه الآيات، أقوى من الشبه التي ذكرها الجهمية والنفاة على بطلان ما أخبرت به الرسل من صفات الله وعلوه على خلقه، واستوائه على عرشه، وكلامه وتكليمه، وقيام أفعاله به .

فعلم أن من قدّم ما يظنه من العقل على نصوص الوحي ، لم يبق معه من الإيمان بالرسل عين ولا أثر ولا حس ولا خبر[1] .

(هـ) – الردّ بدليل الفطرة ومدلول اللغة :

يقول – رحمه الله – بأن المعارضين للوحي بآرائهم وعقولهم تتضمن معارضتهم الفرية على الوحي والعقل واللغة والفطرة وإفسادها .

" ...وأما فريتهم على الفطرة فإن الله فطر عباده على الإقرار بعلوه كما فطرهم على الإقرار بأنه ربهم وخالقهم فغيروا الفطرة وأفسدوها بإنكار ذلك .

وأما فريتهم على اللغة فإنهم أزالوا دلالة الألفاظ الدالة على ذلك دلالة صريحة ، لا يحتمل غير معناها عن مواضعها ، وأنشأوا لها معاني أخر حملوها عليها لقطع من له إلف بتلك اللغة أن المتكلم لم يرد بتلك الألفاظ ما ذكروه من المعاني ، كما حملوا قوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[2] .

---

(١) – انظر : أحاديث نبع الماء بين يديه – ﷺ – في صحيح البخاري ، ومنهما حديث أنس بن مالك : " أتى النبي – ﷺ – بإناء وهو بالزوراء ، فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم " ، فتح الباري : كتاب المنقب، باب : علامات النبوة قبل الإسلام ، ٦ / ٩٨٠ ، رقم الحديث : ٣٥٧٢ .

(١) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ / ٨٨٢ – ٨٨٩ .

(٢) – سورة النحل : من الآية ٥٠ .

على معنى قول القائل الذهب فوق الفضة والمسك فوق العنبر، أي: في القيمة والقدر، ومعلوم أن هذا التركيب الخاص لا يحتمل هذا المعنى في لغة أمة من الأمم ولا يجوز أن يراد باللفظ وكذلك قوله – ﷺ – " إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب "[(1)] فمثل هذا اللفظ إذا حمل على غير معناه الظاهر لكل أحد ، كان فرية على اللغة كما هو فرية على المتكلم به وعامة تأويلات النفاة المعطلة من هذا الباب لمن تدبرها ورزق هداية وإنصافاً، وأما الأعمى المتبع هواه فكما قال الله ﷻ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[(1)] "[(2)].

(٢) – بيان التناقض :

إن تقديم العقل على الأدلة الشرعية ممتنع متناقض ، وأما تقديم الأدلة الشرعية على العقل فهو ممكن مؤتلف فوجب الثاني وامتنع الأول : بيانه أن يكون الشيء معلوماً بالعقل أو غير معلوم بالعقل ليس هو صفة لازمة لشيء من الأشياء بل هو من الأمور النسبية الإضافية ، فإن زيداً قد يعلم بعقله ما لا يعلمه بكر بعقله ، وقد يعلم الإنسان في حال تعقله ما يجهله في وقت آخر ، والمسائل التي يقال : قد تعارض فيها العقل والشرع جميعاً قد اضطرب فيها أرباب العقل، و لم يتفقوا فيها على أمر واحد بل كل منهم يقول : إن العقل أثبت أو أوجب أو سوغ ما يقول الآخر أن العقل نفاه أو أحاله أو منع منه بل قد آل الأمر بينهم إلى التنازع فيما يقولون إنه من العلوم الضرورية فيقول هذا : نحن نعلم بالضرورة العقلية ما يقول الآخر : إنه غير معلوم بالضرورة العقلية وأبلغ من هذا أن يدعي بعضهم أن هذا محال بضرورة العقل فيدعي الآخر أنه ممكن بضرورة العقل .

يقول أكثر العقلاء – مثلاً – : نحن نعلم أن حدوث حادث بلا سبب حادث ممتنع، ويقولون آخرون : بل ذلك ممكن .

ويقول أكثر العقلاء : إن كون العالم عالماً بلا علم وحيّاً بلا حياة ، ومريداً بلا إرادة، وسميعاً بصيراً بلا سمع ولا بصر محال بضرورة العقل وآخرون يقولون : بل هو ممكن غير مستحيل، بل هو الواجب في حق الله ﷻ .

---

(١) – صحيح البخاري : (نحوه) كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر،ص١٢٤، رقم الحديث: ٥٢٤.

(١) – سورة النور : من الآية ٤٠ .

(٢) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٤ / ١٣٤١ ، ١٣٤٢ .

ويقول جمهور العقلاء : أن يكون المعنى الواحد أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً ممتنع في ضرورة العقل .

وآخرون يقولون : هو ممكن واقع .

وجمهور العقلاء يقولون : إن إثبات موجودين قائمين بأنفسهما ليس أحدهما مبايناً للآخر ولا محايثاً له ولا داخلاً فيه ولا خارجاً عنه ولا متصلاً به ، ولا منفصلاً عنه مكابرة لصريح العقل وآخرون يقولون : بل هو ممكن واجب في العقل .

وأما الوحي فهو قول الصادق وهو صفة لازمة لا تختلف باختلاف أحوال الناس ، والعلم بذلك ممكن ، وردّ الناس إليه ممكن ، ولهذا جاء الوحي من الله سبحانه برد الناس عند التنازع إلى كتابه وسنة رسوله كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَ ٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾[١] .

فأمر المؤمنين عند التنازع بالرد إلى كتابه وسنة رسوله ، وهذا نص في تقديم السمع.

قال هؤلاء : بل الواجب الرد إلى العقل ، وردّ السمع إن عارضه ولو وردّ الناس الأمر عند النـــزاع إلى عقول الرجال وآرائهم ومقايـــيسهم لم يزدهم هذا الرد إلا اختلافاً واضطراباً وشكاً وارتياباً ، فلا يمكن الحكم بين الناس في موارد النـــزاع والاختلاف على الإطلاق إلا بكتـــاب منـــزل من السماء يرجع الجميع إلى حكمه وإلا فكل واحد من أرباب المعقولات يقول : عقلي أولى بالثقة به من عقل منازعي ، وهذا يدلي بمعقول وهذا يدلي بمعقول[٢] .

(٣) – كشف الأكاذيب وبيانها:

هذا من أبرز أساليب الإمام ابن القيم – رحمه الله – في نقض أصول وقواعد أهل التأويل الباطل وتفنيد شبهاتهم ، فالمسائل التي يقال بأن قد تعارض فيها العقل والســمع ، وهـــي مـــن المسائل المعلومة بصريح العقل كمسائل الحساب والهندسة والطبيعيات اليقيـــنية ، يقـــول عنـــها الإمام – رحمه الله – :

---

(١) – سورة النساء : الآيـــة ٥٩ .

(٢) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ / ٨٢٣ – ٨٢٦ .

" ... لم يجيء في القرآن ولا في السنة حرف واحد يخالف العقل في هذا الباب ، وما جاء من ذلك فهو مكذوب ومفترى كحديث : " إن الله لما أراد أن يخلق نفسه خلق خيلاً فأجراها فعرقت فخلق نفسه من ذلك العرق "(1) وحديث " نزوله عشية عرفة على جمل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة "(2) .

وكقول اليهود : " إنه سبحانه بكى على الطوفان حتى رمد ، وعادته الملائكة ، وإنه ندم على ذلك(3) حتى عض أصابعه ، وإنه تبدى لإسرائيل وصارعه "(4) .

وكقول النصارى : " إنه اتخذ مريم زوجة وأولدها عيسى ، فهي صاحبته ، وعيسى ابنه".

وقول مشركي العرب : إنه صاهر الجن ، فولدت له الملائكة(5) ، وأمثال ذلك من الأقوال المخالفة لصريح العقل ، فكيف يجعل ما أثبته الله لنفسه في كتابه من صفاته وأفعاله ، وما صح عن رسوله أنه أثبته له من علوه فوق سماواته على عرشه ، واستوائه عليه، وتكلمه ، وتكليمه ، وثبوت علمه ، وقدرته ، وحياته ، وسمعه ، وبصره ، ووجهه الأعلى ، ورحمته ، وغضبه ، ورضاه ، وفرحه ، وضحكه ويديه التي يمسك بإحداهما السماوات السبع ، وبالأخرى الأرضين

---

(1) – حديث موضوع والمتهم بوضعه محمد بن شجاع الثلجي فلعنة الله على واضعه قال في تذكرة الموضوعات كان يضع أحاديث في التشبيه ينسبها للمحدثين يثلبهم بذلك ، انظر : تذكرة الموضوعات ، ص٢٩١ ، تنزيه الشريعة ١ / ١٣٤ ، اللآلئ المصنوعة : ١ / ٣ ، وقال الذهبي : (ميزان الاعتدال : ٣ / ٥٧٩) ، " هذا مع كونه من أبين الكذب هو من وضع الجهمية ليذكروه في معرض الاحتجاج به على أن نفسه اسم لشيء من مخلوقاته فكذلك إضافة كلامه إليه من هذا القبيل إضافة ملك وتشريف كبيت الله وناقة الله ثم يقولون إذا كان نفسه تعالى إضافة ملك فكلامه بالأولى " اهـ .

(2) – حديث موضوع ورد بألفاظ مختلفة في :

تذكرة الموضوعات ، ص١٢ ، ١٣ ، تنزيه الشريعة : ١ / ١٣٨ ، ١٣٩ ، الفوائد المجموعة : للشوكاني ، ص٤٤٧ ، كشف الخفاء : ص٤٣٦ .

(3) – انظر : مصارعة إسرائيل في الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، فقرة٢١ ، ص١٠ ، الإصلاح الثامن .

(4) – المرجع السابق : فقرة٢٤ – ٢٨ ، ص٤٥ ، الإصلاح الثاني والثلاثون .

(5) – وهذا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ (الصافات : من الآية١٥٨) ، قال مجاهد: قال المشركون : الملائكة بنات الله تعالى ، فقال أبو بكر : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سروات الجن ، وقال قتادة : إن الذي قال ذلك هم اليهود ، تفسير الطبري : الإمام جعفر محمد بن جرير الطبري ، ٢٣ / ٦٩ ، تفسير القرآن العظيم : الإمام ابن كثير ، ٤ / ٢٣ .

السبع ، ثم يهزهن ، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ، ونحو ذلك من صفات كماله ، ونعوت جلاله ، كيف يجعل هذا بمنزلة ذاك في مخالفة كل منهما لصريح العقل ؟ !

ويجعل إثبات هذا كإثبات ذلك ، ووصفه بهذا كوصفه بذاك كما صرح به الثقات وقالوا : إن هذا تشبيه وتجسيم فلا فرق بينه وبين ذاك التشبيه والتجسيم ، فَلْيَبكِ على عقله ، وما أصيب به من سوَّى بين الأمرين ، أحسن الله عزاءه في عقله ، ولا بورك له في علم هذه غايته التي لا يرضاها أعظم الناس انغماساً في جهله ''[1].

(٤) – بيان حيرة أهل التأويل وشكوكهم في مقالاتهم وأدلتهم :

إن الذين قدموا العقل على النقل وعارضوا الأدلة السمعية بالأدلة العقلية قد شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك فيها ، و لم يجزموا فيها بشيء ، و لم يظفروا منها بعلم ، ولا يقين ، وكلما كان الرجل منهم أفضل كان إقراره بالجهل والحيرة على نفسه أعظم كما قال بعض العارفين : '' أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام '' ، وقال أفضل المتأخرين من هؤلاء لتلاميذه عند الموت: '' أشهدكم أني أموت وما عرفت مسألة واحدة إلا مسألة افتقار الممكن إلى واجب ، ثم قال : والافتقار أمر عدمي فها أنذا أموت وما عرفت شيئاً ''[2] ، وقال أبو المعالي الجويني عند موته : '' لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم وما أدري على ماذا أموت ، أشهدكم أني أموت على عقيدة أمي''.

وقال الرازي في كتابه '' أقسام اللذات ''[3] ، وقد ذكر أنواعها وأن أشرفها لذة العلم والمعرفة ، وأشرف العلم العلم الإلهي لشرف معلومه وشدة الحاجة إليه ، وأنه على ثلاثة أقسام : العلم بالذات وعليه عقدة ، وهي أن الوجود هل هو الماهية أو زائد عليها، والعلم بالصفات

---

(١) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ /٨٣٠ – ٨٣٢ .

(٢) – القائل هو : الخونجي محمد بن ناماور بن عبد الملك الشافعي المتوفى سنة ٦٤٩ ، صاحب كتاب '' كشف الأسرار عن غوامض الأفكار '' وستأتي ترجمته ، ص٨٤٠ ، انظر : شرح الطحاوية : ص٢٢٨ ، جهد القريحة في تجريد النصيحة، المطبوع مع كتاب صون المنطق والكلام عن علم المنطق والكلام للسيوطي ، ص٢٢٨ ، درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ١٦٢ ، ٣ / ٢٦٢ .

(٣) – هذه الأبيات لفخر الدين الرازي ذكرها في كتابه '' أقسام اللذات '' ، انظر : درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ١٥٩ ، ١٦٠ ، وشرح الطحاوية : ص٢٢٧ ، الطبعة الرابعة ، بتخريج الشيخ ناصر الدين الألباني ، البداية والنهاية ، الإمام ابن كثير ، ١٣ / ٥٤ ، وطبقات الشافعية : لابن السبكي ، ٨ / ٩٦ ، ط١ ، بتحقيق عبد الفتاح الحلو ، وقال : الدكتور الأستاذ محمد رشاد عن كتاب أقسام اللذات : '' وهذا الكتاب مخطوط بالهند و لم يذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الرازي '' حاشية : درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، ١ / ١٦٠ .

وعليه عقدة ، وهي أن الصفات هل هي أمور وجودية زائدة على ذات الموصوف أم ليست بزائدة على الذات ؟ والعلم بالأفعال وعليه عقدة ، وهي هل الفعل مقارن للفاعل أو متراخ عنه؟ ثم قال : ومن الذي وصل إلى هذا الباب أو ذاق من هذا الشراب ، ثم أنشد :

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أَذَىً ووبالُ

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا

وكم من جبالٍ قد علت شرفاتها
رجالٌ فماتوا والجبالُ جبالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية والمنهج الفلسفية فما رأيتها تشقي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن : أقرأ في الإثبات : ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[1].

﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[2] .

وأقرأ في النفي : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾[3] .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ﴾[4] .

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي[5] ، فليتأمل اللبيب ما في كلام هذا الفاضل من العبر ، فإنه لم يأت في المتأخرين من حصل من العلوم العقلية ما حصله ووقف على نهايات أقدام العقلاء وغايات مباحث الفضلاء ، وضرب بعضها ببعض ومخضها أشد المخض فما رآها تشفي علة داء الجهالة ، ولا تروي غلة ظمأ الشوق والطلب[6] .

---

(١) – سورة طـه : الآيـة ٥ .

(٢) – سورة فاطر : من الآية ١٠ .

(٣) – سورة الشورى : من الآية ١١ .

(٤) – سورة طـه : من الآية١١٠ .

(٥) – انظر : أول كلام الرازي ، ص١٦٧ .

(٦) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ / ٨٤٨ ، ٢ / ٦٦٤ – ٦٦٦ .

(٥) – بيان عدم وجود التعارض بين العقل الصريح والنقل الصحيح :

هذه قاعدة عظيمة وأصل من الأصول الثابتة لدى أهل السنة والجماعة ، يردون به على التأويلات الباطلة والشبهات الواهية ، يقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – : " إن ما عُلم بصريح العقل الذي لا يختلف فيه العقلاء لا يُتَصَوَّر أن يعارضه الشرع البتة ، ولا يأتي بخلافه ، ومن تأمل ذلك في ما ينازع العقلاء فيه من المسائل الكبار ، وجد ما خالفت النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للنقل ، فتأمل ذلك في مسائل التوحيد والصفات ، ومسائل القدر والنبوات والمعاد ، تجد ما يدل عليه صريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يخالفه إما أن يكون حديثاً موضوعاً ، أو لا تكون دلالته مخالفة لما دل عليه العقل "[١] .

(٦) – بيان منشأ الشبهة وأسبابها :

يذكر – رحمه الله – منشأ الشبهة ويبين أسبابها لتتضح حقيقتها فيرجع عنها أصحابها وينجو من الوقوع فيها الآخرون .

فيقول – رحمه الله – بأن المعرضين للكتاب والسنة بعقلياتهم ، يبنون أمرهم على أقوال مشتبهة محتملة ؛ تحتمل معاني متعددة ، ويكون ما فيها من الاشتباه في المعنى والإجمال في اللفظ يوجب تناولها ؛ أي تأويلها ، بحق وباطل ، فبما فيها من الحق يَقْبَلُ – من لم يحط بها علماً – ما فيها من الباطل لأجل الاشتباه والالتباس ، ثم يعارضون بما فيها من الباطل نصوص الأنبياء ، وهذا منشأ ضلال من ضل من الأمم قبلنا وهو منشأ البدع كلها ، فإن البدعة لو كانت باطلاً محضاً لما قبلت ، ولبادر كل أحد إلى ردها وإنكارها ، ولو كانت حقاً محضاً لم تكن بدعة ، وكانت موافقة للسنة ، ولكنها تشتمل على حق وباطل ، ويلتبس فيها الحق بالباطل ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك فقال : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢] .

فالتوحيد – مثلا – الذي حقيقته إثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عن أضدادها ، وعبادته وحده لا شريك له ، قد اصطلح أهل الباطل من الفلاسفة والجهمية والقدرية والاتحادية

---

(١) – المرجع السابق : ٣ / ٨٢٩ .

(٢) – سورة البقرة : الآية ٤٢ .

على وضعه ، أي للتعطيل المحض ، ثم دعوا الناس إلى التوحيد ، فخدعوا به من لم يعرف معناه في اصطلاحهم ، وظن أن ذلك التوحيد هو الذي دعا إليه الرسل(١) .

(٧) – بيان استحالة إتيان العقل بما يأتي به النبي من الوحي :

إن أمر النبوة وما يخبر به الرسول عن الله هو طور آخر وراء مدارك الحس والعقل والخيال والوهم والمنام والكشف ، والعقل معزول عما يدرك بنور النبوة وطرق الوحي كعزل السمع عن إدراك الأكوان ، والبصر عن إدراك الأصوات ، وسائر الحواس عن إدراك المعقولات ، فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعًا من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة طور آخر يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها أمور لا يدركها العقل بل هو معزول عنها كعزل الحواس عن مدارك العقول ، فإنكار العقل لما يخبر به النبي عينُ الجهلِ ولا مستند له في إنكاره إلا أنه لم يبلغه و لم يصل إليه فيظن أنه غير ثابت في نفسه(٢) .

(٨) – بيان اللوازم الخطيرة :

وهذا من أهم أدلة الإمام ابن القيم – رحمه الله – في الردّ على الشبهات ، فيقول – مثلا – لمن عارض نصوص الوحي بالعقل بأنه لزمه لازم من خمسة لا محيد له البتة ، وهي : تكذيبها أو كتمانها أو تحريفها أو تخييلها أو تجهيلها وهو نسبة المصدقين لها إلى الجهل : إما البسيط وإما المركب ، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم .

فإن اعتقد أن العقل يخالف ظاهرها فقد اعتقد أن ظاهرها باطل ومحال ، فإما أن يقر بلفظها، وإن الرسول جاء به أولاً ، فإن لم يقر بذلك فهو مكذب وإن أقر بألفاظها ، فإما أن يقر بأنه أراد معانيها وحقائقها أم لا ، فإن أقر بذلك لزمه اعتقاد التخييل فيها والخطاب الجمهوري، وإن لم يقر بأنه أراد حقائقها وما دلت عليه ، فإما أن يقول : إنه أراد خلاف ظواهرها وحقائقها أولا ، فإن قال : أراد خلاف حقائقها وظواهرها ، لزمه التحريف والتأويل الباطل ، وإن قال : لم يرد ذلك فإما أن يقول لم يرد بها معنى أصلاً ، بل هي بمنزلة الألفاظ المهملة التي لا معنى لها ، أو يقول : أراد بها معنى لا يفهمه ولا يعرفه ، وهذا هو التجهيل ،

---

(١) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ / ٩٢٥ ، ٩٢٩ ، (بتصرف ، وينظر للاستزادة المرجع نفسه) .

(٢) – المرجع السابق : ٣ / ٩٥٧ ، ٩٥٩ .

وقد ذهب إلى كل تقدير من هذه التقادير طائفة من الناس[1] ، وقد ذم الله سبحانه الجميع ، قال تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[2] .

فذم سبحانه وتعالى المحرفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة ، وهي الأماني ، والذين يكتبون فيكتبون الباطل ويقولون هذا حق وهو من عند الله ، وذم في عدة مواضع الذين يكتمون ما أنزله من الكتاب والبينات والهدى ، وهذه الأنواع الأربعة المذمومة موجودة في هؤلاء المعرضين عن نصوص الوحي المعارضين لها بآرائهم وعقولهم وأهوائهم ، فإنهم تارة يكتمون الأحاديث والآيات المخالفة لأقوالهم ، ومنهم طوائف تضع أحاديث على وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع ، ويقولون هذا من عند الله ، وتارة يضعون كتباً بآرائهم وعقولهم ، وأذواقهم ، وخيالاتهم ويدّعون أنها الدين الذي يجب اتباعه ويقدمونها على نصوص الوحي .

---

(١) – انقسم الناس حسب اعتقادهم في نصوص الوحي إلى خمسة أصناف ، وهي : (١)- أصحاب تأويل، (٢) - وأصحاب تخييل ، (٣) – وأصحاب تجهيل ، (٤) – وأصحاب تمثيل ، (٥) – وأصحاب سواء السبيل ، والكلام هنا عن الطوائف الأربعة الأولى غير أصحاب سواء السبيل ، (انظر : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم، ٢ / ٤١٨) .

(٢) – سورة البقرة : الآية ٧٥ – ٧٩ .

وأما تحريفهم للنصوص بأنواع التأويلات الفاسدة التي يحرفون بها الكلم عن مواضعه، فأكثر وأشهر من أن تذكر ، كتأويلات القرامطة[1] والباطنية[2] والفلاسفة[3] والرافضة[4] والجهمية والقدرية[5].

وأما التخييل : فكثير منهم يصرحون بأن الرسل قصدت من النصوص إفهام خلاف الحق للمصلحة الجمهورية .

---

(١) – هم أتباع حمدان القرمطي ، وكان رجلاً متوارياً صار إليه أحد دعاة الباطنية ، ودعوه إلى معتقدهم فقبل الدعوة ، ثم صار يدعو الناس إليها وضل بسببه خلق كثير ، وكان ظهورهم في عام ٢٨١ في خلافة المعتضد ودخلوا مكة سنة ٣١٧ ، واقتلعوا الحجر الأسود وقتلوا المسلمين في الحرم ، وقد أعيد الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩ ، على يد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي النيسابوري – رحمه الله – ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ص١٢٢ .

(٢) – الباطنية سموا بذلك ، لأنهم يقولون : إن للنصوص ظاهراً وباطناً ولكل تنزيل تأويلاً ولهم ألقاب كثيرة منها القرامطة والخرمية والإسماعيلية ، والمزدكية ، والتعليمية والبابكية والسبعية والملحدة ، ومنهم النصيرية والدروز ، وهم يعتقدون أن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم ولا هو معلوم ولا مجهول ، ومذهبهم في النبوات قريب من مذهب الفلاسفة ، ويقولون : إنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق ، يرجع إليه في تأويل الظواهر واتفقوا على إنكار القيامة ، والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات وإنكار الشرائع وهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم ، الملل والنحل : للشهرستاني ، ٢ / ٢٩ – ٣٢ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص١١٩، مذاهب الإسلاميين : ٩ / ٦، فضائح الباطنية : ص١١ ، ٤٠ ، ٤٦ .

(٣) – كلمة فلسفة تتكون من مقطعين هما فيلو ، وسوفيا ومعنى (فيلو) في اليونانية محب ، وسوفيا : الحكمة ، فالفيلسوف هو محب الحكمة ، ومذهبهم : أن العالم قديم وعلته مؤثرة بالإيجاب ، وليست فاعلة بالاختيار ، وأكثرهم ينكرون علم الله تعالى ، وينكرون حشر الأجساد ومن أشهرهم أرسطاليس ،الفصل في الملل والنحل : ١ / ٩٤ ، الملل والنحل : للشهرستاني ، ٢ / ١٥٥ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين : ص١٤٥ ، ١٤٦ ، المرشد الأمين ، ص١٤٥ ، المعجم الفلسفي ، ص١٣٨ – ١٤٠ .

(٤) – سموا بذلك لرفضهم زيد بن علي حينما توجه لقتال هشام بن عبد الملك فقال أصحابه : تبرأ من الشيخين حتى نكون معك ، فقال : لا بل أتولاهما وأتبرأ ممن تبرأ منهما ، فقالوا : إذاً نرفضك ، فسميت الرافضة ، وهم يثبتون الإمامة عقلاً وأن إمامة علي وتقديمه ثابت نصاً وأن الأئمة معصومون وقالوا بتفضيل علي على سائر الصحابة وتبرأوا من أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة ويقولون برجعة الأموات وأن الأمة ارتدت بتركها إمامة علي – ﷺ – ، انظر : تفاصيل مذهبهم في : البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، ص٣٦ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، ص٧٧، ٧٨ ، رسالة في الرد على الرافضة ، ص٦٥ – ٦٧ .

(٥) – سموا بذلك لقولهم في القدر ، وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله استقلالاً فأثبتوا خالقاً مع الله ولذا سماهم النبي – ﷺ – مجوس هذه الأمة " لأن المجوس قالوا بإثبات خالقين : النور والظلمة " ، وهم يزعمون أن الله لا يقدر على مقدورات غيره وهذا هو مذهب المعتزلة في القدر ، الملل والنحل : للشهرستاني ، ١ / ٥٤ ، البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، عون المعبود : ١٢ / ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

وأما التجهيل : فكثير منهم يصرحون بأن هذه النصوص لا معنى لها ، وإنما هـي ألفـاظ مجردة، ومن أحسن منهم وأجمل يقول لها معان استأثر الله بعلمها ، و لم يجعل لنا سبيلاً إلى العلم بها [(١)] .

أما الصنف الخامس فهم " أصحاب سواء السبيل " الذين لا يلزمهم شـيء مـن هـذه اللوازم الخطيرة حيث هداهم الله للطريقة المثلى فلم يتلوثوا بشيء مـن أوضـار هـذه الفـرق وأدناسها، وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقات فكان مذهبهم مـذهباً بين مذهبين ، وهدى بين ضلالتين ، خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين والمجهلين والمشبهين كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، وقالوا: نَصِفُ الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل بل طريقتنـا إثبات حقائق الأسماء والصفات ، ونفي مشابهة المخلوقات ، فلا نعطل ولا نؤول ولا نمثـل ولا نجهل ، ولا نقول ليس لله يدان ولا وجه ، ولا سمع ولا بصر ولا حياة ولا قدرة ، ولا اسـتوى على عرشه ، ولا نقول له يدان كأيدي المخلوق ووجه كوجوههم ، وسمـع وبصـر ، وحيـاة وقدرة، واستوى كأسماعهم وأبصارهم وقدرتهم واستوائهم ، بل نقول : له ذات حقيقة ليسـت كالذوات وله صفات حقيقة لا مجازاً ليست كصفات المخلوقين وكذلك قولنا في وجهه تبـارك وتعالى ويديه ، وسمعه وبصره ، وكلامـه واستوائـه[(٢)] .

ويتبين لنا من خلال هذه الاقتباسات من ردود الأئمة – رحمه الله – والدراسـة المـوجزة لأبرز مناهجهم في الردّ على الفرق الباطلة وشبهاتهم شدة ارتباطهم بمنهج السلف الصالح وتميـز مناهجهم بقوة الدليل وعمق الفكرة ، يذكرون أصول أهل الشبهات ويردون عليهـا واحـداً واحداً، لا يرون ثغرة لإلتواءات المحرفين والمؤولين إلاّ ويسدونها بحجة مفحمة ، ويمكـن بعـد التعرف على هذه المناهج والاستدلالات القياس عليها جميع مسائل الاعتقاد والشريعة التي سعوا لإزالة الشبهات عنها وردّوا عليها وفندوها ، فالمقصود هو إيضاح مناهجهم وطرق استدلالهم في الردّ على الشبهات والافتراءات .

---

(١) – الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، ٣ / ١٠٤٨ – ١٠٥٠

(٢) – المرجع السابق : ٢ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

المبحث الثالث

أوجه الاستفادة من المناهج المشروعة في الردّ على الشبهات في العصر الحاضر :

المبحث الثالث :

أوجه الاستفادة من المناهج المشروعة في الردّ على الشبهات في العصر الحاضر :

إن إثارة الشبهات حول الدعوة أمر قديم متوارث بين أهل الباطل منذ القدم ، والشبهات تموت وتحيى ، وتنقص حيناً إذا ضعف أهل الباطل وتكثر حيناً آخر إذا تقوّوا ، ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾[1] ، فأعداء الحق يسعون دائماً لإثارة الشكوك والشبهات في أحقية الدعوة ومصداقية الدعاة .

وليس خافياً ما تمر به بلدان المسلمين اليوم من تغيرات خطيرة وسريعة في الدين والأخلاق والمرأة والاقتصاد ؛ وذلك نتيجة لمؤامرة أعداء الأمة وسعيهم الحثيث لتطبيق مخططهم الدقيق لإفساد دين المسلمين واستيلاء على ثرواتهم ، وقد بدت بعض آثار ذلك في مجتمعاتهم واقتصادهم وبيوتهم وأخلاقهم .

والشبهات لا ترد من جهة واحدة معينة ، وإنما تثار من جهات متعددة ، من الخارج والداخل ، فمن الخارج – مثلا – شبهات اليهود والنصارى والملحدين والدهريين ، وقد كان من أهم أهداف الاستشراق[2] تشويه صورة الإسلام وأهله حيث توجه النصارى إثر فشل الحروب الصليبية إلى إثارة الشبهات حول الإسلام ونبوة خاتم النبيين محمد – عليه أفضل الصلاة والسلام – لتحقيق هدفين مهمين هما :

الأول : إثبات للنصارى أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار لعدم تمتعه بثوابت عقدية أو أخلاقية ، فصوروا لهم المسلمين على أنهم همج رعاع ، يحثهم دينهم على سفك الدماء ونهب الأموال والتمتع بالنساء ، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي .

الثاني : تشكيك المسلمين في دينهم بحيث إن لم يمكن نقلهم إلى النصرانية فلا أقل من زعزعة إيمانهم وإضعاف يقينهم بثوابتهم الدينية ، ولذا كان غالب جهد المستشرقين منصباً على

---

(١) – سورة فصلت : من الآية ٤٣ .

(٢) – كلمة الاستشراق مشتقة من الشرق ضد الغرب ، وذلك لأن المستشرق قد اتجه في دراساته إلى المعارف الخاصة بالشرق ، والاستشراق هو اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين ، (المستشرقون والسنة : إبراهيم بن حمود بن عبد الله التويجري ، ص٥ ، كلية أصول الدين قسم السنة وعلومها ، ١٤٢١هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض) .

تحقيق هذا الهدف ، يدل على ذلك ما ملئوا به كتبهم من الشبه التي قصدوا من إثارتها زعزعة الإيمان في نفوس المسلمين[١] .

وأما من الداخل – مثلا – شبهات أهل البدع والمتكلمين ومن ينتمي إلى الإسلام من الفلاسفة ، ويظن البعض أن عقائد الزنادقة ، والمجوس والوثنية وسفسطة الفلاسفة قد اختفت من بين المسلمين اليوم ولا حاجة إلى الدراسة والردّ على عقائدهم حيث تلاشت عقائدهم وانتهت شبهاتهم ، وهذا فهم خاطئ مغاير للواقع ، فما المغالاة في الأولياء والصالحين والطواف بقبورهم والتوسل والاستشفاع بهم إلاّ عقائد الوثنية تأثر بها عوام المسلمين وجهالهم ، وما اتباع الشبهات أو الشهوات والأهواء إلاّ انحرافاً يسير فيه الكثير من المسلمين اليوم بجهل منهم ، وما صَرْف صفات الله عن معانيها الحقيقية ، ونَفْي ما وصف الله به نفسه من اليد والوجه، والحب والبغض، والساق والقدم ، والمجيء والاستواء ، والضحك والكلام إلاّ زندقة قديمة انتشرت قديماً فردّ عليها علماء السنة وحاربوها ، وما زال أتباعها إلى اليوم يتواجدون ويفرضون عقيدتهم الباطلة على أجيال المسلمين ، وما وحدة الوجود التي يؤمن بها رجال التصوف الذين ما زالوا كثيرين في العالم الإسلامي إلاّ من عقائد الهندوس والمجوس ، وما القول بالعصمة والرجعة ، وكفر الصحابة وتبديل القرآن ، وفشل الرسول – ﷺ – في إبلاغ رسالة الإسلام إلاّ كفراً يُلبس لباس الإسلام، وما فصل شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد من الدين وجعل الدين هو العبادة فقط إلاّ كفراً يهدم به الدين بإلغاء دوره الحقيقي المتكامل في الحياة .

إن هذه الخرافات والخزعبلات والشبهات القديمة منها والجديدة ، التي يثيرها المستشرقون وأعداء الدين وخصوم الدعاة كل يوم ما هي إلاّ جاهليات إما قديمة وإما حديثة ، وكل هذا وذاك يحتاج إلى بيان وردّ ، ومناقشة وتفنيد ؛ بمناهج القرآن والسنة النبوية ومناهج السلف المستنبطة والمشتقة منهما ، فالقرآن يكاد يكون بكامله وثيقة عقائدية لم يترك أهل ملة ودين ممن عاصر نزوله إلاّ وناقشهم في معتقداتهم ، وأجاب على تساؤلاتهم ، وفند أقوالهم ، وقد كان منهج القرآن في تثبيت عقيدة الإسلام والدعوة إليها على طريقين:

الأول : الإخبار – المجرد من الردّ – عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كقوله تعالى عن نفسه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَیُّ ٱلۡقَیُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةࣱ وَلَا نَوۡمࣱۚ لَّهُۥ مَا فِی ٱلسَّمَـٰوَ ٰتِ وَمَا فِی

(١) – المستشرقون والسنة : إبراهيم بن حمود بن عبد الله التويجري ، ص٨ .

ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[3] .

وكذلك قوله عن الملائكة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾[4] .

وكذلك وصفه وإخباره عن رسله وكذلك عن يوم القيامة وما يكون فيه .

الثاني: وأما الطريق الآخر فهو الردّ على شبهات الضالين، فقد ناقش القرآن الكفار من مشركي العرب في عقائدهم وردّ على شبهاتهم، وكذلك ناقش النصارى واليهود والملاحدة في عقائدهم ورد عليهم وأبطل دعاواهم وادعاءاتهم سواءً فيما يختص بصفات الله سبحانه وتعالى أو ما يختص بملائكته، أو رسله أو قضائه وقدره، فلما نسب مشركو العرب الولد لله وقالوا: الملائكة بنات الله، وكذلك فعل النصارى في عيسى، وفعل اليهود في عزير قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[5]، وزعم الكفار أن الله سبحانه تعالى عاجز عن إحيائهم بعد الموت فردّ الله سبحانه تعالى عليهم وقال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1] ، واتهم اليهود الله بالبخل فقالوا : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ

---

(١) — سورة البقرة : الآيـة ٢٥٥ .

(٢) — سورة الحشر : الآيـة ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) — سورة الإخلاص : الآيـة ١ — ٤ .

(٤) — سورة فـاطـر : من الآيـة ١ .

(٥) — سورة الأنبـياء : الآيـة ٢٦ ، ٢٧ .

(١) — سورة يـس : الآيـة ٧٨ ، ٧٩ .

مَغۡلُولَةٌ ﴾[1] ، فقال تعالى رداً عليهم : ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾[2] ، وقالوا أيضاً نحن أبناء الله وأحباؤه فلا يعذبنا ، فقال تعالى ردّاً عليهم : ﴿ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾[3] ، ولما زعم كفار العرب الشفاعة للملائكة والأصنام قال تعالى ردّاً عليهم : ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾[5] ، ولما احتجوا بالقدر علّم رسوله محمداً – ﷺ – طريقة الرد عليهم فقال : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۝١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ ﴾[6].

ولو تدبرنا القرآن لوجدنا في سورة البقرة وحدها مائة وستين آيــة في الرد على شبهات اليهود العقائدية ، وفي آل عمران جاءت معظم السورة في الرد على شبهات النصارى والمشركين ، وفي النساء والمائدة مع أهما من سور الأحكام إلا أهما مليئتان بالرد على اليهود والنصارى ، وفيهما كذلك الرد على المنافقين الذين ظنوا جواز اتباع الإسلام في العبادات والتحاكم إلى غيره في المعاملات ، فبيّن تعالى كفر من زعم ذلك وحكم بأنه لا إيمان إلا بإخلاص الطاعة لله ووجوب التحاكم في كل شجار إلى حكمه وحكم رسوله كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[7] .

والمهم من ذلك كله هو ذكر إشارات وتنبيهات فقط أن معظم القرآن عقيدة وإيمان ، وقد ذكر بعض العلماء أن آيات الأحكام العملية مائتا آيــة فقط ، وباقي القرآن الذي يربو على ستة آلاف آيــة كلها في العقيدة — والله أعلم بالصواب –.

---

(١) — سورة المائــدة : من الآيــة ٦٤ .

(٢) – سورة المائــدة : من الآيــة ٦٤ .

(٣) — سورة المائــدة : من الآيــة ١٨ .

(٤) — سورة الأنبــياء : من الآيــة ٢٨ .

(٥) — سورة البقــرة : من الآيــة ٢٥٥ .

(٦) — سورة الأنعــام : الآيــة ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٧) — سورة النساء : الآيــة ٦٥ .

ولا شك أن القرآن ناقش العقائد الموجودة في وقته وما سيزعمه الناس بعد وقت نزوله ، وردّ على كل العقائد الباطلة المعاصرة لوقت النزول ، وهكذا أيضاً جادل رسول الله المشركين واليهود والنصارى ، والسنة مليئة بمناقشات الرسول وجداله لليهود والمشركين والنصارى .

وقد سبق الحديث عن مناهج القرآن والسنة في الردّ على الشبهات[1] ، وهي المناهج المشروعة في الموضوع ، كما تحدثت بإيجاز عن مناهج السلف الصالح المستنبطة من الكتاب والسنة ، ومناهج الأئمة والعلماء الذين اتبعوا الكتاب والسنة وساروا على نهج السلف واقتدوا أثرهم[2] .

وللاستفادة من مناهج القرآن والسنة والسلف الصالح ، ومما يوافق الكتاب والسنة من مناهج الأئمة والعلماء الذين اتبعوا الكتاب والسنة وساروا على نهج السلف الصالح ، يجب تطبيق تلك المناهج مع ملاحظة الظروف المحيطة ، والفوارق الزمنية ، وتقلبات الأحوال ، وكل ذلك قد أدركه السلف – رضوان الله عليهم – ، واستوعبوه ، وتعاملوا بموجبه ، فحينما يكون المجتمع نظيفاً متبعاً ، والسنة هي الغالبة ثم يأتي من يريد إثارة الشبه أو غرس بعض البدع ونشرها، فإن الموقف تجاهه هو الصرامة والحزم والشدة؛ لمنع ذلك المرض من الظهور والانتشار حيث يرجى القضاء عليه ، وتؤمن الفتنة من ذلك الإجراء ، بعكس ما لو تمكّن ذلك الداء واستشرى ، وأتى من يريد العلاج والإنقاذ ، فإن موقفه سيختلف ، وهو بحاجة إلى الرفق واللين ومحاورة أهل الشبهات والبدع ومناظرتهم والردّ عليهم بالحجة والبرهان ، والصبر على أذاهم .

ويظهر ذلك من موقف الصحابة عند ظهور أوائل البدع ، فكان يتسم العلاج بالحسم والقوة ، والحكم المجرد على تلك البدع وبيان حقيقة الشبه والصواب من الخطأ ؛ لأن جماهير الناس لم تتشرب ذلك ، ولم تتطرق إليهم شبهات أولئك المبتدعة ؛ فكانت كلمة ذلك الصحابي بأن هذا شبهة وضلال وبدعة كافية لتنفير الناس عنها ، وإعراضهم عن أهلها .

وهكذا الحال مع التابعين وأتباعهم ، كان أقصى ما يأتي به العالم صاحب السنة أن يقول : هذا بدعة أو شبهة ، هذا لم يكن عليه مَن مضى ، هذا من قول الزنادقة ، ويأتي بالآية والحديث للاستدلال بها على بطلان الشبهة والبدعة وتصحيح ما يقابلها من السنة، وكما اشتهر من مجادلة الإمام أحمد – رحمه الله – للذين يناظرونه في مسألة خلق القرآن ، كان يكتفي أن

---

(١) – انظر : المبحث الأول من هذا الفصل (من ص٣٤٢ إلى ص٤٥٢).

(٢) – انظر : المبحث الثاني من هذا الفصل (من ص٤٥٣ إلى ص٥٣٢).

يقول : "أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله – ﷺ – حتى أقول به" ، ثم تطور الحال ، وأصبح كثير من العلماء يتعرفون على أصول الفلاسفة وأهل البدع والكلام ومأخذهم وشبههم ، بقصد الرد عليهم وتفنيد تلك الشبه ، بل أصبحوا يجالسونهم ويناظرونهم ؛ لأن هجرهم والبعد عنهم حينئذ هو بمنزلة التولي يوم الزحف ، وإخلاء الميدان لهم ، وإيهام عامة الناس أن أهل السنة جهلة ، لا يصمدون أمام أولئك الفلاسفة والفرق المنحرفة والمبتدعة ، وهذا ما مثله شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – ، ومن جاء بعده من أئمة أهل السنة .

إن اتباع منهج السلف الصالح في معالجة الشبهات والبدع وأهلها ، لا بد أن يكون مبنياً على فقه دقيق بذلك المنهج ، يفرق به المتبع بين الأحوال المختلفة ، والملابسات المتباينة ، ويعطي كل موقف ما يستحق ، و إلا فإنه سينسب إلى السلف ما ليس من منهجهم ، ويقوِّلهم ما لم يقولوه .

وأوجه الاستفادة من هذه المناهج في العصر الحاضر كثيرة ومتنوعة ، منها ما هي قديمة الأصل وقد تطورت ، ومنها ما هي جديدة ؛ وليدة العصور المتأخرة ، ومنها ما هي حديثة متطورة جداً من وليدة هذا العصر ، ومن أهم تلك الأوجه ما يلي :

الوجه الأول : استخدام وسائل كتابية .

الوجه الثاني : استخدام وسائل كلامية سمعية .

الوجه الثالث : استخدام وسائل سمعية ومرئية .

الوجه الرابع : استخدام وسيلة الشبكة العنكبوتية الإنترنت (Internet) .

أمثلة من هذه الأوجه :

الوجه الأول : استخدام وسائل كتابية :

(١) – **الكتاب** : هو من أهم وسائل المخاطبة قديماً وحديثاً ، ولا يخفى على شخص متعلم ما للكتاب من دور في تكوين وجدان الشعب وفي تشكيل عقله وفكره وأخلاقه وسلوكه ؛ وذلك لأنه يعرض الأفكار عرضاً منطقياً متسلسلاً ، ويحشد من الأدلة ما يجعل القارئ يصدق ما يعرضه من الأفكار والمفاهيم ، ومما يتميز الكتاب أيضاً أنه يخاطب العقل والفطرة والوجدان معاً ، فيؤثر في العقل بالإقناع ويؤثر في الوجدان والعاطفة بالتفاعل وفي الفطرة بإيقاظها .

ولذا ، فالكتاب من الوسائل الفاعلة والأوجه المهمة للردّ على الشبهات التي تثار حول الدعوة والداعية والمدعو ، وقد أحسن استخدامه الأئمة والعلماء في كشف شبهات أهل الأديان المحرفة والفرق الباطلة وتفنيدها وبيان الحق والصواب منها ، فكتاب ''درء تعارض العقل والنقل'' وكتاب '' منهاج السنة النبوية '' لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وكتاب '' الصواعق المرسلة '' لابن القيم ، وكتاب '' إظهار الحق '' لرحمت الله الهندي كتب متخصصة في الردّ على الشبهات ، وهناك كتب أخرى كثيرة للعلماء والباحثين المعاصرين في الردود ، والحاجة قائمة إلى كتب حديثة متخصصة تتناول الشبهات الحديثة وترد عليها رداً قوياً علمياً مستخدمة في ذلك المناهج والأساليب التي سبق ذكرها في المباحث السابقة .

(٢) – **الصحافة** : الصحافة وسيلة إعلامية قوية ، يقال عن قوتها بأنها السلطة الرابعة التي تؤثر على تكوين الرأي العام ، إذ المقالات الصحفية تسهم كثيراً في تشكيل الرأي العام أو تغييره أو تحويله من وجهة إلى وجهة أخرى ، ولأجل ذلك تهتم بالصحافة كل مؤسسة ؛ تجارية كانت أو تعليمية ، وكل حزب ومنظمة ؛ إصلاحية كانت أو سياسية ، وكل حكومة وسلطة ، وتستخدمها لتعريف الناس بمقاصدها ومعطياتها وإنجازاتها ، بالإضافة إلى نشر أخبار وتحليلات ومقالات ؛ كل ذلك لتحقيق أهدافها وغاياتها ، وكم من مقالات قد سببت في تثبيت حكومة أو إتاحتها ، وكم منها كانت سبباً في إثارة الفتنة والفوضى أو الأمن والاستقرار ، وكم منها سببت في إثارة الشبهات وإشاعتها وترويج الباطل وتسويدها من أمثال مقالات سلمان رشدي ، وطه حسين ، وتسليمة نسرين ، وإخوانهم وأخواتهم الكثيرون والكثيرات من المتغربين والمستشرقين والملحدين والمفسدين .

وقد فقه العلماء الدعاة أهمية هذه الوسيلة واستخدموها – ومازالوا – خير استخدام ، فينشرون عبرها مقالات دعوية وإصلاحية ، وفتاوى تهم المسلمين ، وردود على شبهات يثيرها المفسدون، والحاجة تتطلب إلى تكثير الجهود من هذا النوع ، فهو من الأوجه المهمة للاستفادة من مناهج الردّ على الشبهات والافتراءات بحسن استخدامها مضموناً من حيث المادة العلمية ، وتنظيماً من حيث الإدارة ، فالصحافة تحتاج إلى فريق علمي وتمويل كبير وإدارة ناجحة .

ويجدر القول هنا بأنه ليس المراد باستخدام الصحافة كوسيلة للدعوة والإصلاح والردّ على الشبه وإبطال الباطل وبيان الحق والصواب أن تخصص في الصحيفة أو الجريدة أو المجلة صفحة

دينية تهتم بالفتوى فقط وإنما المطلوب أن تكون شخصيتها الصحفية كلها تعمل في مجال الدعوة من الأخبار والمقالات وسائر فنون العمل الإعلامي .

الوجه الثاني : استخدام وسائل كلامية سمعية :

الكلام المسموع أقدم وسائل الإعلام والاتصال ، وظلّ من قديم الزمان إلى اليوم ذا أثر قوي في النفوس حيث تؤثر شخصيةُ المتكلم وهيئته وصدقه وإخلاصه ونبرات صوته ، فتتفاعل نفوس المتلقين للرسالة الإعلامية مع المتكلم ، ولا يزال للخطب والكلمات والمحاضرات التي يلقيها الحكام والعلماء والدعاة تأثير كبير ؛ فجميع الوسائل الإعلامية الأخرى تنقل خطب وكلمات الأعلام والخطباء المشهورين في العالم لما لها من صدىً بين الناس وتأثير في نفوسهم.

وقد تطورات وسائل الكلام السمعية وتنوعت مع مرور الأزمان ، ومن أهمها – مثلا – الخطبة ، والمحاضرة ، والندوة ، والحوار ، والمناقشة والمناظرة .

الخطبة : كانت الخطابة من أهم وسائل النبي – ﷺ – في الدعوة إلى الله ، وقد جعلها شرطاً من شروط صحة صلاة الجمعة وصلاة العيدين ، والخطيب الناجح يتفاعل مع كلامه ويجعل المستمعين يتفاعلون مع خطبته ، وكان النبي – ﷺ – " إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتدَّ غضبه ، حتى كأنه منذر جيش "(١) .

ومما تتميز به هذه الوسيلة عن غيرها دقة الإنصات من السامعين وتركيزهم على ما يقال فيها ، فمنابر الجمعة نعمة من نعم الله ﷻ على المسلمين ، ووسيلة عظيمة التأثير والفائدة يمتلكها الدعاة إلى الله ولا يملكها المفسدون ، ويحصل من خلالها تحذير الناس ووعظهم وبيان خطر المنكرات على الفرد والبيت والمجتمع ، وبيان ذلك بالفتاوى الشرعية المستندة إلى الأدلة الشرعية .

ويجب تنشيط وتفعيل دور الخطبة واستثمارها في إزالة ما علق بالدعوة والدعاة والمدعو من الشبهات والافتراءات وفي الردّ على ما ينشره ويروجه المفسدون من اليهود والنصارى ، أو المستشرقين والملحدين ، أو أهل الكلام والمبتدعين .

المحاضرة : هي وسيلة ذات تأثير سريع ، وهي كالخطبة ولكن يغلب على أسلوبها الجانب العلمي الموثق ، ولذا تخاطب بها خاصة الفئة المتعلمة من الناس ، وتتميز بالهدوء في الإلقاء وتحديد الموضوع أو الموضوعات في المادة الملقاة ، والمحاضرة أنواع ، أهمها :

---

(١) – صحيح مسلم : كتاب الجمعة ، باب : تخفيف الصلاة والخطبة ، ص٣٣٥ ، رقم الحديث : ٨٦٧ .

(١) – المحاضرة العلمية : تشتمل على معلومات علمية دقيقة .

(٢) – المحاضرة الثقافية : تشتمل على موضوعات ثقافية عامة .

(٣) – المحاضرة السياسية : تتناول قضايا سياسية مستهدفة إلى كسب الرأي العام.

(٤) – المحاضرة التعليمية : تلقى المحاضرات التعليمية بالمدارس والجامعات بهدف تدريس مقررات المادة العلمية .

وهذه الوسيلة من أنسب أوجه الاستفادة من مناهج الردّ على الشبهات لأمرين مهمين ، وهما :

الأول : إمكانية عرض الشبهات والافتراءات وآراء خصوم الدعوة وأقوال المفسدين مفصلة ثم مناقشة أدلتهم وأصولهم مناقشة علمية قوية والردّ عليها وإثبات بطلانها ؛ وذلك لأن هذه الوسيلة تخاطب بها فئة العلماء والمثقفين وطلبة العلم .

الثاني : إمكانية الاستعانة بالأدوات والوسائل الحديثة في إلقاء المحاضرة من مثل عرض الصور والأرقام ، والإحصاءات العلمية عن طريق المعارض والحاسوب ، وعرض الحقائق والبراهين العلمية كالإعجاز العلمي والدلائل التجريبية عن طريق أشرطة الفيديو والأقراص المدمجة (CD و DVD)، وهذا يجعل التأثير أقوى وأسرع في المدعوين سواء أكانوا من المتأثرين بالشبهات أو المثيرين لها .

ووسيلة المناظرة والحوار والندوات تشبه المحاضرة ، ويستفاد منها أيضاً كما يستفاد من المحاضرة .

الإذاعة : هي وسيلة إعلامية حديثة ومؤثرة ، ومن أهم مميزاتها :

– تأثيرها في قطاعات كبيرة من المجتمع .

– أداة مرغوبة لدى الجماهير لقلة تكلفتها ، وسهل نقلها وحملها .

– الاستفادة المتنوعة في مجالات الحياة المتعددة .

– إمكانية الاستفادة بالاستماع إليها في حالة القيام والسفر، وفي داخل المنزل أو السيارة.

وقد استخدمت الإذاعة لغرض سياسي وتعليمي ، وتثقيفي ، وترفيهيي .

وقد فطن أهل الأديان المحرفة والفرق الضالة أثر الإذاعة وأهميتها فقد " أمكن رصد أربع عشرة إذاعة تنصيرية إلى عام ١٩٩٠م ، تبث برامجها على ١٥٠٠ساعة كل أسبوع ، أي ما يقرب من ٨٠٠ ألف ساعة كل سنة ، من الإرسال الصليبي الموجه للعالم للعربي وحده ، كما تم

إنشاء إذاعة جديدة من هذا النوع في أفريقيا تبث برامجها بخمسين لغة ، تغطي القارة المسلمة من أقصاها إلى أقصاها ، هذه إضافة إلى الإذاعات التنصيرية الموجودة فعلا من قبل ''[1] و الأخـــرى التي أنشئت من بعد ، فهُم وظفوا في سبيل ذلك إمكانات ضخمة ومبالغ هائلة .

وهذا كله يضعنا أما تحدٍ كبير يفرض علينا نشاطاً دعوياً وإعلامياً مضاعفاً بكلا الطريقتين؛ العرض والردّ .

ولا شك أنه قد استخدمت بعض الدول الإسلامية الإذاعة كوسيلة من وسائل الدعوة مثل إذاعة القرآن الكريم في مصر والسعودية والسودان ، كما تقدم عدد من الإذاعات فقرات خاصة بالإسلام والدعوة والفتاوى .

وهو وسيلة نافعة وفاعلة جداً للردّ على شبهات المفسدين وافتراءاتهم التي يفترونهـــا علـــى الدعوة والدعاة والمدعوين لميزاتها التي سبق ذكرها آنفاً .

الوجه الثالث : استخدام وسائل سمعية ومرئية :

التلفاز :

استخدام الوسائل السمعية والمرئية من أهم الأوجه التي يمكن تطبيق واستخدام مناهج الردّ على الشبهات عبرها والاستفادة منها استفادة عظيمة لم يسبق لها مثيل ؛ وذلك لكونها وســـائل حديثة متطورة ، ويُعدّ التلفاز أهم تلك الوسائل إذ هو وسيلة ذات أثر كبير وسريع على الجماهير حيث تتميز بما يلي :

– التغطية الجغرافية الواسعة ، فالعدد المستفيد منه كبير جداً ، وتقدر الإحصاءات أن بعض القنوات العالمية يصل عدد مشاهديها إلى أكثر من '' ثلاثة ملايـــين ''[1] مشاهد يومياً ، والعدد في ازدياد مستمر كل يوم لاسيما منذ ظهور البث المباشر عبر الأقمار الصناعية .

– رغبة الجماهير في معرفة المعلومات والأحداث التي تحدث في كل العالم والتي تبث عـــبر هذه الوسيلة عن طريق الأقمار الصناعية إثر حدوثها في اللحظة نفسها بلا تأخير .

– مخاطبة الجمهور في وقت فراغهم الذي يملكونـــه .

– تقديم البرامج المتنوعة ، وبأساليب تشدّ الجماهير وتؤثر فيهم .

---

(١) – واقـــع الدعـــوة الإسلامية في نيـــبال في العصر الحاضر : للباحث ، ص١٢٩ .

(١) – مأخوذ من مقال منشور في الانترنت : د . عادل علي الله إبراهيم .

وقد أدرك المنصرون أهمية هذه الوسيلة ، فقامت " الفاتيكان " ، إضافة إلى الإذاعات التنصيرية المنتشرة في أنحاء العالم ، بإنشاء المركز الضخم للإنتاج والبث التلفازي ، يقوم عليه عدد كبير من الخبراء والمختصين ليتولوا إعداد وإنتاج وإرسال البرامج التنصيرية لنشر النصرانية في كل بقعة من هذا العالم ، وكلف هذا مبالغ ضخمة جداً ، كما أنشأ القاديانيون[1] محطة التلفاز في لندن في اليوم السابع من شهر يناير عام ١٩٩٤م بمساعدة الروس ، وسموها "التلفزيون المسلم" وأسسوا مراكز الاستقبال في أنحاء العالم التي تستقبل البرامج المرسلة من لندن عن طريق القمر الصناعي ، وتشتمل البرامج على التعليمات القاديانية ومحاضرات الخليفة ؛ أي أميرهم العالمي ، وخطبة الجمعة وغيرها من البرامج المختلفة ، وتبث البرامج بسبع لغات ، وهي : فرنسية، وبنغالية ، وإنجليزية ، وأردية ، وأسبانية ، وبوسنية ، مع ترجمة مستمرة لجميع هذه البرامج إلى اللغة العربية [2] .

وهذا كله يضعنا أمام تحدٍ يفرض علينا نشاطاً دعوياً مضاعفاً بكلا الأسلوبين ؛ العرض والردّ ، عبر هذه وأمثالها من الوسائل الحديثة والمتطورة .

الوجه الرابع : استخدام الشبكة العنكبوتية (الإنترنت Internet) :

تعني هذه الكلمة ترابط عدد من الأجهزة الحاسوبية معاً من خلال وسائل الاتصال المختلفة والمتنوعة المتكاملة ، وهو شبكة واسعة تربط ملايين من المشتركين حسب نوع الخدمة التي يراد الاستفادة منها ، وهي تعني شبكة الشبكات وشبكة المعلومات .

والإنترنت أحدث وسائل الإعلام والاتصال، ويمكن القول بأنها في مقدمة وسائل الإعلام، ومن ثم فهي أهم أو من أهم الأوجه التي ينبغي الاستفادة منها في دعوة الناس إلى دين الله ﷻ

---

(١) – القاديانية نحلة دينية ضالة ، نشأت سنة ١٩٠٠م في الهند في نطاق الإسلام بتخطيط من الاستعمار وعملت باسم الدين الإسلامي بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص حتى لا يواجهوا المستعمرين الإنجليز، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة الأديان التي تصدر باللغة الإنجليزية ، والقاديانية دعوة ضالة ، ليست من الإسلام في شيء ، وعقيدتها تخالف الإسلام في كل شيء ، وينبغي تحذير المسلمين من نشاطهم ، بعد أن أفتى علماء الإسلام بكفرهم ، (انظر : القاديانية والاستعمار الإنجليزي : عبد الله سلوم السامرائي ، ص٥ ، ط١٩٨١م ، المركز العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، (بتصرف) ، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة : من إصدارات الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ص٤١٦ ، ٤١٩) .

(٢) – مجلة " أفكار ملي (أفكار الملة) الشهرية ، تصدر من دهلي – عاصمة الهند – باللغة الأردية ، ص٣٥ ، المجلد ٩ ، العدد ٧ ، يوليو ١٩٩٤م .

بالأسلوبين؛ العرض والردّ، فمن أهم المميزات التي تنفرد بها هذه الوسيلة تجاوز حدود الجغرافيا واختصار الزمن.

ولها وجه آخر إضافة إلى ما يشار إليه من تحطيم للحواجز وتجاوز للحدود وهو أنّ هناك حسب الإحصاء نحو ١٥٠ مليون مستخدم لهذه التقنية في مختلف أنحاء العالم الأمر الذي يعتبره المهتمون بالدعوة فرصة مواتية وتاريخية لنشر الدعوة الإسلامية لاسيما وأن هناك الألوف ممن نطقوا الشهادة وكان للإنترنت دور مهم في إسلامهم .

و لم تنل وسيلة من وسائل الإعلام والاتصال ونقل الأخبار ونشر المعلومات في تاريخ البشرية ما نالته الإنترنت من سرعة في الانتشار والقبول بين الناس، وعمق في التأثير في حياتهم على مختلف أجناسهم وتوجهاتهم ومستوياتهم، ومما يميز الإنترنت هو تنوع طبيعة المعلومات التي توفرها، وضخامة حجم هذه المعلومات التي يمكن الوصول إليها دون عقبات مكانية أو زمانية، وتتوقع الدراسات أن ينمو عدد المستخدمين إلى أكثر من ١٥٠ مليوناً في الأعوام القادمة، فقد أصبح الناس اليوم ينظرون إلى الإنترنت على أنها المصدر الأول والمفضل للمعلومات والأخبار، وقد يقال إن وسائل الإعلام التقليدية كالصحف والمجلات والإذاعات لن تلبث أن تنقرض على يد الإنترنت، كما انقرضت ألواح الحجارة على يد ورق البردي وكما انقرض النسخ اليدوي للكتب على يد روتنبرج، ومن الطبيعي أن زعماً جريئاً مثل هذا - بغض النظر من مدى صحته - لا يمكن أن ينشأ من فراغ ولابد أن تكون هناك أسباب قوية ووجيهة تستطيع بها الإنترنت أن تهدم إمبراطوريات إعلامية وجدت من قرون.

وفيما يلي بعض خصائصها التي تجعلها وسيلة إعلام واتصال المستقبل بلا منازع، وبالتالي من أهم وسائل الدعوة إلى الله ونشر الدين الإسلامي، وإزالة ما تثار حوله من الشبهات وتفترى عليه من الافتراءات:

(١) – اللامكان :

تتخطى الإنترنت كل الحواجز الجغرافية والمكانية التي حالت منذ فجر التاريخ دون انتشار الأفكار وامتزاج الناس، وتبادل المعارف، ومن المعروف أن حواجز الجغرافيا منها اقتصادي (تكلفة شحن المواد المطبوعة من مكان إلى آخر) ومنها فكري وثقافي (حيلولة بعض الدول دون دخول أفكار وثقافات معينة إلى بلادها)، أما اليوم فتمر مقادير هائلة من المعلومات عبر الحدود

على شكل إشارات إليكترونية لا يقف في وجهها شيء ، وفي ذلك بجانب السلبية نواح إيجابيـــة لا تعد ولا تحصى ، والتي يمكن تجنيدها في قضية الدعوة .

(٢) – **اللازمان** :

إن السرعة الكبيرة التي يتم بها نقل المعلومات عبر الشبكة تســقط عامـــل الـــزمن مـــن الحسابات، وتجعل المعلومة في يد المرء حال صدورها ، وتسوي بينه وبين كل أبناء البشر في حق الحصول على المعلومة في الوقت نفسه وبالتالي فالإنسان يعيش اليوم في عصر المساواة المعلوماتية .

(٣) – **التفاعلية** :

تعودت وسائل الإعلام التقليدية أن تتعامل مع المتلقي كجهة مستقبلة فقط ، ينحصر دوره في أن يأخذ ما تعطيه ويفقد ما لا تعطيه ، فالقائمون على تلك الوسائل هم الذين يقـــررون مـــا يقرأ أو يسمع أو يشاهد ، أما في عصر الإنترنت فهو الذي يقرر ماذا ومتى يريد أن يحصل عليـــه من معلومات ، وأكثر من ذلك فبإمكانه الآن من خلال منـــتديات التفاعل والحوار أن ينـــتقل من دور المستقبِل والمتلقي إلى دور المرسل أو الناشر ، وهذه نقلة تحصل لأول مرة وتمكّن النـــاس من التحرك على أرض مستوية دون أن يطغى صوت أحدهم على الآخر ، ولهذا أهمية كبيرة بلا شك في الحوار الشرعي أو حوار الأديان ، وينبغي علينا كمسلمين إدراك ما تحمله هذه التقنيـــة من دعم لقضية الدعوة .

(٤) – **المجانية** :

وهي أمر لم يحصل تماماً بعد، لكنه سيحصل خلال السنوات القادمة، حيث إن الكثير من الأنماط التجارية بدأت تـــتبلور لتمكن المجتمع من اعتبار خدمة الإنترنت من الخدمات الأساسية في الحياة والتي سيتم توفيرها للجميع بشكل مجاني أو شبه مجاني، ومعروف اليوم في الغرب أنـــه بإمكان المرء أن يتصل بالإنترنت ٢٤ ساعة يومياً مقابل مبلغ ٢٠ دولاراً شهرياً، وهـــو مبلـــغ رمزي حتى للطبقة المتوسطة في كثير من المجتمعات، الأمر الذي يجعل من الإنترنت الوسيط الذي يصل إلى أكبر عدد من شرائح المجتمع ولاسيما الفقيرة منها ، علاوة على ذلك تـــتمتع الإنترنت بميزة الربط الدائم، حيث إنه ومع تطور التقنيات التي تمكن الإنسان من الاتصال بالإنترنـــت، لم يعد بالضرورة يقتصر على استخدامها من حاسوبه الشخصي في العمل أو المنـــزل، بل أصـــبح بإمكانه أن يتصل بالشبكة من مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأدوات كحاسبات الجيب والهواتـــف

النقالة وحتى جهاز الثلاجة في المطبخ ، وبذلك سيكون الإنسان على ارتباط دائم بالانترنـــت في كل مكان وزمان ، يتابع الأخبار ويتسوق ويستدعي المعلومات المهمة في الوقت المناسب .

(٥) – تنوع التطبيقات :

ما ذُكر من أمثلة قليلة على استخدامات وفوائد الإنترنت ما هو إلا غيض من فـــيض ، إذ إن التطبيقات والخدمات التي تقدمها الشبكة تبلغ سعتها سعة الحياة ، فمن التطبيقات التعليميـــة والتربوية التي تخدم أطفالنا في تعلمهم واستكشافهم للعالم ، إلى الخدمات التي تســـهل الاتصـــال كالبريد الإلكتروني وغرف الحوار ، إلى التطبيقات التجارية التي تحول العالم بأســـره إلى ســـوق صغير يستطيع فيه البائع والمشتري إتمام صفقاتهم في لحظات ، إلى المواقع الإخبارية والمعلوماتيـــة والأكاديمية والمرجعية التي تخدم الباحثين والمطلعين في شتى المجالات ، ويجب على الدعاة المسلمين أن يدركوا أيضاً أن المفسدين قد أكثروا استخدام هذه التطبيقات لإفساد عقائد الناس وأخلاقهم وسلوكهم ، ومن ثم فيتحتم عليهم أن يستخدموها لعرض الدعوة الإسلامية والردّ على الشبهات المثارة حولها وحول الدعاة والمدعويـــن لينكشف زيغها ويتبين بطلانهـــا ، وينـــــتشر الحـــق والصواب ، والأخلاق والفضائل ، ويتوقف الفساد وتنـــتهي الرذائل ، وتتم الاستفادة من هذه الإمكانات الهائلة التي توفرها لنا التقنية الحديثة يوما بعد يوم .

(٦) – سهولة الاستخدام :

لا يحتاج الشخص أن يكون خبيراً في المعلومات به أو مهندساً أو مبرمجاً حـــتى يســـتخدم الإنترنت ، ولا يحتاج رواد الشبكة إلى تدريـــبات معقدة للبدء باستخدامها ، بل إلى مجرد مقدمة في جلسة لمدة ساعة مع زميل يوضح له المبادئ الأولية للاستخدام .

لماذا الإنترنت للداعية المسلم ؟

لأنه أصبح بإمكانه إطلاع العالم بأسره وتعريفه بدينه الذي يقوم بعض الناس بتشويه صورته يومياً باستخدام تقنيات العصر ومنها الإنترنت ، إن هذه الأداة التي ألهم الله بها الإنسان ليخترق المسافات في سرعة البرق وليدخل بيوت الناس جميعاً بلا حواجز ، فرصة تاريخية للعاملين في مجال الدعوة إلى الإسلام وللحريصين على نشر كلمته ، وليصلوا إلى العالمين ويقولوا لهم هذا هو الدين الحق والدعوة الصالحة وذاك فساد وشبهات ، وهلاك ودمار ، ويكونوا شهداء على الناس امتـــثالاً لأمر الله ﷻ : ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1]،[2] .

الخـــاتـــمـــة

وتشتمل على :

أ – أهم نتائج البحث .

---

(١) – سورة الحج : الآيـــة ٧٨ .

(٢) – مجلة الإصدار التعريفي ودليل المشاركين في المعرض الخامس لوسائل الدعــوة في المدينة المنورة ، (نقلا من الانترنت من الموقــع : '' صيد الفـــوائـــد '' ، www. Said . net) .

ب – أهم توصيات البحث .

في ختام هذه الدراسة في ''منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات'' يمكن الخروج بنتائج وتوصيات على النحو التالي :

أ – أهم نتائج البحث

(١) – يأتي في مقدمة نتائج هذه الدراسة إثبات مشروعية القيام بالردّ على الشبهات من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسير الصحابة – ﷺ – ، كما تبين أنه كان مشروعاً في شرائع من قبلنا ، وظهرت أهميته البالغة في الدعوة إلى الله ، حيث إن له دوراً كبيراً في إبطال الباطل وإزالة الشبهات عن نفوس المدعويين ، وإحقاق الحق وإيصاله إلى نفوسهم .

(٢) – دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية المطهرة على وجوب الردّ على شبهات المدعو عند الحاجة أثناء دعوته إلى الحق ، كما ثبت وجوبه أيضاً بالعقل إذ الشبهات تحول دون وصول الحق إلى المدعو وتمنعه من الاستجابة له وتحرمه نتيجةً الهداية التي هي المقصود الأعلى للبشر أجمع .

(٣) – ظهرت قوة رسالة الإسلام وصدقها وأنها من عند الله ﷻ وليس من عند البشر ؛ وذلك لما تضمنته هذه الدراسة من البراهين والأدلة العلمية والكونية الشاهدة على مرّ الأزمان والمؤكدة لكثير من الاكتشافات العلمية عبر العصور دونما تغيير أو تبديل ، وهذا يفوق طاقة البشر ، فمهما بلغ الإنسان من الذكاء وتقدم في العلم والتكنولوجيا إلاّ أنه لا يستطيع أن يصل إلى ما في القرآن الكريم من حقائق وأخبار ، والتي تدل دلالة قاطعة على أنه من لدن عزيز حكيم وليس من البشر العاجز الناقص .

(٤) – منشأ الشبهات وأهم دوافعها تتمثل في اتباع الهوى ، وحب الرياسة والجاه ، والكبر ، والجهل ، ونشر أحاديث مكذوبة ، والحكايات الكاذبة ، والبيئة الفاسدة ، والتأثر بالملأ ، والحسد من الحق وصاحبه ، والتقليد الأعمى .

وهذه الدوافع لا يرغب أصحابها التخلي عنها بسهولة ، بل قد تكون بعضها تأصلت بطبيعتهم فيصعب جداً معالجتها ، ولكن قد ثبت من خلال هذه الدراسة إمكانية معالجتها بالكتاب والسنة ، والتاريخ الإسلامي الطويل خير شاهد على ذلك .

(٥) – الطعن في شخص الداعي وعقله وسيرته وأمانته وعرضه ، وإثارة الشبهات حول مصداقية الدعوة التي يدعو الناس إليها ، وتنفير المدعويين عنها سلاح قوي ذو تأثير شديد سريع، استخدمها خصوم الدعوة مع رسل الله تعالى من قبل ، وهذا ما يفعله خَلَفُهم مع الدعاة اليوم ، فهي شنشنة قديمة متوارثة بين أهل الباطل من قديم الزمان لصد الناس عن الحق ومنعه من الانتشار والغلبة على الباطل .

(٦) – منهج الردّ ليس بمنهج واحد ثابت وإنما يتعدد ويتنوع من مدعو إلى مدعو آخر نظراً لاختلاف أحوال الواحد منهما عن الآخر ، فللردّ على شبهات المدعويين وإقناعهم على بطلانها وإقرارهم لأحقية الدعوة على اختلاف أحوالهم وأفهامهم وبيئاتهم وثقافاتهم واستعدادهم لاستجابة الحق كان من أهم مناهج القرآن الكريم والسنة النبوية " منهج الردّ بإيقاظ الفطرة " و" منهج الردّ العقلي " و" منهج الردّ الحسي " متمثلةً في أدلتها المتنوعة التي تحث الإنسان

المدعو على النظر والتأمل والتدبر والتفكر في الآيات والدلائل الكامنة والظاهرة في الآفاق والأنفس وما بها من عظمة وسعة وتنظيم ودقة وتوازن وانسجام والكثير من العجائب والغرائب حتى يشبع عقله ويمتلئ حسه ويطمئن قلبه ، ويقتنع أخيراً من جميع الوجوه بأن الذي خلق هذه الآيات قادر على كل شيء ، وهو المعبود وحده لا شريك له ، ولم تخلق هذه المخلوقات عبثاً وأن الآفاق والأنفس ميدان واسع رحب للاستدلال على ألوهية الخالق وعلى البعث والنشور وعلى صدق نبوة النبي محمد – ﷺ – ورسالته الخالدة .

(٧) – يلزم الداعي استخدام هذه المناهج بأدلتها المتنوعة حسب حاجة المدعو وحاله لكونها مناهجَ مهمةً مشروعةً ذاتَ تأثيرٍ قوي ، خاليةً من التناقض والتعارض ، متوافقةً مع طبائع جميع أصناف المدعويين ، كفيلة بإزالة الشبهات وإبطالها ، فترْكها والأخذ بمناهج الفلاسفة وأهل الكلام لا يؤدي إلى المطلوب في أغلب الأحيان ، بل كثيراً ما ينتج منه اللبس ويضيع الحق .

(٨) – لكل من المناهج عدد من الأساليب ، ولكل أسلوب أدلة تخصه ، فيلزم الداعية القائم بالردّ على الشبهات أن يكون على علم غزير ومعرفة تامة بتلك المناهج بأساليبها المتعددة وأدلتها المتنوعة ، كما يجب أن يكون على علم واسع بالمناهج التي يسلكها والأدلة التي يستخدمها الفلاسفة وأهل الكلام ومثيرو الشبهات في استدلالهم لإثبات معتقداتهم وإثارة شبهاتهم.

(٩) – لا يلزم الداعي أن يرد على جميع الشبهات بل لا ينبغي له ذلك وإنما يتجاوز عديمة التأثير منها والواضح تفاهتها اتباعاً للنبي – ﷺ – ، فقد كان يتجاهل الهزيلة التافهة منها ولا يردّ عليها.

(١٠) – إن أساليب الخطاب ووسائل الاتصال قد تطورت تطوراً هائلاً عما مضى من الزمان، وهي في تطور مستمر ، فينبغي للداعي أن يتعرف عليها ، بل يجيد ويحسن استخدامها في الردّ على الشبهات وعرض الدعوة مركزاً على الجانبين ؛ الشكل والمضمون .

(١١) – الإعجاز والدوام والشمول ومخاطبة العقل والوجدان معاً والدلالة القاطعة وعمق المعنى ووضوح البيان من أهم مميزات مناهج الردّ القرآني ، فردوده وحججه وأدلته معجزة ، وباقية للأبد، وصالحة لكل زمان ومكان ولجميع أصناف الناس ، وقاطعة لجميع الحجج الباطلة، وخالية من الغموض والتناقض ، وتخاطب العقل والوجدان معاً في وقت واحد فيستخدم الدليل العقلي داعياً إلى التفكر والتدبر لإزالة شبهة المدعو وإقناعه بالحق والصواب مع مخاطبة وجدانه

وفطرته التي تسرع لاستجابة الحق والصواب إذا ما تم إيقاظها وصفاؤها مـــن الغـــبش وأدران الشبهات .

(١٢) – وردت في الدراسة تطبيقات عملية للـــردود ومناهجهـــا وأســـاليبها وخصائصـــها وضوابطها من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة السلف الصالح والأئمة والعلماء ، وهي حافلة بالدروس القيمة المعطاءة للدعوة الدعاة والمدعوين ، وترسم في مجموعها أسساً وثوابـــت لمناهج الردّ على الشبهات خاصة ولعلم الدعوة عامة .

ب – أهم التوصيات :

فيما يلي أهم المقترحات والتوصيات ، أذكرها لعلها تجد من يأخـــذها بعـــين الاعتبـــار ويضعها موضع التنفيذ ، فتسهم في تزويد طلاب العلم والدعاة بعلم ومعرفة تهمهم في مهمتـــهم الدعوية والتعليمية ، وتساعدهم في حل مشكلتهم وتوفير حاجتهم العلمية المنهجيـــة لينهضـــوا بالدعوة مبلغين رسالتها بالمنهج الصحيح السديد – بتوفيق الله تعالى – :

١ – لا يزال هناك متسع لمزيد من الدراسة والبحث في بعض جوانـــب الموضـــوع ، فهنـــاك طريقتان رئيستان للدعوة ؛ طريقة العرض وطريقة الردّ ، وموضوع طريقة الـــرد ، أي الـــدعوة بعرض الحقائق على المدعو مع الردّ على شبهاته إن وُجدت ، موضوع واسع متشعب ، وكـــل جانب من جوانبه جدير بالبحث والدراسة لأهمية الدعوة إلى الله ووجوب القيام بها.

٢ – لا يفوتني أن أوجه نداءً إلى الجامعات والمؤسسات العلمية والمنظمات الإسلامية بضـــرورة تكثيف العناية والاهتمام بدراسات وبحوث في علم الدعوة ومناهجها ؛ لأنها تنير الدرب للدعاة ، وتصونهم من الانحراف عن الطريق القويم والمنهج السديد ، وتعينهم على تحقيق أهداف الـــدعوة وغايتها – بإذن الله ﷻ – .

٣ – العلوم الكونية والآيات في الآفاق والأنفس المشار إليها في القرآن الكريم والسنة النبويـــة المطهرة مادة علمية مهمة ذات تأثير سريع لتجديد الإيمان وتقويته ، وبضاعة ثمينـــة وزاد مهـــم للداعي ، ولذا يوصي الباحث بإعداد مقرر دراسي مستقل يشتمل على تلك المـــادة للمـــدارس والمعاهد والجامعات .

٤ – هناك كتب كثيرة في الردود ، ولكن الحاجة قائمة إلى كتب حديثة متخصصة تتناول الشبهات الحديثة وتردّ عليها مستخدمة في ذلك مناهج القرآن والسنة وأساليبهما في الردّ على الشبهات وتفنيدها وبيان الحق وإحقاقه والدعوة إليه .

٥ – تدعو الحاجة إلى تكثير الجهود في استخدام الصحف والمجلات والإذاعة والتلفاز والإنترنت للردّ عبرها على شبهات المفسدين وافتراءاتهم التي يفترونها على الدعوة والدعاة والمدعوين ، وهذا يتطلب تكوين فريق عمل من المتخصصين من علماء وباحثين ، وصحفيين وإذاعيين ، وإداريين ومموّلين ...الخ مع فريق آخر لترجمة المادة العلمية الجاهزة إلى لغات مختلفة ونشرها عبر الصحف والمجلات الأجنبية والإنترنت والوسائل الأخرى آنفة الذكر .

٦ – إيجاد التفاهم ، والتنسيق ، والتعاون المشترك فيما بين المنظمات الإسلامية العاملة في حقل الدعوة للعمل معاً لمنع الشبهات والمعتقدات الباطلة من الانتشار بالردّ عليها وكشف زيغها وضلالها .

٧ – العناية والاهتمام بالمساجد بحيث تستطيع أن تؤدي رسالتها التعليمية والتثقيفية والتربوية والدعوية والتوعيية ، فتكون سداً منيعاً أمام الشبهات الواردة من المدعوين والمثارة من خصوم الدعوة ، وأمام الشهوات الناشئة من البيئة العلمانية المادية أو الفساد الوارد من الغرب والشرق أو من النفس الأمارة بالسوء ، ولأجل ذلك يجب توفير الأئمة والخطباء الأكفاء إذ يتوقف عليهم تأدية هذه الرسالة من خلال المساجد .

وأخيراً أقول بأن مثل هذه الدراسات المتخصصة المنهجية التأصيلية في علم الدعوة مازالت لا تشفي غليل الداعي المسلم وطالب علم ، والدراسة هذه لم تضع خطا نهائياً في الموضوع وإنما هي مساهمة متواضعة في هذا المجال .

والحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات ، والشكر له سبحانه وتعالى على توفيقه لي بأن ذلل لي جميع العقبات ، أرجوه تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي يوم القيامة ، كما أسأله سبحانه أن يعز الإسلام ويحقق آمال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن يوحّد صفوفهم ويعلي كلمتهم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر ، وعلى آله، وصحبه ، ومن تبعه واقتفى أثره إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

الفهـــارس

١ – فهـــرس الآيـــات القـــرآنيـــة

ســـورة البـــقـــرة

الآيـــة	رقمها	رقم الصفحة
وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا	٢٣	٤٥٢
يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي	٢٦	٤٩٦
هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم	٢٩	٣٦٤
إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ	٣٠	١٤٥
أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ	٣٠	٢٦
وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا	٣١ – ٣٣	١٨١
وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ	٣٤	٢٢٥
قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا	٣٨	١٨٨
فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ	٣٨	١٦٣
وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ	٤٢	٥٢٨
وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ	٥٥ – ٥٦	٤١٧
أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ	٧٥ – ٧٩	٥٣٠
وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ	٨٠	٤٤٧
الآيـــة	**رقمها**	**رقم الصفحة**
أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ	٨٧	١٥٥
وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ	٨٩	٢٢٧
وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ	١٠٩	٢٢٠،٢١٩،٢٠، ٢٢٥، ٢٢٦، ٣٢٩
وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ	١١١	٢٤
وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ	١٢٠	٢٢٧
وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم	١٢٠	١٥٦
وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ	١٢٦	١٩٨
رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ	١٢٨	٤٩٦ ، ٤٩٩

سـورة آل عمران

سورة المائدة

ســـورة الأنعام

الآيـــة	رقمها	رقم الصفحة
وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ	٥٢	١٧٤
أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم	٥٣	١٧٠، ١٧٦، ٢٢١
وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ	٥٤	١٩٣
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ	٥٥	٢٣ ، ٥٤
قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ	٥٦	١٥٦
قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى	٥٧	٥٤
وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ	٦٠ – ٦٢	٤٠٩
قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ	٦٣ – ٦٤	٣٥٣
وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ	٦٨	٩٠
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ	٧٣	٣٦٤
وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ	٧٤ – ٧٩	٤٤٥
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى	٧٩	٣٤٧
وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ	٨١	٧٤
الآيـــة	**رقمها**	**رقم الصفحة**
وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ	٨٣	٩٩
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا	٨٩ – ٩٠	٥١٩
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ	٩٠	٢٣٨
وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ	٩١	٤٤٨
وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ	١٠٠ – ١٠١	٤٥٠
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ	١٠٢	٣٩٠
لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ	١٠٣	٣٩١ ، ٥١٠
وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ	١٠٨	١٩٢

ســـورة الأعراف

ســـورة يونس

فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ	٣٢	٣٠٨
أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ	٣٨	٥٦ ، ٢٧٩، ٤٥١
فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ	٣٨	٥٦ ، ٤٢٣
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ	٤٨	٧٩
وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ	٦٦	٣٨٩
إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ	٦٨	٩٨
فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ	٧١	٧٤
ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ	٧٥ - ٧٦	١٦٥، ١٧٨
قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا	٧٨	٢٤١ ، ٢٧٢، ٢٧٧
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ	٧٨	١٦٧
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ	٨٨	٢١٥
وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ	١٠٧	٣٩١

سورة هود

الآيــة	رقمها	رقم الصفحة
وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ	٣	٧١
فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ	١٣	٥٦ ، ٤٢٣
أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ	١٣	٤٥٢
فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ	١٤	٤٩٠
فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ	١٧	٣٢٧
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ	١٨- ١٩	٢٦٩، ٣٢٧
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ	٢٧	١١٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٦،

		٢٧٦
فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ	٢٧ – ٣١	٧٣
وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ	٤٠	١٢٠
مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا	٥٥ - ٥٦	٧٤
وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ	٥٩	١٢٠
قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا	٩١	١٧٥، ١٧٦
وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ	١٠٤	٧٩

سـورة يـوسف

الآيـة	رقمها	رقم الصفحة
وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ	١٢	٤١٥
إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ	٣٧ - ٣٨	٢٣٨
إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ	٤٠	٢٩ ، ٦٩، ٤٦٦، ٤٦٧
وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ	٤٤	٣٥٧
يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ	٨٧	٤١٠
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ	١٠٥	١٦٨
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ	١٠٦	١١٤
قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ	١٠٨	٤٦ ، ٥١، ٢٦٣، ٤٥٤

سـورة الـرعد

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ	٣٠	٢٨٢
وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ	٣٢ - ٣٥	٢٠٢
قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ	٣٦	٢٦٢
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ	٣٨	٤٢٤

ســـورة الإســـراء

قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم	٥٦ – ٥٧	٣٨٥
وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ	٦٧	٣٥١
قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ	٨٨	٥٦ ، ٤٢٣، ٤٥٢
وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ	٨٩ — ٩٥	٣١٧
لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ	٩٠	٣٣٣
وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ	٩٤ – ٩٥	٤٤٨
وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا	٩٨ — ٩٩	٤٠٧
قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ	١٠٠	١٥٨، ٢١٩
وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا	١٠٠	٢١٩
وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ	١١١	٣٩٧

سـورة الكـهف

الآيــة	**رقمها**	**رقم الصفحة**
فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ	٦	٣٣٣
وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ	٢٣ — ٢٤	٤٩٦
وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ	٢٨	١٧٤
وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ	٢٨	١٥٠
وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ	٣٥ – ٣٦	١٨٠
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ	٤٥	٣٩٠
وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ	٤٥ – ٤٦	٤٢٦
ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا	٤٦	١٨٥
وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا	٤٩	٣٩١
وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا	٨٤ – ٨٥	١٤١

الآيـة	رقمها	رقم الصفحة
قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ	١٠٣	٢٤٤

ســـورة مـــريم

الآيـة	رقمها	رقم الصفحة
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ	٣١ – ٣٢	٤٩٧
يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ	٤٢	٣٨٧
هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا	٦٥	٣١٤
وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ	٦٦ — ٦٧	٤٠٤
وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ	٧٦	١٣٠
إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ	٩٣	٣٩١

ســـورة طـــه

الآيـة	رقمها	رقم الصفحة
ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ	٥	٣١٤ ، ٤٨٦، ٥٢٧
إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي	١٤	٢٨٢
إِنَّنِي مَعَكُمَآ	٤٦	٤٨٩
الآيـة	**رقمها**	**رقم الصفحة**
يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ	١٠٩	٣٩٨
وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا	١١٠	٣١٤ ، ٥٢٧
يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ	١٢٠ – ١٢١	١٥٠، ١٩٢
وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ	١٢١	٨٢
فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى	١٢٣،١٢٣-١٢٧	٥ ، ٢٤٤
قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا	١٢٣	١٨٨
فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ	١٢٣	١٦٣
وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي	١٢٤	١٦٩

سـورة الأنبـياء

سـورة الحـج

سورة المؤمنون

سورة النور

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ	٣٥	١٥٥
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ	٣٩ — ٤٠	١٥٥
وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ	٤٠	٥٢٣
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا	٤٣ - ٤٥	٣٦٥
لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ	٦٣	٤٣٤

سـورة الفرقـان

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ	٤ ، ٤ — ٦	٥٦، ١٧٤ ، ٢٨٠، ٤٢٢، ٤٥١
وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ	٥ ، ٥ — ٦	٧٨، ٢٨٠
وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ	٧ ، ٧ — ٨	٢٨٦ ، ٤٢٣
تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ	١٠	٤٢٧
وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ	٢٠	٤٢٤
وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ	٢٧ — ٢٩	٢٤٣
وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ	٣٣	٣٤٣
الآيـــة	**رقمها**	**رقم الصفحة**
وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ	٤١	١٧٠
أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ	٤٣	١٥٧
تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ	٦١ - ٦٢	٣٦٨

سـورة الشعـراء

إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ	٢٧	٢٧٠
قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا	٥٠ — ٥١	١٢٠
فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ	٦٠ — ٦٣	٤١٤

سـورة النـمل

سـورة القصص

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة يــس

سورة الصــافــات

سـورة ص

سـورة الـزمـر

سـورة غـافـر

سـورة فصـلت

ســـورة الشـــورى

ســـورة الـــزخـــرف

ســـورة الجـــاثيـــة

ســـورة الأحقـــاف

ســـورة محـــمد

ســـورة الفـــتح

سورة الحجـــرات

ســـورة ق

ســـورة القـــلم

ســـورة المعـــارج

ســـورة نـــوح

ســـورة الجـــن

ســـورة المدثـــر

سورة عبس

سورة التكوير

سورة المطففين

سورة البروج

سورة الغاشية

سورة الشمس

سورة الليل

إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ	٤	١٤٤

سورة العلق

كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ	٦ – ٧، ٦ – ٨	١٧٩، ١٨٦
كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا..............................	١٥– ١٨	١٨٠

سورة الماعون

فَوَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ	٤	٤٩١
ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ	٥	٤٩١
ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ	٦	٤٩١

سورة الكافرون

قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ	١ – ٦	٨٠

سورة الإخلاص

الآيـــة	رقمها	رقم الصفحة
قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ	١، ١–٤	٣٨١، ٣٩٠، ٥٣٦

سورة الفلق

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ	١ – ٥	٢١٤

٢ – فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث أو الأثر | **رقم الصفحة**

– أ –

– ب –

– ت –

– ج –

– ح –

– خ –

– د –

– ر –

– ق –

– ك –

– ل –

– م –

– ي –

٣ – فهرس الأعلام المترجم لهم

الاســـم **الصفحـــة**

– أ –

– د –

– س –

- ص -

- ع -

- ق -

- م -

- و -

٤ - ثبت المصادر والمراجع

- أ -

١- القرآن الكريم .

٢- الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة : الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق ودراسة: رضا بن نعسان معطى، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م ، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض .

٣- ابن حنبل حياته وعصره — آراؤه وفقهُه : الإمام أبو زهرة ، ط : دار الفكر العربي ، (بدون رقم الطبعة وتاريخها) .

٤- الإتقان في علوم القرآن : الإمام جلال الدين السيوطي ط١ ، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م، مكتبة المعارف ، الرياض .

٥- احتساب الشيخ محمد بن عبد الوهاب : مرفت بنت كامل بن عبد الله ، ط١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، دار الوطن للنشر ، الرياض .

٦- أحكام القرآن : الإمام أبو بكر أحمد بن علي الجصاص ، ط : بدون ، دار الكتاب العربي، بيروت .

٧- الإحكام في أصول الأحكام : الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، المجلد الأول ، ط١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٨- إحياء علوم الدين : الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، الناشر : مكتبة مصر ، ١٩٩٨م.

٩- الأخلاق الإسلامية وأسسها : عبد الرحمن حسن الميداني ، ط١ ، ١٣٩٩هـ، دار القلم، بيروت .

١٠- الأخلاق والسير في مداواة النفوس : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، الناشر : دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

١١- الأداء ، القاموس العربي الشامل : إعداد هيئة الأبحاث والترجمة بدار الراتب الجامعية ، ط١، ١٩٩٧م، دار الراتب الجامعية ، بيروت .

١٢- آداب الشافعي ومناقبه: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أدريس المعروف بابن أبي حاتم الرازي ، تحقيق : عبد الغني ، ط : ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م ، مكتبة التراث ، حلب.

١٣- أدب الدنيا والدين : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، دار إحياء العلوم ، بيروت.

١٤- أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة : د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمـــار، ط٢ ، ١٤١٨هـــ - ١٩٩٧م ، مركز الدراسات والإعلام ، دار اشبيليا ، الرياض.
١٥- الاستقامة : الإمام ابن تيمية ، تحقيق : د . محمد رشاد سالـــم ، ط١ ، ١٤٠٣هـــــ ، دار النشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المدينة المنورة.
١٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر ، تحقيـــق : علي محمد البجاوي ، ط١ ، ١٤١٢هـــ ، دار الجيل ، بيروت .
١٧- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام : الدكتور علي عبد الواحد وافي ، ط: دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .
١٨- الإسلام في قـــفص الاتهام : شوقي أبو خليـــل ، ط٤ ، ١٤٠٠هـــــ ، ١٩٨٠م، دار الفكر، دمشق .
١٩- الإسلام في مواجهة التحديات: د. محمد رأفت سعيد ، ط١، ١٤٠٧هـــــ _ ١٩٨٧م، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة.
٢٠- الإصابة في تمييز الصحابة : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العســقلاني الشـــافعي ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ط١ ، ١٤١٢هـــ ، الناشر : دار الجيل ، بيروت .
٢١- أصناف المدعوين وكيفية دعوتـــهم : د. حمود بن أحمد الرحيلي ، ط١، ١٤١٤هـــ ، دار العاصمة ، الرياض .
٢٢- أصول الدعوة: د. عبد الكريم زيدان، ط٤ ، ١٤١١هـــ ، مؤسسة الرسالـــة ، بيروت .
٢٣- أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة : محمد بن عبد الرحمن الخميس ، (رسالة الدكتوراه قدمت في كلية أصول الدين بجامعة الإمام ، الرياض ، ١٤١١هـــ).
٢٤- أصول الفـــقه الإسلامي : د. وهـــبة الزحيلي ، ط٢: ١٤١٨هـــــ - ١٩٩٨م، دار الفكـــر، دمشق .
٢٥- أصول علم النفس : د. أحمد عزت راجح ، ط : دار القلم ، الكويت .
٢٦- الاعتصام : الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي ، تحقيـــق : سيد إبراهيم ، ط : ١٤٢٤هـــ - ٢٠٠٣م ،دار الحديث ، القاهرة ، مصر .

٢٧- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث : أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق : أحمد عصام الكاتب ، ط١ ، ١٤٠١هـ ، الناشر : دار الآفاق الجديدة – بيروت .
٢٨- إعلام الموقعين : محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي ، شمس الدين ، أبو عبد الله، الشهير بابن قيم الجوزية ، توثيق : صدقي جميل العطار ، ط١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م ، دار الفكر ، بيروت، لبنان .
٢٩- إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، تحقيق: السيد أحمد صقر ، الناشر : دار المعارف – القاهرة .
٣٠- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية : عمر بن علي بن موسى البزار أبو حفص ، تحقيق: زهير الشاويش ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ، الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت .
٣١- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان : ابن قيم الجوزية ، تم التحقيق بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز ، وأشرف على التحقيق حازم القاضي، ط١، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض .
٣٢- آفات على الطريق : د. السيد محمد نوح ، ط : ٧ ، ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م، دار الوفاء للطباعة والنشر ، والتوزيع ، المنصورة ، مصر .
٣٣- الإفادة من مفتاح دار السعادة : ابن قيم الجوزية : ط١ ،١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م، مكتبة الصحابة ، السعودية ، جدة .
٣٤- الإمام الشافعي ، فقيه السنة الأكبر : عبد الغني الدقر ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م ، دار القلم ، دمشق .
٣٥- الإيمان : عبد المجيد بن عزيز الزنداني ، ومجموعة من العلماء ، بدون تاريخ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت .
٣٦- الإيمان بالله : محمد حسن الحمصي ، ط : دار الرشيد ، دمشق ، بدون سنة طبع .

٣٧- البداية والنهاية : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، ط مكتبة المعارف ، بيروت، بدون رقم الطبع وتاريخه .
٣٨- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية ، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا ، وعادل عبد الحميد العدوي ، وأشرف أحمد الج ، ط١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة
٣٩- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع : علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني ، تحقيق : محمد عدنان بن ياسين درويش ، ط٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .
٤٠- براهين وأدلة إيمانية : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ط١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ، دار القلم ، دمشق .
٤١- البرهان في شرح مواهب الرحمن : إبراهيم بن موسى الطرابلسي ، ط: ٩٢٢هـ.
٤٢- البرهان في علوم القرآن : محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١٣٩١ ، دار المعرفة ، بيروت .

- ت -

٤٣- تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي ، ط : ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م ، المطبعة اليمنية ، القاهرة .
٤٤- تاريخ الإسلام : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، أبو عبد الله ، تحقيق : د . عمر عبد السلام تدمري ، ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، دار الكتاب المصري ، لبنان ، بيروت.
٤٥- تاريخ بغداد : أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، (بدون رقم الطبعة وتاريخ النشر).
٤٦- تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ط : ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد .
٤٧- تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية : يوليوس فلهوزن، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ط : ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

٤٨- تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان ، ترجمة : نبيه أمين فارس منير البعلبكي، ط : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٤٩- تاريخ الطبري : الإمام الطبري ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت .

٥٠- تاريخ الخلفاء : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١ ، ١٣٧١هـ ، ١٩٥٢م ، مطبعة السعادة ، مصر .

٥١- تاريخ مدينة دمشق : الإمام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر ، تحقيق : علي شيري ، ط : ٥٧١هـ - ٤٩٩م ، دار الفكر ، للطباعة والنشر والتوزيع .

٥٢- تاريخ عمر بن الخطاب : ابن الجوزي ، تحقيق : أحمد شومان ، ط : بدون، مكتبة المؤيد ، الطائف.

٥٣- تاريخ نجد : روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، لحسين بن غنام ، بتحقيق : الدكتور ناصر الدين الأسد ، ط٣ ، ١٤٠٣هـ ، مطابع شركة الصفحات الذهبية ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٥٤- تبيين كذب المفتري فيما نُسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي ، ط١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، بيروت .

٥٥- التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور ، ط : ١٩٨٤م ، الدار التونسية، للنشر.

٥٦- تذكرة الحفاظ : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، أبو عبد الله ، دار الباز ، مكة المكرمة ، بدون تاريخ .

٥٧- التعريفات : علي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، ط١، ١٤٠٥ هـ ، دار الكتاب العربي، بيروت .

٥٨- تفسير أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : محمد بن محمد العمادي أبو السعود ، ط: بدون ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

٥٩- تفسير البيضاوي : الإمام عبد الله بن عمر البيضاوي ، ط : بدون ، مؤسسة شعبان ، بيروت .

٦٠- تفسير الجلالين : جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ط١ ، دار الحديث ، القاهرة .

٦١- تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير : الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، ط٥ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض.

٦٢- تفسير القرطبي : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله ، تحقيق : أحمد عبد العليم البردوني ، ط٢ ، ١٣٧٢هـ ، دار الشعب ، القاهرة .

٦٣- التفسير القيم : الإمام ابن قيم الجوزية : جمع : محمد أويس الندوي ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، دار الرائد العربي ، بيروت .

٦٤- التفسير الكبير : الإمام فخر الدين الرازي ، ط١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان .

٦٥- تفسير روح المعاني : الإمام أبو السعود الألوسي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٦٦- تقريب التهذيب : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي ، تحقيق : محمد عوامة، ط١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، دار الرشيد ، سوريا .

٦٧- تقريب الوصول إلى علم الأصول : محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي، تحقيق : محمد علي فركوس ، ط : ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، دار التراث الإسلامي للنشر والتوزيع ، الجزائر .

٦٨- تلبيس إبليس : عبد الرحمن بن الجوزي ، ط : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، دار الكتب العربي ، بيروت .

٦٩- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد : الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر الأندلسي ، تحقيق : مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، الناشر : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية .

٧٠- تهذيب الأخلاق : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قراءة وتعليق : أبو حذيفة وإبراهيم بن محمد ، ط١ ، ١٤١٠هـ ، دار الصحابة للتراث.

٧١- تهذيب الأخلاق في التربية : ابن مسكوية ، ط: ١ ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت .

٧٢- تهذيب التهذيب : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ط١ ، ١٤٠٤هـ ، دار الفكر.

٧٣- تهذيب الكمال : يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزني ، تحقيق : د. بشار عواد معروف ، ط١ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٧٤- توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس : الإمام ابن حجر ، تحقيق : أبو الفداء عبد الله القاضي ، ط : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٧٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان :الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، ط٦، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

- ث -

٧٦- الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر : د. صلاح الصاوي ، مطابع أضواء البيان ، الرياض ، بدون تاريخ الطبع .

- ج -

٧٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر ، ط١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، دار هجر للطباعة والنشر ، القاهرة .

٧٨- جامع الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى سورة الترمذي ، ط١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض.

٧٩- الجامع الصغير وزيادته : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط : المكتب الإسلامي.

٨٠- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله : الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي ، تحقيق : أبو الأشبال الزهري ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ ، دار الكتب الإسلامية، مصر .

٨١- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب : السيد أحمد الهاشمي ، ط : دار الفكـــر ، بدون سنة طبع .

٨٢- الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) : عبد الرحمن بن محمد بن مخلـــوف الثعالبي ، الناشر : مؤسسة الأعلمي للمطبوعـــات ، بيـــروت .

- ح -

٨٣- حاشية ابن القيم : الإمام ابن القيم ، ط٢، ١٤١٥هـــ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٨٤- الحجة في تبيـــن المحجة وشرح عقيدة أهل السنة : الإمام أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني ، تحقيق : محمد بن ربيع المـــدخلي ، ط١ ، ١٤١١هــــــ - ١٩٩٠م ، دار الرايـــة للنشر والتوزيع، الرياض .

٨٥- الحديث النبوي وعلم النفس : د. محمد عثمان نجاتي ، ط١ ، ١٤٠٩هـــ، دار الشروق.

٨٦- الحسبة ، تعريفها ، ومشـــروعيتها ، وحكمها : د. فضل إلهي ، ط١ ، ١٤١٠هــــــ - ١٩٩٠م ، إدارة ترجمان الإسلام ، باكستان ، ججرانولـــة .

٨٧- الحسنة السيئة : الإمام ابن تيمية ، التحقيق : محمد عثمان الخشت ، ط١ ، ١٤٠٥هـــ ١٩٨٥م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٨٨- حقوق الإنسان : محمد الغزالي ، ط١ ، ١٣٨٣هـــ - ١٩٦٣م ، المكتبـــة التجاريـــة ، القاهرة .

٨٩- الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى : سعيد بن علي بن وهف القحطاني ، ط١، ١٤١٢هـــ - ١٩٩٢م ، الرياض .

٩٠- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : أبو نعيم أحمـــد بـــن عبـــد الله الأصـــبهاني ، ط٤، ١٤٠٥هـــ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٩١- الحوار بين أهل الحق وأهل الباطل : إعداد : إدارة الأبحاث والنشر بدار الرشاد للنشـــر والتوزيع ، ط١ ، ١٤١٩هـــ - ١٩٩٨م ، الرياض .

٩٢- الحوار مع أهل الكتاب أسسه ومناهجه في الكتاب والسنة : خالد بن عبد الله القاســـم، ط١ ، ١٤١٤هـــ ، دار المسلم ، الرياض .

٩٣- حياة الصحابة : الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ، تحقيق وتعليق : الشيخ نايف العباس ومحمد علي دولة ، ط٦ ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م ، دار القلم ، بيروت .

- خ -

٩٤- خلق لا تطور : تأليف فريق من العلماء ، تعريب : د. إحسان حقي ، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، دار النفائس ، بيروت .

- د -

٩٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور : الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ط١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٩٦- الدر المختار في شرح تنوير الأبصار : محمد بن علي الحصفكي ، ط : ١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م ، مطبعة فتح الكريم .

٩٧- درء تعارض العقل والنقل : الإمام ابن تيمية ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، طبع: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.

٩٨- دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية : د. محمد بن عبد الله دراز، ط: ١٤٠٠هـ ، دار القلم ، الكويت .

٩٩- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: دار الجبل ، بيروت.

١٠٠- الدعوة الإسلامية : أصولها ووسائلها : د. أحمد أحمد غلوش ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، دار الكتب الإسلامية ، لبنان ، بيروت .

١٠١- الدعوة الإسلامية : دعوة عالمية : د. محمد الراوي ، ط٣ ،١٤١١هـ ، مكتبة الرشد، الرياض .

١٠٢- الدعوة إلى الإسلام : توماس أرنولد ، ط : ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

١٠٣- الدعوة إلى الله – خصائصها – مقوماتها – مناهجها ، أبو المجد نوفل ، بدون تاريخ الطبع والناشر .

١٠٤- الدعوة إلى الله تعالى ، ''دراسة مستوحاة من سورة النمل '' : د. عبد الرب نواب الدين آل نواب ، ط١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، دار القلم ، والدار الشامية ، بيروت .

١٠٥- الدعوة إلى الله على بصيرة : الدكتور عبد النعيم محمد حسنين ، ط١ ، دار الكتب الإسلامية المصري اللبنان ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م .

١٠٦- الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل : محمد بن سيدي بن الحبيب ، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م ، دار الوفاء ، جدة .

١٠٧- الدوافع النفسية : د . مصطفى فهمي ، مكتبة مصر ، القاهرة .

١٠٨- دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها : د . عبد الرحمن بن يوسف بن عيسى الملاحي ، ط١، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م، دار عالم الكتب، الرياض، (أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير ، قدمت في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام).

- ر -

١٠٩- الردّ على المنطقيين : شيخ الإسلام ابن تيمية ، ط : دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ الطبع .

١١٠- الردّ على المخالف من أصول الإسلام ومراتب الجهاد : الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، دار العاصمة ، الرياض .

١١١- الرد على الزنادقة والجهمية : الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، أبو عبد الله ، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة ، ط : ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ، دار اللواء ، الرياض ، (بدون رقم الطبع) .

١١٢- الردود : بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط١، ١٤١٤هـ ، دار العاصمة ، الرياض.

١١٣- رسالة التقليد : الإمام ابن القيم ، تحقيق وتعليق : محمد عفيفي ، ط١، ١٤٠٣هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١١٤- رغبة الآمل من كتاب الكامل : سيد بن علي المرصفي ، ط٢، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، مكتبة دار البيان ، بغداد .

١١٥- روح الدين الإسلامي : عفيف عبد الفتاح طبارة ، ط : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

١١٦- روضة الناظر وجنة المناظر: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، تحقيق : د. عبد العزيز عبد الرحمن السعيد ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ ، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض

١١٧- رياض الصالحين : الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ، حواشي : صفي الرحمن المباركفوري ، ط٥ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م ، مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض .

١١٨- الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ط١٤٠٥هـ ، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض .

- ز -

١١٩- زاد المعاد في هدي خير العباد : الإمام ابن قيم الجوزية ، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط وشعيب الأرنؤوط ، ط١ ، ١٣٩٩هـ ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار الإسلامية .

١٢٠- زاد المسير في علم التفسير : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١٢١- زبدة التفسير من فتح القدير للإمام الشوكاني ، اختصار : د. محمد سليمان عبد الله الأشقر ، ط٥ ، ١٤١٤هـ ، مكتبة دار الفيحاء ، دمشق، مكتبة دار السلام، الرياض .

١٢٢- الزهد والرقائق : عبد الله بن مبارك بن واضح المروزي (أبو عبد الله) ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون رقم الطبعة تاريخها .

١٢٣- الزهد والورع والعبادة : الإمام ابن تيمية ، تحقيق : حماد سلامة محمد عويضه، ط١، ١٤٠٧هـ ، دار النشر : مكتبة المنار ، الأردن .

- س -

١٢٤- سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام : محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ، التحقيق : محمد عبد العزيز الخولي ، ط٤ ، ١٣٧٩هـ ، دار إحياء التراث العربي .

١٢٥- السلوك الإنساني : د. انتصار يونس ، ط : ١٩٨٦ م ، مكتبة دار المعارف.

١٢٦- السلوك الإنساني ، تحليل وقياس المتغيرات : د. سعد عبد الرحمن ، ط : بدون ، مكتبة الفلاح .

١٢٧- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط٤ ، ١٣٩٨هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١٢٨- سنن ابن ماجة : أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني ، ط١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض.

١٢٩- سنن أبي داود : أبو داود سليمان الأشعث السجستاني ، ط١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض .

١٣٠- سنن النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي ، ط١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض.

١٣١- سنن الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي ، ط١ ، ١٤٠٧هـ .

١٣٢- سنن الدارقطني : علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي ، تحقيق : السيد عبد الله هاشم يماني المدني ، ط : ١٣٨٦ – ١٩٦٦ ، الناشر : دار المعرفة ، بيروت .

١٣٣- سنن الكبرى : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، ط١ : ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٣٤- السيرة النبوية : عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرؤف سعد ، ٢/ ١٨٧ ، ط١، ١٤١١هـ ، دار الجيل بيروت .

١٣٥- سير أعلام النبلاء : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، أبو عبد الله ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، ط٩ ، ١٤١٣هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

– ش –

١٣٦- شبهات حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : د. فضل إلهي ، ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، الناشر : إدارة ترجمان الإسلام ، جحرانواله ، باكستان .

١٣٧- شذرات الذهب : ابن العماد عبد الحي بن أحمد العكري ، تحقيق وتعليق : محمود الأرنؤوط ، ط١ ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م ، دار ابن كثير ، بيروت .

١٣٨- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة : أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ، تحقيق : أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ، ط : ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض .

١٣٩- شرح الأربعين النووية في الأحاديث النبوية : الإمام أبو زكريا يحي بن شرف النووي، ط٢ ، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م ، دار الصحابة ، طنطا ، مصر .

١٤٠- شرح الأصول الخمسة : القاضي عبد الجبار الهمذاني ، تحقيق : د . عبد الكريم عثمان ، ط١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

١٤١- شرح الشفا شمائل صاحب الاصطفاء للقاضي عياض : الإمام نور الدين القاري، تحقيق : حسنين مخلوف ، ط : بدون ، مطبعة المدني ، القاهرة .

١٤٢- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية : القاضي صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط : ١٤١٨هـ، الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ، الرياض .

١٤٣- شرح العقيدة الطحاوية : القاضي صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، تحقيق : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشعيب الأرنؤوط ، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٤٤- شرح الفقه الأبسط لأبي حنيفة : أبو الليث السمرقندي ، والمطبوع خطأ باسم شرح الفقه الأكبر لأبي منصور الماتريدي ضمن الرسائل السبع في العقائد والصواب أنه شرح الفقه الأبسط ، انظر تحقيق ذلك في مقدمة الكوثري لكتاب العالم والمتعلم، ١٤٠٠هـ ، دار المعارف العثمانية بالهند .

١٤٥- شرح الفقه الأكبر : الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، شرح : الملا علي القاري ، ط١ : ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٤٦- شرح مختصر الروضة : الإمام نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي عبد الكريم بن سعيد الطوفي ، تحقيق : د . عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط١، ١٤١٠هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٤٧- الشريعة : الإمام أبو بكر محمد بن حسين الآجري ، تحقيق : محمد حامد الفقي، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، مطابع الأشرف ، لاهور ، باكستان .

١٤٨- الشفاء بتعريف حقوق المصطفى : القاضي عياض بن موسى اليحصبي ، ط : بدون، مكتبة دار التراث ، القاهرة .

- ص -

١٤٩- صحيح ابن حبان : الإمام محمد بن حبان بن أحمد التميمي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٥٠- صحيح البخاري : الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض.

١٥١- صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط٣، ١٤٠٢هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١٥٢- صحيح مسلم : الإمام الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ط١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض .

١٥٣- صراع مع الملاحدة حتى العظم : عبد الرحمن حبنكة الميداني ، ط٣ ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، دار القلم ، دمشق ، بيروت .

١٥٤- صفة الصفوة : عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي ، تحقيق: محمود فاخوري ، د. محمد رواس قلعه جي ، ط٢ ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، دار المعرفة ، بيروت .

١٥٥- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : الإمام ابن القيم ، تحقيق : د. علي بن محمد الدخيل الله (أصله رسالة الدكتوراه ، للمحقق) ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ، دار العاصمة ، الرياض .

– ض –

١٥٦- ضوابط المعرفة : د. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ط٢ ، ١٤٠١هـ ، دار القلم ، دمشق .

– ط –

١٥٧- طبقات المفسرين : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : علي محمد عمر، ط١، ١٣٩٦هـ ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

١٥٨- طبقات الشافعية : أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة ، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، عالم الكتب ، بيروت .

١٥٩- طريق الوصول إلى العلم المأمول : جمع : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص٩٢، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م ، رمادي للنشر ، الدمام .

– ع –

١٦٠- عبقرية الصديق : عباس العقاد ، ط : المكتبة العصرية ، صيداء ، بيروت .

١٦١- عدة الصابرين : الإمام ابن القيم ، تحقيق : زكريا علي يوسف ، ط : دار الكتب ، العلمية ، بيروت.

١٦٢- العقائد النسفية : نجم الدين عمر النسفي مع شرح التفتازاني لها ، ط : كُتُب خانة إمدادية ، ديوبند ، الهند ، وطبعت ضمن مجموعة النفائس ، بيروت ، لبنان ، مركز خدمات الثقافية .

١٦٣- العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية : أبو عبد الله بن أحمد بن عبد الهادي ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

١٦٤- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم : د. محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي ، ط١ ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م ، دار ابن تيمية للنشر والتوزيع، الرياض .

١٦٥- عقيدة الشيعة ، تاريخ الإسلام في إيران والعراق : دوايت م . دونلدسن ، ط: ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

١٦٦- علماء نجد خلال ستة قرون : عبد الله بن عبد الرحمن بن صـــالح البســـام ، ط١ ، ١٣٩٨هـــ ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، مكة المكرمـــة .
١٦٧- عون المعبود شرح سنن أبي داود : محمد أشرف الصديقي العظيم آبادي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان ، ط٢، ١٤٢١هـــ-٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٦٨- عيون المناظرات : أبو علي عمر السكوني ، تحقيق : ســـعد غـــراب ، ط : بـــدون، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٧٦هـــ .

- غ -

١٦٩- غزو في الصميم : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، ط١ ، ١٤٠٢هـــــ، ١٩٨٢م، دار القلم ، دمشق ، بيروت .

- ف -

١٧٠- فتح الباري : الحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ، تحقيق و تعليق: عبد القادر شيـــبة الحمد ، ط١ ، ١٤٢١هـــ - ٢٠٠١م ، مطبوع على نفقة الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود.
١٧١- فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير : الإمام محمد بـــن علـــي الشوكاني ، ط : دار المعرفة للطباعـــة والنشر ، بيروت .
١٧٢- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهـــاب ، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط ، ط١ ، ١٤٠٢هـــ ، مكتبة دار البيان، دمشق ، بيروت .
١٧٣- الفروق : العلامة شهاب الدين أبو العباس الصنهاجي ، المشهور بـــ "القرافي" ط: دار المعرفة ، بيروت .
١٧٤- الفصل في الملل والأهواء والنحل : أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الظاهري ، تحقيق: الدكتور محمد ابن إبراهيم نصر ، والدكتور عبد الرحمن بن عميرة ، بدون تاريخ ، دار الجيل ، بيروت .

١٧٥- الفقه الإسلامي وأدلته : د. وهبة الزحيلي ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، دار الفكر ، دمشق .

١٧٦- في قفص الاتهام : شوقي أبو خليل ، ط١ ، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ، دار الفكر ، دمشق .

١٧٧- فيض القدير شرح الجامع الصغير : عبد الرؤوف المنادى ، ط ١ ، ١٣٥٦هـ ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر .

- ق -

١٧٨- القاموس المحيط : الفيروز آبادي ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م ، مؤسسة الرسالة، بيروت .

١٧٩- قاموس علم الاجتماع : تحرير ومراجعة : د. محمد عاطف غيث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م .

١٨٠- قواعد ومنطلقات في أصول الحوار وردّ الشبهات : د . عبد الله بن ضيف الله الرّحيلي ، ط١ ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، دار المسلم ، الرياض .

١٨١- القول المفيد على كتاب التوحيد : الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، ط٢، ١٤٢٤هـ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- ك -

١٨٢- كتاب استخراج الجدال من القرآن الكريم : الإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي ، تحقيق : الدكتور زاهر عواض الألمعي ، ط٢ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، مطابع الفرزدق التجارية .

١٨٣- كتاب التوحيد : عبد المجيد بن عزيز الزنداني ، ١٤٠٨هـ ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت .

١٨٤- كتاب الخراج : يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف ، ط : دار المعرفة ، ١٩٧٩م.

١٨٥- كتاب الكبائر وتبيين المحارم : الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ط١، ١٤٠٤هـ مؤسسة الرسالة .

١٨٦- الكشاف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : محمود بـــن عمـــر الزمخشري ، معه حاشية السيد الشريف ، والإنصاف لابن المنير السكندري ، وبآخره تنـــزيل الآيات لمحب الدين ، ط : بدون ، بيانات النشر: بدون .

١٨٧- كشف الشبهات : الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ط : ١١١٥ — ١٢٠٦هـــ، الناشر : وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعوديـــة .

١٨٨- الكافية في علم الجدل : عبد الملك الجويني ، إمام الحرمين ، تحقيق وتعليق : الدكتورة فوقية حسين محمود ، ط ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م ، مطبعة عيســـى البـــابلي الحلـــبي وشركاه ، القاهرة.

١٨٩- الكامل في التاريخ : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بـــن عبـــد الكـــريم الشيـــباني المعروف بابن الأثير ، تحقيق : عبد الله القاضي ، ط٢ ، ١٤١٥هـــــ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

- ل -

١٩٠- لسان العرب : ابن منظور الأفريقي ، ط٣ ، ١٤١٤هـــ ، دار صادر ، بيروت.

١٩١- لسان الميزان : الحافظ أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشـــافعي ،ط٣ ، ١٤٠٦هـــ - ١٩٨٦م ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، المحقـــق : دائـــرة المعرف النظامية — الهند .

١٩٢- الله جل جلاله : سعيد حوّى ، ط٣ ، ١٣٩٩هـــ - ١٩٧٩م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

١٩٣- الله والعلم الحديث : عبد الرزاق نوفـــل ، ط : بدون ، الناشر : مؤسسة دار الشعب، القـــاهرة .

١٩٤- الله يتجلى في عصر العلم ، أشرف علي التحرير : جون كلوقر مونسما ، ترجمة : د. الدمر داش عبد المجيد سرحان ، مراجعة وتعليقات د . محمد جمال الدين الفندي ، ط٣ ، الناشر : مؤسسة الحلبي وشركاه ١٩٦٨م ، القاهرة .

- م -

١٩٥- المبسوط : محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق: محمد راضي الحنفي ، ط : ١٣٣١هـ - ١٩١٢م ، مطبعة السعادة ، القاهرة .
١٩٦- مجموع فتاوى : شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، ط: مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب ، إشراف : المكتب التعليمي السعودي بالمغرب ، مطبوع بأمر الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود .
١٩٧- مجمع الزوائد : نور الدين علي بن أبي بكر الهثيمي ، ط٤ ، ١٤٠٠هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
١٩٨- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين : الإمام فخر الدين الرازي ، الناشر : دار الكتاب العربي.
١٩٩- محيط المحيط : بطرس البستاني ، ط : ١٣٨٧هـ - ١٨٧٠م ، بيروت .
٢٠٠- محنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل : الحافظ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي ، تحقيق : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، هجر : للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان .
٢٠١- مختار الصحاح : الإمام محمد بن أبي بكر الرازي ، ط : دار القلم ، بيروت لبنان .
٢٠٢- مختصر إرواء الغليل : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، المكتب الإسلامي بيروت.
٢٠٣- مختصر سيرة الرسول ﷺ : الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ، مكتبة دار السلام ، الرياض .
٢٠٤- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : ابن قيم الجوزية، تحقيق : محمد حامد الفقى ، ط٢ ، ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣م ، دار الكتاب العربي، بيروت .
٢٠٥- مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام : عبد الرحمن الباني ، ط٢ ، المكتب الإسلامي .
٢٠٦- المدخل إلى النفس : د. ممدوح الكناني ، ود. أحمد محمد الكندري ، ود. عيسى عبد الله جابر ، ود. حسن الموسوي ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م ، مكتبة الفلاح ، بيروت .
٢٠٧- المدخل إلى علم الدعوة : محمد أبو الفتح البيانوني ، ط١٠ ، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة ، الرياض .

٢٠٨- مدخل علم النفس : نوال وزملاؤه ، ترجمة : د. سيد الطواب ، و د. نجيب خـــزام، ط٢ ، دار المريخ ، الرياض .
٢٠٩- المرشد في كتابة الأبحاث : د. حلمي فـــودة ، ود. عبـــد الـــرحمن الصـــالح ، ط٤، ١٤٠١هـــ ، دار الشروق ، دمشق .
٢١٠- المستـــتشرقـــون والسنة : إبراهيم بن حمود بن عبد الله التويجري ، كلية أصول الدين قسم السنة وعلومها ، ١٤٢١هـــ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض .
٢١١- المستدرك على الصحيحين : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، ط١ ، ١٤١١هـــ - ١٩٩٠م ، الناشر : دار الكتـــب العلميـــة ، بيروت .
٢١٢- مسند أحمد بن حنبل : الإمام الحافظ أبو عبد الله أحمد بن حنبل ، ط١٤٢٢هـــــ - ٢٠٠٢م ، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع ، الرياض.
٢١٣- مسند الشافعي : الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت.
٢١٤- مشكاة المصابيح : محمد عبد الله الخطيب التبريزي ، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط٣، ١٤٠٥هـــ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
٢١٥- المصباح المنـــير : العلامة أحمد بن محمد بن علي الفـــيومي المقرئ ، ط٢، ١٤١٨هـــ ، المكتبة العصريـــة ، صيدا ، بيـــروت .
٢١٦- مصنف عبد الرزاق : أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، ط٢، ١٤٠٣هـــ - ١٩٨٣م ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
٢١٧- مطالع البدور في منازل السرور : علاء الدين علي بـــن عبـــد الله الغـــزولي ، ط١ ، ١٢٩٩هـــ ، مطبعة الوطن ، القاهرة .
٢١٨- معالم التنـــزيل : الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغـــوي ، أبـــو محمـــد ، ط : ١٤٠٥هـــ - ١٩٨٥م ، دار الفكر ، بيروت .
٢١٩- المعجزة الكبرى : محمد أبو زهرة ، ط : ١٣٩٠هـــ - ١٩٧٠م ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

٢٢٠- المعجم الفلسفي : جميل صليبا ، ط : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ودار الكتاب المصري ، القاهرة .

٢٢١- المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وزملاؤه ، ط : دار الدعوة ، استانبول، تركية.

٢٢٢- معجم علم الاجتماع : البروفسور وينكن ميثيل ، ترجمة : د . إحسان محمد الحسن ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ، دار الرشيد للنشر .

٢٢٣- معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم : د. محمد فتحي عبد الله ، ط١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية .

٢٢٤- معجم مقاييس اللغة : ابن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ط١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م ، دار الفكر .

٢٢٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، دار الحديث ، القاهرة .

٢٢٦- المغني : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي ، تحقيق : د. عبد الله ابن عبد المحسن التركي ، ود. عبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، هجر للطباعة والنشر ، القاهرة .

٢٢٧- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : الإمام ابن قيم الجوزية ، ط : ١٤٠٢هـ ، النشر : دار نجد طبع دار الفكر ، دمشق.

٢٢٨- مفردات غريب القرآن : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط : دار المعرفة ، لبنان .

٢٢٩- مقارنة الأديان : د. أحمد شلبي ، ط : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

٢٣٠- مقدمة موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول : الإمام ابن تيمية ، ط١ ، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢٣١- الملل والنحل : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تصحيح وتعليق : أحمد فهمي محمد ، ط١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٢٣٢- مناقب أبي حنيفة : الإمام موفق أحمد المكي ، ط : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

٢٣٣- مناقب الشافعي : أبو بكر أحمد الحسين البيهقي ، تحقيـــق : أحمـــد صـــقر ، ط١ ، ١٣٩١هـــ ، دار التراث .

٢٣٤- مناهج البحث العلمي : د. عبد الرحمن بدوي ، ط٣ ، ١٩٧٧م ، دار القلم، بيروت، لبـــنان .

٢٣٥- مناهج الجدل في القرآن الكريم : د. زاهر عواض الألـــمعي ، ط٣ ، ١٤٠٤هـــــ ، مطابع الفـــرزدق التجاريـــة ، الرياض .

٢٣٦- مناهج الدعوة وأساليـــبها : علي جريـــشة ، ط١ ، ١٤٠٧هـــ، دار الوفاء، مصر .

٢٣٧- مناهج وأساليب البحث العلمي – د. ربحي مصطفى عليان ، و د . عثمـــان محمـــد غنيم، ط١ ، ١٤٢٠هـــ ٢٠٠٠م ، دار صفاء للنشـــر والتـــوزيع، عمان ، الأردن .

٢٣٨- مناظرة بين الإسلام والنصرانية : ط١ ، ١٤٠٧هـــ ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الرياض ، المملكة العربية السعوديـــة .

٢٣٩- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظـــيم الزرقـــاني ، ط١، ١٩٩٦م، دار الفكر، بيروت.

٢٤٠- منحة القريب المجيب في الردّ على عباد الصليب : الشيخ عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر آل معمر ، الناشر : دار ثـــقيف للنشـــر والتـــأليف ، ط١ ، ١٣٥٨هـــــ - ١٩٣٩م ، الرياض.

٢٤١- المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه : محمد تقي المدرسي ، ط٢ ، تاريخ الطبع : بدون، دار الجبل ، بيروت .

٢٤٢- المنقذ من الضلال : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، ط : مكتبة ومطبعة محمد علـــي صبيح ، ١٣٩٢هـــ - ١٩٧٢م ، القاهرة .

٢٤٣- منهاج السنة النبويـــة : الإمام ابن تيمية ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد ســـالم ، ط : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١١هـــ - ١٩٩١م .

٢٤٤- المنهاج النبوي في دعوة الشباب : سليمان العيد ، ط١ ، ١٤١٥هـــ ، دار العاصمة، الرياض .

٢٤٥- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج : الإمام أبو زكريا يحي بن شرف النـووي، ط٢ ، ١٣٩٢هـ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيـروت.
٢٤٦- المنهاج في شعب الإيمان : الإمام الحافظ أبو عبد الله الحسين بن الحسـن الحليمـي، تحقيق: حلمي محمد فوده ، ط١ ، ١٣٩٩هـ دار الفكر ، بيروت.
٢٤٧- منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله : د. أحمد بن عبد العزيز الخلف ، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، مكتبة أضواء السلف ، الرياض .
٢٤٨- منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الدعوة إلى الله تعالى : د. عبد الله بن رشيد الحوشاني ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، دار اشبيليا للنشر والتوزيع ، الريـاض . (رسـالة الدكتوراه ، مقدمة في كلية الدعوة والإعلام) .
٢٤٩- منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة : د. محمد بن عبد الوهـاب العقيـل، ط٢ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م ، مكتبة أضواء السلف ، الرياض.
٢٥٠- منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد : عثمان بن علي حسن ، ص٢٥٩، (رسالة الدكتوراه ، قدمت في جامعة الإمام ، بكلية أصول الـدين ، قسـم العقيـدة والمذاهب المعاصرة ، في العام الجامعي : ١٤١٦ – ١٤١٧هـ).
٢٥١- منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان : د. على بـن محمـد ناصـر الفقهيـي ، ط : ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م ، مكة المكرمة ، (الأصل : رسالة ماجستير جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ١٣٩٥هـ).
٢٥٢- منهج القرآن في تربية المجتمع : د. عبد الفتاح عاشور ، ط : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
٢٥٣- المواقف في علم الكلام : عبد الرحمن بن أحمد الأيجي ، الناشر : دار البـاز للطباعـة والنشر ، ط : دار عالم الكتب ، بيروت .
٢٥٤- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصـرة : ط٤ ، ١٤٢٠هـ ، الناشر : دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، الريـاض، إشـراف وتخطـيط ومراجعة : د. مانع بن حماد الجهني .
٢٥٥- موسوعة نجوم الإسلام : أحمد بن سالم بادويلان ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م ، دار طويق للنشر والتوزيع ، الرياض .

٢٥٦- موطأ الإمام مالك : الإمام مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار إحياء التراث العربي ، مصر .
٢٥٧- موقف ابن تيمية من الأشاعرة : رسالة الدكتوراه ، إعداد : عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ، قدمت في كلية أصول الدين ، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام بالرياض ، عام ١٤٠٨هـ.
٢٥٨- موقف الإسلام من نظرية ماركس : أحمد العوايشة ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ، دار مكة للطباعة والنشر ، مكة المكرمة .

- ن -

٢٥٩- نصوص الدعوة في القرآن الكريم .. دراسة تأصيلية : د. حمد بن ناصر بن عبد الرحمن العمار ، ط١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، مركز الدراسات والإعلام ، دار اشبيليا ، الرياض .
٢٦٠- النظرية الخلقية عند ابن تيمية : د. محمد بن عبد الله عفيفي ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .
٢٦١- النهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الأثير ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي ، ط : ١٣٩٩هـ ، المكتبة العلمية ، بيروت .
٢٦٢- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، تعليقات: يسيرة لمحمد منير الدمشقي ، الناشر : إدارة الطباعة المنيرية .

- هـ -

٢٦٣- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى : الإمام ابن قيم الجوزية ، تحقيق وتعليق: الدكتور أحمد حجازي السقا ،دار المطبعة السلفية، القاهرة .

- و -

٢٦٤- واقــع الدعــوة الإسلامية في نيبال في العصر الحاضر : رسالــة الماجستير، للباحث، قدمتُها في كلية الدعــوة والإعلام بجامعــة الإمام بالرياض، في العــام ١٤١٧هـــ .

٢٦٥- الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن أيــبك الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، ط : ١٤٢٠هـــ - ٢٠٠٠م ، دار إحياء التراث، بيروت .

٢٦٦- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير الواحدي) : علي بن أحمد الواحــدي أبــو الحسن ، تحقيق : صفوت عدنان داوودى ، ط : ١٤١٧هـــ - ١٩٩٥م ، دار القلم للنشر ، دمشق ، والدار الشامية ، بيروت .

٢٦٧- وسائل الدعــوة : د. عبد الرحيم بن محمد المغزوري ، ط١ ، ١٤٢٠هـــ - ٢٠٠٠م ، دار اشبيليا ، الرياض .

٢٦٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، ط : ١٢٩٩هـــ ، بمطابع بولاق ، القاهرة .

٢٦٩- Internet (الإنترنت) .

المراجع الأجنبية:

٢٧٠- Arabs in Spain : ستانلي لان .

٥ - فهــرس المــوضــوعــات

التمهيد

الفصل الأول

مفهوم منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات وأهميته وحكمه :

الفصل الثاني

أسباب إثارة الشبهات على الدعوة الإسلامية ودوافعها ومظاهرها :

الفصل الثالث

خصائص منهج الدعوة الإسلامية في الردّ على الشبهات وضوابطه :

الفصل الرابع

آثار الشبهات على الدعوة الإسلامية :

الفصل الخامس

منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة الشبهات وأوجه الاستفادة منها في العصر الحاضر :

الخاتمة

الفهارس